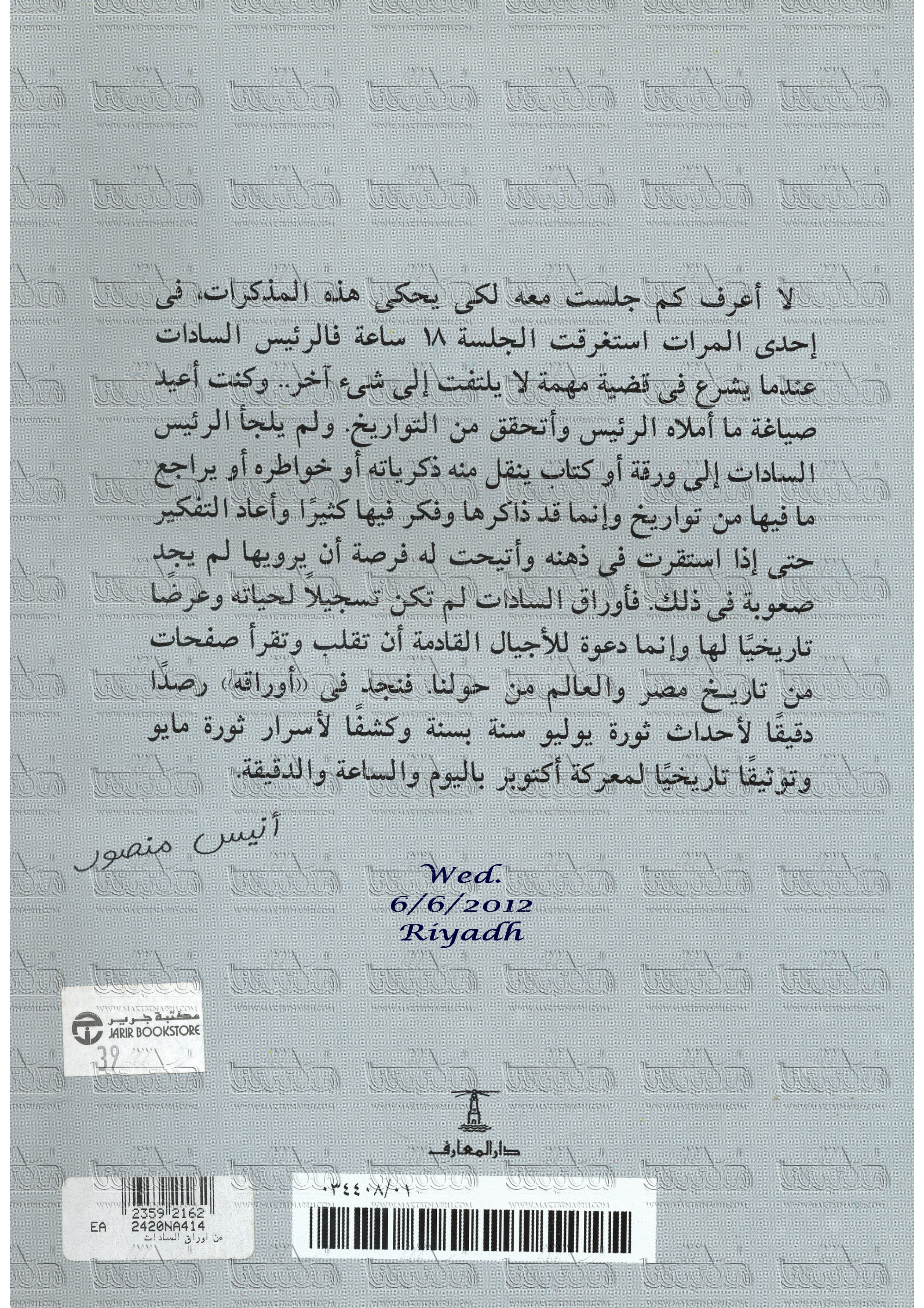

235
أنيس منصور
من أوراق السادات
http://www.maktbtna2211.com/
دار المعارف
Ahmed Mady



لا أعرف كم جلست معه لكى يحكى هذه المذكرات، فى إحدى المرات استغرقت الجلسة ١٨ ساعة فالرئيس السادات عندما يشرع فى قضية مهمة لا يلتفت إلى شىء آخر.. وكنت أعيد صياغة ما أملاه الرئيس وأتحقق من التواريخ. ولم يلجأ الرئيس السادات إلى ورقة أو كتاب ينقل منه ذكرياته أو خواطره أو يراجع ما فيها من تواريخ وإنما قد ذاكرها وفكر فيها كثيرًا وأعاد التفكير حتى إذا استقرت فى ذهنه وأتيحت له فرصة أن يرويها لم يجد صعوبة فى ذلك. فأوراق السادات لم تكن تسجيلًا لحياته وعرضًا تاريخيًا لها وإنما دعوة للأجيال القادمة أن تقلب وتقرأ صفحات من تاريخ مصر والعالم من حولنا. فنجد فى «أوراقه» رصدًا دقيقًا لأحداث ثورة يوليو سنة بسنة وكشفًا لأسرار ثورة مايو وتوثيقًا تاريخيًا لمعركة أكتوبر باليوم والساعة والدقيقة.

أنيس منصور

Wed.
6/6/2012
Riyadh

دار المعارف


سلسلة الحقوق
كتابنا القادم
حق الزوج على زوجته
وحق الزوجة على زوجها
طه عبد الله العفيفي
دار الاعتصام



أنيس منصور

من أوراق السادات

الطبعة الرابعة

دار المعارف

كلمة أولى

لا أعرف كم جلسة مع الرئيس السادات لكي يملي هذه المذكرات!

.. في إحدى المرات استغرقت الجلسة ١٨ ساعة لدرجة أن السيدة جيهان السادات كانت تجيء وتنظر إلينا وتنتظر ولم يكن الرئيس يلتفت. إنما أرادت أن تعرف ما الذى استغرقنا هكذا. فالرئيس السادات عندما يشرع في قضية عامة، فإنه لا يلتفت إلى أي شيء أو أي أحد.

وفي تلك الليلة استخدم الرئيس السادات كل أشرطة الأغاني التي عنده الأشرطة المسجلة عليها الموسيقى والأغاني وطلب المزيد، فراح رجال الرياسة يجوبون شوارع الكورنيش في الأسكندرية يبحثون عن أشرطة جديدة..

وكنت أعيد صياغة ما أملاه الرئيس وأتحقق من التواريخ..

وكان العنوان الذى اقترحه لهذه المذكرات: (الجليد لا يذوب بين موسكو والقاهرة. ولكن السادات قال: ولكننا نريده أن يذوب. ولن تنقطع صلتنا بروسيا. بل نريدها أن تكون أحسن.. ولم يحدث في حياة الرئيسين عبد الناصر والسادات أن لقيا من العذاب والهوان مثل الذى لقياه من الاتحاد السوفيتي. وكان السادات يصف تلك المأساة بأنها (المحنة السوفيتية) وكان يقول: من أجل بلدنا يهون كل هوان شخصي..

وذاكرة الرئيس السادات قوية.. فهو يذكر التواريخ بأيامها. وكانت هذه إحدى الصفات الضرورية التي أشار إليها رئيس وزراء بريطانيا هارولد ولسون في كتابه عن (رئاسة الوزراء) قال: يجب أن يتحلى الرئيس بثلاث: أن يكون قوى الذاكرة، وأن يكون لديه إحساس بالتاريخ وبدوره هو في التاريخ، وأن ينام بعمق.

وكانت كل هذه الصفات عند الرئيس السادات.

وكان يقول إن الفرق بينه وبين الرئيس عبد الناصر: أن عبد الناصر قد وضع تليفونات كثيرة على مكتبه والراديو.. ولذلك فهو متوتر دائما وينتظر الأخبار المحلية والدولية. يصحو وينام عليها. أما السادات فليس له مكتب. إنه جالس هناك في الحديقة بعيدا عن التليفونات.. عن شدة الأعصاب..

وأذكر واقعة غريبة أثناء تسجيل هذه المذكرات قال لى الرئيس: حسن ابراهيم صاحبك؟

قلت: أيوه يا ريس..

- كويس. اسأله عن واقعة حصلت فى العريش قبل الثورة بثلاثة أيام. فقد انتحى جانبا من المطار وراح يتكلم مع جمال سالم. فماذا كان يقول له؟!

سألت حسن ابراهيم قال: إنه لا يذكر ذلك..

عدت إلى الرئيس السادات فقال: غريبة!

قلت لحسن ابراهيم: السادات يقول غريبة.. فقال غريبة أننى أنا لا أذكر ولا غريبة أنه يذكر..

وعاد السادات يقول لى: اسأل حسن ابراهيم مرة أخرى.

قلت: يا حسن بك الرئيس مُصِرٌ أن يعرف.

فقال لى إنه سأل زوجته إن كان قد أخبرها بهذا اللقاء مع جمال سالم وإن كان قد قال لهما شيئا. فقالت: لا أذكر شيئا من ذلك.

عدت إلى الرئيس فقال: عجيبة! اسأله مرة أخرى!

فقلت لحسن ابراهيم: الرئيس مندهش جدا كيف لا تذكر شيئا من ذلك!

فقال لى حسن ابراهيم: لكى أريح السادات قل له إننى كنت أقول لجمال سالم: إياك أن يفوتك فيلم (غراميات كارمن) بطولة ريتا هيوارث المعروض فى سينما ستراند..

وقلت للرئيس الذى توقف لحظة وقال: لا.. فيلم ريتا هيوارث لم يكن معروضا فى استراند إنما كان فى سينما الجزيرة. الفيلم الذى كان فى سينما استراند هو فيلم (كاوبوى) !!

ولم يجد السادات فى هذا كله إجابة عن سؤاله فهو لديه واقعة لم يعرف حقيقتها أكثر من ثلاثين سنة. لكنها لا تزال فى ذاكرته فى حاجة إلى إجابة. ولم يكتف الرئيس بذلك وإنما قال لى: «سيب حسن ابراهيم دلوقت وابقى اسأله بعد كده وانتم قاعدين بتاكلوا. ما تنساش يا أنيس»..

ونقلت إلى حسن ابراهيم ما قاله السادات فقال: شىء عجيب. على فكرة السادات ذاكرته قوية جداً. نحن كنا نسأله عن وقائع صغيرة. فكان يذكرها باليوم والساعة. وعلى كل حال إن سألك السادات فقل له: إن حسن ابراهيم كان يقول لجمال سالم: يا ابن الـ... هاها!

وقلت للرئيس إن حسن ابراهيم يقول كذا.. ولم يضحك السادات ولكن قال:

شىء غريب ألا يذكر ذلك.. ثم اتجه إلىّ قائلاً:

ولا انت إيه رأيك يا أنيس.. غريبة قوى!

ولم يلجأ الرئيس السادات إلى ورقة أو كتاب ينقل منه بعض ذكرياته أو خواطره أو يراجع ما جاء فيها من تواريخ. وإنما قد ذاكرها وفكر فيها كثيراً وأعاد التفكير فيها حتى استقرت فى ذهنه. فلما أتيحت له فرصة أن يرويها لم يجد صعوبة فى ذلك..

وكان هدف الرئيس أن يلفت نظر الشباب وهو يحكى الصعوبات التى تواجه السياسى المسئول حين يتعرض لقضايا معقدة وخطيرة على بلاده ومستقبل أبنائه..

وتمنى السادات أن تكون هذه المذكرات فى تناول كل الناس. ولا يسعنى إلا أن أشكر صديقى الأستاذ إسماعيل منتصر رئيس مجلس إدارة دار المعارف ومجلة أكتوبر أن حقق أمنية الرئيس السادات فقرر أن

يجعلها كتابا. واشكره إن قبل عذرى فقد تأخرت فى كتابة هذه المقدمة بينما الكتاب قد أعد للطبع منذ سنوات.. كانت سنوات مرضى وسفرى المتكرر وانشغالى بأعمال أدبية وكنت أحتشد لأكتب دراسة طويلة عن صحبة الرئيس السادات الغنية بالأحداث والمعانى والمشكلات وكيف جاءت فكرة المذكرات. وكيف تناقشنا فيها طويلا. وكنت قد عرضت على الرئيس أن أجعلها ضمن كتاب عن حياته والسياسة. ولكنه شاء أن تكون هدية منه لمجلة أكتوبر الوليدة وأن تنفرد بها دون كل المجلات والصحف..

كما أن الرئيس السادات طلب منى ألا أنشرها فى أية صحف أخرى حتى لو أرادت أن تشتريها.. ولكن إذا (سرقتها) أى نشرتها بعدنا دون إذن منا. فليكن! وقد طلبت بعض دور النشر أن تحصل على هذه المذكرات أولا بأول فاعتذرت..

وقد حدث أن توسط الرئيس عيزرا فيتسمان لدى إحدى دور النشر البريطانية بشرط أن أكتب لها مقدمة. واتصلت بى دار النشر البريطانية. ووافقت. وتلقيت خطابا منها تقول فيه: إنها تريد أن أجيب عن هذه الأسئلة. ووضعت عشرين سؤالا عن قضايا سياسية مهمة. وأعجبتنى الأسئلة. وشجعنى الرئيس على الإجابة عنها. بل وطلب أن يجيب هو عنها. وأشار إلى أن أستعين بالسيد اسماعيل فهمى وزير الخارجية إذا احتجت إليه. وأن أطلب من المخابرات العامة أن تساعدنى إذا أردت..

وقد رأى الرئيس السادات فى هذه الأسئلة الوجيهة فاتحة للشهية. وأن الإجابة تحتاج إلى كتاب. فليكن كتابى أنا.

وأثناء رحلات الرئيس السادات إلى الخارج كان يفكر فى هذه المذكرات وفى إكمالها أو الإضافة إليها قبل نشرها..

وكان يسأل عن ردود الفعل: من قرأها؟ وماذا قال عنها؟

فقلت للرئيس: إن السفارة التركية كانت قد أرسلت خطابا طويلا تشكر الرئيس على الإشارة والإشادة بالزعيم كمال أتاتورك..

وإن أحد الصحفيين الروس سألنى: فى تقديرى كم أسبوعا تستحق هذه المذكرات. وهل من الممكن الرد عليها أو التعليق..

فقلت: بكل سرور. ويسعدنى ذلك..

ولما قلت له: إن عيزرا فايتسمان هو الذى قال لإحدى كبريات دور النشر البريطانية أن تلاحقنى قبل أن تتعاقد دار نشر أخرى. أسعده ذلك. وقال إن هذه الدار البريطانية الشهيرة هى التى ستنقلها إلى لغات أخرى..

وقلت له إن إحدى صحف الكويت طلبت منى نقلها مقابل مبلغ من المال. فقال: الفلوس لا تهم. المهم أن تنشرها كما هى.. ونشرت المذكرات. ولم تدفع!

وقد فكر الرئيس السادات فى ذلك الوقت فى كتاب يتحدث فيه عن السلام فى التاريخ وفى الأديان السماوية الثلاثة. وطلب منى أن أنشغل بذلك حتى إذا تهيأت تماما جلسنا معا.

وبسرعة ذهبت إلى أبعد من ذلك وبدأت فى إعداد كتاب شغلنى عن أعمالى الأدبية. فلم يصدر لى فى ذلك الوقت سوى كتابين أحدهما: (على رؤوس العباد) ثم كتاب (فى صالون العقاد كانت لنا أيام) الذى وصفه السادات بأنه أعظم وأروع ما قرأ..

وكان هذا رأى عدد كبير من المفكرين فى مقدمتهم الأستاذ أحمد بهاء الدين الذى أرسل لى برقية من الكويت يقول فيها: لابد أنك تعرف تماما خطورة ما كتبت. وأهمية هذا الكتاب الذى هو أروع ما صدر فى خمسين عاما..

وقد سجل الرئيس السادات رأيه فى هذا الكتاب الذى نشرته مسلسلا فى مجلة (أكتوبر) على شريط. ووعدنى الناشر الكبير إبراهيم المعلم بطبع هذا الكتاب ومعه هذا التسجيل بصورة الرئيس السادات. وقد سمع هذا التسجيل أستاذنا د. لويس عوض والصديق الأديب ثروت أباظة والرئيس نميرى الذى أبدى أسفه أنه لم ينتظم فى حضور جلسات الأستاذ العقاد. وطلب منى أكثر من مرة أن أروى جلسات حضرها وكان قد نسيها..

إنها سنوات استغرقتنى فيها العمل فى مجلة (أكتوبر) الوليدة.. ومجلة أخرى وليدة هى (وادى النيل) وما يكلفنى به الرئيس السادات من مهام متعددة.. شغلتنى تماما عن أن ألتفت إلى أفكارى ومشاريعى الأدبية والفلسفية.

ومما أخجل زملائى من الصحفيين مرتبى كان ٤١٦ جنيها شهريا. لماذا؟ لقد ترسب فى دماغى أن أحدا فى الدولة يجب ألا يزيد مرتبه على ذلك. فمن أين استقيت هذه المعلومة؟ لا أعرف. وظل مرتبى هكذا بينما أنا أوافق على علاوات لمن هم دونى تصل إلى ما يعادل مرتبى مرة ومرتين وزيادة. ولم أنتبه إلى حقى فى أن أتقاضى علاوة سنوية!

فقد كان نائبى يتقاضى ثلاثة أضعاف مرتبى. ولم يخطر ببالى أن ألتفت كل هذه السنوات إلى زيادة مرتبى. وبعد عشرين عاما سألت سكرتيرى: ولماذا لم تنبهنى إلى زيادة مرتبى أو تعديله. فكان جوابه عجيبا: لقد ظننا جميعا إن سيادتك لا تريد فلوسا!

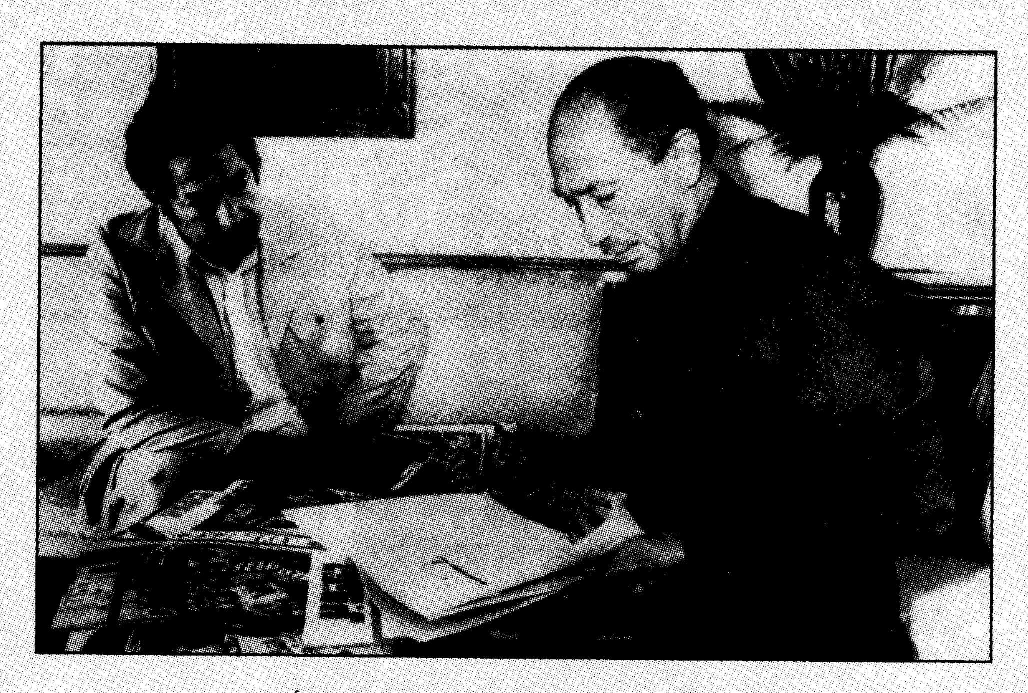
تصور!

هكذا كنت مشغولا عن كل شئ آخر..

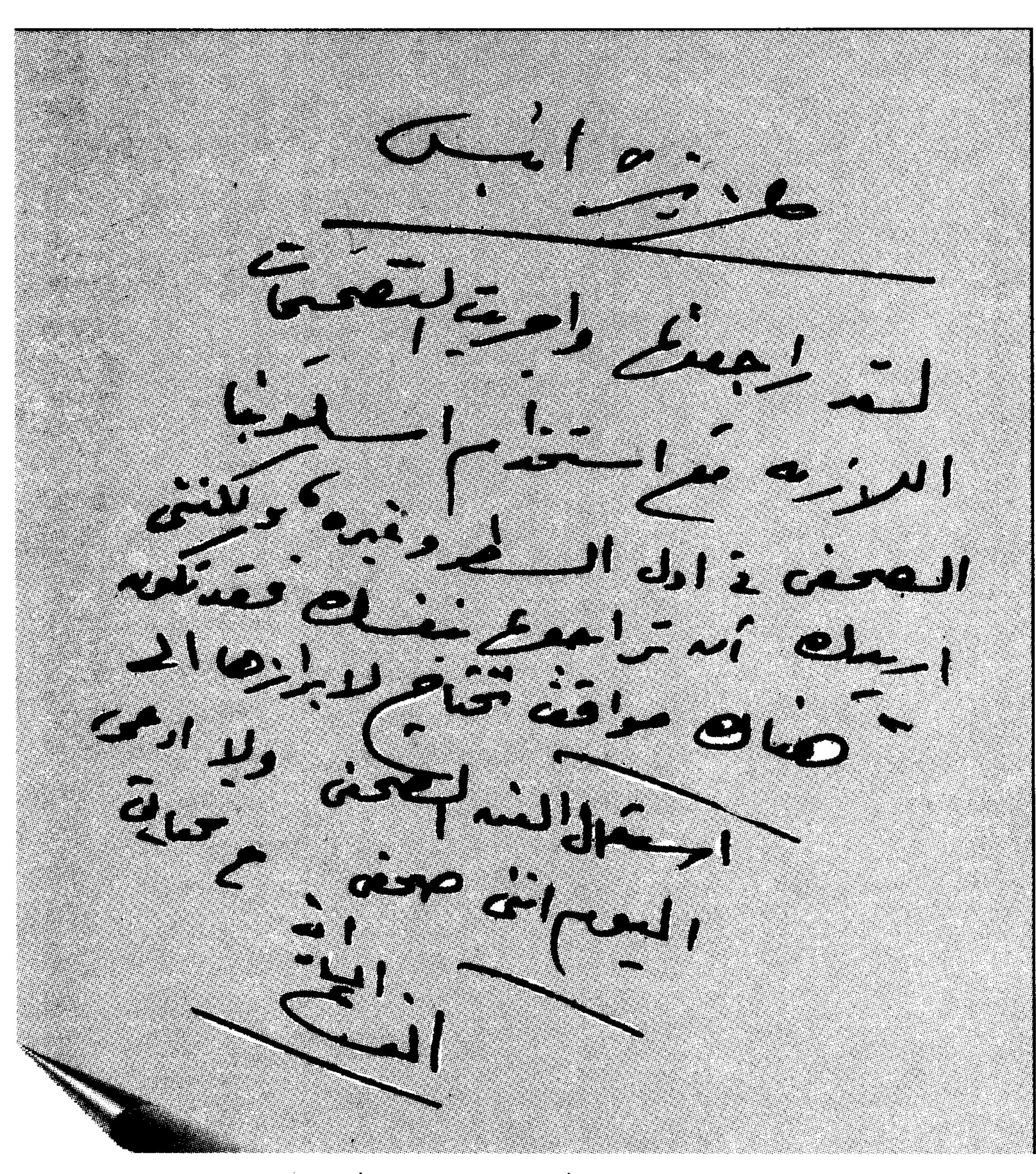
وأشياء مادية أخرى انشغلت عنها تماما. ولست آسفا على ذلك. فالفلوس لاتهم.. لا كانت ولا تزال..

وأرجو أن أكون قد أرحت الأستاذة «منى خشبة» مدير عام النشر، التى لاحقتنى برقة وأدب وأكاد أرى من صوتها الدموع فى عينيها. وأرجو أن تكون هذه الأوراق كافية لتجفيف دموعها والاعتذار لها..

انيس منصور



أنيس منصور مع الرئيس السادات ومتابعة دقيقة للأعداد الأولى من مجلة أكتوبر التى أختصها السادات بكتابة مذكراته



عزيزي أنيس

السادات

بعث الرئيس السادات بهذه الكلمة لأنيس منصور بعد مراجعة الأعداد التجريبية للمجلة حرصا منه على أن تصدر قوية مناسبة لانتصارات حرب أكتوبر



الذئب الرمادى

- أتاتورك .. النجم الصاعد الذى تطلعت إليه وحاز إعجابى .
- علاقتنا بالروس كالسحب الكثيفة إذا سقطت مطرا صفت السماء ولكن غرقت الأرض .
- قلت لحسن البنا : إن تنظيمنا من أجل مصر وحدها وليس من أجل هيئة أو حزب .
- عندما أردنا أن نشترى السلاح من السوفيت جاء رد ستالين : نأسف حتى لا تحاربونا به .

أريد أن أصور لنفسي كيف تجمعت في رأسي وقلبي الأفكار والأحلام منذ طفولتي.. وتبلورت بعد ذلك في معان واضحة ومحددة. أو في معان أحاول أن أوضحها. أملا في أن أحقق شيئًا من ذلك.. تماما كما تتصاعد أبخرة المياه وتتحول إلى سحب.. والسحب تجيء من أماكن بعيدة ثم تهبط مطرًا.. أو كما تتساقط الأمطار في أعالي النيل وتتحول إلى جداول صغيرة.. والجداول تتحول إلى أنهار صغيرة.. ثم إلى نهر النيل العظيم .. كذلك كانت أفكاري وأحلامي .. كلها جاءت من سنوات طفولتي البعيدة. ثم تدافعت واحتشدت واتجهت بي واتجهت بها إلى العمل في السياسة والمشاركة في الحياة العامة، أو محاولتي أن أفعل ذلك..

وكل إنسان تكون آماله وهمومه الكبرى في عقله.. وفي وجدانه هكذا..

أقول هذا وأنا أحاول أن أجسم أمام نفسي وأمام الأجيال الشابة كيف كانت اهتماماتي بالحياة العملية في سن صغيرة. فالأحداث كانت من حولي كثيرة، والناس يتكلمون عنها ويشعلون خيالنا.. فنتساءل ونحاول أن نعرف.. معتمدين على قدراتنا الصغيرة وعلى ثقافاتنا الضئيلة .. وليس في قلوبنا إلا الإيمان بالله وحب مصر. فأنا ريفي، ولاأزال. وأكرر ذلك كثيراً. ولذلك فأنا شديد الإيمان، وشديد التمسك بالقيم الأخلاقية، وبالأرض. ولا أستطيع أن أحتمل من يمس ديننا وتقاليدنا العريقة أو يدوس أرضنا.. وكان الانجليز يحتلون أرضنا من عشرات السنين. وربما كان سبب تكراري لهذه المعاني، أن لدي ما أعتز به، وما أدعو الناس أن يفعلوه مثلي. فالذي تملكه مصر. أم الحضارة شيء كثير نفخر به ونتباهى به بين الأمم..

ولما جاء والدي من السودان مع الجيش المصري سنة ١٩٢٤، كنت مازلت في قريتنا «ميت أبو الكوم».. وأخَذَنَا والدي.. أخي وأنا إلى القاهرة لنكمل دراستنا. وسكنت في بيت في القبة. القاهرة كبيرة، والدنيا كبيرة، والناس كثيرون. وما يملأ العين متنوع، وما يملأ الرأس لا حدود له، وما يوقظ الوجدان يتجدد يومًا بعد يوم..

ولما انفتح باب بيتنا فى القاهرة .. تدفقت على رأسى دنيا جديدة، كانت على الحائط صورة. الصورة مفاجأة بل إن الصورة كانت دعوة إلى وليمة تاريخية شهية. شيء غريب. فلم تكن صورة لمصطفى كامل الزعيم المصرى، ولا صورة للملك. ولا حتى صورة لمنظر جميل من تلك التى اعتادت بيوتنا أن تزين بها الجدران أو تخفى تحتها الجدران.

لقد كانت صورة الزعيم التركى مصطفى كمال أتاتورك!

كانت مفاجأة ما أزال أحس بها حتى الآن. فلقد هزتنى بعمق فانطلق خيالى بعيداً، ورحت أسأل أبى والناس. وقد سمعت من والدى رحمة الله عليه الشيء الكثير عن هذا الزعيم الإسلامى. سمعت الأعاجيب والأساطير أيضا عن أتاتورك.

وصناعة الأساطير صناعة شعبية عريقة. فمن عادة الشعوب أن ترتفع بأبطالها. كأنما ذلك نوع من الامتنان لهم، فالأبطال يرفعون الشعوب، والشعوب ترفعهم أيضا، وتبالغ فى ذلك..

ولكن أتاتورك هذا قد التفت حوله آمال المسلمين الذين يحلمون بالتخلص من سلطان العثمانيين. وأتاتورك هو هذا الشاب المتحمس القوى الشجاع العنيد أيضا. فقد اشترك فى الجيش العثمانى فى ليبيا وفى فلسطين .. ولم يغب عن عينيه أن القوات اليونانية تحتل أزمير، وقوات الحلفاء تحتل الأناضول.. ومازال أتاتورك ينظم صفوف مؤيديه حتى كان له جيش.. فلابد من القوة لتطبيق الفكرة. هذا شرط.

واستطاع أن يجلى القوات الأجنبية وأن يطرد السلطان محمد السادس وأن ينهى السلطنة ويعلن الجمهورية. واتجه إلى الغرب وأسفرت المرأة عن وجهها. ومن وراء هذا كله تطلع العالم الإسلامى إلى هذا النجم الصاعد.

ولم تكن قراءاتى فى هذه السن الصغيرة تسعفنى، فما الذى أستطيع أن أفعله؟ أو ما الذى يستطيع أن يفعله أعظم المفكرين السياسيين إذا لم تكن لديه قوة لتحقيق أحلامه.. لا بد من قوة تسند الفكرة وترعاها وتحميها وتدفعها إلى مراحل من الحياة والحيوية.. لا بد، ولا أعرف كيف زارتنى هذه الفكرة .. لعلى أكون قد تركتها فى مكانها، ومضيت فى حياتى أدرس.. ككل مواطن عادى.

وحدث شيء آخر شغلنى وقتاً طويلاً، فعندما تخرجت فى الكلية الحربية سنة ١٩٣٨ كانت الدنيا فى حالة من الرعب بسبب هتلر. إنه الزعيم النازى الجديد، والعالم كله يتحدث عن الحرب واقتراب وقوعها. وفى ذلك الوقت حدثت أزمة ميونخ. فهتلر قد قرر أن يحتل جزءاً من تشيكوسلوفاكيا. ووافقت إيطاليا وبريطانيا وفرنسا على ذلك.. وعاد هتلر يطلب المزيد

من الأرض، واعترضت بريطانيا.. وأخيراً اضطرت بريطانيا أن تبعث بتشمبرلين. ووافقت بريطانيا وفرنسا على مطالب هتلر. وأحس تشمبرلين أنه قد انتصر. وأنه حقق السلام للعالم كله.. ولما عاد إلى بريطانيا قال للشعب الانجليزى: لقد جئت لكم بالسلام والشرف.

ورأى المؤرخون أن تشمبرلين قد أجل نشوب الحرب العالمية.. ورأى مؤرخون آخرون أن بريطانيا وفرنسا لو كانتا قد اعترضتا هتلر، لعدل عن الحرب نهائياً ولكن تخاذل تشمبرلين هو الذى أغراه بأن يذهب إلى أبعد مدى، وكان تشرشل هو الذى اعترض على تشمبرلين قائلا: لقد كان على بريطانيا أن تختار بين الحرب والعار. ولقد اخترنا العار. وسوف يفرض علينا القتال. وصدقت نبوءة تشرشل بعد ذلك بقليل.. وفى هذا الجو المكهرب فى العالم كله، وزعونا نحن الضباط الجدد لحراسة المرافق العامة فى القاهرة.

ومن المؤكد أن مثل هذه الأحداث الصارخة تهز خيالنا كشبان وتجعل السؤال الملح على رءوسنا يتجدد ويكون أكثر وضوحاً وبروزاً، ما الذى نستطيع أن نفعله؟

أعود إلى أتاتورك. إنه لم يستطع أن يحقق شيئاً دون أن يكون هناك جيش، ولا بد أن يكون هذا تفكير الشبان فى مصر كذلك.. فالانجليز يحتلون أرضنا، والساسة يتاجرون بالسياسة ويقدمون لنا طعاماً فاسداً من أفكارهم وسلوكهم.. إنهم أسوأ الأمثلة التى تعثرنا بها فى حياتنا المبكرة، ونحن فى ذلك الوقت نقرأ التاريخ، ونقرأ عن الزعيم المصرى مصطفى كامل. ونحن أطفال كنا ننام على مواويل زهران وعلى دنشواى وعلى مواويل أدهم الشرقاوى.. وكلها طلقات من نار.. موجهة ضد قوات الاحتلال البريطانية.

ولم يعد شيئاً غريباً وقد امتلأ عقلى والتهب خيالى وازدحم وجدانى. أن أفكر فى عمل شىء ولقد اتصلت بجميع الأحزاب السياسية. هذا بعد أن تخرجت فى الكلية الحربية. أما أثناء التحاقى بالكلية، فلم أذهب إلى أى حزب.. اللهم إلا حزب «مصر الفتاة» دخلت مصر الفتاة وكنت أتلقى تدريبات عسكرية فى عمارة فى العتبة، وفى بلكونة كبيرة تطل على سوق الخضار، وفى البلكونة كانوا يدربوننا على المشية العسكرية.

وخشيت فى ذلك الوقت أن يقوم البوليس بتفتيش مركز مصر الفتاة فيجدوا استمارتى ويجدوا اسمى وأنا ما أزال طالباً فى الكلية الحربية.. لحسن الحظ لم يحدث شىء من ذلك.

ولكن بعد تخرجى فى الكلية الحربية ازداد قلقى، وبدأت أطاوع قلبى ذهاباً وإياباً إلى الأحزاب السياسية، أحاول أن أجد تفسيراً أو راحة لما يدور فى نفسى. إننى أحاول أن أجد صيغة فكرية تريحنى، أو أجد شخصاً يدلنى على المعنى الذى يشغلنى.

وكان أول عمـل محدد إيجابى قمت بـه هو أننى اتصلت بعزيز المصرى، وكان شـريكاً لأتاتورك فى تركيا وهو لذلك يتمتع بسـمعة عظيمة جداً، وقد شـارك فى إنشـاء جمعيات عربية كثيرة، عندما كان العالم العربى يغلى بالثورة ضد الأتراك. أو ضد تركيا التى أسموها فـى ذلك الوقت بالرجل المريض.. وهذا الرجـل المريض احتاج من أتاتورك إلى الكثير من القوة لينهض هذا المريض ويصبح شابًا يلحق بركب الحضارة الغربية، ويستدرك ما فاته فى ظل السلطنة العثمانية.

وبعد ذلك اتصلت بالإخوان المسلمين، كل ذلك وغيره، حدث بعد أن تخرجت فى الكلية الحربية، وكان اتصالى بالشـيخ حسن البنا فقط وناقشته كثيرا. واختلفنا هو يريد أن ينطوى تنظيمنـا فى الجيش تحت أجنحة الإخوان المسـلمين. وكان هدفنا فى الجيش أن ننتظم وأن نعمل من أجل مصر. وقلت للشيخ حسن البنا: أحب أن أواجهك بصراحة، لقد قررنا أن يكون تنظيمنا من أجل مصر وحدها. وليس من أجل هيئة أو حزب أو شخص.

كان ذلك سنة ١٩٤٠. وقد ألقى القبض علىَّ بعد ذلك سنة ١٩٤٢ ودخلت المعتقل.

ولما جاء جمال عبد الناصر من السودان التقى بالشيخ حسن البنا وصارحه بنفس الموقف وظل هذا موقفنا منذ ذلك الحين حتى اليوم. ومن المؤكد أن هذا الموقف أو هذه الفلسـفة من أعظـم ما نفخر به.. فحركتنا كانت مصرية قوميـة. وأعتقد أننى أصلحت بعض «اللخبطات» التى وقعت فى الفترة الماضية، وأزلت كل شبهة..

وكل شىء واضح تماماً الآن: من نحن وماذا نعمل ومن أجل من وفى سبيل أية غاية.

وتوالت اتصالاتى بالهيئات والأحزاب، أريد أن أعرف ما الذى يفكر فيه الآخرون من أجل أن يعملوا ما ينفع مصر. ثم طردت من الخدمة العسـكرية. واعتقلت وأفرج عنى.. وسـجنت وأفرج عنى.

وعندمـا ألـف على ماهر هيئة حزبية وكان مقرها فى شـارع قصـر النيل، كنت أول من دق الباب. وبنفس السـرعة والحماس الذى دخلت به، خرجت أيضا. فلم أجد ما يريحنى، وأدرت رأسـى أبحـث عن اتجاهات أخرى، أو عـن مصدر لفكر جديـد أو ينابيع جديدة أو رياح منعشة..

ولكنـى أقرر هنا أننى لم أتصل بأى تنظيم شـيوعى، ربما مرة واحدة.. فقد أخبرنى أحد الزملاء أن هناك مركزاً فى شارع المبتديان.. وهذا المركز عبارة عن قاعة للمحاضرات.. وأنه لا مانع أن يذهب الإنسان ويستمع إلى ما يقوله الآخرون.

وقال لى زميلى هذا: أنت شاب وتشتغل بالفكر السياسى. وفى حالة قلق. وتريد أن تعرف وأن ترسو سفنك على بر الأمان. اذهب واسمع. وفكر، وقرر بعد ذلك.

وذهبت. ودخلت. وكانت القاعة صغيرة الجدران مغطاة بصحف الحائط. وكان هناك من يقرأ ما جاء فى هذه الصحف. واستشرت وجدانى. وأحسست أن هناك شيئا مريباً. هناك شيء غير طبيعى.

.. وبعد أيام قليلة جاء البوليس وحاصر المكان وهاجمه وقبض على الناس وعلى صحف الحائط، - ولستر الله - لم يكن البوليس يراقب المكان يوم ذهبت إلى هناك.. وإلا كانوا اعتقلونى. ولم يكن من الصعب أن أدرك أنها خلية شيوعية.

ولو سألت نفسى ما هى بالضبط معلوماتى عن الشيوعية فى ذلك الوقت لكان جوابى فى مثل هذه السن، لم تكن ثقافتى واسعة، ولكن آمالى واسعة وعريضة.. والمسافة ما تزال كبيرة بين الذى أحلم به وبين الذى أقدر عليه.. ومن هنا كان إعجابى بأتاتورك الذى لم يحقق ما كان يحلم به إلا مستعيناً بالجيش..

وقد شغلنى كمال أتاتورك كزعيم ومثل أعلى.. وفى ذلك الوقت كنت أقرأ كتابا عنه اسمه «الذئب الرمادى» من تأليف أرمسترونج، وهذا الكتاب تحفة أدبية فأسلوبه سهل، ويستطيع من هو فى سنى وعنده مثل معلوماتى الإنجليزية المحدودة، أن يقرأه ويستمتع، ولم تكن لغتى الإنجليزية قد أصبحت قوية بعد، وإن كانت قد تحسنت بسبب ميلى الشديد للغات التى تعلمتها وراء القضبان..

وهذا الكتاب كان كنزاً وقع فى يدى. أو كنزاً وقعت أنا عليه. واستحوذ هذا الكتاب على خيالى وقد حدث أن كنت مبعداً فى الصحراء الغربية بأمر من المخابرات المصرية والبريطانية. أثناء الحرب العالمية الثانية فى منطقة اسمها الجراولة جنوب مرسى مطروح ولكن هذا الكتاب هون علىَّ هذه الوحدة الأليمة فى هذه المنطقة الصحراوية. وأذكر أننى بلغت منتصف الكتاب سعيدا بما أقرأ وما أرى، وسعيدا بالعالم الباهر الذى وضعه المؤلف أمام عينى .. واستدعونى لأن لى صلة بعزيز المصرى الذى سقط بطائرته عند قليوب ومعه اثنان من الطيارين هما: حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرءوف.

وحملونى فى سيارة ماركة فاجور صغيرة من مرسى مطروح. وكانت سرعتها لا تزيد على ستة كيلو مترات، نمت فيها طول الليل، وصحوت من النوم لأجد السيارة قد شردت فى الصحراء. ولكن حمدا لله أنها لم تصطدم بسيارة أخرى.

وكانت رحلة شاقة. ووصلنا إلى الجيزة. وضابط الحرس المرافق لى أجرى اتصالاً تليفونياً. وكانت الأوامر التى لديه أن يأتى بى فوراً إلى وزارة الحربية. وهناك وضعونى فى غرفة سكرتير وزير الحربية. ولم أذهب إلى البيت لأغير ملابسى أو أغسل وجهى. وجلست على مقعد. وفتحت كتاب «الذئب الرمادى». ومضيت أقرأ مستغرقاً تماماً. أعوض ما فاتنى فى تلك الليلة الأليمة. ولم أدر أن باباً قد انفتح وأن أحداً وقف ينظر ناحيتى. وحدث ما يحدث لكل إنسان عادة عندما ينظر إليه أحد دون أن يدرى.. وبسرعة يرفع رأسه ليجد هذا الذى ينظر إليه. وفعلت كذلك ووقفت بسرعة وأعطيت التعظيم العسكرى التمام وألقيت الكتاب إلى جانبى. ولم يكتف هذا الذى عظمته بهذه النظرة الكاسحة وإنما قال: هو ده أنور السادات!

وخرج وعرفت أنه إبراهيم عطا الله رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية، ولم يكلف هذا الرجل خاطره ويسأل عن هذا الكتاب الذى أنسانى الدنيا من حولى ولو فعل لأضاف اتهاما جديداً غير مجرد الاتصال بعزيز المصرى.

وفى ذلك الوقت كانت ثقافتى عادية جداً، لم أقرأ الكتب الشيوعية ولا الماركسية. ومن المعانى العميقة فى نفسى وفى نفس كل مصرى أن الشيوعية إلحاد وكفر وأنهم أناس فوضويون، لا قيم عندهم. ولا يهمهم دين وأنا ككل مواطن قروى يرى أن المساس بالدين شىء فظيع. وإذا كان الإنسان بلا دين فكل شىء عنده مباح ومعنى ذلك ضياع كل ما هو إنسانى. وإهدار كل ما هو عظيم وعدل وجمال وحرية وإنسانية. فأنا بطبعى الريفى المؤمن أرفض ذلك ومن أول لحظة.

وقد حدث لى ذلك عندما زرت تلك الخلية المريبة المشبوهة فى المبتديان، فقد كانت شيوعية. وذلك الزميل الذى دعانى. أراد أن يستغل قلقى وحيرتى بحثا عن عمل ايجابى من أجل مصر.. ولكنى لم أطاوعه وإنما فقط سايرته وذهبت ودخلت، وكانت أول مرة وآخر مرة.. وإذا كانت صورة أتاتورك على جدار بيتنا قد هزت خيالى، فإن صورة أخرى قد زعزعت إيمانى بالشيوعية. وشددت تمسكى بدينى وقيمى الأخلاقية.. فقد بدأت الحرب وأنا أتابع كل ما يجرى وفى يدى الخرائط. وخيالى ملتهب لأننى قد عايشت المعركة من أولها لآخرها.

وفى بداية الحرب اتفق هتلر وستالين .. وبعد ذلك تسلل بينهما تشرشل يدق أسفينا بين الزعيمين.

وفي سنة ١٩٤١ اندفعت قوات هتلر تغزو الاتحاد السوفيتي ومقدمات هذه الحرب وحوادثها ونتائجها معروفة للجميع- واتحد الحلفاء مع روسيا ضد هتلر. وأعلن تشرشل أنه مستعد أن يتحالف مع الشيطان. وكان الشيطان هو ستالين. لأن المهم عنده في ذلك الوقت هو ضرب هتلر.

إذن لقد تحالف الغرب مع ستالين. أي تحالفوا مع الرجل الذي قالوا إنه ملحد ولا أخلاق له، وإن الشيوعية هي دعوة إلى تمزيق الأسرة وتحطيم كل القيم الباقية، وفي يوم وليلة رأيت في شوارع القاهرة المظلمة صورا كثيرة للأقطاب الثلاثة: روزفلت الأمريكي وستالين الروسي وتشرشل الانجليزي. وأهم من هذه الصور التي ملأت الدنيا، ظهرت الكتب التي تمتدح ستالين والشعب السوفيتي البطل الذي يقاوم هؤلاء الوحوش النازيين..

إذن لقد كان الروس وحوشاً أول الأمر. فلما حاربهم هتلر أصبحوا ملائكة. واستحقوا عظيم الاحترام.. إذن ما الذي جرى؟ وكيف تحول هذا الوحش التتاري ستالين إلى بطل أسطوري؟

حاولت أن أعرف وتساءلت. وانشغلت بذلك كثيراً ولا بد أن كثيرين من الذين عايشوا هذه الحرب قد فكروا مثلي وانتهيت إلى هذا المعنى الذي أقنعني: لا شيء سوى أنهم يحاربون عدواً مشتركا.. أي لا شيء سوى المصلحة.

وانتهت الحرب وانتصر الجميع على هتلر أو انتصر الروس والأمريكان والحلفاء. ومع أضواء النصر التي ملأت كل عواصم الدنيا والقاهرة أيضا، توارت صورة ستالين!

في ذلك الوقت أضاءت نفسي هذه الحقيقة: أن تشرشل هذا ليس إلا عدوي!

صحيح أنا أعجب بتشرشل كمواطن انجليزي خدم بلاده. وكتب مذكرات جميلة وعميقة. ولكن أترك هذا للإنجليز يفخرون به ويمجدونه على قدر استطاعتهم. ولكنه أولا وأخيرا عدوي. ولأنه عدوي فأنا لا أصدقه. ومن الواجب أن أفعل ذلك. فإذا قال عن إنسان: إنه ملاك قلت: بل شيطان! .. وإن قال عن أحد إنه شيطان: قلت بل ملاك منْ السماء!

وهذا التشدد والتزمت يتفق تماماً مع مزاج شاب في الثالثة والعشرين جاء من أعماق الريف، فلا عنده مرونة عقلية، ولا عنده ثقافة كافية، ولا عنده تجارب، فعالمي ما يزال محدوداً. والألوان على لوحة حياتي شديدة الوضوح أبيض وأسود. ألوان صريحة لم أعرف بعد تلك الألوان التي تتداخل وتتعقد.. ليس بعد!

وأقنعني أيضا خاطر آخر قد استقر في نفسي: أن تشرشل هو الذي أتى لنا بهؤلاء الناس.

وشعرت بالقرف من هؤلاء الناس، ولم أتصل بأحد منهم بعد ذلك. حتى قامت ثورتنا. وكنت مسئولا عن الصحافة والإعلام.

وأول مرة كان احتكاكى بواحد منهم.. لقد كان عبد الرحمن الشرقاوى. وفى ذلك الوقت كان قد كتب قصيدة عنوانها «رسالة إلى ترومان» بعد إلقاء الأمريكان للقنبلة الذرية على هيروشيما.. وكانت شعراً فى غاية الجزالة والجمال وجاءنى يستأذن فى نشرها وقرأتها أعجبتنى بل تمايلت طرباً. واقترحت عليه أن يغير كلمتين أو ثلاثاً ليكتمل جمال القصيدة وصرحت بنشرها لأن شكلها الفنى قد هزنى ولم أكن أعرف أنها قصيدة شيوعية. وقد أخبرنى زملائى فى مجلس قيادة الثورة بذلك، وسألونى كيف أجيز عملاً شيوعيا. وكان ردى أنها عمل فنى. ولذلك أجزتها!

وبعد ثورتنا واجهت ظروفا غريبة. هذه الظروف ساعدت على أن نتجه إلى الروس ونقترب منهم ونصطدم بهم. فقد ظلت علاقتنا بالروس كالسحب الكثيفة إذا سقطت مطراً، صفت السماء ولكن غرقت الأرض!

فبعد شهرين من قيام الثورة لم تكن السفارة البريطانية فى القاهرة، ولا الامبراطورية البريطانية تعرف شيئا عن ثورتنا ولا من الذين أشعلوها. والذين أشعلوها رفضوا الاتصال بالسفارة البريطانية. بينما كانت هناك علاقة بيننا وبين الأمريكان. وطلبنا إلى الأمريكان أن يشرحوا الموقف للانجليز، ونحن لا نريد أن ندخل فى حوار معهم.. فما يزال ٨٥ ألف جندى يحتلون أرضنا منذ سبعين سنة. بيننا وبينهم كوارث ودماء.. ومن أجل هذا كانت ثورتنا لتصحيح هذا التاريخ.

وقد عاقبنا الانجليز على عدم الاتصال بهم بأن حظروا علينا السلاح. وكانت بريطانيا هى المورد الوحيد. ولم نكن قد عرفنا أمريكا جيداً. فأمريكا لم تدرس المنطقة إلا متأخرة. أى بعد الحرب العالمية الثانية أى بعد غياب شمس الامبراطوريتين بريطانيا وفرنسا، وكان من سياسة أمريكا فيما بعد أن تضع حزامًا من الأحلاف حول الاتحاد السوفيتى .. أى احتواء الاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط.. ولكن أسلوب أمريكا له اسم آخر هو: الاستعمار الجديد.. أى استعمار عن طريق البيع والشراء وخصوصا بيع السلاح..

ولما حاولت أمريكا أن تعطينا بعض السلاح احتجت بريطانيا. وهذا هو السبب المباشر فى عدول أمريكا عن بيع السلاح لنا، فبريطانيا كانت وما تزال ترى أننا فى داخل مناطق نفوذها!

وتفصيـل ذلك: أننا اتصلنا بالأمريكان ووصفنا لهم الوضـع العجيب فى الجيش المصرى وكيف يكون حاله وهو بلا سلاح نشتريه من بريطانيا. هنا طلب منا الأمريكان سنة ١٩٥٣ أن نوفد بعثة عسـكرية إلى أمريكا. ووصلت البعثة ولم يقابلها مسـئول أمريكى واحد على رغم أنهم هم الذين دفعونا ودعونا إلى ذلك..

وعادت السفارة الأمريكية فى القاهرة تفتح موضوع السلاح وحاجتنا إليه. وقيل لنا يومها: لا داعى لشراء السلاح، سوف نعطيكم السلاح مجاناً لو..

وجاءت كلمة «لو» هذه لغماً تحت أقدامنا..

«لو» وقعتم على ميثاق أمن متبادل، سـوف نعطيكم السـلاح مجانًا، ولم يقتنع الأمريكان بأن مجانية السـلاح لا تهمنا. وإنما نريد أن ندفع ثمن السـلاح فليس هذا الثمن بالكثير إذا احتفظنا مع السلاح بحريتنا.

وكان الميثاق الذى تريدنا أمريكا أن نوقعه يشـترط وجـود بعثة أمريكية تدرب الجيش المصرى، وقد جربنا قبل ذلك البعثة العسـكرية البريطانية. ونحن نعلم علم اليقين أن بعثة أمريكية لن تكون إلا إحياء لبعثة تسيطر على الجيش المصرى.

وأغرب من ذلك أن الميثاق ينص على ألا نستخدم هذا السلاح فى محاربة حلفاء أمريكا!

يعنى اسرائيل كيف؟

ومعنى ذلك أن بريطانيا ضغطت على أمريكا حتى لا تسـلحنا. لقد حوصرنا تماماً .. فقد أقفلت فى وجوهنا كل أبواب السلاح حتى لا نشترى أى سلاح من الغرب. فلماذا لا نتجه إلى الاتحاد السـوفيتى نشترى منه السلاح اللازم لنا. فلدينا القطن. والقطن عملة صعبة. واتصلنا بالسفارة الروسية.

وفى ذلك الوقت كان ستالين فى أيام حكمه الأخيرة. وجاء الرد من ستالين يقول: نأسف فنحن إذا بعنا لكم السلاح فسوف تحاربوننا به!

وليس هذا غريباً من ستالين، أو غريباً عليه. فهو رجل شيوعى متزمت متعصب، لا يساعد إلا الدول الشـيوعية، وإذا سـاعدها فلا بد أن يتسـلط عليها. ولم نكن شيوعيين ولا نريده أن يتسلط علينا.

ومعركـة الرئيـس تيتو – وهـو شـيوعى – مع سـتالين هى من أعظم معـارك التاريخ. وتيتو هذا الذى دوخ هتلر الذى ركعت أوروبا كلها عند قدميه، اسـتطاع أن يدوخ سـتالين

أيضا. بل انتصار تيتو على السوفييت يعتبر من وجهة نظرى أعظم وأروع وأشجع انجازات يوغوسلافيا!

ولم يبق أمامنا إلا أن نستخدم الأسلحة المتواضعة ضد الانجليز فى القناة. وكانت حرب عصابات مصرية معروفة ومشهورة. وهذا هو الذى جعل الانجليز يوافقون على اتفاقية الجلاء فى أكتوبر ١٩٥٤ ليجلوا بعدها فى يونيو ١٩٥٦.

إن هذه القنابل التى صنعت فى مصر هى التى أزعجت الانجليز، الذين جاءوا يدافعون عن الامبراطورية، فوجدوا أنهم فى حاجة إلى الدفاع عن أنفسهم!

وفى ذلك الوقت كان إيدن وزير خارجية بريطانيا، ونجمها الصاعد الذى تعده الإمبراطورية ليشغل مكان تشرشل. ورأى إيدن أن يواجه جلاء القوات البريطانية بملء «الفراغ» الذى يظهر بعد خروجها من المنطقة، فاخترع شيئاً جديدا اسمه «حلف بغداد» يضم تركيا والعراق، وانضمت بريطانيا وإيران وباكستان فى سنة ١٩٥٥. ثم انسحب منه العراق سنة ١٩٥٨.

وواضح أن الغرض من هذا الحلف أن تظل هذه المنطقة كلها تحت النفوذ البريطانى.

وأن تظل بريطانيا موجودة حاضرة فى هذه المنطقة كلها، ووجد إيدن فى نورى السعيد ذلك البوق والأداة التى يحركها فى هذه المنطقة لتدعو الدولة العربية الأخرى للدخول فى حلف بغداد.

وقامت قيامة مصر على حلف بغداد وعلى الدخول فى الأحلاف ومناطق النفوذ وضد القواعد الأجنبية على أرضنا وأية أرض أخرى.

وفى ذلك الوقت زار صلاح سالم مدينة سرسنك فى شمال العراق. وبعدها جاء نورى السعيد إلى القاهرة وكان يتصور فى ذلك الوقت أننا سوف نأخذه بالأحضان. وقابله جمال عبد الناصر وحاول إقناعه بأننا مختلفون عنه تماماً. وبعد ذلك شددنا الحملة عليه وعلى إيدن وعلى بريطانيا.

وبسرعة جاءنا اثنان: الملك حسين وكميل شمعون، الملك حسين ابن عم الملك فيصل ملك العراق وموافق على كل خطواته طبعاً. أما شمعون فهو انجليزى منذ كان سفيراً للبنان فى لندن، وليس فرنسيا كمعظم الموارنة وبشارة الخورى هو الذى عين كميل شمعون ثم طعنه شمعون، وندم بشارة الخورى على ذلك ولكن جاء الندم متأخراً جداً!

الصـــورة الآن واضحة: إننا عادينـــا بريطانيا وأحلافها فى المنطقة. وزعزعنا الثقة فيها، وأثرنا عليها وعلى الحكومات العميلة غضب الشعوب العربية ثم إن هناك خطورة واضحة من هذه الثورة المصرية الشابة.

ومن الطبيعى أن تتخذ بريطانيا موقفا ســريعا ترد به على هذه الحملات العنيفة فى كل مكان. هنا حدثت نقطة تحول هامة جدا فى الطريق الضيق بين موسكو والقاهرة..

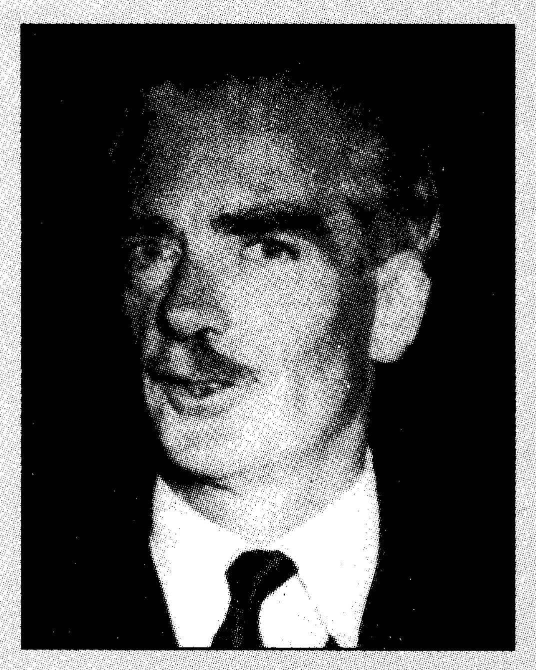
ولكـــن هذا التحول جـــاء بعد حادث مفاجئ مروع وقع يوم ٢٨ فبراير ســـنة ١٩٥٥.. فقط أوعزت بريطانيا إلى إسرائيل أن تقوم بعملية خاطفة جدا.. فهاجمت بقواتها سريعة الحركة غزة. وقتلت أربعين مواطنا وانسحبت القوات الاسرائيلية. ولم نستطع أن نواجه هذه العملية السريعة بما لدينا من لوريات وأسلحة متواضعة.

وفهمنـــا أن المقصـــود من هذه العمليـــة هو تأديب مصر لكى تعـــرف وزنها وحجمها فى هـــذه المنطقة.! هنا افقنا تماما. وفكرنا جيداً فى أن نتجه إلى الاتحاد الســـوفيتى. هل أدت مكالمـــة تليفونية من شـــوان لاى إلى أن اتخذ الســـوفييت قراراً مفاجئـــا عجيبا لم يحدث له نظيـــر بعد ذلك إلا مرة.. ثم لـــم يتكرر ولن يتكرر مثل هذا القرار الـــذى اتخذوه لصالحنا.. وبصورة مفاجئة.

□□□



١ - الرئيس السوفيتي جوزيف ستالين .



٢ - أنتونى إيدن .



٣ - كمال أتاتورك .



٤ - الزعيم الراحل جمال عبد الناصر .



الشيوعية والحياد غير الإيجابى

- وزير خارجية أمريكا يرى أن نظرية الحياد الإيجابى نوع من السفالة السياسية.
- تطورات خطيرة.. الروس يوافقون على تمويل بناء السد العالى.
- شوان لاى يصف عبد الناصر بالنجم الساطع ودالاس يصفه بأنه صداع المنطقة.
- حافة الهاوية .. النظرية التى اعتمد عليها دالاس.
- عبد الناصر أصدر قراراً رائعاً بالانسحاب أنقذ ثلثى القوات المصرية أثناء العدوان الثلاثى.

لا بد أن هناك أسـباباً دولية أدت إلى أن الاتحاد السـوفيتى قد اتجه إلينا.. ووافق على أن يمدنا بالسـلاح، وكانت هذه نقطة تغير ضخمة بيننا وبينه، وبين السـوفيت والمنطقة كلها..

ربما نبههم شـوان لاى رئيس الوزراء الصينى فى ذلـك الوقت، ويومها كانت العلاقات بين الصين الشيوعية الدولة الثائرة الجديدة وبين الاتحاد السوفيتى، تسمح بأن يكون للصين رأى مسموع عند الروس.. ربما..

كان ذلك فى ربيع سنة ١٩٥٥ عندما تنادى زعماء العالم الجديد أو العالم الثالث، بضرورة أن يتقاربوا ويتماسكوا.. ويكون لهم رأى.. وتكون لهم قوة فى مواجهة المعسكرين الأعظمين.. الأمريكان والغرب من ناحية والمعسكر السوفيتى الشيوعى من ناحية أخرى.

وكان يرأس العالم الثالث الباندييت نهرو والرئيس سوكارنو والرئيس جمال عبد الناصر.. ثم انضم إليهم شـوان لاى رئيس وزراء الصين التى نجحت ثورتها سـنة ١٩٤٩. واتفقوا على عقد أول مؤتمر لهم فى باندونج بأندونيسيا سنة ١٩٥٥. وكانت هذه هى المرة الأولى التى أصبح لهم فيها وجود على خريطة الجغرافيا السياسـية.. وكانت الدعوة إلى المؤتمر والسـفر إليه قد اتخذت طابعاً إنسـانيا رومانسـيا لطيفا.. فقد سـافر جمال عبد الناصر إلى الهند وسافر معه نهرو، وسافر الاثنان إلى بورما واصطحبا معهما رئيس وزرائها، وفى بورما التقوا بشوان لاى، وسافروا معا فى محبة وأخوة إلى جاكارتا فى أندونيسيا ليرافقهم جميعا سوكارنو.

وكان لجمـال عبـد الناصر دور بارز فى هذا المؤتمر، وفى المؤتمر أعلن ما سمى بعد ذلك بسياسـة الحياد الإيجابى، أى ضـرورة الوقوف على الحياد بين المعسـكرين.. وليس حياد المتفرجين.. كالحياد السويسرى.. وإنما هو حياد له دور فى الموافقة والاعتراض على ما يقوم به المعسـكران الآخران. وكان نهرو بنظرية البانشاسـيلا «أى المبادئ الخمسة» حريصاً على هذه السياسة فى جنوب شرقى آسيا.. ولكن مؤتمر باندونج قام بتوسيع وتعميم معنى الحياد الإيجابى على القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا ثم أوروبا التى جاء منها تيتو.. وبعد ذلك شمل أمريكا اللاتينية أيضاً.

وعلـى الرغـم مـن أن العالم الثالث هـذا يضم أغلبية سـكان العالم فإنـه لا يملك الثروة الحقيقيـة.. فهـو يملك المـواد الخام أو المـوارد والمناجـم وحقول البـترول، ولكن لا يملك تصنيعها.. وهذا هو الأهم، فالغرب يملك القدرة على التصنيع وعلى الشـراء وعلى التسـويق وعلى رفع وخفض الأسعار.

وفى هذا المؤتمر اقترب شوان لاى من جمال عبد الناصر، وعرفه جيداً، وكبر فى عينه.

وكان شـوان لاى هذا صديقاً صدوقا لنهرو.. وإن كان بعد ذلك قد طعنه حتى الموت.. وهذا شـىء غريب، ولكنه ليس غريباً على الشـيوعيين.. فالغدر والعنف من أهم معالم السـلوك الشيوعى فى السياسة العامة والعلاقات الخاصة.. فهذا الرجل شوان لاى هو المسئول عن موت نهرو.. فالصين هاجمت الهند، وهذا الرجل قد أجهز على نهرو حتى أنهى وجوده تماماً.

ولكن شوان لاى عرف جمال عبد الناصر جيداً، وعندما وصل إلى بكين، طلب الكرملين.. وقـال لهـم: إن هناك نجماً صاعداً.. هذا النجم هو عبد الناصـر.. فخذوه إلى سمائكم لعله أن يزداد تألقاً، والوسيلة هى أن تعطوه السلاح.

فقد شكا له جمال عبد الناصر من الحصار الذى أحكمه الأمريكان والإنجليز عليه. فجيش مصر بلا سلاح.. وهو وضع صعب عليه وعلى بلده وعلى جيشه.

وفى ذلك الوقت كان ستالين قد توفى من سنتين، أى اختفى الرجل المتزمت جدا، الشيوعى جـدا، المتسـلط جداً، وظهرت قيـادة حزبية جديدة فى روسـيا. واختفى خليفة سـتالين: مالنكوف. وظهر خروتشيف. الذى أعلن فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى أن ستالين هذا سفاح وخائن.. وأنه يجب اقتلاعه من التاريخ الشيوعى، ونزع تماثيله من كل ميدان، وشطب اسمه من كل كتاب. وقد حدث ذلك كله بالحرف الواحد، وهذا سـلوك شـيوعى عادى جداً.. فانتقال السلطة عند الشيوعيين لا يتم إلا بالعنف: منذ أيام لينين حتى اليوم..

سـتالين نزعوه.. قلعوه.. مسحوا به شوارع روسيا وشوارع كل الدول الشيوعية الأخرى، ولقى خروشـوف نفس المصير أيضاً.. بل إن وزير خارجية روسـيا على أيام خروتشيف كان اسمـه شـبيلوف، ولا أعرف أين ذهـب الآن. لابد أنه ناظر محطة أو حـارس دورة مياه فى سـبيريا.. وهذا طبيعى.. وهذه هى نهاية كل حاكم فى روسـيا إذا اختلف مع الذى هو أقوى منـه.. بـل إنهم بعد الحرب كان لديهم قائد عظيم جداً هـو زوكوف.. هذا الرجل بالمقاييس العسـكرية، يعتبر أعظم من إيزنهاور ومنتجومرى. لأنه قد اكتسـح أوروبا الشـرقية حتى

ألمانيـا الغربية وأبواب برلين. هذا الرجل فوجئ وهو فى زيارة ليوغوسـلافيا بأنه مطرود، وعليه أن يخلع ملابسه وأن يسلم نياشينه.. وأصبح لا شىء. ولما مات وجدوه جالساً على دكة خشبية فى إحدى الحدائق.. فسقط ميتاً كقطعة خشب كانت تجلس على قطعة خشب، وتكوم على الأرض إنسان كان عظيما.. ولكن لا عظمة ولا قيم إنسانية عند الشيوعيين!

ولكـن إذا نظرنا إلى ما يحدث فى الـدول الغربية نجد أن التغيير أو التبديل ديمقراطى.. ففى أمريكا أرغموا نيكسـون على الاسـتقالة.. فاسـتقال ببسـاطة، وبعد ذلك يجىء نائبه ويحلـف اليمين ويصبـح خلفاً له، وكذلك جونسـون.. أتوا له بقاض، وكان القاضى سـيدة. حلف أمامها اليمين وبعدها بلحظة واحدة أصبح رئيسـا للدولة ويمسـك فى يديه كل مفاتيح القنابل النووية..

ولم أكن أعرف ما الذى يجرى لأى مسئول سوفيتى يغضبون عليه إلا من صديقى وزير الدفاع جريتشكو الذى توفى.. فالوزير فى روسيا عنده شقة وفيللات على البحيرات وسيارات.. فإذا غضبوا عليه سـحبوا كل شـىء من تحته: السيارة والسرير.. ثم المقعد الذى يجلس عليه فإذا هو جثة هامدة على الأرض دون أن يهتز عصب واحد لأى إنسـان.. فالوزير قد كان ثم هان.. ثم اختفى!

أما شـبيلوف هذا فقد كان وزيرا لخارجية روسـيا وكان أنيقا.. إنه أول روسى أراه يضع المشـط فـى جيبه ويخرجه كلما ظهرت كاميرا فى يد أحـد المصورين، وقد قابلت هذا الرجل فى الحفلة التى أقامتها السـفارة السوفيتية فى القاهرة.. وكان صديقا، وكان يعرفنا جميعا.. ويحب أن يسـمعنا وأن يسـأل عنا.. لأنه يريد أن يعرف أو يسـاعد.. أو لعله أراد أن يوجه بـلاده إلى ناحية تنفعهم فى علاقاتهم معنا.. أو فى علاقة السـوفيت مع الثورة الجديدة فى مصر أو فى المنطقة كلها..

ويقابل شبيلوف هذا وزير خارجية أمريكا: دالاس، وهذا الرجل الأمريكى قريب الشبه بسـتالين.. إنه هو أيضا متعصب متزمت متشـدد ومتسـلط أيضا، ويريد أن يقدم لنا المساعدة بشروط.. وهذه الشروط هى أن يسيطروا علينا.

وكان من رأى دالاس أن نظرية الحياد الإيجابى نظرية لا أخلاقية. لأن الأخلاق تقول: إن الإنسان إما أن يكون أمريكيا وأما أن يكون شيوعيا.. ولا يوجد شىء وسط..

أو بعبارة أخرى.. إن الحياد الإيجابى هو نوع من السفالة السياسية!

وهــذا رأى غريب.. كأن من المفروض ألا يكون الإنســان وطنيــا، محبا لبلده حريصا على مصالحــه.. مــع أن من الممكن، بل طبيعى جدا، أن أكون مصريــا وطنيا، وعربيا.. أى مصريا وعنــدى أمنيــات قومية، أريد أن أحقــق لمصر كرامتها ورخاءها، وفــى نفس الوقت أحرص على ســلامة العرب ووحدتهم وعزة الجميع، إننا لا نرى فى ذلك أى تناقض، ولا أية سفالة سياسية.. بل من السفالة وليس من السياسة ألا يكون الإنسان وطنيا قوميا فى وقت واحد..

ولكن الأمريكان كالروس تماماً: يضيقون بكل ما هو وطنى وماهو قومى.

ولهذا السبب اتخذ دالاس هذا الموقف العدائى من أول لحظة.

وكان لدالاس نظرية فى ذلك الوقت اسمها: حافة الهاوية.. أى دفع الموقف حتى يشتعل. وهنا فقط يســتطيع أن يفعل شــيئا. أو ينهار الموقف تماما، فلا يجد نفســه فى حاجة إلى أن يعمل أى شــىء، ودالاس طبعاً يريد أن يدفعنا إلى الهاوية أو إلى حافتها فإذا سقطنا كان ذلك بين ذراعيه أو تحت قدميه، ولكن دالاس لم يفهمنا.. فهذه الهاوية لا تهمنا.. لأننا لا يمكن أن نخســر أكثر مما خســرناه، ولا يمكن أن نصل إلى أدنى مما وصلنا إليه.. فنحن فى جميع الأحوال لن نفقد شيئا، ولذلك لا تهمنا نظرية حافة الهاوية!

وكان دالاس هــذا وزير خارجية إيزنهــاور.. وكان إيزنهاور يعيش على أمجاد الحرب العالميــة الثانيــة وانتصاراته فيها، ولمــا رأس الحكومة الأمريكيــة، كان ذلك تكريما له، وثمرة لأعماله العســكرية المشــهورة، وهو رجل يلعب الجولف معظم الوقت، وبين الحين والحين تجــىء له مكالمة تليفونية.. فيترك أرض الجولف ويمســح عرقه والناس من حوله تحييه ويمســك سماعة التليفون ويقول: أوكى.. أو لا يرد ويقفل السكة. ويكون اقفاله دليلا على الرفض.

ومن ضمن المكالمات العادية.. أن تحدث إليه دالاس وسأله فى حكاية مصر، وكان من رأى إيزنهاور لدالاس: أوكى.. استمر!

أما ما هذا الذى وافق عليه وطلب من دالاس أن يستمر فيه فهو.. أن دالاس عندما قال له: إن مصر دولة مفلسة وليست قادرة على تمويل السد العالى.. ومن رأيى ألا نشترك فى ذلك.. كان رد إيزنهاور أنه لا داعى لذلك.. وانتهت مكالمة عابرة أدت إلى تغيير معالم الشرق الأوسط كله!!

فأمريــكا إذن قد رفضــت أن تمدنا بالســلاح. ورفضت أن تعيننا على بناء الســد العالى.. وأعلنت فى بيان دالاس الشهير أننا دولة مفلسة.

وقبل ذلك اشــترطت لكي تســاعدنا أن تشرف على استخدام السلاح حتى لا نحارب دولة صديقة.. اســرائيل طبعا، ثم إنها أخيرا لن تشــارك في تمويل الســد العــالى. وأعلنت أيضا بأشكال مختلفة أن الوضع كله يحتاج إلى تغيير.. أى مطلوب منا أن نغير الحكم وشكله وفى هذه الحالة أو بعدها تساعدنا أمريكا!

وأصبــح معروفــا أن دالاس قد أوفد هندرســون ليوجه إنذارا لجمال عبــد الناصر، وكان هندرسون فى تركيا.. وتحفز جمال عبد الناصر لطرد هذا المبعوث الأمريكي، فنحن لا نهاب أمريكا، ولا يمكن أن تدفعنا أمريكا إلى أســوأ مما نحن فيه، ولكن فجأة تغير الوضع. وتلقى هندرسون تعليمات بأن يكون ألطف وأرق، وقابل جمال عبد الناصر، وسأله جمال عبد الناصر عن الإنذار..

فأجاب الرجل: أنه لا إنذار!

وإنما جاء هندرسون يطلب من مصر أن تلغى صفقة الأسلحة مع روسيا أو تؤجلها!

فقد حدث فجأة أن أعلن الروس فى ســبتمبر ١٩٥٥ موافقتهم على إعطاء صفقة سلاح لمصر من روســيا ومن تشيكوسلوفاكيا بموافقة موســكو.. وكان ذلك حدثا مدويا. فقد جاءنا السفير الســوفيتى فى ذلــك الوقت وقال: إن لديــه تعليمات من حكومته بالموافقــة على إمداد مصر بالسلاح.. أى بكسر احتكار بريطانيا وأمريكا للسلاح.

واتســعت المعركة بــين مصر والولايــات المتحدة وبريطانيــا.. فقد اتجهنا إلى المعســكر الاشــتراكى نطلب السلاح، وقد أعلن الروس موافقتهم على ذلك. وفى ذلك الوقت.. فى يوليو ١٩٥٦ انتخــب جمال عبد الناصر رئيســاً للجمهورية- أول رئيــس للجمهورية بالانتخاب - لأن محمد نجيب عين رئيسا للجمهورية بقرار من مجلس قيادة الثورة سنة ١٩٥٢.

ومضينا بعد ذلك نواصل دراســة مشــروع السد العالى، والســد العالى بمشاريعه وهندسته مختلف تماما عن ســد أســوان الذى ليس إلا جدارا متواضعا إذا ما قورن بهذا الجبل: الســد العالى، فالسد العالى يقوى على مواجهة القنابل الذرية..

وقد نوقشــت كثيرا فكرة ضرب السد العالى بالقنابل الذرية، ويؤكد الخبراء العالميون أنه يستطيع أن يتحمل ذلك.

ومن المناســب أن أذكر أن عددا من كتاب الغرب ومن الكتاب اليهود قد طرأت عليهم هذه الفكرة عندما رأوا السد العالى.

فالكاتب الفرنسى أندريه مالرو وزير الثقافة السابق قد ذكر فى كتابه المشهور «الذكريات المضادة» أن القنابل الذرية إذا أصابت السد العالى فسوف تغرق مصر كلها! كما أن كاتبا يهوديا ألمانيا اسمه حاييم ميخائيل قد ألف رواية بعنوان «مياه أسوان» تخيل فيها انهيار السد العالى ونسفه بالقنابل الذرية والألغام وغرق مصر.. وقال: إن فى هذه الحالة ننتقم من مصر.. فهى التى قالت لليهود فى أغانيها: فى البحر حندفنكم.. ولكن فى هذه الحالة، سوف نأتى للمصريين بالبحر ولن ندفنهم، وإنما سننقذ المصريين كما أنقذ نوح البشرية!

وأحدث رواية ظهرت عنوانها «الخط ٣٤ شرقا» أى شرق السويس من تأليف الفريد كوبل.. وهو قد فكر أيضا فى ضرب السد العالى وإغراق مصر..

بل إن مؤلف رواية «مياه أسوان» كان أكثرهم صراحة. فهو الذى قال: يجب إغراق مصر قبل أن يستعد أنور السادات! ..الخ..

وفى ذلك الوقت جاءنا مهندس يونانى اسمه دانينوس.. هذا الرجل قد درس مشروع السد العالى، ودرس طبيعة أرض مصر كلها.. وجاء مهندسونا أيضا ودرسوا المشروع جيداً.. فى نفس الوقت الذى قيل فيه عن هذا الرجل اليونانى إنه مجنون، وهى صفة يشترك فيها مع كل أصحاب الأفكار الجديدة الجريئة فى التاريخ!

وانتهينا من دراسة المشروع فى سنة ١٩٥٦، وكل ما نحتاج إليه هو التمويل، وما نحتاج إليه حوالى ٤٠٠ مليون جنيه، ولابد أن يساعدنا البنك الدولى وتساعدنا أمريكا وبريطانيا، ورد علينا البنك الدولى بأنه إذا ساهمت أمريكا فسوف يساهم مباشرة، وانجلترا قالت إذا اشتركت أمريكا فسوف نشترك أيضا.

الموقف بوضوح هو: إذا أرادت أمريكا انفتح الطريق أمامنا فى كل شىء.

أما مساهمة انجلترا فى هذا المشروع فقد أعلنت أنها على استعداد لدفع خمسة ملايين جنيه!

وهو مبلغ تافه جدا.. ولكن انجلترا تريد أن تساهم.. أى تحشر أنفها فى المشروع أو تضع قدمها فى المنطقة بصورة أو بأخرى. وهذا يذكرنا بما فعله دزرائيلى عندما دخل بكل قوته فى شراء أسهم قناة السويس عند إنشائها وافتتاحها!

وفى ذلك الوقت كنا نتجه إلى أمريكا، وكان دالاس يحاور ويناور.. تارة يقول: إنه يدرس، وتارة يطلب التأنى والصبر.. وأصبح واضحا لدينا أنه يكسب الوقت ويضيعه علينا..

أنه يســتعد لشــىء لم نعرفه بوضوح. لكن لا نســتبعد وقوعه، حتى كان يوم ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ وأصدر بيانه الشــهير الذى شــهر فيه بمصر معلنا إفلاســها وعجزها عن بناء السد، وامتناع أمريكا عن المساهمة بشىء.. وبالتالى: البنك الدولى وبريطانيا!

وفجأة - وهذا شــىء غريب وعجيب - التقط الاتحاد الســوفيتى الكــرة، وأعلن موافقته على تمويل وبناء السد العالى. وأقول: غريب وعجيب، لأن الروس عادة ليس عندهم رد فعل ســريع. وإنما رد الفعل عندهم بطىء جدا ولا يتخذون أى قرار إلا بعد مناقشــات ومشاورات وقرارات على كل المستويات، وتردد وتشكك.. ولكنهم هذه المرة قرروا بسرعة..

وتجربتى الطويلة معهم، والتى لا تزال مستمرة، تؤكد لى أنهم ينتظرون عادة بالسنوات دون أن يفعلوا شــيئا. وقد شكا جمال عبد الناصر كثيرا من هذا التباطؤ فى الفعل ورد الفعل، وأنا قد عايشت هذه التجارب المريرة.. فلم يحدث قط شىء كهذا الذى فعله الروس هذه المرة والمرة السابقة.

أولا: عندما وافقوا على مدنا بالسلاح.. هكذا فجأة.

وثانياً: عندما أخبرونى فى الحفلة التى أقامتها السفارة السوفيتية أن التعليمات الواردة من موسكو تعلن أن الروس وافقوا على تمويل السد وبنائه. شىء غريب. لم يتكرر بعد ذلك، ولن يتكرر.

وكانــت فرحتنــا الكبرى، وكان ذلك ســندا عظيمــا لثورتنا، وفى احتفــالات ٢٣ يوليو اشترك معنا وزير خارجية روسيا شبيلوف والقائد البريطانى الذى أتم معنا اتفاقية الجلاء، وفــى حفلة أم كلثوم كان لكل شــىء طعم جديد.. ولكن القائــد الإنجليزى قد سمع بأذنيه كل الشــتائم فى بريطانيا.. فأغانينا كلها طويلة اللســان، وهذا طبيعى أن يهاجم الفن الاستعمار والمستعمرين.

وتصاعدت المشاعر الوطنية، وزادت المســافة اتساعاً بيننا وبين أمريكا، وتقاربت المسافة بيننا وبين روســيا.. فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن أعلن يوم ٢٦ يوليو فى الإســكندرية «تأميم قناة السويس» .

هنا أحس دالاس بأنه قد طعن على مرأى من العالم كله.

وكان دالاس هــذا يصــف عبد الناصر بأنه «صداع» المنطقة.. فإذا ذهب إلى مكتبه يســأل: ألا توجد أخبار عن هذا الصداع؟

وكان الـــرد علـــى موقف مصر هو ما حدث فى ٣٠ أكتوبر عندما تآمرت بريطانيا وفرنســا وإسرائيل على مصر. فكان العدوان الثلاثى. وقد اشتركت هذه الدول الثلاث لأسباب مختلفة.. وإن كان الهدف فى النهاية واحدا.

فرئيس وزراء فرنسا جى موليه هدفه: ضرب ثورة الجزائر التى تساندها مصر، وكان من رأيه أن ضرب مصر هو إجهاض لثورة الجزائر.

أمــا بريطانيا التى يرأس وزراءها أيدن، خلفا لتشرشــل، فهى تريـــد العودة إلى المنطقة كلها. أما إســـرائيل فهى إلى جانب رغبتها فى توســـيع رقعة أرضها، وإبعاد الخطر عنها إلى ما سمتـــه بعد ذلك بالحدود الآمنة، فهى تريد أن تشـــارك فى ضرب مصر قبل أن تســـتوعب السلاح السوفيتى الجديد..

لأنه من المعروف فى «الفقه العســـكرى» أن القوات المصرية أو أية قوات تحتاج إلى ســـبع ســـنوات لكى تســـتوعب نظرية جديدة فى الســـلاح.. فنحن لم نعرف كيف نفهم ونســـتخدم الســـلاح الجديد إلا بعد سبع سنوات كانت نهايتها سنة ١٩٧٣.. فقد كنا نحتاج إلى مثل هذا الوقت لكى نغير عقيدتنا أو فلسفتنا العسكرية من الغرب إلى الشرق.

وكان العدوان الثلاثى.. فقضى على سلاح الطيران المصرى تماماً.. وإن كان جمال عبد الناصر قد بذل جهدا هائلا لكى يقنع الناس بأن العدوان الثلاثى قد حطم الطائرات الهيكلية.

وليس هذا صحيحا، فقد سحقوا كل طائراتنا..

وجمـــال عبد الناصر قـــد أعلن أنه رأى من فوق بيته أنواع الطائـــرات التى هاجمتنا.. لقد كانت إنجليزية وفرنســـية، ولذلك عرف من الذى يحاربنا فأصدر قرار الانسحاب المشهور.. وكان قـــرارا رائعا أدى إلى إنقـــاذ ثلثى القوات المصرية، وكان هذا القـــرار «ضربة حظ». فقد صادقه الحظ السعيد فى ذلك.. ولم يكن قراره مثل ذلك القرار الذى أصدره المشير عبد الحكيم عامر ســـنة ١٩٦٧ نموذجا للاضطراب والفوضى، فقد تحقق لجمال عبد الناصر الانسحاب فى ثلاثة أيام.

ولكـــن الصحـــف المعادية أعلنت أن الجيـــش المصرى كله قد أبيد تمامـــا، أو أنه إذا كانت هناك قوات فهى رمزية. ولذلك دعونا الملك سعود والملك حسين إلى عرض عسكرى فى ألماظة. وعرضنا عليهما فرقة مدرعات كاملة.. تكذيبا لما تقوله دول العدوان الثلاثى من أنهم قد قضوا علينا نهائيا وإلى الأبد!

وهنا كان للروس موقف نذكره لهم.. فالعدوان الثلاثى لم يفلح فى القضاء علينا ولم يحطم تلك العلاقة الجديدة بيننا وبين الروس. وبسرعة أيضا، باع لنا الاتحاد السوفيتى أسلحة جديدة تعويضا عن الذى خسرناه.

ويوم انسحبت دول العدوان الثلاثى من بورسعيد فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦، برزت عندنا مشكلة صارخة عاجلة: نحن فى حاجة إلى القمح والأدوية ومواد ضرورية كثيرة، وفى ذلك الوقت كان الحصار علينا شديدا محكما خانقا، وكنا فى حاجة إلى معونة سريعة.

ورفضت أمريكا. وبذلك تم إحكام الخناق على أيدينا وعلى أعناقنا وعلى بطوننا، وإن لم يكن هناك خناق على أفواهنا وإرادتنا.

وبادر الاتحاد السوفيتى بسرعة وأعطانا القمح، وهذا قرار أدهشنى أيضا.. مع أننى طلبت منهم أشياء كثيرة ولا أزال، ولكن أحدا لا يرد.. وقد مضت على هذا الصمت الرهيب سنوات.. ولا أعرف سبب هذه المبادرة السريعة. ربما كان سبب ذلك أنهم كانوا أيامها طالعين فى الميدان الدولى، وكانوا فى حاجة إلى أن يظهروا فى موقف أحسن، وأن تتحسن سمعتهم لدى الشعوب العربية فتلتف حولهم بلا خوف.. ومثل هذه المبادرة السوفيتية بتحويل إحدى السفن المحملة بالقمح لتتجه إلى مصر كان له صدى عظيم. وأرسى للروس قواعد عميقة متينة فى المنطقة.

وفى ١٩٥٧ حشدت تركيا، تحت ضغط أمريكى، قواتها على حدود سوريا. وفوجئ دالاس وزير خارجية أمريكا بأن القوات المصرية قد وصلت إلى اللاذقية، دون أن يدرك الأسطول السادس الأمريكى شيئا من ذلك.

وكانت ضربة مباغتة!

وكان هذا الموقف المصرى، أحد أسباب الوحدة مع سوريا بعد ذلك.

وقبل ذلك كان جمال عبدالناصر قد واجه التحدى الأمريكى، وكان قد كسر احتكار السلاح، ثم انتصر على العدوان وأمم قناة السويس.. ولذلك أصبح أسطورة فى العالم العربى كله..

وفى سنة ١٩٥٨ فوجئنا بأن الاتحاد السوفيتى قد اتخذ موقفا معاديا.. فالاتحاد السوفيتى ضد الوحدة مع سوريا.. أى ضد هذا المد القومى فى المنطقة: ضد الوطنية وضد القومية.

وبسرعة هاجم خروتشيف الوحدة مع سوريا، وهاجم جمال عبد الناصر.. فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن قبل هذا التحدى، تماما كما قبل التحدى ضد دالاس.

وفى ذلك الوقت ألقى الاتحاد السوفيتى ثقله مع عبد الكريم قاسم قائد الثورة العراقية.. وكان عبد الكريم قاسم شيوعيا، وكان اسمه مدرجا فى جداول التنظيم الشيوعى.

وبنفس الغباوة السياسية التى دفعت بالروس أن يقفوا وراء عبد الكريم قاسم، وقفوا فى مصر بعد ذلك وراء على صبرى وشعراوى جمعة. وغيرهم من التافهين.

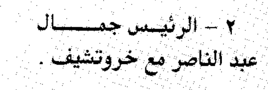
ولا يدرك الروس، إلا بعد وقت طويل، أن الناس الذين اعتمدوا عليهم لا وزن لهم.. ولكن هذه طريقتهم فى فهم الناس والاستعانة بهم..

وثار جمال عبد الناصر وراح يهاجم الشيوعية ويقاومها ويفند مزاعمها ويكشف عملاءها فى مصر والمنطقة..

□□□

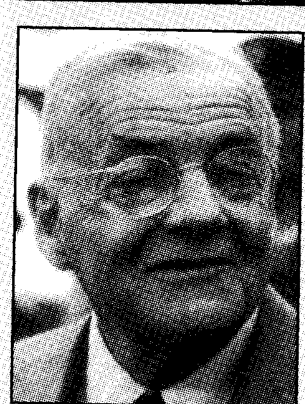


١ - محمد نجيب وعبد الناصر والسادات في اجتماع لمجلس قيادة الثورة.

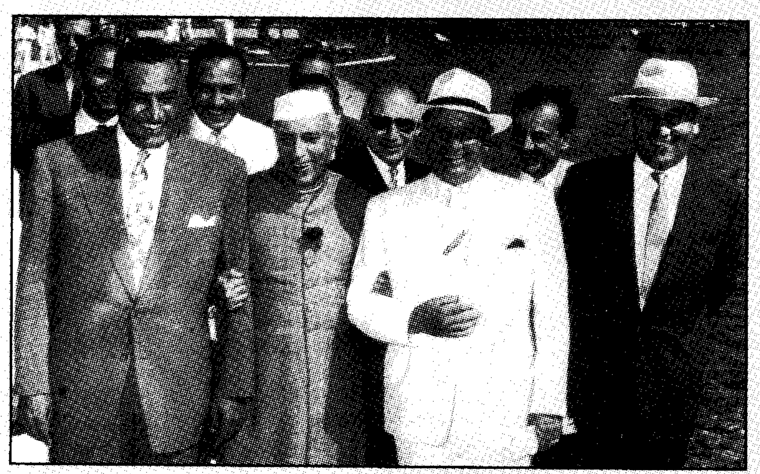


٢ - الرئيس جمال عبد الناصر مع خروتشيف .





٣ - جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا الأسبق ١٩٥٧ .



٤ - الرئيس الراحل جمال عبد الناصر مع قادة عدم الانحياز ، نهرو وتيتو .



٥ - شوان لاى رئيس الوزراء الصينى الأسبق .



غليان الجليد

- خروتشيف يهاجم الوحدة بين مصر وسوريا ويقول: إن العرب مايزالون أطفالا.
- أطول ١٧ ساعة فى حياة الزعيم جمال عبد الناصر.
- الاتحاد السوفيتى يرى فى عبد الكريم قاسم رجلها فى المنطقة بعد أن كشف عن وجهه الشيوعى
- غليان الجليد أدق وصف للعلاقة بين موسكو والقاهرة.

علاقتنا بالسوفيت غريبة. كانت ولا تزال. وسوف تبقى. لماذا؟ إن الأسباب كثيرة جدا. والقليل من هذه الأسباب هو الذى نعرفه. ولكن فى النهاية نحن دائما أمام لغز لا نعرف له أولا ولا آخرا. فمرة نحس أن كل شىء انتهى. أن الجليد الذى بيننا قد ذاب. وأنه يمكن للإنسان أن يخوض فى الطريق الطويل الممتد بيننا وبينهم. ومرة نحس أن الجليد قد ذاب. ولكن هذا الجليد لم يكن سوى سطح بحيرة عميقة جدا.. فإن الجليد قد ذاب ليخلى مكانه لعائق مائى هائل.. ومرة ثالثة نحس أن الجليد قد ذاب ولكنه تحول إلى انهيارات جليدية أكثر خطورة من السير على الجليد، وأصعب على النفس من الانتظار الطويل حتى يذوب الجليد.. ومرة نحس أن الأفضل أن يظل الجليد على ما هو عليه.. فهذا أوضح. لأنك ترى أمامك طريقا صحراويا أبيض.. أو ترى أمامك جبلا من الجليد يعترض طريقك فتدور حوله، أو تتفاداه.

ولكن الإنسانية قد عرفت وبصورة عنيفة جدا ماذا حدث عندما اصطدمت السفينة الهائلة تيتانيك بجبل من الجليد فى المحيط الأطلسى.. فعندما اصطدمت به فوجئت بأن هذا الجبل قد ظهر ربعه على سطح الماء أما بقية الجبل فقد كانت تحت الماء. فقد ظهر الجبل كله وأغرق السفينة.. يومها فقط، وبثمن فادح جدا، عرف الناس أن الجليد إذا كان جبلا واضحا، فإن الجزء الأكبر منه ما يزال خافيا تحت الماء.

ومن قراءة تاريخ الحروب فى روسيا نجد أن الجليد هو المنقذ الأعظم.. فهو الذى أنقذ روسيا من قوات نابليون.. بل إن الجليد هو الذى دفن قوات نابليون فى هذه الغلالة البيضاء.. وهو أيضا الذى دفن قوات هتلر مرة أخرى.. إن الجليد صديق الروس دائما، وفى الحروب يوصف الشتاء بأنه «الجنرال» فيقولون: وجاء الشتاء أعظم الجنرالات.. أى إنه إذا جاء الشتاء فقد انحسم الموقف لصالحهم.. والشتاء جنرال لأنه يملأ الجو بالبرودة لصالح الروس.. فإذا كان الشتاء جنرالا، فإن الجليد ماريشال.

ولكن يبدو أن الجليد الذى يتزحلق عليه الناس ويجعلونه كرات يلعبون بها.. ما تزال له صور أخرى يصعب فهمها.. ولكن أبناء الجليد، وخصوصا الروس يجيدون اللعب بها وعليها..

مــن ذلك لعبة أخرى لا أعرف كيف أسميهــا. وإن كنت أختار لها اسما مؤقتا هو «غليان الجليد».

فاللعبة بيننا وبين الســوفيت هى أنهم كانوا يحاولــون أن يقدموا لنا الجليد وهو يغلى.. شيء غريب.. فهو جليد، ولكن يريدون أن يجعلوه يغلى ويحتفظ فى نفس الوقت بكل صفات الجليد الباردة.. كيف؟ هذه هى براعتهم فى إبقاء الجليد جليدا، وفى نفس الوقت يغلى دون أن يذوب وهى لعبة من أقسى ما عرفت فى تاريخ العلاقات بين موسكو والقاهرة.

ولى تجربة خاصة لا أنســاها: كان ذلك فى ســنة ١٩٥٦ وكنا قد أممنا القناة. واهتز العالم العربى والدول الغربية. وتربص بنا الاســتعمار وكان ما كان مما هو معروف لدينا جميعا.. ولكن فى ذلك الوقت سافرت إلى باكستان. وكانت باكستان تتهيأ لتغيرات عنيفة فى السلطة. فكان على رأس باكستان غلام محمد. كان مريضا مشلولا. وكانوا يفسرون ما يقوله بالنظر إلى حركة شفتيه. وكان معروفا أن الرجل لا يستطيع أن يستمر فى هذا الوضع. فالظروف عنيفة. والتغــيرات مطلوبة. والرءوس تطل من كل مكان تريــد أن تقفز إلى مقعد الرجل، أو تلقى به وبمقعده، وتأتى بجديد من المقاعد أو من الناس. وقد حدث ذلك.

فوزير الداخلية فى ذلك الوقت هو اسكندر ميرزا. وكان صديقى كما أن غلام محمد صديقى أيضا، وقد تقابلنا قبل ذلك بعام فى المؤتمر الإســلامى. واســتولى الجنرال اسكندر ميرزا على السلطة. وكان ذلك طبيعيا. ويوم حلف اليمين، وصلت أنا إلى باكستان.

وكانت باكســتان قد وجهت الدعوة إلى الســوفيت لحضور حفلة اليمين. وأوفد الســوفيت ميكويــان. وكانــت فرصة أن ألتقى به وأن أشــرح قضيتنا من جديد. فنحــن فى حاجة إلى أن نشــرح وأن نقول وأن نعيد ونزيد. وتم اللقاء بيننا. وكان ذلك فى مبنى الســفارة السوفيتية. وكما هى عادتهم دخلنا بابا من وراء باب.. والأبواب كلها بســرعة تنفتح، وبنفس الســرعة تنطبق وراءنا.. وهذه عادتهم، لا يقابلون أحدا خارج السفارة ولا يتصلون بأحد. وكان عندى تصــور عام لموقفنا ولموقف الســوفيت. وكان من الضرورى أن أطالبــه بأن يكون للروس موقف واضح. فالوضوح مشــكلة المشاكل بيننا وبين الســوفيت. إنه ليس ضبابا ذلك الذى بيننا، إنه الجليد بمعانيه وصوره وأشــكاله وأحجامه المختلفة المحيرة.. وقلت لميكويان أيضا: إننا فى حاجة إلى تأييد الســوفيت. وأن يكون التأييد واضحا للعالم كله. وبدون هذا التأييد ســيزداد موقفنا صعوبة. وتزداد علاقتنا تعقيدا وغموضا.

وكنت أطمع فى أن أحصل على مجرد «إعلان» عن هذا التأييد من السوفيت.. فقط «الإعلان».. وطبعا مفهوم أن السـوفيت إذا أعلنوا فلابد أن يكون هذا الإعلان له مضمون. أى ليس المطلوب مجرد كلام، وإنما إعلان عملى. وبذلك يصبح دورهم نشيطا معنا أو فى المنطقة كلها.

ولكن الذى سمعته من ميكويان هو أنه لا مانع من مجرد «الإعلان» أى مجرد النية الطيبة. ولا شـىء بعد ذلك. ولكنى كنت أتصور فى ذلك الوقت أنه ليس من المعقول أن يجىء الإعلان فارغـا.. أن يجـىء الإعلان بيانا أجوف.. فقد تمنيت اسـتدراج السـوفيت إلى إعلان، وعلى السـوفيت أن يواجهوا العالم بعد ذلك.. وعليهم وحدهم أن يجيبوا عن تساؤلات العالم كله: هل هو إعلان فقط، هل هى مناورة؟ هل السوفيت يلوحون ويهوشون؟ هل هم جادون؟

ولكن ميكويان، كأى سـوفيتى كبير مسئول فاهم سياسة بلاده ومناوراتها، لم يوافق على هـذه الفكرة، وعلى رغم ذلك فقد أصـدروا بيانات تأييد لها كلمات تطن، ولها عبارات ترن. هـذا كل ما يريـدون. وكنا نطمع فى أن يذهبوا إلى أبعد من ذلـك، أو حتى يتورطوا إلى أعمق من ذلك. ومن المؤكد أننى لم أطلب من السـوفيت أن يتورطوا إلى درجة إرسال قوات سوفيتية تحـارب معنـا. أنا أعرف أن ذلك مسـتحيل. ولكن كنا نتمنى أن يعلنـوا عن فتح باب تطوع المسـلمين فى داخل الاتحاد السوفيتى.. ففى روسيا جمهوريات إسلامية فلو سمحوا لأبنائها بالتطوع للوقوف إلى جوارنا، لكان موقفنا مخيفا لخصومنا.

وفى ذلك الوقت كنا قد اشترينا السلاح الروسى، وبدأنا نتدرب عليه. والتدريب شاق وطويل وكنا فى حاجة إلى طيارين، فلو جاءنا طيارون، لكان ذلك عونا لنا فى موقفنا الصعب.

ويبـدو أن هـذه المطالب لم تكن مقبولة من أولها إلى آخرهـا وعدت أطلب من ميكويان فى جلسـتنا التى طالت أن يعلن الاتحاد السوفيتى «فقط» عن فتح باب التطوع أو أنه لا يمانع فى ذلك. وأكدت لميكويان أن هذا الإعلان سـوف يكون عنصرا جديدا يهز المنطقة حولنا، ويرهب المعسـكر الغربى، ويهدد بعمليات حربية أكبر، أو بمواجهة بين المعسكرين؛ فكل ما طلبته هو مجرد أن نرفع درجة حرارة الجو السياسى والعسكرى.

ومن المؤكد أن السوفيت لو وافقوا على فتح باب التطوع لجاءنا الكثير. ولكن ميكويان رفض التطوع ورفض فكرة الإعلان عن ذلك.

ولابد لى أن أتسـاءل عن مثل هذه المفردات التى يسـرف السـوفيت فى استخدامها معنا: الصداقة.. والدعم.. والتعايش السـلمى.. والسلام.. ومساندة الاشتراكية والوقوف بصلابة فى

وجـه المحاولات الإمبريالية لاحتواء الثورات الشـابة.. إلى آخر مثل هـذه المفردات. وبعد ذلك لابد أن أتساءل: ما الذى فعلوه، وما الذى كان فى استطاعتهم أن يفعلوه ثم عدلوا عنه.. والمراجعات المستمرة لسلوكهم العام.. وأين هم من الأصدقاء وأين نحن من أعدائهم؟

أعـود مرة أخرى إلى ما كان بين السـوفيت وجمال عبد الناصر، وهو أشـد عنفا من هذا. وإن كان المعنـى واحدا. والسـلوك واحدا. ونوعيات الجليد المسـتخدمة على كل الطرقات من كثافة واحدة.. فخروتشيف قد هاجم الوحدة بين مصر وسوريا التى تمت فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨. ومـن المنطقى- ماركسـيا- أن يفعل ذلك. فهم - أى الشـيوعيون - ضد القومية. وهم ينادون بتذويب القوميات، أى بالقضاء عليها تماما.. أى بتذويبها أو تمييعها أو إعدامها فى بناء «أممى» «شعوبى» واحد كما يقولون. وكان موقف خروتشيف عجيبا. فقد جاءت عباراته عنيفـة. وكانت مفاجأة لنـا.. ما الذى أصاب الرجل؟ ما هى الجريمـة التى ارتكبتها مصر؟ أو ارتكبها ملايين المصريين والسـوريين؟ أليسـت هذه الوحدة ضد الاستعمار. ضد الغرب.. أليسـت هذه ثورة وراء ثورة ضد الإمبريالية.. أليس هذا سدا منيعا ضد الغرب الذى طرد من هذه المنطقة.. ثم من الذى يمكن أن يستفيد من الثورات الشابة بالمعاونة والمصادقة والرعاية.

شىء عجيب. ولكن بدأنا نتعود على العجائب فى علاقتنا مع السوفيت.

ومن المناسب أن أتراجع إلى الوراء قليلا لأرى الصورة أوضح.. فقد كانت حملات خروتشيف فى سنة ١٩٥٩.

ولكن شيئا حدث فى صيف ١٩٥٨ يستحق التسجيل والتأمل أيضا.

ففى صيف ١٩٥٨ سافر جمال عبد الناصر على ظهر السفينة «المحروسة» إلى يوغوسلافيا. وكانت معه أسرته والدكتور محمود فوزى. انتهت الزيارة فى هدوء. وعاد جمال عبد الناصر مسـتريحا بمناقشـاته مع تيتو. ولكن عند عودته، مارا ببحر الأدرياتيك اتصل به الرئيس تيتو وأخبره أن ثورة اندلعت فى العراق. وأن البحر الأبيض لم يعد آمنا. وخير له أن يعود. وتناقـش جمال عبـد الناصر مع د. محمود فـوزى وقرر أن يعود إلى يوغوسـلافيا ومنها إلى موسـكو. وركب جمال عبد الناصرإحدى المدمرات اليوغوسـلافية التى كانت تحرسـه وعاد بها إلى ميناء بولا اليوغوسـلافى. وركب طائرة نقلته إلى موسكو. ومفهوم طبعا أن سفر جمال عبد الناصر إلى موسكو هو سفر صديق إلى الدولة العظمى الصديقة. فهو يريد أن يعرض وجهة نظره وأن يطلب من السوفيت المساندة والوقوف وراء التطور الجديد فى المنطقة.

ولم تكــد الطائرة تصل إلى حافة مطار موســكو، حتى انتقل جمــال عبد الناصر بعيدا عن العيون إلى خارج موسكو. وهناك التقى بخروتشيف فى فيلا أو شاليه يسمونه «داتشا».

وفــى هذا المكان الهادئ الجميل الأنيق، اجتمع جمال عبد الناصر بخروتشــيف أكثر من ١٧ ســاعة. ولم يتعب جمال عبد الناصر من شرح كل شيء لخروتشيف.. ذلك الحليف الذى يســاند مصر. فشــرح له الأنظمة الموجودة فى المنطقة. الأنظمة التى يخشــى منها على ثورة العــراق.. ويخشــى أن تصبح هــذه الأنظمة نقطا للوثــوب والانقضاض على الثــورة العراقية الجديدة. ففى لبنان كان كميل شمعون وهو عميل انجليزى. وفى الأردن الملك حســين ابن عم الملك فيصل ملك العراق الذى قتل فى الثورة. وكانت هناك وحدة قامت بين العراق والأردن ردا على وحدتنا مع سوريا. ولم يترك جمال عبد الناصر شيئا فى نفسه لم يقله لخروتشيف.

وعاد جمال عبد الناصر من موســكو إلى دمشق. واحتشــدت الجماهير لتعرف ماذا حدث ومعنى ما حدث. وأين مصر من هذا الذى حدث فى العراق، وما موقف الدولة الكبرى. وجاء جمال عبد الناصر وأعلن من شــرفة قصر الضيافة فى دمشــق أنه لا خــوف على ثورة العراق ولا هم يحزنون. وأن الاتحاد الســوفيتى، كعهده دائما، يقف وراء انتفاضات الشــعوب. وأن الوقوف وراء ثورة العراق هو وقوف ضد الاســتعمار الذى يريد أن يخنق الشــعوب وفى نفس الوقت ضد الأحلاف الغربية العسكرية التى تريد تطويق الاتحاد السوفيتى.

وكانــت فرحة الجماهــير العربية لا توصف فقد ذهب جمال عبــد الناصر وقال وسمعوه ووعدوه وعاد ملىء القلب والجيب بكل إمكانيات الســوفيت بعمل شيء من أجل سلامة ثورة العراق التى قامت ضد الرجعية العربية ومتأثرة بثورة مصر وعلى منوالها..

هذا هو الذى رآه الناس فى الشرق والغرب، والذى أعلنه جمال عبد الناصر بحماس شديد من شرفة قصر الضيافة. فجمال عبد الناصر، وأى زعيم عربى، لا يطمع فى أكثر من هذا الذى حصل عليه من السوفيت.

ولكن الحقيقة غير ذلك تماما!!

فجمــال عبد الناصر عندما كان يؤكد للناس أن يطمئنوا، لم يكن هو نفســه كذلك. وعندما راح جمال عبد الناصر يزف للأمة العربية موقف السوفيت الصلب وراءهم، كان ينزف دما.. فلا شيء من هذا الذى قاله وأعلنه صحيح.. وعليك أن تتصور شكل زعيم يواجه الملايين ويقول ويصفقون له ويصرخون من شــدة الفرحة، وهو يعلم والســوفيت يعلمون أن هذا كله لا أساس له من الصحة أو الصدق!!

وأنــا سمعت تفاصيل ما جرى فى الـ ١٧ ســاعة من جمال عبد الناصر شــخصيا. فقد قال لى جمال عبد الناصر إنه حاول إقناع الســوفيت بالوقــوف وراء ثورة العراق. وأن هذه الثورة هى كســر لحزام الأمان الذى وضعه الأمريكان حول الاتحاد الســوفيتى. وأن هذه الثورة قد قامت ضد سياسة الأحلاف.. ضد احتواء الغرب لروسيا. ولم يشعر جمال عبد الناصر بمرارة وتعاســة فى حياته كلها.. كما شــعر بعد وأثناء الـ ١٧ ساعة التى أمضاها مع خروتشيف فى أجمل مكان فى روسيا..

كل شــىء كان حول عبد الناصر مختلفا عنه: كان ثائرا صارخا، «والداتشــا» هادئة، كان قلقــا والماء فى البحيرة ســاكن، كان فى حالة من الفزع، والوجــوه حوله جامدة. كان يقول.. وكأنه لا يقول.. ولم يفلح جمال عبد الناصر فى أن ينقل مخاوفه إلى خروتشيف أو مساعديه. فقــد كان هنــاك خوف على ثورة العراق.. كان هناك خــوف أن تنقض عليها أنظمة عميلة أو يحدث انقلاب فى العراق أو تمرد. أو تمزق.

وبعد ١٧ ســاعة مريرة، - أطول ١٧ ســاعة فى حياته - كما قال لى بالحرف الواحد. هز خروتشــيف رأســه، وأحس جمال عبد الناصر أن خروتشيف ســوف يقول شيئا يريحه بعد المرافعة الطويلة، ولكن خروتشيف قال له: ممكن.

وتساءل جمال عبد الناصر: ما هو هذا الممكن؟

قال خروتشيف: أن نتخذ موقفا.

قال عبد الناصر: الحمد لله ما هو؟

قال خروتشيف: نستطيع أن نحشد قواتنا.

قال عبد الناصر: عظيم!

قال خروتشيف: على حدود تركيا.

قال عبد الناصر: على حدود تركيا؟! ولكن لماذا؟

قال خروتشيف: لتخفيف الضغط ولتحويل الأنظار.. ما رأيك؟.

ولم يكــن لجمــال عبــد الناصر رأى بعد هــذا كله. فلم يكــن يتوقع بعد هــذه المرافعات والمحاكمات والاســتعراضات والصرخات والنداءات والتوســلات أن تســفر كلها عن مظاهرة عســكرية.. أى عن قوات روســية تتحرك فى داخل روســيا لتقف على حدود روسيا تدعيما لثورة العراق. هل هذا كل ما يستطيعه الروس.

وتساءل عبد الناصر: لا شيء أكثر من ذلك؟

وكان رد خروتشيف: لا شيء أكثر من ذلك.

قال عبد الناصر: وعلى رغم كل الذىقلت وشرحت .

وكان رد خروتشيف: على رغم كل ذلك.

وعاد عبد الناصر يقول: إنها فرصة أمام الاتحاد السوفيتى للقضاء النهائى على العملاء وعلى أعوانه.. ثم إنها خطوة تجذب كل شعوب المنطقة فتلتف حول روسيا.. إنها فرصة لا يمكن تعويضها. ولكن خروتشيف هز رأسه.. وازداد وجهه احمرارا وعيناه أيضا.. وحرك يديه الصغيرتين. وقال: فهمت.

وسأله عبد الناصر لآخر مرة: ما الذى فهمت؟ وكان الرد الأخير: أنه لابد من مظاهرة عسكرية على حدود تركيا لمساندة ثورة العراق ضد الأحلاف الإمبريالية!.

وفى شرفة قصر الضيافة فى دمشق واجه عبد الناصر الملايين، واخفى جرحه ومرارته وقال شيئا آخر.. ولم يشأ أن يكشف عن هذه الطعنة التىأصابته فى أعمق أعماقه! ولكنه ادخرها لما بعد. وكان خروتشيف هو البادئ بعد ذلك.

فعندما تمت الوحدة مع سوريا.. وعندما انكشف الوجه الحقيقى لثورة العراق. فلم يكن عبد السلام عارف هو الثورة أو هو الثائر وإنما كان هناك عبد الكريم قاسم. وكان شيوعيا معروفا مسجلا فى قوائم الحزب الشيوعى. هنا فقط أدرك الاتحاد السوفيتى من هو رجلهم فى بغداد أو فى المنطقة. ووقف الاتحاد السوفيتى وراء عبد الكريم قاسم. وهاجم مصر بوضوح. وأعلن خروتشيف استخفافه واستهجانه لهذه «الوحدة» بين مصر وسوريا.. هذه الوحدة «العربية».. وأن هذا مظهر من مظاهر التكتلات البدائية الساذجة المتخلفة.. فالعرب ما يزالون أطفالا.. يجتمعون تحت كلمة اللغة أو الدين أو القومية إلى آخر هذه «الهلوسات» السياسية كما يقول خروتشيف.

أما جمال عبد الناصر فقد قبل هذا التحدى العنيف من الاتحاد السوفيتى. وهاجم الاتحاد السوفيتى. وطلب منىّ جمال عبد الناصر وكنت أيامها رئيسا للاتحاد القومى أن أشرح للناس فى مصر أبعاد هذه المهزلة والمأساة معا. وذهبت أخطب الناس من القاهرة إلى أسوان.

وحاول الأمريكان فى ذلك الوقت أن يتصلوا بجمال عبد الناصر فى دمشق. ولكن المعركة استمرت مصرية ضد السوفيت.

وما لبثت هـذه المعركة أن هدأت.. انخفضت درجة الحرارة.. زال البخار والضباب معا. ووضح الطريق. وتوقفنا عن مهاجمة روسيا، وأمسك خروتشيف لسانه.

ولكـن هذا الهدوء كان نسـبيا. لم يطـل. وكان الطبيعى هو أن يكون خلاف وتشـنج فى علاقاتنا مع السوفيت.. ولا أعرف الآن بوضوح إن كانت «شعرة» معاوية بن أبى سفيان يمكن أن تكون وسـيلة للاتصال بيننا وبين السوفيت.. فمعاوية هو الذى قال: لو كانت بينى وبين الناس شـعرة ما انقطعت! كيف؟ يشـرح معاوية ذلك وهو رجل سياسـى داهية: إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها.

وهكذا تظل «شـعرة» الصداقة أو المصلحة لا تنقطع.. مهما بلغت درجة شـدِّها أو درجة تركهـا. ولكن يبدو أن هذا كلام يقال. ولكنه عمليا شـىء صعب جدا. خصوصا إذا كان طرف الشعرة يمسكه السوفيت.. والأدلة على ذلك كثيرة، كما سنرى.

وأول ما يصادفنا بعد هذا الهدوء، أن وقع الانفصال بين سـوريا ومصر سنة ١٩٦١ – وقع الانفصال. وهنا انطلق لسـان خروتشيف وهو لسان طويل. ويبدو أن هذا الرجل لم يطق صبرا على هذا الصمت المريب الرهيب. وخروتشـيف هو أول زعيـم فى العالم يخلع جزمته ويدق بها منصة الأمم المتحدة.. فى حالة غضب. ويبدو أنه من ذلك الطراز من الناس الذى لا يعرف كيف يخفى لسـانه أو حذاءه إذا ما أتيحت له الفرصة. وجاءت الفرصة. انفصلت سـوريا عن مصر وأعلن خروتشيف: ألم أقل لكم أيها العرب السذج؟

وكان يقصد جمال عبد الناصر طبعا.

ودخلنـا فى معركة جادة مع السـوفيت.. فقـد كان جمال عبد الناصر فـى حالة أليمة، فالوحدة قد انهارت فجأة، والسـوفيت شامتون إلى هذه الدرجة وغير السوفيت فى مصر وفى البلاد العربية.. ولا يستطيع جمال عبد الناصر أن يبتلع هذه المرارة، ولا أن يسكت عليها.

وفـى مواجهة هذا الانهيار من الخارج والتنسـيق من الداخل، كان لابـد من إقامة بناء فكرى يمسـك مصر ويهـدى خطاها نحو العمل الوطنـى وبناء حاضرها ومسـتقبلها! فجاء «الميثـاق» فى مايو سـنة ١٩٦٢. واحتوى الميثاق على نظرة محـددة لبداية مرحلة جديدة فى العمل الداخلى.

وطرأت على الميثاق تعديلات كثيرة.

ولكن الذى يهمنا الآن، ونحن نتابع العلاقات السوفيتية، أن نذكر أنه حدثت اجتهادات ومزايدات وتزييفات كثيرة للميثاق وما جاء فيه.

وأصبح الميثاق لعبة جديدة يتسلى بها الماركسيون فى مصر.. فقد استغلوا بعض العبارات التى تحدثت عن «الاشتراكية العلمية» وجعلوا الميثاق من أوله إلى آخره نوعا من «البيان الشيوعى» الذى أعلنه كارل ماركس وإنجلز فى منتصف القرن الماضى. وقالوا: إنه ماركسى صميم، وقالوا: اشتراكى علمى معتدل، وقالوا: اشتراكى إسلامى.. وقالوا: بل اشتراكى عربى وحدوى.

وطبيعى جدا أن يسعد السوفيت بالتفسيرات الماركسية للميثاق.. ولذلك كان السوفيت يشجعون جدا هذه الألعاب البهلوانية التى تقدم بها الماركسيون فى تفسير الميثاق وتحميله أكثر مما يطيق.. وترنحت مصر بين هذه الآراء التى لخبطت عقول الناس. وبدأ الخوف يساور الجميع: أين نحن من هذه الماركسية؟ أين تقاليدنا؟ أين ديننا. أين كل ماضينا؟ وما مقدساتنا أمام هؤلاء المبشرين الجدد.. ولكن ظل الميثاق بتفسيراته الجديدة، سيفا على رقاب الناس. والناس معذورون فى هذه الحيرة.

وفى ذلك الوقت قامت ثورة اليمن بعد عام من وقوع الانفصال فى سوريا. الانفصال كان فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦١ والثورة اليمنية فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢. وساعدنا الاتحاد السوفيتى على تدعيم الثورة اليمنية. وكانت دموع الانفصال وأحزانه قد تلاشت من النفوس واتجهت الأنظار إلى شىء جديد فى اليمن. ومضى السوفيت أيضا يساعدوننا فى بناء صرح الصناعة المصرية، ومضى أيضا فى بناء السد العالى.. لم يتوقف عن تزويدنا بالمصانع الثقيلة، ولا عن إرسال الأدوات والمعدات لبناء السد العالى. كل شىء مستمر.. البلبلة الماركسية فى مصر، وتوريد السلاح، وبناء المصانع، وبناء السد العالى.. كل شىء نشيط على جميع الجبهات. وعلى الإنسان أن يجدد حيرته وقلقه إذا كان قد نسى أن يفعل ذلك.

وكان من الطبيعى أن يحدث شىء آخر فى مصر، فى داخل مصر.. والذى حدث يمكن اعتباره تحولا داخليا.. فقد اختار جمال عبد الناصر رئيسا للوزارة على صبرى. وعلى صبرى كان مديرا لمكتب جمال عبد الناصر. وبحكم هذا المنصب يعرف الكثير من الأخبار والأسرار. وبحكم هذا المنصب يقرأ كل الأوراق ذهابا وإيابا.

وبقى على صبرى رئيسا للوزارة من سنة ١٩٦٢ حتى سنة ١٩٦٥، وفى هذه الفترة بدأنا نضع الخطط الطموحة للصناعة المصرية الثقيلة، وفى نفس الوقت كان يقوم هو وآخرون «بمركسة» الميثاق.. حتى يصبح اسم الميثاق «الميثاق الماركسى للعمل الوطنى» أو «الميثاق الوطنى للعمل الماركسى».. أو «الميثاق الماركسى» فقط..

والغريب أن على صبرى هذا لم تكن له علاقة بالماركسية، لا تفكيره ولا نشأته.. لقد كان أبعد ما يكون عن الماركسية.. ولكن الضرورة لها أحكام. ومن أحكام الضرورة أن يكون ماركسيا أو داعية لها. والتف حوله كثيرون من الماركسيين. ولم يكتف الماركسيون بالدوران حوله؛ وإنما تسللوا إلى أماكن كثيرة ومراكز رئيسية. وأكثر من ذلك أقيمت المعاهد الماركسية.

وعلى الرغم من أن جمال عبد الناصر قد عارض الماركسية وأكد أن بيننا وبينها فروقا جوهرية كثيرة. وأنا أؤكد أنه لم يكن ماركسيا، وإلا كان قد أعلن ذلك؛ لأنه رجل شجاع، ولكنهم أخذوا من الميثاق ما يعجبهم وبالغوا فيه، وتركوا ما لا يعجبهم أو ما لا يخدمهم وبالغوا فى عدم أهميته.. ومن الفروق الواضحة التى أشار إليها جمال عبد الناصر فى الميثاق. ثلاثة:

أولا: أننا نرفض سيطرة طبقة على طبقة كما تريدنا الماركسية التى تنادى بدكتاتورية الطبقة العاملة وسيطرتها على كل الطبقات.

وثانيا: أن لدينا دينا سماويا.. وأن حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة.

وأن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة. وأن رسالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات إنسانية استهدفت شرف الإنسان وسعادته، وأن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته.

وفى الميثاق أعلن جمال عبد الناصر أيضا: أن جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة وإنما ينتج التصادم فى بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين لعرقلة التقدم وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية. فقد كانت جميع الأديان ذات رسالة سامية تقدمية، ولكن الرجعية التى أرادت احتكار خيرات الأرض لصالحها وحدها أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين وراحت تلتمس فيه ما يتعارض من روحه ذاتها، لكى توقف تيار التقدم.

«إن جوهر الأديان يؤكد حق الإنسان فى الحياة وفى الحرية، بل أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرصة متكافئة لكل إنسان، إن كل بشر يبدأ حياته أمام خالقه الأعظم بصفحة بيضاء يخط فيها أعماله باختياره الحر، ولا يرضى الدين بطبقه تورث عقاب الفقر والجهل

والمـرض لغالبيـة الناس وتحتكر ثواب الخـير لقلة منهم.. إن الله - جلـت حكمته - وضع الفرص المتكافئة أمام البشر أساسا للعمل فى الدنيا وللحساب فى الآخرة..».

وعلى الرغم من هذا الإلحاح الشـديد فى الميثاق على قداسة الدين والإيمان بالله، وتقديس القيم الرفيعة، فإن دعاة الماركسية قد طمسوا هذا الميثاق وحولوه إلى وثيقة شيوعية ملحدة.

ثالثا: والفارق الثالث بيننا وبين الشيوعية الذى ذكره الميثاق أيضا هو: لا ملكية فى النظام الشـيوعى. فكل شـىء تملكه الدولة. والناس جميعا خفراء وبوابون على كل شـىء.. ثم إن الدولة تملك كل وسـائل الإنتاج ولكن نحن نقول: إن الدولة تسيطر على وسائل الإنتاج وفرق كبير جدا بين أن تملك الدولة كل وسائل الإنتاج، وبين أن تكون لها سيطرة عليها..

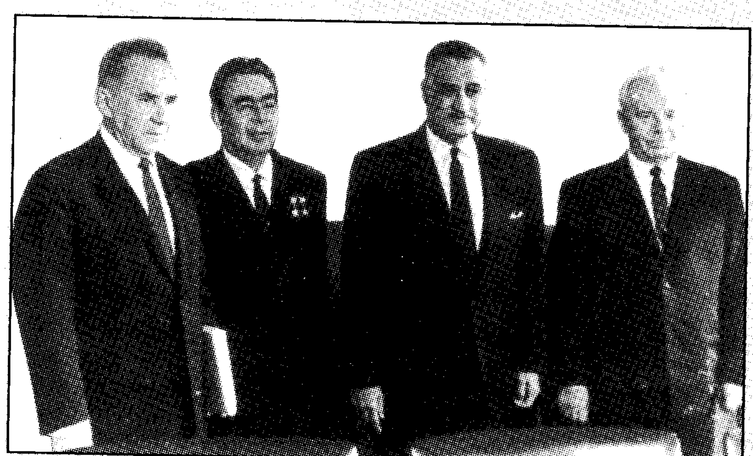
وبعد ثلاث سنوات من رياسة على صبرى للوزارة ضجت الدولة كلها وصرخ الشعب. فقد شـكك هذا الرجل فى كل شـىء، وراح يسـتعدى الناس بعضهم على بعض.. ويقلب ويؤلب الطبقـات.. إنه هو أيضا يريـد أن يجعل الجليد يغلى.. أو يدفع البلد إلى حافة الهاوية أو إلى الهاويـة تحت قدمى السـوفيت. ولما تعالت الأصوات من هـذا التضليل فى الصحف وأجهزة الإعلام والتجمعات السياسية والمعاهد الاشتراكية أتى جمال عبد الناصر بزكريا محيى الدين رئيسا للوزارة بدلا من على صبرى.

ولكن فى سنة ١٩٦٤ أى قبل تنحية على صبرى زارنا خروتشيف فى الإسكندرية. ورأى الرجـل ما لم يتوقعـه من حفاوة المصريين، وعاد إلى بلاده ليجد شـيئا آخر لم يكن يتوقعه: أنزلوه من فوق العرش الأحمر.. وأجلسوه ، تمشيا مع تقاليدهم المعروفة على دكة خشبية فى حديقة مهجورة... حتى الموت!

❑❑❑



١ - خروتشيف: وخطاب ضد ستالين .



٢ - جمال عبد الناصر مع القادة الروس فى زيارته لموسكو .



٣ - ميكويان: حاول السادات إقناعه بإعلان أى شيء ولكنه رفض !



٤ - جمال عبد الناصر وعبد السلام عارف .



٥ - عبد الكريم قاسم الرئيس العراقى الأسبق .



ألاعيب سوفيتية

- حقيقة الرسالة التى تسلمها عبد الناصر أثناء إلقائه خطاب التنحى.
- كانت الحفاوة العظيمة لخروتشيف فى الأسكندرية بداية النهاية له.
- الاتحاد السوفيتى يوافق على حذف نصف مديونية مصر.
- فى قصر القبة اقترب منى زخاروف وقال: لو كل سلاح معكم أطلق طلقة لانتهت الحرب.

من الضرورى أن أنبه إلى طبيعة العلاقات السوفيتية المصرية من حين إلى آخر.. فهى من ذلك النوع الذى يقتضيك أن تتلفت وراءك كلما مضيت فيها قليلا أو كثيرا لكى تعرف أين ذهبت وكيف اتجهت.. لأنها لم تمش فى خط واحد.. أو حتى خط مستقيم.. وهو خلاف.. أساسه كما قلت أكثر من مرة يرجع إلى طبيعة السوفيت أنفسهم وإلى طبيعتنا.. وإلى سوء ظنهم الدائم بغيرهم من الناس.

وسوف أتلفت ورائى وأطيل النظر والانتظار لنعرف أين نحن الآن.. قبل أن أنتقل إلى محطة هامة أو منعطف خطير فى علاقة السوفيت بنا وبالشرق العربى كله.

فنحن لا نزال فى عصر خروتشيف الذى زار مدينة الإسكندرية فى أواخر أيامه.. وكان يتوقع شيئا آخر غير الذى رآه. فقد استقبله الشعب بحرارة شديدة.. وكانت مفاجأة كبرى لخروتشيف. هذه المفاجأة دلت أيضا على فارق واضح بين فهم الجماهير للأمور وفهم القيادة السوفيتية أيضا. ولابد أن خروتشيف قد كان سعيدا بهذا الاستقبال بقدر ما كان مندهشا.. ولكن لا سعادته طالت ولا دهشته انتهت.. إنما هى نهايته الحقيقية.. فعندما عاد الرجل إلى بلاده ومعه أفلام الاستقبال والحفاوة تحركت القلوب ضده وتلاقت وراء ظهره الخناجر وأطاحوا به.. وأحس الزعماء السوفيت أن الرجل الذى أزاح مالنكوف وأخرج ستالين من قبره ومزقه وأزال تماثيله واتهمه بالخيانة العظمى، هذا الرجل يريد أن يكون ستالين جديدا.. يريد أن يكون الواحد الأوحد فى الاتحاد السوفيتى والمعسكر الشيوعى فى العالم.

فقد أصبح خروتشيف نجما عالميا فمواقفه مع جون كنيدى ومعاركه ومناقشاته الحادة وسخرياته اللاذعة.. وملامحه الروسية البحتة والصور التى حرصت صحف الغرب على أن تنشرها له كالدب الروسى.. أو كالامبراطور الأحمر.. لقد جعله الغرب نجما عالميا إذا ما قورن بالرئيس الأمريكى كنيدى الذى قتل فى نوفمبر ١٩٦٣ وقد لحقه خروتشيف فى العام التالى.. والسوفيت لم يقتلوا خروتشيف وإنما خلعوه بعنف وألقوا به إلى النهاية المعروفة

والمعترف بها عندهم.. أسقطوه من العرش والأبهة والفخامة ووضعوه بمنتهى الهدوء والبرود على دكة خشبية فى حديقة مهجورة ينتظر الموت!

ولكن نهاية خروتشـيف هذه شيء طبيعى كما قلت من قبل. ولكن عصر خروتشيف ترك أثراً بالغاً على علاقتنا بالسـوفيت وعلى علاقة السوفيت بالشرق الأوسط. ولذلك أرى أن أقف وأنظـر ورائى وأطيل النظر قبل أن أدفع بالأحداث أو تدفعنا الأحداث إلى علامات جديدة فى هذا الطريق.

من المعروف أن وفاة ستالين قد أحدثت تغيرا كبيرا فى سياسة السوفيت فى الشرق الأوسط فقد كان لهم دور فى الصراع العربى الإسرائيلى عندما اتخذوا جانب العرب بشكل ما. ولكن هذا الشـكل لم يتضح إلا بعد أن قام خروتشـيف بتنحية مالنكوف رئيس الوزراء السوفيتى فى فبراير سنة ١٩٥٥.

وبين سـتالين وخروتشيف خلافات كثيرة فى الشـخصية وأسلوب العمل وإن كان الاثنان لهما منطلق واحد. فستالين كان يرى الدنيا – كما قلت – معسكرين اثنين فقط: كتلة شيوعية وكتلـة رأسمالية. ولكن خروتشـيف يختلف عنـه قليلا فهو يرى الدنيا ثـلاث كتل: كتلة شـيوعية وكتلة رأسمالية وكتلة العالم الثالث. وكان يرى أنه من السهل احتواء العالم الثالث عن طريق المعونات العسكرية والاقتصادية وهذا التصور هو الذى كان مصدر المتاعب للسوفيت ولنا وللعالم الثالث.

ومن مفارقات القدر أن يكون وزير خارجية أمريكا الجديد فوستر دالاس من رأى ستالين وليس من رأى خروتشـيف. فهو أيضا يرى الدنيا كتلتين: الرأسمالية والشـيوعية ولا ثالث لهما، إما معه وإمَّا ضده، وكان على هذين الرجلين دالاس وخروتشـيف أن يتعاملا ويتفاهما ويقسـما السياسـة الدولية وفى نفس الوقت ألا يدفعهما الخلاف إلى المواجهة العسـكرية أو التصادم فى المناطق الساخنة أو الباردة من العالم.

ولذلك عندما حاول دالاس أن يضم بعض الدول العربية فى حلف عسـكرى ضد الروس، أدى ذلك إلى صدام مع هذه الدول العربية ولكن عقلية دالاس لا تستطيع أن ترى وسيلة أخرى لتكتيل المعسكرات غير «حشر» الدول كلها فى سلتين.. السلة الشيوعية والسلة الرأسمالية.. ولذلـك اسـتحق دالاس مـن الرئيس الأمريكـى ايزنهـاور أن يصفه بأنه أعظم السياسـيين الأمريكان!

وغلطة أخرى وقع فيها دالاس أيضا أنه فى هذا التحالف العسكرى- حلف بغداد - كان قد ضم بريطانيا وهى الدولة الاستعمارية التى تحركت الدول الشابة فى المنطقة للتخلص منها وأحلافها ومعنى ذلك أن الأمريكان قد جمعوا الحمل مع الذئب فى حلف عسكرى ضد روسيا فى حين أن العرب تحالفوا ضد الاستعمار البريطانىوالفرنسى فى المنطقة!

وقد ثار جمال عبد الناصر على هذا الحلف كما ذكرت وكما هو معروف واتجه لشراء السلاح من روسيا. وصفقة السلاح هذه محطة وقوف وتأمل فى الطريق بين موسكو والقاهرة فالروس وافقوا على بيع السلاح ليكون لهم مكان جديد فى الشرق الأوسط. ومن هذا المكان يمارس السوفيت سياسة تدخل جديدة فى المنطقة وفى المياه الدافئة مياه البحر الأبيض والأحمر.

وكان بيع السلاح لمصر ولغيرها بداية معضلة وقع فيها الروس. فالدول التى تشترى السلاح لا تشترط معها تدخلا سوفيتيا ولكن السوفيت لا يرون ذلك ولا يتصورون أنهم يبيعون وبعد اتمام الصفقة ينتهى كل شىء بل أن هذه الأسلحة قد تدفع الدول التى اشترتها إلى مغامرات حربية.

لا يستطيع السوفيت منعها أو التحذير منها بل إن هذه المغامرات العسكرية قد تهدد السوفيت أنفسهم بمواجهة عسكرية مع الأمريكان فالسوفيت أعطوا السلاح ودخلوا المنطقة ولكن ليست لهم قدرة على السيطرة على الزبائن الجدد وقد أحس السوفيت بذلك عند حرب ١٩٥٦ أى أيام العدوان الثلاثى على مصر وكان وضعهم أشد حرجا مع حرب يونيو ١٩٦٧ فقد أرسل السوفيت شحنات من الأسلحة إلى مصر قبل نشوب حربى ٥٦ و٦٧.

وواجه السوفيت معضلة أخرى فبعد إعطاء مصر المعونات العسكرية والاقتصادية والمساندة الأدبية لمصر بعد تأميمها قناة السويس أعلن جمال عبد الناصر تحريم أى نشاط شيوعى ووضع الشيوعيين فى السجن وكان واضحا من ذلك أن جمال عبد الناصر لا يخلط بين السوفيت كدولة عظمى صديقة وبين النشاط الشيوعى الذى يهدد الأمن والحكم فى مصر. وأعلن جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت أنه لا شىء يهدد تدعيم الصداقة المصرية السوفيتية حتى لو حاكمنا كل الشيوعيين فى مصر وأودعناهم السجون!

هذه المواقف كلها كانت خيوطا متينة التفت حول عنق خروتشيف وجاء خصومه وشدوها بعنف.. ثم رموه وعلقوه منها والنهاية معروفة وقد شكا خروتشيف من معاملة الحزب الشيوعى فى مصر فخروتشيف على رأس الشيوعية الدولية ولا يستطيع أن يسكت عن هذا

الذى جرى فى مصر ومن واجبه حماية أى شيوعى فى مصر ولكن جمال عبد الناصر استنكر هذا التدخل السوفيتى فى شئون مصر الداخلية وساءت العلاقات وانخفضت الأرض تحت المشاة فى طريق موسكو - القاهرة.

وكذلك كان الحزب الشيوعى السورى حجرا ثقيلا فى طريق خروتشيف.. ففى سنة ١٩٥٧ بدا للروس أن الشيوعيين سوف يقبضون على السلطة فى سوريا وقد نشط هذا الحزب وجمع صفوفه واتجه بدعايته الضخمة إلى دمشق خصوصا بعد سقوط الشيشكلى سنة ١٩٥٤. فقد كانت الحكومة السورية موالية للروس. وكانت الزيارات المتبادلة بين سوريا وروسيا واضحة. وأعلنت الصحف الأمريكية كلها أن سوريا على «حافة الهاوية» السوفيتية أى إنها سوف تسقط فى المعسكر الشيوعى.. عندما حدث شىء هز القيادة السوفيتية وأثبت خطأها فى الحساب وأحرج خروتشيف حرجا فظيعا.. لقد أعلنت سوريا الوحدة مع مصر فى دولة جديدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة.

وكما دخل الشيوعيون المصريون السجن لحق بهم الشيوعيون السوريون أيضا ونزل تحت الأرض الحزب الشيوعى السورى أقوى الأحزاب الشيوعية فى المنطقة. وجاءت هذه الوحدة انتصارا للقومية العربية ولجمال عبد الناصر وصدمة للشيوعية الدولية وهزيمة للقيادة السوفيتية.

ثم استحكم الصراع بين القومية العربية والشيوعية عندما سقط نظام نورى السعيد الموالى للغرب فى يوليو سنة ١٩٥٨ وانضم إلى المد القومى الذى بلغ أوجه بالوحدة بين سوريا ومصر. وعلى الرغم من محاولة جمال عبد الناصر أن يحصل من السوفيت على مساندة للنظام الجديد فى العراق فإن عبد الكريم قاسم قد أسفر عن وجهه الحقيقى فيما بعد فهو رجل شيوعى ولذلك ساعده السوفيت وقدموا له معونات عسكرية واقتصادية وباعدوا بينه وبين المد القومى وإن كان عبد الكريم قاسم فيما بعد قد استخدم الشيوعيين ضد الناصريين فى العراق ليضعف الاثنين معا، ولكن السوفيت ساندوا عبد الكريم قاسم فى حرصه المستمر على الانفصال عن المد القومى بزعامة جمال عبد الناصر، فكتبت صحيفة برافدا فى مارس ١٩٥٩ تقول وبسخرية شديدة ما معناه «أن بعض الشخصيات فى المنطقة تدعو إلى وحدة الدول العربية كلها معا وحدة ميكانيكية فورية» سواء رغبت هذه الدول أم لم ترغب فإذا لم توافق هذه الدول على الوحدة بالإكراه اتهموها بأنها شيوعية أو صهيونية أو معادية للشعب العربى-والمقصود بهذا كله طبعا جمال عبد الناصر-!

وعلى الرغم من محاولات خروتشيف للتقارب مع مصر وتذويب الجليد أو كنسه من الطريق فى سنة ١٩٦٠ فقد اصطدم خروتشيف فى مايو سنة ١٩٦١ بوفد برلمانى مصرى كنت أرأسه وكنت وقتها رئيسا لمجلس الأمة.. وكانت مناقشة حادة بيننا وأصر خروتشيف على موقفه كرأس للشيوعية الدولية. فقال: إذا أردتم الاشتراكية فلا تعارضوا الشيوعية!

وقال أيضا: إن القومية العربية ليست قمة السعادة.. وقال أيضا: إن الحياة نفسها سوف تفرض عليكم الشيوعية! وأصيبت العلاقات السوفيتية المصرية بصدمة عنيفة وتمزقت.

وعلى الرغم من مساندة السوفيت للعراق عسكريا واقتصاديا فإن عبد الكريم قاسم أراد أن يستقل بسياسته هو أيضا. ثم أبعد الشيوعيين عن السلطة حتى سقط عبد الكريم قاسم سنة ١٩٦٣ وحوكم مئات الشيوعيين.

واتجه السوفيت بعد ذلك إلى بلاد عربية أخرى يحاولون أن يعوضوا المواقع التى خسروها فى مصر وسوريا والعراق.. وهذه قصة أخرى تستحق المتابعة والتسجيل ولكن لا أريد أن أبعد كثيرا عن الهدف الذى حددته منذ البداية وهو: رسم الطريق الذى بيننا وبين موسكو بكل ضيقه واتساعه وانخفاضه وارتفاعه ومنعرجاته صعودا وهبوطا.

ولابد أن خروتشيف قد اقتنع أخيرا بأنه من الممكن أن تتجه الدول إلى الاشتراكية دون مساعدة من الأحزاب الشيوعية فى المنطقة وقال بعض المؤرخين فى ذلك الوقت: إن خروتشيف قد أحس بأن ما قاله لى فى موسكو قد تحقق وأن العالم العربى فى طريقه إلى الشيوعية.

ولكن لم ينج خروتشيف من المساءلة أمام القيادة الحزبية كيف يساعد السوفيت دولة كمصر على رغم ما تفعله بالشيوعيين وهنا اخترع فلاسفة الحزب الشيوعى تعبيرات جديدة لوصف ما يجرى فى الشرق الأوسط فقد وصفوا نظامنا فى مصر بأنه «الطريق اللارأسمالى» أو «الديمقراطية الثورية».. وكانوا يقصدون بذلك نوعا من الاشتراكية تتحقق بشكل ما دون معونة من الأحزاب الشيوعية ولكن قرر خروتشيف أيضا أنه على الشيوعيين المصريين أن يتسللوا إلى السلطة وإلى الاتحاد الاشتراكى لتوجيهه من الداخل وصدرت التعليمات إلى الحزب الشيوعى المصرى – وهو تكوين هزيل– بأن ينشط فى داخل التنظيمات الشعبية والسياسية فى مصر ليبدأ السوفيت بعد ذلك سياسة جديدة هى سياسة الاتصال المباشر مع مصر: حزبا لحزب.. أى مندوبون من الحزب الشيوعى يزورون مصر ويعقدون جلسات عمل

مـع مندوبى الاتحاد الاشـتراكى فى مصر. وكان من رأى خروتشـيف أن مثل هذه العلاقات سوف تعجل باندفاع الأحزاب الاشتراكية ودحرجتها على طريق الشيوعية.

ولكن عددا من الشـيوعيين العرب قد اسـتنكر هذه السياسة السـوفيتية الجديدة ودارت مناقشات حادة حول هذه التعبيرات الجديدة التى صدرها السوفيت إلى المنطقة.

وفى هذه الأثناء جاء خروتشـيف لزيارة مصر ليرى بنفسه ما الذى يجرى فى هذه البلاد التى سـاعدها السـوفيت ويبنون لها السـد العالى. وجاءت هذه الزيارة تؤكد أن خروتشيف لم يسـتطع أن يفهم شيئا. وقد اندهش خروتشـيف جدا عندما صفقت الجماهير لعبد السلام عارف وهو يردد آيات من القرآن الكريم.

وقال: اعترف بأننى لا أستطيع أن أفهم العرب..

وقال أيضا: لا توجد وحدة واحدة أستطيع فهمها سوى وحدة الطبقة العاملة!

ولكنـه فى نفس الوقت لم ينـس أن يفعل ما يدعم «وضعية» الاتحاد السـوفيتى فى مصر عندمـا تبرع بمزرعـة ميكانيكية هذه المزرعة خلقت لنا عددا من المشـاكل لم تنته إلا أخيرا جـدا وعلى أيامى أنا.. وقيل فـى ذلك الوقت إنها نموذج لمزارع الدولة أى إن المزارع يجب أن تكـون للدولة لا يملكها أحـد فالدولة هى التى تملك والناس جميعا عمال زراعة وأنفقنا على هذه الأرض حوالى سبعين مليون جنيه.. ولكن أحدا لم يتقدم لهذه الأرض ولا يعرف ما الذى يمكن عمله. لأن هذه الأرض – كما قيل وقتها – إنها مزارع دولة.. وأن الميثاق الذى «مركسوه» فى ذلك الوقت ينص على ذلك! وبدلا من أن نسـتفيد مـن هذه الأرض ظلت كما هى. وحاول سيد مرعى وكان وزيرا للإصلاح الزراعى أن ينقذ هذه الأرض من التفسيرات العجيبة للميثاق وعلى الرغم من أنه حصل على موافقة من جمال عبد الناصر فإنه لم يستطع أن يذهب إلى أبعد من ذلك فقد ثارت عليه مراكز القوى وثار عليه «دراويش» الاشـتراكية، ثم عاد سـيد مرعى وكـرر المحاولة وهو نائب رئيس وزراء وعلى أيامـى أنا وأقترح أن تتولى هذه المزرعة بعض الشركات ولكنه لم يوفق أيضا.

وظلـت هذه الأرض على مـا هى عليه لا يقربها أحد حتى طـرت فوقها ورأيتها وقررت اسـتغلالها وتوفير التكنولوجيا الحديثة لها وبذلك تنتج أربعة أو خمسـة أمثال ما تنتجه الأرض بالطريقـة العادية فهذه الأرض مزودة بكل ما هو ضرورى. فالمراوى موجودة ومبطنة بالأسمنت والأرض مسـتصلحة والمياه قد ركبتها وبهـا ثلاث محطات رفع.. ولو زرعت هذه

الأرض التى مساحتها حوالى ٧٠٠ ألف فدان لكانت قد حَلَّتْ لنا مشكلة الطعام فلا يتبقى لنا غير القمح الذى نستورده.

فهذه الأرض انتزعناها من الصحراء شمال مديرية التحرير والمريوطية وهى من أجود أرض وادى النيل وبقيت على هذه الحال حتى سنة ١٩٧٥ لا يقترب منها أحد والسبب هو هذا التفسير الماركسى للميثاق ولكن الأرض قد أعطيت لشركات تحسن استغلالها فى وزارة ممدوح سالم. وكان نصيب هذه المزرعة أن ظلت بائرة: خسارة فادحة على مصر بسبب هذه البلبلة الماركسية التى حدثت أيام وزارة على صبرى التى أقلقت الناس وأفزعتهم على مستقبلهم.. وقبل تنحية على صبرى سافرت مع جمال عبد الناصر وزكريا محيى الدين إلى موسكو. وكان ذلك فى سبتمبر ١٩٦٥.

فى هذه السنة حدثت تغييرات فى العالم. فبعد اغتيال كيندى فى ١٩٦٣ جاء جونسون رئيسا لأمريكا وفى فبراير ١٩٦٥ قرر الرئيس جونسون أن يدخل معنا فى مواجهة ونحن نعلم يقينا أن جونسون قد باع نفسه لإسرائيل وهو أيضا قد أتى بالأخوين «روستو» وجعل أحدهما فى وزارة الخارجية والثانى فى الأمم المتحدة وكلاهما صهيونى وهما المحركان لسياسته الخارجية.

وأول محاولة للتحدى أو المواجهة معه أن أرسل لنا فى مارس «تالبوت» أحد رجال وزارة الخارجية ومعه إنذار إلى جمال عبد الناصر. الإنذار يقول: إن القوات المصرية يجب ألا تزيد عن عدد معين وإنه لابد من إجراء تفتيش على استخدامنا للطاقة النووية ولم يكن لهذا سوى تفسير واحد: هو أن أمريكا تريد استدراجنا إلى مواجهة معها. فالرئيس جونسون يعلم مقدماً أن مثل هذه الطلبات أو هذا الإنذار سيرفضه جمال عبد الناصر ورفضه بالفعل.

وكانت النتيجة التى تريدها أمريكا: قطع المعونة الأمريكية عن مصر وكنا قد اتفقنا على هذه المعونة مع الرئيس الراحل جون كنيدى وكانت اتفاقية كنيدى وعبد الناصر لمدة ثلاث سنوات وهى اتفاقية لم يوقعها كنيدى إلا مع دول المعسكر الغربى فقط.

وكانت هذه المعونة تستوعب السنوات من ٦٢ إلى ٦٥ وهى سنوات حكم على صبرى التى أتت على الأخضر واليابس. فجاء انقطاع المعونة كارثة أخرى على مصر. فقد كنا بمقتضى هذه المعونة نشترى القمح بالجنيه المصرى. أما العملات الصعبة فنوفرها لعمليات البناء.. وكانت حرب اليمن تقتضى فى ذلك الوقت تكاليف فادحة.

ووصلنا فى سنة ١٩٦٥ إلى أسوأ حال يتمناه لنا أشد الناس عداوة وشماتة فى مصر!

فى شهر سبتمبر من هذه السنة سافرنا إلى الاتحاد السوفيتى وكانت القيادة السوفيتية قد تغيرت ذهبت قيادة خروتشيف فى ١٩٦٤ وجاءت قيادة جديدة من بريجنيف وكوسيجين وكان ميكويان ما يزال رئيسا للدولة ولم يكن بودجرنى قد حل محله وإن كانوا يجهزونه لمنصب الرياسة وذلك بأن قدموه فى الحفلات العامة على أنه هو الرجل القادم بعد ذلك.

وصلنا يوم السبت ونقلونا فورا إلى «الداتشا» التى يخصصونها للقادة السوفيت وهى تبعد عن موسكو حوالى ٥٠ كيلو مترا. المكان جميل جدا والبحيرات جميلة وفيها يتوالد البط الذى يجىء لنا هنا فى مصر وهذا البط موجود هنا لصيده وأكله على مدار السنة وحول الداتشا توجد مصايد للأسماك وغابات للخنزير البرى كل شىء فى غاية الجمال والروعة.. أما جمال عبد الناصر فقد انفرد به بريجنيف وكسيجين.. أما زكريا محيى الدين وأنا فقد تركونا مع ميكويان. ودارت الأحاديث السبت والأحد بين جمال عبد الناصر مع الزعيمين السوفيتيين بريجنيف وكوسيجين.

وعرفت من جمال عبد الناصر شخصيا موضوع هذه الأحاديث وكانت القيادة السوفيتية مشغولة جدا بشوان لاى. فقد مكث شوان لاى فى القاهرة ثلاثة أسابيع وكان شوان لاى متجها لحضور مؤتمر عدم الانحياز فى الجزائر. ولما وقعت الثورة هناك تخلف فى القاهرة. والسوفيت يعلمون جيدا أن شوان لاى صديق لجمال عبد الناصر.. ثم إنه هو الذى تنبأ له بأن يكون نجما صاعدا وهو الذى طلب من الروس أن يدركوه بالسلاح قبل أن يتجه وجهة أخرى على نحو ما ذكرت فى حلقة سابقة وكان الخلاف بين السوفيت والصين قد بدأ قبل ذلك بخمس سنوات ولكنه فى تلك السنة قد بلغ القمة وكان السوفيت يريدون أن يعرفوا الكثير عن شوان لاى ولذلك كانت محادثاتهم مع جمال عبد الناصر ذات أهمية بالغة.

وطبيعى أن يشرح جمال عبد الناصر للقيادة السوفيتية المأزق الذى وقعت فيه مصر بعد أن قطع الأمريكان المعونة عنا وأن خطتنا ومشاريعنا فى غاية الطموح وإننا مضطرون إلى وقف هذه المشاريع وأن هناك مشاريع قد توقفت عند منتصفها أو ثلثها وأن مصر تريد أن تكمل ما بدأت. ودارت مناقشات طويلة ولابد أن السوفيت كانوا يعلمون الكثير من التفاصيل عن مصر وكان من مطالب مصر أن يعطينا الاتحاد السوفيتى «فترة سماح» من تسديد الديون المستحقة علينا لمدة خمس سنوات وفى فترة السماح هذه لا ندفع الأقساط المستحقة على معونة السد العالى وقيمة المصانع التى نبنيها وثمن السلاح الذى اشتريناه.

وفـى الاجتماع الذى انعقد يوم الاثنين وقف كوسـيجين وقال: إننا درسـنا الوضع تماما ونريد أن نقف إلى جوار مصر وعلى ذلك فقد قررت الحكومة السـوفيتية والمكتب السياسـى بعد مناقشـة هذا الموضوع: أن الاتحاد السـوفيتى يوافق على حذف نصف مديونية مصر أى ٢٠٠ مليون جنيه استرلينى وعلى ذلك فسوف تنخفض الأقساط إلى النصف.

فالروس قد وافقوا على التخفيض ولكنهم لم يوافقوا على تأجيل الأقسـاط وكان ذلك قرارا حاسما ومن العدل أن نذكر هذا الموقف للاتحاد السوفيتى.

وحتى بعد أن ذهبت حكومة على صبرى ظلت التيارات التحتية تلعب وظلت «الدردشـة الاشـتراكية» أو «مركسـة» ميثاق العمل الوطنى مستمرة. والشـيوعيون قد تسللوا إلى مواقع شـديدة الحساسية تمشيا مع نداء خروتشيف بمسـاندة الديموقراطيات الثورية حتى تنضج وتسقط تحت أقدام الشيوعية الدولية.

إلى أن كانـت ١٩٦٧ ووقـع لنا ما وقع وانهدم على رءوسـنا الكثير ممـا أقمناه فى عقولنا وقلوبنا.. فعاد الاتحاد السوفيتى يلعب أيضا لعبة قديمة وهى مساندة بعض الدول ضد مصر، أو بعض النظم ضد مصر.. فكما سـاند عبد الكريم قاسـم ضد جمال عبـد الناصر.. فعل نفس الشىء مرة أخرى فساعد «الرفيق» صلاح جديد فى سوريا ضد جمال عبد الناصر.. وكان صلاح جديد شـيوعيا مسـتغرقا فى ذلك وأخذ من الشيوعيين الاسـم ولذلك كانوا يلقبونه بالرفيق، وكان حريصا متشـرفا بهذا اللقب. وأخذ من الشـيوعيين إلى جانب اللقب كل شىء وظل هذا هـو حـال صلاح جديد وكذلك حـزب البعث السـورى إلى أن جاء حافظ الأسـد وقام بثورته التصحيحية سنة ١٩٧٠ وكان حزب البعث السورى قد «تمركس» لإضعاف مصر.

وبدأ الاتحاد السـوفيتى يطبل ويزمر لصلاح جديد. الوجه الجديد والزعيم النموذجى وإن صلاح جديد هو القدوة وأن العرب يجب أن يمشوا وراء صلاح جديد فهو الإصلاح الجديد لكل الأنظمة فى المنطقة.

ولم يسـتطع جمال عبد الناصـر أن يهضم مثل هذه الاسـتفزازات ولا هذه العبارات التى اعتبرها نوعا من النقد العنيف له والاسـقاط على حكمه أو دعوة لاسـقاط حكمه.. وحدث أن كنت فى مايو ١٩٦٧ على رأس وفد برلمانى يزور موسكو وهناك أبلغونى رسميا أن إسرائيل قد حشدت أحد عشر لواء على حدود سوريا وأنهم قد نقلوا هذا الخبر لجمال عبد الناصر ودخلت فى نقاش وجدال عنيف وكان واضحا جدا إعجابهم الشـديد بصلاح جديد وقد صارحتهم فى

ذلك بأن صلاح جديد هذا سوف ينكشف لهم وسوف يصابون بخيبة أمل أخرى كالتى أصيبوا بها مع عبد الكريم قاسم وأنها نفس اللعبة وسوف تكون لها نفس النهاية.

وقلت أيضا: ليست هذه نبوءة ولكن هذه حقيقة وأنتم لا تعرفون كيف تقرءون التاريخ العربى فنحن شعوب لنا أصالة وأنتم لا تفهمونا وسوف ترون أننا لن نتغير وأننا نقول ما نعمل.. ونعمل ما نقول.

ولما عدت إلى القاهرة تحققت من أن السوفيت قد أخبروا جمال عبد الناصر بكل شىء.

وكنا فى مأزق فإذا نحن سكتنا عن مساندة سوريا قيل: تركوا السوريين حتى ضربتهم إسرائيل وسوف يشنع علينا السوفيت فى المنطقة ثم إن بيننا وبين السوريين معاهدة دفاع مشترك. وجمال عبد الناصر رجل إذا قال فعل وإذا وعد فإنه يفى بالوعد.

فلا مفر من القتال فأصدر أمره إلى عبد الحكيم عامر بدخول الحرب وكانت هزيمتنا فى ٥ يونيو ١٩٦٧ تلك النهاية المريرة على نفوسنا جميعا.

وأذكر فى صباح ٥ يونيو أننى عرفت بموعد الهجوم وقلت كما قال كل مصرى: إن اليهود سوف يذوقون الهوان والهزيمة فى هذه الحرب لا شك فى ذلك فنحن على استعداد لكل الاحتمالات.. هذا مؤكد.. وفى ذلك اليوم خرجت من بيتى متجها إلى القيادة، الطريق من الهرم إلى القيادة مارا بشارع صلاح سالم يستغرق حوالى نصف الساعة وعندما اقتربت من القيادة وجدت أمامى سيارة السفير السوفيتى طبيعى لابد أنه جاء للتهنئة وقابلت عبد الحكيم عامر وكان فى حالة سيئة جدا فالقصة معروفة لقد ظل معلقا فى الجو بطائرته وعندما نزل بها كان الطيران المصرى كله قد ضرب على أرض المطارات.. إلى آخر القصة الحزينة التى أوجعت كل قلب فى مصر وعلى مصر أيضا.

ولم أجد السفير السوفيتى أمامى لقد ركب الأسانسير ونزل إلى جمال عبد الناصر فى المخبأ التحتانى وكانت الحقيقة شيئا آخر تماما فهذا السفير السوفيتى لم يجىء من نفسه مهنئا وإنما جاء مدعوا فقد استدعاه عبد الحكيم عامر لأنه اعتقد أن الأمريكان هم الذين ضربونا وحطمونا. وكانت غلطة من عبد الحكيم عامر لأن استدعاء السفير السوفيتى هذا قرار سياسى وليس قرارا عسكريا. وكان ذلك سببا فى مناقشة حادة عنيفة بينه وبين جمال عبد الناصر ومما قاله جمال عبد الناصر لعبد الحكيم عامر فى ذلك الوقت: ليس هذا شأنك.. هذا شأنى. ثم أرنى ذيل طائرة أمريكية وأنا أعلن ذلك للعالم كله واقطع العلاقات مع أمريكا فورا ولكن الذى آراه حتى الآن هو أنه عدوان إسرائيلى بحت!

وطلب جمال عبد الناصر من السـفير السوفيتى أن يبحث لنا عن طريقة لوقف إطلاق النار وأن يمدنا بالطائرات بدلا من التى تحطمت على الأرض.

وإنصافا للحق وللتاريخ أقول: إن الاتحاد السـوفيتى لم يكن فى استطاعته أن يمدنا بهذه السـرعة فأين تهبط طائراته إذا جاءت. فالمطارات كلها مضروبة ولا يوجد مطار واحد مؤمن فى مصر كلها وبعض الناس يتهمون السوفيت بالتقصير ولكن أنا أرى أنه ليس كذلك فلم يكن فى وسع السوفيت أن يفعلوا شيئا بهذه السرعة المطلوبة صحيح أننى أحمل السوفيت مسئولية أشياء كثيرة وقعت فى مصر ولمصر ولكن فى هذه الظروف لم يكن فى وسع السوفيت أن يفعلوا شيئا بهذه السرعة التى نريدها.

وفى ذلك الوقت سادت موجة عنيفة تتهم السلاح السوفيتى بأنه هو سبب النكسة.

ولكن ليس هذا صحيحا وكان ذلك رأى جمال عبد الناصر ورأيى أيضا فلا عيب فى السلاح إنما العيب فينا.. فى هذا الانهيار القيادى وبسـبب الأمر الخاطئ بالانسـحاب.. وأذكر أن خبيرا عسـكريا زار إسرائيل بعد النكسة فقال لهم: إن الهزيمة ليس سببها شطارتكم ولكن خيبة المصريين، فأنتم لم تفعلوا شيئا وإنما المصريون هم الذين استداروا وانهاروا! طبعا شىء آخر مختلف تماما هو الذى حدث فى حرب أكتوبر.. عشـرات الأشـياء الجديدة والمبادرات والابتكارات واختيار كل شـىء والتخطيط والدراسة والحسـابات الدقيقة.. الصورة مختلفة تماما ولذلك كانت النتيجة مختلفة أيضا.

ودخلت علاقتنا مع السوفيت فى منحنى جديد.. وأتذكر الآن اجتماعا فى قصر القبة كان فيه بودجرنى رئيس الدولة وزخاروف رئيس الأركان السـوفيتى الذى توفى أخيرا. اقترب منى زخاروف قائلاً: لو كل سلاح معكم أطلق طلقة واحدة لانتهت الحرب ضد إسرائيل ولكنكم لم تفعلوا شـيئا! إلى هذه الدرجة كان السـلاح فى أيدينا كافيا. ولكن الحرب ليست السلاح فى الأيدى فالسـلاح وحده لا يحارب والحروب لا يكسـبها السـلاح وحده وإنما السلاح والرجال والخطة والإعداد والاسـتعداد ومعرفة ما سـوف يحدث فى أية لحظـة وتأمين كل خطوة قبل وأثناء وبعد الحرب.. وتأمين طريق الأوامر وتنفيذها.. إنها الاسـتراتيجية العلمية السـليمة وحسن استغلال كل ما هو متاح وغير ذلك هو الذى يدير الحرب لصالحنا.

ومن المناسب أن أسجل للسوفيت موقفا فأثناء إلقاء جمال عبد الناصر لوثيقة التنحى جاءه خطاب من قادة السـوفيت وهذا يفسـر توقف جمال عبد الناصر لحظـات عن المضى فى إلقاء

خطابه واتجه بعينه إلى اليسار وفى الخطاب يطلبون إليه ألا يتخلى عن السلطة وأنهم سوف يعوضونه عن كل خسائره فى الحرب.. ولكن جمال عبد الناصر أكمل خطابه.

وبنــاء على خطاب القادة الســوفيت هذا بدأ الكوبرى الجــوى والبحرىّ الطائرات تهبط فى القاهرة والســفن ترسو فى الاســكندرية تحمل العتاد إلى مصر تعويضا عن الذى خسرناه فى حرب يونيو ١٩٦٧ .. وهذا موقف رائع من الســوفيت لا شــك فــى ذلك.. وأقمنا مراكز للتدريب فورا حتى تستوعب قواتنا الأسلحة الجديدة وكان الروس يقدرون فترة الاستيعاب من ســنة ونصف الســنة إلى ســنتين. فإذا فعلنا ذلك نكون قد حققنا معجزة غير أن جنودنا وكادراتنا قد اســتوعبت ذلك فى ســنة ولكن الروس اعتبروا ذلك اســتعجالا للأمور.. وأنه يســتحيل علينا أن نســتوعب هذه الأسلحة المعقدة المتطورة فى هذه الفترة القصيرة وإن الذى فعلناه هذا ليس إلا لعبا ولهوا وإننا إذا اكتفينا بهذا القدر من التدريب فســوف نلقى المصير السابق إذا دخلنا أى اشتباك ولم يتصور الروس أننا نجحنا فى إقامة خط دفاعى بعد خمسة شهور من الهزيمة!

ومع الهزيمة والشــعور بالمرارة والهوان والفتور بيننا والشماتة العامة بدأ الجليد يتساقط بكثرة على الطريق بين موسكو والقاهرة.. بل قد أضيف إلى الجليد المزيد من الضباب والشوك.. والشك.. فالروس يسخرون من المقاتلين المصريين.. أنهم لا يقولون ذلك صراحة ولكن التعامل مع القوات المصرية يؤكد كل يوم ذلك المعنى الأليم.. ودخلنا مع السوفيت فى مرحلة معناها: عــدم الثقة فــى قدرتنا العســكرية على عمل أى شــىء ابتداء من فهم الســلاح وحمله حتى الاســتعداد أو الإعداد لأية معركة.. وأشــد من ذلك إيلاما للنفس أنهم يؤكدون لنا أن هذه هى النهاية.. وأنه أفضل أن نبتلعها على مهل.. وأن هذه حدودنا وحدود قدرتنا.. كأنهم يطلبون منا أن نشكر إسرائيل على أنها قد دلتنا على وزننا الحقيقى!

ليس أشد من ذلك إهانة للإنسان ولا أقسى من ذلك أن يهون الإنسان على نفسه!

وفى يوم ١٠ أغســطس ســنة ١٩٦٧ كان الرئيــس تيتو فى الاســكندرية وكان جمال عبد الناصر فى أسوأ حالاته النفسية بل إننى لم أر جمال عبد الناصر فى كل التسعة عشر عاما من صداقتنا كما رأيته بهذا الأســى والمرارة فى ذلــك اليوم.. انفجر جمال عبد الناصر وهو يقول لتيتو: أرجو أن تسافر من هنا إلى هناك وأن تخبر السوفيت أننى تعبت.. مللت.. أننى ضقت بهذه المعاملة الفظيعة التى يتبعها الســوفيت معى.. احمل رسالة منى.. وقل لهم: إن قواتنا

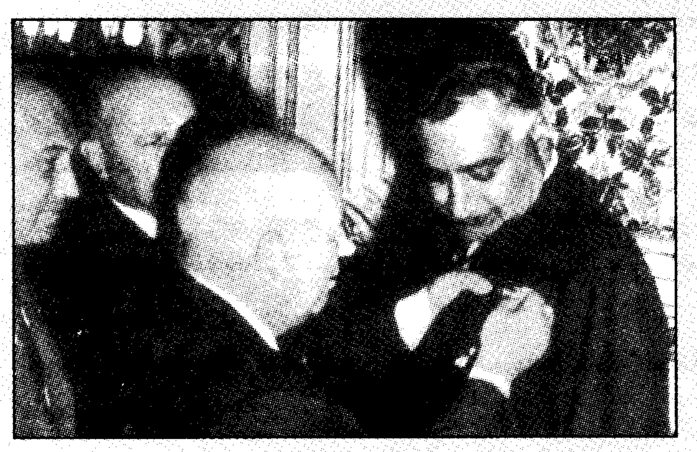
استوعبت السلاح فى هذه الفترة القصيرة.. وإن هذا حدث.. وأنا على يقين من ذلك.. وإننى لو قلت للشعب: إننى لن أقدر على استيعاب هذا السلاح إلا بعد سنتين فسوف يثور الشعب ويهد البلد علينا بعد ما انهدمت!

وقال له جمال عبد الناصر: كان من الضرورى إقامة خط دفاعى وقد قام ومن الضرورى أن تكون حربا نشطة حتى لا يلتقط العدو أنفاسه ويقوم بتدعيم لخطوطه ومواقعه ويحصل على تعويضات سريعة من أمريكا.

وطلب إليه أن يقول للسوفيت: إننى أرفض هذه المعاملة المهينة وأنا كفرت بكل شىء.. فليحتل اليهود مصر!

وجاءت هذه العبارة إعلانا لبداية التواء جديد فى الطريق بيننا وبين موسكو.

□□□



١ - خروتشيف يقلد عبد الناصر أرفع وسام فى الاتحاد السوفييتى .



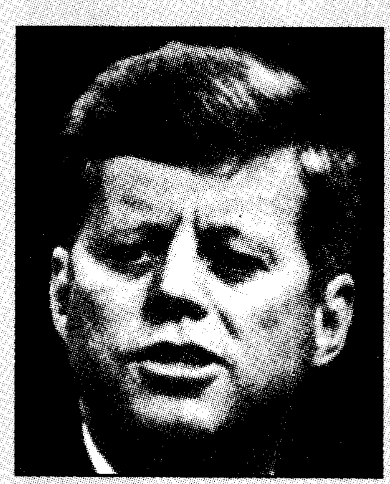
٢ - بريجنيف يشعل سيجارة لعبد الناصر .



٣ - تيتو رئيس يوغوسلافيا الأسبق .



٤ - اجتمـــاع للقيــادة المصرية والسوفيتية .



٥ - جون كنيدى رئيس الولايات المتحدة الأسبق .



٦ - عبد الناصر مستغرقا في التفكير .



٧ - جمال عبد الناصر في إحدى الخطب .



٨ - علي صبرى.. في أيامه بدأت «مركسة» الميثاق وإنشاء المعاهد الماركسية.. حتى نحاه جمال عبد الناصر .



الأسباب الحقيقية لهزيمة ٦٧

- ناصر يطلب من القيادة السوفيتية أن تتولى الدفاع الجوى عن مصر.
- معركة يونيو ٦٧ كانت معركة لتجربة السلاح الأمريكى والروسى.
- ياكوب ماليك يخبر عبد الناصر بسر المؤامرة عليه.
- السماء المفتوحة التى تغنى بها الشعب كانت أحد أسباب النكسة.

مازالت العلاقات مع السوفيت متطرفة - أى إنها تبدأ من طرف لتندفع إلى الطرف الآخر. بشدة وحدة. ولا يملك الإنسان أمامها إلا أن يظل في حالة ذهول لا يعرف له رأسا من رجلين. ماهو المعنى؟ ماهو الهدف؟ يصعب على الإنسان أن يعرف ذلك. ولكن أحاول أن أوضح ذلك لنفسى وللتاريخ. ويكفى أن يتأمل الإنسان ماذا جرى لجمال عبد الناصر. وكان فى قمة الأسى والحزن بعد النكسة. وكيف أن السوفيت أعطوه السلاح عن طريق الكوبرى الجوى والبحرى.. وكيف انهار. أو كاد ينتابه بالفعل وهو يتحدث إلى تيتو. وكان ذلك يوما مشهودا. لم أر جمال عبد الناصر فى حالة أسوأ من ذلك.. وكان مرض السكر قد هد حيله.. فقد انفلت السكر فى جسمه ولم يعد فى استطاعته أن يتحكم فيه.. أى إن جمال عبد الناصر لم يكن فى حاجة إلى مزيد من المرض أو التعاسة الشخصية أو القومية. وإذا كان السوفيت جادين حقا فى مساعدته وإيقافه على قدميه فأمامهم مالا نهاية له من الفرص. فى استطاعتهم أن يفعلوا كل شىء إذا أرادوا. فهى مشكلة إرادة وليست مشكلة قدرة.

وبعد النكسة مباشرة أصبحت سماء مصر مكشوفة. أو عارية. لا يوجد غطاء جوى لمصر. ومعنى ذلك أن فى استطاعة الطيران الإسرائيلى أن يفعل ما يشاء كيف يشاء ومتى يشاء. وقد حدث ذلك كثيرا. وبصورة مروعة. وسماء مصر كانت مكشوفة منذ ١٩٦٤. فالسوفيت أعطونا صواريخ سام ١ و سام ٢. وهى صواريخ لحماية مصر إذا أغارت عليها طائرات عالية. أما إذا جاءنا الطيران الإسرائيلى منخفضا، فلا يمكن مواجهة ذلك فالسماء مسدودة من فوق مفتوحة من تحت. وهو وضع عجيب وغريب ومحزن. وليس من المعقول - طبعا - أن يجىء الطيران الإسرائيلى مرتفعا لكى يكون هدفا لنا. أو لكى يعطينا فرصة اصطياده وإسقاطه، لأن صواريخنا لا تستطيع إلا الضرب العالى!

ولو عرف الشاعر الذى قال عن مصر إنها «مفتوحة كالسماء» معنى هذا التعبير الذى رآه مدحا لمصر وصفاء مصر وبساطة أهل مصر، ورحابة قلوب المصريين، لعدل عن

هـذا التعبـير الرهيب. وفى اسـتطاعتك أن تتحدث فى ذلك مع أى رجل مـن قواتنا المقاتلة وتقول له: هل تحب أن تكون السماء فوق رأسك مفتوحة؟ إن الجواب عن ذلك سيكون صراخا عاليـا.. لأن السـماء المفتوحة هى التى تخلو من وسـائل الدفاع عنها. ووسـائل الدفاع عنها هـى الصواريخ والطائرات والمدافـع.. وكانت سماؤنا مفتوحة لليهـود. صواريخنا لا تضرب إلا الطائرات العالية، واليهود يستخدمون الطيران المنخفض هربا من هذه الصواريخ.

وحتى لاتكون سماؤنا مفتوحة أيضا لابد من الطائرات المقاتلة. لأنك لا تسـتطيع أن تغطى بالصواريخ سماء مصر كلها. من الإسـكندرية إلى أسـوان. وحتى إذا استطعت أن تغطى سماء المدن الكبرى فسوف تجد هناك فجوات تتسلل منها الطائرات المعادية. فإذا دخلت الطائرات المعاديـة من هـذه الفجوات خرجت لهـا طائراتنا المقاتلـة، أو انطلقت عليهـا المدافع التى تستخدم الرادار..

وقد عرف اليهود مواصفات صواريخنا سام ١ وسام ٢ وأصبح من المؤكد لديهم ولدينا أيضا أنهم إذا دخلوا فلا حيلة لنا فى ذلك. ومعنى هذا أننا أمام هذه السـماوات المفتوحة عاجزون عن فعل شىء.. ولم يكن غريبا فى ذلك الوقت أن يعلن اليهود أن الجيش المصرى قد أصبح فى آخر القائمة التى تبدأ حسـب القوة والأهمية: الجيش الأردنى ثم الجيش السـورى وأخيرا الجيش المصرى - منتهى الهوان والإهانة لنا حكومة وشـعبا وجيشـا.. فما أقسـى ذلك على نفوسنا فى أى وقت!

ومـن المؤكد أن الأمريكان قد عرفوا هذه الصواريخ السـوفيتية فى فيتنام وعرفوا عيوبها. وعرفوا كيف يمكن الإفلات منها والتغلب عليها. وهذه الدروس المسـتفادة من الشرق الأقصى قد لقنوها لليهود فى الشرق الأوسط. وكانت النتيجة هو كل ما أصاب مصر بعد ذلك.

وكان مـن الطبيعى جداً أن يطلب جمال عبد الناصر من بودجورنى وزخاروف فى اجتماع القبة أن يقوم السـوفيت بإنقاذ الموقف. أى بسد السماء المفتوحة، أو تغطية مصر التى تعرت سماؤها. وطلب بصراحة: لماذا لا يتولى الاتحاد السوفيتى الدفاع الجوى عن مصر!

وكان جمـال عبد الناصر يحاول بهذا الطلب أن يتفادى مشـكلة الفترة المطلوبة للتدريب على الأسـلحة السوفيتية. فالروس عندهم «لازمة» إذا طلبنا منهم سلاحا يقولون لك: حالا.. حاضر.. بعد شهر.. بعد شهرين.

وبعد ذلك يجىء السـلاح على فترات وبكميـات صغيرة. ويقولون لك: أنتم فى حاجة إلى فترة تدريب.. سنة أو سنتين..

فإذا قلت لهم: إننا قد تدربنا جيدا.. وأن هذه الفترة طويلة. وفى استطاعتنا أن نستوعب السلاح فى فترة أقصر.. وقد حدث ذلك ونحن مطمئنون إلى النتيجة. فهذه بلادنا وهذه حياتنا وهذا شعبنا، ولا يمكن أن نفرط فيه.. ونحن حريصون على كل شىء أكثر منكم..

يكـون الرد التقليدى: ليس بعد.. أنتم تتعجلون كل شـىء. لابـد أن يكون هناك وقت.. لا تتسرعوا.. وتقول لهم: لا يمكن أن نتعجل ذلك.. لأننا نعرف النتيجة.. ونحن لا نريد ما حدث فى ٦٧ أن يتكرر مرة أخرى.. فنكسـة واحدة فى العمر كله تكفى ليتعلم منها شـعب عريق مثلنا.

ويجىء الرد من كل واحد وعلى أى مستوى وفى أى موقع وفى أى مكان تلتقى بهم فى مصر أو فى موسكو: اتفقنا! ثم يكون لهذا الاتفاق معنى آخر غير الذى خطر على بالك..

والـذى يحدث عـادة أنهم إذا قالوا اتفقنا أن تشـعر أنت بالسـعادة المطلقة. فنحن أناس عاطفيون.. وبعد ذلك يجىء الرد هكذا: اتفقنا على أن نختلف معك فى الرأى.. أو اتفقنا على ألا نتفق معك.. ويكون هذا الرد والرد السابق عليه مثل واحد يأخذك من تحت الغطاء الدافئ ويلقى بك فى الماء البارد.. أو ينقلك من الثلاجة ويرميك فى إناء يغلى.. هذه هى الدوخة فى علاقتنا بالسـوفيت، سـواء ما حدث لجمال عبد الناصر أم ما حدث لى بعد ذلك. وما يمكن أن يحدث مرة أخرى لمصر أو لغيرها من الدول الأخرى..

ولذلك كانت فرحة جمال عبد الناصر لا يمكن أن توصف يوم أعلن بودجورنى وزخاروف الموافقة على أن يتولى السـوفيت الدفاع الجوى عن مصر. لا أسـتطيع أن أصف سـعادة جمال عبد الناصر وسعادتى. لقد وافق الروس على تغطية مصر.. وسد الفجوات فى سمائها.. وبذلك لـن يفزع جندى إذا سمـع فى الراديو الأغنية التـى تقول: مفتوحة كالسـماء.. لا يهم بعد ذلك أن تتردد هذه الأغنية ألف مرة فى اليوم الواحد. فالروس سـوف يغطون هذه السـماء، فلا تكون مفتوحة إلا للشـعراء والمطربين.. أما بالنسـبة للعسـكريين فسوف تكون مسدودة بإحـكام.. ولن تنفذ منها طائرة يهودية.. فالروس سـوف يأتـون بالصواريخ الأخرى التى تضرب الطائرات المعادية إذا جاءت منخفضة.

وأنا أعترف بعجزى عن وصف درجة سـعادة جمال عبد الناصر فى ذلك اليوم، تماما كما عجزت عن وصف تعاسته يوم وصف للرئيس تيتو مدى الهوان الذى لحقه من معاملة الروس لـه.. ويوم حاول تيتو أن يهدئ جمال عبد الناصر، وأن يطالبه بمزيد من الصبر والاحتمال. فتيتو أيضا قد ذاق المر فى علاقته بالسوفيت، وهو أكثر الناس معرفة بهم..

ويوم ســافر تيتو عائدا إلى بلاده.. لا أنســى ذلك اليوم. الموسيقى تعزف. والرجل وجهه مشــرق. وآمالنا معلقة بصدقه وقدرته على إقناع السوفيت بأن يتحركوا من أجل أن نقف على أرجلنا، وإنقاذ هذا الرجل جمال عبد الناصر الذى وصل إلى أقصى درجات التعاسة واليأس.. لقد أحسست يومها أن قلبى يكاد ينخلع وتيتو يغادر الشواطئ المصرية. فهذا الرجل فى القلب حقــا. وفى كل مرة التقى به أؤكد له هذا المعنــى، مع أنه ليس فى حاجة إلى ذلك. ولكن هذا هو شعورى. وفى كل مرة أعانق تيتو أقول له هذا الشعور: إننى لا أنسى يوم عاونتنا وقلوبنا معلقة بك.

إن تيتو رجل عظيم بكل المقاييس الوطنية والعسكرية والسياسية..

إذن لقد كانت ســعادة جمال عبد الناصر أعظــم وأروع من أن توصف. وقلنا يومها لابد أن السوفيت جادون فى المساعدة الحقة وفى إنقاذنا والوقوف معنا ووراءنا إلى نهاية المدى. لأنه لا يمكــن أن يعلــن بودجورنى فى هذه الموافقة الواضحة دون تفويض من القيادة الســوفيتية. لأن أحدا فى روســيا لا يستطيع أن ينفرد برأى. وإنما هو المتحدث باسم القيادة. وإنما هم فى موسكو يقولون وهم هنا يرددون. هذه قاعدة.

وبعد اللقاء مع بودجورنى وزخاروف عاد جمال عبد الناصر إلى بيته فى منشية البكرى، ورجعــت إلى بيتــى فى الهرم. وفى الليل دق جرس التليفــون وكان المتكلم جمال عبد الناصر قلت له:

- خيرا..

- لا خير. وإنما شر وشر..

- ماذا جرى يا جمال؟

- الجماعة غيروا رأيهم..

- كيف؟

- اتصل بى بودجورنى وقال لى لابد أن أقابلك فورا. وجاء وقال: إنه اتصل بموسكو بشأن الدفاع الجوى عن مصر، فرفضوا.. وأنا آسف لذلك..

وسألته: هذا رأيهم النهائى؟ فأجاب: نعم.. والله لقد حاولت كثيرا..

- ..

- ..

وللحق أقول إن كلمة «والله» هذه من عندى أنا! .

فما الذى يمكن أن يقال عن حالنا بعد هذا الموقف: إنهم فى الصباح قالوا: نتولى الدفاع عنكم.. وفى المساء لا نستطيع الدفاع عنكم. وليس من المعقول أن يتطوع رجل بوزن بودجورنى فيقول: نعم.. ثم يقولون له: قل لهم لا.. فيقول لنا: لا.. ولكن المعقول أن هذه هى سياستهم العامة معنا. !

وهذه «الرجة» أو «الصدمة» التى يصاب بها الإنسان من هذا الأسلوب المتطرف من الممكن أن يصيبه بالسكتة فيقع ميتا. وقد يؤدى ذلك إلى حل.. أو إلى اتخاذ موقف جديد..

ولكن الذى أصيب بالسكتة فى ذلك الوقت هم الروس أنفسهم.. ففى شهور الصيف فى يوليو وأغسطس يتركون موسكو ويذهبون إلى شواطئ القرم على البحر الأسود. والانتقال إلى القرم فى قاموسهم، معناه الانتقال إلى العالم الآخر.. فلا أحد يرد عليك ولا أحد يسأل عنك.. فكنا نتصل بهم ونصرخ ويكون الرد: إن الزعماء فى القرم.. ثم من هو الذى يرد عليك؟ إنهم سكرتيرو الزعماء أو مديرو المكاتب. فماداموا قد ذهبوا إلى القرم، فلا شىء يمكن أن يحدث، أو لا شىء يمكن استعجاله مهما كان هاما أو خطيرا.. وعليك أن تعتمد على مدخراتك من الصبر، وإن استطعت أن تقترض الصبر من أحد فافعل. إنهم فى القرم.. ولكننا لم نفقد روح القتال، ولاروح الثأر، ولا الحرص الشديد على استرداد كرامتنا.. تلك أيام عصيبة على النفس، على مصر وعلى الأمة العربية. هذه حقيقة. ربما خفتت ألوانها قليلا وجفت دماؤها ودموعها، ولكنها فى القلب فى أعماقه الموجعة.

كانوا هناك فى القرم، وكنا نحن هنا فى مصر نعانى حرارة حقيقية: حرارة الصيف والغيظ معا..

ويكفى أن يتذكر الإنسان وهو يستعرض تلك الأيام الأليمة ما حدث.. فى رأس العش فى ٦و ٧ يوليو ١٩٦٧، أى فى نفس عام النكسة وبعدها بشهر واحد، قام طيراننا بما تبقى لديه من طائرات الميج ١٧ وأغار على الضفة الشرقية وعاد سالما. ولكن هذه الغارة التى لم يتقبلها الناس فى ذلك الوقت على أنها حدث عظيم، وأن لها فعل السحر عند العسكريين..

أما الناس – المدنيون – فلم يشعروا بها.. فهم معذورون فاليأس قد أغرقهم فى المرارة، والمرارة قد أسلمتهم للتشاؤم. فلم يعد أحد يصدق ما يرى أو يسمع. إنهم معذورون فالذى أصاب مصر لم يكن شيئا هينا، ولسنوات طويلة. وفى ذلك الوقت حاول اليهود دخول بورسعيد اكتساحا لرأس العش. وواجههم اللواء أحمد إسماعيل – الله يرحمه –. وضربهم ودفع دباباته. وأوقفهم.

كان اليهود قد أتوا بكاميرات تليفزيونية معهم. لتصوير هذا المشــهد.. إلى هذه الدرجة هان أمرنا على اليهود. فكل اشــتباك معنا هو شيء بسيط. ويمكن الدخول والخروج فلا أحد أمامهم. ويوم تقدمت قواتنا صرخوا وقالوا: إن التليفزيون الذى أمامكم أمريكانى.. فإياكم أن تمسوه! .

غرور اليهود وغطرستهم، واستخفافهم بنا هذا الذى يمزق القلب حقا.

وفــى نفس الوقت تجىء إلينا أخبار من كل اتجاه، ومن وكالات الأنباء ومن الأمم المتحدة ومن الإذاعات العالمية. الأخبار كلها ذات معنى واحد، على رغم أنها من مصادر مختلفة. إذن هو خبر صحيح: أن قوات يهودية ســوف تهجم علينا. فما الذى يمكننا أن نفعله أمام حرب الأعصاب هذه. أمام هذه المؤامرة العالمية علينا.. ونحن، كما هو معروف، قد أصبح حالنا بهذا السوء.. والقيادة المصرية عند قاع اليأس من الصديق، وعند قاع المهانة من العدو..

والأخبار تجىء من روسيا ومن أمريكا أن اليهود يتحركون بلواء مدرع فى اتجاه القنطرة شرق. فالقنطرة شرق قد استولى عليها اليهود بقوات خاصة. وليست بها قوات مدرعة كافية. وتتوالى الأخبار بأن اللواء المدرع يتجه من العريش على الشريط الساحلى جنوبا. وأنه شوهدت معدات العبور. ومثل هذا التحرك الكبير يمكن معرفته. وفى اســتطاعتنا أن نعرفه أو نجمع معلومات عنه قبل اقترابه والاســتعداد لمواجهته. والأخبار تنهــال علينا من كل اتجاه. هل هو تهديد؟ هــل تخويف؟ هل هــو لعب بالأعصاب؟ هل هو اســتخفاف بنا؟ .. هل هى حلقة من سلســلة المحاولات المستمرة لهز أعصاب مصر أو كهربة الجو العام لإسقاط ما تبقى فى مصر؟

وتأكــدت هذه المعلومات كلها عند القائد العام محمد فــوزى. واتصل محمد فوزى بالقائد الأعلــى جمال عبد الناصــر. وأخبره أن هناك قوة يهودية. وأن هذه القوة ســوف تعبر. وفى انتظار الأوامر.

وفى مثل هذه الحالات يجب ألا نترك هذه القوة تتحرك أو تتقدم دون إرهاق لها.. وهذه بديهيات الفقه العسكرى. ووافق جمال عبد الناصر ولكن بعد ثلاث ساعات اتصل محمد فوزى بجمال عبد الناصر يخبره بأن الطائرات فى الجو ولا تستطيع أن تفعل شيئا. فالضباب كثيف على هذه المنطقة. ضباب فى يوليو؟ حدث كثيرا.

وأذكــر أننى بعد ذلــك عندما تحدثت عن «الضبــاب» ، تصورت مراكــز القوى فى مصر أن هــذا تعبــير مجازى أو أنــه تعبير رمزى، أى إننــى فى مثل هذه المواقــف الحاسمة فى تاريخ أمتنا، تحولت فجأة إلى شــاعر أو إلى رسام سريالى. وأن الموقف يحتمل مثل هذا اللعب

بآمال الشعوب، والعبث بمقدراتها. ولم يكن الضباب الذى تحدثت عنه إلا ضبابا خفيفا يغطى أرض هذه المنطقة فى الصيف..

وتوهم بعض الناس أنه كالضباب الذى حدث فى الحرب العالمية الثانية. عندما تنبأت الأرصاد الجوية الألمانية بأن بحر المانش سوف يغطيه الضباب فتمكنت بعض القطع الحربية الألمانية من الهرب من الرقابة الإنجليزية وأفلتت إلى المحيط الأطلسى ومرت بجبل طارق واتجهت إلى الأسطول الفرنسى فى مارسيليا.. أى إن هناك توافقا بين الضباب وبين الهروب تحت ستاره..

لم يكن شيئا من ذلك، كما توهمت بؤر مراكز القوى وفلاسفة الهزيمة فى مصر. إنه ضباب حقيقى: بخار من الماء يظل عالقا فى الهواء كستائر كثيفة حجبت الرؤية عن الطيارين فلم يفعلوا شيئا، على رغم صدق النية وروح التضحية..

وألغى جمال عبد الناصر القرار الخاص باستخدام الطيران فى ضرب القوات المدرعة الإسرائيلية التى وصلت وتمركزت. ولم يكن فى استطاعة الطيارين أن ينخفضوا خوفا من الصواريخ.. وحتى لو فعلوا فلم يكن أحد يستطيع أن يرى شيئا. وجاء هذا الحادث عبئا على الشعور العام الذى لم يكن ينقصه شىء ليزداد سوءا. فالأعصاب مرهقة. والنفوس مشدودة والسماء ما تزال مفتوحة. وكل شىء ضباب أكثف من الذى غطى القناة فى ذلك اليوم. وأكثر الناس قدرة على الرؤية لا يستطيع أن يرى أبعد من نفسه. ولكن الذين يتفلسفون فى مصر كثيرون. ولذلك كثرت الوساوس والأوهام والمخاوف. والخلاصة أن الناس قد تعبوا.

والسبب هو:

فشل القيادة المصرية فى ذلك الوقت. ومن مظاهر الفشل سوء تقدير الموقف. فقد اقتنع القادة بأن السلاح الروسى هو الذى فشل. أو هو الذى كان سبب الفشل. وليس هذا صحيحا. فلا عيب فى السلاح، ولكن العيب فى الرءوس التى أدارت هذا السلاح.. فالسلاح الروسى لم ينهزم، وإنما الذين أمسكوا السلاح هم الذين انهزموا.. ومن طبيعة المهزوم أن يتبرأ من فشله. وأن يلقى بالهزيمة على الآخرين. ويخرج من المواقف بأنه هو المجنى عليه.. ومعنى ذلك أننا لم ننهزم، وإنما هم الذين هزمونا. أما من «هم».. الذين هزمونا؟ لابد أن يكون الجواب: هم الروس والسلاح الروسى!

وهذا ضد الواقع. وللتاريخ أقول: إنها القيادة المصرية الفاشلة التى لم تحسن استخدام السلاح ولم تحسن الإعداد والاستعداد ولا تقدير الموقف ولا إدارة الأحداث بعد ذلك..

والمثــل الذى يقول: إن الهزيمــة طفل يتيم وأن النصر له ألــف أب مثل صحيح. فهل من المعقــول أن يكون هناك طفل بــلا أب ولا أم! والجواب: نعم إنه الهزيمة.. أما النصر فله أب وأم وأقــارب للأقارب.. إنه ابن من أكبر عائــلات التاريخ. أليس نصرا؟ أليس عظمة وكبرياء وكرامــة وعملا باهرا؟ وقد رأينــا بعد ذلك انتصارات أكتوبر.. وذقنا مرارة اليتم ونحن ننظر إلى الطفل المنبوذ المشوه الذى يبتعد عنه الناس خوفا من العدوى: الهزيمة!

وكان يوجداييف الســفير الســوفيتى فى ذلك الوقت حزينا بسبب ما تنشره الصحف فى مصر. وبســبب الشــوك والطين الذين يرمون به السلاح السوفيتى. ولم يتسع وقتى ولا صدرى فى ذلك الوقت لأقول له هذا الذى أسجله الآن. وإنما كنت أكتفى بأن أقول له: إنها الهزيمة. وقــد جربتم ذلك فى حروب كثيرة. وقرأنا فــى التاريخ: الويل للمهزوم.. والويل من المهزوم أيضا.. فالمهزوم يلعن الآخرين دائماً!

وكان هذا السفير يتردد على بيتى كثيرا وبانتظام. ولا يكف عن الشكوى. وأحاول أن أجد ما أقوله. ولكن الذى أقوله كان يشبه إلقاء قطعة سكر صغيرة فى بحر مالح. فلا أنا قادر على أن أغير طعم الماء فى فم الرجل، ولا هو مقتنع بما أفعل. ولا أنا توقفت عن «تحلية» الماء المالح فى فمه، ولا هو سكت عن الشكوى.

وفجأة أرســل الاتحاد الســوفيتى إلى القاهرة ياكوب ماليك، وهو من أقدر الدبلوماســيين الســوفيت. وكان من حين إلى حين يلتقى بجمال عبد الناصر ولابد أن الســوفيت قد أرســلوا هذا الرجل ليرقب الوضع كله عن قرب. وليكون إلى جوار جمال عبد الناصر يواسيه ويخفف عنه. ويبصره بالأمور الدولية وموقف الســوفيت. وليناقش معه احتياجات مصر إلى السلاح. لابد أن يكون هذا هو الســبب فى إيفاد رجل بهذا القدر العظيم عندهم. فالســفير الســوفيتى وحــده لا يكفــى لمعالجة الموقف، أو حتى ليكــون محطة إنذار مبكر لنــا. أو علينا. فياكوب ماليك كان مندوبهم فى الأمم المتحدة، وقد تمرس فى السياســة الدولية ورصد الأحداث قبل وبعد وقوعها..

ولم يطل انتظاره فقد بدأ ينشط. وكان أول نشاط له أن طلب مقابلة جمال عبد الناصر لأمر هــام. والتقى به جمال عبــد الناصر. فقال له ياكوب ماليك: جئتــك بنبأ هام. هل أنت على استعداد لسماعه.

قال له جمال عبد الناصر: أعصابى ما تزال قوية. وأستطيع أن أسمع منك أى شىء.

قال له: هناك مؤامرة!

– مؤامرة على من؟

– عليك يوم السبت القادم.. أى بعد يومين فهل أنت جاهز؟!

– لا تخف من هذه المؤامرة أو من هذا الانقلاب.. فنحن نرصد كل شىء.. وقد ظننت أنك جئت لشىء أخطر من ذلك.

– هل هناك ما هو أخطر من انقلاب عليك يطيح بك.. ويعاقبك على الهزيمة.. ويكون العقاب من شعبك!

– نعم هناك ماهو أخطر من ذلك وهو أن تبعثوا لنا بسلاح نواجه به العدو.. ونعيد للناس كرامتهم.. فإذا حدث ذلك فلا خوف من انقلاب.. فالناس يتعجلون النصر.. ويريدون القتال وروحهم المعنوية لم يزهقها اليأس بعد..

والحقيقة كان الضباب يلف الناس جميعا.. وكلهم يتخبطون بعضهم فى بعض.. وكانت النغمة السائدة فى ذلك الوقت: السلاح السوفيتى هو الذى هزمنا.. السلاح السوفيتى الذى انهزم أمام السلاح الأمريكى المتفوق.. إننا لم ننهزم وإنما هم الروس قد سقطوا أمام الأمريكان.. فليست معركة يونيو ٦٧ إلا معركة لتجربة السلاح الأمريكى والروسى ومعرفة أيهما أقوى وليس المصريون واليهود إلا فئران «المعامل» .. وقد أجريت علينا التجربة بمنتهى القسوة. وانهزمت الميج أمام الفانتوم.

وأعاد جمال عبد الناصر على ياكوب ماليك كل ما فى نفسه.. فلا الروس أرسلوا سلاحا.. ولا الروس بعثوا بصواريخ لمواجهة الطيران المنخفض.. ولا أدركوا من صمودنا فى معركة رأس العش أن روحنا المعنوية ما تزال قوية.. ولا أدرك الروس أيضا أن استعدادنا لمواجهة اللواء المدرع الذى زحف على القنطرة شرق يدل على أن رغبتنا فى القتال ما تزال قوية وصادقة.. لا شىء من ذلك قد زحزح الروس عن موقفهم.. ولا حتى استجابوا لرغبتنا فى أن يتحرك أسطولهم الكبير فى البحر الأبيض نحو مدينة بورسعيد.. أو قطعة واحدة.. لعل وجودها هناك أن يخيف اليهود أو يردهم.. أو أن الوجود السوفيتى هذا يعطى معنى أو بعدا أعمق. لا شىء من ذلك.. وظلت إسرائيل فى غطرستها وأسرفت فى ذلك. وعلى رغم كل ما يقوله وما يفعله اليهود فإنهم لم يفلحوا فى أن يردوا قواتنا إلى ما وراء رأس العش وظل هذا الموقع فى أيدينا منذ ذلك الوقت. ألا يدل هذا على شىء؟ لا يجد الروس فى ذلك أى معنى لصمودنا أو إصرارنا.

ومــع أننــا لم نطلب من الروس أن يدافعوا عنا بحرا، وإنما فقط أن تظهر قطعة عســكرية لهم عند بورسعيد. فقط مجرد ظهور، لم يفعلوا شيئاً من ذلك إلا فى سبتمبر.. جاءت قطعة. ووقفت. وجاء وقوفها عند بورسعيد بالضبط فى الوقت غير المناسب. فلم يعد لدينا أى أمل فى أن يفعلوا شيئا، وحتى إذا فعلوا فلا قيمة ولا أهمية ولا فعالية لذلك!

وكأن الله ســبحانه وتعالى أراد أن يؤكد للروس وغيرهم أن رغبتنا فى القتال وفى الانتقام وفى استرداد الكرامة رغبة حقيقية صادقة. فحدث ذلك الشيء الجليل فى تاريخنا وفى تاريخ البحريــة فى العالم كله. اقتربت المدمرة الإســرائيلية «إيلات» من بورســعيد فضربها زورق طوربيد مصرى: صاروخا فى قلبها والثانى أجهز عليها وأغرقها تماما. وهنا يجب أن يتوقف التاريخ والمؤرخون طويلا. وندع الكلام عنا للمحررين العسكريين الغربيين والأمريكان. حتى لا يكون كلامنا عن أنفســنا نوعا مــن الغرور أو نوعا من تعويض الهزيمة الســابقة، بإغراق أنفسنا فى المديح.

فهــذه أول مرة فى التاريخ البحرى، أو فى تاريخ المعارك البحرية أن تطلق مصر صاروخا بحريا موجها فيكون له دوى عالمى.. أو إن هذه هى أول مرة ينطلق منها صاروخ بحرى موجه فى العالم كله.. عند كل الدول التى لها أســاطيل بحرية.. والمعنى الثانى والهام جدا، وليس هذا كلامى وإنما هو كلام المؤرخين العســكريين الأجانب جميعا، إن السفن الحربية الكبيرة لم تعد لها فاعلية أمام الزوارق الصغيرة حاملة الصواريخ. فقط كانت إيلات مدمرة ضخمة. وقد أضافوا إليها تعديلات فى انجلترا حتى جعلوها ترسانة بحرية ومفخرة للبحرية اليهودية. فلما أصابها الصاروخ الأول شطرها نصفين. وجاء الثانى أغرقها. ولم تكن بعد ذلك فى حاجة إلى صاروخ ثالث..

وليس من قبيل التواضع أن أتوقف عن وصف وإحصاء ما حدث فى العالم كله. وإنما من باب الدقة وتســجيل التاريخ أترك الكلام للمؤرخين العسكريين وللمعاهد الاستراتيجية وحدها أن تقول وتصول وتجول. وخلاصة ما حدث بعد ذلك أن تغيرت الاســتراتيجية البحرية العالمية واتجهت العيون إلى زوارق الطوربيد الصغيرة التى تحمل طاقما من ١٧ فردا القادرة على إغراق مدمرة بها ٥٠٠ فرد ومليئة بالأسلحة والذخيرة وتكلفت عشرات الملايين من الجنيهات..

وبعدهــا بأربعــة أيام أغــار اليهود على الســويس وضربوا مصانع تكريــر البترول فى «الزيتية».. أى إننا ضربنا لهم هدفا عســكريا فأصابوا هدفا مدنيا منتهى الســفالة والخسة.

ولكـن اليهود دائما هكذا. معاركهم بلا شـرف.. واشـتعلت النار فى معامـل التكرير طبعا والتقطـوا لها الصور وأذاعوا وأشـاعوا فى العالم أن الانتقـام كان صاروخا ملتهبا.. وأن النار ظلت مشتعلة فى السويس شهورا..

إلى آخر الأكاذيب التى يتقنها اليهود ويعيشون عليها ويصدقونها مثل أكذوبة أن فلسطين وطنهم الذى ذكرته كتبهم المقدسة. مع أن كاتبا يهوديا كبيرا قد أصدر كتابا يقول: إن اليهود لا حق لهم فى فلسطين. وإنهم ليسوا ساميين اسيويين كما يدعون. المؤلف اليهودى الذى كان صهيونيا وشيوعيا أيضا اسمه أرثر كيستلر. والكتاب اسمه «القبيلة الثالثة عشرة» .. وغيرها مـن الأكاذيب التى تحتاج إلى دراسـة ومتابعة. وأعتقد أن مـن واجب المفكرين والمؤرخين أن يعنوا بذلك. فهذا أنفع لهم ولنا من موضوعات تافهة يرددونها دون أن يتوقفوا عندها لحظة ليتسـاءلوا: لمن يكتبون ذلك؟ وما هى الفائدة التى يجنيها القارئ من ذلك؟ أو ماهو الشـىء الذى يضيفونه إلى الفكر الإيجابى المصرى أو العربى؟

وجـاءت الغـارات علـى الزيتيـة، كأيـة غارة حدثـت فى أية حـروب فى الشـرق أو الغـرب. ولم تسـتطع هذه الغارات أن تمسـح من كتـب التاريخ حادثة إيـلات الفريدة فى البحرية العالمية.

ولكن هل حادثة المدمرة إيلات وانتصار البحرية المصرية بالسـلاح السوفيتى قد غير شيئا من موقف السـوفيت. لم يتغير شىء. هل يصدق الروس أن أحدا يصدقهم فى مصر؟ لقد كانت أزمة صدق وتصديق. لا هم يصدقوننا ولا نحن نصدقهم. ومن الضرورى أن نتعامل معهم. وأن نبقى العلاقات أقوى. وأن يبقى الطريق مفتوحا ذهابا وإيابا بحرا وجوا. ولكن كيف؟

فبعد خمسـة شهور جاء شهر نوفمبر وفى اليوم الثانى والعشرين منه بالضبط كان عندنا أول خط دفاعى. ولابد أن أؤكد هنا أن ذلك قد حدث بعد مائة وخمسـين يوما. وكان السوفيت يؤكدون لنا أننا لن نسـتطيع اسـتيعاب سـلاحهم إلا فى ضعف هذه المدة.. وفى ذلك الوقت كنت رئيسـا لمجلس الأمة. وكان جمال عبد الناصر يجب أن يفتتح الدورة الجديدة بخطبة. فالشعب ينتظر منه ذلك والأمة العربية والسوفيت والعدو أيضا.

وأخذت الحيرة جمال عبد الناصر وسـارت به فى متاهات. ما الذى يقوله للشعب؟ كيف يواجـه الناس؟ هل يضعف؟ هـل يجاهر بضيقه وقرفه؟ كيف يفعل ذلك وهو يعلم أن القوات المسلحة ماضية فى الاستعداد والدفاع ليلا ونهارا؟ . هل يصارح الناس بحقيقة السوفيت؟ وإذا فعل فما الذى يجنيه من وراء ذلك؟ وما هو البديل لكل هذا؟

وقال لى جمال عبد الناصر يومها: أنا لا أستطيع أن أغير لهجتى. ولا أن أغير لسانى. مالم يكن لدى ما أقوله.. فلن أتكلم.. اذهب وفتش عن الخط الدفاعى.. فإذا كان كل شىء قد اكتمل تماما، هنا فقط أستطيع أن أتحدث إلى الشعب من مجلس الأمة..

وسـافرت إلى القيادة. وقابلت أحمد إسماعيل قائد الخط فى منطقة القناة. وسألته بوضوح يوم ٢١ نوفمبر: هل أنت مستعد؟

قال: نعم مستعد.

وأعـدت عليه السـؤال مرة أخرى: هل أنت مسـتعد تماما. إن الإجابة عن هذا السـؤال يتوقف عليها الكثير.. إن جمال عبد الناصر سـوف يخطب يوم افتتاح مجلس الأمة.. ولابد أن يقول للناس. وكل كلمة تقولها أنت محسـوبة عليه وعلينا.. إن ردك عسكرى ولكن كلامه هو سياسى فى الدرجة الأولى.

وأكـد لى اللواء أحمـد إسماعيل أن الخط الدفاعى قائم على أحسـن وجه، أى إن قواتنا قد استوعبت السلاح السوفيتى تماما وقام لنا أول خط دفاعى من بورسعيد للسويس.

وصدقت أحمد إسماعيل. وأنا أصدقه وأحبه. وأحمد إسماعيل دفعة جمال عبد الناصر. وكنا أصدقاء منذ أيامنا فى منقباد. ورأيت «قرار» أحمد إسماعيل. فكان عند رأيه وعند صدقه.

ومما أعجبنى فى ذلك الوقت اسـتعداد أحمد إسماعيل وتصميمه. والقادة الذين معه أيضا. وقد رأيت أشـكالا للاسـتعداد والترقب والاسـتطلاع. فرأيت قوات للصاعقة وقد تعلقت على الشجر ترصد العدو وتصيده عند اللزوم.

وأراحنى ما رأيت وما سمعت. وعدت إلى القاهرة وقلت لجمال عبد الناصر: على بركة الله تستطيع أن تقول ما يرضيك عند افتتاح مجلس الأمة..

وفى مجلس الأمة أعلن جمال عبد الناصر عن رأيه فى المعركة. وأنه لن يقبل أية تنازلات مهما كانت النتيجة التى وصلنا إليها، أو التى يمكن أن نصل إليها..

وما كان يسـتطيع جمال عبد الناصر أن يقف بهذه الصلابة ويقول ما قال، لولا هذا الخط الدفاعى. فوراء هذا الخط علينا أن نجلس وندرس ما كان وما يمكن أن يكون بعد ذلك. فالإرادة موجودة والتصميم جاهز.

ولكن السوفيت لم يفعلوا شيئا. فلا يزال الزعماء فى شبه جزيرة القرم على البحر الأسود. ولا تزال السكرتارية هم الذين يردون علينا.. أو هم الذين لا يردون.

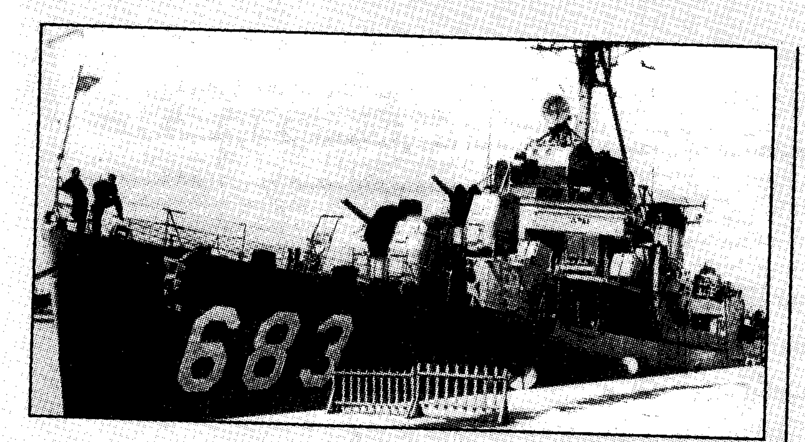
وعندمــا عاد الزعماء من الشــواطئ أخذوا يردون علينا. ولكــن طريقتهم فى الرد هى نوع من الاســتمرار فى الصمت أو عدم الرد.. ولابد أن تكون وجهة نظرهم فى ذلك أننا رءوســنا «ســاخنة» .. ويجــب أن يتركونا حتى تبرد درجــة حرارتنا. فإذا بردت ابتلعنا ســكوتهم وإهمالهم لنا.

ولتفسير ذلك يجب أن نلقى نظرة بسيطة جدا إلى الرجل الذى يعمل فى طرق الحديد فهو وحده القادر على أن يشرح لنا ذلك السلوك السوفيتى- ربما - فالحداد يضع الحديد فى النار. ويدقه ســاخنا حتى يلتوى فى يده.. ثم يضعه فــى الماء البارد فيتجمد. أى يثبت على الوضع الــذى كان عليه.. فإذا أراد أن يقيم التواءه، أو يلوى اســتقامته أعاده إلى النار.. ثم إلى الماء.. ثم إلى النار وهكذا.. حتى يفقد الحديد شكله أو حجمه.. أو يفقد الإنسان وعيه فلا يعرف له شــكلا أو لونا أو أصلا.. وفى النهاية ينسى الإنســان نفسه واسمه والقضية التى جعلته يقبل دخول النار، ويحتمل الماء البارد..

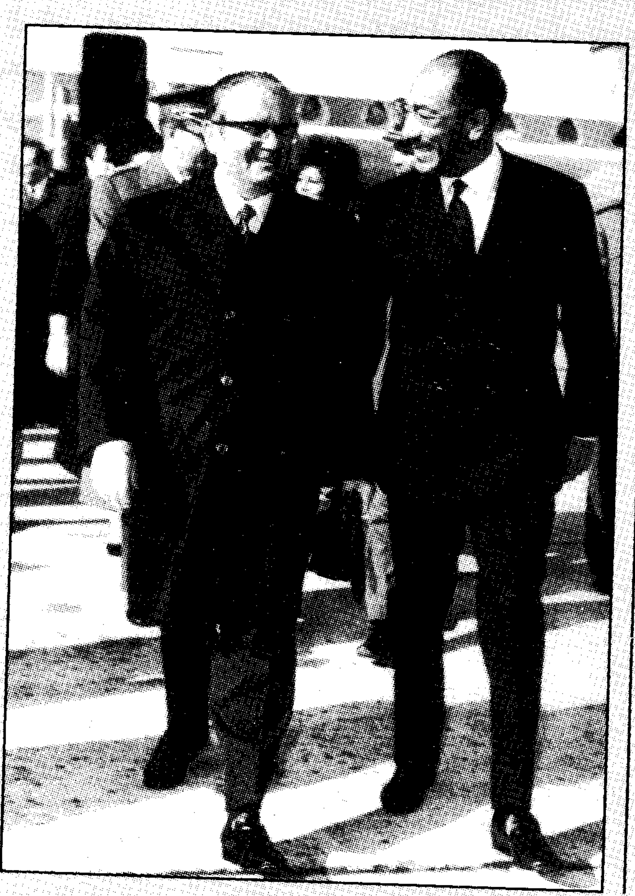
لقد حاول الروس مع جمال عبد الناصر، وأعادوه معى.

حتى دخلنا حرب الاستنزاف!

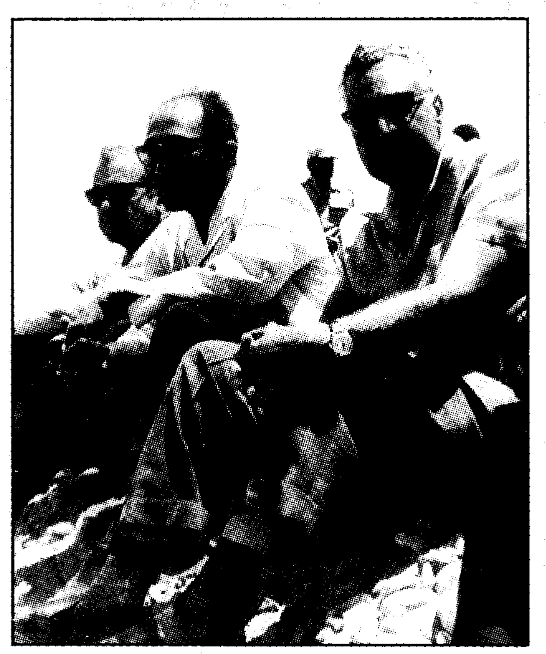
❑❑❑



١ - المدمرة إيلات .



٢ - السادات مع تيتو .

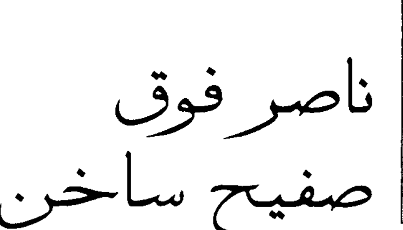


٣ - عبد الناصر والسادات وحسين الشافعى فى حرب الاستنزاف .



٤ - المشير أحمد إسماعيل .





- سوف تجيء لحظات كثيرة أدوس فيها على كبريائى وابتلع كرامتى من أجل مصر.
- كيف أعاد السوفيت جمال عبد الناصر عشرين عاماً إلى الوراء من شدة الفرح ثم ألقوا عليه عشرين عاما أخرى من شدة الحزن ؟
- عبد الناصر لم يكن شيوعيا فى أية لحظة كما أننى لست شيوعيا ولن أكون.
- المسكوت عنه فى أحاديث ناصر بالكرملين.

على الرغم مـن هذه الحالة النفسـية الرهيبة التى نعانيها على مسـتوى القيادة فى مصر، كان علينا أيضاً أن نبقى على الروح المعنوية عالية فى الجيش الذى يتدرب باستمرار وينتظر السلاح، وأن نؤكد للشعب الذى طحنته الهزيمة أننا جادون.. وفى نفس الوقت أن نواجه الغطرسة الاسرائيلية ورعونة القيادة عندهم.. وإذا كنا نحن متفوقين عليهم بالمدفعية دائما، فلديهم الطائرات التى بدأوا يستخدمونها بدلا من المدفعية.

وقد زادت غطرسـة اليهود وعربدتهم فى سـمائنا. وكان ذلك نوعاً مـن العذاب والهوان ينزل على رءوسـنا من السـماء. والروس لا يسـاعدوننا على مواجهة هذا التحدى العنيف لنا ولكبريائنا وآمالنا فى أن نكون فى وضع أحسـن. وإذا كانت السـماوات المفتوحة تعبيراً مخيفاً عند العسـكريين، فإن الليالى القمرية أشـد بشاعة من ذلك.. فوسط المدافع والدبابات والصواريـخ وانتظار النار نطلقها وتنطلق علينا من طائـرات الهليكوبتر من رأس محمد إلى الصعيد. تلقى باليهود وبالمتفجرات على القناطر والسدود وأعمدة الكهرباء..

ولكن فى ذلك الوقت صدر بيان ٣٠ مارس وتم الاسـتفتاء عليه. وكان ذلك تجميعاً للناس حـول خطـة العمل. وتوحيداً للآمال والأحلام.. فلا يبق أمامنـا إلا أن نعمل. والعمل كله من أجل التحرير واسترداد كرامة الشعب الجريح.

وسـافر جمال عبد الناصر إلى مصحة اسـخلطوبو للعلاج وبقى بعض الوقت. وشـفى من أوجاعه. وكان ذلك الشـفاء فألا حسـنا. وشـفى البلد أيضا من بعض أوجاعه. وكان علينا أن نواجه العدو الذى أعطته الليالى القمرية سـتاراً فضياً لا يمكن أن يكون شاعرياً، للعربدة فى سماء مصر وفى الصعيد.. وكانت هذه الأعمال الإجرامية خطوة عنيفة فى حرب الاستنزاف. وأعتـرف للتاريخ بأنها هزت النفوس، وزعزعت الأيدى على السـلاح. فنحن بشـر ولكنها ضاعفت إصرارنا على التحدى والتصدى.

وأول مـا قام به اليهود فى سـماواتنا المفتوحة ولياليها القمريـة الصافية أن نزلوا عند محطـة الكهرباء فى نجع حمـادى وكوبرى قنا وقناطر نجع حمادى أيضا، والمسـافة التى

تقطعها الطائرة اليهودية من رأس محمد عند رأس مثلث شبه جزيرة سيناء إلى قنا صغيرة جداً، ربما لا يراها الإنسان إذا نظر إلى الخريطة.. ومن هنا كانت مثل هذه العمليات سهلة التنفيذ والإخفاء أيضا.

ومعروف لنا وللعالم كله ما حدث عندما انزلوا بعض رجالهم عند محطة نجع حمادى التى تقع على أطراف المزارع والصحراء. وهناك ضربوا عشرة محولات لكهرباء السد العالى. هذه المحولات على عربات سكك حديدية. وقد ذهبت فى اليوم التالى مباشرة ورأيت بنفسى ما حدث.. ثم إنهم ضربوا أيضا كوبرى قنا وكان تحت الإنشاء. ثم ضربوا قناطر نجع حمادى. وهى إحدى ثلاث قناطر فى الوجه القبلى: قناطر ادفو ونجع حمادى وأسيوط. وكل واحدة تتحكم فى رى نصف مليون فدان. وكل هذا معروف ومرصود فى العالم كله.. وكانت الإصابات فى هذه المنشآت المعمارية الهندسية سطحية وطفيفة لحسن حظنا وسوء بختهم خصوصا أنهم بعد أن قاموا بأعمالهم المسرحية التليفزيونية أبلغت طائراتهم قيادتهم أن مصر كلها غرقت وأعلنت القيادة فى الإذاعة أن الأرض قد غطتها المياه.. وأنهم هم الذين أتوا بالطوفان .. وهذا هو أحد أحلام اليهود.. فهم لم ينسوا ولن ينسوا أن مصر كانت تتغنى فى أوج المد القومى التحررى: فى البحر حندفنكم .. أى إن المصريين كانوا يمنون أنفسهم بدفن القوات اليهودية فى البحر.. وكان اليهود يمنون أنفسهم بأنهم هم الذين سيدفنون المصريين فى البحر. تماما كما حدث أيام موسى عليه السلام.. وقد ذكرت قبل ذلك أن بعض آبائهم تخيل أن السد العالى قد نسفه اليهود فغرقت مصر؟!

وبعدها يقوم اليهود بدور نوح عليه السلام فينقذون العالم كله بسفينتهم – وطبعاً لن ينقذوا مصر – إلى آخر أحلامهم التى يتوهمون دائما أنهم اقتربوا منها .. وأن ضرب القناطر والكبارى سوف يكون خطوة فى الطريق إلى إغراق مصر. !

وكان من الطبيعى أن نعاود مناقشة الموقف بأكمله. هل نمضى فى حرب الاستنزاف؟. هل نظل نضرب بالمدفعية استحكامات العدو؟ وبالصواريخ طائراته إذا جاءت عالية. لأنه لا قدرة لنا على مواجهة الطيران المنخفض؟ هل نظل نحارب بشرف وهم يحاربون بسفالة وخسة؟ نضرب لهم العسكريين ويتجهون هم إلى ضرب المدنيين؟

وللتاريخ أعترف بأن الذى حدث فى حرب الاستنزاف فى أواخر ١٩٦٨ وأوائل ١٩٦٩ كان له أعمق الأثر فى نفسى.. بل إن هذه المشاعل المضيئة التى كانت تلقيها الطائرات اليهودية

على خطوطنا فتجعل الليل نهاراً قد أضاءت لى أشياء كثيرة ..بل إننى أقول للتاريخ إن قرارى الذى اتخذته يوم ٨ يوليو سنة ١٩٧٢ بطرد الخبراء السوفيت قد ولد فى ذلك الوقت.. ويومها لم يكن يخطر على بال أحد أن جمال عبد الناصر سوف يموت فى سبتمبر ١٩٧٠ وسوف أتولى الحكم من بعده.. ولكن أعترف أن عقلى اشتغل بسرعة، وأيقنت تماماً أن حالنا فى الحضيض.. وأننا لا يمكن لأى سبب. أن نترك الصعيد عاريا ونظل نقذف العدو بالنار فى الشمال.. وأكثر بلادنا بلا حماية ولا وقاية. وفى ذلك الوقت قال فلاسفة الهزيمة وبؤر مراكز القوى السامة، يجب أن نمضى فى حرب الاستنزاف حتى النهاية لأنها مسألة كرامة ..

يعنى أنه من الكرامة عندهم أن نحارب فى الشمال، وأن نتركهم يغرقون مصر فى الجنوب.. أى إنه مهم جدا عند «هؤلاء» أن نفرقع القنابل والمدافع على القناة ونشعلها ناراً، إلى أن تجىء مياه السد العالى والخزانات وتطفىء هذه النيران مأساة لو فعلنا ذلك. أو إذا ظللنا باسم الكرامة الزائفة نترك أهدافنا الحيوية بلا حماية من ألاعيب العدو..

وأين نذهب من التاريخ إذا نجح العدو فى إغراق نصف مليون فدان أو مليون فدان.. إن مصر لا تقوى على احتمال الغرق بعد الهزيمة، والجوع بعد الهوان .. صحيح أن شيئاً من ذلك لم يحصل. ولكن ماذا لو حصل. إننى أذكر أنه فى سنة ١٩١٣ لم يأت الفيضان بماء يكفى لرى مصر. فزرع المصريون نصف الأرض. ولكن أحداً لم يمت من الجوع فى ذلك الوقت لأن عدد سكان مصر كان سبعة ملايين .. ولكن الآن ونحن ٣٥ مليوناً، ومساحة الأرض لم تعد تكفى لهذه الأفواه.. كارثة كبرى، لو حدث ما تمناه اليهود، وما تخوفنا نحن من وقوعه..

ولكن الروس لم يمكنونا من الدفاع عن أهدافنا الحيوية .. فما الذى يمكن عمله بعد ذلك؟

وكنا قد أحصينا المراكز الحيوية فى مصر التى يجب إعطاؤها الأولوية فى الدفاع عنها، فوجدناها ألفى هدف. وأنا أذكر هذا الرقم جيداً، فقد كان أحد همومى الكبرى أن أدافع عنها جيداً قبل أن أبدأ معركة أكتوبر ٧٣.

ومازالت حرب الاستنزاف مستمرة. ضرب من هنا، غارة من هناك. مرة تشد ومرة تخف حدتها ولكن الحرب على الجانبين لم تتوقف. أعصاب مشدودة طبعاً، انتظارا للفرج.. والفرج لا يجىء من روسيا ببطاريات صواريخ للدفاع عن هذه الأهداف الاستراتيجية.

وظلت مصر فى هذا العناء والدوخة مع السوفيت حتى سنة ١٩٧٠ عندما قبل جمال عبد الناصر مبادرة روجزر أمام القادة السوفيت فى الكرملين..

وقبـل أن أمضـى إلى سـنة ١٩٧٠ لا بد أن أتوقـف لأبدى بعض الملاحظـات التى أراها ضرورية على حرب الاستنزاف وعلى ردود الفعل العامة لذلك..

ولو كان هذا التاريخ الذى أرويه موجهاً للعسكريين وحدهم، لكان من السهل جداً أن أشير إلى ذلك فى سـطور، ولكنى أتوجه به إلى شـعبى وإلى الذين يقرأون التاريخ من الشباب لكى يتأملـوا حتى يعرفوا الحقيقة. فهذه الحقيقة، كانت وما تزال وسـوف تبقى هدفى، من أجل مصر وسلامة مصر ورخاء مصر. وسوف تجىء لحظات كثيرة أدوس فيها على كبريائى، وأبتلع كرامتى من أجل مصر. ومن هنا كانت المصارحة والصدق: أسلوباً وغاية من كل الذى أقول..

من هذه الملاحظات أن حرب الاسـتنزاف هذه تسـتهلك كميات هائلة من الذخيرة، ومن الملاحظـات أيضا أنها نوع من «هـز» الموقف ولكنها لا تحركه. وهى تأكيد مسـتمر للعدو ولأنفسنا أيضا أننا فى حالة صحو تام. وإذا كنا وكان العدو فى حالة من الصحو فإن هذا الصحو أقـرب إلـى الأرق. وإذا كان الأرق طويلا هكذا، فمن المؤكد أن الإرهاق هو النتيجة الطبيعية لذلك.. وليس الإرهاق حالة تزول، ولكنه حالة لا تزول..

فـإذا أضفنا إلى ذلك ما فعلـه اليهود فى معركة الجزيرة الخضراء وما فعلناه نحن وجدنا موقفاً منعشـا، أى إنه موقف يغرينا بالاسـتمرار، بل يدفعنا فى الطريق إلى الاستمرار فى هذه الحرب «القاعدة» أو الحرب «الجالسـة» على الضفة الشرقية للقناة.. لأننا نضرب ونحن جالسـون، واليهود يضربون طائرين فى الجنـوب يفعلون ما يحلو لهم.. وكان ضربنا اليهود فى الجزيرة الخضراء بعنف. وكل ذلك معروف لنا للعالم كله.. وكان من الطبيعى أن يستمرئ اليهود الدخول والخروج والسخرية بنا أمام العالم.. فتمادوا بعد ذلك عندما ضربوا أبو زعبل ومدرسة بحر البقر ودخلوا إلى الاسكندرية .. وكان فى استطاعتهم فى ذلك الوقت أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك. ولم يتوقف هذا كله إلا بعد أن أمدنا الروس بصواريخ سام ٣..

ولم تكن عندنا «خطوط» ذخيرة أو «وحدات نارية» كما يقول العسـكريون الآن. ويظهر أن هذا هو أسـلوب الدول الكبرى. فقد قرأت مناقشة الكنيست الاسرائيلى ووجدت موسى ديان يشـكو من أن أمريكا لم تمدهم بالسـلاح المطلوب. طبعاً هو يشكو أيضا من أن السلاح أقل مما يحتاج إليه.. ولكن هناك فارقاً ضخماً بين موقف أمريكا مع اسـرائيل وموقف روسيا معنا .. فـإذا أمريكا أعطت اليهود ٩٩ مدفعـاً وكان اليهود قد طلبوا مائة مدفع يصرخون .. ولكن إذا طلبنـا من الروس ٩٩ مدفعاً وأعطونا تسـعة مدافع فقط وصرخنـا، أندهش الروس لذلك.. إذ

كيف نصرخ ولا نصبر عليهم سنة أو سنتين ليكتمل هذا العدد. وفى نفس الوقت يكون اليهود قد حصلوا من أمريكا على أضعاف هذا العدد من الأسلحة الأكثر تطوراً!

ولكن الدول الكبرى تعطى بحساب. وإن كان هذا «الحساب» يختلف من دولة إلى دولة.. وفى ذلك الوقت تحرك الروس. وقالوا لجمال عبد الناصر أن يقوم بعملية «تبريد» عامة.. أما «التبريد» المطلوب فهو وقف حرب الاستنزاف قليلا.. أى مطلوب من جمال عبد الناصر أن ينهى هذه الحالة التى لا هى حرب ولا هى سلم.. وأن يتفرج على اليهود على الضفة الأخرى من أرضه. ويسكت. وأن يراهم يدخلون سماء مصر يفعلون بالشمال والجنوب ما يحلو لهم. ويسكت وأن يرى السلاح يتدفق على اليهود من أمريكا ويسكت.

وأظن أن موسى ديان هو الذى قال إن وجود اليهود على الضفة الغربية، على مرأى ومسمع من المصريين سوف يصيبهم بهزات كهربية. وأن المصريين لا يمكن أن يعتادوا على هذا الهوان. ولذلك كان همى الأول أن أدفع باليهود إلى الوراء وأفتح القناة وأرد لمصر كرامتها، وبذلك تتأجج عند الناس مشاعر أخرى غير الهوان والهزيمة والعار والندم.

بل إن هذا الموقف دفع عدداً من الكتاب المصريين يقولون: كيف نترك أولادنا حملة المؤهلات يجلسون هناك على الرمال تحت الشمس.. دون عمل؟

شىء غريب: كأن أداء الواجب الوطنى والدفاع عن مصر ليس عملاً؟ أو كأن الذى يحمل مؤهلات يجب إعفاؤه من هذا الواجب المقدس؟ وكأن الدفاع عن مصر خاص فقط بالذين لم يتعلموا؟ إنه أسلوب عجيب ولا أعرف من أين أتوا به.. أو كيف نشروه على الناس، مع أن الدول الأخرى، شرقاً وغرباً قد دخل شبابها الحروب. ولا يوجد واحد لا يضع فى بيته أو فى جيبه صورة له وقد ارتدى ملابس القتال. لأن هذه الملابس شرف والدفاع عن الوطن دين. وقد وجهت لوماً عنيفاً إلى هؤلاء الكتاب الذين يدعون إلى التخاذل والهزيمة واليأس والذين يفرقون بين الذى يحمل مؤهلا والذى لا يحمل مؤهلا فى الدفاع عن مصر وشرف مصر. إن الحرب هى أكبر بوتقة لتذويب ما بين الناس من خلاف فى الرأى أو فى الطبقة أو فى اللون. فكما أن النصر شرف عام والهزيمة عار عام. ونحن جميعا أمام النصر أو الشهادة سواء - هذا ما نقوله لرجالنا الشجعان المقاتلين ..

وأملى ألا يعود كتابنا إلى شىء من ذلك. فقد ذهبت هذه الموجة السوداء المريرة إلى غير رجعة إن شاء الله.. لأن واجبنا الآن أن نفرش الطريق بالأمل فى حياة أفضل .. وواجب

الكاتب أن يدافع بقلمه وعلمه ووجدانه عن مصر .. يدفع عنها اليأس ويحميها من الشك .. فالكاتب جندى ومهندس وطبيب وشعلة تضىء وتهدى الناس إلى الطريق السوى. هذا واجبه وقدره.

واستنزفتنا حرب الاستنزاف. وتلاشت الذخيرة وراء مدافعنا. وأعترف أن بعض المدافع عندنا تحولت إلى قطع حديد بارد.. لأنه لا توجد خطوط ذخيرة كافية. ولم يتوقف جمال عبد الناصر، ولا أنا بعد وفاته، عن طلب المزيد من الذخيرة عن طريق الكوبرى الجوى أو الكوبرى البحرى ولكن الروس لم يفعلوا شيئا. كان الصمت أفضل منه..

ولم يعد سراً أن أقول مرة أخرى إن الذى طلبته أيام حرب الاستنزاف قد وصلنا عندما بدأت حرب أكتوبر ١٩٧٣ - وفى استطاعتك أن تضيف إلى هذه الحقيقة المؤلمة ما شئت من علامات التعجب والاستفهام؟! وقد اضطررت إلى أن أحصل على أسلحة من سوريا ومن العراق قبل بداية حرب أكتوبر ١٩٧٣. ففى نفس الوقت الذى كانت الذخيرة مكدسة فى سوريا كان وراء مدفعى خط ذخيرة واحد، بينما المدفع السورى وراءه من ثمانية إلى أحد عشر خطا. لا أحسد ولا أحقد على سوريا طبعًا لأنها دولة شقيقة وأتمنى لها ولنفسى القوة والمنعة؟

ولكن إذا وضعنا التمنى جانبا يتبقى هناك شىء هام: وهو أن يدلنى أحد على معنى هذا كله؟ ما معنى أن تعطى روسيا لسوريا ولا تعطى لمصر. مع أن القضية واحدة، والسلاح الذى تحارب به واحد. وإذا كنا نحن نحارب لأنفسنا، فمن المؤكد أننا نحمل السلاح السوفيتى فى مواجهة السلاح الأمريكى وإذا انتصر السلاح السوفيتى فهو انتصار لهم. ثم هذه الوعود التى أغرقونا بها.. والانتصار الطويل والتأكيد المستمر بأن السلاح فى الطريق .. إلى آخر ما اعتاد الروس أن يقولوا وما اعتدنا أن نصدقه أو نوهم أنفسنا بأننا نصدقه.. مطلوب أن أجد تفسيرا لهذا الذى يعمله الروس، أن أجد معنى للإسراف هناك والتقتير هنا.. التكدس هناك، والندرة عندنا... الكوبرى الجوى الذى لم يتوقف نزوله فى سوريا، والكوبرى الذى لم تقم له قائمة بيننا وبين روسيا..

ولكنى لا أعفى رجالنا العسكريين من المسئولية، كلها أو بعضها.. فمثلا عندما كان لدينا الصاروخ سام ١ و٢ كان لا بد أن يطلب رجالنا صواريخ لمواجهة الطيران المنخفض فى سنة ١٩٦٤. ولكنهم لم يفعلوا. أو لعلهم طلبوا. ولم يستجب لهم أحد.. أو أن الروس أجابوا بأن هذه الصواريخ التى تواجه الطيران المنخفض لا وجود لها عندهم. وهذه عادة سوفيتية

معروفة. فهم يقولون لك. لا يوجد.. مع أن الذى لديهم كثير من كل نوع، ومن كل الأسـلحة المتطورة أيضا.

وقد حصل اليهود على صاروخ هوك من الرئيس كيندى. ولا بد أن الأمريكان، كما ذكرت مـن قبل فى هذه «الأوراق» قد واجهوا الصواريخ السـوفيتية التى تواجه الطيران المنخفض. أى إن اليهود لديهم معلومات كافية عن الصواريخ السـوفيتية التى جربت تماماً فى فيتنام، فإذا أعطاها الروس لنا، لم يكن ذلك مفاجأة تامة لليهود. ولكن من المؤكد أنها سـلاح خطير ومخيـف. وقد حدث ذلك عندما أعطيت لنا صواريخ الارتفاعـات المنخفضة توقفت العربدة والصعلكة الجوية اليهودية فى سموات مصر.

ولـم نحصل على صواريخ سـام ٣ إلا فى سـنة ١٩٧٠ بعد غارات اليهـود على أبو زعبل وبحر البقر. وهذه الصواريخ أوقفت ضرب اليهود للخط من بورسـعيد إلى السـويس تماما. وكان اليهود قد اعتادوا على الإغارة بمئات الطائرات من الشـروق حتى الغروب. وأكرر مرة أخرى أننى لا ألوم المستشـارين العسـكريين السـوفيت على أنهم لم يبصرونا بهذا الخطر الحقيقـى. وإنما ألوم العسـكريين المصرييـن الذين لم يبادروا بطلب هـذه الصواريخ.. وأن كنت أجد بعض العذر للعسـكريين المصريين الذين تعلموا العقيدة العسـكرية السوفيتية. فالذين ذهبوا إلى روسـيا ليتعلموا لم يحصلوا على كل شـىء ولا حتـى على القدر المعقول المطلوب من التكنولوجيا الحديثة، فالروس يعلمونهم. ويوقفونهم عند حد معين. ويقولون لهم هنا وكفى!

وفـى نفس الوقت يكـون الروس معقوليـن جداً عندمـا يقولون لنا بعد ذلـك: ليس فى استطاعتكم استيعاب الأسلحة الحديثة بسرعة.

لماذا؟ لأن رجالنا لم يتعلموا هناك بدرجة كافية حتى يسـهل عليهم استيعاب أسلحتهم الحديثة. وبذلك نختصر الوقت .. وأهم من ذلك يتمكن رجالنا من استخدام السلاح السوفيتى، والانتصار به هذا يخدمكم أكثر مما يخدمنا.

ويكون ردهم عادة: معقول جدا، وهذا ما سـوف نعمله ولا يعملون شيئاً .. أى لا يتركون أبناءنـا يتعلمـون بما فيه الكفاية، ولا يبعثون بالسـلاح الضرورى لذلـك. ويتجدد الموقف المعـروف بيننـا وبينهم: نحن نطلب وهم لا يردون. أو نحن نطلب ثم هم يردون. وإذا ردوا وعدوا. وفوا بالوعد.. وإذا وفوا بالوعد، كان ذلك بعد فوات الأوان؟!

ولكن لم يفقد جمال عبد الناصر الأمل فى أن تتحسن هذه العلاقة بين مصر وروسيا. وإن كان قد شرب المر على أيديهم عاما بعد عام وفى أواخر سنة ١٩٦٩ عقد جمال عبد الناصر مؤتمرا عسكريا. لم يحضره من السياسيين غيره وغيرى ودارت مناقشات فى هذا المؤتمر. وحللنا الموقف . وأدرناه على جميع الوجوه وكان يسيطر علينا جميعاً أن اسرائيل سوف تتمادى فى استخدامها الطيران إلى غير مدى وإلى غير حد. ووصلنا إلى رأى واحد. وإقتناع واحد هو أن أذهب إلى الاتحاد السوفيتى أطلب سام ٣ . ووافق السوفيت على ذلك. وبسرعة أرسلنا أطقم هذه الصواريخ للتدريب على أن تعود جاهزة للعمل فى أغسطس سنة ١٩٧٠. وكانت هذه خطوة هامة. لا شك.

وقبل أن يسافر جمال عبد الناصر فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٩ إلى مؤتمر القمة فى الرباط فى نفس اليوم حلفت اليمين كنائب لرئيس الجمهورية. وكان ذلك قبل أن يستقل طائرته بخمس دقائق. وفى يوم ٢٥ ديسمبر، وهو عيد ميلادى، كنت فى ميت أبو الكوم. فقد إعتدت أن أقضى هذا اليوم بين أهلى من الفلاحين وفى قلب البيئة التى ولدت فيها ولم أكد أستقر فى مقعدى حتى جاء تليفون يصرخ قائلا: الخط والع نار..

فسلاح الطيران اليهودى قد أغار على الخط من بورسعيد حتى السويس. ومن الثامنة صباحا. وقد أحصيت الطائرات المغيرة فبلغت ١٨٠ طائرة. وطائراتهم أبعد مدى من طائراتنا. ولا تكاد تنتهى ذخائر بعض الطائرات، حتى تجىء من ورائها أسراب أخرى وهكذا. وظلت النار مشتعلة حتى الرابعة مساء. وكانت خسائرنا ضئيلة جدا لم تتجاوز أربعة أو خمسة من القتلى وسبعة من الجرحى. فقد كان رجالنا يقفون وراء استحكامات منيعة. وجاءت الطائرات اليهودية تلقى نيرانها على الرمال وعلى الاستحكامات. وكان هدف اليهود واضحا هو ضرب بطاريات الصواريخ. فإذا أصابوها انفتح لهم كل شىء: السماء والأرض معاً!

وقد أصاب اليهود فى ذلك اليوم عددا كبيرا من بطاريات سام ١ و ٢. وتناثرت قنابلهم شديدة الانفجار وقنابلهم الزمنية، والتى ظلت تفرقع على فترات مختلفة. وبذلك يتحقق لهم ما يريدون وهو أن يظل النار والدمار والانفجار بلا توقف .. لا أنسى ذلك اليوم من عمرى.

وفى مواجهة هذا الموقف المفاجئ العنيف أصدرت أمرا للمهندسين ورجال الصواريخ بسحب كل الصواريخ إلى الوراء. وقد صنع سلاح المهندسين المعجزات وسط الغارات العنيفة. وقبل أول ضوء من يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٧٠ كانت جميع البطاريات سحبت إلى الوراء، وفى أماكن خفية، ولما جاء اليهود ليقضوا على ما تبقى من الصواريخ، كانت غاراتهم تنصب على لا شىء!

وقـد اكتشـفنا من هذه الغارات علينا أسـلوب اليهود فى القتال فهـم «كتابيون» إذا صح هـذا التعبير. أى إنهم يطبقون قواعد الكتاب العسـكرى حرفيا. أى إنهم محدودو الأهداف. يتدربـون علـى الهدف ويخرجون إليه لضربه. وإذا وجدوا أنهـم أخطئوا فى تطبيق الكتاب أو الخطة المحددة عندهم عادوا بسـرعة ولكنهم فى هذه المرة وقعوا ضحايا لمدفعيتنا التى توارت وراء الأشجار وانطلقت عليهم نارا ووبالا.. ففروا هاربين.. وكلما جددوا الهجوم وفقا لخطـة محددة موضوعة، وجدوا أنهم ضحايا كمين جديـد.. فأصابتهم مدفعيتنا وهربوا بما تبقى لديهم من طائرات..

ولما أيقن اليهود أن الموقف قد تغير تماما على الخط فى الشـمال، اتجهوا إلى أسـاليب بهلوانيـة أخرى على البحر الأحمر.. فانقضوا على محطة الرادار وحملوها وعادوا بها وهى غلطة إهمال حقيقية أى غلطتنا نحن.

ولما عاد جمال عبد الناصر من مؤتمر الرباط سافر إلى السودان ليشارك فى عيد الاستقلال فى أول يناير. فوقف يلقى خطبة فى هذه المناسـبة. يحيى شـعب السودان ويمجده. ويجدد الصمود العربى ضد القوى الإمبريالية. ثم اتجه إلى الرد على رئيس الإركان الاسرائيلى الذى كان قد أعلن يوم رأس السنة أنه فى العام القادم سوف يخضع الشعب المصرى تماما..

فقد حدث يوم رأس السـنة أن وقف رئيس الإركان الإسرائيلى فىالكلية الحربية يقول: لقد انتهت مصر فى ٦٧ وقضينا عليها تماما بحرب الاسـتنزاف. أما فى سـنة ١٩٧٠ فسوف يكون «الشعب» المصرى طوع أيدينا.

أى إنه يريد أن يقول: إننا إذا كنا قد هزمنا الجيش المصرى، فلم يبق أمامنا ألا أن نهزم إرادة الجيـش وإرادة الشـعب المصرى.. ومعنى ذلك أن اليهود مؤمنون بأن «روح» الشـعب المصرى لم تهزم بعد. وهذا هو الهدف المنشـود عندهـم. وقد تلقف جمال عبد الناصر هذا المعنـى. وأكـد أنهم لن يهزموا إرادة الشـعب المصرى مهما تضاعفـت غارتهم قبل ذلك أو بعد ذلك..

وقد زاد الشعور العام فى مصر سوءا، وإن كان الشعور العالمى ثار ضد إسرائيل.. فلم تكن غاراتها على الأهداف العسكرية وإنما كانت على أبو زعبل وعلى أطفال بحر البقر.

وأذكر أن جمال عبد الناصر كان فى القناطر الخيرية. وكانت الانفلونزا قد اشتدت عليه. وقـال لى يومها: إن الذى توقعناه قد حدث، إن اليهود قد أغاروا ودخلوا وقتلوا وخرجوا ..

وعـادوا.. ولا أحد يسـتطيع أن يوقفهم. ثم إنهم أعلنوا وصولهم إلى دهشـور على مدى ربع ساعة من القاهرة.

وهذا صحيح.

وطلب منى جمال عبد الناصر أن أتصل بالسـفير السـوفيتى. ووجدت السـفير السوفيتى فينوجرادوف فى المحلة الكبرى مع وفد برلمانى سوفيتى. اتصلت به لكى يجيء فورا. ومعه كبير الخبراء العسـكريين. وجاء الرجل. وكنا أربعة: جمال عبد الناصر والسفير السوفيتى وكبيـر الخبراء وأنا. وجلسـنا فى القناطر الخيرية. وطلب إليـه جمال عبد الناصر أن يتصل بالقادة السـوفيت وأن يستوضحهم عما تم بشأن ما اتفقوا معى عليه فى ديسمبر - أى الاتفاق الخاص بإرسـال صواريخ سام ٣. ثم يسـألهم عن مصير الأطقم المصرية التى سافرت يوم أول يناير أى من عشـرين يوما. ثم كلفه جمال عبد الناصر أن يخبر القادة السوفيت رغبته فى أن يقوم بزيارة سرية لموسكو. فالموقف لا يحتمل التأجيل أو الانتظار.

ولم يكن السـفير السـوفيتى فى حاجة إلى أن يوضح له جمال عبد الناصر أكثر من ذلك. فالغارات اليهودية واضحة. والضحايا المصريون كثيرون. والنار والحرائق والدخان والقنابل والشك واليأس وروح الهزيمة والضيق من الروس ومن أسلوبهم العجيب فى التعامل معنا، قد عقد كل شـيء .. وملأ السماء سحابا، والأرض غبارا، والنفوس شكا .. ويجب أن نفعل شيئا لكى يفعلوا هم أى شيء.

وكان السـفير السـوفيتى فينوجرادوف من الدبلوماسـيين الإكفاء، وكان صديقا للجنرال ديجول، لأنه عمل سفيرا لبلاده فى باريس ١٢ عاما. وكانت له صلات كثيرة وعميقة. ولا بد أن الروس قد اختاروه لمصر، لأهمية الوضع فى مصر وفى الشـرق الأوسـط. وكان هذا الرجل حريصا على أن يخدم القضية من كل قلبه. ولكن ما الذى يسـتطيعه أى فرد سوفيتى، أيا كان وزنه وموقعه، مع القيادة السوفيتية، أن الفرد لا رأى له، وإنما القيادة العليا غامضة الشكل والرأى هى التى لها الرأى!

وذهـب فينوجرادوف وأبـرق للقيادة بما قاله جمال عبد الناصـر. وجاء الرد بالترحيب بهذه الزيارة وبعدها بأربعة أيام سافر جمال عبد الناصر سرا إلى موسكو.

وذهب جمال عبد الناصر إلى موسـكو والتقى بالقادة السوفيت. ولم يحن الوقت بعد لكى أروى تفاصيل ما حدث. وكل ما حدث سـمعته من جمال عبد الناصر شـخصيا. ولسـت أرى

من المصلحة الوطنية العليا رواية شـىء من ذلك الآن.. فالذى قاله جمال عبد الناصر للقيادة السوفيتية يدل على منتهى اليأس والقرف، اليأس منهم ومن أسلوبهم.. بل ولا أكون مبالغا، وأنـا أعرف بالضبط وزن كل حـرف مما أقول، أن جمال عبد الناصر قـد بلغ أقصى درجات اليأس من الحياة نفسها. ومن دوره كزعيم لبلده.

وأرى مـن واجبى أن أمسـك عن الاسـتطراد فى وصـف الحالة التى تـردى إليها جمال عبد الناصر وكان مريضا جسميا ومهدودا نفسيا، وجريحا وطنيا، وذبيحا قوميا..

وأحس الروس من كلام جمال عبد الناصر أنه صادق. وأنه يعنى ما يقول. وأنها سـتكون طامـة كبرى عليهم إذا انتقـل جمال عبد الناصر من القول إلى العمـل.. هنا فقط وافقوا على إرسال الأطقم السوفيتية لصواريخ سام ٣ ..

وهذه الحالة التى وصل إليها جمال عبد الناصر، مع السوفيت ليست الأولى.. وإنما الأولى كانـت يوم فاجأ الروس بقبوله لمبـادرة روجرز على مائدة الكرملـن. والذى يقرأ التاريخ، ويعرف تكوين جمال عبد الناصر يدرك تماما أن اليأس قد بلغ مداه. أنه من موقع اليأس والضيق بكل شـىء قد أعلن الذى أعلنه فأفزع الروس واضطرهم إلى أن يتقدموا بالمساعدة فورا. ثم أن يراجعوا أنفسهم بعد ذلك.. ويعاودوا لعبة مد اليد وسحبها.. ثم مدها وسحبها.. والتسخين والتبريد.. ثم معاودة التسخين والتجميد - كما ذكرت وكما سوف نرى بعد ذلك..

ولما وافقوا على أن يبعثوا لمصر بالأطقم السوفيتية، علقوا ذلك على شرط فقال لهم جمال عبد الناصر: أنا أقبل الشرط!

قالوا: إن تتولوا بناء قواعد صواريخ سام ٣.

قال لهم: موافق فورا.

وهذا الشـرط تقدم به السوفيت ظنا أنهم سوف يضعون أمامنا مشكلة .. أو عقبة .. ونسوا أننا قد بنينا السـد العالى .. أو أن المصريين أبناء السـبعة آلاف سنة قد بنوا الأهرام.. ولكن من عادة الروس إذا أعطوا أن يجعلوا ذلك شيئا صعبا. أى من الصعب أن يوافقوا على العطاء.. ومن الصعب أن يتقدموا بالعطاء .. ومن الصعب عليهم أن يسـتمروا فى ذلك.. وأصعب عليهم أن يستعجلهم أحد.. فلم يكن - إذن - هذا الشرط الذى طلبوه أمرا صعبا.

ثـم تقدموا بشـرط آخر هـو: إذا نحن أكملنا بناء قاعدة أو موقع، فإن السـوفيت سـوف يرسلون الأطقم فورا.

ومن الإنصاف أن أقول إنهم فعلوا ذلك، فلا يكاد الموقع يتم إنشاؤه، ونبلغهم بذلك حتى تجيء الأطقم فورا. هذه حقيقة نذكرها لهم. وكان الروس يتصورون أن بناء أى موقع سوف يستغرق ثمانية أشهر، أى بالضبط الوقت الذى يعادل فترة تدريب أبنائنا فى روسيا. ووقتها يحلها ربنا.. أو وقتها يفكر الروس مرة أخرى أن كانوا سيبعثون بالأطقم أو سيعيدون إلينا أبناءنا المدربين..

ومن العدل أن نقول إن هذه المواقع التى تم انشاؤها قد توالت الواحدة بعد الأخرى. فقد استطاعت الهيئات المدنية المعمارية أن تنجز ذلك العمل العظيم. فلقد شارك المقاولون العرب وشركة حسن علام غيرهما من شركات الإنشاءات المصرية الممتازة فى بناء هذه المواقع. وبدأ حشد هذه الشركات من أول فبراير ودفعنا مليون جنيه فى اليوم لمدة أربعين يوما.

ويوم ١٥ مارس كان أول موقع فى السلسلة بالاسكندرية. وقبل أن يتم أخبرنا الروس بذلك، وفعلا أرسل الروس الصاروخ سام ٣ ومعه الطاقم السوفيتى. وقد قام على بناء المواقع مهندسون وعمال مصريون، ومما يشرفنا أن نقول إن خبيرا سوفيتيا لم يشارك لا فى التصميم ولا فى البناء. هذه حقيقة.

وتناثرت قواعد صواريخ سام ٣ حول القاهرة والاسكندرية وأسوان. وكانت هذه المواقع تتم بفارق يوم أو يومين.. وكان الروس يبعثون بالأطقم. وكان نشاطا عظيما هائلا. كل شىء يتم بسرعة. وفى ١٥ مارس عرف العالم كله: أن الروس وصلوا.. أى إن صواريخ سام التى تصيب الطيران المنخفض قد ركبت. وفى انتظار إية طائرة اسرائيلية. ومنذ ذلك اليوم لم يعد الطيران الاسرائيلى يدخل إلى عمق مصر..

وإذا التفتنا إلى حالتنا العامة أقول إنها تحسنت فجمال عبد الناصر قد وعدوه بأسلحة الردع ووعده بطائرات الردع التى تحمل الصاروخ إلى مدى ١٥٠ ميلا، أى تستطيع وهى على أرض مصر أن تضرب الأعماق الاسرائيلية.. ووعدوه بالأطقم السوفيتية، ونفذوا هذا الوعد.. وقد حدث يوم سفر جمال عبد الناصر إلى موسكو أن أغارت الطائرة الاسرائيلية على جزيرة صخرية اسمها شدوان. ونزلوا عليها وأصدرت أوامرى بضرب الجزيرة الصخرية بالقنابل الثقيلة حتى هرب منها اليهود. وكان يوما مشهودا. بل إن أحد الضباط الشجعان قد استدرج اليهود إلى مخبأ فى الجزيرة. وقد أوهمهم بأنه سيساعدهم على أن يستسلم بقية الجنود المصريين ثم أطلق عليهم الرصاص. فقتلهم وقتلوه. ولم أنس هذا القرار ولا ذلك النصر العظيم فاصدرت قرارا بعمل نيشان يحمل اسم شدوان. ولو عدت مرة أخرى لوصف حالة جمال

عبد الناصر عند عودته من موسكو مريضا لوجدت معنوياته فى السماء. على رغم إرهاق الرحلة ذهابا وايابا وعلى رغم الصعوبات التى واجهها. ولكن النتيجة كانت عظيمة .. ولم يكن أمامه إلا أن ينتظر نهاية يناير وفبراير ومارس.. ولم يصل رد من السوفيت ولا جاءت طائرة الردع ولا شىء. وعلى جمال عبد الناصر أن «يتوافق» نفسيا - أى يصبر نفسه بنفسه، وأن يصالح نفسه على نفسه. ويتجرع هذا الصبر المرير ويتذوقه ويعتاد عليه. ولم تصل رسائل تفيد أن شيئا فى الطريق إلينا، أو سوف يكون. لا شىء!

وكانت عند الروس حجة هى أن هذه الطيارة ذات الصواريخ بعيدة المدى تحتاج إلى أن يتدرب عليها الطيارون ثمانية أشهر على الأقل.

وهذه الكلمات تتوالى بسرعة. ولكن الوقت لم يكن يمضى بهذه السرعة ولا بهذه الخفة. ليت ذلك كان ممكنا. ولكن الوقت كان ثقيلا كالجبال. وكان أثقل من الجبال على رجل مريض مثل جمال عبد الناصر كان عنده السكر والقلب ويجد مشقة فى السير على قدميه وفى النوم.. وزاد ذلك كله ثقلا ووجعا عندما انتهى شهر مارس. وبعد مارس جاء ابريل.. وهذه معلومات أولية لأى طفل يذاكر توالى شهور السنة الميلادية. ولكن إذا كان زعيما مثل جمال عبد الناصر وعينه على أول مايو عيد العمال، فما الذى يفعله؟ وما الذى يراه أمامه، وما الذى سوف يقوله؟ إذا واجهته الناس وانتظرت كلمته وقد استبد بالناس الخوف واليأس، وتعلق مصير الجميع بكلمة يقولها جمال عبد الناصر للمصريين وللعرب؟.

ما الذى يفعله جمال عبد الناصر وقد ذهب وانفجر هناك وهددهم وانزعجوا ووعدوا ووفوا ووعدوا واخلفوا. وأعطوا الأمل فى الكرملين وسحبوه عند المطار وأعادوه إلى شبابه، عشرين عاما من شدة الفرح، وأضافوا إليه عشرين عاما أخرى من شدة الأسى والحزن!

ولما جاء يوم عيد العمال فى شبرا البلد توجه جمال عبد الناصر بنداء إلى نيكسون - ولأول مرة - وقد كانت علاقاتنا مع أمريكا مقطوعة منذ العدوان على مصر سنة ١٩٦٧. وطلب من الرئيس نيكسون صراحة أن يقول له: ما هو دوره؟ وما الذى يستطيع أن يفعله. وجمال عبد الناصر يعلم علم اليقين أن نيكسون له دور. وأنه القادر على حل المشكلة وأراد جمال عبد الناصر أن يعرف من نيكسون موقفه من هذه القضية. ولكن جمال عبد الناصر قد أعلن بصراحة: أن نيكسون يقدر لو أراد. بقى أن يعرف منه وأمام العالم كله أنه يريد أن يفعل شيئا!

والســوفيت عندهم عالم كبير يضعونه فى قمة العلماء فى علوم الحياة والعلوم الاجتماعية والسياســية أيضا هو: بافلوف.. هذا العالم بافلوف هو صاحب نظرية اســمها نظرية «الفعل المنعكس الشــرطى ومعناها البسيط أنه يمكن تعليم الإنسان أو الحيوان أن يفعل أى شىء إذا دربنــاه على ذلك .. فإذا عزفنا قطعة موســيقية أثناء تقديــم الطعام فإن الكلب يتعود على أن يســيل لعابه عند تقديم الطعام، ثم عند عزف الموســيقى.. دون أن نقدم الطعام.. وكذلك إذا وضعنا الدب على صفيح ولم يكن ســاخنا وعزفنا له الموســيقى فإنه يحرك رجليه ويرقص.. أروى هــذه النظرية الشــائعة عند الروس بمناســبة الوعود والوفاء بها وعــدم الوفاء بها ثم الوعود.. وفى استطاعتك أن تستنتج بسهولة ما أردت أن أقول..

أمــا النتيجة فإنه كان من الصعب على جمال عبد الناصر، ومن الصعب علىّ أنا بعد ذلك، أن نرقص مع شعبنا كله لمجرد أن تعزف الموسيقى فى الكرملين

❑❑❑

وتلقف نيكســـون هذا النداء، وبعد شـــهر واحد أرســـل روجرز. فكانــت مبادرة روجرز المشهورة في شهر يونيو. ورفض جمال عبد الناصر هذه المبادرة شهرا، ثم سافر إلى الاتحاد السوفيتي. وأعلن هناك قبوله لهذه المبادرة. وقبل السفر كنت أنا قد رتبت لهذه الزيارة مع السفير السوفيتي فينوجرادوف. وهو صديق. وكانت تربطني به صلة وثيقة. وكان يتردد على بيتي كل يوم اثنين الساعة الحادية عشرة بالضبط. وأخبرت جمال عبد الناصر أن كل شيء قد أعد تماما. وهم مستعدون. وليس عليك إلا أن تذهب لتجد كل شيء في انتظارك.

ولكن بعد عودة جمال عبد الناصر قال لي: واحدة من اثنين إما أن يكون السفير السوفيتي فينوجرادوف لم يخبرهم بأي شــيء، وإما أنه فعل ذلك ولم يوافقوا على أي شيء. أنا زهقت وقرفــت. وقد بقي جمال عبد الناصر في هذه الرحلة إلى موســكو أســبوعين. وتعب كثيرا. وأســعفوه بالاوكســجين. ولكن عذابه النفســي كان أقسى من عذابه الجســدي.. وعاد جمال عبد الناصر يائسا تماما..

ولا بد أنه هو أيضا قد أدار الحوار في رأســه مرة أخرى. واستعرض هذه العلاقة الطويلة المتشــابكة المعقدة المتفجرة المتجمدة مع الســوفيت. ومــات الله يرحمه دون أن يصل فيها إلــى إقناع واضح، ربما كان الشــيء الذى اهتدى إليه هو أنــه من الصعب أن يفهم احد هؤلاء الســوفيت. أو الذى فهمه من ســلوكهم لم يقنعه، أو لم يســترح إليه .. فكل شيء: أقله ورد وأكثره شوك. وكل شيء عندهم مشروط أولا، ومشروط أخيرا.. وأن لم يصرحوا بذلك.. ومطلوب من الزعيم المصري، أي زعيم مصري وطني أن يقبل ذلك وإلا فلا..

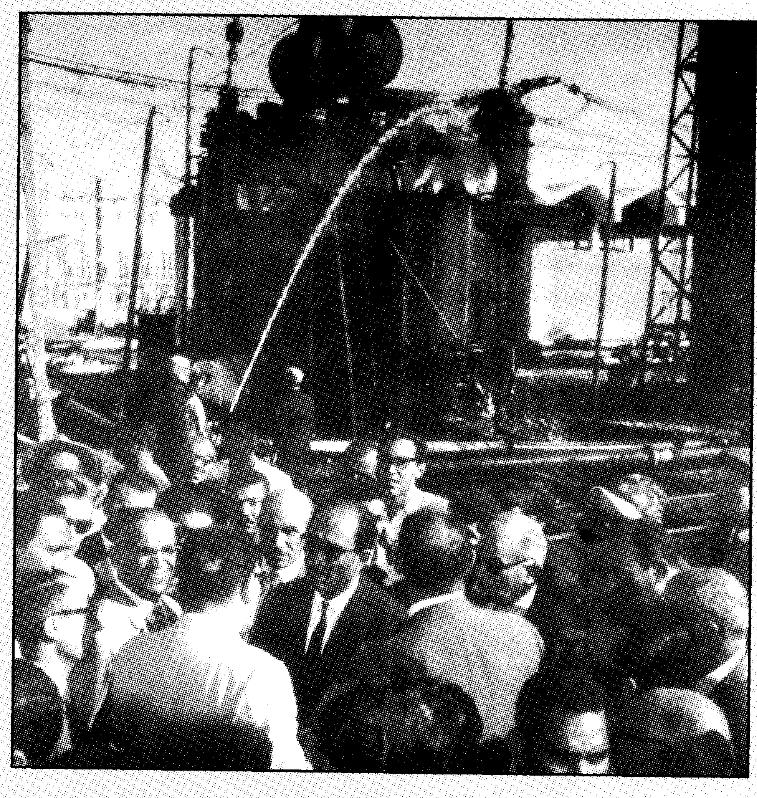
وقد أحس جمال عبد الناصر أنه لا يستطيع أن يشارك في عزف اللحن السوفيتي .. حتى لو أعطوه النوتة الموســيقية أو دربوه على العزف لأن هذا يختلف تماما مع تكوينه النفســي والعقلــي ومع مبادئه الوطنية ومع صدقه وإخلاصه، وكان الرجل صادقا مع نفســه، ولم يكن شــيوعيا ولن يكون. ويحضرني بمناســبة هــذا المعنى أنني قرأت كيــف يدربون الدب على الرقــص.. ويقولون: إنهم يأتــون بالدب ثم يضعونه على صفيح ســاخن.. وفي نفس اللحظة التي يرفع فيها الدب أرجله من لســع الصفيح الســاخن يعزفون مقطوعة موســيقية.. فيتعلم الــدب بمرور الوقت ضبط حركة قدميه مع الموســيقى.. أي إن الــدب لكي يتعلم يجمع بين الألم والموســيقى.. وليســت حركات رجليه إلا نوعا من الألم الصامت تصاحبه الموســيقى.. فالموسيقى هي تنظيم للإيقاع الأليم لهذا الحيوان.



١ - الفريق عبد المنعم رياض مع الرئيس جمال عبد الناصر فى إحدى زياراته للجبهة .



٢ - وليم روجرز وزير خارجية الولايات المتحدة .



٣ - السادات يتفقد المناطق التى ضربتها الطائرات الإسرائيلية فى حرب الاستنزاف.



٤ - رغم الخلافات السابقة وقف الملك فيصل فى مؤتمر الخرطوم عام ١٩٦٧ بجوار الرئيس عبد الناصر لمواجهة خطر الصهيونية على العالم الإسلامى والعربى.. ويظهر فى الصورة الملك فيصل والرئيس عبد الناصر وهو يتحدث إلى عبد المجيد فريد أمين عام الرئاسة .



قرارات حاسمة

- عندما وجه عبد الناصر كلامه إلى أمريكا قائلا: إنه إذا لم يكفهم أن يشربوا من البحر الأحمر فليشربوا من البحر الأبيض.
- لماذا غضب الروس من قرار إلغاء الحراسات؟
- تحركات غريبة فى جنازة عبد الناصر!
- قلت لمحمد فوزى إن شيئا من الذى وعد به السوفيت لن يتحقق واتضح كل شىء بعد ذلك.
- إنهاء الفترة الثانية لمبادرة روجرز.

لقد كان من المنطقى أن يتجه جمال عبد الناصر إلى أمريكا، كما فعل فى خطابه الأخير. وقد جاءت هذه الخطوة بعد عمليات حسابية ومراجعة لتاريخ العلاقة السوفيتية المصرية.. وفى نفس الوقت كان يرى موقف أمريكا من إسرائيل وتدفق السلاح عليها، ويقارن ذلك بالتقتير الشديد عليه ووضعه أمام شعبه فى أحرج المواقف..

وقبل ذلك عرف جمال عبد الناصر مساندة أمريكا لإسرائيل بصورة كاملة واضحة لكل العالم.. ويوم تحدد سفر زكريا محيى الدين لأمريكا لمقابلة جونسون فى آخر مايو ١٩٦٧، سارع الرئيس جونسون بالاتصال بإسرائيل.. وأخبرها أنه فى إمكان إسرائيل أن تنقض على مصر وبسرعة. وقد اعترف هو بذلك فيما بعد. واعترف هو واليهود أيضا، أن خطة حرب ١٩٦٧ كلها قد وضعت فى وزارة الدفاع الأمريكية. وأن العسكريين والخبراء الأمريكان قد باركوها. وهم قد باركوها بعد أن تجمعت لديهم معلومات مؤكدة أن مصر لن تقوى على فعل شىء. ولذلك تم الاتفاق على ضرب مصر. وكل هذه حقائق تاريخية معروفة. ولكن من المهم أن أرويها لأنها جزء لا ينفصل من الخلفية التاريخية لسلوك جمال عبد الناصر بعد ذلك.. تسبق هذا أيضا التعبئة العدائية لأمريكا فى مصر وفى المنطقة. ولا شك أن جمال عبد الناصر قد أذكاها وساعد عليها وعلى استمرارها. والأمريكان يعرفون ذلك. ولن ينسوه. والسوفيت يعرفون له ذلك، وإن كانوا قد نسوه.. أو يريدون.. ففى عيد النصر فى بورسعيد يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦٤ وقف جمال عبد الناصر فى حملة التعبئة العدائية ضد أمريكا. ووجه كلامه إلى أمريكا وجونسون: إنه إذا لم يكفيهم أن يشربوا من البحر الأحمر، فليشربوا من البحر الأبيض!

ولابد أن المراسلين الأجانب قد سألوا كثيرا عن هذه العبارة التى أثارت الجماهير فى بورسعيد وأدمت أيديهم من التصفيق. ولابد أنهم قد وصلوا إلى معنى واحد هو: أن جمال عبد الناصر لا تهمه أمريكا.. وأن عليها أن تضرب رأسها فى الحائط.. أو تشرب ماء مالحا من هذا البحر ومن ذاك البحر أيضا. والمعنى أنه لا يهمه ما تفعله أمريكا مهما تضايقت من الحملة العنيفة ضدها.

ولم يكن صعبا على أجهزة الإعلام الأمريكية أن تزف إلى الشعب الأمريكى فى الكريسماس ورأس السنة هذه التحية من جمال عبد الناصر. بل إن الصحف قد أعلنت بالفعل: أيها الشعب الأمريكى نرجو قبول هذه الهدية من جمال عبد الناصر بمناسبة العيد الجديد: اشربوا مياه البحر الأبيض والبحر الأحمر معا! وليس من الصعب أن نقدر صداها البعيد عند الأمريكان الذين يرون فى جمال عبد الناصر العدو الأوحد فى المنطقة.. يكفى أنه الرجل الذى أدخل السوفيت فى الشرق الأوسط، وهو الذى يتزعم العداء لإسرائيل.. ولابد أن الشعب الأمريكى قد صدق ذلك بسرعة، لأن لديه استعدادا للتصديق، لأنهم لا يعرفون حقيقة ما يحدث فى المنطقة، ولا الذى عاناه ويعانيه جمال عبد الناصر من السوفيت.

أما لماذا طلب جمال عبد الناصر من الأمريكان أن يشربوا ماء البحرين الأبيض والأحمر؟.. فلذلك قصة. فقد كان من عادة جمال عبد الناصر وهو يلقى خطابه أن يضمنه آخر الأنباء. ولذلك كان يطلب أن تجىء إليه آخر الأحداث المحلية أو العالمية أثناء مواجهته للجماهير. وبذلك يضيف إلى خطابه بعدا إخباريا أو مزيدا من السخونة المطلوبة. وقد فعل ذلك. فقد قدم له على صبرى، وكان وقتها رئيسا للوزراء، ورقة تقول: إن وزير التموين د. رمزى استينو قد استدعى السفير الأمريكى ليستعجله فى إرسال صفقة القمح المتفق عليها، فكان رد السفير جافا ومهينا لمصر! فثار جمال عبد الناصر وأشعل غضب الجماهير. ولكن عندما عدنا إلى القاهرة بادر وزير التموين بمقابلة جمال عبد الناصر ليخبره أن شيئا من ذلك لم يحدث. وأن السفير الأمريكى قد جاء بناء على دعوته، وأنه كان لطيفا مهذبا. وقال إن المعونة لا يمكن إرسالها قبل موافقة الكونجرس على ذلك.. أى إنها مسألة إجرائية فقط!

ولم تكن مخاطبة جمال عبد الناصر للرئيس الأمريكى نيكسون عملا مفاجئا. ربما كان ذلك مفاجأة للروس أو حتى الأمريكان. ولكن سير الأحداث العميق الأليم فى نفسه يحتم عليه أن يتوجه إلى الأمريكان. وكان من رأى جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت: أن الصورة واضحة تماما.. فالأمريكان وحدهم القادرون على فعل شىء.. وأمريكا هى الدولة التى وراء إسرائيل بالمال والسلاح والمساندة الدولية. وجاءت بعد ذلك مبادرة روجرز التى قبلها جمال عبد الناصر. وكانت المبادرة تضم نقطتين أساسيتين: الأولى: وقف إطلاق النار تسعين يوما، والثانية: الانسحاب.

ورأى جمال عبد الناصر كلمة «الانسحاب» تجىء لأول مرة على لسان أمريكا. فلم يرد على هذه المبادرة بالرفض أو القبول. ثم اتجه إلى موسكو، وأعلن قبولها وانفعل بريجنيف

قائــلا : كيف تقبل حلا أمريكيا؟ وكان رد جمال عبد الناصر : ليس أمـامى إلا أن أفعـل ذلك. فأنتــم لا تتحركون. وأنا لا أســتطيع أن أضيع مصالح بلدى. وقــال جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت أشياء مثيرة أجدنى مضطرا أن أمسك عن ذكرها الآن..

وكان وضعه فى غاية الصعوبة. فهو قد هاجم أمريكا.. فهل يهاجم الســوفيت أيضا؟ وإذا فعل ذلك فأين يقف فى هذا العالم؟ وعلى أية أرض؟ ومن الذى يســانده؟ وكيف يواجه دهشة الشــعب وهــو يراه حائرا بائرا بين الشــرق والغرب.. بينما إســرائيل تفعــل كل ما بدا لها من عدوان وحرب أعصاب وشوشــرة وتشــهير بمصر.. بحكومتها وشعبها وروحها المعنوية وما تعلنه عن استعدادها للقتال؟

وفى لحظة اليأس التام على مائدة المفاوضات يعلن القادة الســوفيت: أننا اقتنعنا بوجهة نظرك. وسوف نقدم لكم هذه القائمة بالأسلحة.. وهو أسلوب سوفيتى يحدث فى المفاوضات. وهو يذكرنا بما يحدث لسباحى المسافات الطويلة عندما يصلون إلى الشاطئ، ويقدم لهم الناس المشــروبات والورود ويأخذونهم بالأحضان. إنه شعور طيب ولا شك. لولا أن هؤلاء السباحين قــد أنهكهم البحر والموج. فليســوا قادرين على أكل أو شــرب شــىء أو حتــى أن يردوا هذه التحيات الحارة الصادقة أو حتى أن يقبلوها.. شىء كهذا قد أصاب جمال عبد الناصر فى ذلك اليوم.. لولا أنه لم يكن فائزا فى سباق المسافات الطويلة.. وإنما دفعه اليأس إلى أى شاطئ!

فى ذلك الوقت كنت نائبا لرئيس الجمهورية. وقد جمعت اللجنة السياســية بمكتبى فى مصر الجديدة. وعرضت عليهم الموقف. وأوصينا بالإجماع برفض مبادرة روجرز.!

وعندمــا وصل جمــال عبد الناصر إلى المطــار فوجئت بأنه قد قبلها وأعلــن ذلك أمام قادة الكرملين. وقلت: ماذا جرى؟ لقد رفضناها، وأنت قبلتها.. كيف حدث ذلك؟

ولمــا شــرح لى الموقف تماما.. أيقنت أنه على حق. وأنه معــذور تماما فى هذا القرار. فقد جاءت كلمة «الانســحاب» فى مبادرة روجرز. وهى خطوة مشــجعة. وعلينا أن نمشــى وراء أمريكا حتى البيت الأبيض أو حتى البنتاجون. إنها بارقة أمل..

وأثنــاء وجود جمال عبد الناصر فــى الكرملين حدثت «مذبحة الفانتوم».. فقد أســقطت وســائلنا الدفاعية ١٢ طائرة إســرائيلية. والفضل فى ذلك يرجع إلى تكتيك جديد نفذه رجال الصواريــخ بقيادة محمد على فهمى، رئيــس الأركان. وعلى رغم أن هذا الحادث يفرح القلب حقا، فإنه فى ذلك الجو القاتم الملبد باليأس من موســكو لم يكن له فعل الســحر أو أى فعل. فالذى يريده جمال عبد الناصر شىء، والذى يريده السوفيت شىء غير الذى نريده نحن.

وعاد جمال عبد الناصر وقد اتجه بآماله إلى الولايات المتحدة. لعل وعسى. وجمال عبد الناصر رجل مناور. وهو لذلك فى حاجة إلى أرض واسعة لكى يتحرك عليها. ولكن إذا ضاقت الأرض تحت قدميه، أصبح عاجزا عن الحركة تماما. وقد ثبتت قدرته فى المناورة أيام العدوان الثلاثى علينا سنة ١٩٥٦.

إذن لقد قبلنا المبادرة. وبدأنا إقامة حائط الصواريخ وبناء مواقعها..

وكان اليهود قد أعلنوا قبولهم لمبادرة روجرز. وكان ذلك اعتمادا على أن مصر، ككل الدول العربية، تقول لأى شىء: لا.. وأن إسرائيل إذا قالت: نعم.. قالوا هم: لا.. وعكس هذا صحيح أيضا. وكانت مفاجأة أن وجدوا عبد الناصر قد وافق على المبادرة. وجاءت هذه الموافقة صدمة.. أحدثت ارتباكا فى سياستهم. ولم يسكت اليهود طبعا. وإنما استخدموا كل الضغوط المستطاعة. فنيكسون فى أيديهم وروجرز أيضا. وراحوا يشككون فى قرار مصر. واستغلوا الخلاف المستحكم بين مصر وروسيا. وبسرعة وجهوا اتهاما إلى مصر: لقد خرق المصريون مبادرة روجرز!

أما كيف حدث ذلك؟.. فهو أننا قد حركنا الصواريخ.

أين وقع ذلك؟.. على أرضنا.

ولذلك فالمصريون قد خرقوا الاتفاقية التى تنص على وقف حرب الاستنزاف! شىء عجيب. إنها قصة الذئب والحمل.. تلك القصة التى نرويها للصغار على أنها نكتة.. ويعرفها الكبار على أنها الادعاء الكاذب.. فالذئب يشرب من أعلى النهر.. والحمل يشرب من أسفل النهر. والماء يجىء من ناحية الذئب، ويتهمه الذئب بأنه هو الذى عكر عليه الماء!

وكان من السهل جدا أن يصدق الأمريكان ذلك.. فالرأى الأمريكى معبأ تماما ضدنا. وكلمة واحدة تكفى لتهييجه على مصر والمصريين وجمال عبد الناصر. إذن فقد خرقنا مبادرة روجرز. ومعنى ذلك أننا لا نصدق فى كلمة أو فى مبادرة روجرز. ومعنى ذلك أننا لا نصدق فى كلمة أو فى وعد، ولا ننفذ أى اتفاق أبرمناه أو وعدنا به مع أى أحد. إنهم العرب كما قلنا لكم.. إلى آخر ما اعتاد اليهود أن يقولوه، وما اعتاد الأمريكان أن يسمعوه ويقرأوه فى صحفهم..

ولذلك كانت مهمتى شاقة جدا بعد ذلك عندما حاولت أن أغير هذه الصورة. فلا أعد إلا بما أقدر على الوفاء به. ولا أقول إلا صدقا. حتى أصبحت الثقة التامة هواء يتنفسه الجميع فى مصر وفى أمريكا وفى العالم العربى وفى الغرب. ولم يكن ذلك أمرا هينا ولا سهلا.. كما سأروى ذلك فيما بعد.

وفجأة مات جمال عبد الناصر يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠.

وفى نفس السنة مات أيضا السفير السوفيتى فينوجرادوف. وكان من أكفأ الدبلوماسيين السوفيت وأقدرهم فهما لمصر والشرق الأوسط، وأكثرهم حرصا على أن يفعل شيئا باقيا لبلاده ولنا. وكان موته خسارة أيضا. وتتابعت الأحداث بعد ذلك بسرعة خاطفة وبحدة وعنف. وتشابكت خيوط وتعقدت. ووجدت نفسى وبلدى أمام أشياء جديدة. وجاءت الدول تعزى فى وفاة جمال عبد الناصر وأرسل الأمريكان ريتشارد سون على رأس وفد، وهو سفيرهم فى بريطانيا الآن وواحد من ألمع نجوم الحزب الجمهورى. ولم تكن بيننا وبين الأمريكان علاقات دبلوماسية بعد حرب ١٩٦٧.

وكما هو معروف سقطت أنا قبل سير الجنازة. وأعطيت خمس حقن وأنا فى مجلس قيادة الثورة. ولما أفقت من أثر هذه الحقن.. سألت إن كان جمال عبد الناصر قد دفن، فقد كنت أخشى على الجثة من انفعال الجماهير. وبعد ذلك يصعب علينا دفنها. وقيل لى ساعتها: لقد دفنت منذ عشر دقائق.

وجاء الوفد السوفيتى برياسة كوسيجين. ولم أكن أعرف بالضبط ما الذى يدور فى رءوس الروس فى ذلك الوقت. فقد كنت مشغولا تماما بالمهمة الجديدة، وأرى أمامى أعباء ثقيلة وطريقا صعبا طويلا. والصورة التى أمامى أليمة وسوداء. والله سبحانه وتعالى هو القادر على أن يعيننى على ما أنا فيه..

ويوم الجنازة أقيم سرادق جلس فيه الرؤساء والملوك مثل الملك حسين والإمبراطور هيلاسلاسى وغيرهم. بينما جلس كوسيجين فى غرفة داخلية معنا فى مجلس قيادة الثورة. ولابد أن «المنظر» كان غريبا فى ذلك الوقت.. أقصد منظر الروس قبل وأثناء وبعد الجنازة. ولكن لم أدرك ذلك بوضوح. وإن كنت استرجعت الصورة فيما بعد، فعرفت المعنى. وكان هذا المعنى خافيا علىّ تماما. وإن كان كوسيجين قد قال كلاما ممتازا. وقد أكد فى كل الذى قاله لى أن الاتحاد السوفيتى شديد القلق على مصر.

ويبدو أن هذا كان شعور الجميع. فحتى ريتشارد سون عندما رجع وكتب تقريره سجل فيه قلقه على مصر. والانجليز أكدت لهم مخابراتهم أن الوضع فى مصر خطير وأنه قابل للانفجار فى أية لحظة. وكلهم، على اختلاف بينهم، قد اتفقوا على أننى لن أبقى فى مقعدى هذا أكثر من أربعة إلى ستة أسابيع.. وحتى هذا تقدير مبالغ فيه!

ولا أزال أذكر عبارات كوسيجين فى ذلك الوقت. كانت رقيقة مشجعة.. وعلى رغم شعوره العميق بالقلق على مصر.. فقد قال لى: إن روسـيا سوف تساعدكم. ومصر يجب أن تستمر فى السياسة التى انتهجتها. وسوف نبقى أصدقاء لكم.. ثقوا فى ذلك تماما..

ولكن كان واضحا جدا أن كوسيجين والوفد المرافق له كانت له «هيئة» و«منظر» مختلف تماما عن الجميع. ولكن لم أتبين ذلك بوضوح. وإن كان بعض المؤرخين يقولون: إنه فى هذه الجنازة قد أصبح كل شىء واضحا تماما. لقد جاء الروس ليواجهوا الرجل الذى ليس رجلهم.

وأدهشنى ذلك. واسترجعت علاقتى بالسفير فينوجرادوف. إنها علاقة طويلة. ومنتظمة. عشـرة طويلة. وقد عرف الرجل كل ما يدور فى رأسـى. وعرف تفكـيرى وما أتمناه لبلدى. ولابد أنه قد نقل ذلك إلى قيادته. ومن المؤكد أنهم يعرفوننى جيدا. فكيف لم يقنعهم ما بلغهم من سفيرهم فى القاهرة بأننى رجل وطنى. مصرى صميم. ما فى ذلك شك.

وهذا هو ما يحير أى إنسـان عندما يقلب فى هذه الأوراق الغريبة العجيبة على شـجرة العلاقـات المصرية السـوفيتية.. غريب جدا بعد ثلاث سـنوات كاملة من صداقتى للسـفير السـوفيتى، ألا يفهم السـوفيت حقيقتى. أو لعل الرجل يقول لهم ولا يسـمعون منه.. ربما كانت لهم عيون أخرى ترى، وألسنة أخرى تقول وتسجل لهم.. فالروس شكاكون بطبيعتهم ولا يصدقون أكثر الناس إخلاصا لهم. وتندهش بعد ذلك: إذن من الذى يصدقونه؟

شىء مخيف حقا: فأنت لا تعرف ما معنى هذا الذى تراه. هل هم جادون عندما يضحكون؟.. هل هـم ضاحكون لك أو ضاحكون عليك؟.. وكانت مشـكلتى الكبرى: مصر. والحالة لم تكن تسر حبيبا، وإنما كانت تسر العدو وتسعده. وتجعله يفعل بنا ما يشاء عندما يشاء..

وأذكـر أنه قبل وفاة جمال عبد الناصر بوقت قصير فوجئت بجمال عبد الناصر يتصل بى ويقول: تعال نذهب إلى القيادة. وذهبنا إلى القيادة فى مدينة نصر فى العباسية. وكان اجتماعا كبيرا اسـتغرق سبع ساعات. ولم يكن من السياسـيين غير جمال عبد الناصر وأنا، والباقون عسكريون مصريون هم قادة الوحدات، وخبراء عسكريون سوفيت. وعلى الحائط أمامنا وضعت خطة العمليـات. وكان اسمها «الخطة ٢٠٠». وكانت هذه الخطـة كاملة تماما ١٠٠٪ وكانت خطة دفاعية. لأنه من الضرورى قبل أن نقوم بأى هجوم أن تكتمل لدينا خطة دفاعية.

وتحـدث كل قائد مصرى. وتحدث كل خبير سـوفيتى. والجميع قد أيدوا الخطة. وأكدوا سـلامتها. وكان جمال عبد الناصر قد شـعر بأنه سوف يموت، فأراد أن يرى لآخر مرة مدى قدرة البلد على الدفاع. إذن من الناحية العسكرية كان هذا هو الوضع فى آخر تطوراته.

ومن الناحية السياسية كانت المصائب أمامى كثيرة. لا أول لها ولا آخر. تزداد تعقدا وتهدد بالانفجار، فاليهود قد أثاروا أمريكا والعالم أيضا وشككوا فى صدق قبولنا للمبادرة. ولكن لم تمض أيام على قبول المبادرة حتى صورونا أمام العالم بأننا نستعد للعدوان بتحريك الصواريخ من أرضنا إلى أرضنا. ومعنى ذلك أن إسرائيل لا تستطيع أن تنسحب، على رغم أنها وافقت على المبادرة التى تنص على ضرورة الانسحاب.

وكانت صورة مصر الداخلية أمامى سليمة. وصورتنا العسكرية الدفاعية سليمة، إلى أن نفكر فى خطة هجومية..

أما من الناحية الاقتصادية فنحن فى أسوأ حال. حتى هذا التعبير لا يفى بالمعنى الذى أراه وأحسه، ويحزننى ذلك. وقد استدعيت حسن عباس زكى. فكان رأيه أن مصر فى حالة إفلاس تام. قلت له: والحل؟ وكان رده هو التعبير المصرى الذى يقول: آخذ طاقية هذا وأضعها على رأس ذاك.. أى إن الذى يستطيعه ليس حلا علميا وإنما هو أن يقوم بنوع من الحيل الاقتصادية ليسكت الناس. أى ليس عنده حل. فالذى وصلنا إليه ليس هناك ما هو أدنى منه.. نحن اقتصاديا فى الحضيض.. مع الأسف الشديد.

وانتهت أو كادت أيام مبادرة روجرز التى بدأت فى ٨ أغسطس سنة ١٩٧٠: وواجهنى موقف جديد فى شهر نوفمبر. وجمعت ما يمكن أن يسمى «بمجلس أمن قومى» وكان يضم كل مسئول فى الدولة وفى مقدمتهم: د. محمود فوزى رئيس الوزراء ومعه حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية وشعراوى جمعة ومحمود رياض نائبى رئيس الوزراء وجلسنا فى قصر الطاهرة. وانتهينا إلى ضرورة أن نمد مبادرة روجرز تسعين يوما أخرى. لأننا إذا لم نفعل، كان علينا أن نستأنف حرب الاستنزاف. نضربهم ويضربون مصر فى أعماقها، وعلى رغم أن لدينا صواريخ سام ٣. فإن أهدافنا فى الصعيد ما تزال عارية. ومن الممكن أن يعاود اليهود نسف المنشآت الحيوية فى جنوب مصر. كل هذا ممكن. إذن لا مفر من تجديد المبادرة حتى نستعد، أو حتى نرى ما الذى سوف يفعله الأمريكان.

وكانت مدة المبادرة الثانية تنتهى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١.. علينا قبل نهايتها أن ننظر ما الذى سوف يفعله الروس حتى نتمكن من الدفاع عن الصعيد.. لأن الموقف ما يزال كما هو، فاليهود يستطيعون أن يقفزوا من رأس محمد فى جنوب سيناء إلى أى مكان فى الصعيد.. بطائراتهم، ولا حاجة لها إلى ظهور القمر فى الليل، كأنها تستطيع أن تضرب وتعود وبسهولة جدا..

وحــدث شــىء آخر جعلنى انتبه إلى مــا كان خافيا عنى وغائبا عن بصيرتى. ففى شــهر ديســمبر ألغيت الحراســات. وقد أحدثت الحراســات فى مصر من الهــوان والظلم وامتهان الإنسان للإنسان ما نعرفه جميعا: وهو قرار داخلى.

ولكن أدهشنى جدا أن قرار إلغاء الحراسات قد أغضب السوفيت.

ولابــد أن أعيــد هذه العبارة الأخيرة وأرتب دهشــتى التى لم تنتــه: لقد كانت فى مصر حراســات. ثم رأيت لاعتبارات قومية وإنســانية أن ألغى هذه القــرارات المهينة. وهو قرار داخلى. ومن حقى أن أصدره. فغضب الروس لذلك غضبا شديدا. كأننى فرضت الحراسات فى روسيا وألغيتها بعد ذلك!

عرفــت فيما بعد ما الــذى أغضبهم. فقــد كان واحد من مراكز القوى فــى الخارج عندما صدر هذا القرار. وأقنعه الســوفيت أن هذا القرار يعتبر «ردَّة» فى الاشتراكية، أو «انتكاسة» للتقدمية المصرية، أو «كبوة» وطنية..

أمــا أنــا فقد اتخذت هذا القرار من واقع ما أراه فى مصــر. فأنا كأى طبيب لابد أن يداوى جراح المرضى قبل إعداد غرفة العمليات. فأنا أريد أن أجفف الدموع، وأداوى الجراح، لأننى أعد نفسى وبلدى لعملية كبرى. هذه العملية لم تغب عن بالى لحظة. فأنا مطمئن من الناحية العســكرية على قدرتنا الدفاعية. ويجب أن نلتقط أنفاســنا، وأن نتجه إلى الجبهة الداخلية. ونطمئن على ســلامة النفوس، وعلى كرامة الإنسان. نعم كرامة الإنسان فأنا لا أتصور حاكما يسمى نفسه حاكما وطنيا صادقا، إذا كان يحكم شعبا من ذوى الكرامة المجروحة، أو النفوس المهينة. نعم كرامة الإنســان، وكان من المعروف أن قرارات لجنة الإقطاع ووضع الحراســات كانــت تصــدر كل يوم خميس. وكانت هناك حالة رعب تهز البلــد من أوله لآخره. ولا تكاد تصــدر هذه القرارات حتــى تطول أظافر ومخالب بعض الناس وتنغــرس فى لحوم الآخرين وأعراضهم بلا رحمة. مع أنهم جميعا مصريون.

وفى يوم من أيام صدور قرارات لجان الإقطاع كنت فى ميت أبو الكوم عندما سألنى الناس: ألم تقرأ الصحف؟.

ولم أكــن قرأتهــا.. فمن عادتى أن أعيد التقليب فيها مســاء. ففى الصبــاح عندى مواعيد كثــيرة. ولكن الناس اســتعجلونى أن أفعل ذلك. ففى ذلك اليوم صــدر قرار من لجنة الإقطاع بمركز تلا. وفجأة وجدت لجنة إقطاع تلا قد وضعت تحت الحراسة أحسن الناس فى المركز، وهم جميعا أهلى. وأنا أعرفهم جيدا. جميعا قد وضعوا تحت الحراسة وفصلوا من العُمدية.

ولم أنم ليلتى فى نفس البلد. وألغيت قرار اللجنة. وهو القرار الوحيد الذى ألغى يوم صدوره. لأنه ظالم. وغضب الروس.. وقالوا ذلك لواحد من مراكز القوى كان وقتها فى ألمانيا الشرقية.

وعرفت أنهم كانوا يفضلون أن تظل جراح الناس تنزف، وأن تأكل النار قلوبهم غضبا، وأن يعتصروا شفاههم مرارة ويأسا.. وعرفت أن هذا هو «الجو» المطلوب لمعارك دموية فى مصر.. لولا صدور هذا القرار وغيره من القرارات الإنسانية التى أصدرتها- بعد ذلك- وكان ذلك يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٧٠.

وفى يناير ١٩٧١، أى بعد ثلاثة شهور من ولايتى الحكم جمعت مجلس الأمن القومى بشأن تقرير المد الثانى لمبادرة روجرز تسعين يوما أخرى. وتكلموا جميعا.

ولكن وضح لى أنهم قد رتبوا كل شىء. واتفقوا قبل أن يجيئوا. ولكن أردت أن أرى كل واحد على حدة. لأعرف بالضبط ما هذا الذى أراه أمامى. لقد كان اتفاقهم غريبا. حتى عندما حاولوا أن يقولوا: إنهم متفقون على عدم التجديد. قلت: إذن أسمعكم واحدا واحدا. فمثل هذه القرارات لا تؤخذ هكذا. إنه قرار مصيرى.

ولكننى سألت محمد فوزى وزير الحربية فى ذلك الوقت: يا فوزى هل جاءت بطاريات الصعيد؟

أجاب: ليس بعد!

سألت: عندك أية معلومات عن متى تصل إلينا؟

أجاب: ربما فى فبراير القادم.

قلت: يعنى مع نهاية التسعين يوما!

فلم يرد أحد. ووجدت إجماعا غريبا. فقد كانت لجنة الأمن القومى تضم أكثر أعضاء اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى.

ولكن لم أضيع هذه الفرصة والتفت للجميع وقلت: آسف جدا أن أقول لكم إننى لا ألعب القمار. وإذا كنت ألعب القمار، فلن ألعب بمصير بلدى. أنا غير مستعد أن أدخل فى حرب استنزاف يضيع فيها الصعيد بالكامل..

وتعالت أصوات تقول: يا افندم إنها مسألة كرامة. كيف لا نحارب؟

قلت: إنها ليست مسألة كرامة. إننى على استعداد أن أبتلع كرامتى من أجل حماية الصعيد. أنا موافق أن أعلن معكم نهاية مبادرة روجرز يوم ٤ فبراير. ولكن آسف جدا لا أستطيع بعدها أن أبدأ حرب استنزاف!

وبدأت أشك. فالذى رأيته ليس مألوفا. إنهم يريدون حرب استنزاف من جديد ولو أدى ذلك إلى ضياع الصعيد. أو خراب مصر كلها. ثم إنهم متفقون على ذلك. أى إنهم اتفقوا قبل أن يجيئوا. وكيف اتفقوا؟ وما الهدف؟ وما هى المصلحة؟ إنهم لم يتفقوا فقط. وإنما هم قد اتفقوا معا ضدى أنا!

أصبح كل شىء أمامى واضحا تماما. وبدأت أسترجع ما حدث بتفاصيله الدقيقة. وأضع الحادثة إلى جوار الأخرى. وأسترجع الوجوه. ولم يتوقف رأسى عن التفكير وعن العمليات الحسابية ليلا ونهارا.

وجاء يوم ٤ فبراير وذهبت إلى مجلس الشعب. وأعددت خطابى. وكانت العادة تقضى بأن أعطيه لسامى شرف لكى يعده على الآلة الكاتبة. وكنت أنا وبخط يدى كتبت الجزء الذى أعلنت فيه المبادرة المصرية. ولما ذهب الخطاب إلى سامى شرف وجده عاديا. ولكنى أعلنت فى ذلك الخطاب إنهاء الفترة الثانية للمبادرة. وفى نفس الوقت أعلنت أننى لن أجددها إلا لمدة شهر واحد لكى أضع العالم كله أمام مسئولياته. وهذا الشهر ينتهى يوم ٧ مارس سنة ١٩٧١.

ولم استشر فى هذا القرار أحدا سوى د. محمود فوزى رئيس الوزراء، لا باعتباره رئيسا للوزراء ولكن باعتباره خبيرا دبلوماسيا يمكن الاعتماد على تقديره للأمور. وقد استدعيته فى القناطر الخيرية وقلت له ما فى نيتى. وقال الرجل: هذا رائع!

ومن العدل أن أقرر هنا الآن أننى منذ ذلك اليوم ازددت يقينا فوق يقين، من أن الشعب المصرى أقدر بحسه وفهمه وإدراكه المباشر للأمور، من كل هؤلاء العلماء والخبراء والدكاترة فى السياسة.. فقد استقبل الشعب المصرى هذه المبادرة بالحماس الشديد. وكان صادقا، وبذلك كان هذا الحماس يرجح فى مقاييس فهم الأمور كل ما قاله أدعياء السياسة وخبراؤها الذين توجوا أنفسهم بأنفسهم على عرش القيادات الشعبية!

ولما فرغت من خطابى هذا ودخلت مكتبى فى مجلس الشعب، وجدت وجوها مقلوبة، ووجدت لغطا.. ولم تعجبنى الصورة التى رأيتها ولا اللهجة التى سمعتها بشأن هذه المبادرة المفاجئة!

وكان من الوجوه المقلوبة أمين الاتحاد الاشتراكى وقد أعلن على مسمع من كثيرين: ليخرج إلى الشارع يدافع عن نفسه يقصدنى طبعا فقد ظن أن الناس ضد المبادرة.

ونسى أنه هو والآخرون ضد المبادرة، وضد مصالح مصر، وأمن مصر كلها..

وهذا الشخص نفسه جاءنى وقال لى بعدها بيومين: ليس فى الإمكان أروع مما كان ومما أعلنت على الشعب!

إذن إخواننا هؤلاء لم يكن تصرفهم هذا عن «سوء فهم» وإنما عن «سوء نية» وعن حقد.. كما أنهم لم يفهموا أننى عندما طلبت «اتفاق سلام» لم أقصد «معاهدة سلام». والفرق بين التعبيرين كبير جدا. فالذى قصدته إنما هو «امتحان للنيات».. أهم صادقون فى هذا الذى قدموه لنا؟ أم هم يلعبون بنا أيضا؟

ثم إننى قلت لنفسى: إن الولايات المتحدة هى الدولة التى وراء إسرائيل، وعلى ذلك يجب أن أنتهز هذه الفرصة ولن أضيع وقتى..

وقد أدرك جمال عبد الناصر هذه الحقيقة متأخرا جدا.

وكنت أتطلع إلى أن تتحقق هذه المبادرة التى تنص على انسحاب إسرائيل إلى المضايق وتترك قناة السويس. وتتجه قواتنا إلى الشرق ويتولى فى نفس الوقت د. يارنج سكرتير الأمم المتحدة هذه المهمة بيننا وبين إسرائيل لإتمام عملية الانسحاب سلميا. وكان فى نيتى أن أعطى ستة شهور أخرى إذا سار كل شىء على الصورة التى نرجوها. وينطبق هذا على مصر وعلى الجبهات العربية الأخرى. وبذلك تحل المشكلة بلا قتال.

ولو قبل اليهود ذلك لكانوا فى وضع أحسن.. ولكن غطرستهم وغرورهم وطمعهم أيضا قد أعماهم عن هذه الحقيقة. أما الحقيقة فهى: أنهم تركوا مصر حتى استكملت قواتها تدريبها واستيعابها للسلاح، وكان النصر عليهم بعد ذلك فى أكتوبر ١٩٧٣. ولحسن الحظ كان اليهود أغبياء فى هذا الموقف.

وقد آمن اليهود بحقيقة أخرى أعمتهم وهى: أن مصر جثة هامدة. وأنها لن يقوم لها قائم بعد نكسة ١٩٦٧. وأن علاقة مصر بالسوفيت سيئة، فلن يكون لدى المصريين سلاح، وإذا كان لديهم سلاح فمعنوياتهم ويأسهم لن يمكنهم من استيعابه، وإذا استطاعوا ذلك فمن أين يأتى المصريون بروح معنوية ليقاتلوا بعد ما أصابهم فى كل الحروب التى دخلوها مع إسرائيل – هذا المنطق أعمى اليهود. وهذا المنطق قد أعمى مراكز القوى أيضا. فقد كانوا يرون أن الذى أقوله ليس إلا تهريجا. وأن مصر لن تقدر على عمل أى شىء!

وفى مايو دعوت مجلس الأمن القومى إلى بيتى. لم أدعهم كلهم طبعا. فهذا بيتى وأنا حر أدعو إليه من أشاء. ورفضت دعوة على صبرى وشخص آخر ممن كانوا يتآمرون بوضوح. وقلت

لهم وهم فى بيتى: أنا لا أحب أن «أشـكالا» من هذا النوع تدخل بيتى.. وبصراحة وببسـاطة لا أحب أن تتلوث الكراسى فى بيتى بجلوس واحد منهم عليها..

أما لماذا حددتُ مدَّ المبادرة بشهر آخر ينتهى يوم ٧ مارس فلذلك قصة.

ففـى أواخر يناير اتصل بى محمد فوزى وزير الحربية وقال لى: الروس أرسـلوا مواعيد وصول بطاريات الصعيد..

سألته: متى تجىء؟

أجاب: المركب الأول يصل يوم ١٨ فبراير والمركب الثانى يوم ٢٢ فبراير..

قلت: خير.. ولكن المشـكلة لم تحل.. لأن المبادرة سـوف تنتهى يوم ٤ فبراير. فإذا وصل آخـر مركب يوم ٢٢ فبراير فكم يسـتغرق نقلها من الإسـكندرية إلى الصعيـد.. ثم تركيب الصواريخ؟

أى إن الصواريخ سوف تصل فى الأيام الأولى من شهر مارس، ولذلك اخترت يوم ٧ مارس نهاية للمبادرة المصرية الجديدة. وهى أول مبادرة سلام يقدمها رئيس عربى منذ ٢٢ عاما. ثم يعلن فى نفس الوقت أنه على استعداد لعقد اتفاق سلام مع إسرائيل. وكان ذلك إحراجا عنيفا لإسرائيل، التى تدعى أنها هى التى تريد السلام، وأننا نريد الحرب على رغم أننا لا ننتصر فيها.. إلى آخر أكاذيبها.. ثم عدت أسـأل محمد فوزى يوم ١٠ فبراير: يا فوزى هل تعلم أن الحزب الشيوعى سيعقد فى موسكو يوم ٣١ مارس.

قال: أعرف ذلك.

قلـت: أحب أن أقول لك لمعلوماتك إن الروس لن يبعثوا بأى شـىء فى ١٨ فبراير ولا فى ٢٢ فبراير... لكن إذا جاء شىء فسوف يكون فى إبريل..

وفعلا جاءت أيام ١٨ و٢٢ فبراير ولم يبعث الروس بخبر واحد قبل ذلك.. فالعادة تقضى أن يبعثـوا لنا بخبر مبارحة المراكب لميناء أوديسـا ووصولها إلى الإسـكندرية لكى نعد لها الرصيف ونخليه تماما. ثم يتم الشحن فى القطارات ليلا. وتتجه بعد ذلك إلى الصعيد.

لا شىء من ذلك قد حدث.. تماما كما توقعت!

ولم أضيع وقتا. واسـتدعيت السـفير السـوفيتى وقلت: أبلغ القادة السوفيت برغبتى فى زيارتهم فى نهاية فبراير.. زيارة سرية. وجاء الرد بالموافقة على أن يكون ذلك أيام ١ و٢ مارس.

وكانت أولى زياراتى لموسكو كرئيس لجمهورية مصر. وجلسنا إلى مائدة المفاوضات. وكان معى من مراكز القوى شعراوى جمعة. وكان معى محمد فوزى. وفى يوم ٢ مارس اجتمعت بالقيادة السوفيتية: بريجنيف وكوسيجين وبودجورنى. وكنت فى غاية الانفعال فى ذلك الوقت. وأعتقد أن هذه الجلسة كانت الجلسة الفاصلة بينى وبينهم. وعلى الرغم من أننى ذهبت للزيارة بعد ذلك عدة مرات. فإنى أعتقد أننى لم أقل شيئا جديدا فى هذه الزيارات. فكل شىء قلته وعرفته وتأكدت منه فى هذه الزيارة الأولى لهم، والأخيرة من وجهة نظرى.

بدأت أشرح لهم القضية من أولها.. وما الذى فعلته إسرائيل. وما الذى نستطيعه. وما الذى نعجز عن عمله. والصورة واضحة أمام العالم كله. إنهم متقدمون عنا بعشر خطوات، وهم العداة، ونحن متخلفون عنهم ونحن المعتدى علينا ونريد أن نحرر أرضنا ونسترد ما فقدناه.. وأنتم أصدقاؤنا، تقولون ذلك ونصدقكم. ولكن الذى تفعلونه يجعلنا نشك فى كل ما تقولون. تقولون.. نصدق! تعملون.. لا نصدق! إنها حيرة وقعت فيها ولا أعرف لى شاطئا للأمان منكم أو شاطئا للأمان بكم..

وقالوا فى هذا الاجتماع إنه لا داعى للحرب. وإنه لا يوجد إلا الحل السلمى. وأنا موافق تماما على ذلك. ولكن من الذى يستطيع أن يتكلم عن السلام وهو ضعيف. إن السلام لا يمكن أن يتم إلا فى ظل القوة. إذا أصبحت قويا وأيقنت إسرائيل ذلك استطعت أن أتحدث عن السلام وأنا أهددهم بالحرب.

ثم قلت للقادة السوفيت: والآن دعونى أحكى لكم قصة عذاب جمال عبد الناصر.

وجعلت أروى لهم كل ما فعلوه بجمال عبد الناصر وما قالوه له حرفا حرفا. فقد ظن الروس أن الذى قالوه لعبد الناصر قد احتفظ به الرجل فى صدره ومات معه، والحقيقة أنه مات به!

ثم عدت أحاسبهم على قراراتهم معى أنا ومواعيد إرسال بطاريات الصعيد.. إلى آخره.

واشتدت المناقشة واحتدت. وتدخل بريجنيف وهو دائما رجل صديق ومتفاهم. وقلت له: بدون تحرك عسكرى مستحيل أن يحدث شىء! ولم يكن صعبا أن أدرك حقيقة مؤلمة هى: أن الروس رأيهم كاليهود تماما: أننا جثة هامدة خامدة.. ولا أمل فينا!

ولذلك كان بودجورنى لا يجد حرجا فى أن يطلق بعض التعليقات المؤلمة لنا، والجارحة أيضا. ولم أطق صبرا على الذى رأيت وسمعت وثرت أمام الجميع..

وعند قمة غضبى هذا، وكما هى العادة يخرج الروس قائمة تقول: وافقت القيادة السوفيتية على تزويد مصر بالأسلحة الآتية..

هم الذين اختاروا الأسلحة.. وليس من بين هذه الأسلحة جميعا: سلاح الردع الذى وعدوا به جمال عبد الناصر من قبل، ولا من بينها بطاريات الصعيد.. ولا تحديد موعد إرسالها ولا موعد تركيبها.. وكما توقعت.. جاءت هذه الأسلحة التى اختاروها بأنفسهم بعد انعقاد الحزب الشيوعى بأسبوعين. وفى ذلك الاجتماع طلبت أن يسجل فى المحضر: أننا مختلفون!

وكأننى ألقيت شعلة من النار على الحاضرين فقالوا: إلا هذه الكلمة!

قلت: أنا مصرّ على ذلك!

قالوا: إلا هذه الكلمة!

قلت: إن الحلفاء كانوا مختلفين تماما، على رغم أنهم اتحدوا على هتلر. فهذه الكلمة لا تعنى أكثر من أننى مختلف مع القيادة السوفيتية. وهنا، وبحكم العادة، قال القادة السوفيت: سوف نعطيك سلاح الردع أى الطائرة ذات الصاروخ الذى مداه ١٥٠ ميلا..

قلت: عظيم.

قالوا: على أن يكون تشغيلها بأوامر من موسكو.

قلت: إنها إذن فرصة نتحاسب فيها. لقد عرض عليكم عبد الناصر إرسال أطقم سوفيتية.. وعرض عليكم أن يكون قائد الطيران سوفيتيا.. وعرض عليكم أن يدخل فى معاهدة قلتم: لا.. قال: إذن نجعل المعاهدة حلفا.. أى إن جمال عبد الناصر عرض عليكم أن يدخل فى حلف وارسو؟

قالوا: هذا حدث تماما.

قلت: أنا أرفض طائرة الردع هذه!

وكانت أكبر غلطة ارتكبها السوفيت فى هذا الاجتماع.. ثم ختمت حديثى العنيف جدا معهم بقولى: أحب أن أقول لكم حتى لا تغلطوا هذه الغلطة مستقبلا.. ليس فى مصر إلا قرارى أنا وقرار الشعب. وأرفض أن أتلقى هذه الأوامر من أى مكان. وهذا الذى تطلبونه منى لا تفعله أمريكا مع إسرائيل.. فإن إسرائيل لم تستأذن أمريكا فى ضرب أعماق مصر ومنشآتها.. وأمريكا تمدُّ إسرائيل بأحدث الأسلحة. وكلها معروفة. وأنتم لديكم أحدث الأسلحة وهى منشورة فى الكتب. وأستطيع أن أرويها لكم الآن إذا أردتم. فلديكم أسلحة حديثة متطورة جدا..

ورجعت إلى مصر بعد أن أصبح كل شىء واضحا تماما..وقد حصلنا على بعض السلاح، ولا أحد يرفض المزيد من السلاح. لا جمال عبد الناصر ولا أنا، فكل سلاح هو إضافة قوة.

أيّاً كانت هـذه الإضافة! ولكى أكـون أكثر وضوحا فقد عدت من موسـكو والصورة فى عينى وفـى أذنى هكذا: لم أكن رجل موسـكو. ولـن أكون. فقد كانوا يرون أننـى «الرجل المرحلة» أو «رجـل المرحلة» وبعدها يجىء آخر، يجىء واحد من مراكز القوى. ولذلك تسـللوا إلى كل المراكز القيادية فى الإعلام وفى الصحافة وفى أماكن كثيرة من مصر. وكل شىء يمشى بطريقة منتظمة استعدادا لهذا اليوم ولهذا الرجل.. أى للرجل الآخر الذى ليس أنا!

وجمعت اللجنة العليا التى اشتركت معى فى قرار مدّ المبادرة فى يناير الماضى. وكان ذلك فى القناطر الخيرية فى بيتى. وقلت لهم: تعالوا اسمعوا ما جرى فى موسكو. وعرضت عليهم الصـورة بجميـع أبعادها وألوانها. وكان د. محمود فوزى وحسـين الشـافعى، ومن الاتحاد الاشـتراكى شـعراوى جمعة وعلى صبرى وضيـاء داود.. وغيرهم، وأعطيـت الكلمة لمحمد فوزى. فوصف أسلوبى فى الحديث مع الروس فقال: إننى شرَحت الموقف وشرَّحت الروس- بتشديد الراء! وخرجوا من عندى. وعرفت أنهم التقوا بعد ذلك. وقالوا: كيف يرفض أسلحة الردع؟.. كيف لا يقبل أمر موسـكو من تشـغيلها؟.. إن مصر دولة صغرى مهزومة.. وروسيا دولة كبرى.. ما الذى يظنه فى نفسه؟، أو ما الذى يراه فى مصر التى انهارت أمام اليهود؟.. ولم يجرؤ واحد منهم أن يجاهر بهذا الرأى أمامى.. وإلا لوضعته فى مكانه وحجمه وصورته الحقيقية أمام الشعب، وقضيت عليه نهائيا. ولكنهم كانوا يهمسون بذلك بعيدا عنى.

ولكن هذا الوضوح لكل شىء أمامى جعلنى أتحرك بخطى ثابتة. وأحسب كل شىء أعمله. فالموقـف خطير. وبعد ذلـك بوقت قصير جاء ما يفيد أن روجرز يريد مقابلتى. فوافقت على ذلك. فغضب الروس.

مـع أننى عندما قبلت زيارة روجرز كان ذلك تصرفا عاديا. فهو رجل قدَّم مبادرة سـلام. وأنا قدمت مبادرة سـلام. وهو يرغب فى السلام أو دولته من ورائه ترغب فى ذلك، وأنا أول رئيس عربى قدمت مبادرة سلام. وأنا جاد وصادق. وشعبنا يريد ذلك عن إيمان بالسلام الذى سيؤدى إلى رفع الظلم عنه وعن الشعب الفلسطينى. كل ذلك ليس فيه أى شك. وعرفت مراكز القوى بغضب الروس، ولكنى لم أشـعر بذلك بوضوح. أو انشـغلت تماما عن متابعة مثل هذا القرار العادى جدا. ولم أدرك إلا فيما بعد عمق الغضب الروسـى، وترديد مراكز القوى لذلك فى كل مكان.. وفى هذه الأثناء دخلنا فى عملية الوحدة بين مصر وسوريا وليبيا.

وكانـت فرصة لمراكـز القوى لكى تفتح معركـة فاصلة قاضية.. أى تفصـل بينى وبينهم وتقضى علىَّ أنا فى النهاية؟!



١ - شعراوى جمعة وزير الداخلية وسط مجموعة من الجنود.



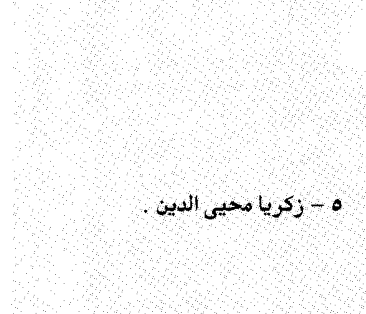
٢ - جونسون.. هذا الرجل قد باع نفسه تماما لإسرائيل .



٣ - تالبوت.. أوفد هذا الرجل ليقدم لنا إنذارا غريبا.. رفضناه فورا .



٤ – محمد فــوزى وزير الحربية الأسبق .



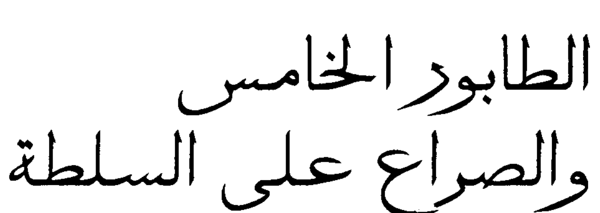


٥ – زكريا محيى الدين .



٦ – المشـير محمــد علي فهمي.





- الرئيس بودجورنى يطلب عقد معاهدة مع مصر!
- السادات يفجر مفاجأة فى عيد العمال
- سر طرد على صبرى وإقالته من جميع مناصبه
- قلت للسفير السوفيتى: إننى أسمح «بالخلاف» فى الرأى ولكن لا أسمح «بالصراع» على السلطة.
- الروس لهم طبيعتان: طبيعة كل إنسان خلقه الله وطبيعة أخرى هى الشك

في الأشـرطة المسجلة لمراكز القوى اعترفوا أنها «بداية النهاية» .. أى بداية نهايتى أنا. وأننى أقترب منها بشـدة. وأنه لم يبق أمامهم غير خطوات. وأخذوا جميعا يتقاربون ويسـتعجل بعضهـم البعض. ثم حانت الفرصة التى سـتجعل النهاية المحتومة شيئا مؤكدا.. فقد كانوا جميعا يتوقعون – هم والروس والأمريكان والإنجليز – أن حياتى لن تطول فى أيديهم أكثر من شهر أو شهر ونصف.

وفى تقديرهم أننى رفضت أن أتلقى أوامرى من موسكو.. وهذه غلطة كبرى فى نظرهم، إذ كيف ترفض دولة صغرى مُنهارة كمصر أن تأتمر بما تمليه دولة عظمى مثل روسيا..

ثم هـذه المرة التى أتممت فيهـا الاتفاق فى بنى غازى مع الرئيس الأسـد والقذافى على الوحدة بيننا.. كان من الضرورى أن أسـتأذنهم – أقصد مراكز القوى – أو أسـتأذن اللجنـة العليا. فإذا عرضتُه على اللجنة العليا رفضوه.. ورفضونى أيضا. وفى ذلك قضاء علـىَّ.. أو إن لم يكـن قضاء علىَّ، فهى فرصة لكى أتعلم على أيديهم درسـا لا أنسـاه. وبعـد ذلك أعرف الحقيقة الجديدة: أنهم أصحاب اليد العليا والسـلطة، وأنهم قادمون وأننى ذاهب، أو كان من المفروض أن أذهب منذ وقت طويل. وأننى إذا كنت قد بقيت فى الحكم أكثر مما كان مقدرا لى. فالفضل يرجع إليهم. وأنهم لذلك يسـتحقون منى الشـكر وعظيم الامتنان!

ثم دعوتهم عندى فى القناطر الخيرية وتناقشـنا أكثر من خمس سـاعات، ولاحظت أنهم فى هذا الاجتماع كانوا متفقين قبل مجيئهم. تماما كالاجتماع السابق فى يناير الماضى. أما هذا الاجتماع فقد كان فى أبريل. مع فارق واحد: أن اجتماعهم هذه المرة كان قد تحول من مجرد اجتماع عادى إلى مسـرحية وقد رتبت فيها الأدوار. فكل واحد أخذ له موقفا خاصا وجانبا. وكلاَمُهم كان جميلا معسولا. ورأيت أمامى عملا مدروُسا.

وحاولـت أن أعْرفهم أكثر. وأن أعْـرف أبعادهم بمنتهى الوضوح. فالموقف لم يعد يحتمل الغموض أو السكوت. ورأيت أن نأخذ الأصوات وقلت: إذن نأخذ الأصوات.

وأخذنا الأصوات. وجاءت النتيجة ٥ إلى ٣.. والثلاثة هم د. فوزى وحسين الشافعى وأنا.. أما الخمسة فهم: شعراوى جمعة ولبيب شقير وضياء داود وعبد المحسن أبو النور والفريق فوزى. ولم يكن شعراوى جمعة عضوا فى اللجنة العليا وإنما أضيف إليها بعد أن أخرجنا على صبرى منها بسبب فضيحة الحقائب الكثيرة جدا التى أتى بها من موسكو. وأصبح شعراوى جمعة عضواً فى اللجنة العليا وإن لم يكن عضوا منتخباً. ثم قال شعراوى جمعة: ولكن ليس لى صوت لأننى لست عضوا.

فقلت: أعرف ذلك. وإنما أردت أن أتبيَّن وجهة نظر الجميع. وهذا يكفى.

وكانت السعادة تغمُر هؤلاء الخمسة. ورأَوْا فى ذلك انتصارا. ووجدُوا فى صمتى نوعاً من الهدوء الذى يسبق العاصفة التى ستُلقِى بى إلى النهاية التى يتوقعونها ويدفعون الأحداث إليها. وتوقعوا طبعا أن أبعث إلى سوريا وليبيا وأقول لهما: إن الاتفاق قد فشل لأن المؤسسات عندنا قد رفضتُهُ وإننى لذلك شديد الأسف على كل ما حدث!

ولم أفقد أعصابى. وإنما اتجهت إليهم قائلا: إن هذا الاجتماع قد طال، وفاتنا أن نتناول الغَداء. فهيا بنا قبل أن يبرد الطعام. لم أكن فى حاجة إلى أن أتلفَّت ورائى لأرى غمزاتِهم ولمزاتهم.. ولا اللمعانَ فى عيونهم يحمل التهنئة ويستعجل النهاية العظيمة لمؤامرتهم ضدِّى. ثم التفتُّ لشعراوى جمعة وقلت له: يا شعراوى يجب أن تدعو اللجنة المركزية يوم الأحد القادم لنعرض عليها الأمر واتجاهاتنا وكل ما قررناه! ولكن واحدا منهم أحس كأنَّ ثعبانا لدغه فصرخ قائلا: ولماذا اللجنة؟ .. لماذا نعرض خلافاتنا على أوسع نطاق؟ .

إنه لبيب شقير..

قلت: لابد أن نذهب إلى اللجنة المركزية. هذه هى الأصول. وهى الأساس. وإذا نحن اجتمعنا كلجنة عليا. فإن هذه اللجنة العليا هى «مكتب» اللجنة المركزية. وهى صاحبة السلطة. يجب ألاَّ ننسى ذلك! ودعوتهم إلى الطعام. ولم يذق واحد منهم الطعام طبعا. فقد انسدَّت نفوسهم. وبدلا من أن يُنهُوا المعركة، فوجئوا بأننى استدرجتهم إلى مجال أوسع، وفتحت عليهم جبهة جديدة ومعركة لم تكن فى حسابهم.

وخرج هؤلاء السُذَّج وتصوروا أننى لا أدرى ما الذى يفعلونه. مع أننى كنت أتعقبهم تماما. وسارعوا فأرسلوا مندوبين إلى جميع أعضاء اللجنة المركزية فى الأقاليم ورتَّبوهم وجهزُوهم ولقنوهم ماذا يقولون، وإذا لم يقولوا.. فماذا يفعلون. وإذا لم يفعلوا فما هى الشائعات التى يطْلِقونها فى كل مكان.

فقــد كانــوا يعتقدون أن القوة الأساســية لهم فى الاتحاد الاشــتراكى. تمامــا كما تصور الســوفيت أن هــؤلاء هم القادرون على عمل كل شــىء فى مصر، ومن بــين قُدراتهم الإطاحة بِــى فى أربعين يوما علــى أكثر تقدير! وكل هذا معروف. ولكنــى حريص على روايته لكى أبــيِّن الآن، وفيما بعد كما ســنرى، دَوْر الســوفيت فــى هذا كله. ولابد أن الســوفيت، مثل كل الدبلوماســيين فى مصر، قــد سمعوا بما جرى فى القناطر. وعرفــوا من رجالهم ما الذى قررتهُ عندما دعوت اللجنة المركزية. ولابد أنهم يرقُبون الموقف ويلقُون عليه الضوءَ ويمدونه بالتوجيهات والنصائح والمزيد من البنزين ليزدادَ الموقف اشتعالاً. ويتسلم السلطةَ.. رجالهم. فلم يكن ترقب الســوفيت ســلبيّاً ولا كان دورهم هو دور المتفرجين على مسرحية لاَ تعْنيهم، وإنما كان انتظارهم إيجابيا مغرضاً. ما فى ذلك شك.

ولابــد أن الروس سمعوا بما حدث فى اللجنة المركزيــة، وكيف أننى طلبت منهم واحِداً واحــداً أن يُــدلِىَ برأيه. وكيف أنهم قــد أتوا ببعض الأعضاء يُحدِثون ضوضــاء ولغطاً ويدقُون الأرض بأقدامهم. وعرضنا على اللجنة المركزية كل ما دار بيننا.. وتحدث على صبرى وضياء داود.. وعرفــت اللجنة المركزية بكل ما حــدث وبالتصويت على القرار الخاص بالموافقة على اتفاقية الاتحاد مع ســوريا وليبيــا. وطلبت إلى اللجنة المركزية: مــا رأيكم الآن وقد عرضْنا عليكم كل شــىء. فلا يبقى إلا أن أعرف التصويت على ذلك واحداً واحداً.. وتنبه شــعراوى جمعة الذى كان محرِّكا لكل شىء، وليس على صبرى، إلى أن الموقف سوف يفلت منه. وإلى أن التصويت لن يكون فى صالحه. فأشار إلى الذين يدقون الأرض بأقدامهم أن يتوقفوا. وانصاعوا له وجمدت أرجلهم. فلم نعد نسمع لهم صوتا.

ثم اتجه ناحيتى ليقول لى: نحن نفعل لك ما تريد. هل تريد لجنة فرعية؟ موافقون. وبعد ذلك نؤجل الجلسة.

ووجدت أنهم خســروا هذه المعركة. فوافقت على تأجيل الجلســة. ووافقت على تشــكيل لجنة فرعية..

ومــن الغريــب أننى ذكرتُ لهم قبل ذلك يــوم اجتماعنا فى القناطر: أحــبُّ أن أقول لكم شــيئا هاما جدا.. إنَّ هذا الاتفاق الذى صوَّتُّم ضدَّه لن يســقط بهذا التصويت. ولذلك يجب أن نرجع إلى اللجنة المركزية.. ليس هذا هو الذى أريد أن أذكِّركم به. ولكن أحب أن أنبِّهكم إلى أن هــذا الاتفاق مكتوب بخط جمال عبد الناصــر. وأن هذا اتفاق على الاتحاد.. وليس الوحدة الاندماجيــة. فلن نكرر ما حدث بيننا وبين ســوريا قبل ذلك.. ولهــذا فإنه اتحاد بين دول

عربيــة أو بين جمهوريــات. ثم إنَّ جمال عبد الناصر قد عرض هــذا الكلام وهذا التصوُّر فى ليبيا. وكان من المقرر أن يســافر من ليبيا إلى دمشق. وهذا كله تعرفونه. وسمعتموه من جمال عبد الناصر..

فى تلك الليلة كانوا محاصرين الإذاعة. وكان هؤلاء الناس لا ســندَ لهم فى ذلك الوقت إلا الاتحاد الاشــتراكى واللجنة العليا واللجنة المركزية.. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى كان سندُهم الاتحاد السوفيتى. وكان سندَهم الوحيد طبعا. ومن الضرورى أن أؤكد أن الاتحاد السوفيتى كان وراء ذلك ويباركُه. وأننى كنت، ولا أزال، على يقين من ذلك.. وعلى يقين من استعداد السوفيت لساندتهم ومساعدتهم بغير حدود..

هؤلاء الناس لم تكن لهم أرض يقفون عليها، لا ســندَ شــعبيا، ولا جماهيرَ. ولكنى كنت أعرف الأرض الصُّلبة التى أقف عليها، والمجال الوطنىَّ الذى أتحرك فيه..

وقررت أن أســتدعىَ الســفير الســوفيتى إلى القناطر وأن أجلس معه فى نفس المكان الذى جلس فيه «رجال السوفيت» فى اللجنة العليا. وكان ذلك فى شهر أبريل. وكانت عندنا بعض المشــاكل مع السوفيت. تناقشــت معه بشأنها. وانتهيت فيها إلى رأىٍ وقلت له: لعلك سمعتَ عن كل الذى جرى أخيرا.

فقال: بلَغَنى بعض الذى جرى.

فقلت: بل بلَغَك كله وبتفاصيله.

فقال: إن السفراء الأجانب يسألوننى عن حقيقة ما حدث..

فقلت له: ســأحكى لك ما جرى. وإن كانت هذه من صميم شــئوننا الداخلية. ولكن لأننا أصدقاء فمن المناســب أن أطلعَك على حقيقــة الأمور. ولأننى حريص على هذه الصداقة، فهى صداقة بين دول، وليست بين أشخاص، وهى تتعلق بمصالح الملايين، وليست بمصالح الأفراد، عندنا وعندكم.

ولم ينطق السفير السوفيتى.

وعدت أقول له: أطلبُ منك أن تبلِّغ القيادة السوفيتية بريجنيف وكوسيجين وبودجورنى هذا القرار. وأنا سأطلِعُهم على هذا القرار قبل تنفيذه حتى لا يُسيئوا فهمَه. وحتى لا تلتقطَه الــدول الغربية وتبالغ فى مدلوله. على كل حال. لقد اتخــذتُ قرارا. وأرى من الضرورىّ أن أطلعَكم عليه وعلى الرغم من أنه قرار داخلى يخص مصر، فإن مقتضيات الصداقة تحتِّم علىَّ

أن أطلعكم عليه. ولم يشأ السفير السوفيتى أن يسألنى ماهو هذا القرار. وانتهزتُ الدهشة العميقة والحَيْرة التى غمرتْه. فأطلتُ فى الصمت. ورفع الرجل رأسه يستعجل سماعه منى، لعلّى أخفف عنه هذه الحيرة.

قلت: أما قرارى فهو: لقد قررت تصفية على صبرى وإبعاده تماماً عن القيادة السياسية.. ولكى أكون واضحا أكثر من ذلك فإننى أقول لك.. إننى أسمح «بالخلاف» فى الرأى ولكن لا أسمح «بالصراع» فى السلطة.. أسمح بأن يختلف الناس، وأن يكون هذا الخلاف من أجْل الصالح العام.. ولكن الذى رأيتُه، وعلى يقينٍ منه الآن، ليس شيئا من ذلك.. وإنما هو استدراج إلى هاوية.. أو استدراج إلى حافّة الهاوية. وهذا مالم أسمحْ به ولن أسمحَ به..

وسألنى السفير السوفيتى: ومتى ستتخذُ هذا القرار؟

قلت: ليس بعد. ولكنى حريص على صداقة روسيا.. ثم إن هذه الصداقة لا أظن أنها سوف تتأثر بذهاب واحد من رجالها.. أو رجلها- كما ستقول صحف الغرب- وأنا أعلم عن يقين أنكم شكّاكون بطبعكم. وعلى رغم كل هذا الوضوح فى سلُوكِى معكم، وإطلاعِكم على دقائق ما يحدث فى مصر، وعلى قراراتى المستقبَلة، فإنكم ستَرتابُون فى كل ما أقول. أو كل ما قلت حتى الآن.. مع أننى أثبتُّ عشرات المرات أننى صريح. وأننى لا أكذب. ولست مُضْطَرا إلى ذلك.. ولم أخِف عن القيادة السوفيتية كل متاعبى. وأنتَ كنتَ معى فى زيارتى السِّرية لموسكو ورأيت وسمعت.. وتعرف جيدا كل جوانب فكرى واقتناعى.. وعلى رغم هذا كله، فإننى أعرف أن قيادتكم تبدأ بالشك فى بعض الأشياء وتنتهى بالشك فى كل شىء!

ومن المؤكد أن السفير السوفيتى قد أبلغ حكومته بكل ما دار بيننا. وكان هذا هدفى طبعا. ولابد أن السوفيت قد أطلعوا رجالهم على هذا كله. ولذلك فقد اتجهوا فى نشاطهم إلى العنف. وأنزلوا المنشورات و «التعميمات» إلى كل مكان. وراحُوا يستنكرون قراراتى. ويهاجموننى شخصيا. إذن لقد أصبحت المعركة سافرة. والغريب أنهم تصوَّروا أننى غائب عن كل ما يفعلون. أو أننى فى وادٍ آخر.. أو أننى أهوِّشُهم.

إلى أن جاء يوم أول مايو. وخطبتُ. وكنت قد أطْلعتهم على خُطبتى قبل كتابتها. إمعانا فى تهدئتهم وتنويمهم أيضا. ولكى أضاعف لديهم الشعور بأننى آمِنٌ لهم تماما. وقد استراحوا لذلك.. ولكنى فعلت هذه المرة بالضبط ما سبق أن فعلْتُه يوم ألقيت خطبة المبادرة فى مجلس الشعب: أخرجت من جيبى ورقة بخط يدى وقرأتها. وكانت مثل قذائف من النار لسعتهم وأحرقتهم. وفقد شعراوى جمعة أعصابه. وثار على سامى شرف لأنه لم يخبره

بذلــك. والذى حدث هو أنه فى آخر الخطاب الــذى ألقيته أول مايو فى عيد العمال أخرجت الورقــة التــى كتبتها بخط يدى وهى تقول بالحرف الواحــد: إن جمال عبد الناصر قال وأنا أردِّدُ من ورائه.. إن الشــعب هو الـمُعلِّم وهو القائد وهو الخالد أبدا، وإن الشــعب هو صاحب هذا البلد وهو الذى ســيخوض مع قواته المســلحة معركةَ حياةٍ، بكل مسئولياتها وما تفْرضُه مــن تضحيات. إذن فليس من حق أىِّ فــرد أو جماعة مهما كان هذا الفرد أو تلك الجماعةَ أن تزعُمَ لنفسها قدرة منفصلة عن قدرة هذا الشعب أو أن تدَّعِىَ لنفسها موقعا تستطيع أن تفرض من خلاله رأيها على جموع الشــعب وأن تتستَّر وراء شــعارات أو مُناورات تحاول أن تُشكِّل من خلالها مراكز قوة تفرض منها وصايتها على الشــعب بعد أن أســقط هذا الشعبُ مع جمال عبد الناصر كل مراكز القُوى ليبقى الشعبُ وحدَه سيِّدَ مَصيره.

وقلت وأنا أقرأ من الورقة التى أخفيتها عنهم: وقبل أن أختم حديثى أريد أن أقول لكم.. يجب أن تفخروا بقواتكم المسلحة. لقد اجتمعتُ ستة اجتماعات مع قادة قواتنا المسلحة كلهم، الذين سيدخلون والذين سيعبُرون والذين سيخطِّطُون. وبوْدى لو استطعت أن أضع أمامكم صورةً ســتفخرون بهــا، ولكن لِنتركها الآن إلى أن تتمَّ المعركــة، لأن وراء الصورة بطولاتٍ ورجولةً وتضحيــة وفداء يفوق كل شــىء فــى صموده فى أبناء قواتكم المســلحة وقــد أبلغتُهم بثقتكم بهــم. وهم يســمعوننى الآن. وأبلغتهم بأملكم فيهم. فكونوا صفــاً واحدا من ورائهم. ولنقف فى المرحلة المقبلة صفا واحدا خلفَ قواتنا المســلحة بقلوبنا، بمشــاعرنا وإحساسنا، بكل ما نملك.. ونحن سائرون فى طريقنا بوحدة شعبنا وأمتنا، بإلهام شعبنا وأمتنا، بطاقات شعبنا وأمتنــا. لقد رفضتُ التبعية ورفضــت الوصاية وصممنا على الحرية.. حاربنا فى ســبيلها، حريةِ الوطن وحريةِ الإنســان، وحرية تحالف قُوى الشــعب العاملــة.. الحرية الاقتصادية والحرية السياســية، مكاســب الفلاحين والعمــال والحفاظ علــى رُوح الديمقراطية. لا عودة لســيطرة رأس المال والإقطاع أبداً، ولا قبولَ بأىِّ شــكل من الأشــكال للإرهاب الفكرىِّ الذى يقْمَع حرية الرأى..

«إن شعبنا بعون الله وبتوفيقه سوف يخرُج من هذه الأزمة، سوف يخرج منتصرا عزيزا، وســوف يخرج بعون الله قويا مرفوع الرأسِ واثقا بنفســه واثقا بمبادئه، وراسخ الإيمان أكثر وأكثر بقيم نضالِهِ وبأسلوبه فى الكفاح العربى من أجل هذه القيم» .

وفى ختام ورقتى التى أخفيتها عن مراكز القوى قلت: إن أعلام الحرية لم تَسقُطْ على هذه الأرض العظيمة الطاهرة قط، إن أعلام الحضارة لن تتراجع، إن أعلام التقدم لن تتوقف، وستكون

أقـوى وأقوى بإذن الله، أعلى وأعلى بإذن الله، كذلك تقولُ لنا تجربتنا مع التاريخ. والتجربة مع التاريخ هي الدليل إلى المسـتقبل. وصدق جمـال عبد الناصر حين قال فى آخر خطاب له: نحن نسير نحْوَ هدفنا وهو تحرير الأرض المحتلّة، وحركتنا نحو تحقيق هذا الهدف ليست حركة مقيَّدة.. إنما هى حركة مفتوحة تُلزم نفسها بالمبادئ الأساسية لنضالنا» .

وفى اليوم التالى طلبت من سامى شرف أن ينشر فى الصحف وفى سطر ونصفٍ أننى أقلْتُ على صبرى من جميع مناصبه. أما عضويته فى اللجنة العليا واللجنة المركزية فهى من شـأن الاتحاد الاشتراكى. وسوف يكون لها قرارٌ فيما بعد. وأتى سامى شرف بالقرار ووقعتُه فوراً. وتأكـدت عن طريق مكتبى أن هذا الخبر قـد أبلغ إلى الصحف. وبعدها بأيام جاءنى روجرز. وكان سعيدا بقبولى للمبادرة، وباركَها قائلا: لم تعد لإسرائيلَ حجة الآن. فأنتَ ألقيتَ الكرة فى ملعبهم وسدَّدْتَها إلى المرمى. ونحن نحتسب لك هدفا مؤكَدا!

وذهب روجرز إلى إسـرائيل. واطْلَع جولدا مائير على ذلك. وأعطاه اليهود درسـا مُوجِعاً. وظلوا يطاردون الرجلَ حتى قَضَوْا عليه تماما!

أمـا قـرارُ طـرد على صبرى فـى ٣ مايو سـنة ١٩٧١ فقد أصـاب زملاءَهُ أقطـاب مراكز القـوى بالجنون. فقد جاء مُباغتا وسـريعا. وفـى ذلك الوقت اتصلوا جميعـا ودارت بينهم مناقشات واتفاقات واختلافات فد انكشفتْ كلها من التسجيلات التى عرفناها فيما بعد.. فقد كان شعراوى جمعة يسجل لعلى صبرى وسامى شرف، وسامى شرف يسجل للاثنين. فأجهزة المباحث تعمل لحساب شـعراوى جمعة وأجهزة المخابرات تعمل لحساب سامى شرف. ففى حديث مسجَّل بين على صبرى وسامى شرف ليلة ٣ مايو ذكّر فيه سامى شرف أنه صدر قرارٌ بإقالته وأخبره أن شـعراوى جمعة والفريقَ فوزى موجودان عنده وأنهما يطلبان إليه أن يلزمَ الهدوء. وأن يترك لهما الأمر..

وفى حديث آخر مسـجل بين شعراوى جمعة وعلى صبرى يقول له شعراوى جمعة: هذه هى بداية المعركة. هذه بدايتُها. وسـوف تكون هناك أشياء أخرى كثيرة. وكل ما نرجوه من سـيادتِك هو الهدوء يوما أو يومين. وسـوف ترى ما الذى تفعلهُ الجماهير. وسوف ترى ردَّ الفعل. اترُكْنا نتحرك. وسـوف ترى النتيجة التى تسـرُّك.. ويرد على صبرى فى التسجيل: ماذا تقصد بقولك: اتركنا نتحرك؟

ويرد شعراوى: سيادتُك تسكت. فنحن نتكلم هنا طولَ الوقت. ونفكِّر كيف تسير الأمور. اهدأ سيادتك. إنها غلطة كبيرة ارتكَبَها. وغداً سوف ترى سيادتُك صداها. سوف يدفعُ ثمنَها.

اترك لى الأمور يومين فقطْ! وسوف ترى ما الذى تفعله قواعد الاتحاد الاشتراكى. إن عملية إقالتكَ هذه سوف نستغلها استغلالاً مروِّعًا! وفى التسجيلات نجد أن على صبرى يسأل شعراوى جمعة عن موقف الفريق فوزى فيردُّ عليه شعراوى: إنه قرفان. ويكون رد على صبرى: قرفان.. وساكت؟ لابد أن تردوا على السادات قبل أن يقضى عليكم جميعا. ويقول له شعراوى: نحن فى الطريق إلى القضاء عليه!

ثم توالت الأحداث بسرعة وبعنف. وترنَّح هؤلاء الناس الذين توهموا أنهم شىء كبير، وتوهَّم السوفيت أيضا أنهم أكبر من ذلك بكثير فقد أعطاهم السوفيت أحكاما وأوزانا وأدوارا تؤكِّد سوء فهم السوفيت للأمور فى مصر وشعب مصر.

وقررت حلَّ الاتحاد الاشتراكى لكى تُجرَى الانتخابات من القاعدة إلى القمة وتكون لنا بعد ذلك لجنة مركزية جديدة منتخبة ولجنة عليا. قررتُ ذلك أمام أعضاء اللجنة العليا، فيما عدا على صبرى وضياء داود، فقد رفضت دعوتهما إلى بيتى.. حرصا على نظافة بيتى وأى مقعد يجلس أىّ منهما عليه!

وخرجوا من بيتى فاقدين للنطق والحركة وضاعت من عيونهم النَّظْرة، ومن رءوسهم الاتجاه.. ويوم ١١ مايو عرفتُ التسجيلات.

ويوم ١٣ مايو أصدرت قراراً بإقالة شعراوى جمعة وفجأة تلقيت رسالة من القيادة السوفيتية تقول إن الرئيس بودجورنى يريد زيارتى.

أهلاً وسهلاً. ورحبت فورا. وجاءت زيارته فى نفس الشهر. وقابلته رسمياً فى المطار. وأخذته إلى قصر القُبة. ونزل بمنتهى التكريم. على الرغم من أن هذا الرجل قد سخر من الجيش المصرى. وأسمعنى ما أوجعنى من تعليقاته المؤلمة على قواتنا المسلحة. وعلى معاركها وعلى استيعابها للسلاح.. وتحمَّلتُ.. كما تحملت أشياءَ كثيرة قبل ذلك وبعد ذلك. ولكن لم أنس له ما قال، ولن أنساه. وفى قصر القبة، طلب منى الرئيس بودجورنى أن نجلس بمفردنا. ووافقتُ وجلسنا والمترجمُ ثالثنا. وللتاريخ أسجل ما دار بينى وبينه بمنتهى الدقة.

قال: أنا جئت لأننا نريد أن نوقع معاهدة بيننا.

قلت: غريبة! وعجيبة أيضا! ألا تذكر أننى جئت إليكم أطلب معاهدة. ومن قبْلى ذهب إليكم جمال عبد الناصر يطلب معاهدة. ورفضتم طلبى وطلبَهُ. فماذا حدث؟ .. ثم ما علاقة هذه المعاهدة الآن، بما أرسلته لكم قبل ذلك من أننى سوف أقوم بتصفية على صبرى؟ لقد

بعثت لكم مع سفيركم هنا بأننى سوف أُقيل على صبرى من كل مناصبه.. إلا إذا كان سفيركم فى مصر لم يبلغكم بشىء من هذا.

قال: أبلغَنا بكل شىء.

قلت: هل صدَّقتم ما قالته صحف الغرب من أن على صبرى رجل موسكو؟

قال: لا.

قلت: إذن لماذا تريدون عقد معاهدة. أرجو أن تقبل نصيحتى. أنا رجل صريح. وقد صارحتكم بقرار تصفية على صبرى قبل ذلك بشهر. والسبب هو حِرْصى على الصداقة بين مصر والاتحاد السوفيتى. وأنا لا أعرف نِيَّاتِكم بوضوح.. ثم إنكم أناس شكاكون بطبيعتكم ولا تصدِّقون ما يقوله لكم أكثر الناس حرصا عليكم.. ولعلكم صدَّقتم هؤلاء الناسَ الذين ليس لهم وزن شعبىٌّ أو قيمة جماهيرية.. إذا كان لى من نصيحة، وأرجوك قبولها، فهى أن تؤجلوا عقد هذه المعاهدة إلى ٢٣ يوليو..

وسألنى: ولماذا؟

قلت: فى ٢٣ يوليو سوف تُجرَى الانتخابات كاملة فى الاتحاد الاشتراكى من القاعدة إلى القمة. وسوف ينعقد مؤتمرٌ قومى عام. وسأوجه لك دعوة رسميةً. ومن الآن أدعوك. وأمام المؤتمر القومى الجديد نعقد هذه المعاهدة. وأنا أعطيك كلمة من الآن. وأنا إذا قلت فعلت. وأنتم تعرفوننى لا أكذب. فما رأيك؟ .. حاول الرجل أن يثنينى عن رأيى أو عن موْقِفى. ولكن لم أطاوعه ولم أجاملْه. ولا أبالغ إذا قلت إن الرجل كان يتوسَّل بأشكالٍ غريبة.

وكان يقول: إن المكتبَ السياسىَّ قد اجتمع وإن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى قد اجتمعت. وكلَّفونى جميعا بأن أتقدَّم بطلب عقد معاهدة مع مصر. وإن شماتة الغرب فيما أصاب الاتحاد السوفيتى فى مصر لا تُوصَف. ويظهر أن الصحف الغربية قد أبرزت هذه الزيارة. ووضعوه فى صور كاريكاتورية يستعرض فيها رجال مراكز القوى وقد ارتدَوْا ملابس السجن جميعا!

ثم قال لى: هل يُرضيك ما أصابنا فى مِصْر، وما تنشره الصحف الغربية؟ .

قلت: واللهِ أنا محتار. لقد أطلعْتكم على القرار قبل صدوره. وصارحتكم. ولم أُخْفِ عنكم شيئا. وصدر القرار وانتهى.

وعاد الرجل يُعيد ويَزيد ويقول ويكرر ما دار فى المكتب السياسى واللجنة المركزية.

فقلت له: هل إذا انعقدت هذه الاتفاقيةُ تستريحون؟

قال: نعم.

قلت: ولا يصبح عندكم شكٌّ فى مصر؟

قال: نعم.

قلت: وبهذه المعاهدة ينتهى الطريق الشائك الذى قطعه جمال عبد الناصر، أو الذى قطع قلبَ جمال عبد الناصر وقلْبى؟

قال: نعم.

قلت: هل أنا محتاج إلى أن أذكِّرك بكل ما قلتُ فى موسكو؟ وكلِّ ما بعثت به سفيركم فى القاهرة؟ ..

قال: هذا يكفى.

قلت: والدوخة التى عاش بها جمال عبد الناصر ومات تحت تأثيرها ثم استئناف هذه الدوخة معى أيضا؟ ..

قال: انتهى كل شىء. ونفتح صفحةً جديدة.

قلت: نفتحُ صفحة جديدة؟ وماذا فى هذه الصفحة الجديدة؟

قال: كل ما تريد.. لن تمضى أربعة أو خمسة أيام حتى تصل إليك جميعُ مطالبك التى تقدَّمت بها فى شهر مارس الماضى.

قلت: كلها؟

قال: نعم كلها.

قلت: خيرٌ. وعلى بركة الله.

ودقَقْت الجرس وقلت: هاتُوا لى محمود رياض وزيرَ الخارجية.

وجاء محمود رياض وقلت له: يا محمود.. جهز لنا معاهدة مع الاتحاد السوفيتى لنعرضها على مجلس الشعب بعد ذلك. وليس مبالغةً منى إذا قلت إن محمود رياض أصيب بنوع من الهلَع. ولم يُصدِّقُ ما أقول. ومنعه الحياء أو الدهشة أن يسترجِعَنى ما طلبتهُ منه. ولكن عندما نظر إلىَّ، وجد أننى أعنى ما أقول. ولكنه لم يستطع ألاَّ أن يسألنى: معاهدة يا أفندم؟

قلت: نعم.

قال: معاهدة فعلا؟

قلت: نعم. وسوف نوقعها غدا.

قال: غدا؟

قلت: نعم غدا.

قال: معاهدة؟

قلت: معاهدة نعم. ونوقعها نعم. وغداً نعم!

ولعلَّ هذا الحوارَ يؤكِّدُ أن أحدا لم يكن يتصورُ أن هذا شيء ممكن حدوثُه.. أن يطلب السوفيت معاهدة. وأن أوافق عليها بهذه السرعة. وعلى توقيعها أيضا. ولكنه حدَث. وهى مناسبة جديدة نرى فيها ما الذى نتقدم به، وما الذى نُكافأ به على ذلك!

والذى ذُهِلَ أكثرَ من ذلك هو الرئيس بودجورنى. فقد أخبرتُه أننا سنوقع المعاهدة غدا وفى هذا الصالون من قصر القبة. وعُدت إلى بودجورنى أقول له آخر مرة مُخلِصا: اسمعْ نصيحتى. إن التوقيت خطأ. وإن منظركم أمام الناس سيِّىء. لأن معناه أن هؤلاء الناس هم الذين كانوا يحمُون مصالحكم. وأن مصالحكم مهدَّدة بالخطر. وأنه لا أمانَ لكم إلا بالمعاهدة. غلط. الفكرة غلط. وموعدها غلط. وصورتكم غلط. اسمعها منِّى.

ولم يسمع منى هذه النصيحة. وأعددْتُ المعاهدة. وجلس محمود رياض مع جروميكو. وكتب المعاهدة وجاء مصورو الصحف والتليفزيون والسينما جميعا. أمام الكاميرات، أىْ أمام الملايين. والتُقِطَتْ الصور وتناقلْتها الصحف والشاشاتُ فى كل الدنيا، وتعانقنا.

وبعد ذلك سألته: هل أنت مطمئنٌّ الآن؟

قال: نعم.

قلت: هل مصالح السوفيت فى مصر مَصُونة كما يريد المكتب السياسى واللجنة المركزية والقيادة السوفيتية؟ .

قال: تمام.

قلت له: بعد أربعة أو خمسة أيام سوف تصلُنا الأسلحة التى طلبناها؟ .

قال: تأكَّدْ من ذلك!

وودَّعْته عند الطائرة ثُمَّ بالقرب منها، ثم صعَدْتُ السلم.. ودعانى لكى أتفرَّجَ على الطائرة الجديــدة ٦٢ التى لها أربعة موتورات فى المؤَخــرة. وتفرجْتُ على الغرف التى بها المكاتب وحجرة النوم. ولم أنس وأنا فى الطائرة أن أســأله لآخر مرة: بعد أربعة أو خمســة أيام كما قلت؟

قال: ما قلتُه لك على الأرض أؤكده لك وأنا فى الطائرة.

قلت: وهو كذلك.

قال: اطمئِنَّ.

قلــت: إذن أحــب أن أقول لك ثــلاَث كَلِمات. وهذه الكلمات الثلاث قــد وضعتُ فيها كل وجْهة نظرى. وبلْورْت فيها كل تاريخ العلاقات الســوفيتية المصرية من واقع تجارب جمال عبد الناصر وتجاربى أيضا.

قال: ما هى؟

قلت: الثقة.. الثقة.. الثقة!

قال: إنها كلمة واحدة.

قلت: كلمة واحدة كررتها ثلاث مرات.. أرجوك أن تقولها لبريجنيف وكوســجين. ولك الشــكر.. قلتها وفى رأسى كلُّ ما قرأتُ فى الســجن عن الروس وعن العلاقات السوفيتية فى الدنيا، شــرقا وغربا. فالروس لهم طبيعتان: طبيعة كلِّ إنسان خلقه الله وطبيعة أخرى: هِى الشــك. ليس فقط فى أيام الشــيوعيين، وإنما منذُ أيام القياصرة. تمامــا كما أن الجليد يُغطِّى بلاَدهم، فالشــك يملأ نفوســهم. وللتاريخ أقول أيضا إننى لم أتــرك الرجل فى الطائرة حتى وجدْتُنى مضطرا إلى أن أذكِّره بما ســبق أن قلته للسفير السوفيتى فى القاهرة. ثم اقتربت منه أكثر وقلت له:

عندما أرسلت لكم بأننى سوف أُصفِّى على صبرى، كنت أعرف نوعيةَ الأرض الصُّلبة التى أقــف عليها.. ولم يكن هُــوَ ولا أنتم تعرفون نوعية الفراغ والتفاهــة والوَهْم الذى يقف عليه على صبرى والآخرون! وأظن أن النتيجة واضحة أمامكم الآن..

وصافحته بحرارة وتوقفت لأقول: بعد أربعة أو خمسة أيام؟ .

فضحك وهو يقول لى: الثقة.

قلـت: بل ثلاث مرات.. الثقة.. الثقة.. الثقة.. هذا ما ينقصكم أو ما ينقص علاقتكم بنا. مع السلامة..

ولم يتصور السوفيت أن ما جرى كان من الممكن أن يحدث. وكيف يحدث وبهذه الصورة المفاجئة؟ فالفريق محمد فوزى كوزير للحربية يسيطر على الجيش..

وشعراوى جمعة كوزير للداخلية يسيطر على أجهزة الأمن، وكأمين للتنظيم السرى يسيطر على الجهاز السياسى. ومحمد فائق يسيطر على الإعلام.. وعبد المحسن أبو النور أمين الاتحاد الاشتراكى يستطيع أن يحرك المظاهرات.. وسامى شرف يسيطر على الحرس الجمهورىّ ثم إنه يسيطر على مكتب رئيس الجمهورية ولديْه كل كلمة وكل حرفٍ فى البلد..

ولابد أن السوفيت قد أدركوا أننى ساذج، إذ كيف أُطلعهم على قرارى قبل تنفيذه.

أو لعلهم أيقنوا أن رجالهم سوف يُطِيحُون بى قبل أن أُنفِّذ هذا القرار. أو أننى لا أعنى ما أقول وأننى أهوشهم وأخدعُهم، لأنه ليس من المعقول أن أطلعَهم على قرار كهذا، ثم إنه قرار يتعلق برجُلهم فى مصر.. وسافر الرئيس بودجورنى سعيدا بالمعاهدة.. وأنا عدت سعيدا بما وعدنى به. فمازلت أتمنى أن يصلَنى سـلاحُ الرَّدْع الـذى وعدوا به جمال عبد الناصر، ومات الرجل دون أن يرى من ذلك شيئا، ثم جدَّدوا لى هذا الوعد أيضا. وطبعا - وبمنتهى الصراحة - لم أتصـور لحظة واحدة أن رجلا مثـل بودجورنى، رئيس دولة عظمـى، يَعِدُ ويؤكِّد هذا الوعد، ثم لاَ يصدُق فيما يقول. لا أعرف كيف يمكن أن يحدث ذلك. إنه رجل كبير فى بلده. ولابد أنهم فوَّضوه أن يقول. فليس من المعقول أن يتطوع بشىء من ذلك.

وقلت فى نفسى: حتى إذا لم تأت هذه الأسلحة إلا بعد عشرين يوما فلا بأس فى ذلك.. أو حتى بعد أربعة أو خمسة شهور، المهم أن تجىء.. وهى إضافة لقواتنا.. ثم إننى لن أستطيع أن أغـيِّر طبيعة السـوفيت. وربما اضطرتهم الظروف إلى أن يتزحزحـوا قليلا عن طبيعتهم. وربما أكون محظوظا هذه المرة فتجىء الأسلحة الموعودة فى وقت معقول. ربَّما..

ولكن دهشتى لم تذهبْ: إذ كيف يتصوَّر هؤلاء السوفيت أن هؤلاءالناس - الذين أُسمِّيهم «الأغوات» - يمكنهم أن يُديروا الأمور.. إنهم مجموعة من التافهين: على صبرى وشـعراوى جمعة وسامى شرف..

إننى أتصوَّرهم مجموعة من الأغوَات كالذين كانوا يعيشـون فى بلاط السـلاطين. وعندما يموت السلطان يتصور هؤلاء الأغوات الخدَمُ أنهم يستطيعون أن يحكموا بدلا من السلطان..

إن مصر العظيمة لم تُصَب بالعُقم حتى يحكمها مثل هؤلاء الأغوات..

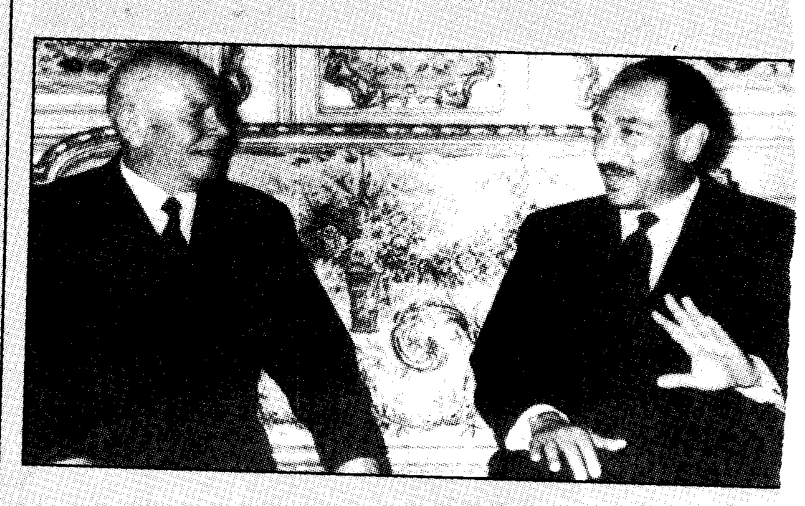
وفـي الطريـق إلى بيتى جعلت أفكر فـي الأيام التى أنا مُقبلٌ عليهـا، ومعى مصر والأمة العربية كلها. فقد حدَّدْت هذا العام بسنةِ الحسم.

وحين أخذت أتأمل ذلك عاد الشريط الطويل للعلاقات السوفيتية المصرية يدور أمام عينى بسرعة هائلة، وتجمَّلْت بالصبر. وبدأت أعدُّ الساعات التى وعدنى بها بودجورنى!

❑❑❑



١ - الرئيس السادات وبجواره بودجورني يلوحان للجماهير التى وقفت على طول الطريق من المطار حتى قصر القبة مرحبة بالرئيس السوفيتى .



٢ - بودجورنى يقول للسادات بعد أن جلسا بمفرديهما فى قصر القبة بناء على طلبه:

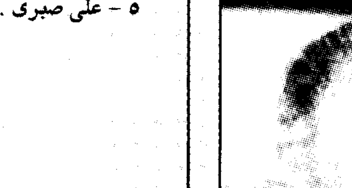
جئت إليكم لأننا نريد أن نوقع معاهدة بيننا .



٣ - زيارة حافظ الأسـد لمصر.



٤ - معمــر القــذافى والرئيس السادات .



٥ - علي صبرى .



٦ - شعراوى جمعة .



٧ - سامي شرف .





سنة الحسم

■ فشل الانقلاب الشيوعى فى السودان .

■ من أجل مصر هانت أشياء كثيرة كانت عزيزة على نفسى حتى كرامتى هانت من أجل مصر .

■ «القادة السوفيت فى القرم» عبارة كثيرا ما كرهها السادات .

■ بوناماربييف قال عنه السادات: إنه من أغبى الناس الذين رأيتهم فى حياتى .

سافر الرئيس بودجورنى وفى حقيبته معاهدة صداقة مع مصر. وهذه المعاهدة اعتبرها السوفيت ضمانا جديدا للعلاقات الودية بيننا. ورأت فيها الصحف السوفيتية نجاحا لروسيا وهزيمة لأمريكا التى حاولت بزيارة روجرز لمصر أن «تدق إسفينا فى العلاقات المتينة بين البلدين». كما أن السوفيت رأوا فى هذه المعاهدة بعد تصفية رجالهم فى السلطة، تأكيدا لأن العلاقة بيننا ليست علاقة أشخاص بأشخاص، وإنما هى علاقة دول. علاقة أبقى وأهم من الأشخاص.

والذى يقرأ الصحف السوفيتية فى ذلك الوقت يجد أن السوفيت سعداء بهذه النهاية، أو بهذه البداية. وعلى الرغم من أننى استرحت بعض الشىء، فإن همومى لم تخف. فعندى تجارب معهم قبل ذلك طويلة وعديدة. ولكن جعلت أمنى نفسى. ولم يغب عن بالى لحظة واحدة: أننى قد حددت سنة ١٩٧١ بسنة الحسم. ومعروف للعالم كله، وللسوفييت، ما هذا الذى نريد أن نحسمه، وما هو المطلوب من السوفيت لكى يساعدونا على ما نحن فيه وما نحن مقبلون عليه.. وأهم من ذلك كله أننى أوضحت كل شىء.. فتحت قلبى للروس تماما، وأطلعتهم على كل خباياى.. بل إن بعض المعلقين السياسيين لاحظوا أننى حتى فى حفلات الترحيب بالرئيس بودجورنى لم أغفل لحظة عن ذكر مخاوفى وعن تحذيرى له..

ففى حفلة العشاء التى أقامها لى الرئيس بودجورنى فى القاهرة يوم ٢٧ مايو قلت من أول لحظة: إننى أشكر لكم من صميم قلبى كل ما أظهرتموه من كريم المشاعر تجاه هذا الوطن وشعبه.. وفى مساندة نضاله وقضاياه العادلة.

وقلت له: وأهم من ذلك كله ما أعطيتموه من «فهم حقيقى، وصداقة مخلصة فى كل الظروف.. وذلك ما نقدره أكثر من أى معنى آخر»..

وقد لاحظ المعلقون السياسيون أننى أكدت معنى «الفهم الحقيقى» لوضعنا وسياستنا وحرصنا على حريتنا فى اتخاذ قراراتنا المصيرية.. وأن هذا «الفهم» أراه أهم من أى شىء آخر.

وأشـار المعلقون إلى ما قلتـه أيضا فى ختام خطابى فى هذه الحفلـة، فقد أكدت من جديد له وللقادة السـوفيت ولشعوبنا العربية: «إننى لسـت فى حاجه إلى أن أضيف أمامكم جديدا لما يدافع عنه شـعب الجمهورية العربية المتحدة وشـعوب أمتنا العربية بأسـرها من مبادئ وحقوق».. «نحن بوضوح ضد الاسـتعمار».. «نحن بوضوح ضد سياسـات السـيطرة».. «نحن بوضوح ضد العدوان».. «نحن بوضوح مع حق كل شعب فى صنع قدره وتنمية قدراته السياسية والاقتصاديـة والاجتماعية».. «نحن بوضوح مع كل شـعب فى اختيار طريقه إلى ما يريده».. «ونحن بوضوح مع السلام القائم على العدل..»

وقد تنبه المعلقون السياسـيون والصحف الغربيـة إلى عبارة جاءت فى كلمة الترحيب فى الحفـل الذى أقمته للرئيس بودجورنى قبل ذلك بيوم واحد. فقد قلت: نحن نريد أن يعرف الكل أننا لسنا على استعداد لأن نفرط فى الأرض، أو فى الحق مقابل سراب، كما أن الكلمات المعسولة ليست دليلا على صدق النوايا التى وراءها».

واسترحت إلى أن المعانى التى أردت أن أؤكدها للسوفيت أمام العالم كله، قد بلغت غايتها، فأنا أريد فقط من السوفيت أن يفهمونى، وأن يقدروا موقفى أمام شعبى وأمام العالم. وأن تكون الصداقة والكلمات الحلوة حقيقة، وليست فاتحة للشهية، ولا يجىء بعدها طعام.

بل لقد ذهبت صحيفة «البرافدا» فى ذلك الوقت إلى وصف هذه المعاهدة بأنها هزيمة مؤكدة للأمريكان فى المنطقة.. وقبل أن أجلس وأريح ظهرى ورأسى وأمدد قدمى لأفكر فى شىء جديد وفى الصورة التى أمامى، وفى الخطوة التالية التى أنا مقدم عليها أحسسـت بتحركات مريبة فـى المنطقة، إذ يبدو أنه لن تكون هناك راحة، فقد علمت بصورة مؤكدة أن شـيئا ما سـوف يجرى فى السودان. وكنت مجتمعا فى مرسى مطروح مع حافظ الأسد ومعمر القذافى. وأرسلت برقيـة لجعفر نميرى فى ١٨ يوليو أطلب إليه أن يجىء بسـرعة لأمر هـام، وكان رد جعفر نميرى أنه سـوف يجىء إن شـاء الله فى يوم ٢٣ يوليو ليحضر معنا المؤتمر القومى. وكان قبل ذلك قد حضر إلى القاهرة أيام تصفية مراكز القوى، وكان قلقا، وكان معنا بقلبه.

وكان إحساسى أن الذى خسره السوفيت فى مصر، لابد أنهم يريدون تعويضه فى السودان، ولا انفصال لمصر عن السودان، أو للسودان عن مصر. فالذى يقع فى أحد البلدين يصيب الآخر. هذه حقيقة يؤكدها التاريخ الطويل بين الشعبين الشقيقين فمصر هى السودان، والسودان هى مصـر. ثم عـدت أطلب من جعفر نميرى أن يحضر فورا لأن الأمـر عاجل ولايحتمل التأجيل

بضعة أيام. وقال لى جعفر نميرى: إنه سوف يرسل لى زين العابدين عبدالقادر، عضو مجلس قيادة الثورة الموجود فى القاهرة، وطلب منى أن أحمله الرسالة التى أريدها.

وجاءنا زين العابدين فى مرسى مطروح. وقلت له: يا زين إن هناك شيئا خطيرا سوف يقع فى السودان، والضربة التى أخذها السوفيت فى مصر، سوف يردونها لكم فى السودان، معلومات مؤكدة، والصورة واضحة أمامى، سافر فورا، وانقل للرئيس جعفر كلامى حرفا حرفا، وأن الذى أقوله ليس مخاوف وإنما هو حقائق. وسافر زين العابدين عبد القادر، ونزل إلى الخرطوم عندما حدث الانقلاب، واعتقلوه وحبسوا جعفر نميرى.

إذن لقد وقع ما أحسست به. وكان انقلابا شيوعيا، ولم تمض على معاهدة الصداقة مع السوفيت سوى ثلاثة أسابيع.. معاهدة الصداقة والفهم واحترام إرادة الشعوب وعدم التدخل فى حق كل شعب فى تقرير مصيره؟! فى ذلك الوقت كان عندنا فى القاهرة رجل سوفيتى اسمه بوريس بوناماربيف، رجل كبير فى السن، ومن أغبى الناس الذين رأيتهم فى حياتى. وهو سكرتير اللجنة المركزية مثل برجنيف، وإن كان سكرتيرا إداريا، أما برجنيف فهو السكرتير السياسى للحزب. وبوناماربيف يحضر عادة فى كل المفاوضات التى يجريها السوفيت لأنه المسئول الأول عندهم عن الأحزاب الشيوعية. وهو على درجة من الغباء ليس لها نظير. وكان من المفروض أن يحضر معنا احتفالات ٢٣ يوليو، ولابد أن وجوده فى مصر فى ذلك الوقت كان لخطة. أما الخطة فهى أنه كان ينتظر ما سوف يجرى فى مصر، يريد أن يعرف كيف تسير الأمور فى مصر بعد المعاهدة، يريد أن يطمئن على مصير العلاقات السوفيتية المصرية.. وأهم من ذلك كان يريد أن يشهد عن قرب نهاية المخطط الذى سوف يؤدى إلى سقوطى ودخولى السجن. وبعد ذلك سقوط النظام فى السودان وهذا الرجل بوناماربيف هو العقل المدبر لحركات الأحزاب الشيوعية وعملاء السوفيت فى المنطقة. وقد جاء يشهد بنفسه النتائج الباهرة لسياسته وعبقريته فى إسقاط الحكومات الواحدة وراء الأخرى!.

ولم أعرف إلا فيما بعد أن بوناماربيف قد أشار قبل ذلك إلى ضرورة مساندة السوفيت للشيوعيين العرب أو «الديموقراطيات الثورية».. فهذه هى التسمية الجديدة التى أطلقوها على الأحزاب الماثلة للسوفيت والعميلة لهم فى المنطقة. ففى يونيو ١٩٧١ كتب بوناماربيف مقالا فى «مجلة العالم الماركسى» تعليقا على المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى:

«إن الحزب الشيوعى السوفيتى يجب أن يمضى فى مد يد الصداقة لكل الديموقراطيات الثورية، إنهم رفقاء السلاح ضد الإمبريالية»..

ثم قال في هذا المقال ما معناه: إن مساهمة الأحزاب الديموقراطية الوطنية في جلسات مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي يؤكد هذا النمو المتزايد لعلاقات الصداقة والتفاهم. وإن مثل هذه العلاقات بين هذه الأحزاب والحزب الشيوعي السوفيتي لدليل على نوع جديد من الحركة الشيوعية في العالم كله وحركات التحرر الوطني.. وإن مثل هذا التضامن سوف يقوى علاقتها بالحزب الشيوعي السوفيتي، وعلاقتها ببقية المواطنين في البلاد الأخرى».

وفي نفس الوقت كان واضحا أن رأى السوفيت في الشيوعيين العرب متواضع جدا، بل إنهم اتهموا الأحزاب الشيوعية العربية بالهزال أو بالتفاهة. وقد وضح الآن أن هذا الاتهام كان نوعا من «التعمية». حتى لايتوقع أحد في العالم العربي أن الشيوعيين يمكن أن يكون لهم أي دور من أي نوع. وبذلك تغمض العيون عنهم، لأنه يجب ألا تراهم أو لا تستطيع أن تراهم لضآلتهم وتفاهتهم حتى جاءت هذه الحركة في السودان!

ومن المؤكد أن السوفيت ليسوا سعداء لكل ما حدث في مصر بعد جمال عبد الناصر.

فأنا لست رجلهم.

وإنني صفيت رجالهم. وإنني ألغيت الحراسات التي فرضت على الناس. ثم إنني بطبيعتي ضد القهر والظلم وإثارة الأحقاد بين الطبقات والفئات. كما أني أسمح بالخلاف ولا أسمح بالصراع. ثم إنني أكدت أنني مختلف معهم، وصارحتهم بغضبي وضيقي. ولابد أنهم يتوقعون مني ما يضايقهم أكثر. وقد هددتهم بأن للصبر حدودا وبعدها لابد أن أقول للشعب ماذا جرى. وفي ذلك فضيحة لهم أمام العالم كله.. فهم يخافون أن أكشف القناع الذي يضعونه على وجوههم فيعرف الشعب حقيقتهم، وحقيقة الهوان والعذاب الذي لقيته وتلقاه مصر معهم.

ولهذا كله كان لابد أن يفعل السوفيت شيئا بسرعة في مصر أو في السودان أو في أية دولة أخرى في العالم العربي أو الشرق الأوسط كله، وقد حدث بوضوح بعد ذلك وفشل الانقلاب الشيوعي في السودان. وفجأة تحرك هذا الرجل الروسي الموجود في القاهرة بوناماربييف. ماذا يريد؟ إنه يريد مقابلتي لأمر هام! وجاءني بالقرب من الإسكندرية حيث كنت أستريح، وكان الرجل منهارا، وأنا أعذره فقد فشلت كل خططه في الإطاحة بي في مصر وبجعفر نميري في السودان، وجاء يطلب مساعدتي؛ شيء غريب! وقد رفضت من أول لحظة أن يقوم أي نظام مثل هذا الذي أتى به السوفيت في السودان. أرفض وجود مثل هذا النظام في السودان وعلى حدودي الجنوبية، أرفض رفضا باتا.

وأعلنت في خطابي يوم ٢٣ يوليو على مسمع من بوناماربيف هذا.. التهنئة والتأييد الكامل لحكومة وشعب السودان.. وجاء بوناماربيف يطلب منى أن أساعده على إنقاذ حياة بعض الشيوعيين أصحاب الانقلاب الفاشل فى السودان. وطلبت جعفر نميرى تليفونيا. وكان بوناماربيف جالسا إلى جوارى. وسمعنى وأنا أتشفع لدى جعفر نميرى حتى لاينفذ الإعدام فى الشفيع أحمد الشيخ.. أحد أقطاب الانقلاب الشيوعى. وجاء الرد من جعفر نميرى: إن الشفيع قد أعدم منذ ساعتين.

وغضب الرجل والاتحاد السوفيتى طبعا ورأوا فى موقفى من السودان عملا غير ودى، أو لعلهم رأوه تدخلا فى شئونهم «الداخلية».. مع أن هذا الرجل قد سمعنى وأنا أعلن فى المؤتمر القومى امتنان مصر للمساعدات السوفيتية، وكيف صفق الناس لذلك..

وفى نفس الوقت أعلنت بمنتهى الوضوح أننى لست شيوعيا: لم ولن أكون شيوعيا. وعلى رغم ذلك فإننى أعتز بهذه الصداقة وأحرص عليها من أجل مصر.

لقد أعلنت فى ١٥ مايو أمام القوات المسلحة، وأعيدها مرة أخرى أمامكم ومن خلالكم إلى الشعب كله، وللأمة العربية، ولأصدقائنا وأعدائنا أننى لن أسمح أن تمر سنة ١٩٧١ دون أن تحسم هذه المعركة.. فإسرائيل الآن فى أروع حالاتها.. فلا نحن فى حالة حرب ولا نحن فى حالة سلم.. وإسرائيل رابضة على الضفة الشرقية بدون خسائر وتنتظر أن يحدث انفجار داخلى فى مصر..

وقلت فى ذلك اليوم وعلى مسمع من بوناماربيف والشعب والعالم: إن التحقيقات أثبتت أن على صبرى كان ينتظر «فرقعة» على حد قوله.. فرقعة فى داخل مصر.. فإذا حدثت الفرقعة وآلت لهم السلطة فلا داعى للحرب.. فلا قواتنا تحارب ولا أحد من شعبنا يصاب بسوء.. ولكننى أقول وأكرر أن سنة ١٩٧١ حاسمة، وإذا اقتضت المعركة أن يكون هناك مليون من الضحايا فنحن على استعداد لذلك..

ومرة أخرى فى ختام الدورة الأولى للمؤتمر القومى يوم ٢٦ يوليو قلت: لقد قلت أمامكم والتزمت أمام شعبنا وأسمعت العالم كله إن هذه السنة سنة ١٩٧١ سوف تكون حاسمة فى أزمة الشرق الأوسط.. ومعنى ذلك أن الشهور القادمة سوف تكون شهور قرار، لست أقول إن طريقنا إلى النصر يجب أن يكتمل خلال هذه السنة.. ذلك أن الطريق أطول وأصعب. ولكننى أقول إن هذه السنة يجب أن تشهد - بعون الله - تحركنا العملى نحو إزالة آثار العدوان..

وقلـت أيضـا : وعلى أسـاس ما أعلناه مـن مبادئ ومواقـف مهما اقتضانـا ذلك من جهد وتضحيات، فلن نسمح لهذه الأزمة أن تتجمد معالمها ومعالم حقنا تحت تراب النسيان، لابد أن نتحرك. وسـوف نتحرك بعون الله، سياسـة وقتالا، وأكرر أمامكم ما قلته فى أول مايو : العين بالعين، والسن بالسن، والعمق بالعمق، والنابالم بالنابالم!

بعـد هذا كله، وبسـببه، حصلت قطيعة بيننا وبين الاتحاد السـوفيتى.. لا كلام بيننا.. ولا سلام أيضا.

وبـدأت أنا الكلام، وبعثت أذكرهم بما قاله الرئيس بودجورنى من أن كل شـىء سـوف يصلنى بعد أربعة أو خمسة أيام. وأن هذا العام هو عام الحسم وشرحت لهم معنى الحسم.

ويجىء السـفير السـوفيتى وعلى لسـانه العبارة التى عرفتها ومللتها: القادة السوفيت فى القرم.

أى إنهم يصطافون على شاطئ شبه جزيرة القرم على البحر الأسود.. والدنيا كلها معطلة؛ ذهابا لا شىء يصل، وإيابا لا شىء يجىء!

وأعود أذكرهم بالمعاهدة التى بيننا..

والجواب: القادة فى القرم.

وأقول للسفير: إن موقفى من السودان موقف مبادئ. قل لهم ذلك.

فيقول: إنهم فى القرم..

– وسنة الحسم؟

_ القادة فى القرم.

_ ماذا أقول للشعب المصرى وللعالم العربى وللعالم؟

_ فى القرم!

أما ما الذى يجب أن أفعله؟ فهذه مسألة تخصنى أنا وحدى. ومن الضرورى أن أفكر فى كل الذى قلته ووعدت به. لابد أن أجد لى صيغة مناسـبة أواجه بها الشـعب. هل أحكى للشعب قصة السـوفيت؟ هل أفضح هذه العلاقة؟ لو فعلت ذلك لكان إضرارا مباشـرا بالسـوفيت. هل مـن مصلحة مصر أن أفعل ذلك؟ ثم ما هى أقصى درجـات احتمالى للأذى؟ إننى قادر على أن أحتمل الكثير. ورصيدى من الصبر كبير. ولكنى أخشـى أن ينضب هذا الرصيد فأجدنى أمام

حالة من الغضب لا أستطيع أن أسيطر عليها. ولكن مصر؟! فمن أجلها يهون كل شيء. وقد هانت أشياء كثيرة كانت عزيزة على نفسى حتى كرامتى هانت من أجل مصر. ابتلعتها كثيرا وشربت وراءها أكوابا من التشهير بى وبنظامى فى الحكم.

وفى كل يوم أشعر أنهم لايجففون الجراح، وإنما يضعون الملح على الجرح.

وأخيرا وفى آخر سبتمبر جاءنى السفير السوفيتى يقول لى: القادة السوفيت على استعداد لأن يروك.

قلت: خير.. متى؟

قال: فى ١١ و١٢ أكتوبر.

ولا أظن أن السفير قد لاحظ أننى كتمت غيظى أو ربطت «الدم على القيح» كما نقول فى الريف.

فقلت: لا مانع، إنها قضية مصر.

ولكى يفهم الرجل بالضبط ما أردت أن أقول كررت المعنى قائلا: إنها قضية مصر.. ومن أجلها فإننى أتهاون مع نفسى على رغم كل ما أصابنى فإنها قضية مصر. قبلت هذه الدعوة فورا. ولم أقل له ما كان يدور فى نفسى من أنه لو كان الأمر يخصنى أنا ماذهبت إلى موسكو أوحتى رأيت هؤلاء الناس. ولكن الضرورة لها أحكام. والضرورة هى مصر. وأحكامها أن أمد يدى أطلب المزيد من السلاح. وكما حدث فى أول مارس سافرت إلى موسكو فى ١١ أكتوبر، والذى جرى فى الكرملين هو ما توقعته بالضبط. فقد كان لزاما على أن أروى من جديد كل ما حدث للعلاقات بيننا.. وما وعدوا به جمال عبد الناصر، وما وعدونى به مع أننى حكيت ذلك عدة مرات. ومن الغريب أن لديهم استعدادا لسماع الشيء الواحد ألف مرة. وكأنهم يسمعونه لأول مرة.

وارتفعت حرارة المناقشة بينى وبين جيريتشكو. وثرت عليه. وكانت لهجتى عنيفة جدا. وتدخل كويسجين بيننا، ثم تدخل بريجنيف مرة أخرى. وبريجنيف رجل ممتاز ومشاعره معنا دائما. ثم إن فهمه السياسى لقضيتنا سليم وواضح. ثم أعدت عليهم ما سبق أن قلته إلى أن وصلت فى كلامى إلى ذكر «سنة الحسم» فإذا بهم فى نفس واحد يسألون: قل لنا شيئا عن سنة الحسم هذه؟

أقول لهم سنة الحسم؟! بعد كل هذا الذى أعلنته فى مصر أمام رجلهم بوناماربيف. وما أعلنته بعد ذلك وما حكيته لهم، مطلوب أن أشرح لهم معنى سنة الحسم؟! ثم مطلوب

منى أن أشرح لهم ما هو الحسم؟! ووجدت أن المناقشة طالت وأصبحت مملة وكأننى أنفخ فى «قربــة مقطوعة» كما نقول فى الريف أى إن الــذى أنفخه من هنا يخرج من الناحية الأخرى فهو جهد ضائع. وهم جالســون أمامى فى هدوء وبرود.. وإن كانت سياستهم هى رفع درجة الحــرارة حتى الغليان، ثــم إنزالها إلى ما تحت الصفر. ويتفرجــون وينتظرون ليروا ما هى النتيجة. وقد حفظت هذه السياسة جيدا، ولكن احتمالى لها لم يعد مستطاعا.

ووجدت أمامى فرصة لهز الموقف ورفع درجة الحرارة فقلت لهم: لا يفوتنى أن أشــكركم على أطقم صواريخ سام ٣ السوفيتية التى بعثتم بها إلى القاهرة: شكرا جزيلا.

ولكن أحدا منهم لم يهتز. فهم يتوقعون هذا الشكر أو المزيد من الامتنان. واتجهت مباشرة إلى ما أريد أن أقوله لعلهم يفيقون، فقلت: أشــكركم، وأحب أن أبلغكم أن رجالنا قد تدربوا على اســتخدام هذه الصواريخ ومن الممكن أن يشــغلوا مكان رجالكم فى دقيقة واحدة.. ولذلك آن الأوان لســحب الأطقم الســوفيتية! واهتز الأقطاب الثلاثة بعنــف وكأننى وجهت إليهم صواريخهم وأطلقتها عليهــم. وتحدث بريجنيف وهو الذى يهمنى فيهم جميعا فقال: إنها كارثة على الاتحاد السوفيتى!

فقلت: أريد أن أعرف منك الآن لماذا هى كارثة على الاتحاد السوفيتى؟

فأجاب: الوجود السوفيتى فى خطر!

وأحسســت أن بريجنيف قد أعطانى الســلاح الذى فى يده فقلت له فــورا: تقول الوجود الســوفيتى إننى طلبت إليكــم، وطلب جمال عبد الناصر، وجودا ســوفيتيا فى مصر فرفضتم طلبنا الدفاع الجوى وقيادة الدفاع الجوى وطلبنا ســلاح الــردع.. وجعلتم الموقف صعبا علينا فقلتم إن الأوامر يجب أن تكون من موســكو وطلبتم المعاهدة فوافقت عليها فورا وتم توقيعها وجاء بودجورنى ووعدنى بأن كل شىء سوف يصل بعد أيام وأن صفحة جديدة سوف تبدأ فى ســجل العلاقات الســوفيتية المصرية والآن تخاف على الوجود السوفيتى ياسيدى هات مائة ألف جندى سوفيتى إلى القاهرة، وأنا موافق على هذا الجيش فورا.

ولم يرد أحد؛ ثم عدت أدق الحديد الســاخن بيننا فقلت: أقبل هذا الوجود الســوفيتى.. ولكن بشــرط . وأهتز الأقطــاب الثلاثة ولابد أن درجة حرارتهم قــد زادت بمقدار انخفاض درجة حرارتى عندما قلت: بشــرط أن يكون القــرار منى.. فلن يحارب من أجلنا أحد؛ إنها معركتــا وحربنا وضحايانا أيضا! وانخفضت درجة حرارة الحديد الذى بيننا، وأصبحنا ندق

حديــدا بــاردا.. وقلت لهم إن الوجود الســوفيتى لا يخيف أحدا، لأن الجنود الســوفيت لن يحاربوا، ولكن إذا أرســلتم لى صواريخ أو سلاح الردع.. أو طائرات الاستطلاع التى تزيد على سرعة الصوت مرتين وثلاثا.. فإن هذه الطائرات الاستطلاعية سوف تزعج إسرائيل ٢٤ ساعة فى اليوم لأنه يستحيل على أى سلاح أن يلحق بها أو يقاومها..

أما الوجود السوفيتى بمائة ألف جندى فهو لايخيف.. وإذا كنت قد أخرجت خمسة عشر ألفا فى أســبوع، فإننى سوف أخرج المائة ألف فى عشرة أيام عندما أريد.. ثم سحبت مقعدى إلى الوراء لأقول: الآن أصبح كل شىء واضحا!!

ولكنهم بسرعة قالوا معا: سوف نبعث لك بالأسلحة التى طلبتها قبل نهاية السنة.

وأعدت السؤال عليهم مرة أخرى: قبل نهاية هذه السنة؟

قالوا: نعم قبل نهايتها.

قلت: هذا يكفينى.

أما الأطقم الســوفيتية فرأيت أن تبقى كما هى، فلن تضيف شــيئا، ولا خســارة علينا من وجودها. وإنما المهم أننى حصلت على صفقة جديدة وفى ذلك إضافة إلى قوة مصر.

وتوالت الشــهور بطيئة جدا.. وموجعة جدا.. وأحسســت بأســنان الزمن أليمة. واقترب أكتوبر وانتهى. وجاء نوفمبر واختفى. ثم ديســمبر.. وفى يوم ٨ ديسمبر وقعت الحرب بين الهند وباكســتان.. ووقف الاتحاد الســوفيتى إلى جانب الهند واستخدم مطارات مصر قاعدة لإمداد الهند بالذخيرة والسلاح!

وفى نفس الوقت الذى كنت فيه فى موسكو كانت أنديرا غاندى تلف العالم تمهد لهذه الحرب سياســيا وإعلاميا. إذن لقد كان الســوفيت يعلمون ما ســوف يحدث فى ديسمبر. وكانوا قد أعدوا كل شــىء لذلك. وكان فى اســتطاعتهم أن يقولوا لى: لا داعى لسنة الحسم هذه فسوف نكون مشغولين لسبب أو لآخر.. ولكنهم لم يفعلوا، وأخمدت غيظى فى نفسى، وقلــت: لقد كانوا أصدقاءنا فى الحرب.. وكذلك كانت الهند. وبعملية حســابية بســيطة جدا، أدركت أن ســنة ١٩٧١ لن تكون ســنة الحســم، وليس من العقل أن أجعلها كذلك، فــإن حرب الهند وباكســتان قد لفتت العالم كله، واســتوعبت كل اهتمام الناس وعطفهم وغضبهم، وحرصهم على المســاعدة أو التوســط أو الدعوة إلى الســلام.. ولا يمكن أن تحظى مصر بهذا كله.. فسوف تكون حربنا هذه قضية صغيرة أما قضية كبيرة أو حدثا عابرا أمام

كارثة دولية.. إذن لقد انتهى كل شيء، ولن تكون سنة ١٩٧١ هى السنة التى ناديت بها، ووعدت وهددت، انحسمت سنة الحسم بلا حرب.. واستدعيت يوم ٩ ديسمبر السفير السوفيتى لأقول له: واضح الآن أنكم لن تبعثوا بأية أسلحة، وإذا جاءت فبعد عام الحسم.. فما هو العمل؟!

ولم يقل السفير شيئا.

وقلت: حتى إذا أرسلتم هذه الأسلحة، فلن تصل قبل فبراير، وبعد ذلك بشهور يتم تركيبها والتدريب عليها..

ولم ينطق السفير.. ولم يرسل السوفيت هذه الأسلحة حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٧٦..

وعدت أهز السفير بعنف: ماذا أقول للشعب.. إننى لو حكيت كيف حدث هذا كله، وما كان منك لكانت هذه فضيحة كبرى لكم.. ولأضرت بكم ضررا بالغا فى المنطقة وفى العالم كله.

وطلبت من السفير السوفيتى أن يبلغ موسكو أننى أريد رؤية القادة السوفيت قبل نهاية ديسمبر هذه المرة دعوت نفسى إلى زيارة قادة الكرملين. وقلت له: قبل أن أصل أحب أن يكون معروفا مقدما أن الغرض من هذه الزيارة هو أن نصدر بيانا نغطى به الموقف الفظيع الذى يواجهنى فى مصر وفى العالم كله. وعن طريق التليفون المباشر مع موسكو اتصل بهم السفير وأخبرهم. وتوقعت أن يحددوا الموعد بعد أسبوع أو أسبوعين، لم يحدث شيء من ذلك، فقد مضى أسبوع ومن بعده أسبوع آخر.. وفى يوم ٢٨ ديسمبر جاءنى السفير السوفيتى يحمل هذه البشرى: القادة السوفيت يسعدهم أن يستقبلوك يومى ١ و٢ فبراير! ومعنى ذلك أنه مطلوب منى وحدى أن أغطى موقفى فأنا الذى قررت وأنا الذى أتحمل ذلك مع أننى لم أقرر ذلك إلا استنادا إلى وعودهم وعلى أرفع مستويات القيادة السوفيتية.. إذن هذا هو المطلوب!

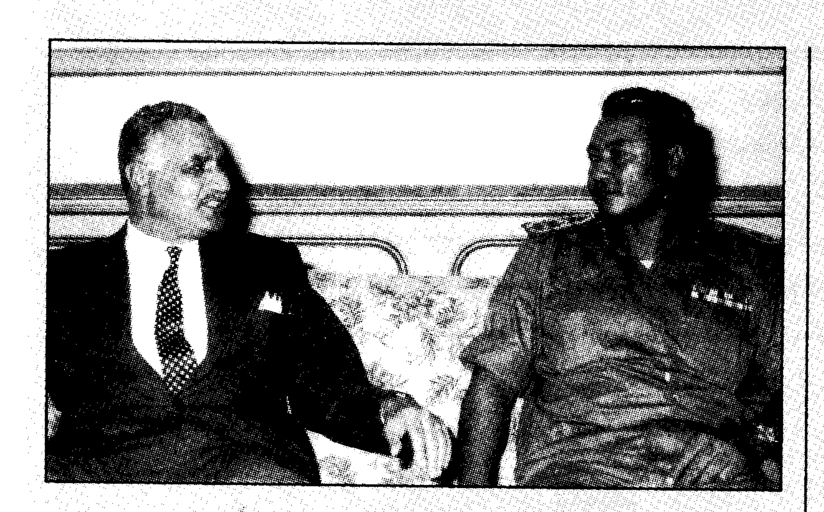
ومعنى ذلك: أنه إذا كان السوفيت برجالهم وعملائهم لم يفلحوا فى إسقاطى، فهذه هى الفرصة التى أقوم فيها بإسقاط نفسى.. بيدى لا بيد السوفيت!

ودارت الأفكار فى رأسى والسفير جالس أمامى.. وتذكرت اقتراب يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٧١.. وتذكرت أننا ألغينا المعاهدة مع الإنجليز يوم أول يناير سنة ١٩٥٧، والسوفيت يستحقون ما استحقه الإنجليز فمعاهدتهم هذه يجب إلغاؤها فى نفس التاريخ، ولا أعرف

كـم مضى من الوقت وأنـا أتذكر ما قالوا وما قلت.. ودوختى بـين الأمل واليأس، بين الصبر والغضب، بين الصمت وبين السكوت على الفضيحة. وتذكرت ما قاله لى المشير أحمد إسماعيل من أن بريجنيف كان حريصا على أن يصب الماء البارد على رأسى، لأن رأسى ساخن.. مع أن رأسـى سـاخن من الداخل، ولكن فى مواجهة هؤلاء الناس كان رأسى باردا! وأحنيت رأسى للعاصفة الهوجاء التى هبت من موسـكو فأطاحت بسـنة الحسـم كلها.. ولكن لن أسمح لها بأن تطيح بى وبآمال شـعبى.. وعندما أحنيت رأسـى للعاصفة أعـترف أننى أحنيته لمصر، فقلت للسفير:

قل للقادة السوفيت إننى مسافر يوم أول فبراير!

❑❑❑



١ - جمال عبد الناصر وجعفر نميرى .

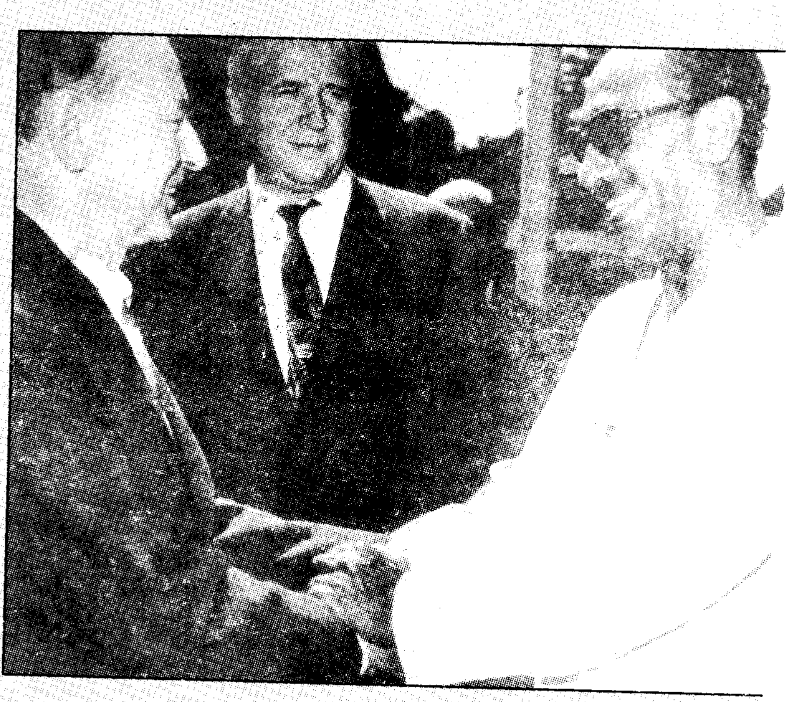


٢ - السادات ونميرى: صداقة حميمة .

٣ - جيريتشكو وزير الدفاع السوفيتى .



٤ -بوناماريف أثناء زيارته للرئيس السادات فى الإسكندرية ليحاول إنقاذ أحد الشيوعيين.





لعبة جديدة

■ أحنيت رأسى للعاصفة وأحنيته لمصر أكثر.

■ السوفيت يتقدمون بقائمة أسلحة لم نطلبها ولا نريدها.

■ الوفاق الدولى لعبة جديدة بين نيكسون وبريجنيف.

■ قلت لجيريتشكو: لو كنت وزيرا للحربية عندى لعزلتك فورا.

أوائل سـنة ١٩٧٢ اشتد الهجوم العنيف على السـوفيت. فهم الذين تخلوا عنا. لأنهـم أرادوا أن يؤكـدوا لى وللعالم: أننى لا أسـتطيع أن أتخـذ قرارا. فالقرار قرارهـم. والرأى رأيهم. تماما كمـا عرضوا علينا من قبل أن نسـتخدم طائرات تتلقى أوامرها من موسكو. ومعنى ذلك - تأديبا لى وتحذيراً جديداً - أنه بعد الآن يجب ألا أعلن قرارا قبل أن آخذ موافقتهم على ذلك. فسنة الحسم هذه ما كان يجب أن أعلنها، قبل أن أخطرهم بذلك. وإذا أخطرتهم قامت لجانهم وهيئاتهم تدرس الموضوع سنة بعد سنة .. حتى تصل إلى قرار. ويجيء القرار بعد سـنة أو بعد عشـرين سنة. هذه هى الأصول التى يريدون منى أن أتبعها وألا أخرج عنها!!

واستشعر الناس فى مصر إهانة بالغة.. وفوجئت فى ذلك الوقت بعريضة موقعة من عدد من السياسـيين كان من بينهم د. مصطفى خليل الأمين الأول للاتحاد الاشـتراكى.. وفى هذه العريضـة تحدثـوا عن أن مصر تمر بمحنة فظيعة. وأن هذه المحنة تهدد مصر شـعباً وأرضاً وحضارة. وأن الاتحاد السـوفيتى يقدم لمصر العون الذى لا يسـمح بتحرير الأرض واسترداد الحق. وقالت العريضة: إنه آن الأوان لأن ترسـم مصر سياسـة التحرير الوطنى، على أساس أن قـوى مصـر الذاتية وحدها، روحية ومادية، هى الركيزة الأولـى والأمنية الوحيدة لتلك السياسـة.. وأنه آن الأوان لمراجعة الإسـراف فى الاعتماد على السوفيت كل هذه السنوات، لـم يحقق تحريـر الأرض وردع العدو. وعلى رغم كل ما أعرفه عن مشـاعر الناس فأنا واحد من أبناء الشـارع وأنا فلاح أدرك تماما مدى صدق هذه الجراح فقد دافعت عن السـوفيت وعن الصداقـة بيننا وذكرت لهم فضلهم.. بل إننى ذهبت إلى القول أمام مجلس الأمة أهدد: هذا موقفى والذى لا يريد أن يتعاون معى فليقدم استقالته أمام المجلس.

إلى هذه الدرجة كنت أغطى موقف السـوفيت، الذين أرادوا تعريتى أمام الشـعب وأمام الأمة العربية. وأخيراً سافرت إلى موسكو يوم أول فبراير. وتكرر المنظر جلسنا إلى المائدة الكبيرة. كان برجنيف وكوسيجين. ولم يظهر بودجورنى. لأننى لا أحب أن أرى هذا الرجل

الذى شــتم الجيش المصرى أمامى، واشــتبكت معــه. وكان من الطبيعــى ألا يعود إلى مثل هذه الجلســة تفاديا للاحتكاك وبعد الكلمات التقليدية والحفــاوة من جانبهم ومن جانبى.. دخلنــا فــى الموضوع فهناك موضــوع .. ولابد أنهم يعرفــون أن فى قلبى الكثيــر وكنت أنا أول المتكلمين.

وســألت بوضوح: من الذى أمر بمنع وصول الأسلحة إلينا، مخالفا بذلك ما سبق أن اتفقنا عليه فى اجتماع ١١ و ١٢ أكتوبر ســنة ١٩٧١؟. أظن أن من حقى أن أعرف ذلك. وانطلاقا من الوضوح الذى أنشــده والمصارحة التى جعلناه أسلوبا فى الحديث بيننا. وبمنتهى الإخلاص أريد أن أعرف ذلك الآن.

ونظرت إلى برجنيف وكوســيجين. وانتظرت لحظة وجاء الــرد من برجنيف فقال: أنا الذى قررت ذلك!

سألته: لماذا!

أجــاب: إنــه الروتيــن عندنا. وأنت تعرف أننا نشــكو من هــذا الروتيــن. وأن الطريق أمامنــا طويل لكى نتخلص منه. فقد كان فى نيتنا أن نبعث لك بالأســلحة لولا هذه العقبات التقليدية عندنا.

فقلــت لــه: أنت طبعا قررت هذا لأنك تعلم عن يقين، أننى لا أســتطيع أن أرد عليك فأنا أصدقك. وأنا أعتبرك صديقا قادرا على التفاهم والإقناع. وأنا مؤمن أنك معنا بقلبك.

والحقيقة أن برجنيف هذا.. رجل سياسى ممتاز. وأنه قادر على الفهم والتفاهم. وأنه معنا بمشــاعره حقيقة. وأنا صادق فيما أقول. وقد قلت هذا المعنى كثيرا فى موســكو وفى القاهرة ولعدد كبير من الساسة فى الشرق والغرب. ثم أعطيت الكلمة لكوسيجين رئيس الوزراء فقال: يا رئيس سادات أريد أن أؤكد هذه المرة.. أريد أن أؤكد لك أنه من الآن فصاعد باعتبارى رئيسا لوزراء الاتحاد الســوفيتى سأكون أنا المسئول عن إرسال كل صفقات السلاح فى الوقت المتفق عليه وبالأسلوب المتفق عليه. لعلك ترضى وتهدأ وتهنأ، ولن يتكرر ما حدث قبل ذلك ونحن شديدو الأسف لكل ما وقع منا قبل ذلك. فهل يرضيك الآن ما أقول؟

ولو كانت مثل هذه العبارات قد ســمعتها مرة واحدة أو حتى عشــرين مرة، لهان الأمر.. ولكن هذه المعانى ســمعتها حتى سئمتها. وتطلعت إلى وجه كوسيجين ومنعت نفسى من أن أستعرض تاريخه العجيب فى الحكم والذى أعرفه جيدا..

ثم توجهت إلى برجنيف وقلت له: إن العواقب أسوأ مما تتصورون إن إضاعة سنة الحسم قد أصابتنى فى أعماقى وأوجعت شعبى.. ولكن أحب أن أؤكد لك أن نتائج أخرى أسوأ من ذلك سـوف تصيب السـوفيت فى المنطقة إذا كنتم لا تدركون ذلك فأنا هنا أؤكد لكم هذه الحقيقة التى أتحدث إليكم كصديق وقد أكدت هذه الصداقة فى كل مناسبة أجدد ذلك حتى مل الناس ومللت أنا أيضا.. إن موقفكم هذا سوف يسىء إليكم إساءة بالغة!

والسـوفيت حريصون على جميع قواعد الإخراج المسرحي، فكل شىء تقليدى لا يتغير.. فالاجتمـاع يبدأ فى هدوء. أنا فى ناحية وهـم فى الناحية الأخرى.. ونتبادل كلمات التحية التـى ظاهرها الحرارة وباطنها الغليان من جانبى وبـرودة الجليد من جانبهم. ويبدأ أحدنا فى الكلام. ويرد عليه الآخر. ويحتدم النقاش. ويتطوع واحد منهم بمضايقتى وإهانة الجيش المصرى أو الشعب المصرى أو إهانتى شخصيا. ويتقدم برجنيف – وهو الذى يفعل ذلك دائما – بتهدئتى. وبالاعتذار عن الذى حدث فى هذه الجلسة وفى الجلسات السابقة. وبدلا من أن يسدل السوفيت الستار فإن واحدا منهم يخرج من جيبه ورقة فيها قائمة بأسلحة لم أطلبها. ولا أريدها. وفى نفس الوقت لا أرفضها، لأنها إضافة إلى ما عندى من سلاح.

كل شـىء بهذا الترتيب الجامد القاطع.. القاطع للأنفاس ولكل خيوط الأمل فى أن يحدث شـىء جديد لصالحنا أو حتى لصالحهم هم.. ولكن فى هذا الاجتماع حدث شـىء من التغيير البسيط الذى جعل الاجتماع منعشا إلى حد ما .. كأن بابا قد انفتح فجأة ودخل هواء ساخن، أحدث تغييرا فى جو الغرفة.. هذا الهواء السـاخن هبَّ من ناحية جريتشكو وزير الحربية فى ذلك الوقت. وهو صديق. وأنا أحبه حقا وأكن له كل الاحترام، الله يرحمه. فقد تدخل فى المناقشة. وثرت عليه قائلا: لو كنت وزيرا للحربية عندى لعزلتك فورا.

فنحن نعرف أن أى وزير فى روسـيا لا رأى له، وأن وزير الحربية والجيش جميعا على الهامـش. والرأى أولا وأخيـرا للحزب. وعلى الرغم من ذلك فقد حاول جريتشـكو أن يقول كلاما ليس من شـأنه. أو إذا قاله. فلن يكون مسـئولا عنه.. وإنما هو كلام من باب إثبات أنه موجود والسـلام. وقلت له: ماذا كان يحدث لك لو أن طائرات معادية قد هاجمت لك مصنعا مثل مصنع «أبو زعبل» وقتلت مئات العمال، أو هدمت لك مدرسـة أطفال مثل مدرسـة بحر البقـر؟ مالذى تفعله؟ والذى كان يكفيك لكى تشـرب من دم عـدوك؟ وتدخل برجنيف لفض هـذا النقاش الحاد. وأنا أرتـاح لهذا الرجل برجنيف، ويعجبنى فيه أنه الرجل السياسـى القادر على الفهم السريع والاستيعاب.. وانفض الاجتماع الذى أكدت فيه، كما حدث فى كل

مرة، أننى لا أريد جنديا روسيا واحدا يحارب من أجلنا.. ولا أريد مواجهة بين السوفيت والأمريكان فى المنطقة، وأن تكون مصر هى السبب..

.. وخرجت الورقة من جيب برجنيف وتقول بالحرف الواحد: وافق المكتب السياسى والحكومة السوفيتية على تزويدكم بالآتى:...

وتسمع برجنيف وهو يقرأ هذه القائمة وكأنه شاعر يتغنى بجمال الطبيعة.. مع أن كل هذه القائمة لا تحتوى على شىء واحد، أقولها مرة أخرى .. لا تحتوى على شىء واحد طلبته أو أشرت إليه أو نحتاج إليه! إنها ولا شك مقدرة طبيعية عجيبة.. أن يقول الإنسان الشىء الواحد ألف مرة دون أن يستشعر الملل أو القرف ولا بد أن يكون المطلوب طبعا هو أن يصيبنى الملل والقرف واليأس فأقول بأعلى صوتى: لا.. لا أريد شيئا من هذه الأسلحة التقليدية. ولكنى لا أفعل، وكما هى عادتى فإننى أبتلع غضبى ومعه كرامتى وأقول لنفسى: إن هذه الأسلحة مهما كانت قيمتها المتواضعة جدا، فهى إضافة إلى قوة مصر.. ثم إن الطريقة التى يلقى بها برجنيف هذه القائمة والمقدمة والخاتمة تضعنى فى موقف صعب جدا. هذه الصعوبة تحتم أن أقبلها.. وإلا.. وإلا اضطر برجنيف إلى دعوة المكتب السياسى واللجنة المركزية لمناقشة الرفض، أو لمناقشة إضافة وحذف أسلحة أخرى .. ومعنى ذلك ألا آخذ هذه الأسلحة. فلا أملك إلا. أن أقول: موافق. حاضر موافق. ولكم الشكر على ما قدمتم وتقدمون أو سوف تقدمون لنا من أسلحة!

وللتاريخ وللذين يدرسون تاريخ العلاقات السوفيتية المصرية التى أرويها من تجربتى الشخصية أو من تجربتى كشخص وكرئيس لمصر، أقول: إننى شعرت بالتشاؤم لأول مرة. فهذه هى المرة الأولى التى عرفت فيها اليأس. وعذرى معى. وهو عذر واضح. فالذى رأيته وسمعته هذه المرة. قد رأيته وسمعته قبل ذلك.. وهذه هى المرة الثالثة. فما معنى ذلك؟ لا معنى عندى إلا إنهم يستخفون بى. يلعبون بى وبقدرى وبمصر. فلا الاتحاد السوفيتى كبير جدا، ولا أنا صغير جدا. ولا الاتحاد السوفيتى صادق إذا تصور أنه وحده القادر على الفهم وعلى تسيير الأمور.. فنحن أيضا قادرون على الفهم، وعلى معرفة ما ينفعنا وما يضرنا. ثم إنها قضيتنا فى الدرجة الأولى . وعلينا أن نحسم ما نراه. وأن نتحمل النتائج. ونحن قادرون وعلى استعداد تام لكل شىء من أجل مصر.. إن السوفيت حاربوا واستماتوا من أجل أرضهم، فكيف يتصورون أننا لن نفعل ذلك.

وعندما أستعيد هذه الجلسة التى كانت نقطة تحول حقيقية فى العلاقات بيننا، أجد أن كوسيجين هو الذى تعهد هذه المرة بكل شىء. وكوسيجين هذا رجل سياسى عتيد.. إنه آخر رجال الحرس القديم.. إنه آخر الذين شاركوا فى قيام الثورة السوفيتية. وهذا الرجل الكبير القدير فى الحزب وفى الاتحاد السوفيتى لابد أنه يعى ما يقول. فهذا الرجل قد عمل وزيرا فى عهد ستالين ثلاثة عشر عاما. وكان ذلك مستحيلا أيام ستالين الجبار. فقد كان الوزير إذا طالت مدة خدمته، فإنه يبقى عاما أو عامين. ولكنه استطاع أن يصمد هذه الفترة الطويلة، التى تعتبر رقما قياسيا. وكان ستالين طاغية من الطراز الأول، باعترافهم وشهادتهم. ويكفى ما قاله خروتشيف نفسه عن ستالين فى بيان المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى لقد سمعت من خروتشيف هذا سنة ١٩٦٤ فى حديث شخصى وكنا ثلاثة: جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وأنا، إن ستالين أيام الحرب كان يستدعيهم فى الساعة الحادية عشرة من مساء كل يوم. وكان كل واحد منهم يودع زوجته وأولاده، لأنهم يعرفون مقدما أن هناك نهايتين تنتظرهما: إما الإعدام رميا بالرصاص لأى سبب، وإما النفى إلى مجاهل سيبيريا. وكان يتولى تنفيذ ذلك وزير داخلية رهيب.. اسمه بيريا..

هذا ما سمعته من خروتشيف وقد طلب إلينا ألا ننشر ذلك. ثم إنه فى بيانه فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى قد أعلن أن ستالين كان يطلب إليهم أن يرقصوا أمامه. وكان يتسلى بهم ويضحك.. وبعد أن يضحك عليهم وهم يتساقطون.. من الشرب ومن الإعياء يجىء النوم فيداعب جفنيه وينام.. كل ليلة!

وهذا يذكرنى بما كان يفعله الامبراطور الرومانى كاليجولا فقد كان يجمع الشعراء والفنانين ويطلب إليهم أن يرقصوا على ساق واحدة. ثم أن يلقوا بأنفسهم من النوافذ.. وكان يسعده أن يتحول الشعراء إلى بهلوانات ثم إلى موتى .. فإذا فعلوا ذلك، جاءه النوم ليريح بدنه وأعصابه التى تعبت من رؤية الشعراء والفنانين وهم يمتهنون أنفسهم أمامه!!

واستطاع كوسيجين أن يعيش مع ستالين وأن يتآمر عليه. وأن يعيش مع خروتشيف وأن يتآمر عليه.. وأن يعيش مع برجنيف الآن.. ثم هو الذى يعدنى بأن يفى لى بكل ما تعهد به فى هذا الاجتماع. فماذا أقول؟ هل يصدق هذه المرة؟ هل هو طراز مختلف؟ هل يستطيع أن يفعل بمفرده شيئا لم يقرره المكتب السياسى واللجنة المركزية؟ ولماذا لم يتعهد برجنيف إذا كانوا صادقين هذه المرة؟ ما هى المعلومات التى تلقوها عن مصر أو عن العالم العربى تدفعهم إلى تغيير موقفهم؟ ثم أليسوا هم الذين يؤكدون دائما أنه لا حرب؟.. وأن الحل

السلمى هو الحل؟ ولكن كيف يكون السلام دون استعداد للقتال كيف؟ هل أنا أقنعتهم بشىء هذه المرة؟

عدت إلى مصر هذه المرة: جيبى خال، لكن قلبى ملآن. قلبى ثقيل. يكاد يهبط فى قدمى. وأحسست تماما أنهم أرادوا أن يجعلونى كرة يلعبون بها. ولكنى أرفض ذلك. رفضته وسوف أرفضه. ورفضه شعبى من ورائى ومن أمامى ومن حولى.

وأنا معذور إذا استعرضت صور الماضى كلها وانتهيت إلى حقيقة واحدة أنهم يراوغوننى. فعلــوا ذلك مع جمال عبد الناصر حتى قضوا عليه. حتى قتلــوه. ويحاولونه معى.. فإذا كان هناك جليد فهم لا يذيبونه وإنما هم يضاعفونه ويكدسونه. وعدت إلى مصر وأنا لا أقوى على أن أحمل قلبى بين جوانبى.. وكل ما معى هو وعد ببعض الصواريخ القديمة. وتلاحقت الأيام. مضى فبراير كله ومن بعده مارس وأبريل.

وفجأة ظهر واحد ساحر على مسرح السياسة الدولية. الساحر فى يده عصا وعلى رأسه قبعة. وعرض القبعة على الناس. وتأكدوا أنها خالية تماما. ضرب القبعة بالعصا. وخرج الأرنب هذا الأرنب اسمه «الوفاق» بين روسيا وأمريكا. وهذا الحاوى الجديد اسمه هنرى كيسنجر!

مفاجــأة. الأمريكان يريدون وفاقا مع الروس ويريدون ذوبان الجليد بينهما. واســتئناف الملاحة والتجارة والصداقة. والأحضان والقبلات عال جدا وأن اللقاء الموعود ســوف يتم يوم ٢٠ مايو فى موســكو وأن الرئيس نيكسون هو الذى سوف يبدأ بتذويب الجليد، أو بتكسيره أو إزالته من الطريق الشــائك الملىء بالألغام بين واشنطن وموسكو. شىء عجيب ولكن ما هو المعنى الذى أستخلصه أنا من هذا الاتجاه الجديد أو الموجة الجديدة أو هذا السحر العظيم؟ لابد أن أجد لى تفسيرا ولابد أن أعرف أين أنا وأين شعبى من هذه اللعبة الجديدة؟

أعود إلى أول يناير سنة ١٩٧٢ ماذا جرى؟

أعلن مســتر روجرز وزير خارجية أمريكا أنه ســوف يمد إســرائيل بمزيد من الفانتوم أى إنه يريد أن يحدث خللا فى ميزان القوى، وأن يكون ذلك لصالح إســرائيل. هذا المســتر روجرز قد هاجمته بعنف الســيدة جولدا مائير ومسحت به الأرض. ولم يجرؤ أن يرد عليها بكلمة واحدة. وإنما كان رده يشبه الاعتذار العظيم لها: المزيد من طائرات الفانتوم.

ولكن المشــكلة أكبر من ذلك: فأمريكا قد خســرت معركتها بين الهند وباكستان ثم إنها حاولــت أن تقوم بتعويض لهذه الهزيمة فراحــت تصعد المعارك فى فيتنام.. تصعد الموقف

فى الشـرق الأوسـط وتتحدى وتقول لنا وللسوفيت إنها هى الدولة التى فى يدها كل شىء فى الشرق الأوسط والشرق الأقصى.

فهل مسـتر روجرز هذا يريد أن يمشى على سياسة سلفه مسـتر دالاس بأن يدفعنا إلى حافة الحرب أو حافة الهاوية؟ أنا لا أعتقد أنه قد أحسـن فهم الموقف. ويكفى أن يسـتعيد بذاكرتـه ما الـذى فعله دالاس، ثم ماذا كانـت النتيجة ؟ لم تنفع سياسـة دالاس ولم تأت بالنتيجة المرجوة بل كانت النتائج عكسية تماما. ونحن لم نخف من دالاس، ولن نخاف من روجرز.. ثم إننا قد انتصرنا فى كل معاركنا ضد الأمريكان فى المنطقة. وسوف ننتصر.

أكثر من ذلك.. فقد أعلن روجرز أيضا أن الولايات المتحدة سـوف تزود إسرائيل بمصانع لإنتاج الأسلحة. هذا ما تفعله الولايات المتحدة لإسرائيل فما الذى يفعله الاتحاد السوفيتى لمصـر. لقد تعبت مع الـروس من تكرار عبارة واحدة: يا ناس لا أريد أن أصل فى التسـليح إلى مسـتوى اليهود.. اجعلونى وراءهم بدرجتين. وليس بعشرين درجة. إنهم هم المحتلون ونحـن نريد تحرير أرضنا. فكيف يكون ذلك ونحن بفضلكم، على هذه الصورة من التخلف؟ قلتها مئات المرات ولا حياة لمن تنادى أنا الذى أقول وأنا الذى أسـمع أما هم، فكما ذكرت أكثر من مرة: لا أحد يسمع وإذا سمع فإنه لا يهتز. وإذا اهتز فلكى يخرج ورقة تقول: قرر المكتب السياسى.........

أى قرر المكتب السياسى تزويدنا بكل الذى لا نحتاج إليه من السلاح؟!

إنها - إذن - حرب أعصاب تشنها الولايات المتحدة.

هـذه الحرب قد تـردد صداها عند فلاسـفة بيـروت. فامتلأت الصحـف بالاجتهادات والتخمينات. وتحول الكتاب هناك إلى أناس يفتحون الكوتشينة ويقرءون الفنجان ويقولون.. وكل واحد أصبح ماريشـالا فى العسكرية وقطبا فى السياسة .. وأصبحت الكرة الأرضية كلها حبة فى مسـبحة طويلة تلعب بها أصابع الصحفيين والسياسيين.. لقد انتهت الدنيا. والعالم كله سـوف يخرب. وأمريكا تقف وراء إسـرائيل. ومصر ليس وراءها أحد، كأن الملايين من شـعبنا ألواح خشبية ليسـت لها قوة ولا تاريخ طويل عريض عميق. إنهم فى بيروت يقررون ويحتكرون التفكير. ونحن هنا لا نقرر ولا نفكر.

وإنمـا نائمون فى الهزيمة غارقون فى اليأس. ونحن راضون بذلك. وراضون بما هو أسـوأ من ذلك: أن نتلقى تفسير أحلامنا من بيروت!!

إن مصـر لـم تهن إلى هذه الدرجـة. وإن أحدا لم يتعاظم فى أى مكان فـى العالم العربى إلـى هذه الدرجة. فالمعركة هى معركتنا. لا شـك فى ذلك. ونحن الذين سـوف نحارب. لا جدال فى ذلك. واسـتعدادنا للتضحية إلى غير حد. وهذه حقيقة. وانتقلت عدوى الفلسـفات البيروتية إلى بعض المثقفين فى القاهرة. واهتزوا وارتعدوا.

وتسـلل إلـى الخائفين معنى غريب: إذا كانت أمريكا وروسـيا تتفقـان، فلماذا لا نتفق نحـن أيضا؟ أى لماذا لا نفعل ما فعله الألمان شـرقا والألمـان غربا؟ لماذا لا نتفق مع اليهود وينتهى كل شـىء بلا حرب.. إن أمريكا تتفق مع روسـيا، وأمريكا اتفقت مع الصين؟ وهذه أكبر وأعظم الأمثلة فى التاريخ؟. ونسى هؤلاء المرجفون المرتجفون أن هذا هو المطلوب. وأن هذه سياسـة إسرائيل منذ المؤتمر الصهيونى الذى انعقد فى سويسرا سنة ١٨٩٧ والذى قرر أن تكون دولة إسـرائيل الكبرى ممتدة من النيل إلى الفرات.. أى ليس الوقوف فقط عند قناة السـويس وإنما الاستيلاء على كل شـرق الدلتا. فقد خرج اليهود من الزقازيق. أى ابتداء من فرع دمياط.. فهذه المنطقة تسـميها التوراة أرض جاشـن.. والخرائط التى يحملها الطيارون اليهود الذين سـقطوا فى أيدينا كانت مكتوبة باللغة العبرية.. ومكتوبة عليها أن كل الأرض شرق الدلتا هى أرض جاشن .. بل مصر كلها هى أرض جاشن.. ولكن لم يتسلل هذا الفزع إلى القاعدة العريضة من الشعب.. إلى التسعين فى المائة وقفوا ورائى صفا واحدا.. يريدون شيئاً واحدا: تحرير الأرض..

ومضى أكثر شهر ابريل: وفجأة جاءنى السفير السوفيتى يقول لى: القادة السوفيت.

قلت: خير؟

قال: يريدون رؤيتك يوم ٢٨ أبريل..

قلت: لماذا؟

قال: زيارة قصير جدا.

قلت: قصيرة جدا؟ ماذا تقصد؟

قال: ٢٤ ساعة فقط..

قلت: أزورهم ٢٤ سـاعة.. ياسلام.. ما هذه الزيارة؟ وما الذى سيتم فيها بهذه السرعة؟ كان فى اسـتطاعتهم أن يبعثوا إلى رسالة.. وتقوم هذه الرسالة مقام الزيارة.. أو أبعث إليهم أنا رسالة تستغرق قراءتها خمس دقائق. وتكون بمثابة زيارة قصيرة جدا جدا. ما رأيك؟

قال: إن الموقف جاد.

قلت: وأنا جاد. ولم أكن قط معكم إلا جادا جدا.

قال: أرجوك. فى عرضك. فى طولك. ٢٤ ساعة تكفى.

قلت: أنا الذى أرجوك وأنا الذى أقول لهم وأقول لك: فى عرضك.. فى طولك.. أنا قرفت. أنا زهقت. أنا ضقت بكل هذه الزيارات. وليس هناك أى أمل فى أن يحدث أى شىء جديد. أنا عارف.. وأنت عارف وهم عارفون. والعالم كله الآن يعرف ما الذى تفعلونه بمصر. وما الذى يفعله الأمريكان لليهود.. أرجوك أن تبلغهم أننى لا أريد هذه الزيارة . أرجوك.

وكانت الزيارات الثلاث الماضية بناء على طلبى. أما هذه الزيارة فقد كانت بطلب من القادة السوفيت. ودارت كل الأحداث والأحاديث فى رأسى.. ماذا يا ترى يعده السوفيت؟ ما هو هذا الشىء العاجل جدا الذى يمكن أن يتم فى ٢٤ ساعة؟ ما هذا التعبير المفاجئ الذى طرأ على أدمغتهم هناك؟ ما الذى يدبره المكتب السياسى واللجنة المركزية للحزب؟ هل استطاع هذا السياسى العتيد كوسيجين أن يقنعهم بشىء جديد؟ إن رأسى يحسب ألف حساب لكل شىء .. ووجدتنى قد وصلت إلى شىء بسيط ومهم جداً هو أن نيكسون سوف يزورهم يوم ٢٠ مايو . وهم فى حاجة إلى استعراض قوتهم وحضورهم فى مصر أنهم استطاعوا أن يفوتوا سنة الحسم.. نحن قلنا إنها سنة الحسم. وهم الذين قالوا إنها فعلا سنة الحسم ولكن بين الهند وباكستان.. وليست سنة الحسم بين مصر واسرائيل. فهم الذين يقررن ويقدرون ويدبرون ويفكرون ويستدعون رئيس دولة مصر الذى أحرجوه أمام الملايين.. ورغم هذا الإحراج الرهيب فقد جاءهم فى موسكو لاجتماع عاجل قبل زيارة نيكسون. وطبعا لن يعرف أحد ما الذى قالوه لرئيس مصر. ولكن يكفى أنهم قالوا له: تعال فقال: حاضر..

هذه الصورة المروعة – إذن – هى المطلوبة أمام الأمريكان. لكى تكون دليلا على قوة السوفيت وحضورهم فى المنطقة. وسوف تكون هذه نقطة تضاف إلى حسابهم على مائدة «الوفاق» الى أعدها الساحر الجديد: هنرى كيسنجر..

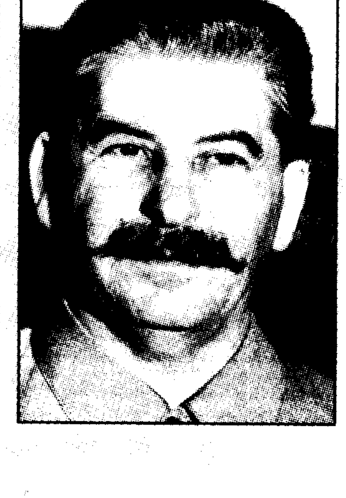
يعنى المطلوب منى أن أقوم بدور فى مسرحية «أعظم استعراض فى العالم» التى يعدها السوفيت قبل زيارة نيكسون .. ولم أكن فى حاجة إلى مجهود عقلى كبير لكى أدرك هذه الحقيقة.

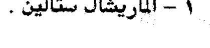
إذن هـذه الزيـارة تافهة الشـكل والمضمون من وجهـة نظرى. ولكنها مـن وجهة نظر السوفيت جزء من اللعبة التى يريدون أن يبهروا بها الأمريكان. وكنت قد دعوت الله مخلصا وصادقا ومن كل قلبى: اللهم لا تضطرنى إلى زيارة موسكو هذه. اللهم لا تجعلنى أرى هؤلاء الناس. فقد تعبت. وتحملت مالا يتحمله البشـر. اللهم رحمتك. وأفقت من حيرتى والسفير السوفيتى جالس أمامى. ووجدت أننى قد انقسمت على نفسى بين: المصرى الفلاح المقاتل.. ورئيس الدولة..

فباسم المصرى الفلاح قلت: لن أذهب.

أما باسـم رئيس الدولة فقلت له: نعم. أذهب إلى موسكو. وأقابل القادة السوفيت. ولمدة ٢٤ ساعة.. وأقل من ذلك إذا أرادوا!

□□□





١ - الماريشال ستالين .



٢ - خروتشيف .



٣ - نيكسون يلتقي بالزعيم السوفيتي برجينيف .



٤ - السادات ونيكسون .



٥ - موسى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى.



لقاء تاريخى

- المطالب السبعة للرئيس السادات.
- طائرات سوفيتية فى غرب القاهرة للاستعراض فقط!
- سوخوى ١٧ الطائرة الصاروخ.
- قرار جمهورى بمنح جريتشكو والمرافقين له نياشين عسكرية.
- حافظ الأسد ينصح السادات بعدم مجاراة السوفيت.

من عادتــى عندما أســافر إلى مهمة أن أفكر كثيرا فيما ســوف يحــدث.. ويدور فى نفســى حوار طويل أجيب فيه عن كل التساؤلات.. واستعراض الأحداث والصور. وأســتوقفها وأتوقــف عندها.. فإذا نزلــت من الطائرة كنت كمــن قرأ كل ملفات القضية واتخذ قرارا. أو على الأقل كنت فاهما بوضوح شــديد لكل ما ســوف أقول ويقال لى.. وفى رحلتى الرابعة هذه إلى موســكو اســتعرضت كل الصور وكل الأحداث وكل الوجوه. وكل الــذى قلت وقيــل لى.. وما أثارنى وما أغضبنى وما هدأ نفســى.. ثم الإهانات التى لحقت بى وبمصر وبقواتنا المسلحة.. وتنتهى هذه المراجعة والمحاسبة والمناقشة إلى نهاية واحدة: لابد مــن الصبر. فأنا فى حاجة إلى مزيد من القــوة. والمعركة طويلة. وليس أمامى إلا مصدر واحد للسلاح وصديق كبير هو الاتحاد السوفيتى..

وهذه حقيقة قلتها مرات كثيرة. ولكن الذى أقوله لنفســى شــىء. والذى أقوله للآخرين شــىء آخر.. فأنا وحدى الذى يعرف الحقيقة. وأكتمها عن الناس. وقد حدث هذا كثيرا كما قلت، وكما ســوف أروى عند الإعداد لحرب أكتوبر. والجســر الجوى وما بعد ذلك- لأن لى هدفــا من هذه المذكرات هو أن أعرض لجانب خطير من تاريخ مصر، بصدق وأمانة. وقد أليت على نفســى أمام الله وأمام شــعبنا أن أضع الحقيقة مجردة من الغرض والهوى. وعلى الأجيال القادمة أن تحكم لنا أو علينا. والله على ما أقول شهيد..

وفى الطائرة ســألت نفسى: يا ترى هل يتغير شــىء هذه المرة؟ هل من مظاهر استعراض القوة إن يتظاهر السوفيت بالعطاء والسخاء ويمنحونى بعض ما طلبت من أسلحة، وما تعهد به كوسيجين ذلك السياسى العنيد العتيد؟ إنها فرصة أمام السوفيت ليؤكدوا للأمريكان أنهم هم الذين قرروا أن ســنة ١٩٧١ لن تكون سنة الحســم.. وإذا أفلح الروس فى إقناع الأمريكان بذلك لا يهم.. وإنما المهم أن يعطونى سلاحا.. لقد ذهبت سنة الحسم، ولابد أن أفكر فى هذه الســنة وما بعدها.. فهل ســيتغير الســوفيت قليلا أو كثيرا؟ هل أعود هذه المرة أحسن حالا؟ أتمنــى ذلك.. وإن كانت فى داخلى حاســة غريبة تؤكد لى أن شــيئا مــن ذلك لن يحدث.. إن

هذه الحاسة التى فى أعماقى لم تكذب قط. هل هى الفراسة؟ فأنا أستعين بها فى الحكم على الأشـخاص وعلى الأمور الحاسمة فى حياتى السياسية. تمنيت من الله أن تكذب هذه الحاسة هذه المرة وأن أعود من موسكو خفيف القلب ثقيل الجيب.. ربنا كريم..

وتوقفت الطائرة فى مطار موسـكو. ووجدت أن كوسـيجين رئيـس الوزراء فى انتظارى. والأصـول أن يكون برجنيف هو الـذى فى انتظارى. فهو الرجل الأول فـى بلده، كما أننى الرجل الأول فى بلدى. هنا أحسسـت بضيق شـديد. فحاستى السادسـة لم تكذب هذه المرة. وهذه هى البداية. فرئيس الوزراء الرجل الثانى جاء لاستقبالى. وتلاشت حاستى السادسة مع الأحضـان والقبلات والتحيات والانحناءات. وتغطيت ببالطو كثيف ورثته مع الأيام والمعاناة اسمــه: الصبر والمزيد مـن الصبر.. لم يكن يهمنى طبعا أن يجـىء بودجورنى رئيس الدولة لاستقبالى. لأنه الرجل الثالث عندهم. وأنا لا أحب أن أراه. صحيح أن مجىء كوسيجين أهون من مجىء بودجورنى. ولكن مجىء كوسيجين لا يليق..

واتجهنا إلى الكرملـين.. وسمعت اعتذارا عن عدم مجىء برجنيف وكلمات حلوة كثيرة. كل ذلك لا يهم، لأنه لا قيمة له. فأنا لم أذهب إلى موسـكو لأشـترك فى مهرجان للشـعراء والأدباء وليسمعونى أجمل العبارات والتحيات. فأنا أعرف لماذا أنا جئت، وهم أيضا يعرفون. والله وحده يعلم ما أحببت قط أن أجىء إلى هذه المدينة، ولا أن أرى ما رأيت وأسمع ما كرهت أن أسمع.

وفى الكرملين جلسنا حول المائدة. وكل الذى يهمنى هو أن يكون برجنيف موجودا. وكان هناك. وكوسيجين وجريتشـكو وذلك الرجل الكريه بوناماريبف المسئول عن نشاط الأحزاب الشـيوعية فى العالم وفى العالم العربى، وهو الذى اسـتطاع أن يخرب لهم الشـرق الأوسط، بغباوتــه واعتماده على المعلومات التافهة، وعلى أشـخاص أكثر تفاهة فى تقدير الموقف فى الشـرق الأوسـط.. كان هذا الرجل موجودا أيضا.. ولكنهم جميعا ظلال فى الصورة.. أو ظلال للتمثـال الحقيقى وهو برجنيف. فأنا أسـتريح إلى هذا الرجل لأنه رجل له عقلية سياسـية متفهمة وقادرة على الحكم وعلى القرار. وما دام هو موجودا. فكل شىء يهون.. أو كل واحد من هؤلاء يهون فى عينى فلا يصبح شيئا. لأنه هو الرجل وهو الذى أقصده بالزيارة والحوار والقرار وهذا السؤال:

– يا أخ برجنيف.

- نعم.

- أريـد أن أسـأل وأن أبدا بالكلام معك.. فقد تكلمت مع نفسـى كثـيرا فى الطريق بين القاهرة وموسكو.. وأريد أن أسمعك ما دار فى نفسى.

- على استعداد أن أسمع كل ما تقول. تفضل سيادتك..

- سـؤال بسـيط جدا.. هل كان من الممكن أن يجىء نيكسون إلى موسكو فى ٢٠ مايو القادم لولا ما حدث فى فيتنام فى الشهور الثلاثة الأخيرة؟

- أريد أن توضح لى ما تقول..

- هذا بالضبط ما أريد - هل كان من الممكن أن يجىء الأمريكان إلى هنا، لولا الهزيمة العنيفة التى أصيبوا بها فى فيتنام بسـبب السلاح السـوفيتى المتطور الذى يستخدمه الفيتناميون؟.. هـل كان هذا من الممكن لولا الهزيمة الحقيقية التى أصابـت أمريكا فى فيتنام، والتى هزت صورتهـا فى العالم كله؟. هل كان من الممكن أن يحدث أى تحرك سياسـى بغير هذا التحرك العسكرى العنيف؟..

- الآن فهمت.

- هل توافقنى على ما أقول؟..

- نعم أوافقك على هذا التحليل..

- يعنى من رأيك أن التحرك السياسى جاء نتيجة للتحرك العسكرى؟..

- نعم.

- ألا ترى أن هناك تشـابها بل تطابقا مؤكدا بين الذى حدث فى فيتنام وبين الذى أريده أن يحدث فى الشرق الأوسط؟..

- نعم أرى ذلك.

- إذن أنت ترى أننا فى مصر لا يمكن أن نتحرك سياسيا دون تحرك عسكرى؟..

- أنا أقرك على ذلك تماما.

- ألا تلاحظ أن هذا بالضبط ما أطلبه وما طلبته. وما وعدتنى به أكثر من مرة؟ فالذى حدث فى فيتنام صورة صارخة هائلة لما يجب أن يحدث عندنا.

- أوافقك تماما على ما تقول، وأرى أن تحليلك للموقف يتفق تماما مع تحليلى أنا أيضا.

- يعنى اتفقنا.

- نعم. نحن متفقون فى ذلك.

- ألا ترى أن الذى حدث فى فيتنام هو شىء عجيب: لا أنتم أكملتم هزيمة الأمريكان، ولا الأمريكان أكملوا الانتصار عليكم؟..

- تمام..

- إذن هذا التحرك.. هذه الصدمة العسكرية هى التى أدت إلى هذا التنشيط السياسى.. إلى هذا الوفاق.. أو محاولة الوفاق.. أو وضع الأيدى فى الأيدى.. تمهيدا لوضع السلاح..

- أوافقك تماما..

لقد قال إنه يوافقنى تماما.. واسترحت نفسيا. وكان جبلا على صدرى قد تحول إلى هباء بعيدا عنى.. وأحسست أننى قد استرجعت قلبى.. وتراجعت فى مقعدى وأرحت ظهرى ومددت ساقى تحت المائدة.. أو تخيلت أننى فعلت ذلك كله، فاسترحت.. فقد أردت أن يفهمنى الرجل. وقد فهمنى. وقد أقرنى على كل ما قلت لنفسى. ولما أطلعته على دخيلة نفسى، أعلن أمام الجميع أن تحليلى للأمور سليم. واكتفيت بهذه الجرعة السياسية من الرجل الأول فى روسيا. ورأيت فى ذلك بداية طيبة. ولكن حاستى السادسة عادت إلى الظهور. وتضايقت لذلك. فقد تمنيت أن تخوننى هذه الحاسة هذه المرة، أو تتخلى عنى فى الكرملين.. وتعاودنى فى الطائرة أو حتى فى القاهرة. ولكن هذا ما حدث. فقد أخذت أتطلع إلى الوجوه من جديد. واتطلع إلى برجنيف بالذات. فهو الرجل الذى قصدته. والذى يعنينى قبل كل شىء وقبل كل واحد فى هذه البلاد.

ثم عدت أقول له كمن يريد أن يطمئن آخر مرة، كأننى لا أصدق ما سمعت:

- هل صدقتنى الآن؟..

قال: تماما.

- ألم أقل لك هذا فى الزيارات السابقة؟..

- أنت قلت ذلك.

- هل اتفقنا الآن؟..

- نعم..

وانتهزت هذا الاتفاق الذى سادنا جميعا، لكى أستأنف الكلام من جديد. وكما يقول المثل عندنا: زيارة وتجارة.. فقلت له:

– يا أخ برجنيف. ما الذى تتوقعه من زيارة نيكسون لكم فى ٢٠ مايو القادم؟..

قال: لا نتوقع أى شىء.

قلت: كيف؟..

قال: أنت تعلم أن سنة ١٩٧٢ هذه هى سنة الانتخابات الأمريكية.. وهى سنة من الصعب فيها على الرئيس الأمريكى أن يتخذ قرارا حاسما.. لأنه يخطب ود الشعب كله.. ولا يريد إلا أن يفوز بأصوات الجميع.. وسوف يحرص على أصوات اليهود.. ومعنى ذلك أنه لن يتورط فى قرار فى الشرق الأوسط. فيغضب اليهود وأنت تعرف وزن اليهود فى أمريكا.. وإذا لم يكن موقفه سيئا، فسوف يكون أسوأ.. ومعنى ذلك أننا سوف نلتقى برئيس أمريكى فى وضع سيىء.. أو بعد قليل سيكون فى أسوأ حالاته..

قلت: وأنا أوافقك على هذا التحليل أيضا. أوافقك تماما.

– هل أنت متفق معى فى هذا؟

– نعم. أنت وافقتنى فى تحليلى للموقف فى فيتنام. وأنا أوافقك على تحليلك للموقف فى أمريكا. إذن نحن متفقان.

– نعم تماما.

– كم نسبة الاتفاق فيما بيننا؟..

– مائة فى المائة.

– يعنى أنت وافقتنى على أنه بدون الهجوم الكبير الذى شنه الفيتناميون بالأسلحة السوفيتية على الأمريكان ما جاء الرئيس نيكسون إلى هنا؟..

– هذا صحيح.

– وبدون هذا الهجوم العنيف ما أعادت أمريكا مندوبها فى مؤتمر باريس لبحث الموقف فى فيتنام، بعد أن قاطعت هذا المؤتمر؟..

– تمام.

– عال. ما دمنا قد اتفقنا على تحليلنا للموقف فى فيتنام وللموقف فى الانتخابات الأمريكية. وأن هذه الزيارة لن تكون لها أية جدوى لأن الرئيس الأمريكى مشلول. إذن ما رأيك؟

– فى ماذا؟..

– هل نقف عند هذا الحد؟..

– ما الذى تقصده؟..

– ألا ترى أنه لا داعى لإضاعة الوقت وعلينا أن نسارع بعمل شىء؟..

– مثل ماذا؟

– هذا هو السؤال.

– ماذا تريد؟

– أنت تعرف ماذا أريد..

– تفضل واعرض ما تريد فورا.

– أريد الآتى.. أريد نفس الأشـياء التى طلبتها فى الزيارات الثلاث السـابقة. أطالب بما طالبت به من قبل.

– اطلب بالتحديد..

– بالتحديد أطلب سبعة أشياء..

ثم تلوت المطالب السبعة الواحد وراء الآخر..

ثم قلت له حتى لا نضيع الوقت. أرجو أن أجاب إلى هذه المطالب. فزيارة نيكسـون سوف تنتهـى يوم ٢٥ مايو.. وأمامنا من هذا التاريخ حتى يوم الانتخابات الأمريكية فى ٧ نوفمبر القادم متسـع من الوقت لإجابتى إلى هذه المطالـب المعقولة، وخصوصا بعد أن اتفقت وجهات نظرنا على «تقدير الموقف» السياسـى والعسـكرى.. أمامنا إذن خمسـة شـهور كافية جدا.. فإن جاءت الانتخابات الأمريكية بنيكسـون طلبنا إليه أن يوضح موقفه فيضع تسـوية شاملة للموقف، أو نفرض نحن عليه التسوية عن طريق التحرك العسكرى، كما اتفقنا.

– تمام. موافقك. مائة فى المائة.

وقلت فى نفسى: الحمد لله على هذه النتيجة..

وكان فى حسـابى أن أصل إلى مثل هذا الاتفاق مع السـوفيت: فهم يعطوننى الأسـلحة. ويعلنـون ذلك للعـالم كله. أو نحن نعلنه لليهـود.. أو حتى لا داعـى لأن نفعل ذلك لأن كل الأسـلحة التى تجىء إلينا والتى تذهب إلى إسـرائيل، معروفة فى العـالم كله. فلم تعد هناك

أية وسائل لإخفاء شـىء. فالأجهزة الالكترونية الحديثة، وأجهزة التجسس الفضائية وجمع المعلومــات والرصد الجوى والأرضى فى البحر والبر والجو، قد جعلت من المســتحيل على أية دولة أن تخفى شيئا. فالذى عندنا معروف لإسرائيل، والذى عند إسرائيل معروف لدينا تماما. لا توجد أسرار مطلقا. ولكن الأسرار هى: مدى استعداد الإنسان لاستخدام السلاح. ومتى يتخذ قرار المعركة وكيف يديرها ويكملها. فالجانب الإنســانى الشـخصى هـو الذى يمكن أن يكون ســرا. فأسلحتنا فى حرب أكتوبر معروفة. ولكن المجهود الذى بقى سرا محيرا ومعجزة هو: الإنسان.. هو المقاتل.. هو الخطة.. هو القرار والاستمرار..

وبشــهادة خبراء العالم كله اســتحقت قواتنــا عظيم الاحترام والتقديــر، اليوم ولأجيال بعدنــا.. وكان مــن الحجج التــى قدمتها لبرجنيــف: أنه من الأفضل أن يعــرف الأمريكان واليهود أنكم أعطيتمونا سلاحا.. ولا مانع أن تبالغوا فى كمية السلاح وفى نوعيته.. فقط لكى يعرفــوا أن لدينا قوة مخيفة، وأن وراءنا من يســاند قضيتنا.. وما قضيتنا إلا حرصنا على أن نحرك الموقف السياسى عسكريا.

.. وكل هــذه بدهيات يعرفها برجنيف، أو مــن هو أصغر من برجنيف ألف مرة.. ولكن هذه هى المحنة التى أمر بها فى كل زيارة. أقول وأقول.. تماما كما يفعل أى إنسان وهو يكرر جدول الضرب مرة بعد مرة.. وعلى الرغم من أن هذا الجدول هو بدهيات حسابية.. لست فى حاجة إلى أن أكررها.. ولا إذا كررتها أن أقولها بحماس.. ولا حتى أن أشعر أننى أقول شيئا جديدا.. ولكن مع السوفيت، يجب أن أقول الشىء الواحد ألف مرة، وأن يسمعوه هم باهتمام شـديد.. دون أن يشعروا بالملل، ولعلهم ينتظرون أن يصيبنى الملل فأزهق، أو تزهق روحى.. قلت وكأننى ما قلت. وسمعوا وكأنهم ما سمعوا..

ولم تستغرق زيارتى ٢٤ ساعة.. وإنما ٢٧ و٢٨ و٢٩ أبريل. أكثر من المدة المقررة.. أو التى كان يريدها الســوفيت. وانا لا أحسبها بالساعة. فالوقت لا يهم. أقصد الوقت الذى أستغرقه فى إقناع السوفيت بموقفى وصداقتى الحقيقية. ولكن العبرة بالنتيجة. والواضح لى الآن أنـهم اقتنعوا: أليس برجنيف هو الذى قال؟ أليس هو الذى أعلن سلامة تحليلى للموقف كله؟ ألم يعلن أنه يوافقنى مائة فى المائة؟

إذن الموقف الآن أمامى هو هكذا: فى الاجتماع السابق أعلن كوسيجين تعهده بالوفاء بكل ما طلبت. وفى هذا الاجتماع أعلن برجنيف اقتناعه التام واســتعداده لإجابتى إلى كل مطالبى

السبعة.ثم إنهم - وهذا إحساسي الذى لا يخيب - يريدون استعراض قوتهم فى المنطقة. وأن زيارتى هذه جزء من هذا الاستعراض. وربما توهموا أننى لا أعلم ذلك. ومن الأفضل أن يتصوروا أننى بهذه السذاجة. ولا مانع عندى أن أؤكد لهم ذلك. ولكن الذى يهمنى هو أن أحصل على السلاح.

وفى الطائرة عائدا إلى القاهرة عاودتنى كل أفكارى وتكاثرت على رأسى. ولم أنس ما جرى فى سنة الحسم. فهذا شىء لا أنساه. وكيف؟ ثم هذه الوعود وهذه العهود وهذه الوجوه. وأخفيت رأسى بين يدى وتذكرت دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام يوم خرج من الطائف: اللهم إليك أشكو ضعف قوتى. وقلة حيلتى. وهوانى على الناس.. وهوانى على الناس.. وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين!

وصالحت نفسى على نفسى وقلت: كل شىء يهون من أجل مصر. وقد هان الكثير.

وأنا أتمسك طول الوقت بعبارة واحدة ومعنى واحد، هو الذى طالعت به الشعب يوم أول مايو بعد ذلك: أنه لا فائدة من العمل من أجل السلام إلا إذا كان السلام له سلاح يدافع به عن نفسه، ويفرض به كرامة الحق وشرف المبدأ. وإذا ظللنا نتكلم عن السلام مائة سنة من الآن، فلا سلام.. إلا إذا كان هناك استعداد للمعركة، فى هذه اللحظة سوف يكون هناك كلام آخر ومنطق آخر..

وقلت فى خطابى فى عيد العمال أيضا: إن اهتمامنا بالدعم السوفيتى لا يعنى أن نقلل من قيمة الاعتماد على النفس. نحن الذين سنحارب وليس الاتحاد السوفيتى، ونحن الذين سنقاتل، ولن نترك لغيرنا أن يقاتل بدلا منا. نحن الذين سندفع الثمن لآمالنا. لأنها آمالنا نحن. وإنما قيمة المساعدات التى نحصل عليها من أصدقائنا أنها تختصر الوقت والجهد.

وقلت أيضا: من نحن؟ نحن قوى العمل والخير والتقدم والمحبة والسلام. أين نحن؟ نحن فى وسط النضال من أجل الخير والتقدم والمحبة والسلام.. وإن ما نمثله مكتوب له النصر بإذن الله، وما نحاربه مكتوب عليه الهزيمة بإذن الله.!

وفجأة - وكل تحركات السوفيت تكون مفاجئة - جاءنى خبر يقول إن وزير الدفاع السوفيتى جريتشكو سوف يصل إلى القاهرة يوم ١٤ مايو خير إن شاء الله. وجاء جريتشكو ومعه قائد الطيران كوتاخوف. ولابد أن يكون هناك شىء خطير. وعرفت أنهم يريدون أن يقوموا باستعراض جوى فى مطار غرب القاهرة.

ما الذى فى مطار غرب القاهرة؟ هناك أربع طائرات ميج ٢٥.. من ذلك الطراز الذى هرب به أحد الطيارين السوفيت ونزل فى اليابان. وتكاثر الخبراء الأمريكان على الطائرة وفكوها قطعة قطعة وعرفوا سرها تماما. هذه الطائرات هى أحدث ما عند السوفيت وهى تنطلق بسرعة تفوق سرعة الصوت ثلاث مرات وعلى ارتفاع ٣٠ كيلو مترا.. والروس يملكون هذه الطائرات. ويضعونها فى غرب القاهرة. وهى محرمة على أى مصرى.

وقالوا لنا: إنها ممنوعة على أى مصرى.

قلت: موافقون.

قالوا: لا يقترب منها أحد!

قلت: موافقون.

قالوا: السوفيت فقط.

قلت: موافقون..

قالوا: لا مانع أن تروها بالعين.

قلت: موافقون. وحتى إذا أردتم ألا يراها أحد.. فلا مانع..

قالوا: من الممكن أن تروها..

وظلت هذه الطائرات فى مكانها على أرضنا ومحرمة علينا. وجاء جريتشكو هذا الصديق العزيز الله يرحمه وقال لى:

- ما رأيك؟

قلت: موافق على ما تريدون.

قال: أن نقوم باستعراض لهذه الطائرات.

قلت: لا مانع أبدا..

طبعا أنا رأيت هذه الطائرات. إنها متطورة جدا. وفتحات الموتورات مربعة. وقد سبق بها السوفيت تصميم طائرة الكونكورد التى اخترعها الإنجليز والفرنسيون. هذه الطائرة ستظل جديدة حتى سنة ١٩٩٠. وليس فى إمكان أية طائرة أخرى أن تلحق بها ولا أى صاروخ! ولما أطلقها السوفيت من مطار غرب القاهرة فوق إسرائيل طاردتها الفانتوم. ولكن ما الذى تستطيعه الفانتوم.. إن الفانتوم كانت مثل عربة كارو وتطارد سيارة كاديلاك.

أرجع وأقول مرة أخرى: إنهم اشترطوا كل هذ الشروط لكى تبقى هذه الطائرات فى مطار غرب القاهرة: فى أيدى السوفيت وللسوفيت ومحرمة تحريما قاطعا على المصريين.. إلا مجرد النظر من بعيد لبعيد. وأحنيت رأسى ووافقت. وقلت لنفسى: يمكن!

أى يمكن استخدامها فى الاستطلاع وجمع المعلومات من إسرائيل. يمكن. وأنا أعلم أن السوفيت يستخدمونها فى التجسس على الأسطول السادس فى البحر الأبيض المتوسط. أعلم ذلك يقينا. ولكنى غلبت الأمل على اليأس، ووضعت مصر فوق كرامتى. ووافقت.

وذهبت إلى المطار، وأتى السوفيت بطائرة مقاتلة اسمها سوخوى ١٧.. من مزايا هذه الطائرة أن تنشر جناحيها وان تطويهما. فإذا انطوى الجناحان تحولت الطائرة إلى صاروخ.. إلى قذيفة.. وأصبحت مقاومة الهواء لها أقل، وفى نفس الوقت أصبحت المساحة المعرضة منها للإصابة أقل أيضا..وكل ذلك من أجل أن تكون أسرع.. ولكن عيب عملية فتح جناحيها وطيهما، أن هذه العملية تتم يدويا.. وهذا عيب خطير، فهو يحتاج إلى بعض الوقت. وفى معارك الطيران وبهذه السرعة، ومع استخدام الأجهزة الإلكترونية التى توجه الطائرات وقذائفها، يجب أن تكون هذه العملية سريعة جدا وتتم فى ثانية أو أقل.. لأن ثانية واحدة تكفى لتحطيم أية طائرة.. ولكن الأمريكان اخترعوا طائرات تنشر جناحيها وتطويهما باستخدام العقل الألكترونى. وهذا أسرع وأسلم وأكثر تطورا.

وطارت الطائرات وارتفعت واختفت بسرعة. وكان السوفيت فى غاية السعادة. وأنا أقول لنفسى: ربما يجىء الوقت الذى يتدرب فيه أولادنا على هذه الطائرات.. ربما تصبح هذه الطائرات لنا.. ربنا كريم..

وانتهى الاستعراض للطائرات السوفيتية. ومن المؤكد أنه جزء من الاستعراض المطلوب قبل زيارة نيكسون لموسكو. فأخبار هذا الاستعراض قد ملأت الدنيا. والطائرات السوفيتية قد رصدها اليهود وحاولوا مطاردتها. ورصدها الأسطول السادس وعرف نوعيتها وقدرتها. كل شىء معروف. وكل شىء بحساب. وجزء من الاستعراض الكبير. وأين؟ فى مصر. وبموافقة من؟ بموافقتى! ولماذا؟ للسبب الذى قلته مرارا: محاولة للتأثير على الرئيس نيكسون وإقناعه بأن السوفيت هنا فى مصر: فى قلب العالم العربى والشرق الأوسط وأفريقيا.

ومن المؤكد أن هذه المعلومات والمفهومات قد بلغت الأمريكان واليهود. وهى موضع بحثهم وتقديرهم. لاشك فى ذلك. إذن لقد وصل السوفيت إلى الهدف الذى يريدون. وأنا موافق على ذلك تماما. وفى انتظار ما وعدونى به.

وفجـأة - مرة أخرى - وجدت الوزير جريتشـكو يقترب منى ويقـول: بيان من اللجنة المركزية.

سألته: معك بيان من اللجنة المركزية؟..

قال: نعم.

سألته: بخصوص ماذا؟

قال: إنهم يريدون أن يصالحوك.

قلت: لا مانع.

قال: ومكتوب باللغة الروسية.

قلت: يذاع دون ترجمة وفورا.

واندهش جريتشكو. أو لكى أكون دقيقا أقول: إنه أصيب بذهول.

وسألنى: ألا تريد أن تعرف ما به؟..

قلـت: لا أريد. مـا دامت القيادة السـوفيتية ترى أنه بيان بقصـد مصالحتى. فهو بيان لمصلحتى لا شك. ولذلك يذاع فورا.

قال: أريد أن أفهم منك أكثر..

قلـت: أنا أعرف وأنت تعـرف. أنكم فى حاجة إلى تدعيم موقفكـم فى مصر قبل زيارة نيكسـون. أنتم فـى حاجة أن تؤكـدوا لنيكسـون أن الأرض تحت أقدامكـم قوية فى مصر وفـى أرض مصـر وفى سماء مصـر.. وأنكم قادرون علـى التحليق فى سماء إسـرائيل وفوق الأسطول السادس.. وأنكم سادة هذه المنطقة.. كما أنكم سادة فى فيتنام.. كل ذلك أعرفه أنا، وتعرفه أنت..

وسكت الرجل ولم ينطق بكلمة واحدة. ثم قلت له: لا داعى للترجمة. لقد أمرت بإذاعته باللغة الروسية.. وأكثر من ذلك..

وسألنى: ما هو الذى أكثر من ذلك؟

وتلفت إلى حسـنى مبارك، وكان وقتها قائدا للطيران وقلت له: يا حسـنى.. لقد قررت منح جريتشـكو وكوتاخوف وكل الضباط السـوفيت نياشين.. فاتصل بالقائد العام وأبلغه هذا القرار! وكان هدفى من وراء هذا كله أن أسـاهم فى أن يبدو السـوفيت أقوياء أمام الأمريكان. يهمنى ذلك. فهم قد وعدوا بإجابة المطالب السبعة. وعدنى برجنيف واكد لى ذلك وسط جو من

التفاهم والاتفاق التام. وازدادت دهشة جريتشكو ورفاقه.. وأذيع البيان بالروسية وبالعربية وباللغات الأوروبية الأخرى.. وأقولها للتاريخ: إنه جاء فى هذا البيان أن الاتحاد السوفيتى قد زود مصر بقاذفات طويلة المدى وأسرع من الصوت..

وفجأة وبعد زيارة جريتشكو جاءتنى رسالة من الرئيس حافظ الأسد يقول لى: وأين هذه القاذفات التى جاءت فى البيان السوفيتى؟.. وكان ردى على الرئيس حافظ الأسد: لا قاذفات ولا أى شىء. إنها مسائل دعائية قبل زيارة الرئيس نيكسون!

وجاءنى رد من الرئيس الأسد يقول لى فيه: إن الضباط عندنا يسألون: ولماذا لا نحصل على مثل هذه الطائرات التى حصلت عليها مصر.؟ فأرجوك ألا تعود إلى هذه المسايرة فى الدعاية! ورددت على الرئيس الأسد مرة أخرى قائلا: لقد ساهمت فى هذه الحملة الدعائية. فهم فى حاجة إليها، ونحن فى حاجة إليهم.. ثم إنهم أصدقاء..

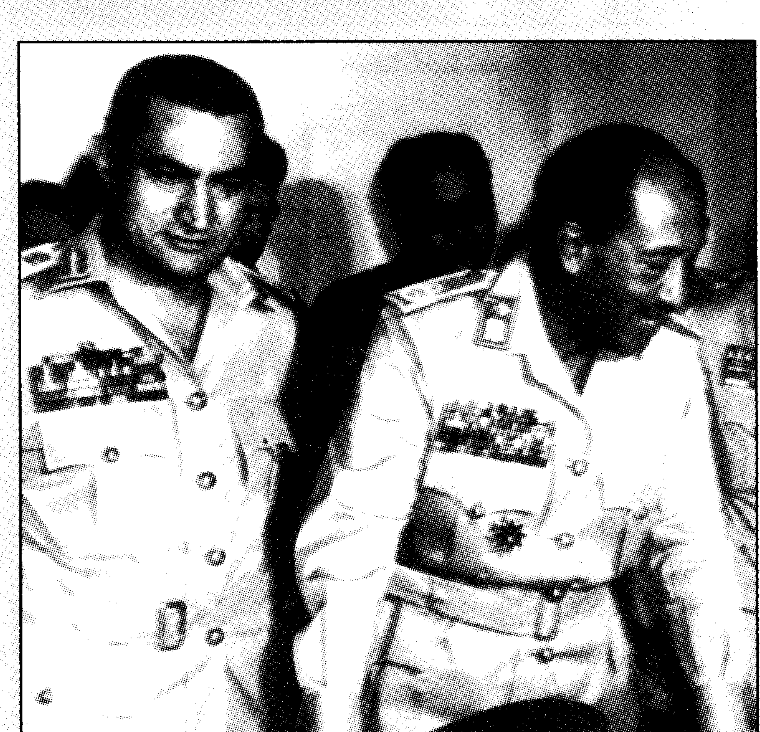
وسافر جريتشكو والوفد العسكرى المرافق له.. وبدأت موسكو تستعد لاستقبال الرئيس نيكسون، ليتفرج العالم كله على الاستعراض الكبير الذى اسمه: الوفاق بين الدولتين العظميين!

❑❑❑

١ - السادات في إحدى الطائرات العسكرية .



٢ - السادات مع رجال القوات المسلحة.





٣ - موسى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى مع ضباطه .



٤ - جريتشكو وزير الدفاع السوفيتى .



مفاجأة مذهلة

- الجليد يتساقط على العلاقات المصرية السوفيتية.
- الوفاق المزعـوم صورة من صور التخاذل أو الاسترخاء العسكرى.
- السادات يصدر قراراً بخروج السوفيت من مصر.
- سر إقالة مراد غالب.
- حافـظ الأسـد فـى زيـارة سـرية إلى موسكو.
- مـن أجل مصـر ومـن أجل العـرب أتخذ قراراتى.

انتهت زيارة الرئيس نيكسون لموسكو فى يوم الخميس ٢٥ مايو. وهو لقاء تاريخى. اهتز له العالم كله. ولابد أن السوفيت والأمريكان قد تصارحوا بأشياء كثيرة. واتفقوا. وأملى كبير ألا يكون هذا الاتفاق على فرض التسوية علينا فى الشرق الأوسط.. حتى السيدة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل قد انزعجت هى الأخرى من أن تتفق الدولتان العظميان على فرض التسوية بالقوة.. على الرغم من أن إسرائيل هى المعتدية وهى التى تحتل أرضنا، والعلاقة التى بين أمريكا وإسرائيل مختلفة تماما عن العلاقة التى بيننا وبين السوفيت.. فإسرائيل عميلة لأمريكا وتعيش على أمريكا ابتداء من الرغيف حتى الصاروخ.

وكل ما أتوقعه فى ذلك الوقت أن أتلقى ما اتفقت مع القادة السوفيت عليه.. فأنا أنتظر أن يفوا بمطالبى السبعة التى حددتها. وقد تكهنت بعض الصحف الغربية فى ذلك الوقت أن مطالبى السبعة هى أنواع متطورة من الأسلحة.. وليست هذه التكهنات بعيدة عن الحقيقة.

وإن كنت أعترف بأننى لم أطلب المساواة بإسرائيل. أتمنى طبعا أن يكون نصيبى من الأسلحة السوفيتية يعادل ما تتلقاه إسرائيل بغير حساب. ولكنى كنت معقولا جدا فى مطالبى فأنا أرضى أن أقف وراء إسرائيل بدرجتين، لا بعشرين درجة.. كما ذكرت من قبل.

ثم صدر «البيان الوفاقى» الأول.. وفى هذا البيان أن الدولتين العظميين تتعهدان ببذل كل الجهود المستطاعة من أجل تسوية سلمية فى الشرق الأوسط.. وألا تنفرد إحداهما بإحراز أية مكاسب على حساب الأخرى.. وأن تبذلا كل الجهود ضد تصعيد الموقف حتى لا يزداد التوتر الدولى وتكون مواجهة بين الدولتين..

وجاء فى هذا البيان «الوفاقى» أن الدولتين تؤيدان قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

وليس فى هذا البيان شىء جديد. ولكن الذى يهمنى فى المقام الأول أن أتلقى من موسكو كل ما اتفقنا عليه.

وأول مـا أتلقاه عادة أن يجيء بيان أو معلومات أو أخبار عن قيام السـفن السـوفيتية من البحر الأسـود إلى الإسكندرية. لكى نستعد لاستقبالها فى ميناء الأسكندرية ليلا وحتى ذلك اليوم كنت، وبمنتهى حسـن النية، أؤمن بأنهم سـوف يفعلون. فليست مطالبى مبالغا فيها وهـذا واضح فى كل اجتماعاتى بهم. مضى شـهر مايو كله. وفات الأسـبوع الأول من يونيو. وقلت للسـفير السـوفيتى فينوجرادوف: أنت كنت معى فى موسـكو. فأيـن الذى تعهد به القادة السوفيت؟ .

قال: أنا أذكر ذلك التعهد بوضوح.

قلت: اتصل بموسكو فورا..

وفى السفارة السوفيتية فى القاهرة خط مباشر مع موسكو. وفى استطاعة السفير أن يرفع السماعة ويتحدث مباشرة مع برجنيف. وأن ينقل إليه كل ما قلته له. وما قلته ليس أكثر من أنـى أذكرهم بوعودهم. وأن الوقت يجرى ضدنا. وأن الشـهور الباقية حتى انتخاب الرئيس الأمريكى الجديد يوم ٧ نوفمبر كافية لإرسال ما اتفقنا عليه. وإن كنت أرى أن الوقت يضيق. وأن الوضع يزداد صعوبة. وأن الناس فى مصر قد ضاقت بموقف السوفيت. وأننى شخصيا قد ازددت ضيقـا. وبدأت الدماء تغلى فـى عروقى. وليس هذا تعبيرا مجازيا. ولكنه قريب جدا من الحقيقة. على الرغم من حرصى الشديد على أن أبدو غير ذلك..

وفى الأسبوع الثانى من يونيو طلب السفير السوفيتى مقابلتى.

قلت لنفسى: فرجت. انحلت. وكنت أظنها لن تفرج أو لن يكون لها حل قريب.

ولم أفاجأ بأى شيء مما قاله السفير السوفيتى. كل شيء كما توقعت. السفير يحمل رسالة من برجنيف هى نسخة أخرى من البيان «الوفاقى» الذى صدر بعد نهاية زيارة موسكو. مع إضافة واحدة.. وهى أن برجنيف بذل جهدا كبيرا فى إقناع نيكسون بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

شيء عجيب. ومن طلب إليه ذلك؟ وهل نحن فى حاجة إلى أن يقتنع نيكسون بذلك؟

فقط.. أن برجنيف قد بذل «جهدا كبيرا» فى إقناع الرئيس الأمريكى. أما بقية الرسـالة السـوفيتية فهى كلام ضخـم فخم تافه من أوله لآخره.. وهو لا يختلـف كثيرا عن البيانات الرسمية للدول الشـيوعية . فهذه البيانات تمتلـيء بعبارات لها رنين وطنين وبها تراكيب غريبة عجيبة. والمعنى: لا شيء ينفع أو يشفع.. ينفع قضيتنا أو يشفع لهم عندنا.

وبعد أن فرغ السفير فينوجرادوف من رسالته.. قلت وأنا أغلى حقا: شكرا على الرسالة. وفعلا جاءت موافقة تماما لما توقعناه قبل ذلك من أنه لا شـيء جديد فى العلاقات الأمريكية

السوفيتية. وأن أمريكا فى سنة الانتخابات لن تستطيع شيئا.. كل هذا توقعته. وحدث كما توقعته. ولكن أين ما اتفقنا عليه؟

قال السفير: هذا ما سوف أفعله مباشرة.

قلت: حتى الآن لم يصلنى خبر واحد عن تحرك سفن الشحن السوفيتية.. هل جفت مياه البحرين الأسود والأبيض؟! ..

ولم ينطق السفير بكلمة.

قلت له: الآن.. اذهب فورا وانقل كل كلمة قلتها لك للقادة السوفيت. كل كلمة.

وذهب السفير ومعه ذهب شهر يونيو كله..

وأقبل اليوم الأول من يوليو.. ولا أعرف كيف أصف هذه التغيرات النفسية العنيفة التى طرأت على أعماقى. إن الأيام قد علمتنى ألا أتخذ قرارا فى حالة الغضب. وأنا فى قمة الغضب أخشى أن أتخذ قرارا. فأنا لا أحب أن يكون رأسى ساخنا. ولا أحب وأنا فى هذه الحالة أن أقرر شيئا آسف عليه أو أجدنى مضطرا إلى الرجوع فيه. وأنا أؤمن بأن الوقت يجب أن يكون فى خدمتنا، وليس سيفا على رقابنا.

ومع الساعات الأولى من شهر يوليو، أستطيع أن أقول بمنتهى الوضوح الآن: إن بذور قرار ٨ يوليو قد سقطت من يدى على الأرض الممتدة بيننا وبين السوفيت.. إنها بذور.. ولا أعرف ما اسم هذا النبات الذى أنبتته هذه البذور.. أى نوع من الأشجار الشائكة بيننا وبين السوفيت.. هل هى بذور أو هل هى قطع من الجليد تساقطت بكثرة فائقة؟!..

إن شيئا سقط من أيدينا على أرض الصداقة المصرية السوفيتية، وبسرعة تحول إلى نبات غريب.. شائك.. أبيض.. هل هو نبات؟ .. هل هو جبال من الجليد؟! ..

ولكن من المؤكد أنه مع بداية يوليو بدأ الجليد يتساقط كثيفا عنيفا بين مصر وروسيا. ما فى ذلك شك. هل كان من الصعب أن أستعرض الأحداث كلها؟

ليس صحيحا المثل الذى يقول: ما فات مات.. فالذى فات لم يمت. وإن كنت حرصت كثيرا على أن أميت فى نفسى الكثير مما قاله وفعله الروس. ولكنهم هم حريصون على إحياء كل الذى ضايقنى وأهان مصر وأحرجها، وأهان قواتها المسلحة.

وإلا فما معنى أن أبنى استراتيجيتى العسكرية السياسية على وعود وعهود، ثم إن شيئا من هذه العهود والوعود لا يتحقق؟ .. ما معنى أن أبنى القصور السياسية والقلاع العسكرية على

رمال متحركة؟ ما معنى أن أستضىء بالسراب؟ ما معنى أن أصرخ فى مواجهتهم صادقا، وأن أواجه الشعب بوجه آخر.. يعلم الله ما الذى كان يخفيه هذا الوجه من المرارة والعذاب؟!

لو كان الذى وعدنى زعيماً واحدا ثم أخلف وعده لقلت إنه واحد من ثلاثة أو من أربعة.. ولكنهم جميعا - كل القادة السوفيت حتى برجنيف رجلهم الأول - اتفقوا جميعا على إحراجى وإرهاقى!.

ما الذى أستطيع أن أفعله؟

السؤال سهل. ولكن الإجابة صعبة. وفى رأسى أشياء كثيرة. وعلى مسامعى تتردد أصوات وأصداء واجتهادات. وأمام عينى: الشعب وغضبه والقوات المسلحة وصبرها الطويل على مضض.. وما أسمعه كل يوم عن استخفاف الخبراء السوفيت برجالنا، واستهانتهم بقدرتنا.. لقد سمعت ذلك بأذنى فى أحد اجتماعات الكرملين. فما الذى لا يقوله رجالهم لرجالنا.. إن لديهم تعليمات صريحة بذلك. فليس بينهم واحد يقدر على أن يفعل شيئا مهما كان صغيرا دون تفويض بذلك. إذن هو موقف عام. وسياسة يتبعونها مع مصر من أعلى مستوى حتى أصغر جندى.

كل الذى دار فى رأسى أن أصدم الروس فى رءوسهم.

كيف؟

إن الروس فى حاجة إلى صدمة كهربية. إلى شىء يصدمهم ويكهربهم لعلهم يفيقون. ولكن أين؟ .. ومتى؟ .. وكيف؟ .

ووصلت إلى قرار أقنعنى. وأريد أن أناقشه بالفعل مع أحد أو لعلى بهذه المناقشة أعطى لنفسى فرصة للتريث. وأقوم بتبريد رأسى الساخن، تفادياً لخطأ قد أقع فيه.

واتجهت فى يوم ٧ يوليو إلى بيت د. محمود فوزى على ترعة المنصورية. وهو رجل عاقل حصيف. علمته الحياة فى الشرق الأقصى أن يكون هادئ النفس صافى العقل. ذهبت إليه. وعرضت عليه ما فى نفسى بكل صدق. وكان أول إنسان أطلعته على قرارى. وأقرنى عليه. وفى الطريق من بيت د. فوزى إلى القناطر الخيرية تزاحمت الصور على رأسى. فأنا أعرف بالضبط كل ما حدث. وأعرف تماما ما سوف يحدث. ولو عرف الشعب حقيقة ما حدث لى ولمصر، لأقرنى الناس جميعا على ذلك. وأنا أعرف كل نبضات الشعب. وأعرف ما يدور فى رءوس وقلوب قواتنا المسلحة.. هذه الصور قد أوصلتنى إلى اقتناع واحد: أن الذى سوف أعمله هو الصواب. وليس أمامى إلا هذا القرار.

فى نفس هذا اليوم جاءنى من السفير السوفيتى أن لديه رسالة عاجلة. وأنه يريد أن ينقلها إلىّ.. ولم أتفاءل. فما الذى يمكن أن يقوله السوفيت بعد بيان «الوفاق» الذى تحدث فيه السوفيت والأمريكان عن شىء جديد اسمه «الاسترخاء العسكرى» .. أو التخاذل العسكرى.. أو اللامبالاة بكل ما قلت وما طلبت؟ . من الذى يسترخىعسكريا فى المنطقة؟ هل تسترخى قواتنا وأرضنا محتلة؟ هل تسترخى أفكارنا وقد أقمنا استراتيجيتنا على الوعود السوفيتية. على أرفع المستويات؟ ما الذى يمكن أن تضيفه الرسالة العاجلة بعد أن وضح كل شىء فى موقف السوفيت والأمريكان؟ وحددت للسفير السوفيتى لقاء فى قصر الطاهرة فى الساعة الثامنة من مساء السبت ٨ يوليو. واتصل بى الرئيس حافظ الأسد من موسكو يقول إنه فى زيارة سرية. وإنه لم يشأ أن يعلن عنها. ولكنه سوف يجىء إلى زيارتى يوم الأحد ٩ يوليو.. ولكن القرار الذى اتخذته قد وضحت معالمه تماما ولم يبق إلا أن أعلن ذلك..

جاء السفير السوفيتى فينوجرادوف ومعه المترجم. وكان معى حافظ إسماعيل وقلت له: يا حافظ.. اكتب كل كلمة. فقد أردت أن أسجل فى هذا اليوم كل شىء. فذلك يوم تاريخى.

وجاء السفير السوفيتى. وتقدم بالبيان وأخذ المترجم يقرأ النص العربى. وأسندت رأسى إلى يدى. ثم وضعت يدى على خدى. وانتظرت.. وتوالت العبارات ومعها الصور. والرسالة تتحدث صفحة وراء صفحة عن كل ما جاء فى الرسالة السابقة من جهود روسيا فى إقناع الأمريكان بأهمية القرار ٢٤٢.. لا جديد.. والكلام يدخل ويخرج من أذنى. دون أن يترك أثرا، إلا المزيد من الغيظ. أما عن المعركة والحرب فالرسالة تقول: إن لهم تجارب طويلة مريرة فى القتال. وإننا لا نعرف معنى الحرب ولا معنى أن نشن حربا جديدة.. إن الموقف أخطر وأفظع مما نتصوره فى مصر..

وتذكرت نغمة كانت سارية فى الصحف الشيوعية فى ذلك الوقت.. أن السوفيت لا يريدون الحرب خوفا على الأنظمة التقدمية فى المنطقة. وخوفا من أن تؤدى هذه الحرب إلى «غليان قومى» أى قيام النزعات القومية وتماسك الشعوب العربية. وارتفاع المد الوطنى والقومى فى مصر وفى غيرها. يعنى أنهم لا يريدون الحرب، لأن الحرب سوف تمزق النشاط الشيوعى فى المنطقة.

هذه النغمة أعرفها، ولكنها لا تهزنى أيضا. وإنما الذى هزنى هو ما حدث بعد نهاية زيارة نيكسون والرسائل التافهة التى تتوالى من الكرملين. وبمنتهى الهدوء الظاهرى، والانفجار البركانى فى أعماقى قلت للسفير السوفيتى: هل انتهت الرسالة؟ ..

قال: نعم

قلت: وكل ما فيها هو هذه السطور الخمسة الأخيرة عن الحرب وعجز مصر عن دخولها.. وقصورها عن فهم أبعادها؟ ..

ولم يرد الرجل..

طلبت إلى حافظ إسماعيل أن يكتب كل كلمة أقولها وتلفتُ إلى المترجم السوفيتى فى نفس الوقت قائلا: أحب أن أقول للإخوة السوفيت إن هذه الرسالة مرفوضة شكلاً ومضموناً. ولا أقبل ولن أقبل، مثل هذا الأسلوب فى مخاطبتى ومخاطبة الشعب المصرى من ورائى.

ثم أمليت تاريخ العلاقات المصرية السوفيتية من أوله إلى آخره. وقلت كل ما فى نفسى. والذى لم أفصح عنه حتى الآن. قد أمليته فى ذلك الوقت. فلم يبق فى نفسى شىء لم أبعث به إليهم. أخرجته من أعماقى. رفعته من فوق صدرى. صفيت حسابى. أقفلت دفاترى. ولم أترك حتى الحوار الذى دار بينى وبين برجنيف عن التحليل السياسى والعسكرى للموقف، وعن ضرورة الاستعداد العسكرى لتحريك الموقف السياسى. تماما كما حدث فى فيتنام مما أدى إلى زيارة نيكسون..

واستغرقت ساعة فى إملاء هذه الرسالة. وكان وجه السفير فى لون الشمع. ثم تلفتُ إلى السفير وحافظ إسماعيل قائلا: انتهت الرسالة وهذه هى القرارت.

اكتب: اليوم الأحد ٨ يوليو وغدا الاثنين ٩ يوليو.. يوم الاثنين الذى يليه يخرج الخبراء السوفيت بالكامل من مصر. جميعا. وإذا كانت لكم هنا أسلحة مثل الطائرات الأربع الميج ٢٥.. فخذوها معكم. وإذا كانت هنا محطات إنذار مبكر. فخذوها أيضا. فهى قديمة. ولا قيمة لها. أو نشتريها منكم. وكل ما لكم من أسلحة خذوها. أو نشتريها منكم.

ومحطات الإنذار لا هى محطات ولا هى إنذار مبكر أو متأخر.. إنها قديمة بالية متداعية.. وقد اشترينا محطات أفضل منها من فرنسا. إنهم فى فرنسا يبيعونها فى الدكاكين، وليست سرا عسكريا! ولم أتبين أن وجه السفير قد أصبح فى لون الثلج، وأن حافظ إسماعيل كانت حالته النفسية أسوأ. وإنما مضيت أقول: إنه لابد بعد ذلك أن نلتقى لنبحث معاهدة السلام التى بيننا وبينكم. ولابد أن نعرف مداها وجدواها. وما الذى أفدنا واستفدنا منها؟ ..

وطلبت من حافظ إسماعيل أن يرافق السفير السوفيتى حتى الباب..

انتهى كل شىء.

نزلت إلى حديقة قصر الطاهرة. وكنت قد جمعت عزيز صدقى رئيس الوزراء، وممدوح سالم وزير الداخلية، وأحمد إسماعيل- الله يرحمه - مدير المخابرات يومئذ، ومراد غالب وزير الخارجية. أما عزيز صدقى فقد كان واضحا. أعلن أنه قد آن الأوان لكى تكون علاقتنا بالسوفيت «أبيض وأسود» . وقد كان ذلك تفكيرا سليما لرئيس وزراء مسئول. وطلبت من ممدوح سالم أن يستعد لمواجهة الموقف كله.. أما مراد غالب فقد كان مهتزاً لم يعجبنى. فلأن ثقافته شيوعية. فقد أطاح به الموقف. وإذا بى أجد وزير خارجيتنا تائها ضائعا لا يعرف معنى هذا القرار. ولم يكن هناك معنى لأن يبقى فى موقعه..

لئن كان خروج الخبراء السوفيت، صوتا صارخا، فإن صداه ما يزال يتردد حتى اليوم.. وإن كان طريقا فنحن ما نزال نسير فيه.. وإن كان هوة بيننا، فقد تردى فيها كل شىء.. وإن كان ناراً فلا يزال لها شرار.. وإن كان جليدا فهو الذى يملأ الطرق والجسور التى بين موسكو والقاهرة.

هل كان هذا القرار ضروريا؟ نعم.. كان ضروريا لنا، وكان ضروريا لهم.. فقد كانت هناك قضايا يجب أن يعاد النظر فيها.. فليس من القضايا المسلم بها- أبدا- أن يصدر قرارنا من موسكو.. ولا من المسلم به أيضا أنه لا إرادة لنا.. ولا من المسلم به أن نظل فى حالة لا هى حرب ولا هى سلم..

ولا أحد قال من موقعى هذا إن الروس سوف يحاربون لنا، ويموتون بالنيابة عنا، ويخرجون اليهود من أرضنا.. وكان من الضرورى أن يعرفوا، وأن يتأكد لديهم من الذى يستطيع أن يحرك الموقف؟ .. ومن الذى يستطيع أن يضغط على اليهود؟ .. ومن الذى يستطيع أن يدفعهم إلى الوراء؟ .. وهل يستطيع المقاتل المصرى أن يدفع عدوه وأن يدافع عن أرضه؟ .. وهل هو حقا قد استوعب السلاح الذى فى يديه؟ .. وهل صحيح أن قادتنا قادرون على التفكير والتدبير.. وأنهم ليسوا كما قال الخبراء والوزراء السوفيت لا يصلحون للقتال؟ .. وهل صحيح أن الجندى اليهودى قد ولد لينتصر، وأن الجندى المصرى ولد لينهزم. وانهزم. وسوف ينهزم؟ .. إننى لم أقبل ذلك فى أى وقت ولم يقبله جنودنا فى جميع مواقعهم وعلى كل مستوياتهم..

إن وجود قواتنا على التراب المصرى وتحت وهج الشمس وفى زمهرير الصحراء ليلا وشتاء، وإصرارهم على القتال لأنه مكتوب علينا، ومن أجل مصر ومن أجل كرامة العرب، كل ذلك كان سندى ودليلى عندما اتخذت القرار بإخراج الخبراء السوفيت..

وقرارا آخر تاريخيا هو: العبور..

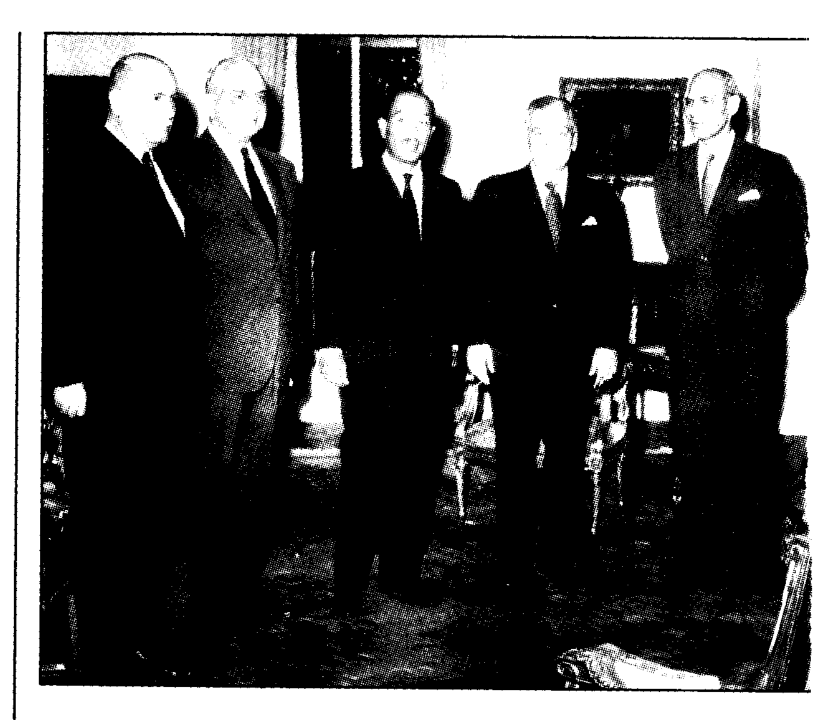
أما كيف كان صدى هذا القرار بعد إعلانه رسمياً فى العالم الشيوعى والصحف العميلة، فكان عنيفاً. لأن أحداً لم يتوقع شيئا من ذلك. فالسوفيت - كما أكدوا للأمريكان - قد وضعوا أقدامهم فى مصر وعلينا أن نضع رءوسنا حيث وضعوا أقدامهم.. وكان عملاؤهم فى مصر يقولون ذلك.. ويكفينى ما رأيته من الهلع والضياع عندما سمع وزير خارجيتنا هذا القرار. لقد كان صورة مصغرة من ألف صورة فى ألف مكان..

ولكن صحيفة برافدا نشرت مقالا عن «الخروج من مصر» بتاريخ ٢٠ يوليو تقول فيه: «إن الخبراء السوفيت فى جمهورية مصر العربية قد أنهوا مهمتهم. وبعد مشاورات بين الطرفين وتبادل وجهات النظر، رأى الطرفان عودة العسكريين السوفيت الذين كلفوا بمهمات محدودة لفترة محددة. وكما قال الرئيس السادات فى خطابه إلى اللجنة المركزية: إن هذا لن يغير من المبادئ الأساسية للصداقة.»

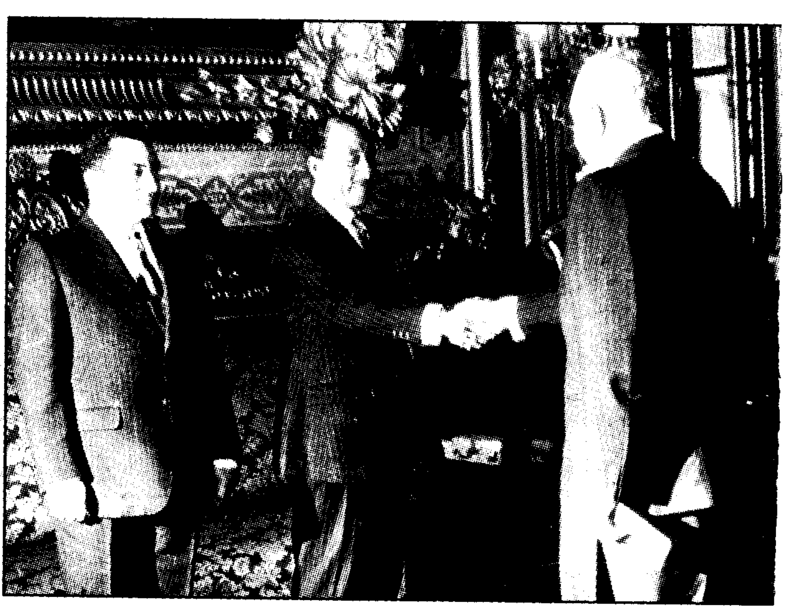
وما جاء فى صحيفة برافدا نقلا عن خطابى إلى اللجنة المركزية كان صحيحا. فإننى حريص على الصداقة السوفيتية.. ولكن يبدو أنه لم يكن واضحا تماما، إنهم هم غير الحريصين. ولابد أن لهم فلسفة فى ذلك.

وأرى أنه قد آن الأوان لكى يعرف كل منا، مصر وروسيا، ما هى حدود الصداقة؟ وماهى حدود الإرادة الوطنية. وحدود المصلحة؟ .. وعلينا فى جميع الأحوال أن نمشى وراء الذى نراه أفضل من أجل مصر..

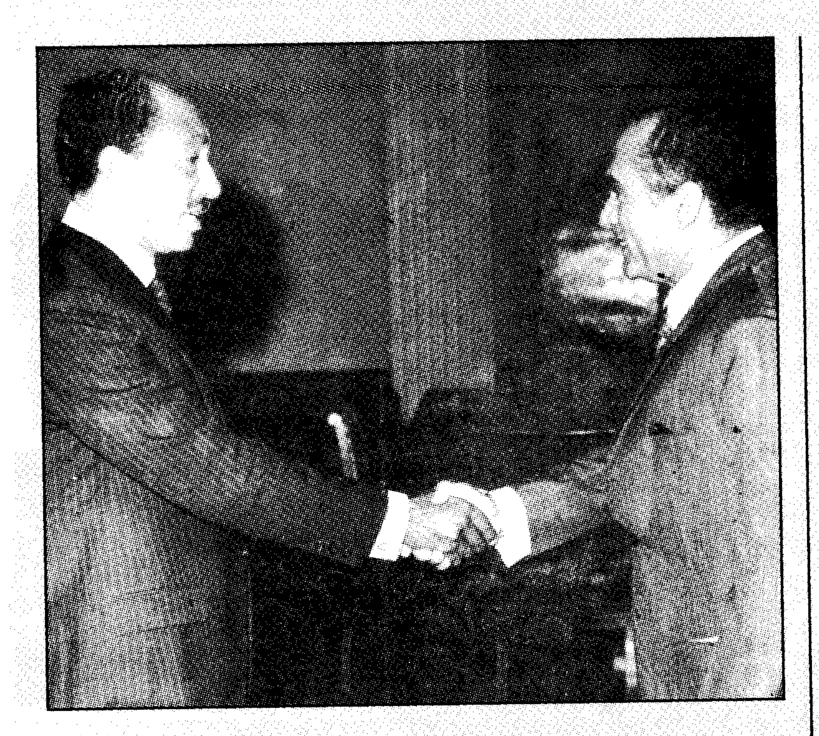
❑❑❑



١ - فـي قصـر الطـاهرة حيـث اجتمـع السـادات بعـزيز صـدقي وممـدوح سـالم وحـافـظ إسماعيـل وأحمد إسماعيل ومراد غالب وأخبرهم بقرار طرد الخبراء السـوفيت من مصر .



٢ - الرئيـس السـادات يصافح ممدوح سالم وبجواره حسني مبارك نائب رئيس الجمهورية.



٣ - السادات يصافح مراد غالب وزير الخارجية قبل عزله .



٤ - د. محمود فوزى .



هدوء ما قبل العاصفة

- ■ كل رسائل موسكو عاجلة بلا مبرر .
- ■ خروج السوفيت من مصر هل هو تصفية حساب أم تصفية وجود ؟
- ■ تختة الرمل نموذج لصحراء سيناء بكل تفاصيلها .
- ■ قلت لعزيز غالى: لو كان عبد الناصر حيا لدخلت القنطرة من هذا المكان .

أرحت ضميرى عندما أصدرت قرار «إنهاء» مهمة الخبراء السوفيت فى مصر. ولكن هواة الصيد فى «السياسة العكرة» لم يتوقفوا عن التساؤل:

هل هو «خروج» للسوفيت؟.. هل هو «إخراج» للسوفيت؟.. هل هو «إخراج» للسوفيت فى مصر والشرق الأوسط؟.. هل هى تصفية «لهم» أو تصفية «لحساب» معهم؟..

أو هل هى تصفية للوجود السوفيتى؟.. هل هى محاولة لتكذيب كل ما أعلنه السوفيت من استعراضات للقوى فى موسكو وفى العالم بمناسبة الوفاق بين أمريكا وروسيا؟.. هل هى مساومة على السوفيت؟.. هل تم ذلك بالاتفاق مع الأمريكان؟..

إننى أعرف أن مرحلة جديدة من محاولة إقناع الروس بأن هذا القرار وطنى، يجب أن تبدأ فورا. وأعلم مقدما - ومن واقع تجاربى الطويلة معهم - أن رد الفعل السوفيتى يجىء متأخرا جداً. وأننى سأحتاج إلى وقت طويل لكى أقنعهم بأن القرار مصرى وطنى صميم. وأننى لم أحتج إلى خلفية تاريخية أكثر من التى يعرفها الروس والتى تعبت من تكرارها لهم.. إن بعض هذا الذى يحدث يكفى ولكننى إنسان صبور..

وقد أساء السوفيت فهم صبرى هذا. ولم يتصوروا أن للصبر حدودا. بعدها يفقد الإنسان السيطرة على نفسه وأحمد الله أننى لم أفقد سيطرتى على أعصابى فى أشد الأزمات .. ومن بينها وفى مقدمتها هذه الأزمة: أن أقف وقفة موضوعية مع صديقنا الكبير الاتحاد السوفيتى..

ويبدو أن هذا القرار كان مفاجئا وكان هادئا لدرجة أن السفير السوفيتى وهو يسمعه لم يصدقه، أو خشى أن يصرح لى بذلك. وإنما تصور أن رأسى ساخن وأننى أتوعد. وأننى عندما يبرد رأسى، سوف أعدل عن الذى أعلنته وطلبت إليه أن يبلغه للقادة السوفيت. أو لعل السفير السوفيتى قد سمع القرار ولكنه لم يستوعبه. أو لعله هو فى حاجة إلى تفسير من موسكو لكى يفهم هذا القرار الذى صدر فى القاهرة.. فهذا أيضا من عادة السوفيت، فهم هناك فى موسكو يحتكرون التفسير والتبرير والتفكير والقرار!

ولذلك حاول السفير أن يؤكد لى أننا أصدقاء.

فقلت: ما فى ذلك شك..

قال: إذن كيف نكون أصدقاء وتصدر مثل هذا القرار؟..

قلت: لأننا أصدقاء ولأن الصداقة لها حدود صحيح أنتم دولة عظمى ونحن دولة صغيرة. ولكن الكبرياء لا تعرف المساحة الجغرافية لأى بلد فكبرياؤنا لا حدود لها تنسون ذلك دائما، ونحن لا ننسى ذلك أبدا. هذا هو الفارق الجوهرى بيننا وبينكم.

- هل يمكن أن نبقى أصدقاء بعد ذلك؟

- ما فى ذلك شك. ولكن أحب أن أؤكد لك أن هذا قرارات .. أن هذا قد تقرر وأننى سوف أبلغ وزير الحربية هذا الأسبوع ماذا يجب أن يفعل بعد ذلك وسوف أجتمع باللجنة المركزية وأخطرها بكل شىء ولم يجد السفير ما يقوله.

وكان لا بد أن أتحرك بسرعة. فأنا لا أريد أن أقطع صلتى بالسوفيت. ولكن هذا القرار كان ضروريا لهم ولنا. ولذلك كان من الضرورى أن أضع هذا القرار فى ثوب من حرير لأننى لا أريد أن أخرج السوفيت، فقد جاء هذا القرار مفاجئا لهم. ووضعتهم فى مأزق ولقد رأيت لهذا المأزق صورتين: صورة السفير السوفيتى وصورة وزير خارجيتنا الذى يتعاطف مع السوفيت.

ثم إننى لست فى حاجة إلى أن أقول لشعبنا: إننى لم أتصل بأمريكا قبل إصدار هذا القرار. فالشعب يعرف كل شىء. وقد صارحته دائما، وأنا الآن أصارحه بما فى نفسى..

ولكنى أعرف أننى سأحتاج إلى وقت طويل لكى أؤكد للسوفيت «مصرية» هذا القرار مائة فى المائة.

وبعد يومين اتصلت بعزيز صدقى رئيس الوزراء وأخبرته بأنه لابد أن نجد وسيلة لشرح هذا القرار للسوفيت ومعرفة رد الفعل عندهم. كل ذلك قبل أن نعلنه.. فحتى هذه اللحظة لم نكن قد أعلناه. وإن كنت ذكرت تعليقا رسميا على القرار بعد إعلانه، فلكى أؤكد صحة ما جاء فى التعليق من حرص على الصداقة السوفيتية. ولكن القرار لم يتجاوزنا نحن الذين اجتمعنا فى قصر الطاهرة. وتواصينا بكتمانه. وكتمناه.

وطلبت إلى عزيز صدقى أن يتصل بالسفير السوفيتى. واتصل به. وأخبره برغبته فى السفر على رأس وفد إلى موسكو. كل ذلك لأنى لا أريد أن أريق ماء وجه السوفيت. وإنما فقط أريد أن أصب الماء البارد على رءوسهم الساخنة جدا لعلهم يرون الصورة أوضح.. صورتنا نحن فى مصر وفى المنطقة.

وطلبت إلى عزيز صدقى أن يقترح على السفير السوفيتى أن يسافر هو على رأس وفد. وكان ممدوح سالم ضمن هذا الوفد. ورحب السفير السوفيتى باقتراح عزيز صدقى. ويبدو أن الترحيب الشديد كان سببه أن السوفيت تصوروا أن هذا القرار نوع من التهويش. وأننى أرسلت عزيز صدقى لكى يساوم. وأنهم يعرفون ذلك مقدما. وأنهم قبلوا الزيارة والتجارة معا.

وسألوا عزيز صدقى إن كانت هذه الزيارة مبادرة منه هو شخصيا، أو أننى أعرف ذلك وموافق عليه. ولم يكونوا يعرفون أن هذا الاقتراح منى أنا. وسافر عزيز صدقى. وقد تمنيت له التوفيق فى مهمته. ولكنى فى نفس الوقت أكدت لعزيز صدقى أن يجاهر بأن هذه القرارات لا رجعة فيها وأن هذه الزيارة ذات هدف واحد: هو البحث عن شكل محترم وعبارة ناعمة لمواجهة العالم فى بيان مشترك يصدر من الدولتين بإنهاء مهمة الخبراء الروس. وأن مصر تشكركم على نجاح مهمتهم فى مصو. وأنها لن تنسى لهم هذا الفضل مدى الحياة.

وكان موقف عزيز صدقى مفاجأة لهم. فقد اعتقدوا أننا غير جادين. ولكن عزيز صدقى أكد لهم أنه ليس مفوضا فى مناقشة هذه القرارات. لأن القرارات صدرت. ولم يتقبل السوفيت هذا الموقف من مصر.

وعاد عزيز صدقى إلى مصر..

وأيقن السوفيت أن مصر جادة. وبسرعة سحب الروس كل خبرائهم من جميع وحدات الجيش المصرى. ونفذوا قرار الخروج من مصر قبل الموعد المحدد بأربع وعشرين ساعة.

وأعلنت أنا بعد ذلك فى اللجنة المركزية يوم الثلاثاء ١٨ يوليو أن السوفيت قد نفذوا قرار الخروج من مصر تماما. قبل الموعد المحدد لهم.

وبعد هذا القرار دخلنا فى مرحلة أو فى مراحل أو فى طريق طويل عريض متعرج شائك هو الذى يؤثر فى علاقتنا منذ ذلك الوقت حتى ساعتنا هذه فى يومنا هذا من شهر يناير هذا فى سنتنا ٧٧ هذه.

ولكننى كما قلت منذ لحظات قد أرحت ضميرى.. وأحسست أن جبلا ثقيلا قد سقط من فوق قلبى .. وإننى كأى فلاح ظل مختبأ وراء شجرة أو تحتها، والشمس تشرق وتغرب.. ولكن شيئا فى نفسى لا ينام.. لا يعرف الليل ولا النهار.. لا يعرف الجوع والعطش والتعب.. هذا الشيء أن هناك ثأرا.. إننى أخذت بثأرى. ومن حقى بعد ذلك أن أستريح.. وأن أذهب إلى الإسكندرية. فمنذ ٦٧ حتى صدور هذا القرار لم أذهب إلى البحر ككل عباد الله.. فقط يوما

فى نهاية كل أسبوع، ثم أعود إلى القاهرة. ولكن فى هذا الصيف من يوليو ١٩٧٢ وجدت أنه من الضرورى أن أستريح.. وأن أنزل البحر.. فقد كنت أشعر قبل ذلك أن ماء البحر لا يقوى على حملى، لأننى أحمل شاطئا على صدرى .. أما الآن فإننى خفيف على الماء. لقد خفت همومى كلها..

واعتمدت فى حساباتى على أن السوفيت - كعادتهم - سوف يحتاجون إلى وقت طويل لكى يحللوا أبعاد هذا القرار. وإن كنت أعلم مقدما أن الروس شكاكون بالطبع. وأن أول ما سوف يهتدى إليه تفكيرهم هو أننى أصدرت هذا القرار بالاتفاق مع الأمريكان.

وقلت للذين يعاوننوننى: يجب أن نعطى للسوفيت وقتا كافيا ليفكروا فى القرار وفى أبعاده وفى الخطوات التالية.. ورأيت فى أغسطس أن أتوجه إلى السوفيت بنفسى. أكتب إليهم خطابا بقلمى. وجلست أستحضر كل أفكارى. وأستعرض كل تاريخى معهم. وأحسست أننى أجلس أمام محكمة التاريخ. وأننى ذهبت إليها بقدمى.

وأمسكت القلم. ويعلم الله أننى ما عانيت يوما مثلما عانيت فى ذلك الوقت. لقد شعرت أننى أمسك قلما لأول مرة. وأننى لا أعرف كيف أحركه على الورق فقد استعصت المعانى فى رأسى. ورأيت المسافة طويلة بين بداية السطر ونهايته. وظللت أكتب أكثر من سبع ساعات. ثم مزقت كل ما كتبت. وأسلمت نفسى للنوم.

وفى اليوم التالى أعدت كتابة هذا الخطاب فى خمس ساعات أخرى.. وأرسلت إليهم الخطاب. ولم أنشره. وإنما احتفظت به لفرصة أخرى. وفى هذا الخطاب وضعت كل شىء فى مكانه وفى حجمه ووزنه. وبخطى أمامهم وأمام الشعب والتاريخ. وفى هذا الخطاب طالبت بضرورة أن نجلس معا وأن نتناقش بمقتضى المعاهدة التى بيننا.

ومضى أغسطس وسبتمبر وفى أكتوبر تلقيت خطابا من موسكو أن الرئيس حافظ الأسد سيأتى إلينا فى زيارة سرية. والرئيس حافظ الأسد لديه نسخة من هذا الخطاب. وهذا طبيعى لأننا ننسق سياستنا معا.

وللحقيقة فإن الرئيس حافظ الأسد قد زار موسكو بمبادرة منه. واتفق مع القادة السوفيت على أن يستقبلوا وفدا مصريا برئاسة رئيس الوزراء لمناقشة الموقف وخصوصا بعد أن اتضح لهم أن القرار لم يكن طعنة فى الظهر، وأننا لم نبعهم للأمريكان، وكان خطابى هذا يضم بمنتهى الوضوح كل حيثيات صدور هذا القرار. وجاء الرئيس حافظ الأسد إلى القاهرة. ووافقته على كل شىء. وعلى أن يسافر الوفد المصرى يوم الاثنين ١٦ أكتوبر.

وقد أعلنت فى افتتاح الدورة الثانية لمجلس الشـعب سـفر عزيز صدقى ومعه وفد كبير إلى موسكو وقلت: إنه مكلف بمهمة أريد لها أن تنجح. وإننى «أعطيها تأييدى الكامل مبدأ وضرورة فى نفس الوقت، وأعدكم بأن أجىء إلى مجلسكم ولو فى جلسة سرية وأحيطكم علما بالتفصيلات والتطورات راجيا أن يكون فى مقدورى سـاعتها أن أعطيكم ما تطمئن به قلوبكم وترضى عنه ضمائركم.»

وفى موسـكو حدث عتاب طويل. وتوضيح مسـتمر من جانب الوفد المصرى. وطالب الوفد المصرى بضرورة التعجيل بتنفيذ العقود المبرمة بيننا.. وأعاد عزيز صدقى ما سبق أن قلته من أن الوضع فى الشرق الأوسط لا يسر حبيبا وإن كان يسر العدو. وأن الزمن يجرى ضدنا.. إلخ..

ولـم يوفـق عزيز صدقى فى رحلته هذه فقد كان الجو ملبدا بغيوم المرارة والشـك .. وإن كان الطرفان قد اتفقا على أن تكون هناك صلة ما بيننا وبينهم ووعد السـوفيت بتقديم مواعيد إرسال الصفقات التى تأخر إرسالها إلينا.

وظل كل شىء على ما هو عليه حتى جاء فبراير سنة ١٩٧٣. فقد أعلن السوفيت ترحيبهم بزيارة الفريق أول أحمد إسـماعيل وكان قد عين وزيـرا للحربية. فى أكتوبر ١٩٧٢. بعد أن اكتشف تصرفات خطيرة لوزير الحربية الذى سبقه.

فى شهر فبراير هذا سافر أحمد إسماعيل إلى موسكو.. وسافر حافظ إسماعيل إلى باريس لمقابلة هنرى كيسنجر وزير خارجية أمريكا..

وفى موسكو أكد لهم أحمد إسماعيل أن قرار طرد الخبراء السوفيت ليست له أية خلفيات مريبة، كما يتوهم السـوفيت. وعلى ذلك عقدوا معه صفقة أسـلحة. وفى هذه الصفقة بعض مـا طلبناه قبـل ذلك.. وأقول «بعض» الذى طلبناه. فليس من عـادة الروس أن يعطوا «كل» ما نطلب.. وإنما البعض دائما.. وأحيانا كثيرة جداً يبعثون إلينا ببعض الأشياء التى لم نطلبها، ولا نحتاج إليها، وفى الوقت غير المناسب لذلك..

ولكنهم هذه المرة قد وافقوا على إرسـال أسـلحة جديدة كالتى أعطوها لسـوريا قبل ذلك بسـنة. وكان فى تقديرى أن الروس إذا تأكدوا أن هذا القرار مصرى فسـوف يغيرون موقفهم فى مدى سـتة أو سـبعة أشهر. ولذلك تغير موقفهم بعد ثمانية أشهر، أى بفارق شهر واحد عـن تقديرى للموقف. ولأول مرة فى تاريـخ التعامل معهم – وللحق والتاريخ – أقول: إنهم أرسلوا جزءا من الصفقة فورا!. وكان لهذه الصفقة أثرها الكبير فى استعدادنا للحرب.. لأنى حددت سـنة ٧٣ بأنها سنة المعركة، وفى شهر فبراير هذا، وقبل أن يسافر أحمد إسماعيل

إلى موسكو كنت مع المجلس الأعلى للقوات المسلحة جلوسا ووقوفا أمام «تختة الرمل» التى هى نموذج لصحراء سيناء بكل تفاصيلها. وقد وقف كل قائد وشرح خطته. لأن أحمد إسماعيل كان قد فرغ من الخطة تماما.

ثم عاد أحمد إسماعيل من موسكو. وعاد حافظ إسماعيل من باريس. الأول عاد بصفقة أسلحة، والثانى عاد بحديث مع كيسنجر. وكسينجر قال لحافظ إسماعيل ما معناه: إننا مهزومون. ولذلك يجب ألا نبالغ فى مطالبنا. وأننا لا نستطيع أن نحارب. وإذا حاربنا فسوف نلقى هزيمة أشنع من هزيمة ٦٧. ومن الواجب أن نتصرف كمهزومين، لا كمنتصرين، ونحن لم ننتصر فى أية معركة!.

وقال كيسنجر لحافظ إسماعيل: أرجو أن تنصح الرئيس السادات ألا يحاول تغيير الوضع عسكريا، وإلا .. وإلا كانت الهزيمة هى مصيرنا، وفى هذه الحالة سوف يكون مصيرنا مستقبلا أسوأ مما نحن عليه!.

أما أحمد إسماعيل - الله يرحمه - فقد سألته عن الجو فى موسكو فقال: إنه التقى بجريتشكو وزير الحربية وتحدث مع أندرويوف وزير الأمن القومى وهو صديق لأحمد إسماعيل الذى درس فى موسكو، وكان معروفا لديهم. وكان من رأى أندرويوف أن يخبرنى بأنه لا داعى لأن يكون فى النفوس شىء يفسد العلاقات.. وأنه مستعد أن يحضر إلى القاهرة للقائى متى شئت. واستدعيت السفير السوفيتى وقلت له: أنتم تعلمون أن حافظ إسماعيل قابل د. كيسنجر فى باريس. ليس هذا سرا. فقد أعلناه. ولا بد أن الوفاق الذى بينكم وبين الأمريكان يجعلكم تعرفون كل شىء.

قال: نعم.

قلت: أريد أن ألتقى بواحد على مستوى أعلى لأتحدث إليه عن تفصيل ما دار بين حافظ إسماعيل وكيسنجر.

قال: مستعدون.

قلت: أريد أن أؤكد لأى مسئول يجىء من موسكو صحة نظريتى من أنه مالم يشعر الأمريكان واليهود بقوتنا فلن يتحرك الموقف ولن نحصل على شىء..

وفى ذلك الوقت كانت قد انتشرت نغمة سوفيتية أو نغمة «وفاق» تقول إنه لا داعى للحرب.. وإن الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام هى استخدام سلاح البترول والضغط على أمريكا

واللعب على وتر احتياجها للوقود.. أما الحرب فلا.. وتذكرت الخطاب الشهير الذى ألقاه تشرشل فى فبراير سنة ١٩٤١ عندما توجه به إلى الرئيس روزفلت يقول له: إن شيئا لن يهزنا ولن يخيفنا.. لا الحرب المفاجئة ولا اليقظة الطويلة. لا تخف علينا. اعطنا سلاحا وسوف نقوم نحن بالمهمة! بالضبط هذا ما قلته مرات عديدة للسوفيت وما قلته للسفير السوفيتى هذه المرة وأنا أملى عليه هذه الرسالة: قل للقادة السوفيت أن يبعثوا لى بأندرويوف وزير الأمن القومى لكى أبحث معه ما دار بين حافظ إسماعيل وكيسنجر فى باريس.

وعلى الرغم من أننى أعلم علم اليقين أن كيسنجر قد أخطر السوفيت بكل شىء، فقد أحببت أن أنقل إليهم بأمانة ما دار فى باريس، لعلى أسترد منهم بعض الثقة.

ومضى أسبوعان. ولم أتلق ردا. وسألت السفير السوفيتى: أين الرد؟

فقال: لم يأت بعد!.

وكما قلت قبل ذلك.. إننى أعلم أن بين موسكو والسفارة السوفيتية هنا خطا اليكترونيا للاتصال بأى واحد من القادة السوفيت.. ولكن هذا الخط لم يحقق السرعة المطلوبة. فالسفير يطلب فقط. ويظل ينتظر بالشهور. وبالمناسبة فقد طلبت من السوفيت خطا الكترونيا من هذا النوع يربط بين عواصم الاتحاد: القاهرة ودمشق وطرابلس. فوافقوا بشرط أن يتولى إداراته ضباط سوفيت. فرفضنا طبعا. واشترينا هذا الخط من فرنسا!.

ومضى أسبوعان آخران. وسألت السفير إن كان قد أجابه أحد على رسالتى.

فقال: لا جواب!

قلت: إن الموقف خطير. وإن الحديث الذى دار بين حافظ إسماعيل وكيسنجر مهم جدا. ولا بد من مناقشته مع مسئول كبير. فلا ألقى منكم إلا هذا الموقف.. إذن لم يتغير فى سلوككم شىء، ويبدو أنه لن يتغير!

فلم يرد الرجل.

فقلت له: يظهر أننى نسيت أنكم دولة عظمى، ونحن دولة صغيرة. وأن هناك مراسم لا بد أن أقوم بها لكى أتصل وأنتظر. ثم أتصل ولا أتلقى ردا وأنتظر.. إذا كانت هذه هى المراسم المطلوبة فأنا أرفضها. ولذلك ابعث لهم بأننى ألغيت دعوة وزير الأمن القومى السوفيتى .. فليس عندى وقت للانتظار. ولا أمل عندى فى تغيير أو تعديل سلوككم منى، أو من مصر..

فقد كنت مشغولا بالتجهيز للمعركة داخليا وعربيا وعالميا، وسياسيا ودبلوماسيا وعسكريا.. وجاءنى الرئيس حافظ الأسد فى أبريل. واتفقنا فى برج العرب. ووقعت أحداث وتفاصيل كثيرة ليس هنا مكان ذكرها. فأنا هنا أركز فقط على تطور أو تدهور العلاقات السوفيتية المصرية..

ثم جاء يوم ٥ يونيو. وقد اعتدت فى مثل هذا اليوم أن أذهب إلى الجبهة.

وعبرت إلى سيناء من بورسعيد إلى مدى ١٧ كليو مترا منها. ثم عدت إلى الجيشين وإلى المواقع كلها بالكامل. والذى لا يعرفه الناس، حتى الآن، ولم يعرفه اليهود هو أن كل المواقع التى مررت بها. ووقفت عندها ونظرت منها إلى الناحية الأخرى – وكان اليهود يظهرون أمامنا – هذه المواقع هى التى بدأ منها الهجوم. وفى هذه المواقع كنت أطلب من كل قائد أن يصف لى ما سوف يعمله.. تماما كما اتفقنا أمام «تختة الرمل».. وبعد ذلك كنت ألقى عليهم التعليمات النهائية.. مثلا: كانت تعليماتى بالنسبة للقنطرة شرق للواء فؤاد عزيز غالى الذى كان مقررا له أن يهاجمها: يا فؤاد لو كان عبد الناصر حيا لدخلت القنطرة من هذا المكان..

وكنت قد اتفقت مع محمد فوزى والمرحوم عبد المنعم رياض أن يحجزا لى مكانا فى القوات الزاحفة على القنطرة، ثم قلت لفؤاد غالى: لقد رتبت كل شىء لكى أستولى عليها بنفسى. وفى إحدى الجولات على الجبهة ذهبت إلى مطار القطامية. وكان من عادتى أن ألتقى بالطيارين كثيرا. وفى إحدى الدشم جلست معهم وورائى تليفون. دق الجرس، قلت لأحمد إسماعيل: رد أنت. وانشغلت بالحديث إلى الطيارين. ثم سألت أحمد إسماعيل بعد ذلك عن المتكلم. فقال: إنه السفير السوفيتى. ولديه رسالة عاجلة. وإنه يريد أن يحدثك شخصيا. ولو كنت أنا فى القاهرة لاستأذن فى مقابلتى. ولكن لأنى قد تعودت أن المكالمات العاجلة والرسائل الهامة لا تكون عادة عاجلة ولا هامة. لم أسأل أحمد إسماعيل كثيرا عن الذى قاله السفير السوفيتى.. ولكن عدت أستوضحه بعد ذلك فقال: إن السفير لديه رسالة من موسكو تقول: إن بودجورنى سيزورنى يوم ١١ يونيو. وتساءلت: رسالة عاجلة.. زيارة بودجورنى بعد خمسة أيام؟. إن بودجورنى غير قادر على أن يحل أو يربط. فليس هو الرجل الذى تهمنى زيارته. لقد جربته. وناقشته واختلفت معه. وليس هو الرجل الذى يحترم مصر ولا قواتها المسلحة ولا قدراتها. ولا أرى أن هذه الزيارة ذات أهمية من أى نوع.

وإنى أعلم لماذا قرر القادة السـوفيت إرسـال بودجورنى. فقـد ألغيت دعوة أندرويوف. وحتى لا تتسع الهوة - الواسعة أصلا - بيننا، فقد قرروا إرسال بودجورنى.

وقلت لأحمد اسماعيل: قل لهم إننا مشغولون!.

وأكملت جولتى على الجيشـين والصواريخ والقوات الخاصة والصاعقة والطيران لكى أقول للجميع: استعدوا للمعركة. جهزوا للقتال والنصر بإذن الله..

وفى الليل وبعد أن هبطت الطائرة فى آخر مطار فى إنشاص، ركبنا السيارة وسألت أحمد إسماعيل: هل أبلغت السفير السوفيتى بما قلت لك؟.

قال: لا.

قلت: لماذا؟.

قال: ربما أعدت سيادتك النظر فى هذا القرار ونحن مقبلون على معركة.

قلت: صحيح نحن مقبلون على معركة. ولكن بودجورنى هذا لا وزن له فى روسيا.. ثم إن زيارته مجرد «منظر» . ولو كان الذى سيزورنا هو برجنيف لاحتفلت به أعظم احتفال .. فهو الرجل الذى يقدر على أى شـىء.. وطلبت إلى أحمد إسـماعيل أن يبلغ السفير السوفيتى أننا مشـغولون وغير قادرين على استقبال بودجورنى.. ولم يكن ذلك شعورا نفسيا شخصيا فقط، وإنما كانت حالة نفسـية عامة. فلست مستعدا لأن أشترك فى هذه التمثيلية التى مللت فيها الحوار والسيناريو وربما كانت البطولة الوحيدة فى هذه التمثيلية هى للأكثر صبرا.

وأعتقد أنى قد أديت هذا الدور طويلا وكثيرا. وقد أرضيت الله والشعب. وهذا يكفينى.

لقد انتهيت من كل شىء. الإعداد والاستعداد. حتى أمناء الاتحاد الاشتراكى استدعيتهم إلى برج العرب. ووضحت لهم أبعاد الموقف.

وطلبت إليهم أن ينقلوا للناس أننا على أبواب المعركة. ما فى ذلك شك بإذن الله. كل ذلك كان قبل المعركة بشهرين. لقد أعطيتهم «الأوامر الإنذارية» - كما نسميها فى الجيش.

وعلى نهاية أغسطس كان كل شىء قد انتهى تماما. كل التدريبات قد اكتملت.

وفى سبتمبر كان آخر لواء قد أنهى تدريبه على المهمة التى سيقوم بها فى الحرب.

وفى أواخر أغسطس سافرت لزيارة الملك فيصل الله يرحمه..

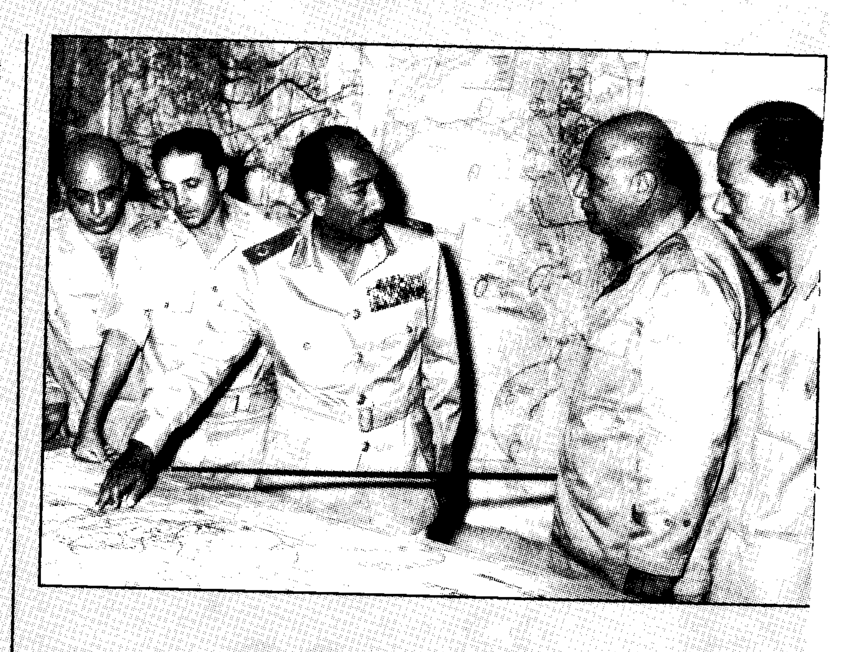
وبعد الملك فيصل سـافرت إلى قطر. ومن قطر اتجهت إلى بلودان لمقابلة الرئيس حافظ الأسـد. وهناك حددنا الموعد النهائى للحرب يـوم ١٠ رمضان (٦ أكتوبر). واصطحبت معى

فـي هذه الرحلة محمد على فهمى رئيس الأركان وحسـنى مبارك قائد الطيران. وكان هدفى من ذلك أن أريحهما من أحمد إسـماعيل. فقد أرهقهما ليلا ونهارا. وأعتقد أنهما حصلا على نصيب لا بأس به من النوم. فأحمد إسماعيل كان قد ركز تماما على الصواريخ والطيران.

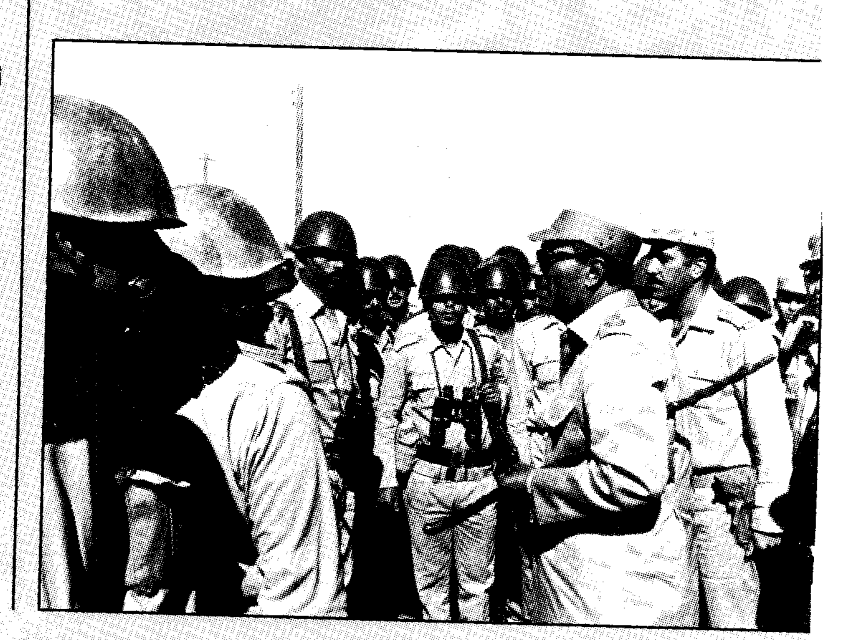
وكنت قد اتفقت مع إسـماعيل على أن أستدعى السفير السوفيتى يوم الأربعاء السابق على المعركة وأن يستدعى هو السفير السوفيتى يوم الخميس. ونتوجه نحن الاثنين بسؤال واحد إلى السـفير لينقله إلى القادة السـوفيت: ما هو موقف الاتحاد السـوفيتى إذا قمنا بتحريك الموقف عسكريا؟

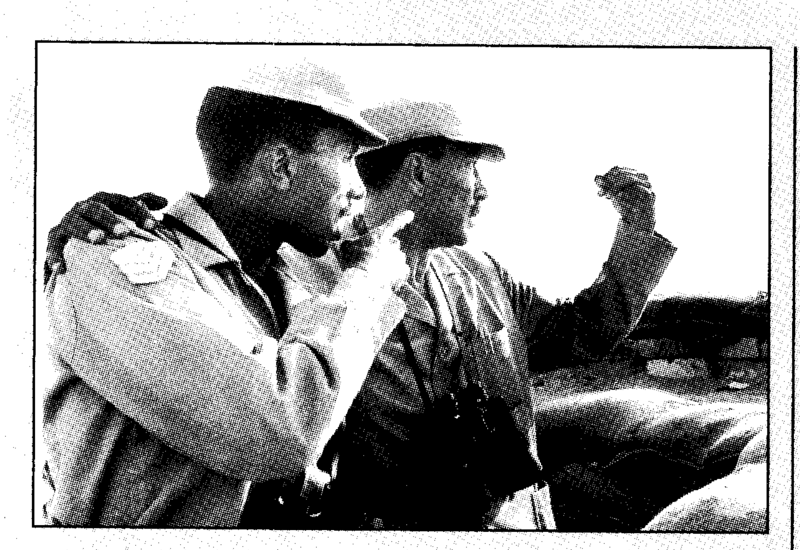
❑❑❑

١ - السادات والمشير أحمد إسماعيل والفريق الجمسى وسعد الدين الشاذلى وفؤاد نصار فى غرفة عمليات حرب ٧٣ .



٢ - الرئيس السادات أثناء زيارته للجبهة .





٣ - الرئيس السادات مع أحد الجنود على الجبهة .



٤ - الرئيس السادات مع حافظ الأسد .



٥ - أشرف مروان .



وبدأت الحرب

- السفير السوفيتى يطالب بتوفير مطار عسكرى لنقل الرعايا الروس.
- موسكو تطلب وقف إطلاق النار.
- كلمات حكيمة للملك فيصل.
- الثغرة أنست الانهزاميين ما حققته قواتنا البواسل.
- أعلنت للعالم كله أننى مستعد لمحاربة إسرائيل وليس محاربة أمريكا.

في يوم الأربعاء السابق على المعركة استدعيت السفير السوفيتى وسألته: ما هو موقف الاتحاد السوفيتى إذا قمنا بتحريك الموقف عسكريا؟..
كان ذلك فى بيتى فى الجيزة، قبل أن أنتقل إلى قصر الطاهرة.

وكما توقعت تماما بادرنى السفير السوفيتى قائلا: ومتى قررتم هذا التحرك العسكرى؟.

فأجبته: إن التاريخ لم يتحدد بعد. ولكنى مع الرئيس حافظ الأسد قد قررنا تحريك الموقف. وأنا أريد أن أعرف بالضبط ما الذى سوف تفعله القيادة السوفيتية. فأرجو إبلاغهم بذلك فورا. وأنا فى انتظار الرد بسرعة.. وهذه المرة - أرجوك - يجب أن يكون الرد أسرع من كل مرة!.

وفى يوم الخميس طلب السفير مقابلتى بسرعة. وقلت لنفسى: إنهم قد أدركوا خطورة الموقف. وصدقونى هذه المرة. إذن لقد فرجت. وجاءنى السفير وسألته: إن شاء الله تكون معك أخبار هامة.

فأجاب: هامة فعلا..

قلت: خيرا.

قال: القادة السوفيت يطلبون التصريح بهبوط أربع طائرات كبيرة لنقل الرعايا السوفيت.

قلت: متى؟..

قال: غدا الجمعة..

قلت: وهل أجابوا على السؤال الذى أرسلته معك؟. طبعا أنت أرسلته؟.

قال: نعم أرسلته.

قلت: فماذا كان الرد؟.

قال: لا رد.. إن القادة السوفيت يدرسون ويحللون. ولهم رجاء..

قلت: ما هو؟..

قال: أن تهبط الطائرات الأربع فى مطار عسكرى حتى لا يشعر أحد من الناس بنزول الطائرات أو صعودها ولا بالرعايا السوفيت.

قلت: موافق تماما. وليس عندى أى مانع..

وفى يوم الخميس ليلا انتقلت إلى قصر الطاهرة نهائيا. وهناك أعددت غرفة عمليات كاملة وفيها كل الضباط وعلى اتصال بكل مكان فى مصر وعلى أحدث الأساليب العلمية..

وفى يوم السبت نشبت الحرب..

وفى الساعة الثامنة مساء طلب السفير السوفيتى مقابلة عاجلة أى بعد قيام الحرب بست ساعات. وكنت ساعتها فى غرفة العمليات. وكنت على وشك أن أترك غرفة العمليات. فالطيران كان قد ضرب ضربته بنجاح. والمدفعية أطلقت فيضانا من نيرانها بمنتهى النجاح. العبور تحقق بنجاح عظيم. كل شىء قد اتجه إلى قلب العدو وأصابه فى الصميم.. إنها لحظات وساعات من أروع ما فى العمر كله.. عمرى وعمر شعبنا والأمة العربية. ولابد أن التاريخ سوف يقف طويلا عند هذه الساعات. وقد وقف المؤرخون السياسيون والعسكريون أمام هذا الإنجاز العظيم. ويكفى أن نستعرض ما قيل فى الصحف وفى المحاضرات وفى الندوات وفى المذكرات العسكرية. لنرى أبعاد هذا العمل العظيم بجميع المقاييس..

بل إن نجاحنا – وهذه حقيقة يقولها العدو والصديق– كان أضخم مما توقعناه. مع صعوبات عمليات العبور لقناة السويس.. وهى أعظم عائق وحائل مائى فى كل العصور فى الحروب التى مضت والتى سوف تجىء. ولو تركت قلمى يصف ما يملأ نفسى ما توقفت عند أى حد.. ولكنى أريد أن أكون قريبا من الخط والخطة والإطار التى اتخذتها لهذه الأوراق..

وهنأت الضباط على النجاح العظيم. وتركت غرفة العمليات واتجهت إلى قصر الطاهرة حيث ينتظرنى السفير السوفيتى الذى يحمل رسالة عاجلة من القادة السوفيت.. لقد اعتدت على «الرسائل العاجلة» هذه.. وهى عادة لا تكون عاجلة بأى معنى. ولكنى «عودت عينى» على ذلك.فلا أنا مللت، ولا هم أيضا. أو من المفروض ألا أعرف الملل، حتى لا أعرف الغضب، فإذا عرفت الغضب اتخذت قرارا خاطئا. وهذا ما لا أريد ولا أحب.. ولذلك يجب أن أتوقع أن تكون كل رسالة عاجلة، هى عاجلة، وهى رسالة هامة فى نفس الوقت.

وفــى الطريق إلى لقاء الســفير الســوفيتى. رحت أفكر بســرعة : ترى ما الــذى يتعجله الســوفيت.. هل يريدون أن يعرفوا ســير القتال وأن يطمئنوا على أن الســلاح الســوفيتى قد نجحنا فى استخدامه.. وفى ذلك انتصار للسلاح السوفيتى على السلاح الأمريكى.. إن حرب أكتوبر هى بداية عظيمة فى عصر الوفاق.. ولابد أن يكســب الروس من ورائها شــيئا كثيرا.. إنهم كســبوا الكثير بســبب تفوقهم فى فيتنام.. ثم هذه المرة.. لقد حاربنا اليهود وفى ســت ساعات تم لنا أعظم الانتصارات.. فنحن العرب جميعا نستحق التهنئة..

وأحسســت أن يدى قد امتدت أمامى وطالت حتى بلغت حدود العالم العربى والإســلامى أهنىء أشــقائى وأتلقى تهنئتهم أيضا.. فلم يكن ذلك انتصارا لمصر وحدها، وإنما هو انتصار للعرب وبالعرب أيضا..

ولا أعرف بالضبط ما الذى يريده القادة الســوفيت.. ولم أســتطع أن أركز تفكيرى فى أى شــىء ســوى المعركة الدائرة.. وكم من جنود عبروا القناة سالمين تماما.. وأين اتجهت نيران مدافعنا.. ثم ذلك المشــهد الذى تمنيت أن أراه بعينى.. وهو دخول قواتنا إلى قلب ســيناء إلى القنطرة شــرق.. وكم تمنيت أن أرى خط بارليف يذوب.. تتحول فيه الخرســانة إلى رمال.. وتتحول قضبان الحديد إلى طين.. وأرى اليهود هاربين فارين أو أسرى.. إن أبناءنا قد شربوا العذاب والهوان.. وشــربوا العار ولم يعتادوا عليه وهم ينظرون إلى الضفة الأخرى من أرضهم وقد ارتفع عليها العلم الإسرائيلى.. إنه لشىء رهيب.. ولم يكن هناك شىء أروع من أن يروا أعلام اليهود وقد تهاوت عند أقدامهم..

واســتغرقتنى هذه الصور.. اختلطت فيها الأحلام والآمال والامتنان لله سبحانه وتعالى أن نصرنــى على عدوى، وأن أعزنى بنصر مــن عنده.. وعلى رغم فرحتى بما حدث، فأنا كرجل سياســى، تعلمت أنه لا حدود للاحتمالات.. قد تجىء من هنا أو من هناك.. ثم هذا الســفير السوفيتى إنه هو أيضا واحد من هذه الاحتمالات..

ومددت يدى أصافح الســفير السوفيتى، ولم يلاحظ هو السعادة على وجهى، ولا الارتياح فى كلماتى، فهو مشغول بالرسالة التى حملها، كما أننى مشغول بالنصر الذى حققناه وأدعو الله أن يبقيه لنا ويضيف إليه نصرا بعد نصر..

فقلت له: خير إن شاء الله..

قال: رسالة عاجلة من القادة السوفيت.

قلت: ما هى؟

قال: وقف إطلاق النار!.

قلت: هم يطلبون وقف إطلاق النار؟.

قال: نعم.

قلت: هل القادة السوفيت عندهم فكرة عن النار التى يريدون وقفها؟.

قال: لا أعرف.

قلت: تحب أن تعرف؟.

قال: إنهم يطلبون وقف إطلاق النار..

قلت: إنهم يطلبون. قل لهم إننى أرفض ما يطلبون.

قال: إنهم يطلبون ويلحون.

قلت: وأنا أرفض بإلحاح أيضا.. ثم أين الإجابة على السؤال؟. قال: أى سؤال؟.

قلت: ألم أكلفك بأن تنقل للقادة السوفيت ما الذى سيفعلونه إذا تحرك الموقف عسكريا.. وقد تحرك الموقف ولم يتحرك القادة السوفيت.. وعندما تحركوا طلبوا منى ألاّ أتحرك.. هل هذا ما يريدون؟.

قال: إنهم يطلبون وقف إطلاق النار.

قلت: لن أوقف إطلاق النار. ثم إننى مازلت فى انتظار إجابتهم. فاطلب إليهم ذلك وليكن هذا الطلب على شكل رسالة عاجلة..

قال: إنهم يطلبون وقف إطلاق النار.

قلت: لن يوقف إطلاق النار حتى يتحقق الهدف.

قال: وما هو الهدف؟.

قلت: أن تصل قواتنا إلى المضايق.. إنها معركة محدودة. هل تعرف لماذا؟.

قال: لماذا؟.

قلت: لأن القيادة السوفيتية لم تعطنى من السلاح ما يجعلنى أستطيع أن أتحرك أكثر من المضايق.. أو إلى ما وراء المضايق بقليل..

خرج الرجل ولابد أنه قد أبلغ القادة بكل ما دار بينى وبينه.

وعدت إلى غرفة العمليات وفى أذنى صوت الطائرات والمدافع وصيحات الجنود ودعواتهم إلى الله وشكل الجسور وفوقها الدبابات والدخان يلف استحكامات بارليف.. وحيرتى بين أن أبقى فى القيادة وأن أسارع إلى الجبهة كأى جندى لأرى وأملأ العين والقلب بأعظم إنجازات قواتنا المسلحة.. تمنيت أن أعبئ روحى بكل ذلك، فليس فى عمر الإنسان ولا الشعوب لحظات أو ساعات مثل هذه الساعات المجيدة..

وتذكرت حوارا دار بينى وبين الملك فيصل الله يرحمه. كان ذلك فى شهر أغسطس.. وكان هذا الرجل هو حكمة التاريخ.. كان نموذجا للهدوء والصفاء والأصالة، لقد وهبه الله حسن الإدراك، ونبل الشعور، وبعد النظر.

قلت: سوف نحارب اليهود بإذن الله.. وقد اتفقت مع الرئيس حافظ الأسد على ذلك.

ورفع الرجل رأسه إلى السماء ودعا الله لنا بالنصر. ثم قال: لى طلب وحيد. وهو إذا قمتم بحرب فلا توقفوها بعد ساعات أو أيام قليلة. اجعلوها معركة طويلة. فإذا طالت استطعنا أن نبنى عليها موقفا عربيا موحدا..

لا أنسى هذه العبارة. إنها عبارة فى منتهى الحكمة. إن الإنسان يستطيع أن يؤلف عنها كتبا فى السياسة والاستراتيجية.. إنها حكمة هذا الرجل قد أودعها هذه العبارة القصيرة. إننى لا أزال أتخيل هذا الرجل، ولا تزال كلماته الهادئة الهامسة ترن فى أذنى. لقد كانت وفاة الرجل خسارة بالغة للأمة العربية. وقد ظن بعض الناس أننى طلبت إلى الملك فيصل أن يساعدنا بالبترول. أبدا.

وكل ما قلته للملك فيصل هو: إن علينا أن نحرك الموقف عسكريا. ونحارب. أما دورك أنت فإننى أتركه لك. فافعل ما تشاء وما تقدر عليه. وقلت له بالحرف الواحد: أنت رب البيت. ورب البيت أدرى بما فيه ومن فيه!.

ولم يكن الملك فيصل فى حاجة إلى أن أقول له أكثر من ذلك. فهو رجل حكيم عظيم. وقد أدرك كل شىء بذكائه وفطنته..

وعدت للحوار الذى دار بينى وبين السفير السوفيتى الذى جاء يطلب وقف إطلاق النار.. ثم ساق سببا غريبا وهو أن سوريا قد وافقت على وقف إطلاق النار. يعنى أن الرئيس حافظ الأسد قد قرر منفردا وقف إطلاق النار. وسألت حافظ الأسد فأنكر ذلك تماما.

وفى يوم ٧ أكتوبر، أى يوم الأحد وفى نفس الموعد جاء السفير السوفيتى ينقل لى رسالة عاجلة: إن القادة السوفيت يطلبون وقف إطلاق النار.

قلت: عندى إجابة عاجلة ردا على الرسالة العاجلة: لا!. وبدأ الكوبرى الجوى بين موسكو والقاهرة وتفاصيل الكوبرى الجوى والذخائر التى حملها إلينا معروفة بكل تفاصيلها. أما هذا الكوبرى الجوى فلم يكن ينقل إلينا إلا الأسلحة التى وعدوا جمال عبد الناصر بها.. ثم عاقبوه بوقفها لأنه بدأ حرب الاستنزاف ضد إسرائيل.. وكان الغرض من هذا العقاب أن يستنزفوه هو.. أن يسيلوا دمه وعرقه ودمعه وطاقة جنوده، حتى يكف عن الحركة.. ويقبل الأمر الواقع. وأن يبقى الجنود على الضفة الغربية من القناة، وأمامهم العدو.. ثم يعتادوا على ذلك.. أى على الأمر الواقع!.

وقد شكوت كثيرا من قلة الذخائر، بينما يكدسون الذخائر فى سوريا مما دعانى إلى أن أطلب سلاحا من سوريا. وقد أعطونى. أما الأسلحة التى كان يبعث بها السوفيت إلينا فهى قديمة.. ومن الحرب العالمية الثانية .

وفى يوم ١٢ أكتوبر أيقظنى السفير البريطانى.. يحمل رسالة من إدوارد هيث رئيس الوزارة البريطانية وجاءنى السفير البريطانى عند الفجر.

وسألته: ماذا عندك؟.

قال: رسالة هامة من رئيس الوزراء..

قلت: ما هى؟.

قال: إن كيسنجر وزير خارجية أمريكا قد اتصل بمستر هيث وأخبره أن السوفيت قد نقلوا إليه أن مصر وافقت على وقف إطلاق النار. ولما كانت العلاقات بينكم وبين الأمريكان مقطوعة فقد طلب كيسنجر من حكومتنا أن تتأكد من صحة هذا النبأ.. لأنه إذا كان صحيحا فسوف يتحرك كيسنجر بنا على ذلك. فهل وافقتم على وقف إطلاق النار كما يقول السوفيت؟.

قلت: لم نوافق على وقف إطلاق النار.

ثم رويت له محاولات السوفيت لوقف إطلاق النار وإشاعة ذلك. وقلت له أيضا: إننا لن نوقف القتال إلا بعد أن تتحقق الأهداف.

فسألنى السفير البريطانى: ما هى الأهداف؟.

قلت: لن أعلنها إلا بعد أن تتحقق..

وخرج السفير ونقل ما دار إلى رئيس الوزراء الذى نقله إلى كيسنجر..

وأبلغنا السفير السوفيتى أن كوسيجين سوف يجىء إلى مصر فى زيارة.

قلت: أهلا وسهلا يا مرحبا..

وكان الهدف من زيارة كوسيجين شيئا واحدا: وقف إطلاق النار!.

هو يقول: اوقفوا النار!.

وأنا أقول: لن أوقف النار..

وهو يقول: ليس من مصلحتكم الاستمرار فى القتال.

وأنا أقول: بل مصلحتنا أن نستمر.

وهو يقول: أنتم لا تعرفون الحرب.

وأنا أقول: هذه فرصتنا لكى نعرف.

وهو يقول: جربنا الحروب وشربنا المر..

وأنا أقول: نحن شربنا المر، ولذلك يجب أن نجرب حلاوة النصر..

- اوقفوا القتال!.

- بعد المضايق!.

وفى أثناء وجوده فى مصر وقعت «الثغرة».. أى تسللت القوات الإسرائيلية إلى الضفة الشرقية فى فجوة بين الجيوش.. وهى غلطة عسكرية مشهورة فى التاريخ. ولكن كثيرا ما حدث ذلك. ويعتبرها العسكريون عملا انتحاريا فاشلا. فقد جربها الألمان فى الحرب العالمية الثانية. فى موقعة الأردن عندما فتحوا طريقا دمويا بين قوات الحلفاء. وهذا الذى فعله النازيون، كرره اليهود.. فهم يقلدونهم فى كل شىء فى الدعاية والكذب وفى غطرسة الحروب الهتلرية، ولذلك محكوم عليها بالفشل.. لأنها حركة بهلوانية واستعراض تليفزيونى فاشل.. وهو يذكرنا بما يحدث فى الأفلام: عندما يقوم اللصوص بسرقة البنوك أو المتاحف أو عندما يهرب السجناء فى لحظة معروفة وهى لحظة «تغيير الحرس».. فى هذه اللحظة عندما يجىء حرس ليتسلم العمل من حرس مرهق.. فى هذه اللحظة ينجح

اللصوص فى دخول البنوك والمتاحف، ويحاول السجناء أن يهربوا من السجن.. وقد فعل اليهود ذلك..

ولم تضعف قواتنا ولم يتخاذل رجالنا. ولم يفسد ذلك من النصر العظيم الذى حققناه. فالذى حدث لا يمكن تغييره. والموت أهون من أى استسلام بعد ذلك. ولا استسلام بعد ذلك..

وكانت هذه «الثغرة» مأساة خلقية لكثير من الانهزاميين فى مصر. الذين نسوا ما أنجزته قواتنا الباسلة فى عبورها وصمودها وزحفها واستشهادها. كل ذلك نسيه الانهزاميون، ولم يعودوا يذكرون إلا هذا التسلل اليهودى الدنىء، بقصد تحطيم المعنويات، وبقصد تأكيد الخرافة الإسرائيلية: أن الجندى اليهودى ولد لينتصر دائما، والجندى المصرى ولد لينهزم دائما.. وقد انهزم!.

طبعا لم ينهزم.. وإنما الذى انهزم أناس مهزومون ودعاة هزيمة. ولكن أشهد لله وللتاريخ أن ٩٥٪ من شعب مصر، من هذه القاعدة الشعبية ظلت فى صلابة الحديد. وقفت ورائى. وصدقتنى، وتمسكت بروحها العالية. وسخرت من هذه القلة التى انهزمت سنة ١٩٦٧ ولا تريد أن ترفع رأسها، فإذا حاولت قواتنا أن ترفع لها الرأس، عادت لهذه القلة الانهزامية فأحنت رأسها وكرامتها، ثم راحت تمتص الهزيمة من جديد.. ولكن هذه القلة لا تهم ولا تدخل فى الحساب.

وإنما شعبنا العظيم العريق هو الذى يهم. إنه شعب علمته الحياة الصبر، والاحتمال والفطنة. وقد علمته فطرته أن يفهم ويحسن التقدير. فهو أعظم وأصدق وأحكم من كل الذين احترفوا السياسة وتاجروا بمشاعره ولعبوا بها.. إن هذه القاعدة العظيمة من شعبنا، لم تهزها هذه الثغرة. آمنت من أول لحظة، أن هذه الثغرة سوف تنسد، وسوف تنسحب قوات اليهود إلى غير رجعة.. وأن هذه القوات التى اختارت لنفسها أن تدخل عمق مصر محاصرة بين جيوشها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، لا يمكن أن تحتمل هذا المأزق طويلا. وقد صح ما توقعه الشعب.. فزالت الثغرة،ومعها أسطورة الأمن الإسرائيلى والجندى الإسرائيلى. وتلاشى من الصورة كل فئران الهزيمة!.

وبقى كوسيجين فى مصر أربعة أيام. وبعدها عاد إلى موسكو وفى أذنه عبارة واحدة: إنى لن أوقف النار.. وفى أذنى عبارة واحدة: أوقف النار..

ولابد أن كوسيجين قد عاد غاضبا فلم يسترح إلى ما دار بيننا.. ولا أنا استرحت إلى الذى قاله. ولم أتوقع منه شيئا كبيرا. فهم لا يثقون فى قدرتنا على القتال. ويخشون فى نفس

الوقـت إن دخلنا الحـرب أن نورطهم معنـا. وأن نورطهم مع أمريكا، وخصوصا أن روسـيا وأمريكا فى حالة وفاق. ويريدون أن يظل هذا الوفاق طويلا. ولا يريدون أن نفسد هذا الوفاق، ولا أن نضطرهم إلى مواجهة عسـكرية مع أمريكا. ولست ضد الوفاق. ولكنى ضد فرض السلام بالقوة. بقوة السـلاح أو بقوة الأمر الواقع. ونظرية السلام بالقوة هى نظرية بن جوريون. فقد كان من رأيه: أن العرب إذا لم يريدوا السلام باختيارهم فرضناه عليهم!.

ثم لابد أن أكون صريحا وواضحا مع نفسى. ففى القاموس السياسى كلمات كثيرة جدا غير واضحة. ولكن الساسـة يلعبون على الغموض.. أى يستغلون الغموض لصالحهم.. ويكون هذا الغموض كالسحب التى تطلقها السفن حتى لا تعرف الطائرات موضعها بالضبط.. أى إن هذا الغمـوض نوع مـن الكاموفلاج. أى نوع من التعمية أو التمويـه.. ومن بين هذه الكلمات التى تجلس على عرش الغموض كلمة: الصداقة!.

وبصراحة شـديدة جدا، دون أسف، ليست هناك صداقة بين دولة كبيرة ودولة صغيرة.. هنـاك مصالح. ولا توجد صداقـة دائمة، وإنما توجد مصالح دائمة.. فالصداقة لا تدوم، ولكن المصـالح المتبادلة هى التى تدوم!. وتشرشـل هو الذى قال أثنـاء الحرب العالمية الثانية: من الذى يسـتطيع أن يتنبأ بما سـوف يفعلـه الروس.. إنهم لغز ملفوف فـى فزورة ملفوفة فى معضلة، والمعضلة فى صندوق له مفتاح والمفتاح فى روسـيا. والمفتاح اسمه المصلحة الوطنية!. وليست كلمة الصداقة إلا إحدى الكلمات الوطنية فى قاموس كبير!.

ثم سـافر كوسـيجين وكلماته ما تـزال فى أذنى. هـو يقول: إن الثغرة عملية عسـكرية خطيرة.

وأنا أقول له: ليست خطيرة إلى هذه الدرجة. إنها حركة بهلوانية.. وسوف ترى.

ويؤكد كوسيجين: أنها أخطر مما أتصور. وأن الأمور ليست بهذه السهولة!.

والتاريخ يحكم بيننا الآن: صحيح أن الأمور ليسـت بهذه السـهولة. فلا شـىء سهل فى العلاقـات الدولية المعقدة. وخصوصا إذا كانت الحرب إحدى وسـائل حلها. ولكن أين ذهبت الثغرة؟ وأين نقف نحن؟. وأين يقف اليهود؟.

وفى يـوم ١٩ أكتوبر تدخلت أمريكا. وأعلنت ذلك. فقد تعهدت لإسـرائيل بحفظ توازن القوى فى الشـرق الأوسـط.. توازن قواها وقوانـا. ومفهوم التوازن عنـد الأمريكان أن تكون إسـرائيل أكثر تفوقا. وكان التدخل الأمريكى بأسـلحة متطورة جدا لم يسـتخدمها الجيش

الأمريكى بعد. فقد أتوا بالقنابل التليفزيونية، والقنابل المضادة للدروع. وانفتحت الترسانة الأمريكية ونقلت إلى إسرائيل كل ما تحتاج إليه وأكثر. ونزلت الدبابات من الطائرات إلى القتال مباشرة.. وأعلنت أنا للعالم كله أننى مستعد أن أحارب إسرائيل، ولكنى غير مستعد أن أحارب أمريكا.. فأنا أمين على الشعب المصرى وقواتى المسلحة. ولن أسمح بأن يؤدى التدخل الأمريكى إلى كارثة فى مصر. ووافقت على وقف إطلاق النار. وأرسلت إلى الاتحاد السوفيتى لكى يخبر أمريكا. وكان قد تقرر أن يقوم كيسنجر بزيارة الاتحاد السوفيتى فى اليوم التالى لوقف إطلاق النار يوم ٢٣ أكتوبر.

أوقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر الساعة السابعة مساء. وخرقت إسرائيل وقف إطلاق النار بهدف الاستيلاء على الإسماعيلية والسويس فى فترة استرخائنا العسكرى. فلا هم استولوا على الإسماعيلية ولا دخلوا السويس. وإنما تسللوا ثم وقفوا على مشارفها. وعلى رغم أنها مهجورة فلم يفلحوا فى أن يدخلوها. واحترق جنودهم وتحطمت لهم ١٢ دبابة. وكانت معركة السويس والتحام الشعب والجيش والشرطة ضد اليهود من أروع الأعمال البطولية..

ومن يعد إلى قراءة ما كتب عن الثغرة- أو ما كتبه اليهود بصفة خاصة- يجد أنهم قد طبلوا وزمروا كثيرا جدا.. وقالوا إن موسى- موسى ديان- قد عاد فدخل مصر، ونسوا أن موسى ديان يحتل أرضا مصرية منذ ١٩٦٧.. وكأنهم أرادوا أن يوهموا الناس أن سيناء ليست مصر.. وإنما مصر هى الضفة الشرقية والمواقع التى احتلوها وادعوا أنها تبعد عن القاهرة ٥٠ ميلا.. بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما جاءت مسز مائير رئيسة الوزراء إلى السويس وصوروها إلى جانب أحد مستودعات البترول. وكل هذا صحيح. ولكن ماذا كانت النتيجة؟.

النتيجة كما توقعت أن الثغرة اختفت. تلاشت. وكان لابد لهذه الحركة المسرحية أن تختفى من مسرح العمليات الحربية.. لأنها عملية دعائية لمواجهة الفضيحة العالمية والغليان فى كل بيت فى إسرائيل. فى ذلك الوقت وحتى هذا اليوم. ويكفى أن تقرأ ما كتبه العسكريون اليهود عن حرب «يوم كيبور» أى يوم الغفران..

وما كتبته مسز مائير نفسها وكيف إنها بكت.. ثم كيف انهار الجنرالات وراحوا يعلقون المشانق لبعضهم البعض.. وكيف إن الثغرة هذه كانت نوعا من الخداع القومى، لا أكثر ولا أقل!.

أو ما جاء فى التحقيق الذى أجراه القاضى «إجرانات».. إن هذا التحقيق صورة مؤلمة لكل يهودى. وفيه إدانة للقيادة.. وفيه اعتراف بالمعجزة العسكرية المصرية.. وكل ذلك منشور فى العالم وبعشرات اللغات. ولم يعد سرا خافيا علينا أو عليهم. ولكن التاريخ لن يترك حرب

أكتوبر، وإنما سوف يتوقف عندها كثيرا وطويلا وعميقا. لأن الدروس المستفادة لا يمكن إخفاؤها. وبشهادة أعدائنا أيضا.

لقد قلبت فى الكتاب الذى طبع فى تل أبيب بعنوان «وجهات نظر عسكرية فى الصراع الإسرائيلى». وهو يضم مناقشات ندوة عقدت فى القدس فيما بين ١٢ و١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٥. الندوة موجزة. والعبارات خاطفة. والأحكام فى غاية الحذر. والمتحدثون يخافون أن يدينوا إسرائيل إدانة كاملة. ولكنهم فى نفس الوقت يقيمون التكريم لقواتنا المسلحة، ويتلمسون الأعذار لأنفسهم.. ولكن الندم وخيبة الأمل والصدمة العنيفة هى الجو العام الذى يتنفسه الجميع. ويكفينا ذلك شرفا عظيما على مدى التاريخ..

ولا أقول إن ما كتبه موسى ديان عن حرب أكتوبر شىء يستحق التقدير. فهو القائد الذى قضت عليه هذه الحرب نهائيا ومسحت به أرض سيناء وأغرقته فى قناة السويس ودفنته فى خط بارليف.. إلى غير رجعة.. وما كتبه عن حرب أكتوبر هو مزيج من الفشل والمرارة وخيبة الأمل وبقايا الغطرسة والرعونة.. وكلها قد أصبحت مثل باقة من الشوك على نعش القائد الذى ادعى أنه على رأس جيش لا يقهر. وما كتبه موسى ديان وهو كاتب سيىء العبارة، لا يخلو من اعتراف صريح بعظمة المقاتل المصرى وروعة التخطيط وفداحة المفاجأة.. وقد اعترف موسى ديان أن أكبر مفاجأة فى هذه الحرب: أن المصريين قد حاربوا حتى النصر. وأنهم قد استوعبوا السلاح الحديث والاستراتيجية الحديثة.. وأنهم بعد أن ذاقوا لذة النصر، فلن يعرفوا الهزيمة!.

إن عبارة مثل هذه من قائد مزقته المرارة، وتكاثر عليه الجنرالات والقضاة والساسة حتى أسقطوه، والضحية الأولى لحرب أكتوبر، إن مثل هذه العبارة لا تجىء هكذا بسهولة.. إن القراء اليهود الذين رأوا الموت وعرفوا العار هم الذين أرغموه على أن يقول الحق، بعض الحق.. لأنه لا يستطيع أن يقول كل الحق.. ذلك ما سوف يرويه التاريخ!.

وجاءنا د. كيسنجر وزير خارجية أمريكا.. وبمجىء د. كيسنجر تنفتح صفحة جديدة تماما.

وإذا كانت سحب من الضباب قد تكثفت فى سماوات العلاقات المصرية السوفيتية، فإن زيارة كيسنجر قد أضافت إلى السحاب الأسود عواصف رعدية شديدة..

وإذا كان لدى السوفيت شك فى نيات مصر وقيادة مصر، فإن هذه الزيارة قد جعلت الشك يقينا، والوهم حقيقة.

وإذا كان لدى السوفيت أدنى شك فى أن علاقة ما كانت بينى وبين الأمريكان يوم قررت طرد الخبراء السوفيت، فإن زيارة كيسنجر هذه قد أكدت لديهم كل شيء..

والمعنى هو: أننى اتفقت مع الأمريكان عليهم!!.

كيف وصلوا إلى هذه النتيجة الخاطئة؟ لا أحد يعرف. ولا أنا عرفت حتى اليوم.

ومنذ زيارة كيسنجر هذه فى شهر نوفمبر ونحن نمشى فى عملية السلام. وبهذه الزيارة تغير الموقف السوفيت تماما. وانقطعت الصلة.. أو شيء ما انقطع بيننا وبين السوفيت. فقد غضب السوفيت من أشياء كثيرة، وليس لهم أدنى حق فى هذا الغضب. وآخر ما أغضبهم أن يجيء كيسنجر إلى مصر. وأن أجتمع به ساعات. والذى أغضب السوفيت أن ألتقى به دون إذن منهم. أى إنه كان من المفروض أن أستأذن: هل أقابل وزير خارجية إحدى الدولتين العظميين.. أو وزير خارجية الدولة التى تساند الدولة التى تحاربنى وتحتل أرضى. الدولة التى تمد إسرائيل بالرغيف والصاروخ معا.. الدولة القادرة على الضغط عليها من أجل السلام فى الشرق الأوسط ومن أجل الحفاظ على مصالحها البترولية وأسواقها فى كل المنطقة.

طبعا لم أوافق على استئذان الاتحاد السوفيتى. ولم أوافق قبل ذلك. ولن أوافق فى أى وقت.

ورأيت مع كيسنجر أسلوبا آخر فى السياسة وفى التعامل. فهذا الرجل لم يكذب فى شيء واحد قاله. ولم يخف وعدا. ولم يعد بشيء واحد لم يستطع الوفاء به. ما من مرة استدعيته إلا حضر.. وبدأنا فى لقاءات الكيلو ١٠١ مع اليهود تحت علم الأمم المتحدة. وقد حدث لقاء العرب واليهود فى هدنة ١٩٤٩. ويحدث ذلك فى كل اتفاقيات الهدنة. وهذا إجراء عادى جدا..

وفك الاشتباك الأول والثانى..

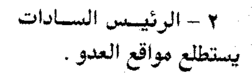
وساءت العلاقات المصرية السوفيتية، وتعقدت وتعكرت مياه البحرين الأحمر والأبيض واطلقوا سحب الشك فى كل سماء عربية، فى الشرق والغرب والجنوب.

ولكنى توجهت مباشرة إلى أمريكا.. الدولة القادرة على أن تحل وتربط.. أن تحل عقد القضية وأن تربط خيوط السلام فى المنطقة..

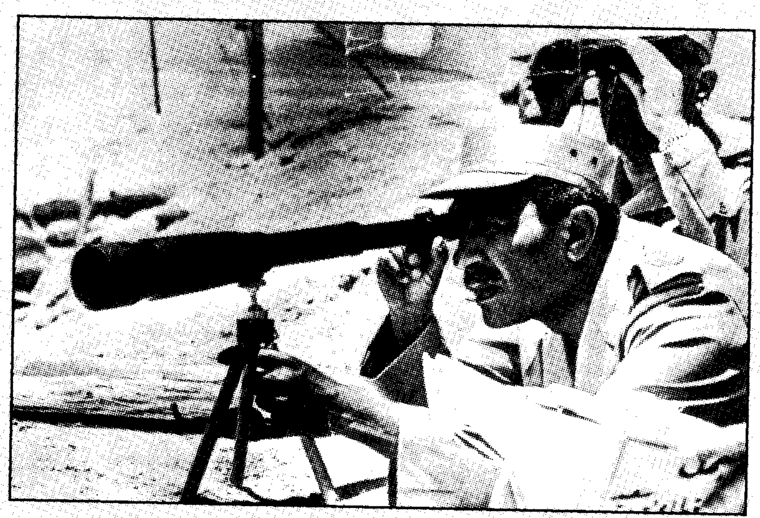
□□□

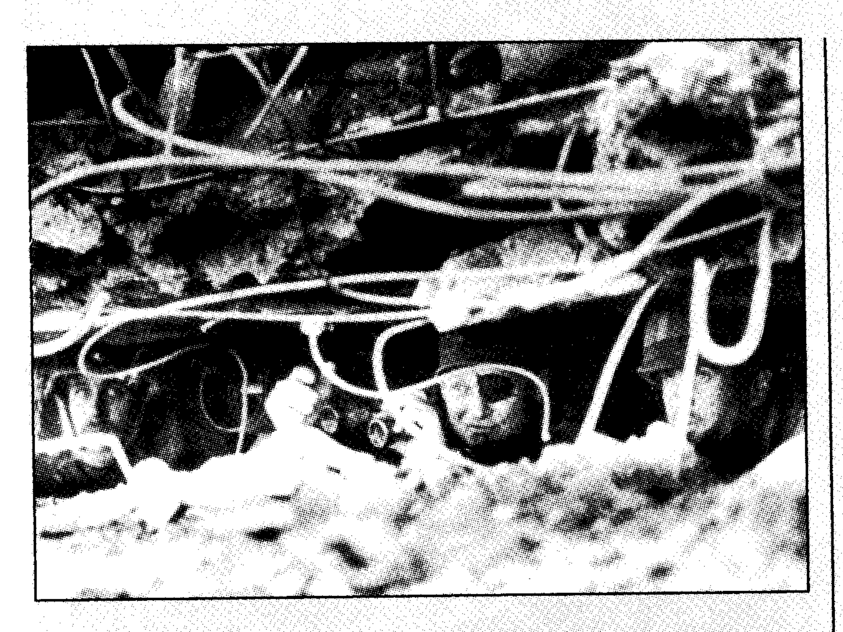


١ - الرئيس السادات مع الملك فيصل بن عبد العزيز .



٢ - الرئيس السادات يستطلع مواقع العدو .





٣ - موسى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى يستطلع المواقع المصرية من مركز القيادة الأمامى .



٤ - الجنود المصريون يقتحمون خط بارليف.

٥ - إحدى نقاط العبور التي اقتحمت منها قواتنا واستسلمت عبرها قوات إسرائيل .



٦ - أحد المعابر التي أقامتها قواتنا المسلحة لعبور المعدات العسكرية .



٧ - الرئيس السادات مع القوات المسلحة لحظة العبور .





وقف إطلاق النار

- لـو أعطانى الروس مائة دبابة لتغير وجه التاريخ.
- موسى ديان يعترف بعظمة المقاتل المصرى.
- لست صاحب عنتريات ولا أبحث عن البطولات الكاذبة على حساب الشعب.
- مبادرة كريمة من بومدين.
- طلبت من تيتو مائة دبابة فبعث ١٤٠ بذخيرتها ووقودها.

لم يحدث في حياتي كلها أن التصقت ثلاث كلمات في أذني وبصورة مؤلمة مثل: وقف إطلاق النار!

لقد سمعت في السجن عبارات تغلي الدمَّ في العروق، وتوقف شعر الرأس، وتطير النوم من العين وتقضي على كل أمل في النجاة.. إلا هذه الكلمات التي كررها السوفيت سفيرا ووزيرا ورئيس وزراء: وقف إطلاق النار..

لقد أوقفت النيران بعد ذلك.. ولكن هذه الكلمات ما تزال مدافع لم تتوقف نيرانها في أذني أو في ذاكرتي. وللتاريخ، والله والشعب على ما أقول شهيد: لم أعرف كيف يمكن أن يتحقق شيء من ذلك.. أو كل ذلك.. كيف أسترجع النار التي انطلقت وأعيدها إلى مدافعها.. وصيحات النصر كيف أردها إلى حناجرها.. والله أكبر الله أكبر التي كانت أقوى من الصواريخ، كيف أسحبها وأحبسها في قلوب المؤمنين.. كيف أعتقل الإيمان بالله في قلوب أبطالنا، ثم أجردهم من البطولة أيضا، وأجرد مصر والأمة العربية من كرامتها.

شيء عجيب يطلبونه وهو أن أعود بالتاريخ من ٦ أكتوبر ١٩٧٣ إلى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧.. إن «وقف إطلاق النار» كلمات ثلاث لها معنى واحد هو : المستحيل..

ولذلك في كل مرة كان السوفيت يطلبون وقف إطلاق النار كنت أحس أنهم ينظرون إلىّ على أنني رجل فوق مستوى البشر، أو دون مستوى البشر.. فوق مستوى البشر لأنهم يتصورون أنني أستطيع أن أعيد دموع الفرح إلى العيون التي ذرفتها، وهذا ما لا يقدر عليه بشر.. أو دون مستوى البشر سذاجة وبلاهة، وذلك بأن أضيع فرصة العمر، أو الفرصة التي أعطاها التاريخ لشعبنا.. فرصة الشرف والكرامة ومحو العار بكل رمال سيناء الطاهرة..

والحقيقة أنني لست فوق مستوى البشر ولا دون مستوى البشر.. وإنما أنا مواطن مصري أمين على شعب مصر، قد وضعه التاريخ في موقع المسئولية.. شخص قرأ التاريخ وقلب فيه وتعلم منه الصبر والاعتماد على الله ثم الشعب.. وتعلم أن الذي لايساعد نفسه لايساعده الله.. والذي لايحترم نفسه لايحترمه غيره.. وتعلمت أن مصر هي قاعدة النضال.. إذا انتصرت

فذلك نصر لها وللعرب، وإذا انكسـرت، فذلك هوان وهزيمة للعرب.. وتعلمت أن الصراحة هى أقصر الطرق.. وأن الصدق هو أسلمها..

وأقول لنفسـى دائمـا: لا يصح إلا الصحيـح، فالصحيح هو الصدق الصريـح أو الصراحة الصادقة، وأحمد الله أننى ما كذبت على شعبى ولا على أشقائى العرب، ولن أفعل ذلك.

ومن المناسـب هنا أن أقول إننى تعبت كثيرا جدا حتى جعلت مصر وقيادتها وسياسـتها موضع احترام العالم كله، وكان هذا الاحترام وسيلتى لتحقيق الكثير من أهدافى، تعبت فى ذلـك كثيرا، لا لأن الصدق صعب ولا لأن الصراحة مسـتحيلة، ولكـن لأن الأطراف الأخرى قـد اعتادت على الشـك فى كل ما يصدر مـن القيادة المصرية، ولها فى ذلـك تجارب أليمة. فـكان همى الأول والأكبر أن أفوز بهذه الثقة فى مباراة طويلة اسمها: الصبر من أجل النصر والسـلام.. إنه من أجل السـلام الذى هو النصر النهائى لكل جهودنا العسـكرية والسياسية والدبلوماسية.. وتلك قصة أخرى ليس هنا مجال ذكرها..

و «لو» عدت بذاكرتى وخيالى إلى ما كان يمكن أن يحدث لمصر، «لو» أننى أوقفت القتال..

«لو» حدث ذلك فى اليوم الأول..

«لو» حدث ذلك فى اليوم الثانى..

إننى أدفع عن رأسى وعن خيالى بشاعة ما كان من الممكن أن يحدث.. شىء رهيب لو خطر على رأس واحد من قواتنا المسلحة الآن، لجن جنونه.. وفى استطاعة أى مواطن أن يقوم بهذه التجربـة: هات أى مقاتل وقـل له: ألم يكن من الأفضل أن نوقف القتال بعد عبور قواتنا فى اليوم الأول؟!

إننى على يقين من أنك لن تستطيع أن تكمل هذه العبارة؛ لا لأنها غير معقولة، ولكن لأنك تلقى بالإنسـان الذى أمامك فى الوحل دون أن تدرى.. لأنك تمسـك علما يهوديا وتغرسه فى قلبه وتسـقطه على الأرض وتدوسـه بأقدام غليظة إلى الأبد.. ليس هو وحده بل تدوس نفسك أيضا.. والأمة العربية مئات السنين.. نعم مئات السنين التى سوف تجىء.

ولا أزال أذكر عبارة للدبلوماسـى النمسـاوى مترنيخ أحد أبطال «توازن القوى» فى القرن التاسع عشر يقول: إذا باريس عطست، أصيبت أوربا كلها بالزكام..

نفس الشـىء يحدث للأمة العربية إذا القاهرة عطسـت؛ فما بالك إذا انكسر أنفها تحت أقدام اليهود ولمئات السنين.

تلك صورة رهيبة لا أقوى على احتمالها؛ فلا كانت ولا شاء الله..

ولذلك دفعت عن رأسى غارات عنيفة لكلمات: وقف إطلاق النار.

ولا أزال أذكر أنى قلت للسفير السوفيتى يوم ٧ أكتوبر إن معركتنا معركة دبابات.. والذى يملك دبابات أكبر هو الذى سوف ينتصر.. هذه الحقيقة أنتم تعرفونها، كما نعرفها نحن..

فيرد الرجل: نعم نعرف ذلك..

وقلت له: إذن؟

فأجاب: سيادتك تعرف ما هو المطلوب منى أن أقوله لك..

قلت: أعرف ذلك.. ولا أحب أن أسمعه.. وإنما أريدك أن تسمع منى وأن تنقل عنى.. إننا فى حاجة إلى دبابات.. ولست محتاجا الآن وفورا.. ولكن اعملوا حسابى!

ولأن الروس يعرفون ذلك، ويعرفون حاجتى الشديدة إلى الدبابات لم يفعلوا شيئا، مع أنهم قد نقلوا إلى سوريا أكثر من ١٤٠٠ دبابة قبل وقف إطلاق النار..

آه «لو» أعطونى مائة دبابة فقط قبل وقف إطلاق النار لتغير وجه التاريخ، نعم لتغير وجه التاريخ ولتمكنت قواتنا أن تدفع اليهود إلى حدود ٦٧ .. ما فى ذلك شك..

ولكن الذى حدث أننا ضربنا ٤٠٠ دبابة لليهود فى الأيام الأربعة الأولى للقتال.. ودخلنا كبرى معارك الدبابات فى التاريخ، وانكسر فيها اليهود تماما، وفجأة بعد ذلك وجدت أمامى عشرة ألوية مدرعة يعنى ١٢٠٠ دبابة واردة من أمريكا، ومعنى ذلك أن أمريكا وليست إسرائيل، قد نزلت بثقلها لتحاربنى. أمريكا نزلت هنا فقط لا أستطيع أن أواصل القتال. فلست أنا فى وزن أو حجم أو قدرة أمريكا، وأنا أعرف حدودى، وأعرف الأمانة التى أحملها وأعرف أن أى عمل أقوم به بعد ذلك بطولة كاذبة.. وأنا لا أبحث عن البطولات الكاذبة ولا مثلى الأعلى عنتر بن شداد.. لست صاحب عنتريات من أى نوع على حساب الشعب وعلى جثث الألوف من أبناء مصر الشرفاء الذين يستحقون الحياة الكريمة ولكن عندما أغرقهم العار والهزيمة، هانت عليهم الحياة من أجل مصر.

وحدث بعد ذلك أن رئيس الأركان المصرى قد انهارت أعصابه يوم ١٩ أمام الثغرة البهلوانية التى أحدثها اليهود بين قواتنا، وكان رئيس الأركان المصرى يطالب بسحب قواتنا من الشرق، ولم أوافق على ذلك، فلا انسحاب لعسكرى واحد ولا لبندقية..

آه.. «لو» كانت عندى مائة دبابة فقط..

ولكــن.. الذيــن لا يريدون لنا أن نغــير التاريخ، أو أن نخلع رداء العــار، لم يبعثوا إلينا بشىء من ذلك..

وبعد أيام ســافر الرئيس هوارى بومدين إلى الاتحاد السوفيتى بمبادرة كريمة منه. ودفع للسوفيت مائة مليون دولار، مقابل دبابات يبعثون بها إلى مصر، ولم يبعث الروس بالدبابات فى الوقت المناسب، حتى لايتغير وجه التاريخ، على النحو الذى نريده نحن، ولكن الدبابات التــى اشــتراها الرئيس بومدين لم تصل إلا بعد اختراق اليهــود لقواتنا ونزولهم على الضفة الغربية للقناة، وبعد وقف اطلاق النار وبعد تثبت وقف اطلاق النار.

ولكــن جاءتنى دبابــات الرئيس العظيم تيتو، فقد طلبت إليه مائة دبابة فأرســل لى ١٤٠ دبابة، هذه الدبابات جاءت بحرا وجاءت مزودة بذخائرها ووقودها.

كما أن الرئيس بومدين قد أرسل لواء جزائريا، أخذ مكانه ولكن كانت النيران قد أوقفت. وجاءتنى رسالة من الاتحاد السوفيتى تقول: قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى إهداء مصر ٢٥٠ دبابة. ولم أعرف حتى الآن إن كانت الدبابات التى اشتراها الرئيس بومدين ضمن هذه الدبابات؟ أو هى هدية من السوفيت على أن تجىء فيما بعد دبابات الرئيس بومدين؟!

حتى هذه اللحظة لا أعرف شــيئا من ذلك. وقد طلبت من خبرائنا أن يدلونى على حقيقة هــذه الدبابات لكى نعرف ثمنها، ولكى نعرف بعد الذى دفعــه الرئيس بومدين.. ما الذى يجــب أن ندفعه هذا قرارهم وهذه حيرتــى.. ومطلوب منى أن أحل هذه الفزورة. وأثناء حل هذا اللغز يجب أن أسوق سببا معقولا لذلك هو أن الحوار الذى دار بينى وبين كوسيجين قبل ذلــك لم يكن مريحا له. فقد كانت نبرة المناقشــة حــادة وأظن أنه قد غضب من ذلك. ولابد أن غضبه كان بداية معقولة لعدم الوفاء بأى وعد، أو للقطيعة التى بيننا من يومها حتى الآن..

مع أن الذى قلته لكوســيجين لم يزد عن أن أذكره بأن الأســلحة التى بعثوا بها إلى مصر ترجــع إلى الحــرب العالمية الثانية، هذه حقيقــة مؤلمة. لم يصدقنا أحد عندمــا أعلن الفريق الجمسى ذلك.. فعلا معدات قديمة، ولكن عزيمتنا جديدة، وخطتنا حديثة، وكرامتنا عمرها سبعة آلاف سنة.

ثم إننى لفت نظر كوســيجين إلى أن الجســور التى أرســلوها لنا معوقــة لتقدمنا.. فهذه الجسور يتم تركيبها فى ست ساعات.. مع أن لديهم جسورا يتم تركيبها فى نصف ساعة..

ومــرة أخرى أقول: لو .. لو أعطونا هذه الجســور لتغير وجه المعــارك.. لو وفروا خمس ساعات ونصفا لكل مقاتل.. ولكنهم لم يفعلوا..

ومــن المعروف الآن أن ٦٠٪ من هذه الجســور قد صنعناها فى مصــر، وهذه حقيقة أيضا، وقد ســئلت كثيرا عن ســبب طردى للخبراء السوفيت، هذا هو السبب: حتى لا يقال إن لهم فضلا أو تدخلا فى الانتصارات الرائعة لقواتنا المســلحة.. بل إن وجود السوفيت كان سيعوق كل شىء.. وحتى إذا كنا، على رغم وجودهم، قد حققنا أى شىء ولو متواضعا لرجع الفضل فى ذلك لهم أيضا!

إذن مــن المؤكــد أن هــذا الحوار الحاد مع كوســيجين ســبب أكيد من أســباب التلكؤ فى إمدادنــا بالدبابــات التى دفع ثمنها الرئيــس بومدين. وأعتقد أن هذا ليس الســبب الوحيد فالسوفيت قد قرروا قبل ذلك، أنهم لن يساعدونا، أو لن يساعدونى على الأصح، على تحريك الموقف عسكريا..

وقد أخبرنى د. كيســنجر فيما بعد أننى لو اســتأنفت الحرب لأى سبب فإن أمريكا سوف تواجهنى ما فى ذلك شــك، قالها الرجل بمنتهى الصراحة. وقبل أن يقولها كانت أمريكا قد دخلت الحرب، وهذا هو الســبب المشروع والمنطقى الذى جعلنى أقبل وقف اطلاق النار.. أى وقف اطلاق النار الأمريكية علينا!

وكما وعد د. كيســنجر بأنه بعد وقف إطلاق النيران فإن أمريكا على استعداد للدخول فى مفاوضات السلام فى الشرق الأوسط.. بدأت أمريكا خطوات كيسنجر إلى السلام.

ومضينا نعمل من أجل السلام وسط أفراح الشعب المصرى وسعادته بقواته المسلحة، وأفراح الأمــة العربية كلهــا.. وتركنا البكاء والعويل لليهود فى كل شــبر من أرضهم والأرض التى احتلوها واغتصبوها.

وإذا كان التاريخ سوف يتريث طويلا عند أمجاد مصر، فسوف يستميت على الأرض اليهودية لتســجيل صيحات الندم، وتصوير لطم الخدود وشــق الجيوب - وتلك عادات يهودية قديمة باقية حتى اليوم - ومظاهرات الأمهات فى الشــوارع وحول قيادات الجيش ومجلس الوزراء والكنيست وعند حائط المبكى. فقد كانت أكبر هزيمة دموية فادحة أصيبت بها اسرائيل.

وأذكر بهذه المناســبة عبارة قالها القيصر الروسى الكســندر الأول عن نابليون: يظن هذا الرجل أننى ساذج، ولكن من يضحك أخيرا يضحك كثيرا.

هذه العبارة أذكرها وأنا أقلب فيما كتبه موسى ديان فى كتابه «قصة حياتى» وهو يتحدث عن حرب أكتوبر التى كانت المقبرة التى دفنت غروره وغطرسته الكاذبة، فقد تساءل: هل نحن أخطأنا فى وضع خطتنا أو هل نحن أخطأنا فى تطبيقها؟!

ويقول: نحن بنيناها على ثلاثة أسس: المدرعات والطيران وخط بارليف، وكل ذلك لم نعد نرى له أثرا.. ويقول «وهو الذى يجعلنى أضحك أخيرا»: إن المصريين هذه المرة ليسوا هم الذين عرفناهم سنة ١٩٦٧. وهى دعوة مفتوحة لأن يضحك كل رجال قواتنا المسلحة وكل أبناء شعبنا وأمتنا العربية، لأن الذى تحقق بنا، بكفاحنا وصمودنا ووحدتنا شىء عظيم، وسوف يبقى كذلك فى كل العصور.

وأنا أكره الحقد وأكره الشماتة، وأنشر الحب والمحبة والتسامح وأدعو إلى الصبر. ولكن أرى أن السطور الأخيرة فى الصفحة الأخيرة من كتاب موسى ديان تستحق القراءة والتأمل وتستحق أن نفهمها على نحو آخر غير الذى قصده.

يقول إنه أتى بسيارة وربطها بحبل. ثم تدلى من هذا الحبل إلى أحد الكهوف. وفى الكهف وجد بقايا نار كان أجداد أجداده قد أشعلوها؟! ولابد أنهم كانوا يأكلون ويشربون ولا تزال آثار النار والدخان باقية كأن أصحابها قد فارقوها منذ لحظات.. وفجأة أفسد هذا الصمت صوت العصر الحديث: طائرة نفاثة اسرائيلية.. ثم امتدت يداه إلى الحبل ليصعد إلى سيارته إلى بيته وأسرته ليستأنف حياة التقاعد.. أو حياة النسيان بعد الهزيمة الشنيعة التى لقيها هو وجنوده..

إنه يتصور أن هذا الحبل حبل نجاة.. تدلى به من ماضى الغطرسة إلى مستقبل الندم.. ولكن من المؤكد أنه حبل مشنقة.. هذا الحبل نسيجه الغرور وسوء فهم التاريخ.. أو نسيجه الغطرسة وسوء فهم الشعب المصرى.. وإذا كان قد استخدم الحبل فى الهبوط إلى الكهف. والصعود بعد ذلك إلى سيارته.. فإن هذا الحبل سوف يستخدمه المؤرخون العسكريون فى شنق موسى ديان والغطرسة والرعونة العسكرية الإسرائيلية.

وأعتقد أن هذا قد تم بالفعل فى حرب أكتوبر.. وليست هذه السطور الأخيرة فى قصة حياته إلا صورة وهمية للحقيقة.. لأن الحقيقة أنه قد تدلى من حبل غروره وغرق فى قناة صبرنا وإصرارنا.. فاللهم لا شماتة!

ولكن موسى ديان، طراز من العسكريين يستحق الدراسة مع عظيم الاحتقار..

ولكن إذا قارنت ما كتبته السيدة جولدا مائير فى آخر صفحة من كتابها «حياتى» وهى تحاول إنقاذ موســى ديان تجد الفارق بين هذه السيدة القوية وبين رجل ضعيف لأن الغرور والغطرسة والرعونة قد أطاحت بعقله. تجدها تقول مع الحزن العميق والأســى الرهيب إنها أحســت منذ يــوم ٦ أكتوبــر أن يوما طويلا لا أول له ولا آخر قد بدأ.. وإنها تتمنى نهاية لهذا اليوم.. وإنها حزينة أشــد الحزن لهذا التمزق والانهيار الذى أصاب حزبها.. كما أن الوزراء والزملاء الذين تعاونوا معها فى الحكم لايريدون أن يوقفوا النقد العنيف الذى يوجهه الشــعب إلى موسى ديان وإليها باعتبارهما مسئولين وحدهما عن القرارات التى أدت إلى الهزيمة فى الحرب.

إن الســيدة جولــدا مائير حاولت إنقاذه، أو حاولت أن تحمــل عنه عار الهزيمة، حاولت ولكنها لم تستطع فقد تكفل باغراقه وتكديس اللوم على رأسه، بقيةُ العسكريين والساسة فى داخل الحزب..

وحاولت الســيدة جولدا مائير «برجولة» أن تفك الحبل من حول عنقه.. ولكنه لم يحاول «برجولــة» أن يحكم ربط الحبل حــول عنقه هو ويقول: إننى وحدى المســئول عن كل الذى أصابنى وأصاب القوات الإسرائيلية!

والذى يقرأ ما كتبه القاضى شيمون اجرانات الذى كلف فى ٢١ نوفمبر ١٩٧٣ بالتحقيق فى أســباب الهزيمة والبحث عن «التقصير» فيها يجد أنه يدين موســى ديان، ويدين كل أجهزة الحرب الإســرائيلية. ومعنى ذلك أن الهزيمة كانت للجميع بنسبة متفاوتة، ولكنها أصابت موســى ديان فى الصميم. ولابد أن له حســابا عسيرا مع التاريخ، وأظن أن الحساب قد بدأ فى إسرائيل وبأقلام الكثيرين ويكفيه ويكفينا - مؤقتا - هذا العقاب المرير..

وكما هى عادتى عندما أخلو بنفسى، وأنا أفعل ذلك كثيرا وأعتقد أن كل سياسى يحتاج إلى هذه الخلوة للتأمل واتخاذ القرار الهادئ، راجعت خطواتى فى السنوات الأخيرة..

واهتديت إلى أن الطريق الذى يمتد من القاهرة إلى موسكو قد تكاثرت فيه الثلوج..

وأن هذا الطريق لم يكن مســتقيما طول الوقت، وأعرف أن السياســة ليســت فيها خطوط مستقيمة.. ولكن فيها انكسارات حادة وانكسارات لينة..

فمنذ اللحظة الأولى لتولى سلطة الحكم فى مصر تأكد الروس أننى لست رجلهم فى مصر.. وإنمــا أنا رجل مصــر أولا وأخيرا.. كما حاولت كثيرا أن أكون واضحا وأن أكون مفهوما، وأن

أؤكد لهم أنه من الطبيعي جدا أن يكون الإنسان وطنيا، وألا يكون منحازا للشرق أو للغرب، وأن أكــون فقط منحازا لمصر.. تمامــا كما أن الروس لاينحازون للغــرب، وإنما هم منحازون لروسيا ومصالحها.. وكما أن الأمريكان منحازون للغرب ولأمريكا أولا وأخيرا.

وكل هــذه بديهيات، ولكن تعلمــت فيما بعد، أن الدول الكبرى لهــا منطق، إذا حاولت الدول الصغرى أن تطبقه على نفسها، اعتبروا ذلك سفالة.. قالها دالاس، كما ذكرت من قبل. ولم يقلها الروس ولكنهم يفعلون ما هو أسوأ من ذلك، يرفضون هذه المعانى ويعادونها. وهذا واضح تماما فى كل ما ذكرت..

ولــا أصدرت قرارى برفع الحراســة فى ســنة ١٩٧٠ اعتبر الروس هذا القــرار «ردة» أو «انحرافا» أو نوعا من «التحريف» - على حد تعبيرهم المشــهور - أى إننا من «التحريفيين» فى تطبيق الاشــتراكية.. وأدهشــنى أن يكون ذلك موقفهم.. فهذا قــرار مصرى لحاكم مصر لصــالح مصر فما دخلهــم؟ ولكن رفع الظلم وتخفيف التوتر وأن يكون فى مصر من يملك أرضا أو بيتــا أو يملــك حريته أو يملك قــراره، كل ذلك يعتبر كفرا بالاشــتراكية وتحطيما لصنم «الاشتراكية»..

ثــم جاءت ثورة ١٥ مايو ســنة ١٩٧١... ومــع أننى فى أول الأمر أعلنــت أن هذه الثورة هى «تصحيح لمســار» ثورة يوليو.. وأن الذى فعلته على أرض مصر، هو ما يفعله الســوفيت والأمريكان فى الســماء.. عندما يصححون مســار ســفن الفضاء.. وتصحيح المسار ليس نسفا لســفن الفضاء.. وإنما هو إبقاء عليها فى إطارهــا الصحيح حتى لا تفلت من أيدينا إلى الفضاء الخارجى.. أو إلى الفوضى الخارجة على القانون..

ولذلــك صفيت مراكز القوى، واعتبروها غلطة لا تغتفر، فقد كان من مراكز القوى عدد من رجالهم، أى إننى «فقأت» عيون رجالهم.. ثم أنهيت تآمرهم على مصر من أجل الســوفيت، واعتبروا ذلك قرارا معاديا لهم..

وبعد ذلك حاول الشــيوعيون قلب نظام الحكم فى الســودان، وكان لابد أن أقف مع الثورة الســودانية ضد التخريب الشيوعى فى يوليو ١٩٧١، فالسودان هى مصر ومصر هى السودان، ولا أسمح ولن أسمح مستقبلا أن تكون الشيوعية على حدودنا الجنوبية.. فلا أنا شيوعى، ولن أكون.. لأننى لست عميلا لروسيا، ولن أسمح بالعمالة لها فى مصر.

وبعد ذلك أصدرت قرار طرد الخبراء السوفيت من مصر سنة ١٩٧٢، وكان ذلك القرار نتيجة لمقدمات طويلة أرهقتنى عقلا وجسما وقلبا، وأهانت شعبنا ومرغت كرامته فى الطين.

ولو أنك أعطيت أذنك لرجالنا من الضباط لسمعت العجب عن الذى فعله الخبراء بهم، إن أقل كلمة يمكن أن تصف ما لاقاه ضباطنا على أيدى الخبراء السوفيت هى: الذل والهوان.. أو الهوان الذليل أو الذل المهين.. وكان هذا القرار من وحى مسئوليتى فهو قرار مصرى تماما، ولكن الروس كعادتهم فى الشك وسوء الظن، تصوروا أنه قرار أمريكى مصرى، أو قرار أمريكى فقط.. ولكن هذا لا يهم..

وجاءت الحرب وانتصرنا فيها، وساءهم ذلك، وحاولوا تعويقها، وإخراجنا منها، والكذب علينا لعلنا نوقفها، وعطلوا إرسال الإمدادات. ثم وصل كيسنجر إلى القاهرة، وكان وصوله تتويجا لكل سوء النية الذى أقام عليه السوفيت فهمهم لمصر.. وقبل أن يصل كيسنجر وزير خارجية أمريكا إلينا فى نوفمبر ١٩٧٣ كنا نواجه أمريكا فى سيناء، فقد نزلت أمريكا بأسلحتها المتطورة، وكان علينا أن نكون عقلاء أو انتحاريين، واخترنا العقل عندما أوقفنا القتال مع أمريكا..

وبعد ذلك دخلنا فى مواجهة مستمرة مع أمريكا عن طريق لقاءاتى مع د. هنرى كيسنجر فهو طراز جديد من وزراء الخارجية الأمريكية، ولذلك كان أسلوبه فى النقاش والحوار والوصول إلى شىء مؤكد على طريق السلام، مختلفا تماما..

وبالنظر إلى الطريق الممتد المتكسر بيننا وبين موسكو نجد أننا نمد أيدينا ونحاول وننتظر ولكن - ويجب أن أضع ألف «ولكن» - لا أجد بصيصا من النور فى هذا الضباب الكثيف.. أو لا أجد موطئ قدم على هذه الأرض الجليدية البيضاء.

ولو كان الطريق إلى موسكو ذهابا وإيابا نزهة، ما ترددت أن أفعل ذلك فما أشد حاجة الإنسان إلى الراحة والتغيير.. ولكن هذا الطريق هو شريان حياة.. أو قصبة هوائية..

وكل الذى حاولت أن أفعله، وأعترف بذلك، أننى أردت أن أجعل الطريق إلى موسكو طريقا إلى حياة.. ولكن الروس يريدون أن يجعلوا هذا الطريق: الحياة.. أى لا حياة لى بغيره.. كأننى جنين.. وكأن هذا الطريق هو «الحبل السرى» الذى أعيش منه وبه وعليه.. وهذا مارفضته منذ البداية.. رفضت الاعتماد المطلق على روسيا.. رفضت تسليم إرادتى وقراراتى وبلدى لأى أحد.. فلا أنا أفلحت فى إقناعهم، ولا هم أفلحوا.

وجاءت الأحداث بعد ذلك، تؤكد صدق رؤيتى وخطأهم.. ولكنهم لا يعترفون بخطئهم، لأن لهم هدفا آخر، ولأن لديهم مخططا جاهزا. هذا المخطط يستهدف مصر والنظام فى

مصر ومستقبل المنطقة كلها.. ومن المؤكد أننى لست «رجلهم».. وإنما أنا رجل مصر، وهذا قدر وشرف..

وسوف يؤكد التاريخ صدق ما أقول.. وسوف يوضح التاريخ ما يخبئون لمصر ولغيرها من الدول العربية والدول الأفريقية..

وبعد ساعة واحدة من لقائى بهنرى كيسنجر قلت لنفسى: أخيرا جاءنا من أمريكا رجل يمكن أن أثق به وأعتمد عليه.. وإنه هو الرجل الذى يقدر على فعل شيء، لأنه قد درس كل شيء. وأهم شيء درسه هو «البعد النفسى» لهذه القضية المعقدة بيننا وبين اليهود.

ومع رحلات المكوك التى قام بها كيسنجر بيننا وبين إسرائيل بدأت سياسة حركت الموقف، وحركت السوفيت ضد الموقف كله، وضد مصر..

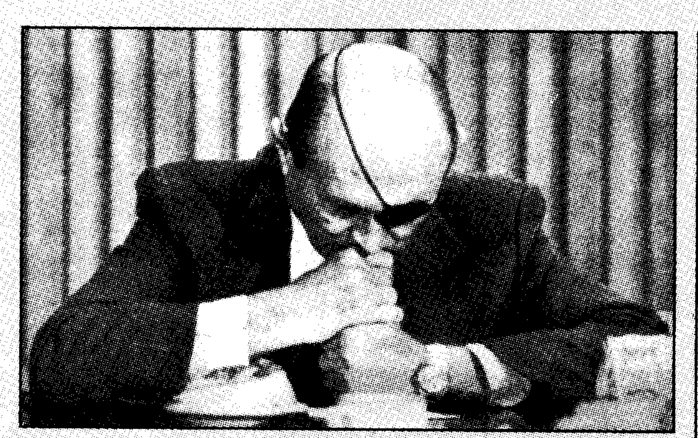
□□□



١ - الجنـود المصريـون أثناء العبور .



٢ - فرحـة النصـر على وجوه الجنود المصريين .



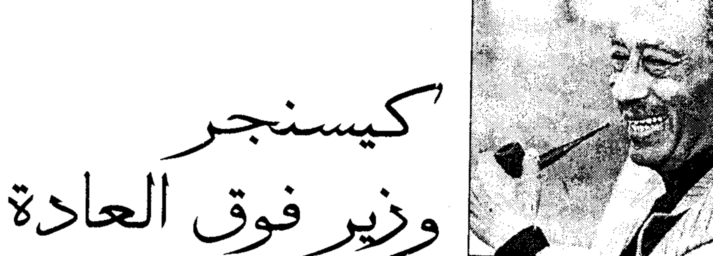
٣ - موسى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى بعد هزيمته فى حرب ١٩٧٣ .



٤ - جولدا مائير حاولت إنقاذ موسى ديان عندما أعلنت مسئوليتها عن أخطاء كل الأجهزة فى تقدير استعدادات مصر للحرب.



٥ - الرئيس الجزائرى هوارى بومدين والرئيس السادات .



كيسنجر
وزير فوق العادة

- حماقة دالاس كانت سببا مباشرا لسوء العلاقات المصرية الأمريكية.
- جولدا مائير تعطى روجرز درسا أخلاقيا وتتسبب فى طرده من الوزارة.
- مترنيخ يعترف: كثرة النجاح أرهقتنى كما أرهقتنى كثرة المصائب.
- توازن الرعب؛ سياسة أمريكا فى التعامل مع دول العالم.

لا بد أن هذه الفترة التى نعيشها بعد حرب أكتوبر كنز للمؤرخين. ففيها أطراف ومحاولات كثيرة لحل الموقف أو تعقيده.

فهى قضية متعددة الخيوط. وكل جوانبها قابلة للالتهاب فى أية لحظة، ليبدأ كل شىء من جديد. وربما كان عيب المؤرخين أنهم متشائمون لانهم ينظرون إلى الجانب الأسود الدامى من هذه الصورة. ولا تلفتهم إنجازات كثيرة تمت على مهل وفى هدوء.. وأتذكر عبارة للمؤرخ الأمريكى المشهور ول ديورانت يقول فيها: إن التاريخ نهر له ضفتان. وفى مجرى النهر تطفو جثث وتتعالى صيحات ونار ودخان ودموع.. وينظر المؤرخون إلى مجرى النهر.. وينسون أنه على الضفتين قامت مزارع ومصانع ومدارس ومتاحف.

ولكن الإنسان عندما يكون فى قلب الأحداث، أو فى مصنع الأحداث. لا يرى ما حوله بوضوح.. لا يدرى إن كان يحرك الأشياء أو يتحرك معها..

وكيسنجر هو الذى قال: إن الحاكم هو الذى يّجلس أمام عجلة قيادة فى سيارة اسمها التاريخ.. فهو يحرك ويتحرك معا.. وكيسنجر أيضا هو الذى قال فى واحد من كتبه: إن السياسى هو أحد أدوات القدر..

ولكن عيب هذا الرأى الأخير أنه يجرد السياسى أو الحاكم من صفات شخصيته ومن صفات شعبه وظروفه ومن التاريخ العام للجميع.. ومن المناسب أن أتوقف بعض الوقت عند هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر والشرق العربى والعالم كله..

وأعود – كما هى عادتى دائما– أتلفت ورائى. لأرى أين كنا؟.. وأين نحن؟.. وأين نذهب بعد ذلك؟.. ولا أدعى أننى أملك ناصية كل الأمور، ولا أحد يدعى ذلك..

وأول ما ألاحظ أنه فجأة قد تغير المثلون على مسرح السياسة الأمريكية..

• فبعد دالاس جاء روجرز وبعد روجرز جاء كيسنجر.. ومن مقارنة الثلاثة يبدو لنا كيسنجر أفضلهم جميعا. وأقدرهم على الفهم، وهو لذلك أقدرهم على أن يحقق النجاح.

وأرى أن روجرز كان سيىء التقدير. أو على أحسن الاحتمالات كان ساذجا. فقد كان على يقين من أن إسرائيل سوف تقبل المبادرة التى تقدمت أنا بها. ولا أعرف على أى أساس أقام روجرز هذا اليقين. ولذلك لقى ما يستحقه من عقاب. فقد هاجمته السيدة جولدا مائير فى الكنيست. وظلت تطارده حتى طردته من وزارة الخارجية.. وقد أعطته درسا فى الأدب أو فى الأخلاق. وكان الدرس عنيفا. ولكن إذا كانت السذاجة جريمة فى السياسة والدبلوماسية، فالكوارث هى العقوبة، وكان روجرز كارثة على نفسه.

ولم أجد فى روجرز شيئا يبهر من يتحدث إليه. فلم يكن على درجة كثيرة من فهم القضية. ولذلك كان كالمحامى الذى ذهب إلى المحكمة ليترافع وليس فى يده دوسيه واحد، ولا هو قد أعد دفاعه عن الجانب الذى يمثله..

وفى قضايا التاريخ يكون القاضى أسرع فى اتخاذ القرار. والذى يريد أن يستوقف التاريخ، يدوسه التاريخ.. وقد داسته الأحداث. وقبل روجرز كان دين رسك. وقد دعانى فى سنة ١٩٦٦ لزيارة أمريكا. وجلست معه كثيرا وطويلا. ولكن لاحظت أن الرجل قد أراح نفسه تماما، فلم يشأ أن يدخل معى فى صلب الموضوع. بل كان يتفادى الدخول بعبارة غامضة. أو بنكتة. أو بتحويل اهتمامى إلى أى شىء آخر..

وظننت أول الأمر أن الرجل ليس مفوضا فى أن يفاوضنى أو يناقشنى. أو أنه لم يدرس القضية تماما. أى إنه ليس مستعدا لذلك. غير أنى عرفت فيما بعد أن الرجل على صلة عميقة باليهود. وأنه قد اتخذ جانب إسرائيل. وأنه لذلك لم يشأ أن يفتح حوارا مفيدا معى.. فإسرائيل لم تفوضه فى ذلك.. وقد اعترف بذلك ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل. ومعنى ذلك أن صمت دين رسك لم يكن تفاديا لموقف، بل كان موقفا محددا.

وهذان الرجلان رسك وروجرز يدخلان التاريخ من باب ضيق. لأنهما من الوزن المتوسط أو دون المتوسط.. فلم يكن من الممكن أن نتوقع معهما أو على يديهما شيئا يحرك القضية أو يساعد على تحريكها أو حلها..

وفى الدبلوماسية الأمريكية سوف يخصصون صفحات طويلة لرجل يعتبرونه قمة الدبلوماسية هو: فوستر دالاس. فهذا الرجل قد تخصص فى دراسة القانون الدولى. تعلم فى جامعات أمريكا وفى جامعة السوربون الفرنسية. وكان ضمن الوفد الأمريكى فى مؤتمر الصلح فى فرساى.. واشتغل بالمحاماة والدراسات الدولية حتى اختاره ايزنهاور سنة ١٩٥٣ وزيرا للخارجية.

وبهذا الرجل دالاس اتخذت أمريكا سياســة تقوم على العنف، أو على التهديد بالعنف. فقد كانت أمريــكا أقوى دولة فى العالم فجرت نواة اليورانيــوم والهيدروجين والكوبالت.. وكان أســلوبه فى السياسة الخارجية إظهار أنياب ومخالب أمريكا. فلا يجرؤ أحد أن يتقدم خطوة ويحمل سلاحه ليحارب أمريكا أو يشعل حربا عالمية..

ومن عباراته المشــهورة: إن قدرة أمريكا على الردع يجب أن تكون مكثفة حتى تمنع قيام الحرب بأى شــكل من الأشكال.. وقال أيضا وترددت عباراته فى الدنيا فملأتها فزعا ورعبا: إن قدرتنــا علــى الوصول إلى حافة الحرب دون التورط فيها، لهى قمة الفن السياســى.. وإذا نحن لم نتفوق فى هذا الفن، فسوف ندخل الحرب لا محالة. وإذا حاولنا أن نهرب منها، أو تخوفنا من الإقدام عليها، كان مصيرنا الضياع.

ومعنى ذلك أن دالاس يخيف روسيا وأمريكا فى نفس الوقت.. ويخيف بقية دول العالم.. ومعنى عبارات دالاس: إننا إذا لم نقم بتخويف العالم كله باشــتعال الحرب، أو إذا ترددنا فى ذلك، فســوف تقع الحرب لا محالة. أى لا سبيل للوقاية من الحرب سوى التهديد بها.. أى ســوى أن يهدد هو العالم كله بذلك.. وقد وصفت سياســته بأنها سياسة (توازن الرعب). وربما كان تشرشل هو أول من استخدم هذا التعبير بعد أن أطلقت أمريكا قنبلتها الذرية على اليابان.. فأشــار إلى أن السوفيت إذا حصلوا على القنبلة الذرية، فسوف تتعادل قوى الرعب النووى فى العالم كله.

وهذا الرجل- دالاس- هو المســئول الأول عن سوء فهم مصر أو تسوىء العلاقات المصرية الأمريكية. فكان من حماقة هذا الرجل أن هاجم سياسة عدم الانحياز. أى هاجم العالم الثالث كله. فهو يرى أن الدول الصغيرة أو الدول كلها يجب أن تقف شرقا أو غربا. أما إذا وقفت بين الشرق والغرب، فهذه ســفالة أخلاقية، وهو رجل متشدد ومتزمت. ولذلك لا يفهم أن يكون الإنسان وطنيا قوميا لا هو مع الشرق ولا مع الغرب.. أى لا يجرى ويدوخ فى الفلك الروسى، ولا يجرى فى الفلك الأمريكى..

ولعلى كنت أشير إلى هذا عندما تحدثت فى الكونجرس الأمريكى قائلا: إننى جئت إليكم كصديق.. لا كحليف.. وفرق كبير بين أن يكون الإنسان صديقا وبين أن يكون حليفا..

فبــين الأصدقاء كثير مــن العتاب والمصارحة، وليس من الضــرورى أن يتفق الأصدقاء فى كل رأى أو أن يتحــدوا فى كل موقــف. أما الحليف فهو ذلك المنحاز تماما.. أى الذى أعارهم

عينيه، فلا يرى بهما. وأعطاهم أذنيه فلا يسمع بهما.. إنما هم الذى يرون له ويسمعون له ويفكرون له ويدبرون فى النهاية..

ولذلك لم يفلح دالاس فى أن يفهم الكثير من القضايا الدولية، والقضية المصرية والعربية أما الخطأ فليس فى أن هذا الرجل عاجز عن الفهم. ولكن فى أن نقطة البداية، هى فى نفس الوقت هى نقطة الخلاف.. أى هو يبدأ الطريق معك بأن يتجه إلى وجهة أخرى.. ومعنى ذلك أنه لا يمضى وقت طويل على السير معه حتى يكون كل واحد فى طريق.. وحتى يغيب كل من يمشى معه عن عينيه وعن أذنيه.. وسوف يهتم المؤرخون الأمريكان كثيرا جدا بهذا الأثر البليغ الذى تركه دالاس فى السياسة الأمريكية وفى السياسة العالمية. وإذا كان الأمريكان قد كسبوا كثيرا من العصا الطويلة التى كان يلوح بها دالاس فى الشرق والغرب، فإن هذه العصا قد ألقت ظلا كثيفا على كثير من المشاكل، فغابت عن أمريكا، أو غابت عنها أمريكا..

وبسبب دالاس ووزراء آخرين غيره، ظهر كيسنجر طرازا مختلفا من الساسة الأمريكان صحيح أن مسرح الأحداث قد تغير تماما.

وتقاربت القوى العظمى فى عالم الذرة وفى عالم الفضاء. فروسيا قد أطلقت أول قمر صناعى سنة ١٩٥٧. ولحقتها أمريكا.. ثم تتابعت الدولتان فى السباق الرهيب نحو الكواكب الأخرى. وأنزلت أمريكا أول إنسان على القمر.. وأطلقت سفنا أخرى إلى المريخ والزهرة.. تعادلت القوتان العظميان. وإن كانت التكنولوجيا الأمريكية أكثر تفوقا.. وكان من الضرورى أن يختلف أسلوب كيسنجر عن أسلوب دالاس فى التلويح بالرعب.. أو التلويح بالتعايش فى ظل الرعب.. أو فى التوفيق أو الوفاق بين الدولتين (الأعظم والأقوى) على نحو ما كان فى القرن التاسع عشر بين روسيا وفرنسا.. أو بين فرنسا وبريطانيا فالتاريخ يعيد نفسه بشكل ما..

وسوف يتناول المؤرخون عندنا خطوات كيسنجر ويتوقفون عندها طويلا وعميقا، فقد دخل هذا الرجل فى قلب المشكلة العربية اليهودية. دخلها قبل أن يجىء إلينا. ودرسها وتعمقها تماما. وقد ساعده فى ذلك أنه تخصص فى السياسة الدولية. أو فى الاستراتيجية الدولية. والأمن القومى.

وقد اختلف كيسنجر منذ البداية مع السياسة التى سادت الفكر الأمريكى: أى سياسة حافة الهاوية.. أو حافة الحرب.. وقد صدرت لكيسنجر كتب عميقة. وإن لم يكن من السهل قراءتها.. أى ليس من السهل على الذى لم يتمرس فى السياسة، ويسبح فى المياه الدولية بمشاكلها ومتاعبها وانفجاراتها أن يستمتع بها.

فله كتاب عن «الأسلحة النووية والسياسة الخارجية». هذا الكتاب كان من أكثر الكتب انتشارا عند ظهوره فى سنة ١٩٥٧. ولكن.. كان من أقل الكتب شعبية فى ذلك الوقت أيضا.. وفى هذا الكتاب جاهر بعدائه الشديد لسياسة «الردع المكثف» التى نادى بها دالاس.. وصدر لكيسنجر كتاب آخر اسمه «ضرورة الاختيار» فى سنة ١٩٦٠. وقد تأثر به الرئيس كنيدى كثيرا.

ومن أهم كتب كيسنجر وأمتعها أيضا كتاب عن توازن القوى فى أوائل القرن التاسع عشر. تناول فيه اثنين من ألمع الساسة فى ذلك الوقت هما: مترنيخ الوزير النمساوى وكاسلرى الوزير البريطانى فى عصر نابليون. والكتاب عنوانه «عالم أعيد ترتيبه - مترنيخ وكاسيلرى ومشاكل السلام ١٨١٢- ١٨٢٢». وهذا الكتاب لابد أن تكون له أهمية خاصة. لأن له دلالة خاصة عند كيسنجر نفسه، الذى له دور إيجابى عندنا بسبب ما قام به من خطوات قبل وأثناء وبعد حرب أكتوبر ومحاولات تحقيق السلام بعد ذلك.

وقد لاحظ كثيرون من المتخصصين أن كيسنجر قد اتخذ له مثلا أعلى ذلك الرجل النمساوى مترنيخ الذى استطاع أن يتحكم فى السياسة الدولية فى أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر. وأن يقف بين قيصر روسيا الكسندر وامبراطور فرنسا نابليون.. وبين النمسا نفسها وبروسيا.. وأن يحاول أن يحقق توازن القوى. وأن ينشر السلام بشكل ما..

وقد أعجب كيسنجر بهذا الرجل إعجابا شديدا، حتى ليقال: إنه يطبق بالحرف ما فعله مترنيخ.. وهذه العبارة مبالغ فيها، لأن التاريخ إذا كرر نفسه فإنه لا يعيد نفسه بالضبط.. وإذا حاولت - الآن- أن أقلب فى بعض الكتب وأرجع إلى سطور معينة اخترتها فإننى أمارس عادة قديمة لأننى أحب التاريخ وأطيل النظر فى صفحاته، وأطيل السمع لصوت عجلاته قديما وحديثا..

وما دمت أتحدث عن دور كيسنجر فى المنطقة، وهو الدور الذى أغضب السوفيت حتى اليوم، فسوف أتوقف عند بعض العبارات الكثيرة جدا التى بهرت كيسنجر. لتكون هذه العبارات خطوطا من معالم الصورة التى أرسمها لكيسنجر أو لدور كيسنجر فى فهم القضية. وأرى أن هذه خطوة ضرورية.. لأن (العامل النفسى) كما ذكرت كان شرطا (هاما) للنجاح.. أى لابد من دراسة نفسية أطراف النزاع لتكون وسيلة لإضاءة جوانب هذه القضية المعقدة.. ولذلك سوف أستعين بشخصية مترنيخ على فهم كيسنجر، وأستعين بفهم شخصية كيسنجر على فهم خطواته ومحاولاته التى أدت فى النهاية إلى إعجابى به وصداقتى له...

مثــلا يقول مترنيخ: إن السياســة مثل أية مســرحية، إذا ارتفع الســتار بدأ التمثيل، لا محالــة. وإذا حــاول إنســان أن يوقف التمثيل بعد ارتفاع الســتار كان إنســانا مخبولا، لأن التمثيل ســوف يمضى فى طريقه، ســواء بالمثلين أنفســهم، أم بالمتفرجين الذين سوف يصعدون على خشبة المسرح.. والأذكياء لا ينظرون إلى ذلك على أنه جوهر المشكلة. فالمشكلة قد بدأت قبل ذلك: هل نفتح الســتار أصلا؟ هل يكون هناك متفرجون؟ هل لهذه المســرحية أية قيمة فنية؟.

ويقول أيضا: لقد تعلمت شــعوب أوروبا فى العشــرين عاما الماضيــة أهمية حجم القوات العســكرية، ومعنى الحرب والدمار. لذلك لا يمكن خداعها فيمــا يتعلق بالنتائج المحتملة للأحداث الأخيرة.

وعندما يتحدث مترنيخ عن النمسا، ذلك البلد الصغير الواقع بين روسيا فى الشرق وفرنسا فــى الغرب يقول: ليس أمام الدولة الصغيرة إلا المفاوضة. إنها وســيلتنا الوحيدة للبقاء. فإذا تفاوضنــا وانهالت علينــا الضربات، وجب علينا أن نبتســم أثناء ذلك. إنهــا لعبة الصبر.. ونابليون يعتمد على أن له جيوشــا قوية، وأنا أعتمد على أن أؤكد له دائما أنه ليس قويا إلى هذه الدرجة!.

ويقول كيســنجر عن مترنيخ: لقد كان يعتمد على «ســيولة» الموقــف. أى يجب أن يكون النهر سائلا بلا جليد، ذهابا وإيابا..

ولو عدت إلى العنوان الفرعى لهذه المذكرات لوجدت أننى اخترت عن عمد: الجليد يذوب بين موســكو والقاهرة ولم أقل الجليد لا يذوب - مع أن هذه هى الحقيقة - وكان أملى: لعله يــذوب. ولكن لاحظت، أن الجليد بقدرة قادر تحول إلى حديد لا يذوب.. حتى أصبح الحديد والجليد شــيئا واحدا. إنه الحديد البارد. فأنا منــذ وليت الحكم وأنا أدق حديدا باردا ممتدا بين موسكو والقاهرة، فلا هو يلين ولا هو يذوب.

وكل ما حرصت على أن أقوم به هو أن أنفض الجليد عن الحديد.. فلم أستطع، ولا ساعدونى، أن أذيب الحديد أو الجليد، فتكون هذه «الســيولة» التى ينشدها مترنيخ والتى حرص عليها كيسنجر بعد ذلك بقرن ونصف قرن..

ومما كتبه مترنيخ واستحق فعلا إعجاب كيسنجر بعد ذلك قوله: أن يقود الإنسان سفينة حطمتها العواصف عشــرين عاما، وسط الأمواج والصخور وألوف العقبات والضغوط وأن يتجه بها إلى عرض البحر، لهى قدرة هائلة ليست متاحة للكثيرين فى هذه الدنيا..

وقد علق كيسنجر على ذلك بقوله: ولكن أثبت مترنيخ بعد ذلك أن قيادة سفينة فى بحر هادئ أصعب من قيادتها فى بحر هائج. فأمام هياج البحر تتولد قدرات الإبداع والإصرار فى أعماق الإنسان، وهو يدافع عن حرصه على البقاء!.

ويقول مترنيخ أيضا: إن كثرة النجاح أرهقتنى، كما أرهقتنى كثرة المصائب!.

وعندما يتحدث مترنيخ عن أصدقائه وعن العلاقات التى بين الناس تجد فيه نبرة الأسى والحزن والتشاؤم أيضا. يقول: أشعر أننى وسط نسيج العنكبوت وليس أصدقائى إلا مجموعة من العناكب إلى جوارى. أحبهم. ولكن يجب أن نبقى معا فى هذا النسيج. إن هذا النسيج له شكل جميل. ولكنه فى نفس الوقت مجموعة من الخيوط الأنيقة الواهية. هذه الخيوط تصد أشعة الشمس، ولا تقوى على صد الريح.

«ولكننا جميعا ارتضينا شروط الصداقة، أو شروط لعبة الصداقة. ولذلك فلم أتوقع أن ينسف الأصدقاء خيوط العنكبوت، فى لحظة من لحظات الغضب... لأننا جميعا قد تمسكنا بشروط اللعبة!». أما أسباب عبقرية مترنيخ فى نظر عاشقه كيسنجر فهى: أن لديه قدرة هائلة على فهم جوهر أية قضية أو أى موقف. وهذا الفهم يجعله قادرا على الحركة. وإذا تحرك اتجه إلى خصومه ليتغلب عليهم واحدا واحدا. يقول مترنيخ عن نفسه: كل إنسان يريد شيئا ما، دون أن تكون لديه فكرة واضحة عن ذلك. ولكنى أنا أعرف ما أريد، وأعرف ما يقدر عليه الآخرون وما يعجزون عنه أيضا. ولذلك فأنا جاهز دائما لكل موقف. يقول كيسنجر: إن هذه العبارة هى قمة الغرور والثقة بالنفس، ولكنها صحيحة تنطبق عليه فى كل الظروف والمواقف المعقدة الصعبة.. ويقول كيسنجر: أن هذا الرجل قد نجح لا لأنه كان مقنعا فى المناقشة، ولكن لأنه كان مقنعا ومفحما أيضا.

وهذا الرجل مترنيخ يؤكد دائما أنه شخصية لا تتكرر. بل تتشابه مع شخصيات أخرى فى التاريخ . لأن التاريخ له دوائر أو له قواعد وإذا تكررت أحداثه فإنها لا تتطابق تماما..

ولذلك يقول مترنيخ ويؤيده كيسنجر: إن الشعوب كالأفراد ينسون تجاربهم. كأن تجاربهم علمتهم ألا يتعلموا. أو كأن التاريخ علمهم ألا يتعلموا منه شيئا.

ويقول أيضا: إن حوادث التاريخ تتكرر، ولكن ليست بنفس الشكل والحجم. فالإنسان إذا رأى فيلا لأول مرة، فإنه لا يدرى ما هذا الحيوان الذى أمامه.. إلا إذا كان قد رأى صورة

لهذا الحيوان. فى هذه الحالة فقط تصبح الصورة تجربة، ويصبح الفيل نفسه حقيقة انطبقت عليها التجربة..

ويقــول: وكلمة «فيل» لا تدل على كل صفات هــذا الحيوان. تماما كما أن قانون الجاذبية الذى اكتشـفه نيوتن عندما رأى التفاح يســقط من الشــجر على الأرض، هذا القانون لا يدل على صفات التفاح أو خصائصه.. إنما يدل هذا القانون على علاقة بين كل الأشــياء التى تسقط بين الأرض التى تســقط عليها.. ونفس الشــىء يمكــن أن يقال فى التاريــخ: فنابليون ليس بالضبط هتلر.. كما أن كاسلرى ليس بالضبط تشرشل.. وإنما التشابه بينهم جميعا فى المشاكل والظروف التى يواجهونها..

وكذلك كيســنجر ليس بالضبط مترنيخ.. وإنما هناك تشابه بين الرجلين. وأمل كل منهما أن يحقــق توازن القوى. وأن يكون هذا التوازن عن فهم وعن ديناميكية.. أى عن حركة حتى لا تتجمد الأنهار بين الأطراف المختلفة.. ومن براعة كيسنجر أنه عرف بالضبط هذا الخلاف العنيــف الطويل بين العرب وبين اليهود. وربما احتمى كيســنجر فى أنه يهودى.. أو تذرع بأنه يهودى أمريكى ألمانى الأصل. وأنه بذلك يمكن الاطمئنان إليه. ولا يمكن التضحية به.

ولكنــه لم يكتــف بهذه الصفــات التى يمكن أن تتوفــر لكثيرين، بل اعتمــد على ذكائه وصبره وفهمه.. ولذلك نجح كيسنجر فى أن يكون مستشارا للأمن القومى لخمسة من الرؤساء الأمريكان: ايزنهاور وكنيدى وجونســون ونيكسون وفورد.. واستطاع أن يكون الرجل الثانى فــى أمريــكا عندما أصبح وزيرا لخارجية نيكســون وفورد من بعــده.. ولم يحدث فى تاريخ أمريــكا أن ارتفــع مهاجر فى مثل هذا الوقت القصير- أى منذ ســنة ١٩٣٨- فأصبح فى مثل هذا المكان الرفيع..

ومن العبارات ذات الدلالة على شــخصية كيســنجر أنه كثيرا ما كان يقول: ليس فى نية أمريكا أن تشــترى ســلاحا زائفا على حســاب أصدقائنا. فالولايات المتحدة لن تضحى، وهى تعلم، بمصالح الآخرين. كما أن المصالح المشــتركة ليست حقيقة ثابتة جامدة.. إن المصالح فى حاجة إلى تعريف وتحجيم مستمر..

ومــن المصادفــات الغريبة فى حياتى، أن أجد فى كراســة مختومــة كل صفحاتها بخاتم الســجن وبتاريخ يوم ٢١/ ١٠/ ١٩٤٧ عبارة لمترنيخ. هذه العبارة بالإنجليزية. احتفظت بها كما هى..

وفـي ذلك الوقـت لم أكن أعرف أين أنا،ولا ما هو طريقـي، ولا كيف ينتهي بي القدر.. ولا أحد يستطيع، مهما أوتي من بصيرة أو قدرة على الخيال، أن يتصور ما الذى سوف أكون عليه بعد ثلاثين عاما.. أو حتى بعد خمس سنوات من كتابة هذه السطور.

تقـول السـطور الغريبة العجيبة: إننى أملـك الآن الكثير من الثراء والشـباب والصحة والمجد والقوة والحب، ولو وصفت اليوم نفسـي بأننى سـعيد، فإنما يرجع ذلك إلى المواهب التـى منحنى القدر إياهـا.. ولكن هذه المواهب علمتنـى أيضا أن أرفع عينى إلى ما هـو أسمى من السعادة..

وإذا كانت هذه الرحلات الرائعة التى قمت بها قد أتت لى بالسـلام الذى أنشده والسعادة التى أتمناها، فسبب ذلك فقط أن هذه الرحلات قد علمتنى كثيرا.. وإن كانت الرحلات فى حد ذاتها ليست هى مصدر سـعادتى وسلامى. وأنا أعرف اليوم جيدا، أننى لوتجملت بالحكمة بعض الشـيء، لاستمتعت بحياتى، دون حاجة إلى أن يساعدنى القدر.. «وأعرف اليوم أننى أكثر سـعادة من الأمس، لأننى تعلمت على الأقل، أننى لم أعد فى حاجة إلى مزيد من الحظ لكى تتحرر روحى وينشـرح للدنيا صدرى..» وكان شـيئا مدهشا حقا أن يتصور الإنسان فى الزنزانة رقم ٥٤ أنه يمكن أن يتجاوز قيود الزنزانة وأن يرتفع فوقها ويشعر براحة النفس.. وما من شك فى أن رغبات الإنسان هى زنزانة تتحكم فى حركاته.

غير أن العقل وتجارب السنين والبساطة والقناعة هى التى تجعل الإنسان أكبر من ظروفه، وأخف وزنا، لأنه قد تحلل من قيود رغباته. وكل رغبة هى قيد وهى عبء. والرغبات قيود من حديـد وزنزانة من الحجارة الباردة والظلام الداكن والصمـت الرهيب.. أو لعلى وجدت فى مثل هذه الكلمات نوعا من التعزية أو نوعا من التعويض.. أو المواسـاة.. ولا أعرف كيف عثرت على هذه العبارة، ولا كيف سـاقها القدر فى طريقى، لكى التقطها وأسـجلها واحتفظ بها حتى اليوم؟!. وفى حياتى مصادفات كثيرة مثل ذلك..

ولكن أليس من الصدف العجيبة أن يجيء إلى مصر رجل مثل كيسـنجر يحاول فك خيوط قضية شديدة التعقيد وأن يكتسب اطمئنان الأطراف المتنازعة. وعن طريق هذه الطمأنينة ذهابا وإيابا، استطاع أن يحرك الشرق الأوسط ؟!

والذين تحمسوا لكيسنجر، كانوا ينظرون إلى ماضيه القريب. وكيف أنه حاول، ونجح إلى حد كبير، فى أن يحقق الوفاق بين أمريكا وروسـيا.. وبين الصين وأمريكا.. وأن يقوم بحصر

الحــرب فى فيتنام، وأن يســحب القوات الأمريكية وينقذ أمريــكا من كارثة قومية، وتمزق عميق فى داخلها.. وأن يتقاسم جائزة نوبل للسلام مع المفاوض الفيتنامى فى باريس..

وعندما جاء كيسنجر إلى الشرق الأوسط كانت قد سبقته إنجازاته الهائلة. وطموحه فى أن ينبع السلام من داخل المنطقة. ولذلك لم يتقدم بمشروع، بل كانت لديه أفكار.. أو اقتراحات أو اجتهادات.

ومع كل خطوة تقدم بها كيسنجر، تأخرنا خطوات فى علاقاتنا بالسوفيت.. ولا نزال..

❑❑❑

١ – الرئيس السادات مع هنرى كيسنجر .

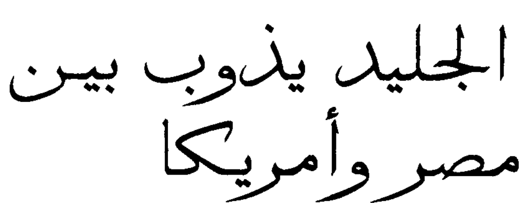
٢ – وليم روجرز .

٣ – فوستر دالاس .



٤ – مترنيخ الوزير النمساوى





الجليد يذوب بين مصر وأمريكا

- الاتحاد السوفيتى يؤلب الدول العربية على مصر..
- إسماعيل فهمى يعلن فشل مفاوضات فك الاشتباك الثانى.
- هنرى كيسنجر رجل لا يعرف اليأس.
- السادات يعلن انتهاء أسلوب الخطوة خطوة أسلوبا للحل.
- وفاة المشير أحمد إسماعيل فى لندن.
- السوفيت يقدمون لمصر مفاجأة كبرى!

أما ملاحظاتي على د. كيسنجر فهى أنه رجل قد درس التاريخ وأطال فيه النظر. وقلبه وتقلب عليه أيضا. وربط بين الدراسة والسياسة، بين كتب التاريخ وأحداث التاريخ، ولذلك لم أجد صعوبة فى فهمه. فأنا - كما قلت - مولع بدراسة التاريخ وملاحظة أخرى على د. كيسنجر.. أن له نظرة شاملة. فهو قد درس القضية من جميع نواحيها.

ومن المألوف أن يقول الإنسان: إن التركيز على شىء يجعله واضحا. إلا فى السياسة.. فإن النظرة الواسعة الشاملة هى التى تجعل القضية أوضح. ولذلك فقد أحسست بعد ساعة من النقاش والحوار أننا متفاهمان.. أو على الأصح من الممكن أن نتفاهم.

وليس معنى ذلك أن وجهة نظرى مطابقة لوجهة نظره. ولكن الذى أقصده أن لغة الحوار واحدة. وأن الأرضية التى وضعنا عليها قضية الشرق الأوسط واحدة. فأنا أستريح إلى التفسير العلمى. ورأى أوضح إذا كانت الرقعة أو الخريطة التى أمامنا واسعة متعددة الأطراف والجوانب.. ومثل هذه النظرة إلى الأمور تجعل اهتمام صاحبها بالقضايا الكبرى فى المقام الأول. وتجعل الاهتمام بالجزئيات شيئا ثانويا. ولذلك عندما أعكف على مثل هذه القضايا، فإننى لا أحب أن أدخل فى تفاصيل جانبية، أو خلافات فرعية .. فأنا أريد أن أرى أوضح. وهذا يعنى أن أرى أشمل.

وقد اختلفت مع د. كيسنجر كثيراً. ولكن هذا الاختلاف تحول بسرعة إلى نقط للوثوب إلى مجالات أخرى للتفاهم. فكل نقطة معقدة يمكن بالمناقشة ورؤية وجهات النظر الأخرى، أن تكون نقطة للالتقاء.

وملاحظة ثالثة: أن هذا الرجل كان صبورا. وأنا رجل صبور، ومصدر صبره هو الواقعية أو هو الموضوعية، أو هو «البعد النفسى» الذى أدركه بوضوح، فنحن واليهود على خلاف شديد. والخلاف قديم. ونتائجه متراكمة. وليس من السهل حل العقد الكثيرة جداً التى بيننا. وإذا كان المثل يقول: إن قطع العقدة أسهل من حلها. فإننى أقول: إن هذا المثل ليس صحيحا فى السياسة. فالعقد السياسية لا يسهل حلها. ولكن قطع المواصلات والاتصالات

والعلاقــات ليس هو الطريقــة المثلى لحل العقد.. وإنما الطريقــة المثلى لتجاهلها وتفويت الوقت المناسب لحلها.

أمام مصدر الصبــر الذى عندى، فهو خلاصة لنظرة واقعية وخلاصة للقدرة على التحمل وضبط النفس وأن الوقت يعمل لصالح الذى لا يخطئ كثيرا والذى لا ينفعل والذى يرى أوضح! ومن الصعب أن يرى الإنسان أوضح إذا كان فى حالة غضب أو إذا كان متعجلا، أو إذا لم يدرس بما فيه الكفاية. ولذلك لم أشــعر بالضيق فى مناقشــاتى مع د. كيسنجر ولا أظن أنه هو شعر بذلك. وإنما أصابه اليأس من الأطراف الأخرى..

وملاحظة رابعة: أن د. كيسنجر قد اكتسب ثقة بالنفس هائلة.

ومثــل هذه الثقــة بالنفس أيضا هى التى صاحبت المقاتل المصــرى والمفاوض المصرى.. بهذه الثقة بالنفس دخلنا حرب أكتوبر وخرجنا منها منتصرين. وهى أيضا التى شــدت أزر المفاوض المصرى. ورجل الشــارع المصرى الذى اســتقبل الرئيس نيكسون بعد ذلك بمنتهى الحمــاس والصدق، وبــلا عقد من أن هذا رئيس أمريكا. إنما نظر رجل الشــارع المصرى إلى الرئيس الأمريكى على أنه قادم من الدولة التى تستطيع واستطاعت أن تحل القضية.

بهذا الشعور التلقائى استقبل الناس الرئيس نيكسون واستقبلوا وانتظروا وتوقعوا زيارات وزير خارجيته د. كيسنجر..

وتتوالــى أحــداث اللقاءات والمفاوضات عنــد الكيلو ١٠١ والنقاط الســت التى جاءت فى خطاب بعث به د. كيسنجر إلى سكرتير الأمم المتحدة كاقتراحات لوقف إطلاق النار وتثبيته وضمانه.. ثم التحرك بعد ذلك من أجل تحقيق سلام على الجبهتين المصرية والسورية..

وجاء اليهود وخرقوا اتفاقية وقف إطلاق النار بعد ثلاث ساعات..

وأعــادت مصر العلاقات مــع أمريكا بعد فض الاشــتباك الأول، فأمريكا هى القادرة على الحل، لأنها شريان حياة إسرائيل وهى التى استجابت لندائها لإنقاذها فى هذه الحرب. ثم نزلت أمريكا عشرة أيام فى المعركة ضدنا..

هــذه هى الحقيقــة. وقد أدركها الناس فى مصر بفطرة وواقعيــة وثقة بالنفس، وبلا لف ولا عقد ودون أن يملئوا رءوســهم بعبارات فارغة تطالبهم بألا يتعاملوا مع الإمبريالية ومع المجرمين الأمريكان.. كيف يتجاهل أى إنسان سليم التفكير، دور أمريكا فى الشرق الأوسط؟ وفى أنها مصدر الحياة لإسرائيل، وهى لذلك القادرة على أن تحل؟ كيف؟!

إن المواطـن المصـرى لم يحتج إلى مجهـود كبير لكى يدرك أهمية زيارة د. كيسـنجر لمصـر أو للمنطقة. بينما فى بلاد أخرى احتاجت الحكومات إلـى أيام طويلة لتهيئة أذهان الناس لقبول زيارة د. كيسنجر. فلما طلب د. كيسنجر أن يجىء لزيارتى رحبت فورا. وجاء د. كيسـنجر لتقوم قيامة الاتحاد السوفيتى. ويحرك أشـكالا وألوانا من الناس فى كل العالم العربـى ضد مصر والقيـادة المصرية. لماذا؟ لأن مصر اتصلـت بالأمريكان. ولأن مصر تعتقد أن أمريـكا هـى القادرة على الحل ولأن مصر قد وافقت على أن يزورها وزير خارجية أمريكا النجم الصاعد فى السياسة الدولية: هنرى كيسنجر.

وعلـى رغم ذلك فقد حرصنـا على أن نظل علـى علاقة طيبة بالاتحاد السـوفيتى. وبعد أن اتفقنا على النقط السـت التى تقدم بها كيسـنجر أرسـلنا ملخصا بـكل ما حدث للاتحاد السوفيتى. وكانت النقط الست تتلخص فى الإبقاء على وقف إطلاق النار، وبداية المحادثات والعودة إلى مواقع ٢٢ أكتوبر فى إطار فك الاشتباك وفصل القوات تحت إشراف الأمم المتحدة وأن تكـون هناك نقط للمراقبـة تابعة للأمم المتحدة على خط وقف إطلاق النار وبعد ذلك يتم الاتفاق على تسليم الأسرى والجرحى..

ولم يسـترح السـوفيت إلى شـىء من هذا كله. صحيح أنهم فى ذلـك الوقت لم يعلنوها صراحة. ولكن لم يفتهم أن يفعلوا ما هو أسـوأ من ذلك. فقد حركوا علينا المنطقة. وتطايرت الاتهامات لمصر من الفلسطينيين والسوريين وغيرها .. لماذا؟

لأننا أخرجناهم – كما يقولون – من المحادثات والمفاوضات ومن التسوية لكل القضية. لأننا نتحرك دون علمهم، أو نتفق من وراء ظهورهم. ولذلك فالذى قامت به مصر هو: حل منفرد.. أو موقف تصفوى.. وأن مصر قررت أن تنسحب من الساحة العربية.. وأن مصر تنكرت لعروبتها.. وأنها انتكست إلى مصريتها وانطوت فى قوقعتها.. وأنها خانت أمانة الأمة العربية..

كل ذلك لأننا نحاول أن نحل القضية مع الطرف القادر على أن يفعل شيئا.

وشـىء غريب أن يتصور أحد أن مصر تنفرد بالحل فى قضية «متعددة» الأطراف.. كيف يكـون الحل مصريا لقضية عربيـة؟.. فالحل يجب أن يكون عربيـا لأن القضية عربية. وقد أثبتـت الأيـام بعد ذلك صحة كل خطوة خطتها مصر. وأعلنتها فـى حينها.. وكل ما أعلنته مصر بوضوح وشـجاعة، هو الذى تبنته بعد ذلـك أطراف أخرى.. فكان غلطة مصر هى أنها سبقت زمانها. لأنها رأت الصورة أوضح قبل أن يدركها الآخرون.

ولكن جريمة مصر فى نظر السوفيت قائمة ومستمرة أنها تتصرف دون إذن من موسكو أو دون اتفاق سابق على كل خطوة تخطوها. وهذا ما رفضته فى كل وقت، وفى كل الظروف وما سوف أرفضه اليوم وغدا. وما سوف أوصى به الأجيال من بعدى: أنه لا سيادة لأحد على مصر إلا مصر نفسها هذا ما فعلت وما تعذبت بسببه، ولن أندم عليه .. وإنما قد أضفت ذلك كله إلى رصيدى من راحة الضمير عندما أتلفت ورائى أنظر إلى ما قدمت لبلدى ولشعبى، مع عظيم الامتنان لله سبحانه وتعالى أن وهبنى القدرة على أن أكون خادما مخلصا لمصر. ومدافعا حتى الموت عن كرامتها!

ولكن السوفيت أشاعوا أن هناك «طبخة» سرية تقوم بها مصر.. هذه الطبخة هى اتفاقية سرية مع الأمريكان لحل الموقف على الجبهة المصرية.. ونجح السوفيت فى إحداث وقيعة بيننا وبين سوريا الشقيقة. بدأت عندما قبلنا الذهاب إلى جنيف فى ٢١ ديسمبر ٧٣. ورفضت سوريا وقيل ما قيل والفضل يرجع إلى السوفيت فى إشاعة الفرقة بين الصفوف والتباعد بين القلوب.

وبدأت رحلات المكوك كيسنجر.. أى الرحلات بين العواصم العربية وتل أبيب ذهابا وإيابا . وتم الاتفاق على فض الاشتباك الأول. وتضاعفت غضبة السوفيت وتردد أصداؤها فى الإذاعات والصحف. لماذا؟ لأننا وافقنا على مجىء كيسنجر. ووافقنا على فك الاشتباك مع أن فك الاشتباك ليس إلا تحريكا للموقف وليس هو الحل. بل إن فك الاشتباك لم يكن سوى اقتراح من أمريكا لفتح الطريق بعد أن وصلنا إلى نهاية مسدودة. حتى هذا الموقف الأمريكى لم يقبله السوفيت. وحرضوا قطاعات من العالم العربى ضد مصر.

وبعد توقيع فض الاشتباك الأول كنت فى أسوان وسافرت إلى البلاد العربية أشرح وأوضح تلك الجريمة التى ارتكبتها مصر .. إنها جريمة فى عينى السوفيت. وزرت فى رحلتى هذه إمارات ودول الخليج وشمال أفريقيا..

وحتى لا يزداد الموقف سوءا طلبت من إسماعيل فهمى أن يبعث بورقة مطولة إلى جروميكو يشرح له كل ما جرى، ولكن هذه الورقة لم تؤد إلى تغيير فى موقف السوفيت. بل على العكس من ذلك ازدادت حدة الحملات على مصر، حتى دخلنا فى مرحلة فك الاشتباك الأول على الجولان، الذى قام به د. كيسنجر أيضا. وعندما التقيت بالرئيس حافظ الأسد فى مؤتمر الجزائر حكيت للرئيس الأسد تفاصيل اتفاق فض الاشتباك على الجبهة المصرية.

ومن الغريب أن كل شىء قد تم كما قلت. وكما أعلنت ووضحت للشعب ولكل الأشقاء العرب وعلى أعلى المستويات. وهدفى واحد: أن أساعد فى حل القضية.

وأسلوبى فى ذلك هو المصارحة والشجاعة والصدق، ولذلك لست فى حاجة إلى أن ألف أو أدور، أو أن أواجه الناس برأى وأخفى عنهم رأيا آخر.. لم يحدث ولن يحدث شىء من ذلك. وهذا معروف لكل الناس. وقد أعلنت فى ذلك أن كل ما أحاوله هو نزع الفتيل من الموقف المتفجر فى الشرق الأوسط. وأن هذا كله ليس حلا، وإنما هو طريق إلى حل، وأن الحل السياسى إذا لم يحقق شيئا فلا مفر من القوة، والعودة إلى أسوأ مما كنا عليه..

وطبيعى لم يسترح السوفيت إلى كل ما قلته فى البلاد العربية. وما نشرته الصحف وما أعلنه الزعماء العرب الذين اقتنعوا بالسيادة المصرية، وبضرورة أن تكون لمصر سيادة على قدرها.. حتى جاءت زيارة الرئيس نيكسون لمصر، وكان استقبال الشعب لهذا الرجل شيئا لا نظير له .. وخرج الشعب برجاله ونسائه وأطفاله جميعا لاستقبال الرئيس الأمريكى. وكان هذا الاستقبال مذهلا له، وللأمريكان وللعالم كله. كان شيئا خرافيا.. حتى هذا التعبير ليس من عندى. وإنما استخدمه الأمريكان.

ولعل نيكسون كان يرد على ما قاله السوفيت عندما قال: فى استطاعة أى أنسان أن يملأ الشوارع بهؤلاء الناس ولكنه ليس فى استطاعته أن يجعلهم يضحكون.. فقد أعلن السوفيت أن الناس لم يخرجوا من تلقاء أنفسهم. لأن الشعب يكره أمريكا ويكره نيكسون. وإنما الذى حشد الناس فى الشوارع هو الاتحاد الاشتراكى. ولو صح أن للاتحاد الاشتراكى هذه القوة على حشد كل الناس على إشعال الحرارة فيهم، وإطلاق السعادة على وجوهم، لكان أعظم تنظيم سياسى فى العالم كله.. وعلى ذلك يجب أن نعيده إلى ما كان عليه!

ولكن انشغلت أمريكا بعد ذلك بمشاكلها القومية العنيفة .. جاءت فضيحة ووترجيت التى أطاحت بالرئيس نيكسون.

وكان طبيعيا بعد هذا الاستقبال العظيم أن يعجل اليهود بنهاية نيكسون. فكان الفصل الأخير من فضيحة ووترجيت: هى التنصت على الحزب الآخر.. فاستقال نيكسون بعد ذلك فى نهاية ١٩٧٤.

ولم أتوقف عن محاولة مد الخطوط والمواصلات بينا وبين السوفيت، فأنا أعرف عقدهم. وأعرف الشك الذى هو أسلوبهم فى التفكير. وأعرف أن كل ما جرى فى مصر لا يمكن إصلاحه فى روسيا. ولكنى سأحاول، ولن أتوقف عن المحاولة.

فأرسلت اسماعيل فهمى إلى الاتحاد السوفيتي. وقابل برجنيف. وقبل ذلك كان اسماعيل فهمى قد أرسل تقريرا مفصلا إلى جروميكو. وفى موسكو أصدر الاتحاد السوفيتى بيانا وافق فيــه على فك الاشــتباك الأول. ومعنى ذلــك أننا لم نرتكب جريمــة، وإنما كل ما حدث هو التباعد بين القوات المتحاربة. وموافقة الاتحاد الســوفيتى على ذلك معناها، أننا لم نرتكب خيانة للعرب ولقضايا السلام ولم نقم بحل تصفوى وإلا فما وافق الاتحاد السوفيتى!

ولمــا تحدث إليهم اســماعيل فهمى كان يركــز على نقطتين أولا جدولــة الديون. وثانيا تعويض الأسلحة التى فقدناها فى الحرب وذلك بأن يبيع لنا الاتحاد السوفيتى أسلحة جديدة نعوض بها خســائرنا، تماما كما فعل مع ســوريا قبل ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣. وما بعد ذلك حتى وقت قريب جداً.

لكن الســوفيت قدموا له مفاجأة كبرى. فقد أخبروه بأن برجنيف ســوف يزور مصر فى يناير ســنة ١٩٧٥. ولما أرســل لى إســماعيل فهمى بهذا النبأ، أســعدنى جدا. وأدركت أن المشاكل كلها فى طريقها إلى الحل. وأن يكون عنده ما يقوله وما يفعله. فهو الرجل الأول فى روسيا. ولذلك وجدت أنه من الأفضل أن نستغل الوقت. وأن نساعده على حل جميع المشاكل المعلقة من جدولة الديون وصفقات الســلاح المعقودة فى سنة ١٩٧٣ والتى لم ترد إلينا حتى ذلك الوقت. ثم حدد موعد زيارة برجنيف لمصر فى يومى ٧ و ٨ يناير.

ووجدت أن أمريكا غارقة فى مشــاكل الرياســة الأمريكية ومصيبة ووترجيت. فقد ذهب الرئيس نيكســون وجاء مــن بعده الرئيس فورد. وهو فى حاجة إلــى وقت كى يرتب البيت ويمحو آثار ووترجيت. وهو محتاج إلى وقت لكى يرى ويفكر ويدبر. وعنده مشــاكل داخلية ودولية.. كل ذلك سوف يجعل من الصعب عليه وعلينا، أن نلتقى أو نسوى مشاكلنا المتفجرة المعلقــة فى المنطقة. إذن لابــد أن ننتهز فرصة زيارة برجنيف لنحل مشــاكل خطيرة بين البلدين.. لأن أمريكا كانت قد دخلت فى نوع من «التعرية الداخلية» أو «الافتضاح السياسى».. فهى حريصة على أن تفضح حكامها وشيوخها وتهز كل القيم التى تمسك المجتمع الأمريكى والإدارة القديمة والجديدة.. وسوف يطول الكلام فى ذلك..

وأنــا أرى أن المعركــة الانتخابية لم تبدأ حقيقة، فى ســنة ٧٦، وإنمــا بدأت فى كل ٧٤ و٧٥.. وســوف تكون ٧٦ ســنة انتخابات، فـلا أحـد هناك قـادر على أن يحــل أو يربط أمـرا من الأمور.

ثم حدث شـىء مؤسف فى ديسمبر ١٩٧٥، أو فى يوم ٢٥ ديسمبر بالذات.. توفى المشير أحمد إسماعيل فى لندن. وكنت فى ذلك الوقت فى ميت أبو الكوم. أبلغونى هذا النبأ الحزين. وفى نفس الوقت تلقيت تبليغا من القيادة السـوفيتية بأنها تريد من وزير الخارجية ووزير الحربية أن يزورا موسـكو على وجه بسـرعة.. ورغم وفاة المشير اسماعيل التى آلمتنى أشد الألم، فقد رأيت فى دعوة وزيرى الخارجية والحربية إلى موسكو قبل زيارة برجنيف دليلا جديدا على أن السوفيت يريدون حلاً للمشاكل المعلقة.

ولا بـد أن هناك أمورا تحتاج إلى اثنين من الـوزراء، ولابد أنهم يريدون أن تكون زيارة برجنيـف ناجحـة .. فيتم الاتفاق على كل شـىء قبل أن يجىء إلينا.. مثل هذه الشـخصية الكبيـرة عندهم، لا يمكن أن تدخل فى التفاصيل، وإنما ينتهى كل شـىء قبل زيارته. وقبل زيارته، كما هى عادة السـوفيت، ستكون اللجان المتخصصة قد أعدت كل شىء وعرضت كل شىء، وأصدرت قرارا وبيانا بعد ذلك..

وتلهفت على حل كل شـىء قبل هذه الزيارة المقبلة. واقترحت أن يسـافر أربعة وزراء آخـرون لحل كل القضايا الخاصة بالاقتصـاد والكهرباء والتخطيط. وعلى الرغم من أننى أعلم مقدمـا، أننى لـو ظللت أتفاوض معهم مائة سـنة فإنهم لن يعطونى إلا مـا اتفقوا عليه قبل ذلـك، وأن برجنيف ليس إلا واحدا مثلهم، لكننى غلبت الأمل والتفاؤل على كل هواجسـى ومخاوفى.. وخشـيت على نفسى أن تكون عدوى سـوء الظن السوفيتية التقليدية قد انتقلت إلى تفكيرى، ولذلك تحركت بسرعة..

ولكن عاد السـوفيت يقولون إن القيادة تريد وزيرين فقط. ولذلك عينت محمد عبد الغني الجمسى وزيرا للحربية. وسافر إسماعيل فهمى والجمسى إلى موسكو يوم ٢٨ ديسمبر.

وفـى مطار موسـكو كان فى اسـتقبالهما جروميكـو وزير الخارجية وجريتشـكو وزير الدفاع.

وفى السـيارة أعلن جروميكو لإسـماعيل فهمى: أن زيارة برجنيف تأجلت لأنه مريض. ثم اتجـه الوزراء الأربعـة لزيارة برجنيف. وكان مريضا حقا. ولكنه أحسـن اسـتقبالهما وكان لطيفا جدا معهما. ثم عاد الوزيران المصريان فى غاية الأسـف، لأن شـيئا لم يتحقق. فلا جدولة للديون ولا تعويض للسلاح ولكن الأمريكان وعلى رغم كل ظروفهم الداخلية بعثوا يقولون إنهم يريدون اسـتئناف الحركة من أجل السـلام. وفى مارس جاء د. كيسنجر لكى

يبدأ خطوة جديدة فى فض الاشتباك. جاءنى فى أسوان. وكنت أتفاءل بأسوان بعد فك الاشتباك الأول..

وقد اجتهد المحللون السياسيون فى تفسير حرصى على أن يتم كل شىء فى أسوان.. قال بعضهم: إن أسوان ترتبط فى أذهان المصريين والأمريكان معا بالسد العالى.. فقد رفض دالاس تمويل السد العالى وقالوا بعد ذلك إنى أحاول أن أجعل الذكريات الأليمة ذكريات سعيدة.. كما قمت بفتح قناة السويس يوم ٥ يونيو.. وهو اليوم الذى انتكست فيه القوات المصرية وانسدت فيه القناة .. ولكننى على كل حال كنت أتفاءل بأسوان .. وإن كنت هذه المرة قد صارحت د. كيسنجر بأننى غير متفائل. وكان يؤكد أنه متفائل جدا.. أما أنا فقد بنيت تشاؤمى على رد الفعل اليهودى لكل خطوات كيسنجر.

وأذكر أننى أعلنت له: أن هذه العملية مصيرها الفشل. اسمعها منى.

وقلت له: إن إسحاق رابين ضعيف وليس فى قوة جولدا مائير..

ولم يصدقنى أول الأمر ولكن بعد تسعة عشر يوما قال لى: لا أمل..

وسألنى إن كان من رأيى أن يعود. فقلت: لا داعى.. لقد توقعت ذلك..

وكانت مفاجأة كبرى للصحفيين الذين تجمعوا فى أسوان عندما أعلن إسماعيل فهمى فشل المفاوضات على خطوات فك الاشتباك الثانى .. وكانت مفاجأة عنيفة.. فقد أحس العالم كله أن اليهود هم الذين تعنتوا. على الرغم من أنهم يذيعون ويشيعون أن المصريين هم الذين لا يريدون حلا..

ولكنى بادرت وفاجأت العالم كله بأننى سوف أفتح قناة السويس يوم ٥ يونيه. وأننى قررت عودة المهجرين إلى أراضيهم وبيوتهم. واعتبرت أن هذه المدن الثلاث من عمق مصر. وأن ضرب عمق مصر يعنى ضرب عمق إسرائيل أيضا. وكان ذلك فى كلمتى فى مجلس الشعب. وكانت أوامرى قد صدرت قبل ذلك عندما عينت عثمان أحمد عثمان وزيرا للاسكان فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٣. وتمت انجازات عظيمة فى منطقة قناة السويس تعتبر قياسية فى تاريخ التعمير والإسكان. وعلى الرغم من أن فشل محاولات كيسنجر الثانية قد ضايقنى كثيرا، فإننى وجدت شيئا يريحنى بعض الشىء، فقد انكشف هؤلاء الذين أشاعوا أن هناك طبخة سرية بيننا وبين أمريكا.

أو بيننا وبين اليهود. فأين هذه الطبخة وراء هذا الفشل الهائل؟ لماذا لم تنجح الطبخة السرية؟

لقد كان هذا الفشل دليلا على قصر نظر هؤلاء الذين عقولهم فى آذانهم، يسمعون ويكررون كالببغاوات ولا يفكرون.

وأحس اليهود أنهم فى مأزق رهيب.. وتحدد أمام العالم كله أن ألتقى بالرئيس فورد فى مدينة سالزبورج بالنمسا فى أول يونيو.

وكنت أعلم، علم اليقين، أن الإدارة الجديدة ليست قادرة على أشياء كثيرة. فلا تزال مشاكلها عديدة. ثم إنها دخلت المعركة الانتخابية بالفعل بعد استقالة الرئيس نيكسون.

وبعد هذا اللقاء مع الرئيس فورد اشتدت الحملة السوفيتية، وراحوا يجددون الكلام القديم. وأشاعوا فى كل مكان أن الخيانة المصرية ماضية. وأن القيادة المصرية تبيع القضية وأنها سلمت كل شىء لأمريكا نهائيا.. على رغم فشل فك الاشتباك الثانى الذى كشفهم هم وفضحهم هم، فلم تكن هناك اتفاقيات سرية مع أحد!

وفى أغسطس جاء د. كيسنجر. وكان يائسا. ولكننى أكدت له أنه لا داعى للتشاؤم. قلت له: فى مارس الماضى أنت كنت متفائلا وأنا كنت متشائما.. وهذه المرة أنا المتفائل..

وبدأ د. كيسنجر رحلاته بيننا وبين اليهود. وكانت رحلات شاقة. وكانت الخلافات على كلمات هم يتمسكون بها. فيجىء إلينا يسألنا. ويسمع منا ثم يعود إليهم. ويكون الخلاف على «حرف» أو ترتيب كلمة فى عبارة .. كان شيئا مضحكا ومحزنا فى نفس الوقت .. ولكن الرجل لم يعرف اليأس.

وبعد عدة رحلات ذهابا وإيابا أعلن د.كيسنجر: معك حق. يبدو أن هناك أملا..

وكنا وقتها فى الاسكندرية. وكان يشاركنى فى هذه المفاوضات حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية وممدوح سالم رئيس الوزراء واسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية والفريق الجمسى وزير الحربية.

تمت العملية. انتهى كل شىء قام الاتحاد السوفيتى ولم يقعد. ولم يهدأ له بال، ولم يشأ أن يهدِّئ بالاً لأحد.. وانقلب الاتحاد السوفيتى وأذنابه وضعاف النفوس على مصر يتهمونها بالخيانة والانعزالية والتصفوية.. وليس فى هذه التهم شىء جديد. وإنما كلها ترجع لسبب واحد لا ثانى له: أن لنا إرادة مستقلة. وأننا حريصون على ذلك..

ومن حق د. كيسنجر بعد ذلك كله أن يردد عبارته المفضلة التى أخذها عن أستاذه مترنيخ.. فقد كان يقول كثيرا: إننى أعرف ماذا أريد، وأعرف ماذا يستطيع غيرى أن يفعل، ولهذا فأنا جاهز دائما!

ولـم نختلف كثيرا علـى الطريقة التى نعالج بها الموقف. ولا الوسـائل التى نتذرع بها إلـى ذلـك وإن كنا - كما ذكرت - قد اختلفنا كثيرا. ولكـن اللغة واحدة. ولهذا أمكن لنا أن نحقق شـيئا كثيرا من النجاح. وإن كنت قـد أعلنت بعد ذلك أن هذا هو آخر عهدنا بالخطوة خطوة، أسـلوبا للحل الشـامل.. وإن لم يكن هذا هو آخر عهدنا بالعلاقات السـوفيتية التى تزداد سوءًا..

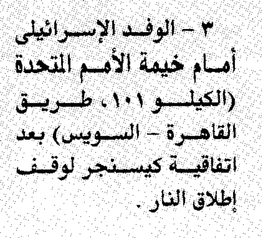
□□□



١ - الرئيس السادات مع الرئيس فورد في سالزبورج .



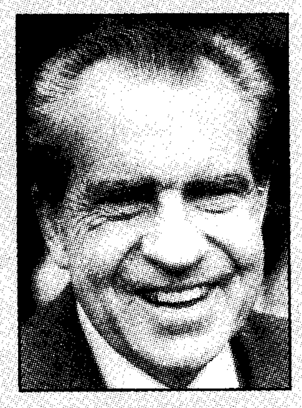
٢ - محادثات الكيلو ١٠١ لفك الاشتباك الأول .



٣ - الوفد الإسرائيلى أمام خيمة الأمم المتحدة (الكيلو ١٠١، طريق القاهرة - السويس) بعد اتفاقية كيسنجر لوقف إطلاق النار .



٤ - مباحثات الكيلو ١٠١ .



٥ - الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون .



مفاهيم خاطئة

- الحادثة التى أثارت غضب الصحف اليهودية.
- سافرت إلى أمريكا عبر جسور الصداقة وعلى محيطات من سوء الفهم.
- لم يكن من السهل علىَّ وعلى ناصر عزف اللحن السوفيتى.
- القبيلة الثالثة عشرة إحدى المزاعم اليهودية.

كانت رحلتى إلى أمريكا شـيئا أكبر من مجرد «عبور» المحيط الأطلنطى.. فكلمة عبور أصبـح لها «عبير»من نوع خاص.. بل إننى أرى أن إقامة الجسـور من طرف إلى طرف.. والتفاهم.. والصداقة.. والتضامن والوحدة.. كلها مفردات لمعنى واحد هو «العبور» وتخطى العقبات والتغلب على الصعاب.. والتمهيد لشىء أكبر وأهم وأعظم وأبقى.

وكان عبورنا فى أكتوبر ٧٣ أكثر من مد الجسـور من أرضنا فى سـيناء.. كان انتصارا على العائق المائى.. وعلى العائق النفسـى والقومى.. كان عبورا بنا إلى مسـتقبلنا.. وإلى أشـقائنا العرب.. وكان توحيدا للأمة العربية فى ساعات وأيام من أمجد ما عرفنا فى تاريخنا.

ولذلك وجدت أن لعبور الأطلنطى مذاقاً خاصاً.. ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى سافرت فيها إلى أمريكا. فقد سـافرت قبل ذلـك.. ولكن فى هذه المرة وجدت أن مهمتى صعبة ولكنى سـعيد بهـا. فقد رأيت أن أنقل إلى الـرأى العام الأمريكى قضية مصر والعـالم العربى.. وأن أكون أنا المتحدث مباشـرة وأن يسمعنى ملايين الأمريكان فى المؤتمرات الصحفية والأحاديث التليفزيونية وفى الأمم المتحدة ثم فى الكونجرس الأمريكى.

ذهبـت إلى أمريـكا بعد أن اعتدلت صورتنا فى العالم.. وبعـد أن أدرك العالم بوضوح أننا نستطيع أن نحارب وأن ننتصر.. وأننا بعد ذلك وقبل ذلك دعاة سلام.. وأننا لجأنا إلى الحرب عندما لم تنفع كل وسائل السلام.. فإذا انتهت الحرب عدنا إلى السلام وإذا لم يسفر السلام عن شىء.. فإننا نجدد كراهيتنا للحرب.. وكراهيتنا لحالة مملة راكدة اسمها اللاحرب واللاسلم أى التى لا هى حرب عاجلة ولا هى سلم آجلة.

وأمريكا قارة كبرى.. وأناسـها مشغولون بقارتهم وقضاياهم.. والذى يعرفونه عن الشرق الأوسط ليس كثيرا. أو يعرفونه من وجهة نظر المسيطرين على أجهزة الإعلام والصحافة وأنا لا أطلب شـيئا من أمريكا ولا من الشـعب الأمريكى يتنافى مع الفهم والعدل.. كل ما أطلبه هو أن يفهموا قضيتنا.. وأن يكونوا عادلين فى حكمهم على كل شىء.. والشعب الأمريكى قد تذوق الحرية فلسفة، وأسلوبا فى الحياة وفى التجارة.. وسوف يكون حديثى معهم بالعقل.

وليس في جيبى كما أعلنت فى أمريكا وقبل زيارتها قائمة بأسماء المشتريات.. فلا أنا سائح ولا أنا تاجر، وإنما أنا صاحب قضية عادلة.. وأنا جئت من بلاد هى أعرق بلاد عرفها التاريخ.. فأنا قادم من مصر أم الحضارات.. وورائى تاريخ طويل من النضال والكفاح والعلم والإيمان وأمامى طريق طويل من الحرص على البقاء وعلى الكرامة. صحيح نحن دولة صغيرة ولكن كل شىء يهون وهان علينا أمام الكرامة وحرية الرأى والإرادة الوطنية.. وقد أعلنت ذلك فى أمريكا.. تماما كما أعلنته وأنا أتقابل مع السوفيت فى أشد الظروف قسوة علينا.

فأمام الدول العظمى نحن دولة عظمى بمبادئنا وحرصنا على القيم الأخلاقية والدينية والوحدة الوطنية وكرامة الإنسان ثم إننى أواجه العالم كله بقلب مفتوح وعقل متفتح.. فلا صداقتنا للسوفيت تقليدية ولا عداوتنا لأمريكا أو للغرب تقليدية.. إنما نحن أصدقاء لمن يصادقنا، أو بوضوح أكثر: لا توجد صداقات دائمة ولا عداوات دائمة إنما توجد مصالح دائمة وهذه هى إحدى بديهات السياسة ولا أدعى أننى ابتدعت هذا المعنى السياسى أو الاقتصادى أو التجارى وإنما هى قاعدة معروفة. ولكن نحن الدول الصغيرة أكثر حساسية من غيرنا من الدول الكبرى.

وفى رحلتى إلى أمريكا كان تركيزى واضحا على أن أتحدث باسم مصر.. وباسم العرب عموما.. دون أن أفرض اجتهادى على أحد.. وربما كان حديثى عن القضية الفلسطينية شخصيا وقوميا.. فهو شخصى لأن القضية الفلسطينية هى جوهر المشكلة العربية كلها. فلا أستطيع أن أغفل ذلك لأنه واجب وطنى.. وهو فى نفس الوقت واجب على كل عربى إلى أن يصبح الفلسطينيون قادرين على أن يتحدثوا بلسانهم ومنطقهم فى مواجهة العالم كله.

ولم أترك مناسبة واحدة دون أن أشير إلى المشكلة الفلسطينية منذ أول يوم حتى آخر يوم عندما تحدثت فى الكونجرس الأمريكى.

ففى اليوم الأول أعلنت أن الشعب الفلسطينى لم ينل الاعتراف الكامل الذى يستحقه من جميع الأطراف وأن الشعب الفلسطينى قد عانى أشكالا وألوانا من العذاب دون ذنب جناه.. وأنه ما يزال حتى اليوم محروما من تقرير المصير.. وأن الفلسطينيين يجب أن يشتركوا معنا كأعضاء أصليين فى مؤتمر جنيف كما أنه لا يوجد مسلم أو مسيحى يهدأ باله لحظة واحدة إذا تسلطت إسرائيل على مدينة القدس بل إذا كان هناك تدويل للقدس فيجب أن يشمل القدس القديمة والقدس الجديدة أيضا.

وأكدت للشعب الأمريكى أيضا أن الظلم قائم مادام الشعب الفلسطينى بلا حقوق وأن الشعب الفلسطينى إذا استعاد أرضه وكيانه على النحوالذى يرضيه ويتفق مع مبادئ الإنسانية وقرارات الأمم المتحدة فسوف تكون فلسطين عضوا قويا فى الأسرة الدولية وسندا عظيما من أجل السلام والتقدم الإنسانى.

وتوجهت إلى الشعب الأمريكى أنبهه إلى أنه أكثر الشعوب فهما لمعنى أن يرتبط الإنسان بالأرض فقد كان هذا الارتباط ولا يزال إحدى ركائز الحضارة الأمريكية ثم إن الارتباط بالأرض يخلق فى الإنسان تقديسا للروابط الأسرية والتمسك بالأرض والدفاع عن العرض ويجعل التضحية فى ذلك أسمى أمانينا.

إن الشعب الفلسطينى معذور إذا تمسك بأرضه ومات دونها إن مئات الألوف من أبناء الشعب الفلسطينى يحيون حياة تتنافى مع كل مبادئ الحضارة والإنسانية.. إن بقاء هذا الشعب بهذه الصورة الأليمة الحزينة لوصمة عار متجددة فى جبين الإنسانية.. وإن هذه هى الفرصة أمام الولايات المتحدة والأسرة الدولية لتمحو العار بالعدل وتخفف من عذاب الضمير بالتفاهم وحسن التقدير وهى فرصة يجب ألا تفوتنا وألا نفوتها رفعا للظلم وسبيلا إلى السلام العالمى.

ودعوت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورتها الثلاثين أن تقرر أن تكون منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا لشعب فلسطين فى مؤتمر جنيف كعضو مساو لبقية الأعضاء.

وليس على العالم كله أن يخاف من السلام.. فنحن شعوب لا تعرف الاضطهاد العنصرى أو الدينى إن تاريخنا معروف يؤكد حبنا للسلام بل إن ديننا الإسلام معناه السلام.. وما عرفنا التفرقة على أساس من اللون أو الدين أو المذهب الدينى.. وقد عاش اليهود بيننا فلم يعرفوا الاضطهاد والإحراق والإغراق الذى عرفوه فى أوروبا فى كل العصور.. والذى جعلهم يهربون لاجئين إلى أمريكا حيث الحرية والمساواة والتسامح الدينى وحيث أبواب الأمل مفتوحة للجميع.. وهذا ما يجعلنى أدرك عن إيمان أن أمريكا هى أكثر الشعوب قدرة على فهم معنى التسامح الدينى ومعنى العدل والحرية.

ومن القضايا التى ركزت عليها عن عمد: التفرقة بين اليهودى والصهيونى والإسرائيلى فأنا أعرف أن مثل هذه المعانى ليست واضحة عند الأغلبية الساحقة من الأمريكان المسيحيين.

وقد استرحت تماما إلى كل الذى قلت. وإن كنت قد قرأت وسمعت أنه ما كان يجب أن أتحدث فى نيويورك عن اليهودية والصهيونية.. ولكنى لم أقل شيئا واحدا ندمت عليه فهى

فرصـــة لأن أؤكد أننى أحترم ديانات الآخرين هكذا علمنا ديننا عندما قال تعالى: «لكم دينكم ولى دين».. علمنا القرآن الكريم ورسولنا العظيم أن نتسامح مع الأديان الأخرى.

وأعلنت أن اليهود عاشـوا بيننا دون خوف من أحد وامتلكوا الكثير من أرضنا ومقدراتنا دون حقـد من أحد بل إنهم سـيطروا على التجارة.. ورويت على سـبيل الدعابة كيف إننى عندما خرجت من سـنوات السجن والاعتقال وعدت إلى البيت مرة أخرى وبدأت أرتب بيتى الصغير ذهبت اشـترى راديو من أحد المحلات اليهودية ولكن صاحب المحل لم يكد يعرف أننى ضابط حارب اليهود حتى رفض أن يبيعنى هذا الراديو.. والحادثة صغيرة ولكن الدلالة كبـيرة ودلالتها أننا لم نعرف هذا النوع مـن الحقد ولا من العداوة الصارخة ولا هذا التمييز بين الذى حارب عن أرضه بشرف سعيدا بذلك وبين الذى لم يحارب ويستحق أن يبيعه هذا اليهودى هذه السـلعة التافهة ولكن عندما جاءت الصهيونيـة إلى بلادنا عرفنا هذه التفرقة وعرفنا الحقد وعرفنا التآمر الدموى.

وقد أثارت هذه الحادثة الصغيرة غضب الصحف اليهودية بل إن كبيرة مذيعات التليفزيون باربارا ونترز صاحبة أشـهر برنامج تليفزيونى معروف قد سـألتنى عن هذه الواقعة ولمست فى سـؤالها معنى الاستنكار أو معنى الدهشـة من أننى ما أزال أذكر شيئا من ذلك حدث منذ ثلاثـين عاما أو أننـى إذا ذكرت ذلك لم أتردد فى أن أرويه فـى نيويورك حيث يعيش نصف يهود أمريكا.. وانتهزت هذه الفرصة لأؤكد لها مرة أخرى أننى أقصد هذا المعنى وهو أن الحقد والكراهية والتفرقة والدم قد دخلت المنطقة عندما دخلت الصهيونية. ووجدت من المناسب أيضا أن أقول إن من التعبيرات الشائعة أن من يعادى اليهود يوصف بأنه «معاد للسامية» ولكن هذا التعبير لا يخيفنا فنحن ساميون.. فاليهود هم المعادون للسامية.. لأنه ليس كل يهود إسرائيل سـاميين.. إن بشرتهم الشقراء وشعورهم الصفراء وعيونهم الخضراء أو الزرقاء ليست آسيوية ولا أفريقية.. إنها أوروبية فهم ليسـوا ساميين بل الأغلبية الساحقة فى إسرائيل من الملونين السمر أو الصفر أو السود أى من الساميين والحاميين «نسبة إلى ولدى نوح سام وحام».

أما الأقلية الحاكمة فى إسرائيل فهى من البولنديين والروس والألمان والشعوب الأخرى.

ومن المناسب أن أذكر أننى قرأت فيما بعد كتاباً جيداً من تأليف كاتب يهودى مشهور هو ارثور كيستلر عنوانه «القبيلة الثالثة عشرة».. إنها قبيلة ضالة أو تائهة اهتدى إلى أنها كانت تعيش بين البحر الأسود وبحر قزوين.. فى شمال تركيا الحديثة وجنوب الاتحاد السوفيتى..

هذه القبيلة لأسباب تاريخية غريبة وجدت نفسها بين المسيحيين فى الشمال والمسلمين فى الجنوب فاعتنق ملكها اليهودية وتبعه الشعب كله.. وكان هذا الموقف الذى يسميه المؤلف بلغة العصر الحديث «عدم الانحياز».. أى عدم الانحياز للشمال المسيحى أو للجنوب الإسلامى فقد أفقد هذه القبيلة صداقة الشمال والجنوب.. وتوالى الضغط على القبيلة اليهودية أو «الدولة» اليهودية وكان لابد أن تنفجر تحت الضغط من جميع الجهات وانفجرت «المملكة» الصغيرة وهرب كل هؤلاء اليهود إلى أوروبا الشرقية.. ومن هؤلاء الهاربين ولد كل يهود أوروبا.. وهذه القبيلة الثالثة عشرة هى من جماعة الخزر الذين وصفهم المؤلف اليهودى بقوله إنهم حمر الوجوه زرق العيون صفر الشعر وهو يؤكد بذلك أن كل يهود أوروبا وأكثر اليهود ليسوا ساميين ويذهب إلى أنه ليس لهم الحق فى أن يطالبوا بالأرض التى احتلوها-وهذه قضية أخرى- ولكن هذا المؤلف اليهودى يرى أن اليهود الأوروبيين أو أكثر اليهود ليسوا ساميين وأنه هو أيضا ليس ساميا فهو مجرى نمساوى المولد بريطانى الجنسية.. ولكنى أستطيع أن أقول دون اجتهاد كثير إننى سامى وإنهم ليسوا كذلك وإن أحدا لا يستطيع أن يتهمنا بالعداء للسامية ولكن التهمة واقعة لا محالة على أكثر اليهود.. فهم أعداء للسامية والساميين!

وليس ذلك تجنيا على أحد وإنما هو فقط مناسبة للمراجعة التاريخية.. أى لمن أراد أن يقرأ فى التاريخ القريب أو البعيد.. وليس هذا سرا لأحد وإن كان هذا الكتاب «القبيلة الثالثة عشرة» قد ظهر فى لغات كثيرة وانتشر بين الناس ولكن لم يلق ما يستحقه من العناية أو الحفاوة لا من العرب ولا من اليهود.. فاليهود نظروا إلى مكانة المؤلف العالمية والتزموا السكوت عنه.. فكانت مؤامرة صمت لا يصح أن نشاركهم فيها.. وفى حديث قلت إن النشاط الصهيونى هو الذى أدى إلى اغتيال الكونت برنادوت فى سبتمبر ١٩٤٨.. ربما لأنه حاول أن يتقدم بحلول أو حاول أن يجد حلا لم يقبله المتعصبون من الصهاينة.. بل إن اثنين من الإرهابيين قد اغتالا اللورد موين فى القاهرة.. وفى سنة ١٩٧٥ طالب اليهود بجثتى هذين المجرمين. لماذا؟ تمجيدا للدور البطولى الدموى الذى قام به اثنان من متهوسى اليهود.. أى من المؤمنين بالصهيونية كأسلوب دموى فى الإقناع والاغتصاب وهذا ما حرصت على أن أؤكده وقد فعلت ذلك فى مناسبات عديدة فهذا رأيى ويجب أن يتنبه ضمير العالم إلى ذلك..

ولا نسيت ولا نسى السوفيت أن يشهروا بهذه الرحلة وأن يبثوا السم فى كل مكان لقد مللت هذا الموقف ولكن لأنه موقف فهو ثابت مهما تغيرت الظروف وتعددت نيات التحرك المصرى من أجل السلام.

وقبل ذلك قد هاجموا زيارة نيكسون لمصر وقبل نيكسون هاجموا واستنكروا مجىء كيسنجر والمعنى واحد هو أن شيئا ما يجرى فى مصر ومن أجلها ومن أجل السلام لم نستأذن فيه القيادة السوفيتية ولن أفعل.

وهاجموا زيارتى لأمريكا وقالوا: باع نفسه.. باع مصر.. ذهب يملأ جيوبه ويشترى.. مع أننى أعلنت فى مطار القاهرة قبل سفرى أننى متجه إلى أمريكا أعرض قضيتى وأننى لست فى نزهة ولا رحلة استجمام وأننى ذاهب لأعرض فكرى وأسلوبى فى العمل وأن أكون قريبا إلى الرأى العام الأمريكى.. وأن أراه ويرانى وأنا أفكر على مسمع منه.. وأن أبين مدى صدقى ومدى حرصى.. وأن أطمئن الشعب المصرى والعربى والأمريكى أيضا على الخطوات التى اتخذناها.. ولم أتردد لحظة واحدة فى أن أؤكد ذلك ما استطعت إليه سبيلا وكان لابد أن أوضح أن العلاقات السوفيتية المصرية قد ساءت وتزداد سوءا.. وربما لم يكن ذلك سرا عند السياسيين وإن كان كذلك عند عامة الناس.. فروسيا لم تعطنى سلاحا بعد الحرب وأمريكا أعطت إسرائيل كل شىء وتعطيها وملتزمة بأن تعطيها الرغيف والدولار والصاروخ وليس عندى أى أمل فى أن تكف أمريكا عن ذلك.. فأنا رجل واقعى.. وأعرف الحد الفاصل بين الممكن والمستحيل فيما أطلبه من أمريكا وأنا لا أطلب أكثر من التفاهم والعدل.. بينما أعطت روسيا لسوريا الشقيقة كل ما فقدته فى الحرب وزيادة.

وطلبت من روسيا أن تؤجل الديون أو تقوم بجدولتها مع إعطائى سنوات سماح أى للراحة بعض الوقت من هذه الديون لعلى أستطيع أن أتوجه إلى التنمية الاقتصادية فى بلادى ولكنها لم تفعل بينما سمحت بالسماح لغيرنا.

والخلاصة أننى وجدت نفسى وشعبى فى وضع غريب عندما أطلب منها تعويض السلاح توافق على أن تعطيه لغيرى.. وعندما أطلب منها جدولة الديون توافق على أن تسمح بذلك لغيرى. «وسوف يضيف الاتحاد السوفيتى بعدا وعمقا غريبا عندما اتعرض فيما بعد لموقف السوفيت فى المنطقة كلها والدول المحيطة بمصر.

وبعد انتخابى رئيسا للجمهورية سافرت إلى موسكو أربع مرات ولم يزرنى برجنيف مرة واحدة فقد وعد وعدل عن ذلك ولن أزور موسكو إلا إذا زارنى.. وهذا منطقى جدا. صحيح أننا دولة صغيرة بحدودنا ولكننا دولة عظمى بكبريائنا.. وهذه العبارة الصغيرة يصعب فهمها على بعض الدول الكبرى أو الدول العظمى.. وكان الشعور السائد قبل وأثناء زيارتى

لأمريكا أننى جئت أطلب السـلاح.. وقد سـئلت إن كان السـلاح الذى سوف آخذه من أمريكا لن اسـتخدمه ضد إسـرائيل؟ وهل أتعهد بذلك؟.. ولم أكن فى حاجة إلى أن أطيل فى التدليل على حقى فى الدفاع عن النفس بأى سلاح من أى نوع ولا حتى أن أشير إلى المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة التى تعطى لكل دولة حق الدفاع عن نفسـها.. فأنا لم أذهب إلى أمريكا لشـراء سـلاح وأعرف ما الذى تسـتطيع أمريكا أن تفعله معى ومع غيرى وخصوصا إسرائيل.. وكان لابد أن يواجهنى هذا السـؤال بشـكل ما: إن كنت على اسـتعداد للسلام مع إسرائيل؟.. وما شـكله؟ ولماذا ليس الآن ومباشرة؟.. لقد واجهنى هذا السـؤال كثيرا من الصحفيين العالميين الذيـن يزوروننى وكذلك من رجال الكونجرس الأمريـكان ومن رجال الأعمال.. فهم جميعا يريدون أن يعرفوا وفى نفس الوقت يريدون أن يرشدهم أو يبصرهم أحد بذلك حتى إذا عادوا إلى بلادهم وجدوا ما يقولون..

وقد أكدت كما فعلت قبل ذلك مرارا أننى على اسـتعداد لاتفاق سـلام مع إسـرائيل وقد أعلنـت ذلك سـنة ١٩٧١ وقبل حرب أكتوبر وفى أعقاب حرب الاسـتنزاف.. أما بالنسـبة لإقامة علاقات اقتصادية وسياسية مع إسرائيل فهذا يتجاوز قدرة الجيل الذى أنتسب إليه.. وإن هـذا الأمر متروك للأجيـال القادمة تقرر ما تراه. أما جيلى الذى خاض أربع حروب فى عشـرين عاما مليئة بالمرارة والكراهية والحزن والدموع والدماء والجرحى والأسرى والأشلاء والمشـوهين فصعـب علينا جدا أن نزيل فى لحظة واحدة هذه الجبـال المتراكمة من العداوة.. صعب علينا ويستحيل أن يطالبنا أحد بذلك دون أن ننظر إليه بكثير من السخرية لماذا؟ لأنه يستخف بمشاعرنا الأليمة العميقة.

فمـن الضرورى أن ننتهى أولا من حالة العداوة الرسمية أو العدوان المسـلح رسميا وبعلم الأسـرة الدولية كلها.. ويجب أن نجد وسيلة للسـلام.. أى نوع من السلام القائم على العدل بضمان من الدول الكبرى أو الدول العظمى أو مجلس الأمن أو الأمم المتحدة.

إن حاجة جيلنا إلى الراحة لا حدود لها فقد تعب جيلنا كثيرا ويحلم بسـنوات من التقاط الأنفـاس.. ولنـترك لأجيال مـن بعدنا أن تلتقط من قاموسـها المعنى الذى ترتضيه للسـلام والانفتاح والعفو عن الذى سلف من خطايا الجميع.

وفى مواجهة الأمم المتحدة والعالم كله أعلنت أن مصر لم تفقد حماسها للسلام وإيمانها به فالسلام هدف استراتيجى ومن أجل ذلك قررت فتح قناة السويس تعبيرا عمليا عن حرصنا على

السـلام وعلى استمرار التجارة والتبادل بين الشـعوب وتخفيفا للأعباء الواقعة على أصدقائنا الذين وقفوا معنا فى أشد الأزمات.. وبالإضافة إلى فتح القناة أعلنت أننى ماض فى تعمير مدن القناة وإعادة شعبها الذى هجرها هربا من النار والدمار الذى ألقاه العدو علينا.

وتوجهـت إلى الإدارة الأمريكيـة أى إلى حكومة الرئيس فـورد وأثنيت على الجهود التى بذلهـا وزير خارجيته د.كيسـنجر فلم أجد صورة حقيقية للولايـات المتحدة إلا بعد أن قابلت كيسـنجر وتعاملت معه. وكان هذا التعامل نقطة تحول فى الصراع المسـتمر فى الشرق الأوسط واستطعنا معا أن نخلق الثقة والشعور بالمسئولية.. فقد حطمنا الجليد وتجاوزنا إلى الأمام نحو السلام وأنا فخور بعلاقتى بكيسنجر ففى فترة قصيرة جدا استطعنا أن نحقق ما لم يتحقق خلال جيـل كامـل.. ولكن هذا لا يمنعنى أن أقرر أن الطريق ما يـزال طويلا ولذلك يجب ألا نهدأ أو نسكن وإنما يجب أن نحفز أنفسنا من حين إلى حين ليس فقط إلى «هز» الموقف أو إلى «تحريكه» وإنمـا إلى دفعـه بقوة واعية إلى الأمام وإلا انتكس الموقف كلـه وتجمد وفى ذلك تثبيت لأوضاع خاطئة فإذا استسلمنا تجددت الرغبة فى القتال.. ولا سلام فى الشرق الأوسط ولا فى العالم بعد ذلك.. وباسم السلام العالمى يجب ألا نضيع هذه الفرص المتاحة والظروف الدولية المواتية.

وكانت سـعادتى بالغة للتفهم الواضح الذى أبداه الكونجرس الأمريكى للكلمة التى ألقيتها والتى أوضحت فيها قضيتنا وأوضحت فيها مسئولية أمريكا وساستها ومشرعيها ورأيها العام.

ووجـدت فى تصفيقهم الطويـل لكلماتى اعترافا مدويا بعدالة ما أعتنقه من أجل السـلام العالمى.. وأكدت للكونجرس أننى لم أحضر سـعيا أو طلبا لوعود أو تعهدات بل جئت أمد له ولـكل أبناء الولايات المتحدة يد الصداقـة والتفاهم المتبادل وأننى جئت كصديق لا كحليف.. فالصديـق يقول أى له حرية أن يؤاخذ صديقه على الخطأ إذا ارتكبه وعلى العناد إذا تشـبث بـه وليس من ذلك شىء عند الحليف الذى هو ظل ليس له رأى ولا حرية ولا إرادة ولا حق له فى أن يوجه لوما أو عتابا لأحد.

وأكـدت للكونجرس أننا نحن العرب ليسـت لدينا مشـكلة التعايش مـع الآخرين ممن يختلفـون معنا فى الديـن وتاريخنا كله مفتوح أمام الجميع. فمـا عرفنا الاضطهاد للآخرين دينا أو عنصرا.

ومن الواجب أن نغتنم هذه الفرصة وكل فرصة من أجل العبور من هنا إلى الشعوب العربية من أجل بناء الجسـور عبر سـوء الفهم والتحيـز والظلم يجب أن نجعل الصداقة جسـورنا

والتفاهم معابرنا من أجل الخير والعدل.. حتى يأتى ذلك اليوم الذى نحول فيه السيوف التى تطيح بالرقاب إلى فئوس تمهد لبذور الخير والمحبة وحتى تتحول الرماح التى توجع القلب إلى مناحل تحصد ثمار ما غرسناه وليس ذلك ببعيد إذا صدقت النيات ووضحت الأهداف وزالت سحابات سوء الفهم بين الجميع.

وعندما سافرت إلى بريطانيا أوضحت أننى أريد شراء سلاح.. وغضب السوفيت طبعا والذى أغضبهم أكثر ليس السلاح وإنما أننى أعلنت ضرورة «تنويع» مصادر السلاح.. أى حتى لا يكون الاتحاد السوفيتى هو الينبوع الأوحد للسلاح فإذا كان الينبوع الأوحد لذلك فهو أيضا الينبوع الأوحد للتسلط علينا.. لأن معناه أن يكون المدفع عندنا والذخيرة عندهم.. أو يكون المدفع والذخيرة عندنا وقطع الغيار عندهم.. وهكذا نجد أنفسنا - كما حدث - مربوطين بخيط أوله فى موسكو وآخره فى القاهرة.. وقد رفضت ذلك ورفضوا رفضى! وهذا جوهر الخلاف المستمر بينا.

وبعض الأسئلة التى لم يجد أصحابها وقتا ليوجهوها إلىّ فى أمريكا استؤنفت فى لندن فسئلت إن كانت إسرائيل سوف تثق بنا بعد كل الذى حدث بيننا؟.. وكان جوابى كيف نثق بإسرائيل بعد ما حدث أيضا.. وبعد أن أعلن الكنيست ضم سيناء رسميا بعد العدوان الثلاثى علينا فى سنة ١٩٥٦..

وفى بريطانيا شكرت مستر هارولد ويلسون على موقفه من فك الاشتباك فقد علمت من د.كيسنجر أن ويلسون بصلاته القوية مع جولدا مائير قد بذل جهودا صادقة أدت فى النهاية إلى «تليين» التعنت الإسرائيلى..

انتهت سنة ١٩٧٥.. وكنت أعلم مقدما أن سنة ١٩٧٦ هى سنة ميتة تماما وأن محاولة إحياء هذه الجثة الهامدة هى نوع من النفخ فى الرماد فهذه السنة هى سنة الانتخابات الأمريكية وفى هذه السنة استأنفت تحسين العلاقات بيننا وبين السوفيت فليست لى مصلحة شخصية أو وطنية أو قومية فى معاداة دولة عظمى أو دولة كبرى ومضيت أحاول وتعرضت كما حدث فى كل مرة إلى الموازنة بين حدود الاحتمال وحدود الكرامة أو بين حدود المرونة السياسية والحرية الوطنية أو بين الذى يجب أن يفعله الإنسان باسم السياسة ويرفضه باسم الأخلاق أو بين أن أشير إلى ضرورة فتح صفحة جديدة وبين نسيان الماضى.. وفى أواخر سنة ١٩٧٥ كانت حاجتنا إلى قطع الغيار شديدة جدا وليس هذا سرا فمعروف للعالم معدل استهلاك الطائرات

لقطع الغيار ورفضت روسيا أن تعطينا قطع غيار الطائرات ميج ٢١ وكنا فى حاجة إلى إجراء «عمرة» لهذه الطائرات على أن تكون هذه العمرة فى مصر وليست فى موسكو.

وقد كان البند الأول من البنود السبعة التى أرسلتها إلى برجنيف: إجراء عمرة لطائرات الميج ٢١.. واتجهت إلى صديقتنا الهند إحدى الدول الثلاث التى قام عليها العالم الثالث: الهند ويوغوسلافيا ومصر.. فالهند تقوم بتصنيع هذه الطائرات بمقتضى اتفاق بينها وبين السوفيت.

وكل ما كان يخطر على بالى في ذلك الوقت هو أن سنوات القرارات قد انتهت وأن سنة ١٩٧٦ سوف تمضى هادئة وخصوصا أن ولايتى للرياسة سوف تنتهى يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٦ وربما استطعنا فى هذه السنة أن نحسن العلاقات بيننا وبين السوفيت أو بيننا وبين الأمريكان وبالنسبة للأمريكان فالموقف مختلف وهم معذورون فانتخاباتهم وحملاتها العنيفة قد بدأت قبل ذلك بسنتين أما مع الروس فيمكن أن تصبح علاقات «عادية» من المنطلق الذى لم أتعب من ترديده وهو: احترام إرادتنا فى اتخاذ القرار.. ولم يستجب الروس.

ولكن جاءت الاستجابة فى مارس سنة ١٩٧٦ عندما أعلنت الهند: إنها استأذنت الاتحاد السوفيتى مرة بعد مرة.. ولكن فى جميع المرات رفض الاتحاد السوفيتى أن تساعدنا الهند فى إجراء عمرة للموتورات أو بيع قطع الغيار من أى نوع!

□□□



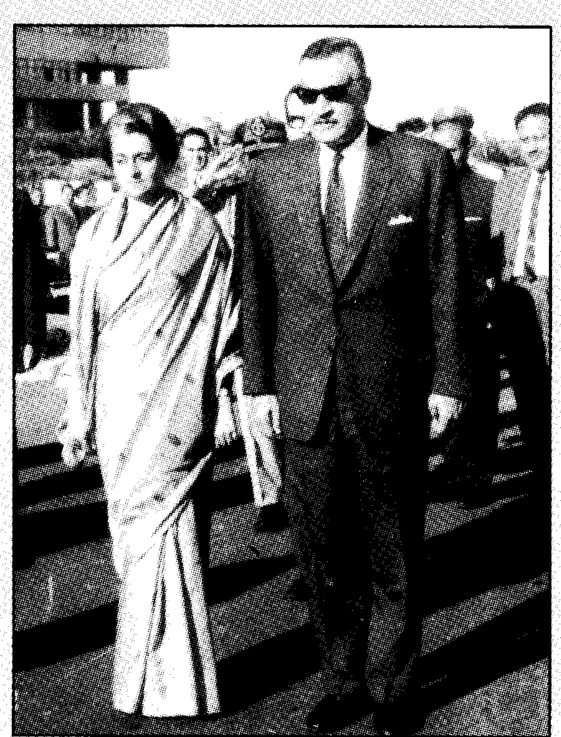
١ - الرئيس السادات أثناء زيارته للولايات المتحدة الأمريكية .



٢ - الرئيس السادات وهنرى كيسنجر.. وصداقة حميمة .



٣ - مباحثات السادات في أوروبا .



٤ - جمال عبد الناصر والسيدة أنديرا غاندى رئيسة وزراء الهند .



موقف غريب

- السوفيت يترحمون على أيام ناصر !
- من أجل مصر وحب مصر كتبت هذه الأوراق.
- الهند ترفض إجراء عمرة للطائرات المصرية !
- معاهدتى مع السوفيت ليست إلا قصاصة ورق.

كانت صدمة أن اعتذرت الهند عن عدم إجراء عمرة للطائرات ميج ٢١ التى تنتجها بالاتفاق مع الاتحاد السوفيتى. فلم أكن أتصور أن الذى بيننا وبين الهند من علاقات عميقة منذ أيام نهرو العظيم، سيتغير بهذه الصورة الغريبة العجيبة.

لقد فوجئت بأن الأرض السهلة التى بيننا ليست إلا أرضا ملغومة.. وأن شعبنا قد اصطدم بأحد جبال الجليد.. إذن فالموقف أخطر بكثير جدا من مجرد أن تعتذر الهند.. أو تجد الهند نفسها مضطرة إلى الاعتذار.. أو أن يدا أكبر قد أمسكت يد الهند ورفعتها فى الهواء لتقول لمصر: لا..

وأنا أفهم أن يفعل الاتحاد السوفيتى ذلك. وأن تمشى وراءه دول الكتلة الشيوعية. هذا أعرفه وأتوقعه. وطبيعى. ولكن أن تفعل الهند ذلك. فهذه إضافة جديدة سيئة. ومعنى ذلك أن السوفيت قد أقاموا حصارا عسكريا حول مصر..

إن كوريا الشمالية وهى دولة شيوعية، قد ساعدتنا وزعيمها كيم إيل سونج رجل عظيم وقد فعل لبلاده الكثير. وقد رأيت كوريا الشمالية سنة ١٩٦٦. وأشهد أن الذى حققته كوريا يعتبر من الإنجازات السياسية ومن معجزات العصر.. كيم إيل سونج شيوعى ولكن ليس من طراز زعماء الكتلة الشرقية الأوروبية.

أما الهند وهى ليست شيوعية ولا من دول الكتلة الشرقية فقد فعلت شيئا عجيبا لا يخطر على البال.. على رغم العلاقات القوية والمواقف النضالية المتناسقة بين مصر والهند ويوغوسلافيا: ذلك المثلث الذى قامت عليه كتلة عدم الانحياز. كما أن هناك اتفاقات اقتصادية وصناعية تربط بيننا، وبذلك يكمل الواحد منا الآخر.

ولكن ذلك كله لم ينفع ولن يشفع لتتخذ الهند موقفا آخر غير الذى اتخذته.

ثم إن بيننا وبين الهند علاقات خاصة منذ أيام نهرو ولنا موقف معروف أيام أحداث مستعمرة «جوا» البرتغالية الواقعة فى الأرض الهندية.

وموقف الهند مختلف تماما عن موقفنا نحن فى مصر لأننا فى مصر نرى أن الأسلحة إذا اشتريناها ودخلت أرضنا فنحن أحرار فى استخدامها على النحو الذى تمليه مصالحنا العليا.

وإلا كان معنى ذلك أن هذه الأسلحة ليست فى أيدينا. وإنما الأسلحة عندنا وفى أيدينا ولكن توجيهها يقوم به الآخرون.. وهذا ما أسميه «خرق الاستقلال المصرى» .. وقد رفضت ذلك، كما ذكرت كثيرا، وسوف أرفضه مادمت حيا. وأنا على يقين من أن أجيالنا القادمة المخلصة سوف تفعل ذلك..

لقد جاء هذا الحادث الهندى العجيب فأحسست أنه قد غير معالم الطريق أمامى وتحت قدمى.. تماما كما يحدث فى السكك الحديدية أن يفاجأ ركاب القطار بأن القضبان قد تحولت تحت عجلاتها.. ليذهب القطار إلى وجهة أخرى غير التى يديرها السائق. ولذلك كان لابد أن أتدبر الموقف وأتدارك ما سوف يحدث حتى لا يحدث..

فنظرة واحدة إلى الطريق ورائى أجد أن سنوات ولايتى قد كانت لها علامات مميزة:

ففى سنة ١٩٧١ قد صفيت مراكز القوى. وفى سنة ١٩٧٢ أصدرت قرار طرد الخبراء الروس. وفى سنة ١٩٧٣ كانت معركة أكتوبر المجيدة. وكانت هذه المعركة ضد الإرادة السوفيتية والأمريكية معا. وفى سنة ١٩٧٤ كان الانفتاح الاقتصادى وانفتاح قناة السويس. كل ذلك وغيره كان يمشى أو يجرى متوازيا مع إعادة الديمقراطية السليمة وإعادة بناء مصر اقتصاديا. وفى سنة ١٩٧٥ و ١٩٧٦ كان ترتيب بيتنا من الداخل عملا مستمرا.

ورأيت أنه من العدل والإنصاف للحقيقة وللتاريخ أن أروى قصة حياتى.. أو قصة ذلك المصرى الذى جاء من القرية وتدرج فى كفاحه حتى تسلم شرف المسئولية الكبرى وتوجيه مصير الأمة المصرية العظيمة. ولذلك سجلت على أشرطة قصة حياتى منذ أن كنت طفلا حتى نهاية ١٩٧٥. وكان الدافع الحقيقى لذلك أن أضع أمام الشعب وأمام الباحثين معلومات من الدرجة الأولى، وأن أطلعهم على سير الأحداث بمنتهى الصدق والأمانة.. فأنا لست شاهدا على تطورات العصر، وإنما ساهمت فيها وحملت مسئوليتها وانفردت بهمومها وأعبائها وأشركت معى الكثيرين.. ثم جئت أروى ذلك.. وحسبى الله ونعم الوكيل فى كل ما قلت وكل ما فعلت. فلم يكن، ولن يكون لى هدف سوى: مصر وحب مصر والإخلاص لها حتى الموت. والأعمار بيد الله. ولذلك قررت أن أسجل الأحداث من وجهة نظرى.

وكان ذلك هو قرارى سنة ١٩٧٥.

وسجلت حياتى على أربعين شريطا، فملأت وجهى هذه الأشرطة..

وكان الدافع إلى ذلك أيضاً أننى وجدت أقلاما قد تناولت التاريخ وراحت تنهشه وتلويه لحسابها الخاص. كأن شهود تاريخ مصر قد ماتوا جميعا. وكأن التاريخ قد احتكرته بعض الأقلام ترويه على هواها، وتضيف وتخترع الكثير من الوقائع التى ليس لها أساس من الصدق أو من الحقيقة. وكم ضاعت حقائق بسبب سكوت الذين يعرفون. ولذلك قررت أن أقول وأن أترك ما أقوله للمؤرخين والمحللين بعد ذلك.

على أنه إذا جاءت سنة ١٩٧٦ تنتهى ولايتى، ولم يكن فى نيتى أن أجدد الولاية.. لولا هذا «الاختراق لاستقلال مصر» - أى لولا هذا الموقف الذى اتخذته الهند بضغط شديد من الاتحاد السوفيتى.

وموقف الاتحاد السوفيتى من «عمرة» الطائرات معناه: أن الاتحاد السوفيتى يريد لهذه الطائرات أن تصبح خردة.. لأن الطائرات التى لا تقوم بإجراء عمرة لها لابد من ركنها. فإذا حدث ذلك يجب أن نحذفها من قواتنا.. فلم تعد لها أيه أهمية قتالية. كأنها طائرات قد ضربها العدو فسقطت على الأرض لا حراك فيها» .

وبذلك يكون الاتحاد السوفيتى قد أكمل طوق الحصار العسكرى والاقتصادى على مصر. والمخرج الوحيد هو أن أذهب إليها راكعا. أطلب العفو والصفح. ولكننى لم أركع ولن أركع إلا لله وحده!

ثم حدث فى مؤتمر الحزب الشيوعى الذى انعقد فى فبراير ١٩٧٦ أن امتدح برجنيف الهند وهاجم مصر.. وهذا موقف غريب.. فما قاله برجنيف: أن بعض الأنظمة والمنظمات السياسية التى أعلنت أهدافها الاشتراكية والتى أنجزت تحولات تقدمية، هذه الأنظمة قد فوجئت بضغط شديد من الرجعية الداخلية والخارجية، وأن الحملة الأخيرة التى شنتها الأوساط اليمينية على حكومة أنديرا غاندى ومحاولات نسف الانجازات الاجتماعية والسياسية للثورة المصرية هما مثالان على هذا التطور لهذه الأحداث.

والملاحظ أن الصياغة التى أوردها برجنيف تمثل منعطفا خطيرا جدا فى السياسة السوفيتية فهو يؤيد حكومة الهند ويدعمها. وفى نفس الوقت لا يقول شيئا من ذلك عن مصر. بل إنه يحاول أن يفصل بين إنجازات الثورة المصرية ونظام الحكم القائم فى مصر. وهو بذلك يتجاهل أن هذا النظام القائم هو الاستمرار الشرعى والطبيعى للثورة المصرية.

وهذا هو الخطأ العميق الذى وقع فيه السوفيت فى علاقتهم بنا ويؤكد لنا معارضتهم التامة للتحولات التى أنجزتها مصر اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا. أى ما نسميه نحن- ونحن

أحرار فى هذه التسمية- بسياسة الانفتاح. التى كان من بينها انفتاح قناة السويس لصالح الملاحة لكل الدول وفى مقدمتها الاتحاد السوفيتى. وسياسة الانفتاح التى يعارضها السوفيت قد بدأناها سنة ١٩٧٤ بعد فض الاشتباك الأول.

وقد أودعت لدى مجلس الشعب ذلك الخطاب الذى كتبه سامى شرف يستعطفنى فيه ويقرر بخط يده أنه فى سنة ١٩٧١ قد قابل برجنيف فى موسكو. وأنا الذى أرسلت سامى شرف فى مهمة خاصة.. فقال له برجنيف: إن السادات يقوم بتصفية ثورة جمال عبد الناصر!

وقد طلبت من المدعى الاشتراكى أنه لا داعى لأن يعلن هذا الجزء من الخطاب ولا داعى لإعلانه وإطلاع المحامين عليه. حفاظا على التحقيق وعلى مسار الثورة المصرية.

وإذا كان برجنيف يهاجم سياسة الانفتاح فى سنة ١٩٧٦ أمام العالم كله، فإن الحقيقة هى أن الذى يحدث فى مصر لا يعجبه ولا يروقه من أوله لآخره. ومصر لا تعجبه لأن هناك ترتيبا آخر، ولأن هناك تدبيرا آخر.. أو استعدادا ومخططا سوفيتيا لقلب الأوضاع فى مصر، لتحقيق الإنجازات والتحولات التى تعجبهم، وعن طريق العملاء المعتمدين عندهم.

والروس قد استبقوا سامى شرف بضعة أيام بعد أن عاد الوفد المرافق له إلى القاهرة.

ويكفى أن نقرأ ما جاء فى الكتاب المعروف باسم «ك. ج. ب» ومعناها: لجنة الأمن القومى.. أى البوليس السرى الروسى. ولهذا الكتاب الذى ألفه جون بارون عنوان فرعى آخر هو: أعمال عملاء السوفيت السريين. وفى صفحة ٥٣ يتحدث الكتاب عن سامى شرف عميل السوفيت فى مصر وعن غيره أيضا.. وفى استطاعة أى باحث فى التاريخ أن يعود إلى هذا الكتاب.

ثم إن السوفيت يتباكون على جمال عبد الناصر..

وهذا الرجل الذى يرتدون قميصه حبا له وتخليدا لذكراه.. ما الذى عملوه من أجله؟ .

لا أريد أن أذهب إلى بعيد.. وإنما سأكتفى بأن أشير إلى ما رآه ملايين المصريين والعرب يوم قرر جمال عبد الناصر أن يتنازل. لقد رأى الملايين أن جمال عبد الناصر أثناء إلقاء كلمة التنازل توقف لحظة ثم نظر إلى اليسار. ففى ذلك الوقت جاءته رسالة من القادة السوفيت تطلب إليه ألا يستقيل، وأنهم على استعداد لأن يحققوا له كل مطالبه ولكن جمال عبد الناصر لم يتوقف عن إلقاء كلمته.

وأرسلوا لجمال عبد الناصر بعض السلاح وكانت حاجته إلى السلاح أكثر وأشد لكى يقيم الخط الدفاعى بسرعة على الضفة الغربية للقناة. وأرسل لهم فى يوليو ١٩٦٧ يطلب المزيد...

وبدأت سلسلة الكلمات التى يرددونها والتى نعرفها حتى مللت ذكرها: انتظروا.. حالا.. سوف تجيء لكم الأسلحة.. وقد رويت كيف إن جمال عبد الناصر فقد أعصابه فى الإسكندرية أمام الرئيس تيتو. وقد رويت ووصفت ذلك فى صفحات سابقة.. وظل الاتحاد السوفيتى على موقفه الذى أصبح واضحا تماما فى كل هذه الأوراق، والتى أسجلها للتاريخ، لتكون عبرة للأجيال. وإحقاقا للحق. وفرصة مناسبة جدا لأن يرد عليها أو يفندها أحد، إن استطاع..

أعود فأقول إن الحصار المضروب حولنا يتنافى مع المادة ٨ من المعاهدة السوفيتية المصرية التى عقدناها فى سنة ١٩٧١ بناء على طلبهم هم، وإلحاحهم هم. وهذه المادة تقول: إن الاتحاد السوفيتى يتعهد بأن ينمى القوة القتالية للقوات المسلحة المصرية لتحرير الأرض.

إذن كيف يتفق هذا الموقف الهندى الأخير مع تنمية القوات القتالية لمصر؟

وإذا لم يكن هذا تعويقا لنمو قواتنا فماذا نسميه؟

بل إذا لم يكن هذا شللا لها وتعطيلا وتحويلا لطائراتنا إلى أكوام من الحديد فماذا نسميه؟ بينما نعطى للسوفيت تسهيلات عسكرية خطيرة.

صحيح أن هذه التسهيلات ممنوحة لهم منذ أيام جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٨. وكانت مدة التسهيلات خمس سنوات تنتهى فى سنة ١٩٧٣. ولكن مع أول خلاف بينى وبينهم بعد طرد الخبراء فى يوليو ١٩٧٣ إما أن نجددها وإما أن نلغيها. لأن الاتفاق ينص على اتخاذ مثل هذا القرار قبل أن ينتهى بثلاثة شهور فى مارس سنة ١٩٧٤.

وفى ذلك الوقت كان الروس قد خرجوا منذ ستة شهور. ومعركة الخبراء السوفيت هذه لم يستوعبها الروس كما يجب، أو كما تمنيت. وقالوا وترددت أصداء كثيرة لما قالوا: إننى طعنتهم من الخلف.. إننى بعتهم للأمريكان وبعت مصر كلها للأمريكان.. وإننى صفيت الثورة.. وإننى شاهد على نهاية جمال عبد الناصر... إلخ

ولكن من العدل أن أقول إنه على الرغم من الخلاف الشديد الذى بلغ قمة توهجه، أو قاع جموده فى ديسمبر سنة ١٩٧٤ طلبت من المشير أحمد إسماعيل، الله يرحمه، أن يستدعى السفير السوفيتى. واستدعاه. وقال له: الاتفاق ينتهى فى مارس ١٩٧٤.

قال السفير: أعرف ذلك.

قال المشير: لقد قررنا تجديده خمس سنوات أخرى! ..

وكان هذا القرار مفاجأة للسوفيت تماما.

وكان فى ذهنى أن السوفيت قد وقفوا إلى جانبنا فى محنة ١٩٦٧ وأنه إذا كان هناك سوء فهم بسبب طرد الخبراء، فالزمن كفيل بعودة العلاقات.. وهدوء الغبار ونقاء الجو بيننا. ولا داعى للاستعجال. ولابد من الصبر. وأنا رجل صبور. ويقول الناس: إننى صبور جدا.

وأعترف الآن، وقد قلت ذلك مرارا، أن تجديد هذه المعاهدة كان بناء على طلبى أنا. وكان من منطلق لا يفهمه السوفيت.. فأنا رجل ذو مبادئ. ونحن نذكر بالامتنان كل من ساعدنا وكل من وقف إلى جوارنا. وأن لنا قيما روحية، وأن لنا تاريخا دينيا وحضاريا طويلا عريضا. وأنا أعلم أن مثل هذه الكلمات والمعانى، لا هى كلمات ولا لها معنى عندهم.. ولكننى أتوجه بكلامى إلى أبناء شعبى وأبناء أمتنا العربية. فهم مثلى، يؤمنون بالله والقيم الأخلاقية، ويفهمون معنى الأخوة والصداقة والامتنان..

وفى ذلك الوقت حدث فى مصر الكثير من البلبلة.. وقال المزايدون وقال أعوانهم وذيولهم وعملاؤهم: إن مصر راحت وضاعت.. وإن أحداً لا يستطيع أن يستعيدها أو يستردها. وإذا استعادها فلن يستطع أن يضعها على الطريق الصحيح..

يعنى لقد أعلنوا من جانبهم نهاية العالم. وأن الأرض قد انشقت من تحت مصر وابتلعتها بكل إنجازاتها.. وهى هلوسة لابد أنها تنفع الذين سوف يكتبون قصة مصر أو سوف يعالجون العقد النفسية التى تحكم عقول المرجفين والمتشككين والرافضين لكل الإنجازات الإيجابية التى حققها شعب مصر على رغم الضغوط العنيفة عليه من الداخل ومن الخارج..

ونسى الروس أننى يوم عقدت هذه المعاهدة لم يكن ليوافق عليها أحد لولاى.. أى لولا أننى طلبت إلى الشعب ذلك. ولولا هذه الثقة الهائلة فى حسن تقديرى للأمور.. وهذا من فضل الله. وقد قبلها الشعب على مضض. ثم أعلنت أن هذه المعاهدة ليست إلا قصاصة ورق.

وكنت أنظر إلى هذه المعاهدة على أنها عهد وميثاق وكلمات شرف. ولكن الروس هم الذين رأوها قطعة ورق.. ومصير قصاصات الورق فى التاريخ كله معروف.. وهم الذين نفخوها. وكان من الطبيعى أن نتركها تطير إلى حيث لا عودة.. فالشعوب التى تربطها الأوراق التى لا قيمة لها، شعوب لا قيمة لها أيضا. ونحن شعب له قيمة فى كل مراحل التاريخ.. وكان منطقيا أن أطلب من المجلس الذى أقر المعاهدة أن يوافق على مشروع القانون بإلغائها..

ونص الإلغاء هو:

«بعد الاطلاع على الدستور».

«وبعد الاطلاع على القرار الجمهورى رقم ٨٨٤ لسنة ١٩٧١» .

«وبعد موافقة مجلس الشعب» .

«قرر» :

«مادة أولى : إنهاء العمل بالمعاهدة المعقودة بين جمهورية مصر العربية واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية عن الصداقة والتعاون والموقع عليها فى القاهرة فى ٢٧ مايو» .

«مادة ثانية : يعتبر هذا القانون نافذا من تاريخ صدوره» .

وقد اهتز مجلس الشعب من الفرح اهتزازا عنيفا. وقد شاهد الملايين ذلك على شاشات التليفزيون. ووافق المجلس بأغلبية ٣٥٨ صوتا، ولم يتخلف سوى صوتين اثنين فقط.

ومن حق أى إنسان أن يقول : لا.. فنحن فى ظل مجتمع ديمقراطى.. لا خوف على أحد من أحد إذا قال للحاكم أو للسلطة : لا.. فقد انتهى إلى غير رجعة ذلك العهد الذى اختفت فيه من قاموس الحياة السياسية والاجتماعية كلمة : لا.. لم يعد مجتمعنا هو مجتمع : نعم بالحق وبالباطل..

لم تعد كلمة «نعم» صنما يركع ويسجد أمامه كل الناس..

وليس هذا بالتغيير الهين فى حياتنا. ولا أريد أن أستطرد فى ذلك، فهذا مجال أتركه للمؤرخين والمحللين السياسيين. وإن كنت أعرف، كما يعرف غيرى، أنه حتى هذه الديمقراطية الصحيحة السليمة، لا تعجب المزايدين والمرجفين. لأن الهدف هو : «لألأة» مصر.. بلبلة مصر.. وإطلاق الضباب.. وتراكم الجليد فى كل اتجاه.. حتى لا تكون حركة.. وحتى لا يكون طريق سليم واضح نمشى فيه نحو تحقيق أهداف مصر.

كل ذلك أعرفه وزيادة.. ولكن الهدف الذى أمامى والذى أمشى نحوه بخطى واثقة ثابتة، على رغم الضغوط والمعوقات وحملات التشكيك، تجعلنى أحتمل كل أنواع العذاب من أجل مصر.. وفى ذلك راحة لضميرى أمام الله وأمام التاريخ..

وبعد ذلك كان الالتفات إلى مصر داخليا وديمقراطيا هو هدفى الأكبر..

فأصدرت قرارا بتشكيل لجنة المائة.. لتضع أمام الشعب ومع الشعب وله، مستقبل العمل السياسى. فقد آن الأوان لكى نمارس الديمقراطية السليمة تنفيذا للمبدأ السادس لثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢. وكانت لجنة المائة جمعية تأسيسية. وبذلك تكون الأحزاب السياسية فى مصر قد ولدت ولادة طبيعية. وجاءت الانتخابات تأكيدا لكل هذه المعانى السامية التى

نحـــرص عليها جميعـــا.. انتخابات حرة مائة فى المائة. والعالم كله يعلم ذلك. وقد أشـــادت الصحف العالمية بما يجرى فى مصر. وحتى هذا لم يعجب السوفيت أيضا، على رغم أن لدينا تنظيما يســـاريا مواليا لهم. ونسمع من السوفيت كلاما عن الديمقراطية. وليس من الحكمة أن نتســـاءل عـــن المقصود بهذه الكلمة. فهى من الكلمات التى جنـــى عليها الناس.. فهى فى كل قاموس لها معنى مختلف.

ولا أعـــرف.. إذا لم يكـــن هو هذا الاختلاف فى الرأى والحرية فـــى إبدائه وعلى الصورة التـــى نراها فـــى مصر، فما هى الديمقراطيـــة إذن؟ وماهو المعنى الـــذى أراده الإغريق لكلمة الديمقراطية من ألوف السنين.. لقد قصدوا أن يكون معناها حكم الشعب بالشعب وللشعب..

وإذا كان لابد من توضيح ذلك أكثر فالروس لهم معنى وهو: أن الديمقراطية هى أن تكون حـــرا حرية مطلقـــة فى أن تقول لكل ما يقولون: نعم.. وأنت حر فى أن تقولها بصوت مرتفع أو بصوت منخفض.. أو تقولها مكتوبة أو مرســـومة.. أو تغنيها أو تنظمها شـــعرا.. أنت حر فى أن تقولها على النحو الذى تريد.. ولكن المهم أن تقولها. وهذه هى الديمقراطية..

أو بعبـــارة أخرى: أن تكون معهم وأن تكون لهم وأن تكون بهم.. وإلا فلا أنت ديمقراطى ولا أنت اشـــتراكى ولا ما تقوم به يعتبر تحـــولا جوهريا فى الطريق الصحيح، كما أعلن ذلك برجنيف فى اجتماع الحزب الشيوعى..

وهذا ما يجعلنى أؤكد أن هناك «فجوة فهم» .

أى فجـــوة بين الذى نفهمه والذين يفهمونه هم.. أو بين الذى نفهمه وبين الذى يجب أن نفهمه أو الذى يريدوننا أن نفهمه. هذه الفجوة أساسها أن لنا قيما أخلاقية.

هذه الفجوة هى التى ســـقط فيها وتردى إليها هؤلاء الشـــبان الصغار فى حوادث ١٨ و ١٩ يناير الماضى.. فهؤلاء الشبان الصغار وقد دفعوهم مجردين من كل القيم ومن كل المعانى والروابط الأسرية المقدسة ومن كل المبادئ الدينية.. دفعوهم لنشر الفوضى وإسالة الدماء وتمزيق الطبقات أو إطلاقهـــا بعضها على البعض.. ليقفزوا هم إلى الحكم.. إلى آخر الأفكار المســـمومة المجنونة والتى أرادوا بها تشويه أجمل ما فى مصر: شبابها ومستقبلها.. والتى أرادوا أن يفسدوا التعبئة العامة التى حشدتها مصر من أجل السلام فى الشرق الأوسط وفى العالم.. ولكن علينا أن نحمى مصـــر من أبنائها المضللين، وهـــم قلة.. وأن نحمى مصر من المتربصين بهـــا.. وعلينا أن نزن الأمور بميزان دقيق. فلا نظلم أنفســـنا أو غيرنا.. والزمن ســـوف يكشف لنا كل شىء.. سوف

يكشف لنا العدو والصديق.. وأحمد الله أن رصيدى من الأصدقاء أكثر بكثير جدا من رصيدى من الأعداء.. وأننى لا أزال أتطلع إلى أيام من سنة ١٩٧٣ قبل الإعداد لحرب أكتوبر المجيدة. وأرى وجوه الأصدقاء التى أشرقت بالحب لمصر والإشفاق عليها، والتشجيع لها أن تمضى فى سبيلها منصورة بإذن الله، ومساندة الأشقاء والأصدقاء، وصمود الشعب وتضحياته..

إن تلك الأيام من سنة ١٩٧٣ كانت نصرا يسبق النصر. فقد اتفقنا. وكان ذلك انتصارا عظيما تحقق لمصر وللأمة العربية.. فقد مضى إلى غير رجعة. ذلك الوقت الذى كان فيه المصرى شخصا قبيح الوجه، على رغم أنفه.. وكان الأشقاء ينظرون إلينا بكثير من الحذر. والحذر يولد الخوف. والخوف يولد الكراهية. والكراهية أم الحقد.. وكل الحروب إنتاج مشترك للكراهية والخوف..

كان ذلك هو الوجه القبيح الذى أضيفت إليه معالم أخرى، مزقت قلوبنا وأحزنتنا على ماضينا العريق.. عندما أصيبت مصر بالنكسة الفادحة.. وفى استطاعة الفنانين والأدباء فى المستقبل أن يستوحوا هذه الصورة الموجعة للقلب، والمثبطة للهمم: كيف تلتقى الكراهية والخوف والهزيمة والهوان والذل والمرارة واليأس والندم كلها فى وجه واحد.. فتكون بمثابة العينين والأذنين والشفتين والأنف واللسان! .. انتهى ذلك كله. وأحمد الله أن مكننى من أن أفعل ذلك.

وهذا المعنى هو الذى أجملته فى بداية ونهاية خطابى إلى مجلس الشعب فى مارس سنة ١٩٧٦، وهو كلمات لأحد الصوفية كانت تؤنس وحدتى عند الهموم والملمات.

يقول:

«ربى قد طويت من عمرى صفحات ونشرت اليوم صفحة، فاجعل صفحتى هذه أوعى للخير، وأخلى من الشر، وزينها للحق، وبرئها من الباطل، واجعل فاتحتها: الإخلاص لك والعمل لوجهك». ومن الضرورى فى توضيحى للأمور أن أقول إن السوفيت كانت لهم «تسهيلات» ممنوحة للأسطول الخامس السوفيتى. فقد كان من أحلام روسيا السوفيتية والقيصرية أن تصل إلى المياه الدافئة فى البحر الأبيض، وفى البحر الأحمر أيضا. وهذه التسهيلات التى منحتها مصر لهم هى بداية «التسهيلات الدافئة». وكانت لهم فى الإسكندرية ورشة بحرية داخل الميناء. فبدلا من أن تذهب سفن الأسطول السوفيتى عبر مضيق الدردنيل التركى إلى البحر الأسود فيتم إصلاحها فى الموانى الروسية، فإنهم يكتفون بذلك فى الإسكندرية. وكانت

السفن تتزود بالمياه الحلوة من مرسى مطروح.. ففى مرسى مطروح توجد عندهم سفينة تموين. وهى سـفينة جسمها من الأسمنت المسـلح: مخزن يحمل ثلاجات وكل ما تحتاج إليه السفن وطاقمها من طعام وشراب. إى إن الأسطول السوفيتى إذا احتاج إلى ماء أو طعام وجده بسهولة فى مرسـى مطروح، وإذا أراد إصلاح العطب أو الخلل فى سفينة أو فى أجهزتها، فإنه يرسو فى داخل ميناء الأسكندرية..

ولم يكتف السوفيت بذلك وإنما طلبوا أن تتحول هذه التسهيلات المنظمة أو الدائمة إلى أن تكون لهم قاعدة على الأرض المصرية أو شبه قاعدة.. أى طلبوا أن يكون لهم موطئ قدم. وهذا ما رفضته فورا ودائما.. لأن معنى ذلك أن يرفعوا العلم السوفيتى على الأرض المصرية! ..

❑❑❑



١ - الرئيس السادات أثناء لقائه مع أنديرا غاندى رئيسة وزراء الهند .



٢ - الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل فى استراحة كنج مريوط لوضع تفاصيل خطة المعركة .



٣ - الرئيس السادات أثناء إلقائه إحدى الخطب .



٤ - أحداث يومى ١٨، ١٩ يناير كانت نتيجة للفجوة بين مفهوم الروس للديمقراطية ومفهومنا .



التصنيف اللعين

- الملك فيصل رجل يوزن بالذهب والماس.
- ناصر يندهش من موقف العرب فى مؤتمر الخرطوم.
- صفحة جديدة فى علاقة مصر بالسعودية.
- مواطن من الجيزة يسأل السادات سؤالا غريبا!
- السادات نائبا لرئيس الجمهورية.

هناك مداخل كثيرة للقاهرة، خيرا وشرا..
وهناك ألغام توضع فى كل هذه الطرق..

وليس علينا إلا أن ننظر إلى الخريطة العربية.. شرقا وغربا. ما الذى نجده طول حكم جمال عبد الناصر- ١٨ عاما. كان هناك تمزق شديد وكانت للبلاد العربية على الخريطة ألـوان غريبة فاتحة وقاتمة.. لـماذا؟ فقد كانت هناك تصنيفات جعلـت للتمزق معنى. وهذا المعنى لا ضرورة له. فقد كان هناك تصنيف يقول: العرب إما تقدميون وإما رجعيون.

وهذه الكلمات فى قواميس السياسة الحديثة ليست واضحة الحدود. بل إنها أكثر الكلمات تداخلا، وأقلها انضباطا.

وهناك تصنيف يقول: ممالك وجمهوريات وإمارات ومشـايخ.. وكانت هذه الأشكال تدل علـى الخير والشـر.. أو تدل على مدى الاسـتعداد للبذل، والعجز عن ذلـك. أو تدل على الماضى والمسـتقبل. وأن كل ما هو ملكى هو: شـر.. وكل ما هو إماراتى هو متخلف.. وكل ما هـو جمهورى هو الخير للإنسـانية. وأن الذى ليس جمهوريا، لا حـق له فى الحياة. دون أن نسـأل أنفسـنا: ومن الذى له حق العطاء فى تقرير الحيـاة للآخرين؟. وكان هناك تصنيف ثالث وهو ورقة فلسـطين؟. هناك من يقفون وراء فلسـطين، وهناك من يوقفون سير فلسـطين.. وهناك من لا شـأن لهم بهذه القضية. إن إسرائيل نفسـها لا تستطيع أن تتجاهل فلسـطين. أى لا تستطيع أن تتجاهل أنها أكلت أرضا، وابتلعت شعبا، ونهبت حقا، وخلقت عداء، وأسالت دما.. فإسرائيل نفسها تلعب بورقة فلسطين، فكيف يتجاهلها العرب؟ ولكن التصنيف كان يحتم أن ينقسم العرب معسكرين: مع فلسطين، وضد فلسطين..

ويجتهد هواة السياسة فى إطلاق التسميات على الدول العربية، ويجىء إطلاق التسميات مثل إطلاق الرصاص: مدويا داميا ظالما أيضا.

فإذا عدنا إلى الدول التى تنطبق عليها هذه التصنيفات الغريبة العجيبة وجدنا أن كل دول النفط قد استحقت وحدها كل هذه اللعنات: فهى الرجعية المتخلفة المتجاهلة لقضية فلسطين.

وبذلك نحذف من القوى العربية والطاقات العربية جانبا كبيرا هائلا نحن فى حاجة إليه.. إننا حذفنا كل العرب، وأضفناهم دون وعى إلى الجانب الإسرائيلى. وبذلك يكون أعداؤنا أو القوى المضادة لنا أو التى ضدنا والتى ليست معنا: إسرائيل والعالم العربى. فأى مكسب فى ذلك؟

لا مكسب طبعا. وإنما خسارة مؤكدة.

ونعود إلى التصنيف فنجد أن المملكة السعودية استحقت أن تكون قمة الرجعية. وبعدها الكويت ثم ليبيا. ولذلك كانت الحملات عنيفة عليها. قاسية جائرة. مع أن السعودية ودول الخليج التى اتهمت بالرجعية والخيانة هى التى كانت وقفتها ووحدتها الرائعة قبل حرب أكتوبر وبعدها مصدر فخر ونصر للعرب. ولا تزال.

ووقعت النكسة التى هزت العالم العربى كله. وفتحت بطن الأرض تحت أقدامنا لننهار جسدا وروحا وشرفا وأملا.. إلى أن أدركنا فضل الله، وانتشلنا من هذه الهوة السحيقة بانتصارات أكتوبر العظيمة. فالحمد لله..

وانعقد فى الخرطوم مؤتمر القمة. وحضره جمال عبد الناصر طبعا. والملك فيصل رحمة الله عليه. والملك حسين. ولم يتمكن السنوسى ملك ليبيًا من الحضور بسبب المرض. أما سوريا فرفضت المشاركة فى المؤتمر وإن كانت قد أوفدت وزير خارجيتها ليكون على مقربة من المؤتمر يشاهد ولا يشارك. واستقبلت السودان جمال عبد الناصر استقبالا رائعا أدهش العالم كله. حتى إن مجلتين أمريكيتين هما «نيوزويك» و«تايم» قد وصفتا هذا الاستقبال: بأن السودان خرجت لاستقبال المغلوب كما تستقبل الغزاة الفاتحين. !

وفى مؤتمر الخرطوم التقى جمال عبد الناصر بقمة الرجعية العربية: ولم تكن هناك شماتة فى مصر، ولا فرحة بهزيمة جمال عبد الناصر. وإنما كان هناك موقف اندهش له جمال عبد الناصر. فقد قررت السعودية والكويت وليبيا دعم مصر بما يوازى دخل قناة السويس. ولم يكن جمال عبد الناصر يتوقع أو حتى يطمع فى أكثر من خمسة ملايين أو عشرة ملايين من الجنيهات.

ومن الذى بدأ هذه المبادرة الكريمة ؟

إنه الملك فيصل فهو الذى قرر أن يدفع خمسين مليونا من الجنيهات.. وبروحه الرقيقة ومودته الغامرة طلب من الكويت أن تدفع خمسة وخمسين مليونا. ومن ليبيا أن تدفع ثلاثين مليونا.

على أن توزع هذه المبالغ على مصر والأردن..

وكان الملك فيصل قليل الكلام. ولكنه إذا تكلم ففى كلماته القليلة ما يوزن بالذهب أو بالماس. والذى يعرف الملك فيصل كما أعرفه، يجد أن هذا الرجل قد علمته الحياة الكثير. وعلمته تجارب السياسة ومخالطة الشخصيات العالمية أن يكون صبورا وأن يكون حليما. وأن يجد لكل إنسان عذرا. ولعله قد اهتدى إلى ذلك كله عندما جلس فى مواجهة جمال عبد الناصر في السودان. فهو أمام زعيم عربى. وأمام شخص مهزوم جريح جرحا عميقا. وأمام أقسى أعدائه وأعنفهم. ولكن الموقف يقتضى أن تمتد الأيدى وتأخذ بيد القائد المقهور. وتلك صفات الرجل العربى الأصيل. وكان الملك فيصل هو هذا الطراز من الرجال: الذى لا تمتلك إلا أن تحترمه وتحبه.

ومن الغريب أو من المفارقات أن جمال عبد الناصر نفسه قد وصفوه بالرجعية.

ففى داخل المؤتمر جلس جمال عبد الناصر أمام الرجعية العربية التى قررت أن تدعمه، دون أن تمن عليه. ولم تشأ سوريا أن تشترك فى هذا المؤتمر.

واستدعى جمال عبد الناصر وزير الخارجية إبراهيم ماخوس وسأله: وأنتم لماذا لا تشتركون معنا؟.

فأجاب ماخوس: أنا موافق على الاشتراك.

وسأله جمال عبد الناصر: وما رأى صلاح جديد فى دمشق؟.

قال ماخوس: هو أيضا موافق.

وسأله جمال عبد الناصر: وما رأى الدكتور الأتاسى؟

فاجاب ماخوس: هو أيضا موافق..

وقال جمال عبد الناصر: إذا كنتم جميعا موافقين، فلماذا الوقوف فى الكواليس؟

ولكن التعليمات فى ذلك الوقت هى أن تقف سوريا بعيدا.. وكان السوفيت فى ذلك الوقت يحاولون ضرب مصر بسوريا، أى ضرب جمال عبد الناصر بصلاح جديد.. كما حاولوا أن يضربونى بالرئيس حافظ الأسد. وهذه المحاولة فشلت تماما.. فالرئيس الأسد صديقى. وقد اشتركنا معا فى الإعداد والاستعداد والنصر فى حرب أكتوبر ومازلنا معا فى حملة السلام.. وكان لجمال عبد الناصر ضعف خاص بالنسبة لسوريا.. وهذا معروف..

وكان عنده ضعف أيضا بالنسبة للأردن. ويشعر نحوها بكثير من الأسى والمرارة.. بالأسى العميق لما أصاب الأردن، والمرارة بسبب هزيمة الأردن فى الحرب وكان يتولى قيادة قواتها ضابط مصرى كبير هو عبد المنعم رياض. ومما يذكر للملك حسين حقا أنه هو الذى سلم القيادة لعبد المنعم رياض. وقد دخل الحرب من أول لحظة مع مصر.

ومن الإنصاف أن أقرر أن ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل فى ذلك الوقت قد تعهد للملك حسين بأنه لن يمس الأرض الأردنية ولن يطلق عليها رصاصة واحدة إذا لم تدخل الأردن هذه الحرب. ولكن الملك حسين كان موقفه واضحا وشريفا.. وكانت مسئولية مصر فادحة فى المعركة الأردنية.

وبانتهاء مؤتمر الخرطوم عاد جمال عبد الناصر إلى القاهرة. وأشهد الله أن الرجل قد تأثر تأثرا عميقا بالغا لما حدث فى الخرطوم. فالذى حدث لم يكن سهلا على نفسه. فقد ألجأته الهزيمة إلى أن يواجه كل الذين اتهمهم بالرجعية والعمالة والخيانة. ولم يجد واحدا منهم شامتا أو متعاليا أو واحدا ينتهز هذه الفرصة ليتركه يسقط حتى الموت. وإنما الذى فعله الملك فيصل وبمبادرة منه هو، قد أصاب «شغاف قلب» جمال عبد الناصر..

صحيح أن جمال عبد الناصر قد انهزم فى ٥ يونيو، ولكن مؤتمر الخرطوم كان هزيمة معنوية أخرى.. فقد سقطت أمامه فى لحظة واحدة كل التصنيفات والاتهامات والصور الكاذبة التى ألصقتها أجهزة الإعلام المصرية بكل هؤلاء الأشقاء العرب..

ولذلك وجدت جمال عبد الناصر عندما عاد إلى القاهرة قد تقدمت به السن خمسين عاما أخرى!

وقد صارحنى جمال عبد الناصر بكل هذه المعانى الأليمة، وصارحنى بأنه أخطأ فهم «هؤلاء الناس».. وأنه من الواجب ألا نستمر فى هذا الخطأ. وأن الذى فعلوه فى الخرطوم كان دشا باردا وأننا يجب أن نسمو إلى هذا المستوى العربى الرفيع..

وأذكر، وللتاريخ أيضا، أنه استدعى سامى شرف وقال له أمامى وبوضوح تام: لا هجوم على السعودية. ولا هجوم على ليبيا. ولم يكتف بهذا الأمر القاطع وإنما قال أيضا: ومنذ هذه اللحظة! ولكن للأسف الشديد دخل جمال عبد الناصر فى تلك المرحلة التى كان يقال له فيها: حاضر يا أفندم! ثم لا ينفذون له أمرا. فقد ظلت أجهزة الإعلام ماضية فى طريقها. فلم تصلها بعد قرارات جمال عبد الناصر بإيقاف الحملات الموجهة ضد الرجعية العربية!

وكذلك مضت أجهزة المخابرات المصرية فى نشاطها فى السعودية. فهذه الأجهزة أيضا لم تتلق بعد أوامر جمال عبد الناصر..

ورأى جمال عبد الناصر أن يصلح ما فسد بين مصر والسعودية بصورة واضحة. فوجه الدعوة للملك فيصل أن يزور مصر. لعل جمال عبد الناصر يؤكد له أن صفحة جديدة قد انفتحت. وأن جمال عبد الناصر قد كتب الكلمات الأولى فى السطر الأول من هذه الصفحة: لا هجوم على السعودية!

وجاء الملك فيصل إلى مصر. وبعد العشاء وفى صوت هادئ ونبرة حكيمة وعلى مسمع من كثير من الحاضرين، وكلهم أحياء الآن، قال الملك فيصل: يا فخامة الرئيس ما يزال الهجوم علينا عنيفا. وما يزال بعض المصريين يعملون ضدنا فى بلادنا!

وكان ذلك فى بيت جمال عبد الناصر، فقد كانت حفلات العشاء بعد النكسة تقام فى بيته. وجاءت هذه الكلمات الهادئة مثل قنابل شديدة الانفجار تسللت إلى عروق جمال عبد الناصر. فاحمر وجهه وتفجر غضبا وهو يقول: إننى أرجوك يا جلالة الملك أن تشير إلى أى شخص يرتكب مثل هذه الأعمال أو الأقوال فى مصر أو فى أى مكان وأنا أبعثه إليك لتحاكمه.. حتى لو كان ذلك الشخص هو أنور السادات!

وكان جمال عبد الناصر يعلم مدى صداقتى للملك فيصل. إنها لا تقل فى قوتها وعمقها وحرصى عليها، من صداقتى لجمال عبد الناصر نفسه..

ولأول مرة أسمع جمال عبد الناصر يقول هذه الكلمة: توبة!

وهو يقصد أن يتوب عن مهاجمة رجال فى وزن الملك فيصل..

وقد رويت هذه الواقعة لمعمر القذافى وقلت له: إن جمال عبد الناصر نفسه عدل عن المواقف العنيفة غير المحسوبة..

هذا بالنسبة للملك فيصل، أما بالنسبة للملك الليبى إدريس السنوسى فله قصة أخرى.

فقد احتاجت مصر إلى السلاح. ولابد أن تشتريه من الاتحاد السوفيتى نقدا وبالعملة الصعبة.

ولم يجد جمال عبد الناصر زعيما عربيا يتجه إليه سوى الملك إدريس السنوسى. فقد كانت علاقة مصر بكل الدول العربية والغربية مقطوعة تماما.

وقرر السوفيت أن المبلغ المطلوب عشرون مليونا من الجنيهات. وأرسل الملك إدريس ناظر الخاصة الملكية بشيك بمبلغ عشرة ملايين من الجنيهات كدفعة أولى. على أن يدفع الباقى بعد ثلاثة شهور، أى عندما تدفع شركات البترول أقساطها.

ولم يتردد الملك السنوسى لحظة واحدة. ولا فكر ولا تردد وإنما استجاب فورا..

ومن الإنصاف أن أقول إن الرجل الطيب الملك السنوسى، لم يلق ما يستحقه من التقدير والامتنان، فالرجل - كما ذكرت - كان واردا ضمن ذلك «التصنيف الملعون».. أو كان ضمن المغضوب عليهم الضالين.. فقد كان ملكًا ولذلك كان رجعيا خائنا.. الخ

ولكن عندما اتجه إليه جمال عبد الناصر قبل حرب يونيو يطلب ثمن الدبابات الذى حدده الروس دفع عشرة ملايين جنيه على أن يدفع الباقى بعد ثلاثة شهور.

وقامت ثورة ليبيا قبل أن يدفع بقية المبلغ، وكان السنوسى مريضا يعالج فى اليونان.

ولكن السنوسى كان قد اتخذ موقفًا قوميًا عربيًا من ثورة الجزائر. ومعروف دور مصر فى ثورة الجزائر، وما قدمته مصر للثورة الجزائرية.

فقد كان هناك طريقان لإيصال السلاح إلى الجزائر، إما بطريق البحر، وإما عن طريق الصحراء عبر ليبيا، وهو الطريق الأضمن، خصوصًا بعد أن ضبطت السفينة «أوتس» التى كانت تحمل أسلحة للجزائر قيمتها مليونان من الدولارات، فقد تسربت أخبارها قبل خروجها من الإسكندرية، وإن كانت سفن كثيرة قبلها قد حملت السلاح ووصلت به سالمة آمنة إلى ثوار الجزائر. ولذلك كان الطريق البرى أفضل، وفى ليبيا كانت هناك قاعدتان عسكريتان، واحدة انجليزية اسمها قاعدة «العضم» بالقرب من طبرق ومن حدودنا، وقاعدة ثانية أمريكية اسمها «هويلس» وهذه قريبة من طرابلس. ومعنى ذلك أنه فى ليبيا على أيام الملك السنوسى توجد قاعدتان أجنبيتان كبيرتان، والقاعدتان تكدست فيهما الأسلحة الحديثة والجنود والطائرات، ثم إن ليبيا دولة صغيرة.

كما أن فى ليبيا نظاما يقرب من الحكم السويسرى إلى حد ما، ففيها ثلاث ولايات: برقة وطرابلس وفزان.. وكل ولاية لها مجلس وزراء وبرلمان.. وهناك مجلس وزراء للولايات فى برقة.

هذه هى صورة الوضع فى ليبيا، ولكن لم يطلب جمال عبدالناصر من الملك السنوسى مرة واحدة أن يسمح بمرور المساعدات العسكرية إلى الجزائر، إلا وجد ترحيبا شديدا وموافقة

فورا، ولذلك مرت أكثر المساعدات من ليبيا إلى الجزائر على رغم وجود القوات الأجنبية على الأرض الليبية، وبالرغم من أن بريطانيا وأمريكا عضوان فى حلف الأطلنطى مع فرنسا التى يحاربها الجزائريون.

وأكثر من ذلك أن جمال عبدالناصر طلب تخزين الأسلحة على الحدود الليبية الجزائرية جنوب تونس، لكى تتمكن القوات الثورية فى الجزائر من الحصول على العتاد فى الوقت الذى تشاء، ووافق الملك السنوسى.

وهذه المواقف التى اتخذها الملك من المعونة المالية قبل النكسة، وموقفه من الدعم العسكرى لثورة الجزائر ومن مصر بعد ذلك.. تعطينا صورة بارزة لهذا النوع من الرجال.

وأعود إلى سبتمبر سنة ١٩٦٩.. حين تقرر عقد مؤتمر إسلامى فى الرباط بمناسبة إحراق اليهود للمسجد الأقصى قبل ذلك بشهر. وكان من المفروض أن يحضره جمال عبدالناصر، لولا أنه أصيب بأزمة قلبية أودت بحياته بعد ذلك بسنة تماما.

وفى ذلك الوقت أخبرنى الأطباء أن جمال عبدالناصر يجب أن يمتنع عن الخروج وعن السفر، وأكثر من ذلك أن الأطباء حرموا عليه التدخين، وعلى أى إنسان آخر فى أى مكان يكون موجودا فيه.. وقد منعت التدخين فى كل اجتماعاتنا دون أن يعلم ذلك.

وكان من المستحيل أن يحضر مؤتمر القمة الإسلامى، ولذلك سافرت أنا بدلا منه، ولم أكن فى ذلك الوقت نائبا لرئيس الجمهورية، وإنما كنت الشخص التالى فى الأقدمية، وكانت هذه هى عادتنا، وليس فى ذلك اعتداء على حق أحد.

وذهبت لحضور المؤتمر فى الرباط، وقد حضره أيضا الملك فيصل وشاه إيران والملك حسين واستقبلنى الملك الحسن كرؤساء الدول تماما، بمنتهى الحفاوة والتكريم. وفى طريق عودتى نزلت بمطار طرابلس. ولأول مرة يلتقى مسئول مصرى «بالذين قاموا» بثورة ليبيا.

وكان جمال عبدالناصر يكره أن يقال إنه مريض.. ولكن الأمريكان هم أول من اكتشف حقيقة مرض عبدالناصر، فقد جاءت أنباء تقول إن القائم برعاية مصالح الأمريكان فى سفارة أسبانيا قد حسبها، فوجد أن الفترة ما بين مرض جمال عبدالناصر والإعلان عن تحسن صحته حوالى ستة أسابيع، واستنتج من ذلك أنه لابد أن تكون إصابته أزمة قلبية.

وفى ٢٠ ديسمبر تحدد موعد انعقاد مؤتمر القمة العربى فى الرباط، وكان جمال عبدالناصر حريصا على السفر دفعا للشائعات التى تقول إنه مريض جدا، وفى نفس الوقت

كانت مراكز القوى تعمل بنشاط لوراثة جمال عبدالناصر، وإعداد خليفة جمال عبدالناصر، وبدأوا يهاجمون ثورة ٥٢ التى أدت إلى النكسة الرهيبة... وبدأوا يهاجمون جمال عبدالناصر شخصيا، ويستغلون حالته النفسية ومرضه، وبدأوا يرتبون أنفسهم من وراء ظهره، ويتكتلون ويتربصون بعضهم ببعض. وكان المطلوب فى ذلك الوقت أن يحصل فى مصر شىء من البلبلة والتفكك، ومادامت الدنيا قد خربت فلابد لكل إنسان أن يبحث له عن سفينة نجاة مصرية أو ليبية، ويقفز من هذه السفينة إلى حكم مصر وبسرعة، ولأن جمال عبدالناصر مرضه خطير، وأنه سوف يموت قريبا. وكان لابد أن نواجه هذه الشائعات وأن نطمئن الناس على صحة جمال عبدالناصر، وعلى سلامة الثورة ومنجزاتها.. وأن نعطى لجمال عبدالناصر الفرصة لكى يفكر ويدبر ويستعد من جديد للمعركة لأن الحرب لم تنته، والعدو على أرضنا، وكما وقفنا وراء جمال عبدالناصر منتصرا، يجب أن نقف وراءه منهزما، لننتصر من جديد. فالشعوب لاتقتلها هزيمة فى موقعة، وماحدث ليس إلا هزيمة فى موقعة فى معركة طويلة.

وهذا ما قلته فى عدد من الندوات الشعبية من أقصى جنوب مصر إلى شمالها.. وكنت فى ذلك أواجه الناس، وأرد على أسئلتهم، عن كل أسئلتهم، لأن الموقف كان يقتضى هذه التعبئة المعنوية، والمساندة لجمال عبدالناصر ورفعا لمعنوياته، وكنت أعلم جيدا ما الذى يعانيه وما الذى يفكر فيه وأعرف الحساسية الشديدة جدا التى أصابته من كل شىء ومن كل أحد، فبعد النكسة وبعد مأساة صديق عمره عبدالحكيم عامر، وبعد الاستقالات المختلفة، وبعد إصابته بأزمة قلبية عنيفة كان جمال عبدالناصر فى حالة نفسية أليمة.

ولكننى فى ذلك الوقت لم أكن أدرى بوضوح ما الذى يجرى وراءه ولا أدرى بمراكز القوى المتضاربة حوله.. حتى فوجئت وأنا أتحدث إلى الجماهير فى أسيوط بأحد المواطنين يسألنى سؤالا غريبا عجيبا، واندهش الناس، وعرفنا فى نفس اليوم أنه مواطن من الجيزة وأنه موفد من قبل أمين الاتحاد الاشتراكى، أحد مراكز القوى فيما بعد وأحد المحكوم عليهم بالإعدام، ولم يكن للسؤال سوى هدف واحد: أنا!

كان من عادة مراكز القوى أن يضعوا فى كل اجتماع من اجتماعاتى شخصا يتقدم بسؤال يحرجنى .. أو واحداً يقوم بتحطيم الفوانيس كما يحدث فى الريف. والغرض من ذلك هو أن يفسد الجو.. أو ينقلب الفرح مأتماً..

وكذلك حاولوا أن يقلبوا النجاح الذى حققته فى الندوات، إلى فشل .. إلى خناقة .. إلى هيصة تضيع فيها المعانى التى حرصت على أن أوضحها للناس .. فقد كانت مراكز

القوى مشـغولة بضرب جمال عبد الناصر والثورة، منتهـزة الظروف العامة للبلد والظروف الخاصـة لجمـال عبد الناصر. وقد رأوا فى هذه اللقاءات معانى أخرى لم تكن فى حسـابى.. فهم يتعجلون النهاية. ويريدون أن يجعلوا الثورة على جمال عبد الناصر عامة.. ويريدون أن يعمقوا الشعور بالضيق .. فإذا شعر الناس بالضيق، ثاروا عليه يتعجلون الخلاص والنهاية.. ومتى يشـعر الناس بذلك. فإنهم فى مصر وبعد ذلك فى ليبيا يقفزون على الحكم .. وكان ولا يـزال هذا الارتبـاط وثيقاً بين ورثة جمال عبد الناصر -أدعياء الحق الإلهى فى وراثة جمال عبد الناصر..

ولكن أهل أسـيوط ضاقوا بهذا الشـخص المدسـوس على الاجتماع وأمسكوه.. انتقلت أنا بعد المؤتمر إلى اسـتراحة المحافظ، وكان المحافظ ممدوح سـالم فى ذلك الوقت. الاستراحة فخمـة ضخمـة. وفى مصر عشـرات مثلها يقيم فيها مفتشـو الرى .. وانشـغل الناس بهذا السـؤال الغريب السخيف. لا أذكر السؤال بالضبط. ولكنه كان يتحدث عن جمال عبد الناصر والدكتاتورية وحكم الفرد. وكان الغرض من مثل هذا السؤال. أبعد وأعمق من مجرد ملاحظة على شكل الحكم. وإنما كان تمزيق الناس والإمعان فى حيرتهم واضطرابهم لكى تحدث فتنة فى مصر.

ومرة أخرى حدث نفس الشـىء ولنفس السبب. ففى اجتماعى بأساتذة الجامعات الخمس فى القاهرة كانت ندوة مفيدة وممتعة وناجحة أيضا. أناس يسـألون بالعقل. وتجىء الاجابة بالعقل والمنطق. فالمسـتوى رفيع. وكل هذا مسـجل ومعروف. ولكـن مراكز القوى ما تزال نشطة وهى لا تريد أن يقف أحد وراء جمال عبد الناصر أو يسانده. وإنما المطلوب أن يتركوه ليسـقط وحده.. وفى هذا الجو الجامعى الوقور فوجئنا بشـخص يقف ويقول لى مسـتنكراً: ولكنك تركب سيارة طولها ثمانية أمتار!

وكان السـؤال مفاجأة لكل أسـاتذة الجامعات. فليس من المعقول أن يصدر هذا السؤال أو الاسـتنكار عن أسـتاذ جامعى.. والجو كله لا يوحى بشىء من هذا الإسفاف وهاجموه ووقف أحد الأسـاتذة من الذين نظموا المؤتمر، وشكرنى وشـكر الحاضرين وهنأنى وأنفسهم، على النجاح العظيم لهذا اللقاء الفكرى.. واكتشف الأساتذة أن هذا الشخص مدسوس على المؤتمر من أمين الاتحاد الاشتراكى بعابدين الذى كان واحداً من مراكز القوى.

وقبل ذلك لم ينس لى أصحاب مراكز القوى موقفى من الطلبة الذين أضربوا فى كلية الهندسة، وكنت وقتها رئيسـاً لمجلس الشـعب، كان ذلك فى الشـتاء. والجو بارد والطلبة مضربون عن

الطعام. فأرسلت لهم الطعام والشاى. واستدعيتهم وناقشتهم، ثم أعدتهم إلى بيوتهم، وتعهدت لهم بأن شيئاً لن يصيبهم. وكان شعراوى جمعة وزير الداخلية قد حاصرهم وأطلق عليهم القنابل المسيلة للدموع. ولكنى عاتبتهم كيف يفعلون كل ذلك بجمال عبد الناصر. وقلت: إننا فى حاجة إلى التضامن الجديد، وأن نجد الأعذار لأنفسنا ولغيرنا. وإننا يجب أن ننهض من عثرتنا وأن نستأنف المسيرة. وإنهم شباب وإن الطريق أمامهم طويل. وإن المستقبل لهم .. وإنهم يجب أن يفعلوا بالضبط ما يشجع جمال عبد الناصر على أن يمضى فى مشواره الصعب..

وتعهدت لهم بأن يكونوا فى أمان من أى سوء.. وخرجوا سعداء من مجلس الشعب. ولكن شعراوى جمعة عاد فقبض عليهم. والمعنى: هو ألا يكون لى رأى. وإذا كان لى رأى، ألا يكون لهذا الرأى أى وزن.. أو أية قيمة.. والمعنى أيضاً: أنه لا أنا كرئيس مجلس الشعب ولا مجلس الشعب له قيمة!

ولم أنتبه إلى كل هذه التصرفات.. ولا أدركت أن خيطاً واحداً يربط بينها. وأن هذا الخيط فى أيدى أناس يقفون فى ظل جمال عبد الناصر..

أنا مشغول تماماً بمواجهة الناس وتبديد الشائعات التى ملأوا بها مصر فى ذلك الوقت والتى تزداد أصداؤها وتتضخم فى كل البلاد العربية. فقد كنت مشغولا تماما بتغطية مرض جمال عبد الناصر وخطورته على صحته، والخوف من أن تصاب مصر هى الأخرى، بأعنف مما أصيب هو أيضا.

ولم أكن أدرى أن جمال عبد الناصر يتابع كل ما أقوله. وهذه عادة فيه. ولكنى اختلفت عنه فأنا مثلا عندما أكلف حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية بمهمة فإننى أنتظره حتى يجىء فيحدثنى عن الذى قاله أو الذى أنجزه. ولكن جمال عبد الناصر كان حريصاً على أن تجىء إليه التقارير أولا بأول، دقيقة بدقيقة فتكون لديه صورة مفصلة عن كل الذى جرى، هذا طبع فيه.

وفوجئت قبل سفر جمال عبد الناصر إلى مؤتمر القمة فى الرباط بأنه يفاتحنى فى أن أكون نائبا لرئيس الجمهورية. ولكنى أيامها قلت له: أنا لا يهمنى الاسم وإنما الذى يهمنى أن أقف إلى جوارك.. وأنا قد ذهبت إلى المؤتمر الإسلامى نيابة عنك ولم أكن نائبا لرئيس الجمهورية ولا حتى رئيسا لمجلس الشعب. فقد انحل مجلس الشعب.. وكنت فقط عضوا فى اللجنة العليا المكونة من عشرة أعضاء.

وأكدت لجمال عبد الناصر، حقا وصدقا، أنني لست في حاجة إلى أي شيء. فقد كنت أعرف أزمة جمال عبد الناصر منذ سنة ٦٧ وأعرف جيداً عمق الجرح الذى أصابه من مأساة عبد الحكيم عامر. وكان عبد الحكيم عامر أعز الأصدقاء. وقد فصلنا عليه دستورا ليكون النائب الأول لرئيس الجمهورية ليحل محله. إذا أصابه مكروه.. ولكن إرادة الله فوق كل شيء. فقد كنا ندبر، وكان لله تدبير آخر! وإذا حاول الإنسان أن يجعل من نفسه قضاء وقدراً، فإنه ينسى أن هناك حكمة أحكم وأعظم هي التي تحرك القضاء والقدر والإنسان.. ثم إنه لا يصح إلا الصحيح.. ولا يمكن أن يحل أحد محل عبد الحكيم عامر في قلب جمال عبد الناصر.. وقد كنت صديقاً لجمال عبد الناصر، ولكن صداقته لعبد الحكيم عامر كانت أقوى وأعمق. يومها قلت لجمال عبد الناصر: أنا لا أريد شيئاً. ولكنه أصر.

فقلت له: هل طلبت منك شيئاً قط؟

قال: عمرك ما فعلت ذلك.

- إذن ما الذى يدفعك إلى هذا القرار؟

- أراه ضروريا..

قلت: إذن اجعلني مستشارا لرئيس الجمهورية.

فضحك كثيراً. وأصر على أن أكون نائباً لرئيس الجمهورية. وكانت علاقتي بجمال عبد الناصر هي علاقة الصديق. أقول له رأيي وأنصحه. ولا أذهب إلى أبعد من ذلك .. بينما آخرون كانوا يشهرون به وينقدونه بعنف. ولكن كنت أقول الرأى وأستريح إلى ذلك.. وقد تمضي الأيام لا يتصل بي. وكان بعض أصدقائي يتساءلون: ما الذى بينك وبين جمال عبد الناصر. إنه لم ينصفك تماماً. كما فعل للآخرين؟

ولكني كنت أرى الصورة على نحو آخر. فأنا الرجل الثاني. وهذا يكفي. ويجب أن يدرك الإنسان الأمور بوضوح. وأن يعرف حدود الكلام وحدود الفعل. وأن يبين لنفسه أى نوع من الرجال جمال عبد الناصر. وأية ظروف يعيشها ويمر بها. ثم يجب أن يعرف ماضي جمال عبد الناصر والأزمات التي مرت به، ويتخذ منها وسيلة لتفسير سلوكه ونتائج هذا السلوك.. وكنت أعرف الحدود بوضوح..

ولذلك لم أوافق على أن أكون نائباً لرئيس الجمهورية. ولكنه كان قد قرر ذلك..

وقبل ذلك كان الفتى الأول لمراكزالقوى على صبرى قد افتضح أمره في مطار القاهرة فقد أتى معه من موسكو بحقائب كثيرة يريد أن يدخلها دون أن تمر على الجمارك، ونشرت

القصة بما تستحقه من التشهير الشديد والشماتة العنيفة.. فسقط على صبرى جماهيريا.. تماماً كما فعلت به بعد ذلك يوم ٢ مايو ١٩٧١، عندما قررت عزله فقد جاء هذا القرار شعبياً، استراح له الناس جميعاً.

إلى أن كان جمال عبد الناصر يوم ٢٠ ديسمبر.. وكان من عادتنا أن نذهب إلى بيته وأن نرافقه إلى المطار فذهبت ومعى حسين الشافعى إلى بيت جمال عبد الناصر. وفى الصالون سألنى: مع صيغة القسم؟

قلت: نعم.

قال: قف واحلف يمين نائب رئيس الجمهورية.

وفى ثلاث ثوان حلفت اليمين وأصبحت نائبا لرئيس الجمهورية. وخرجنا وأصدر جمال عبد الناصر تعليماته إلى سامى شرف بنشر الخبر والصورة ومكانها من الصفحات. وكان جمال عبد الناصر دقيقا فى ذلك.

ولم يتسع الوقت من بيته إلى المطار أو فى المطار لمناقشة جمال عبد الناصر فى هذا القرار، وحتى بعد أن أصبحت نائباً لرئيس الجمهورية.

وسافر جمال عبد الناصر إلى الرباط. وفى عودته توقف فى ليبيا.

وفى طرابلس التقى جمال عبد الناصر وجعفر نميرى والقذافى وأصدروا بيان طرابلس الذى جاء فيه أن اجتماع القادة الثلاثة ضرورة تاريخية فرضها قيام الثورات فى كل من السودان وليبيا لتلتقى بالثورة المصرية الرائدة انطلاقا من أن قيام هذه الثورات الشعبية قد حقق تحالفاً ثوريا وثيقا يرتبط جذريا وروحيا بحركة النضال الشعبى العربى وتطلعاته إلى هزيمة مخططات الاستعمار الحديث والصهيونية ووصولا إلى تحقيق التغير الاجتماعى والتقدم والاشتراكية لمصلحة الجماهير العربية الأمر الذى يوفر الشروط الموضوعية لتحقيق الوحدة العربية أمل أمتنا المناضلة كان لقاء القادة الثلاثة على درب الثورة العربية طبيعيا ومنطقيا بل حتميا نتيجة سقوط الأنظمة الرجعية فى الأقطار الثلاثة. إنه تحالف تهيأت له كل الظروف الموضوعية والتاريخية التى صنعتها شعوبنا بالتضحيات الجسام وبالنضال المشترك الذى شقته شعوبنا حتى هزيمة الاستعمار والرجعية وفتحت الباب واسعاً لتحقيق آمال أمتنا وتطلعاتها الغالية فى التقدم والنهضة الاجتماعية.

وجاء فى البيان أن القادة الثلاثة وهم يجتمعون فى ليبيا والتى تمكنت بفضل ثورتها ونضال وتصميم طلائعها الثورية من تصفية القواعد العسكرية الأجنبية يؤكدون أن لقاءهم

يوسـع جبهتنا القتالية فى وجه العدو الذى يدنس أرضنا وبه يتسـع ميدان النضال ضده من القاهرة إلى طرابلس إلى الخرطوم حيث تحشد وتكثف كافة الطاقات والامكانيات وهى كثيرة وصولاً إلى النصر وردعا للعدوان وتحريراً للأرض العربية.

ويرى الرؤساء أن مسـئولية مواجهة التحديات الصهيونية والاعتداءات الاسرائيلية هى مسـئولية مشـتركة يجب أن تسـهم فيها كافة الدول العربية ولذا فمن الواجب والضرورى مواصلة الجهود من أجل حشـد كافة الطاقات العربية لخوض المعركة المصيرية التى تواجه الأمة العربية.

وقيل إن القادة العرب الثلاثة وضعوا أمامهم كل هذا مؤكدين أهمية العمل الموحد تحقيقا لأهدافهم المشتركة بما يعود بالرفاهية والمنفعة المتبادلة على شعوب البلدان الثلاثة وعلى الأمة العربية.

ولذلك قرروا:

أولا: عقد اجتماعات دورية للرؤسـاء الثلاثة كل أربعة أشـهر لمتابعة تحقيق الأهداف التـى اختاروها لشـعوبهم والمبادئ المعلنة لثوراتهم والأمانـى والتطلعات لأمتهم العربية المجيدة فى الحرية والاشتراكية والوحدة.

ثانيا: إنشـاء لجان مشـتركة فى كافة المجالات لوضع الأسـس الكفيلة بتحقيق التعاون والتكامل بين الأقطار الثلاثة مما يعود بالمنفعة المتبادلة لشعوبهم. وكان جمال عبد الناصر يطمع فى أن تكون هناك أشكال أفضل للوحدة..

كما حدث بعد ذلك مع سوريا ومع ليبيا ومع السودان .. إنها أنواع من التنسيق الأعلى لكل العلاقات التى تقرب بيننا وتشد أزرنا فى مواجهة مشاكلنا القومية والدولية ..

فى أوائل سـبتمبر سـنة ١٩٧٠ حدثت معارك «أيلول» بين المقاومة الفلسطينية والأردن. ممـا دفع جمال عبـد الناصر إلى عقد مؤتمر قمـة فى القاهرة لوقف نزيـف الدم. وكان هذا المؤتمر خاصا بالملوك والرؤساء. وقد حضرت هذا المؤتمر بوصفى نائبا لرئيس الجمهورية. ولازمته فى كل اجتماعاته حتى اجتماعات الملوك والرؤساء السرية أيضا..

وقد تلاحقت الأحداث بسرعة وبعنف. فقد انتهى مؤتمر القمة بالقاهرة ومات فى نهايته جمال عبد الناصر. وحضر القذافى ومعه أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبية. وشهدوا الجنازة. ورأوا مصـر وفجيعتها على زعيمها وقائدها. وتقدمت إلى موقعى من مصر.. فأنا نائب رئيس

الجمهوريــة ونظام الحكم عندنا رئاســى، وإذ لم يكن فيه هــذا النص، ولكن من الطبيعى أن أظل رئيسا للجمهورية بالنيابة إلى أن تنتهى مدة الرئاسة الثانية لجمال عبد الناصر فى سنة ١٩٧١. وبعدهــا تجرى الانتخابات على رئيس الجمهورية الجديد. وقد تحدثت فى ذلك إلى الرئيــس بومدين وإلى القذافى. وكان من رأى الرئيس بومدين أنه يجب ألا تكون فى مصر أى نوع من عدم الاســتقرار. فمصر ميزان الأمة العربية. والذى يقلقها يهز الأمة العربية والذى يهزها يزلزل الأمة العربية..

ولذلك كان من رأى الرئيس بومدين إجراء الانتخابات فوراً على رياســة الجمهورية. ثم إنه اعترض على بقائى هكذا رئيساً بالنيابة.

ولم يكن للقذافى اعتراض على شىء من ذلك..

وقد جرت هذه المناقشــات فى قصر القبة قبل دفن جثمان جمال عبد الناصر ومن المعروف أن جمال عبد الناصر، الله يرحمه، قد توفى يوم الاثنين ٢٨ سبتمبر ولكنه وورى تراب مصر التى أحبها ومات فى سبيلها يوم الخميس..

وبين الوفاة والدفن رأيت بوضوح شــديد ما كنت أشعر به. أو ما كنت أشعر به ولا أفهمه بوضوح.. أو ما كنت أفهمه ولكن لا أعرف ماهو الهدف من ذلك كله. لقد رأيت نشاطاً حولى.. ولم يكن هذا النشــاط لصالحى. وإنما كان لاحتوائى وعــزلى وضربى.. وفى مثل هذه الحالات الخطيرة فى حياتى ألمس فى داخلى نشاطاً ويقظة هائلة وقدرة على الحساب وبسرعة. فرأيت وقدرت وقررت واعتمدت على الله.

ولم أضع الوقت فدعوت اللجنة العليا. وكان على اللجنة العليا أن تختار رئيس الجمهورية. ثم تبعث به من تختاره إلى اللجنة المركزية. ومن اللجنة المركزية إلى مجلس الشــعب. وقرر مجلس الشــعب بالإجماع اختيارى. وكان ذلك معناه الاستفتاء الشعبى على الرئيس الجديد. واستغرقت هذه العملية أسبوعين بالضبط..

فالقاعدة الشعبية سليمة كانت ولا تزال.

لكــن يبدو أن الذى حدث بهذا الإجماع الهائل قد أزعج أناســاً آخرين. وكلهم حولى. ولم يكن هذا واضحا أمامى تماماً. ولكن كنت ألمس وأســجل لنفســى وأنتظر. وأســتنتج لنفســى وأنتظر. وأحياناً أكذب ما أسمع. وأحياناً أكذب ما أرى. ولكنى أنتظر. وأنا ككل أبناء الريف قد أعطانى الله قدراً كبيراً من الصبر.

وأول ما واجهنى فى مصر طبعاً: حالتنا الاقتصادية. الحالة سـيئة جداً. وليس هذا سراً. ولكنها حقيقة مؤلمة موجعة للقلب. ولابد من حل.

سألت حسن عباس زكى وزير الاقتصاد فى ذلك الوقت: ما الحل؟

قال: الحالة سيئة جداً..

قلت: وما الذى تفعله أنت فى هذه الحالة؟ ..

قال: أبداً.. لا شىء.. إننى آخذ طاقية هذا وأضعها على رأس ذاك! ...

وهذا تعبير شـعبى معناه: أن وزير الاقتصاد يقترض من هنا ويسـدد هناك.. ثم يعود إلى ذلك من جديد. وهو لا يفعل ذلك إلا لأنه لا يجد أمامه حلاً آخر..

فطلبت إليه أن يتجه إلى ليبيا.. فحالتها الاقتصادية – طبعاً – أحسـن من مصر بكثير.. فهى تجاوز المليون بقليل ومصر فى ذلك الوقت ثلاثون مليوناً.. وليبيا سند لمصر– هذا تقديرى. ولم يطلب جمال عبد الناصر مليماً واحداً من ليبيا.

ولكنى– وكما ذكرت من قبل– كان لنا جيش فى ليبيا وهذا الجيش يتقاضى مرتباته بالعملة الصعبة من مصر. ولم أشـعر بأية حساسـية أن أتجه إلى ليبيا.. ودفعت ليبيا عشرين مليوناً مـن الجنيهـات. هذه الملايين القليلة لم تكن سـوى قطرة فى بحـر.. أو على حد تعبير أحد الاقتصاديين فى ذلك الوقت: إنها تشبه كيسا من السكر ألقيناه فى البحر المالح!

وفى ذلك الوقت وقع فى يدى تقرير اقتصادى سـرى غربى يقول: إن مصر أمامها سـنتان وبعدهما تركع على ركبتيها تطلب الرغيف فتجده أو لا تجده! ودفعت عن رأسى هذه الصورة المخيفة. وقلت: لعلها دعاية مغرضة.. أو لعلها سـكين مسـمومة أطلقها أعداء مصر لتصيبها فـى الصميم! ولكنى أعلم علم اليقين أن المعدة بيت الداء– والمعدة هى الاقتصاد. وأن الاقتصاد هو المعدة وهو العمود الفقرى. وأن الاقتصاد السليم هو الاستقلال التام.

وتعلق فى ذهنى عبارات حكيمة لأناس أدركوا حقيقة الإنسـان والشـعوب. أذكر عبارة الفيلسوف الأمريكى الدبلوماسى فرانكلين تقول: إن الجوالات الفارغة لا تقف!

والمعدة الخالية لا يقف صاحبها على قدميه. وكذلك الشعوب الجائعة..

وعبارة أخرى أوضح ولكنها أقسى تقول: إن الشعوب كالأفاعى تزحف على أحشائها!

أى لابد لأحشائها أن تمتلىء حتى تصبح قادرة على الحركة! فليست الشعارات السياسية الفارغة هى التى تمتلىء بها معدات الأفراد والشعوب.

كيف حدث ذلك لمصر؟ .. هذه قصة أخرى.

وكان جمال عبد الناصر رئيساً للوزراء أيضاً. وكان إلى جانب مهامه وهمومه الكثيرة هو الذى يطالع ويتابع الميزانية. وكان كل شيء أمامه متوازناً. كل شيء «عال العال» .

ومن الإنصاف أن أقول إن د. عبد المنعم القيسونى قد حاول تعديل المسار الاقتصادى – أى حاول جعله معتدلاً.. أو حاول تقويمه.. أو حاول إنهاء لعبة «الطاقية من رأس هذا إلى رأس ذاك» . ولكنه لم يفلح لأنه لم يتمكن. مما أحرجه وأخرجه من الوزارة.

وكان من الطبيعى على رغم هذه المتاعب الاقتصادية وعلى رغم وجود قوات مصرية على حساب مصر فى ليبيا لحماية النظام الليبى، أن نمضى فى بحث الوحدة تمهيداً لإنجازها. فتوالت اجتماعات مصر وليبيا والسودان. وكانت هذه الاجتماعات استمراراً واستكمالاً لميثاق طرابلس الذى أعلنه جمال عبد الناصر..

وظهرت نغمة أخرى جديدة قبل دخول الجامعات والمدارس فى أكتوبر ١٩٧٢. فقد صدرت التعليمات من الاتحاد السوفيتى بخلق القلق والقلاقل والتشكيك فى كل شيء. هنا وهناك.. والصورة التى انتقلت إلى العالم الخارجى عن مصر تبعث على الذهول والإشفاق. ولا يعرف أحد أين مصر وشعب مصر وقيادة مصر ومستقبل من هذه الفوضى الفكرية والبلبلة والانهزامية وضياع كل شيء..

ويتولى إشعال الدخان فى مصر وخارجها فى بيروت وطرابلس وفى الصحف العالمية صحفيون مصريون.. شيوعيون وانهزاميون وحاقدون ومأجورون وكنت أعلم فى صيف هذا العام أن تعليمات من موسكو قد أرسلت إلى بيروت، ومن بيروت جاءت إلى مصر. والمطلوب هو: إثارة الفتن فى مصر من الداخل وتشويه وجه مصر فى الخارج.

وفى نفس الوقت تقوم فتنه طائفية أيضا.. وهذه فتنة تضيف إلى الصورة العامة لمصر تمزقا جديدا. ومع بداية العام الدراسى سوف تكون هذه المعانى وقودا للشباب ومبررا للخروج إلى الشوارع وإثارة الناس بعضهم على بعض وامتحانا للنظام القائم الذى يشاع فى كل مكان أنه منهار وأنه لا علاج له.

فكيف نحارب إذن؟ هل أحارب فى الداخل وأرضنا محتلة.. وبذلك أحارب نفسى وعدوى أيضا؟..

إنه جنون مطلق.

ولكنـي فـي مثل هذه الأزمات أجد حاجتي إلى الصبر أشـد، وأجـد حاجتي إلى الهدوء أكثر وأعمق فلا بد أن أضع الأشـياء أمامي بوضوح. وأضع المشكلة إلى جوار الأخرى. وأزنـها بالعقل، وأحسبـها جيدا، وأرتب الأزمات حسب أهميتها وحيويتها.

وفي أواخر شــهر أكتوبر ومع دخـول الجامعات والمدارس والجو العام الملبد بسـحب الانهزاميــة والطائفية والضيــاع والتمزق العام طلبت من وزير الدفـاع أن يجمع لي المجلس الأعلى للقوات المسلحة. واجتمعنا بعد الإفطار في رمضان.

وكانــت مفاجأة أذهلتني. وحمدا لله أن انكشــف أمامي شــيء رهيــب. وتداركت مصيراً مروعا لمصر.

فلما انعقد المجلس الأعلى تلفت للقادة حولي وتسـاءلت: جاءتكم تعليماتي .. طبعًا لابد أنكــم جاهزون تمامــاً.. هنا جاءت كلمات مديــر الإمداد والتموين مثــل قنبلة انفجرت كل شظاياها أمام عيني فأطاحت بكل شيء في ثانية واحدة. قال: توجيهات إيه يا أفندم؟..

هــذا هو الرجل المســئول عن إمداد الجيش بالوقـود والذخيرة وإمـداد المقاتلين بالماء والطعام يســأل عن التوجيهات.. إنه لم يســمع بشيء من ذلك.. ولا بد أن الآخرين كذلك. إن هذا الرجل وحده يحمل نصف أعباء المعركة.

وأعترف أنني في هذه اللحظة قد سحبت كل رصيدي من الصبر وطول البال وتساندت على نفســي واســتوضحته ما الذي يقول: فأنا أيضا لم أفهم هذا الســؤال.. ولم أعرف إن كان يريد مزيدا من شرح هذه التوجيهات.. ولم أصدق لحظة واحدة أنه لم يسمع بها، أو لم يتلقها من وزير الحربية..

واقتربت من وزير الحربية ليطلق قنبلة أخرى في أذني قال: لم أشأ أن أقل لهم أي شيء عن الاستعداد للمعركة حرصاً على السرية المطلقة!

السرية المطلقة؟ .. وإذا لم يكن هذا المجلس هو الذي يعرف الاستعداد للقتال، ثم يستعد للقتال، فمن الذي يجب أن يعرف؟.. ومن الذي يستعد؟..

كيف يكــون هناك قتال وقادة الجيوش ورئيس الأركان ومدير العمليات وقائد الصاعقة.. كل هؤلاء لا يعرفون شيئاً؟..

أعترف وأنا أســتعيد تلك اللحظات الآن أنني أصبت بذهول. ومنذ ذلك اليوم، وعلى رغم أننــي فكــرت في هذه اللحظة كثيراً، فلم أهتد بعد إلى كلمــة أخرى للتعبير عن حالتي غير كلمة «ذهول» أي الصمت الغارق في الدهشة وخيبة الأمل والهزيمة .. فقد أحسست أن مصر

كلها قد انهزمت على أيدى رجالها.. أو على يد رجل من رجالها.. وتصورت ما هو أبشع من هذا كله.. أن الجيش الإسرائيلى يستطيع فى هذه اللحظة أن يفعل أى شىء فى مصر من أولها لأخرها.. فمصر من الداخل تتقلب وتتألب، والجيش ليس مستعداً، وقادته لا يعرفون أننا نستعد للحرب.. وإنها أول من يحاربون، وآخر من يعلمون .. شىء رهيب!

وفى هذا الاجتماع الذى لا أنساه توجهت إلى القادة أسألهم وأشهدهم بعضهم على بعض. وأتخذ من هذا الحوار نوعاً من التهدئة السريعة لحالتى النفسية الفظيعة..

وسألت قائد الجيش الثالث عبد المنعم واصل: كيف حالك؟..

قال: يا أفندم .. ليست عندنا تجهيزات للهجوم لسبب بسيط جداً.. فنحن مكشوفون أمام العدو. لأن الساتر الترابى الذى أقامه اليهود ارتفاعه ١٧ مترا فإذا وقفوا عليه انكشفت أمامهم تحركاتنا واستعداداتنا لعشرة كيلو مترات.

وأنا لن أنسى لمحمد فوزى عندما كان قائداً للقوات المسلحة، وكان وقتها فى السجن، أنه لم يسمح لليهود أن يتفوقوا عليه أبداً لا من ناحية التحصين ولا من ناحية كشفهم لمواقعنا. ففى كل مرة كانوا يرفعون الساتر الترابى، كان يرفعه فى الجانب المصرى حتى يكشفهم.

وسألت قائد الجيش الثانى سعد مأمون. ولم يخرج كلامه عن الذى قاله قائد الجيش الثالث. بينما وزير الحربية كان يقول: كل شىء جاهز يا أفندم! نفس العبارة التى أودت بمصر فى نكسة ٦٧ إذن لم يقل وزير الحربية لرجال الجيش شيئاً. لا توجيهات ولا استعدادات لأى هجوم..

ومعنى ذلك أن وزير الحربية قد أصبح عبئاً ثقيلاً يضاف إلى بقية الأعباء الثقيلة على كتفى.. فهو أيضاً من رأيه أن مصر لا تستطيع أن تحارب ويجب ألا تحارب.. تماماً كما يقول الطلبة وكما يقول الصحفيون.. ووزير الحربية له وضع خاص لأنه واقع تحت تأثير رئيس التحرير الذى يدعو إلى هدم معنويات الجيش المصرى حتى لا يحارب فإذا حارب - فقد تنبأ بأن ستين ألفا منه سوف يموتون فى العبور.. وستين ألفاً آخرين سوف ينقذون من استحكامات «الغربال» .. فإذا أفلتوا من الغربال منعهم «المنخل» حتى الموت .. فوزير الحربية مسحور بكاتب الغربال والمنخل.

والمعنى: أننا يجب ألا نحارب. لأن جيشنا إذا حارب انهزم. وإذا انهزم انهزمت مصر إلى الأبد.. ولذلك يجب أن نبقى على ما نحن عليه. نبتلع مرارة الهزيمة. ونفرزها قرفا

ويأساً. فقد ضاع كل شيء. ولم يبق لمصر شيء ولكن أحداً لا يقول لنا : ما الذى يمكن عمله إذا كانت هذه هى حالة مصر. هل نظل نبكى على أنفسنا؟.. هل نستسلم لليهود؟ .. هل نعطى بلادنا للسوفيت كما كانت تريد مراكز القوى؟.. هل تبقى عند إنسان ذرة من كرامة أو احترام لنفسه أو إنسانيته بعد ذلك.

إن الذى أصاب مصر سنة ٦٧ لم يكن غلطة شعب ولا غلطة جيش وإنما غلطة فرد.

هذه الأفكار فى رأسى أنقذتنى بعض الوقت من الاستسلام لغيظى وأنا أواجه قادة الجيوش الذين لا علم لهم بما سوف نقدم عليه.. بعد أيام .. فقد أخبرنى وزير الحربية أنه جاهز للقتال بعد أيام.. ثلاثة أو أربعة أيام..

وطلب الكلمة فى هذا الاجتماع اثنان أعرف صلتهما الخاصة بوزير الحربية.. ووجدت الاثنين يرددان كلام وزير الحربية .. وكلامه وكلامهما : تحطيم للروح المعنوية. وتمييع للموقف !.

وكان وزير الحربية قد استدعى هذين الاثنين فى الصباح وأملى عليهما ما قالا أمامى وأمام القادة جميعا وكل هذا مسجل وثابت ومعروف لقد كانت الصورة مخيفة أمامى.. إنى أجد بعض العذر لبعض الطلبة الصغار .. إنهم صغار ومن السهل إثارتهم.. ولكن هؤلاء الكبار، هذا الجيش العظيم .. هذا الخطر اليهودى بأسلحته المتطورة، هذا الشك القاتل لكل آمالنا وأحلامنا فى النصر.. هذا الهوان .. فقد هانت مصر على أبنائها، وهانت أيضاً على أعدائها وعلى أشقائها .. كيف أواجه هذه الكارثة .. إذا كان هذا هو حال السلاح الذى تملكه مصر لتدافع به عن أرضها وعن حاضرها ومستقبلها.. فأى شيء تبقى لمصر أو تبقى فى يد مصر؟.. لقد أحسست فجأة أننى لا أجلس أمام قادة عسكريين، وإنما أجلس أمام مجموعة من الطلبة الصغار.. هذا يسارى مخدوع، وهذا مريض مجنون، وهذا مرتزق، وهذا خائن لمصر، وهذا متآمر على أمنها وسلامتها..

فليس من المعقول أن يكون هذا هو حال الجيش فى هذا الوقت ولا فى أى وقت!..

وبدأت بسرعة ألتفت إلى وزير الحربية أرقبه بشدة. ونفذت إلى أعماقه وعرفت من هذا الشخص الذى يجلس إلى جوارى .. وما الذى يريد.. ومن الذى وضع الكلام على لسانه.. وما الذى دفعه لأن يخطب فى القوات المسلحة، ويخلق رأياً انهزاميا فى الجيش.. فكأنه بذلك قد هزم الجيش قبل أن يدخل أيه معركة.. أو أنه أعد الجيش لهزيمة ساحقة .. فإذا

انهــزم الجيش معنوياً، انهزمت مصر كلها.. شــيء رهيب.. لقد تضاءلت كل مشــاكل مصر أمامى.. إلا هذه المشكلة..

فليس أسهل من مواجهة كل المشاكل الأخرى.. شراذم الطلبة يمكن تحويلهم إلى النيابة بالقانون. والفتنة الطائفية قد واجهها مجلس الشعب بلجنة لتقصى الحقائق. وعرفت الحقائق، وهدأت المؤامرة. وعادت الوحدة الوطنية.. وشكرت مجلس الشعب على نجاحه فى ذلك.

ووضح لى بعد ذلك أن وزير الحربية كان يمر على الوحدات فى الجيش ويدعو إلى اللاحرب واســتمرار اللاســلم.. وزير الحربية يدعو إلى عدم الاستعداد للحرب وأرضنا محتلة.. يدعو إلى عدم الاستعداد وقد كلفته أن يستعد؟..

لقــد كان يمر على الوحدات ليخفى عجزه عن القتال ويأســه من النصر.. ويرفع من قيمة القــوات اليهوديــة، ويحط من قدر القــوات المصرية.. كان هذا الوزيــر يقول، وكان رئيس التحرير يقول ذلك أمامى أيضا. شيء غريب حقاً..

وما فعله وزير الحربية هذا واثنان من رجاله كان محاولة التقاء وكلاماً ضد السياسة العامة للدولة وضد استراتيجية الحرب.. وهذا الحادث هو الوحيد من نوعه منذ توليت الحكم..

وقبل ذلك كانت لا تمضى ســتة شــهور دون أن تكون هناك محاولة انقلاب يتبعها عزل ونقل إلى الأعمال المدنية.. ولكن فى عهدى وما دمت حياً، لن يحدث شيء من ذلك. فالجيش للقتال ولحماية حدود مصر ودستورها.

ولما أمســكتهم ســلطات الأمن اعترفوا.. بأنهم كانوا واقعين تحت تأثير وزير الحربية، الذى كان واقعا تحت تأثير رئيس التحرير.

هذا الوزير اجتمع بالبحرية، وتحدث إليهم أيضا فى مسألة اللاحرب هذه. ولذلك عزلت قائد البحرية محمود فهمى. وبعد أن كشفت براءته، اخترته وزيرا للنقل البحرى..

وذهب وزير الحربية إلى كلية ناصر أعلن أن الدبابات المصرية لا تصلح إلا جرارات!..

وبســرعة عزلت وزير الحربية. وعزلت الاثنين الآخريــن، أحدهما مدير مكتبه والآخر كان مديرا لمكتب عبد الحكيم عامر.

وأعلنت فى ذلك الوقت: أن الإنسان يجب أن يكون واقعياً. ولذلك يجب أن يواجه متاعب الدنيا بما فيها، وبما لديه من قدرات. ولو ظللنا ننتظر الأسلحة المثالية والظروف المثالية، فلن نحارب.

والتاريخ يشـهد للمصرين بأنهم أشعلوا أكبر معركة دبابات فـي التاريخ تحطمت فيها ثلاثة آلاف دبابة وكانت الجبهة المصرية أعلى خسائر من جبهة إسرائيل وسوريا..

وأصبحـت هذه الصحيفـة التى يرأس تحريرها صاحب نظريـة «المنخل والغربال» عبئاً جديدا.. فنشـرت تقـول: إن عزل وزير الحربية قرار انفعالى غيـر مدروس.. وإن الرئيس السـادات أراد أن يغطـى موقفه فعزل وزير الحربية.. ورئيـس تحرير هذه الصحيفة عندما سمع بقرار طرد الخبراء السوفيت ذهل وشرح لى حيرته .. وعاد إلى الصحيفة ينشر أن هذا القرار غير مدروس أيضا فى وقت كانت مصر والأمة العربية ترقص طرباً وسعادة بهذا النبأ، وارتفاع هذا الكابوس عن كرامة مصر وعزتها وحريتها.. وهذا القرار لم يسـتطع أن يتحمله مراد غالب وزير الخارجية فى ذلك الوقت فكان لابد من عزله .. وهنا ازدادت حيرة الناس.. فهم أصلا واقعون تحت تأثير حيرة عامة، وانهزامية مطلقة.

فأنا عزلت وزير الحربية وهو يمينى..

وعزلت وزير الخارجية وهو يسارى..

وتخلصت من مراكز القوى..

ثم طردت الخبراء الروس..

وفـى مصر قلق عام وفتنة، والطلبة يسـتعدون وبعض الصحفيين يسـاهمون فى تشـويه وجه مصر..

والجيش ليس مستعداً..

كل ذلك فى وقت واحد. بينما تلك الصحيفة برئيسها تسخر من مشاعر الناس، وتحط من قدر الجيش .. وتقيم تماثيل رائعة للمقاتل اليهودى..

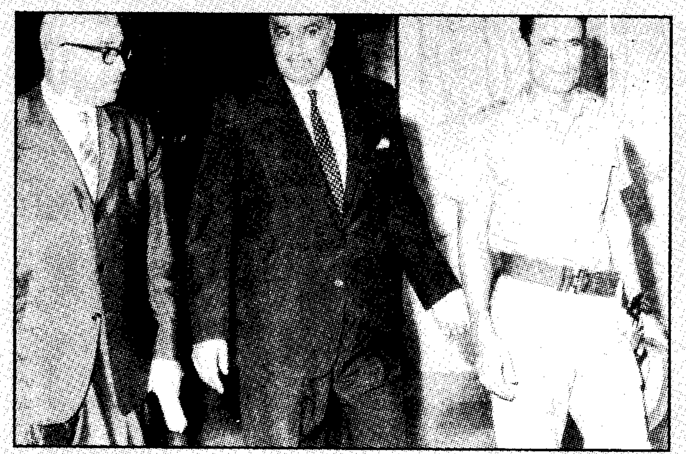
❑❑❑



١ - جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مع صلاح سالم .



٢ - المشير أحمد إسماعيل قائد الجبهة بعد النكسة مع الرئيس عبد الناصر .



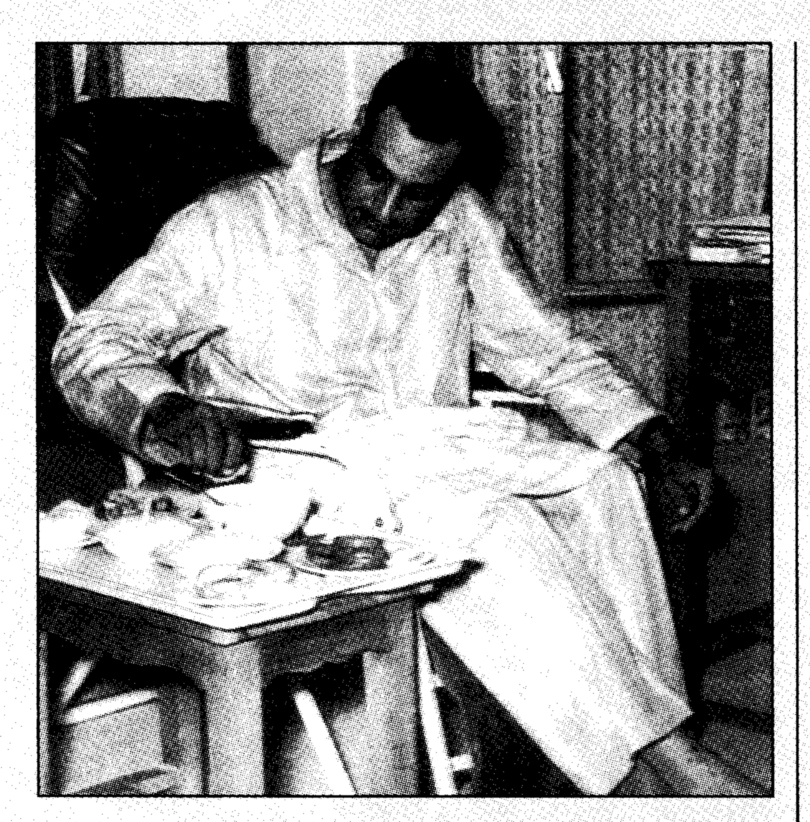
٣ - عبد الناصر والقذافى فى مؤتمر القمة العربى الذى انعقد فى القاهرة فى سبتمبر سنة ١٩٧٠ .



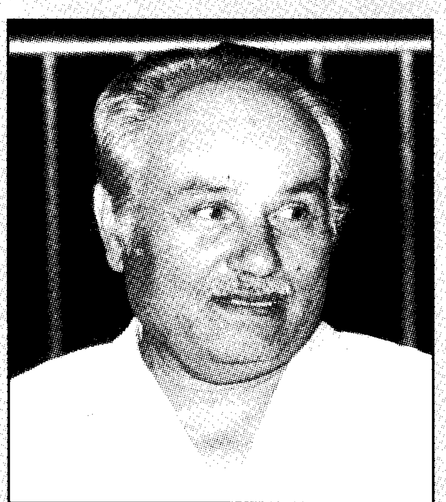
٤ - محمود رياض وزير الخارجية الأسبق ومحمد حسنين هيكل والإعداد لبيان يصدر عن مصر بعد وفاة جمال عبد الناصر .



٥ - مباحثات الرئيس السادات والرئيس بومدين.



٦ - جمال عبد الناصر أثناء فترة مرضه فى المستشفى العسكرى .



٧ - سعد مأمون .



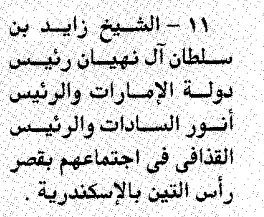
٨ - جمال عبد الناصر والملك فيصل في مؤتمر الخرطوم .



٩ - عبد الناصر ومعمر القذافي وجعفر النميري .



١٠ - الرئيس السادات مع الملك فيصل .



١١ - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات والرئيس أنور السادات والرئيس القذافى فى اجتماعهم بقصر رأس التين بالإسكندرية .



١٢ - الرئيس السادات مع معمر القذافى .



١٣ - الفريق عبد المنعم رياض .



كشف حساب

- نظرية المنخل والغربال لتحطيم معنويات الجيش المصرى.
- «وادى الموت» كان الاسم الذى أطلقه اليهود على الثغرة.
- ٨٠ ميكروفونا للتجسس فى قصر الطاهرة.
- قرارات مهمة فى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة.

كلفت وزير الحربية الجديد أحمد إسماعيل أن يستعد. أى أن يوقف الجبهة. وأن يتهيأ لتحضيرات الهجوم. وأنا أترك الجبهة الداخلية الآن..فالذى سمعته عن القوات المسلحة ومن القوات المسلحة أذهلنى. ووجدت أن هذه هى المعركة. معركة إعداد الجيش ليدافع عن مصر وعن القومية العربية كلها..

وأحسست أمام «الردة» التى اجتاحت بعض الناس، أنه لابد من عمل شىء بسرعة. وأحسست أن أحمد إسماعيل فى اللحظة التى كان يرفع فيها الساتر الترابى كان يرفع من معنويات الجيش أيضا.. فالسواتر الترابية كانت شيئا أهم من التراب، وكانت أخطر من مجرد ساتر عندنا يقف أما ساتر عند اليهود.. أو يعلو على ساتر اليهود.. ولم أشعر أن هذا التراب الذى اشتركت فى رفعه كل شركات المقاولات فى مصر، كان تبرا وليس ترابا.. ففى استطاعة قواتنا أن تعلو وأن تقف فوق هذا التراب بأسلحتها وتكشف العدو كما كان يفعل فى قواتنا..

لقد أقام أحمد إسماعيل سواترا ترابيا عاليا على شكل حدوة الحصان. وقال اليهود: إن المصريين قد اعتادوا على بناء الأهرامات.. حتى فى العصر الحديث أقاموا هرما.. ولم يكن بناء الأهرامات الترابية هذه إلا لحكمة يعرفها اليهود وإن كانوا يتظاهرون بأنهم لا يعرفون حكمتها.. وجاءت على شكل حدوة الحصان، لا باعتبار أن هذه الحدوة هى رمز للتفاؤل، ولكن لأسباب عسكرية..

وبعد ذلك جاءنى أحمد إسماعيل يقول لى: تمام يا أفندم!

وكان صادقا فيما يقول، فهو رجل جاد. وعلى درجة عالية من الثقافة العسكرية والثقافة العامة.

وفى نهاية ديسمبر واجهت الشعب كله بما حدث وفضحت اليمين واليسار وطلعت الصحيفة اليومية ورئيس تحريرها تقول: إن القرارات التى أصدرتها غير مدروسة.. وكانت تقصد قرار طرد الخبراء السوفيت وقرار عزل وزير الحربية الذى راح يدعو لزعامته فى

الجيـش.. وكان يبنى هذه الزعامة على هدم معنويات القوات المسـلحة.. وقد عزلته واثنين آخرين حاول أحدهما الانتحار فى السـجن.. وأرسل لى ورقة ملتهبة حماسا عندما انتصرت قواتنا فى أكتوبر..

وأمام مجلس الشـعب أكدت للشـعب وللأمة أنه من الضرورى أن نكـون على حذر، وأن نتنبه إلى مزالق لا يحق لنا أن ننجرف إليها، سـواء بالنسـبة لتحرير الأرض أو الممارسـة الديمقراطية..

اشرح واعرض وأقنع.

فقضية تحرير الأرض العربية هى التزامنا الأساسى، وإليه وفى سبيله يجب أن تتجه كل أعمالنا ونياتنا فلا طريق إلى اسـترداد الحق إلا بالقوة.. إلا بقواتنا المسلحة. ولا يمكن لقواتنا المسـلحة أن تؤدى دورهـا إلا إذا كانت هناك جبهة داخلية متماسـكة وصلبة تؤمن بهدفها وتعـرف طريقها إلى تحقيقـه مهما كانت التكاليـف.. ثم أن الوحدة الوطنيـة هى الدعامة الوحيدة للجبهة الداخلية المتماسكة الصلبة..

وأعلنت أيضا أنه بدءا من الآن لن أسمح ولن تسـمحوا ولن يسـمح شعبنا بنغمة طائفية من أى شـخص ومن أى مصدر ولأى سبب، ثم إننى أيضا لن أسمح ولن تسمحوا ولن يسمح شعبنا باستقطاب يمزق قوى الوطن خصوصا بين الشباب بدعاوى اليسار المغامر أو اليمين الرجعى!

وفـى مارس مـن سـنة ١٩٧٣اجتمعت مع المشـير أحمـد إسماعيل فى بيـت صغير فى كنج مريـوط .. وكان اجتماعا تاريخيا لأننـى أعطيت فيه قرار الحرب. ولم أحدد متى يكون ذلك من هذه السـنة.. وفى ذلـك الوقت كانت قواتنا تتدرب على القتال وعلى مواقع تشـابه تماما المواقع التى سوف تحارب فيها.. وفى منطقة قريبة من القناطر الخيرية.. حيث الرمال والحاجز المائى والعبور وسواتر الرمل..

وكان هذا الكوخ هادئا متواضعا، أقامته وزارة الزراعة منذ ستين عاما.. وقد جاء الرئيس حافظ الأسد إلى هذا الكوخ فى زيارة سرية. واتخذنا معا فى شهر أبريل قرار المعركة.

وقد قدم لنا الفريق عبد الغنى الجمسـى دراسـة وافية عن أنسب الأوقات للقتال. وكانت هذه الدراسـة خلاصة أبحاث فى علوم كثيرة أبسـطها علم الفلك. ففى هذه الدراسـة وصف لنـا الظواهر الطبيعية على مدار السـنة.. حالة الجو والمد والجزر وحركة الرمال والشـروق والغروب.. وقد كتب الجمسى هذه الدراسة بخط يده..

ومن يقرأ هذه الدراسة يستشعر صعوبة العلم العسكرى. وأنه ليس سهلا كما يتصور بعض المحللين أصحاب نظرية «المنخل والغربال فى الحرب والقتال»..

كل شـىء يسير حسب الخطة الموضوعة، والمتفق عليها مع الرئيس حافظ الأسد. وكل يوم يمضى نشعر باقتراب اللحظات الحاسمة.. وهى ولا شك كذلك: إنه ليس مصير مصر وسوريا وحدهمـا.. وإنما هو مصير الأمة العربية لمئات السـنين.. فهذه المرة إذا لم ننتصر فإن كل ما قاله العدو والحبيب سوف يصدق علينا.. وإننا شعوب كلام، وإنه لا قومة لنا بعد ذلك.. ولن يثق أحد فينا ولا فى قواتنا العسكرية..

وقـد جربـت بصورة أليمـة معنى أن يكون الإنسـان صادقا فيما يقول، ثـم لا يجد أحدا يصدقه.. أو إذا صدقه فمن باب الإشـفاق عليه.. أعرف ذلك جيدا. وقد جربته وتعذبت به، وهانت نفسى على نفسى.. ولكن من أجل مصر كل شىء يهون..

وقد أمرت بتجهيز قصر الطاهرة لإدارة الحرب فقد كان مجهزاً تماماً للاتصال بكل مكان فى مصر بل بكل تشـكيل عسـكرى فى أى موقع وبالقرب من قصر الطاهرة يوجد قصر الأمير محمـد عبد المنعم وفى هذا القصر كان يعمل حافظ اسـماعيل مستشـار الأمـن القومى ومعه مجلس وزراء مصر والمسافة بين القصرين مائة متر.

وقصر الطاهرة كان قد اختاره جمال عبد الناصر للإقامة فيه فى صيف ١٩٥٦ عندما كانت بعض الإصلاحات تجرى فى بيته فى منشـية البكرى فقد كان بيته صغيراً ضيقاً وفى أكتوبر ١٩٥٦ وقـع العدوان الثلاثى على مصر وارتبط هذا القصر فى ذهن جمال عبد الناصر بالعدوان ومضاعفات العدوان، ولذلك كان لا يحب هذا القصر بل يتشاءم جداً من الإقامة فيه.

ولكـن وجدت هذا القصر مناسـباً تماماً لما أريـد. فقد جهز تجهيزاً جيداً ثم إنه وسـط القاهرة وبين الناس وعن طريق الأجهزة الكثيرة فيه أسـتطيع أن أكون على صلة بكل الناس وفى قصر الطاهرة كنت أتلقى تفاصيل الموقف من كل جهة وأنا لا أطمع فى أحسن ولا أدق من ذلك ثم إننا فى حالة حرب وكل شـىء يجب أن يكون من أجل الحرب ومواجهتها وإدارتها والتفوق فيها بإذن الله.

وكانت غرفة المكتب بقصر الطاهرة هى غرفة عمليات أثناء الحرب.

ولـم يخطر على بالى قبل الحرب أو أثناءها أن الصدمة سـوف تذهل إسـرائيل إلى هذه الدرجة. فقد أذهلتها وردعتها وأفقدتها توازنها. ولذلك لم أستبعد أن يصيبها الجنون لدرجة

ضـرب أعماق مصر بقصد تحطيم معنويات شـعبنا العظيم. فتضرب العمق وتحطم المواصلات وتهدم الجسور والمصانع والمدارس والمستشفيات إلى آخر نوبات الجنون التى سوف تصيبها بالغـرور والغطرسـة لأنها هى أيضا قد آمنت بأنها قد قامت لكـى تنتصر دائما وتوهمت أن العرب قد ولدوا لكى يعيشـوا منهزمين.. ربما كان للغرور الاسرائيلى بعض العذر إذا تلفت اليهود إلى الوراء ورأوا ما حدث فى ٤٨ أو فى ٥٦ أو فى سنة ١٩٦٧ وحتى حروب الاستنزاف أيضاً إن الصورة بهذا الشكل تعطيهم الكثير من الحق فى أنهم انتصروا علينا.

ولكنى أرى. وللحق والإنصاف والتاريخ. أننا أهملنا فى حق أنفسنا فلم نعط لكفاح الجيش المصرى ما يستحقه من الاهتمام فلم تكن معاركنا هزائم كلها إنما كانت هناك مواقف مجيدة وبطولات عظيمة. فلم تكن الصورة سوداء. ولا كانت نتائجها عاراً علينا..

ولذلك كانت القوات المصرية معذورة فى أن تنكس رأسـها. كلما جاءت ذكريات الحرب الأليمـة.. وكانت القـوات اليهودية تطيل أعناقهـا وترفعها وتجعلها غليظـة كما وصفتها التـوراة. بأن اليهود «غلاظ الرقاب». أى فيهم غرور وصلف حتى مع الله.. والتوراة تؤكد هذا المعنى.. وهو حقيقة..

ولذلك. وأرى أن نقول هذا لأنفسـنا كثيراً ولأجيالنا الشـابة أيضا: إن الاسـتعداد لحرب أكتوبر كان عسـيراً.. ورفع الروح المعنوية بين كل الناس كان صعباً. وغرس الإيمان فى كل القلوب كان شاقا. وأنا أعرف الكثير من المتاعب التى ذكرت بعضها. ولم يحن الوقت بعد لذكر أشـياء كثيرة منها، وهذه هى مهمة المؤرخين المنصفين.. ﴿وكان فضل الله عليك عظيما﴾.. صدق الله العظيم.. فقد أعاننا الله ونصرنا. وسـوف ينصرنا إنه على كل شـىء قدير. فقد أحتطت لكل شىء. وجعلت غرفة للعمليات فى قصر الطاهرة. وغرفة مماثلة فى الاتحاد الاشتراكى فى البـدروم على النيل وكانت هـذا الغرفة بديلا عن غرفة قصر الطاهـرة إذا ما ضربتها الغارات اليهودية. فقد كان ذلك احتمالاً قائما، من يدرى؟ وجعلت غرفة ثالثة للعمليات لممدوح سـالم الذى كان يتولى الدفاع المدنى والمقاومة الشـعبية. لقد كانت هناك ثلاث غرف تبادلية. وهى جميعاً على اتصال ببعضها البعض وبكل مكان فى مصر.

ووسط هذا الجو الجاد الذى يأخذنا من كل ناحية، والحسابات الطويلة المعقدة والاحتمالات التى تطل برءوسها مخيفة لنا، حدث شىء يبعث على الضحك. تماماً كما نجد السحاب الأسود يمزقـه البرق فيضىء كل شـىء لحظة ثم يعود كل شـىء إلى ما كان عليـه.. وهذا ما حدث.. فنحن عندما كنا نجهز قصر الطاهرة عثرنا على ثمانين ميكروفوناً صغيراً للتجسس. ولم تخل

حجـرة واحدة من هـذه الميكروفونات التى تعمل لصالـح إدارة المخابرات العامة. كان ذلك فى سـنة ١٩٧٣.. أى بعد أن صفيت مراكز القوى فـى ١٩٧١. ولم تعد هناك أجهزة للتنصت ولا تسـجيلات ولا تقارير.. فقد انقطعت كل الاتصالات بين هذه الميكروفونات وبين أجهزة التنصت هذه ولكن بقيت الميكروفونات فى أماكنها بلا عمل.

شـىء مضحك أن نتجسس على كل ما يقوله زوار القصر ونزلاؤه من رجال وزوجاتهم فى غرف نومهم؟!

وتساءلت وأنا أضحك: ولماذا نسوا دورات المياه؟!

فى ذلك الوقت جاءنى القذافى فى قصر الطاهرة. وطلب أن نطلعه على غرفة العمليات. ولم تكن هناك عمليات. فنحن فى أيام الثغرة، ولكنه غضب عندما لم ير شيئاً من ذلك وراح يقول: إنه لم يكن يتوقع شيئاً من ذلك. خصوصا أنه جاء إلى مصر طائراً ومخاطراً بحياته لأن اليهود كانـوا علـى مدى مائة كيلو متر من القاهرة. فكيف لا يـرى غرفة العمليات وكيف لا نطلعه على أدق أسـرار القتال. لأنه ضحى بحياته عندما هبط أرض مصر. ولم يلاحظ أننا جميعاً فى مصر وفى قلب القاهرة وأن أولادى يقيمون فى الجيزة. وأننا جميعا يجب أن نشـارك شـعبنا فى كل شىء. لأن التضحية واجبة على الجميع، والحرب قد سَوَّتْ بين الجميع.. وما يجرى على أولاد الناس يجرى على أولادى أنا أيضا ومع ذلك شرحت له الموقف. وكانت المعلومات التى لدى القذافى تؤكد له أن الثغرة هذه سـوف تتسـع وتتسع حتى تبتلع مصر وجيش مصر والنظام المصرى. وأن الثغرة هى بداية النهاية. وكانت الثغرة بداية النهاية لليهود ونهاية البدايـة لصالح مصـر.. أى إن الثغرة هى إنهاء لوضع قوات الاحتـلال اليهودية على الضفة الغربية. هذا ما حدث فعلا!

وهذه الثغرة قد أتعسـت اليهود أنفسـهم واعترفوا بأنها مصيدة وقعوا فيها. وأن الثغرة قـد صنعتها أمريكا لهم. وهى التى صورت لهم مـن الجو مواقع القوات المصرية. وهى التى أعطتهم المفتاح للدخول بين القوات والانتشار وراءها..

وقد جاءنى الجنرال الفرنسى بوفر - الله يرحمه - رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية، فـى القناطر الخيريـة وقال لى وكان حاضـراً رئيس تحرير الأهرام فى ذلـك الوقت: هذه الثغـرة يجب ألا تهمـك مطلقاً. إنها ليسـت إلا معركـة تليفزيونية! إنهـا مقضى عليها بالفشل تماماً!

وكتـب رئيس تحريـر الأهرام مقالاً يعيِّر فيه مصر وقواتها المسـلحة. ويقول: إنه على أيام جمال عبد الناصر، احتل اليهود الضفة الشرقية للقناة فقط. أما فى عهدى أنا فقد احتل اليهود الضفة الغربية أيضاً.. وجعل لها شـعاراً: الاحتلال من سعسع للأدبية.. وسعسع هذه قريبة من دمشـق والأدبية قريبة من السويس. ومعنى ذلك أن جيشنا لم يلق هزيمة أفدح من هذه الهزيمة. وأن حرب أكتوبر أسوأ من حرب يونيو ١٩٦٧.

وعاتبت رئيس تحرير الأهرام على هذا الكلام الانهزامى وعلى هذ الموقف اللاأخلاقى من الجيش ومن الشعب .. ثم إنه لم يكن يعرف ما حققته هذه العمليات العسكرية الضخمة المعقدة.

وقد اعترف اليهود أنفسـهم بفداحة الثغرة. ووصفوها كما قلت بأنها وادى الموت. ومن يقـرأ مجلتى «التايم» و«النيوزويك» الأمريكيتين فى ذلك الوقت يجد أن الجنود اليهود كانوا يصرخون من هذه المصيدة. وكانوا يرفعون لافتات موجهة إلى المصريين يقولون فيها: دعونا نرجع إلى بلادنا.. لا تضغطوا علينا نحن نريد أن نعود إلى مدارسنا وكلياتنا..

فقد جند اليهود حتى الطلبة فى هذه الحرب فلم يكونوا سـعداء بهذه المصيدة. بل كانت معنوياتهم عند الصفر. كل ذلك معروف ومنشور فى كل الدنيا.

وجاءت كتبهم عن الحرب تؤكد أن الثغرة مقلب صنعه اليهود وشـربوه حتى آخره. وأن تقدير المصريين للموقف كان سـليماً عندما أعلنت أنا فى مناسبات كثيرة أننا نحيط باليهود من كل جانب. وأنهم ضحايانا لا شك فى ذلك.

وفى اللقاء التليفزيونى أخيراً مع الرئيس نيكسـون اعترف بما أسـعدنى حقاً. فقد قال: إنـه لـولا تدخل أمريكا فى حرب أكتوبر لانفتح الطريق من أوله إلى آخره عند تل أبيب أمام القوات المصرية..

والتدخـل الأمريكى معروف تماماً. فقد نزلوا بدباباتهـم فى العريش.. وكانت الدبابات مزودة بالوقود والذخيرة. وهذا هو التدخل الذى اعترف به نيكسون أخيراً، والذى وقف تقدم قواتنا إلى تل أبيب.

وقد تحدث نيكسون عن تهديد اليهود للجيش الثالث. وأعتقد أن ما قاله نيكسون يحتاج إلـى تصحيح وتوضيح. وسـوف أفعل ذلـك بمجرد أن أقـرأ النص الكامل لمـا قاله الرئيس السابق نيكسون..

وكانت هناك التفافات وتداخلات. وهذا موقف صعب وقد تولت وتوالت الندوات العسكرية فى القاهرة وفى تل أبيب لشـرح هذا الذى حدث. ونشـرت هذه الندوات فى العالم كله. ولم

يعد هناك سر. واعترف اليهود بكل أخطائهم. واعترفنا نحن أيضاً. وفى نفس الوقت شهد لنا العالم بالاقتدار والبراعة وحسن الأداء ومنتهى اللياقة العسكرية. وكل ذلك أصبح تاريخاً ثابتاً معروفاً. لا يمكن لأحد أن ينكره أو ينال منه.. انتهى ذلك.

ومن يرجع إلى ما كتبه اليهود أنفسهم عن هذه الحرب وعن «الثغرة» بالذات لا يجد أنه فى حاجة كبيرة إلى الدفاع عنها. فقد فعل اليهود ذلك. واعترفوا بأنها حركة قصدوا بها رفع معنويات الشعب فى إسرائيل. أو رد اعتبار القادة الإسرائيليين. وقد رأينا بعد الحرب ما الذى فعله الشعب اليهودى فى إسرائيل وفى العالم. ورأينا حرب الجنرالات فى إسرائيل.

إننى لم أكن مبالغاً عندما قلت إننا «صدرنا الهزيمة وويلات الهزيمة والندم والعار والهوان» إلى إسرائيل بعد حرب أكتوبر. ولم أكن شاعراً متغنياً متباهياً بانتصارنا. ولكن يكفى الدارسين للأدب اليهودى بعد حرب أكتوبر وأثناءها أن يقرأوا قصائد الشبان اليهود وبكائياتهم على الذى أصاب اليتامى والأرامل .. إن قصائد هؤلاء الشبان اليهود هى دموع مكثفة وآهات موجعة وصور الأمهات وهن يتعلقن بثوب جولدا مائير، وصور الأمهات والآباء وهم يتمسحون بجدران حائط المبكى.. كل ذلك منشور فى الصحف الإسرائيلية وفى كل صحف العالم .. ولم يكن ذلك كله من فرط السرور والسعادة. وإنما كان بسبب الثمن الفادح الذى دفعته إسرائيل فى حرب أكتوبر وفى «وادى الموت» بصفة خاصة .. يقابل ذلك سعادتنا بانتصاراتنا واستعادة كرامتنا.. وكل ذلك يمكن أن نعود إليه. فليست انتصارات أكتوبر بعيدة عنا.. ولن تكون. بل سوف تبقى آثارها النفسية والعسكرية والتاريخية لمئات السنين. وهذه حقيقة ليست من عندى أنا أيضا. وإنما من عند النقاد العسكريين والمحللين الاستراتيجيين والمؤرخين..

وعلى رغم هذه السعادة التى غمرت مصر وجيشنا وشعبنا وأمتنا العربية ذهب محمد حسين هيكل إلى بيروت. يتحدث عن انتصارات أكتوبر بلغة الفوازير والشماتة والسفالة اللا أخلاقية دون وازع من ضمير فيقول: إن الحرب كانت ١٥يوماً خمسة أيام لنا وخمسة أيام تائهة وخمسة أيام لهم!

شىء مضحك أو على الأصح شىء يبعث على الخزى والاحتقار. وهو يعلم أننى يوم ١٦ أكتوبر ألقيت خطبة فى مجلس الشعب أى ونحن فى أوج انتصارنا، هذه الخطبة بعد عشرة أيام بالضبط من الحرب. وهذه الخطبة قد شارك هو وآخرون فى إعدادها!

ولكـن هذا الموقف يكشـف نوعية هذا الطـراز من الناس .. إنهـا الانهزامية القبيحة. وهى الشـماتة العارية .. الشـماتة فى مصر وجيش مصر وشـعب مصر - مع أن مصر كانت منتصرة - وهذه السطور القليلة يمكن رواية تفاصيلها فى كتب عن الأعمال البطولية العظيمة التى قامت بها قواتنا، وقام بها المواطنون البسـطاء من أبناء شـعبنا، فقد كان أهل السـويس قـد هجروها، وكذلك أهل الإسماعيلية.. ولكن بعـض المواطنين عز عليهم أن يتركوا بيوتهم المهدمة.. وقاوموا وضربوا العدو. وحطموا له على مشـارف السـويس ١٢ دبابة ولما تسـللت دبابتان وعربة لورى إلى داخل السويس حطمها المواطنون. ولا تزال إلى يومنا هذا فى مكانها الذى أحرقت فيه.. كما أنهم قضوا على ثلاثين جنديا..

وعندمـا زرت الإسماعيلية طلبت تكريـم اسمها «أبو خطوة» والقرية تقع على مشـارف الإسماعيليـة. وصلت إليها ثلاث دبابات إسـرائيلية. ولم يسـتطع اليهود أن يسـحبوا هذه الدبابات فبقيت فى مكانها. ونحن نعرف أن اليهود يسـحبون خسائرهم وقتلاهم. يسحبون خسـائرهم، حتى لا يعـرف أحد.. كم هى عدد الإصابات التى تكبدوها. ويسـحبون قتلاهم لأسـباب دينية فى أرض يهودية يظل يزحف تحت الأرض حتى يصل إلى الأرض اليهودية. وإن كل يهـودى لا يدفـن فى أرض يهودية يظل لعنة على أهله وشـعبه إلى يوم القيامة.. ثم إن عندهم مشـاكل تتعلق بالوراثة والطلاق. وهذه المشاكل لا تحل إلا إذا عرف أن الجندى قد مات وإلا إذا دفن. ولذلك فقد كانت مشاكل اليهود كثيرة ومعقدة بسبب الجثث المفقودة والتى عثروا عليها فى سيناء وفى قناة السويس.

ولذلك فإن حاخامات اليهود راحوا فى «وادى الموت» ينبشـون الأرض مستعينين بالكلاب البوليسية للعثور على بقايا قتلاهم.. على ساق أو ذراع أو أصبع أو حذاء أو خوذة أو خصلة من شعر لحية أى جندى.. ومع ذلك لم يفلحوا فى سحب كل الدبابات. فلما رأيت ثلاثا منها فى قرية «أبو خطوة» قررت أن ترفع هذه الدبابات على منصات ثم يقام نصب تذكارى تكتب عليه أسماء شهداء «أبو خطوة»، وأسماء تشكيلات الصاعقة التى حققت هذا العمل البطولى..

إن كثـيرا مـن الدول الأوروبية فعلت ذلـك بعد الحرب العالمية الثانيـة.. ففى كثير من العواصـم نجد آثار دخول قوات وآثار اندحار قوات أخرى، وعلى الشـعوب أن تسـجل ذلك اعتزازا بما قامت به فى أيام المحن. وأن مواطنا بسـيطا يمسـك قنبلة يدوية ويلقى بها على عدوه أو حتى يرميه بقطعة حجر، لعمل من أعمال الشجاعة والبطولة.. صحيح أن هذا المواطن يقف وحده فى مواجهة أحدث الأسلحة، ولكنه بإيمانه بوطنه وتفانيه من أجله، هو مواطن

بطل.. لأنه يعرى صدره لعدوه، ويعطى حياته لله، وليس هذا بالقليل. بل إنه شيء كثير جدا في ساعات المحن والأزمات. ومن هذه الساعات ومن هذه البطولات، قد سجل شعبنا أعظم وأشرف معاركه.

ولم يكن في استطاعة اليهود أن يتوسعوا في الثغرة أكثر وأبعد مما فعلوا.. وإلا اصطدموا بكثافة السكان في مصر. وفي ذلك قضاء عليهم. ولكن اليهود اعتمدوا على الحرب النفسية، واعتمدوا أيضا على الذين ارتعدوا وراحوا يؤكدون الروح الانهزامية في مصر.. ودعاة الهزيمة. ونحمد الله أنهم لم يكونوا كثرة تخيف، وإنما هم قلة تستحق منا أن نقف لحظة لنؤكد لهم عظيم احتقارنا. فمصر بخير، وسوف تنتصر بإذن الله. وإذا كان من أبنائنا قلة، وجفت قلوبهم، فإن الأغلبية الساحقة من شعبنا لهم قلوب من حديد.. وإلا فما انتصرنا على أنفسنا قبل أن ننتصر على عدونا. وهذا تاريخ يجب أن نسجله وأن نقوله وأن نعيده، فذلك شرف لنا وواجب علينا..

وقد حدث قبل ذلك في يوم ١٩ أكتوبر مساء أن عاد اللواء سعد الشاذلي رئيس الأركان خائفا مذعورا. وقال لي: إن اليهود في الثغرة وأنهم وراء الجيش الثاني والثالث وأنه لابد أن نسحب قواتنا من سيناء!

وكان ذلك تصورا مروعا، وقمة للانهزامية.. إذ كيف نسحب قواتنا لأي سبب. وكيف نسحبها بعد هذا الذي تحقق وبهذه الصورة الرائعة؟ كيف نعود إلى الوراء بعد الصدمة التي أذهلت اليهود؟ كيف نعيد الفرح إلى عيون شعبنا، ونطلب إليهم أن يبكوا علينا وعلى ما أصابهم على أيدي قواتهم وقادتهم؟ وكيف نعيد أكتوبر ٧٣ إلى يونيو ٦٧؟ لقد رأيت فيما يقوله سعد الشاذلي حالة من الجنون.

ودعوت إلى اجتماع للقيادة عند منتصف الليل. وصارحته بأن الذي يقوله كلام جنوني.. في هذا اليوم عزلت سعد الشاذلي وعينت اللواء عبد الغني الجمسي رئيسا للأركان. ولم أعلن هذا القرار إلا بعد شهرين. لأنه لم يكن من الضروري إعلان ذلك خوفا على الروح المعنوية لقواتنا المسلحة.

فعزل القادة وضرب بعضهم ببعض أسلوب إسرائيلي وليس أسلوبا مصريا!

فاللواء عبد الغني الجمسي كان رئيسا للأركان منذ يوم ١٩ أكتوبر عند منتصف الليل..

وأنا أرى أنه من الضروري أن أعود من حين إلى آخر إلى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢ وكان ذلك في رمضان. ففي هذا الاجتماع رأيت أشياء كثيرة كانت خافية علي تماما..

ومن هذا الاجتماع تفجرت قرارات وحدثت تحولات بعضها أرويها مرة أخرى الآن..

وبعضها سوف أعود إليها فيما بعد عندما أتحدث عن أول محاولة للقيام بانقلاب فى عهدى، وكان ذلك شيئا غريبا وغير مألوف. فقد كان من المألوف على أيام جمال عبد الناصر، أن يقع انقلاب أو محاولة كل ستة شهور..

وقد دعوت المجلس الأعلى للانعقاد فى الدور الثانى من بيت المليونير محمد محمود خليل، وبيته مجاور لبيتى الذى أقيم فيه منذ أيام جمال عبد الناصر. وهو بيت ضيق وجوّه ليس هادئا، فأصوات الشوارع والمناطق المجاورة يمكن سماعها فى كل وقت بوضوح. وهذا هو الذى يدفعنى إلى أن أتركه وأقيم بعيدا عنه فى القناطر أو حتى فى الإسكندرية. وقد أشار البعض بأن أختار بيت محمد محمود خليل سكنا لى. ولكنى رفضت، لأن الرجل قد أوصى بأن يكون متحفا. وعندما رأيت هذا البيت كان منهارا وفى أسوأ حال، فأمرت بإصلاحه على النحو الذى كان يتمناه صاحبه..

وكان الهدف من هذا الاجتماع، كما ذكرت كثيرا، أن أعرف مدى استعدادنا.. أو أين نحن من المعركة.. وهذا المجلس هو أعلى هيئة عسكرية. وفى هذا المجلس يجب أن يتقرر ويتحدد كل شىء. وكل كلمة تقال هى مصير. وكل قرار هو قدر. وكل شىء قيل فى هذا الاجتماع مسجل بالكلمة الواحدة. ومعروف. وفى متناول أى أحد، إذا أراد أن يعرف ماذا جرى فى ذلك اليوم الحاسم. أو الحاسم الأليم.

ومن الضرورى أيضا أن أعود خطوة إلى الوراء وأتصور ماذا حدث مرة أخرى يوم استدعيت إلى استراحة المعمورة. أربعة من الشخصيات الهامة بهذا الترتيب: حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى ومحمد صادق وزير الحربية وسيد مرعى وممدوح سالم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية والمسئول عن المقاومة الشعبية. وأخطرتهم بأن قرار طرد الخبراء السوفيت الذى أصدرته لا قيمة له إذا وصلنا إلى شهر نوفمبر سنة ١٩٧٢ ولم نكن جاهزين للمعركة. وعلى ذلك فالمطلوب من كل واحد منهم أن يكون مستعدا تماما.

وقلت لمحمد صادق، كما ذكرت قبل ذلك، أن يجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة وأن يخطرهم بقرارى بأن تكون القوات المسلحة جاهزة تماما يوم ١٥ نوفمبر لأداء ما طلبته إليهم من مهام. وهذا ما نسميه فى العلم العسكرى «بالأمر الإنذارى»، أى إخطار القوات العسكرية بأن تكون جاهزة فى ١٥ نوفمبر. لتتلقى أى أمر. ولكن ليس معنى ذلك أن تبدأ القوات القتال.

ثم هناك الأمر الاستراتيجي «من رئيس الجمهورية إلى القائد العام» وفى هذا الأمر نعرض كل الاستراتيجية العامة.

وبعد ذلك «أمر القتال» فى هذا الأمر تتحدد الساعة والدقيقة للمعركة..

وهذا هو المتبع عادة فى الحروب. ومن يقرأ التاريخ يجد أن الذين كتبوا عن معركة الحلفاء فى نورماندیا قد تناقشوا طويلا فى هذه الأوامر وترتيبها.

وكان لتشرشل رأى، ودارت حوله اجتهادات كثيرة. وفى مذكرات ايزنهاور رد على ما كتبه تشرشل وأثاره فى مجلس العموم البريطانى. ولكن لا خلاف بين «الكتب» العسكرية أو القانون العسكرى «فى ترتيب وأهمية هذه الأوامر» ففى معركة نورماندیا ضد هتلر، صدر «الأمر الاستراتيجى» للقائد العام للقوات المتحالفة وكان ايزنهاور فى ذلك الوقت. ثم بعد ذلك صدر « أمر القتال» الذى وقعه تشرشل وروزفلت..

وهذا عرف عسكرى معروف. وهذا بالضبط ما سرت أنا عليه، وحريص على تطبيقه. والذين يدرسون حرب ٦٧ وحرب ٧٣ ومن قبلها حرب ٤٨ سوف يجدون ألوانا وأشكالا من التخبط فى إصدار الأوامر وتضاربها وتطبيقها.. ولم يكن هذا الذى شاهدناه قبل حرب أكتوبر تضاربا بل ضربا موجعا للقادة.. وكان على مصر أن تدفع الثمن وهذه قصة أخرى سوف أعود إليها فيما بعد إن شاء الله..

وأذكر أننى عندما أعطيت أحمد إسماعيل أمر القتال ووقعته يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣، تحركت أمام عينى وفى نفسى صورة رائعة ومروعة أيضا...

والله يعلم أننى كنت أكتب كل حرف وأعلم أننى أخط قدرى وقدر مصر. وكان ذلك شيئا هائلا رهيبا. ولا أقول: إننى استرحت عندما أصدرت هذا الأمر، وإنما أحسست أن جبلا ثقيلا كان أمامى، وأننى حملته على كتفى وطلبت من الله أن يساعدنى على أن أنهض واقفا وأن أقتحم به استحكامات العدو، وأعبر الحاجز المائى، وأعبر صحراء العار، والهوان.

وأن هذا المعنى الذى قلته يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ فى افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب.

قلت، والله على ما أقول شهيد.

«عاهدت الله، وعاهدتكم على ألا أتأخر عن لحظة أجدها ملائمة، ولا أتقدم عنها، لا أغامر، ولا أتلكأ، وكانت الحسابات مضنية والمسئولية فادحة، لكنى أدركت كما قلت لكم

وللأمـة مرارا وتكرارا إن ذلك قدرى وأنا حملته على كتفى، عاهدت الله وعاهدتكم وحاولت مخلصا أن أفى بالوعد ملتمسا عون الله، وطالبا ثقتكم وثقة الأمة، دائما لأحمد الله على كل شىء..».

يومها، بل لحظتها نظرت إلى أحمد إسماعيل وأنا أقول له: يا إسماعيل.

قال: نعم

قلت: نحن الآن يوم الثلاثاء ٢ أكتوبر وسوف نحارب بمشيئة الله يوم السبت ٦ أكتوبر يا ترى يا أحمد أين ستكون يوم الثلاثاء القادم ٩ أكتوبر..؟

ولم يرد أحمد إسماعيل.

فقلت له: اسمع يا أحمد..

قال لى: نعم..

قلت له: أشرف لنا ألف مرة أن نموت مع جنودنا وأن ندفن فى أرض سيناء، على أن نعيش فى هذه المهانة التى اسمها: اللاسلم واللاحرب. أشرف لنا أن نغرق فى قناة السويس وهى ماؤنا وأرضنا من أن نعود للحياة على ضفاف النيل مع الذل والعار والتمزق والنظر إلى الماضى على أنه مقبرة لنا..

ففى الماضى دفنا كل آمالنا وكل أحلامنا وكل تاريخنا.. وبذلك نكون حقا شعبا له ماض وليس له مستقبل.. وأن تصدق علينا العبارة اليهودية الآثمة التى تقول: إنهم ولدوا لينتصروا وإننا ولدنا لننهزم.. وإننا شعب يعيش ويموت بالكلام.. وإن معاركنا خطب، وإن حروبنا هلوسة.. وإن جنودنا منهزمون لأنهم انهزموا.. وإنهم عاجزون عن أن يخوضوا حربا أخرى.. يا أحمد ليس عندى ما أقوله لك ولنفسى فلنتوكل على الله، وليبارك خطانا ولينصرنا على أعدائنا إنه سميع مجيب. لقد صدقنا النية وأخلصنا العمل والله فى عون العبد مادام العبد فى عون نفسه.. وقد عاونا أنفسنا، فليعاونا الله.. مع السلامة.

وخرج أحمد إسماعيل يحمل أخطر قرار، قرارا بالقتال..

ولذلك قام محمد صادق قبل ذلك بإلقاء خطب فى القوات المسلحة يؤكد فيها، كالخبراء السوفيت تماما، أنه لا حرب. ولا فائدة منها، ولا قدرة لمصر عليها. وأنه أفضل لمصر ولقواتها المسلحة أن تظل هكذا فى محلها تسير. أو فى نومها تسير. أى أن تكون فى حالة اللايقظة واللانوم.. «وأن تنظر إلى القوات اليهودية على أرضها فى سيناء وتبتلع رمال الأرض وتحترق

من داخلها وتموت كمدا على ما أصابها.. وسوف تعتاد على ذلك وينتهى كل شىء» – هذه العبارة الأخيرة هى التى قالها موسى ديان.

فهو الذى أعلن أن المصريين لن يحاربوا لأسباب عديدة من بينها:

أولا: أنهم انهزموا أكثر من مرة. فقد اعتادوا على أن ينهزموا كما اعتدنا نحن على أن ننتصر..

وثانيا: لأن المصريين يعتادون على وجودنا فى الضفة الشرقية للقناة. وهذا شأنه أن يخلق لديهم نوعا من الاستسلام الطويل للأمر الواقع..

وهذا ما كان يريده أبواق الانهزامية ودعاتها الخونة فى مصر، أو الخونة لمصر..

وإذا كان وزير الحربية هو الذى يحطم معنويات الجيش المصرى، فمن الذى يرفعها؟ وما هو الفرق بينه وبين وزير الدفاع الإسرائيلى.. إن وزير دفاع العدو يبنى قوته على ضعفنا.. ولكنه لا يبث روح الهزيمة بين قواته، إنه يبثها بين قواتنا إن استطاع..

فى هذا الاجتماع شرحت الموقف السياسى بجميع أبعاده – وهذا مسجل – وشرحت موقفى من الاتحاد السوفيتى، والأسباب التى دعت إلى إخراج الخبراء السوفيت. وأنه إذا كانت هناك فجوة فى التكنولوجيا بيننا وبين إسرائيل، فليس معنى ذلك أن نستكين. ولكن معناه أن نملأ ذلك بتدريبنا وإيماننا بقضيتنا. وأننا يجب أن نتفوق على رغم كل الظروف بالأداء القتالى. وأن هذا قدر. وأن الموت خير من الهزيمة أو الاستسلام لها. وأن الحرب لا ريب فيها. وأن القتال مكتوب علينا. وعندما سألت عن مدى استعداد الجميع للقتال، رأيت وجوما، وكان هذا الوجوم الصامت، صارخا فى أذنى. فلم أتصور أى شىء آخر غير أن الاستعداد للحرب مستمر. وأن كل شىء جاهز. ولذلك جاء هذا الوجوم شيئا مفزعا. إن هذا هو الصمت الرهيب حقا. وجوم؟ ما معنى ذلك؟

وسألت القادة. وسمعت العجب.

واعجب ما سمعته ما قاله واحد اسمه اللواء نوال سعيد قائد الشئون الإدارية للمعركة. أى الرجل الذى يتكفل بنقل الطعام والذخيرة للجيش كله. أى الرجل الذى فى يده حياة كل الناس. فوجئت به يرفع يده ويطلب الكلمة. قلت له: ماذا تريد أن تقول يا نوال؟

قال: يا أفندم أريد أن أسأل.. سيادتك قلت إن هناك تعليمات أصدرتها لوزير الحربية لتبليغها للمجلس الأعلى للقوات المسلحة. ما هذه التعليمات. فأنا لا أعلم عنها أى شىء!

لا يمكن للعقل أن يتصور ما الذى أصابنى فى تلك اللحظة. لأن الذى أمامى الآن شىء يعجز العقل عن تصوره أو تصويره: فالرجل الذى بيده إطعام الجيش وإدارة محركات طائراته ودباباته لا يعرف أن هناك معركة وأن هناك أمرا بالاستعداد.

وتلفت إلى محمد صادق. يقترب منى ويهمس فى أذنى قائلا: والله يا أفندم أنا لم أشأ أن أفشى لهم أسرار الحرب. لأن هذه المسألة يجب أن تكون طى الكتمان.

طى الكتمان؟ سرية؟ لا يعلمها قادة الجيوش.. لا يعلمها الذين سيديرون الحرب.. والذين يتولون إطعام الجيش وأسلحته.. وإذا كان القادة لا يعلمون، فمن الذى يجب أن يعلم.. شىء عجيب جدا.

هنا فقط أدركت أن الأمر أخطر بكثير جدا من هذه البلاهة أو التظاهر بالسذاجة.

ولم يعد شيئا مهما أن أستمع لأحد بعد ذلك. ولكن كعادتى، ابتلعت غضبى وكظمت غيظى، وراح عقلى يعمل بسرعة. ولما طلب الكلمة واحد اسمه على عبد الخبير، وهو ضابط بالمعاش استدعوه وأعطوه مائة جنيه وسيارة وكان قبل ذلك مديرا لمكتب المشير عبد الحكيم عامر أيام النكسة وأعطاه محمد صادق وزير الحربية «قسم القاهرة». أى جميع القوات المسلحة التى فى قلب وحول القاهرة. منتهى الخطورة! ففى استطاعته أن يقوم بأى شىء فى أى وقت إذا طلبوا منه ذلك.. وهو ضابط من منازلهم فقال: إنه ليس لدينا سلاح وغير مستعدين للحرب.

وقال على عبد الخبير هذا أيضا: إن البلد إذا أرادت أن تدخل الحرب فعلى الشعب أن يحرم نفسه من أشياء كثيرة. أى إن الحرمان سوف يضاعف متاعب الشعب ومعنى ذلك أن الجيش غير قادر عسكريا والشعب غير قادر معنويا. والخلاصة: أنه لا ضرورة ولا مبرر لهذه الحرب.

وقلت له بالحرف الواحد وهذا مسجل أيضا: والله إذا نحن ابتدأنا الحرب فإن الشعب المصرى سوف يعطينا اللقمة التى فى فمه.. سوف يعطينا الجلباب الذى يرتديه إذا طلبناه منهم. والمهم أن نحرك الموقف. وأن نؤكد للعالم أننا قادرون. والعالم لا يحترم إلا القادرين الأقوياء.. وأنا لن أفرض على الشعب أية إجراءات. يكفى الشعب المصرى ما يعانيه من عناء وعذاب.. ولكن إذا نحن حاربنا، فإن الشعب سوف يضحى من أجلنا ومن أجل انتصارنا بأكثر مما نريد ومما نتصور..

وكان على عبد الخبير وعبد القادر حسن مساعدا وزير الحربية هما الشخصيتين اللتين دفعهما محمد صادق لإشاعة هذه الانهزامية فى المجلس. وطلب عبد القادر حسن الكلمة وقال متسائلا: إن كنا سنطلب معونة السوفيت ففى أية مرحلة من مراحل القتال؟

وأدهشنى ذلك. وغضبت وثرت قائلا: ما هذا الذى تقول؟ إننى طردت الخبراء السوفيت. ولن يعودوا لأى سبب. فكيف أطالب بعودتهم، أو كيف تتصور أنت ذلك.. ثم إنك قد خرجت عن حدودك. لأن طرد السوفيت أو دعوتهم هذا قرار سياسى. وليس قرارا عسكريا. وأنت هنا تحاول أن تشيع جوا من التعجيز. وأنا لا أسمح بمثل هذا الكلام. وأرفض مثل هذا الجو الكريه..

ثم قلت له: هذه هى المرة الثانية التى أخطأت فيها أمامى.. وكانت المرة الأولى ونحن فى الطائرة قادمون من ليبيا!

فقد حدث وأنا عائد من ليبيا فى صيف ١٩٧٢ وبعد طرد الخبراء السوفيت أن استدعيت عبد القادر حسن وكان معى فى الطائرة وقلت له: الآن لم يعد لديكم أى عذر. طردت الخبراء السوفيت. وعليكم الآن أن تتولوا المسئولية وأن ترتفعوا إلى مستواها.

وفوجئت به يقول: والله يا أفندم الناس يتكلمون على ضرورة وجود السوفيت فى أسوان..

فقلت له: أسوان؟ ماذا تقول؟ إن هذا قرار سياسى. وقد صدر وانتهى. وشمل كل مصر من أولها إلى آخرها بما فيها أسوان.

وفى هذا الاجتماع قلت لعبد القادر حسن: هل تذكر ما قلته لك فى الطائرة ونحن قادمون من ليبيا.

قال: نعم.

قلت: لا أسمح لك بأن تتكلم فى موضوعات سياسية. فقرار طرد الخبراء السوفيت قرار سياسى.. ونحن هنا نبحث القرارات العسكرية. هل أنت جاهز للمعركة. أو غير جاهز. وليس من المعقول أن أكون قد طردت السوفيت، ثم أستدعيهم مرة أخرى لأى سبب..

لقد اتضحت الصورة أمامى. وكانت صورة بشعة. ولكن أحمد الله أنى عرفت أبعادها. وعرفت بسرعة ما الذى يمكن عمله ورفعت الجلسة.

ونزلت إلى مكتبى فى الدور الأول من بيت محمد محمود خليل. وجاءنى محمد صادق وزير الحربية يقول لى: سيادتك انفعلت وتضايقت جدا. أنا آسف لما حدث.

قلت له: ألم تسمع ما جرى. ألم تسمع ما قيل. هذا شىء خطير جدا.

قال: يا أفندم. نحن سوف ننفذ كل ما تريد..

وأنـا أعلم تماما أنه اجتمع بهذين الاثنين وملأهما بما قالا وقال لهما بالحرف والواحد: إذا دخلت مصر حربا فسوف تذهب فى ستين داهية!

وبعـد ذلك بيومين قررت عزل محمـد صادق. لأنه جندى خائف من القتال ولأنه كذب وهو وزير وهى كذبة قاتلة. لو كانت قاتلة له هو لهانت. ولكنها قاتلة لمصر كلها!– ولكن الله سلم!

وأرسـلت سـكرتيرى إلى محمد صادق ليقول له: بدلا من أن تخرج بإقالة مثل شـعراوى جمعة، سوف أعلن اليوم أنك استقلت.

وكان ذلك فى السـاعة الثالثـة والنصف بعد الظهر.. وإذا عزلت قائد القوات المسـلحة، فيجـب ألا يكون هناك فراغ. لأنه من الممكن أن يحدث أى شـىء، فمـن الذى يعطى الأوامر لقواتنا. ولذلك فى اللحظة التى أعزله، يجب أن أعين قائدا فى مكانه فورا.

ولذلك فقد استدعيت اللواء سعد الشاذلى رئيس الأركان وقلت له: يا سعد.

قال: نعم.

قلت له: أنا أصدرت قرارا. وسـوف أبعث بهذا إلى وزيـر الحربية والقائد العام للقوات المسـلحة محمد صادق بأنه معزول. وعلى ذلـك فمن هذه اللحظة وحتى يتم تعيين وزير آخر للحربية، فأنت تتولى القيادة العامة للقوات المسلحة. حتى لا يكون هناك فراغ. وسوف يأتيك الوزير والقائد العام الجديد وربما كان ذلك فى السـاعة الثامنة مسـاء. وعلى ذلك فمنذ هذه اللحظة، أى الثالثة والنصف فأنت القائد العام بالنيابة. ومسـئول أمامى. وإذا احتجت لأى قرار فاتصل بى فورا.

وكان لابد من ملء هذا الفراغ بمنتهى السـرعة. فالعدو على أرضنا وأمامنا. ومن الممكن أن يقوم بأى شىء.

واليوم أؤكد أن محمد صادق قد ارتكب «جريمة» لا يمكن اغتفارها. وأتمنى لو ذهب محمد صـادق إلى المحكمة. هنا فقط يعرف الناس أبعاد «الجرم» الحقيقى الذى ارتكبه هذا الرجل، والكارثـة التى كان من الممكن أن تقع فى مصر. فقد كان فى اسـتطاعة موسـى ديان أن يتقدم إلى الضفـة الغربيـة وأن يفعل بها ما فعله فى جنوب لبنان.. فى الوقت الذى نتحدث عن قوة مصـر ووزنها العربى وثقلها العالمى.. كل هذا ظللنا نبنيه من عذابنا وعرقنا ودمنا وحرماننا وهواننا وتضحياتنا. كل ذلك كان من الممكن أن يتبدد فى لحظات بسبب.د؟ ارتكبه هذا الرجل فى حق مصر وشعب مصر..

قلت لسعد الشاذلى: اذهب الآن وانتظر الوزير الجديد..

قال: حاضر يا أفندم..

وقبل أن يتجه خارجا استوقفته وقلت له: يا سعد.

نعم يا افندم.

أنت بينك وبين أحمد إسماعيل مشكلة.. وأنا أعرفها من وقت طويل.

تمام يا افندم.

من أيام الكونغو؟

تمام يا افندم.

قلت له: الذى سيجىء إليك فى الساعة الثامنة وزيرا للحربية هو أحمد إسماعيل..

قال: حاضر يا أفندم.

قلت: تعليماتى لك أن تعمل رئيسا للأركان تحت قيادة القائد العام أحمد إسماعيل.

حاضر يا افندم..

هل تريد أن تسأل عن شىء يا سعد؟

لا يا افندم.

مع السلامة يا سعد..

وخرج سعد الشاذلى وقد اطمأنت نفسى إلى أنه لا يوجد فراغ ولو لمدة ثانية واحدة..

أما الخلاف بين سعد الشاذلى وأحمد إسماعيل فيرجع إلى أيام الكونغو. يوم أرسلت قوات طوارئ على أيام لومومبا. وكان هناك سعد الشاذلى وأحمد إسماعيل. ودارت بينهما خلافات ومشادات. وطبيعى أن يحدث بين الضباط مثل ذلك. وتركت هذه الخلافات آثارا عميقة عند الاثنين ولم يتح لهما وقت كاف لتصفيتها. أو أنهما رأيا أنها من الشدة والحدة بحيث لا يمكن إزالتها. وهذا من الممكن أن يحدث اليوم وغدا، لأى اثنين من الضباط أو من الناس.

وأذكر أن الرئيس الأمريكى نيكسون عندما كان فى زيارتنا فى مصر، كان على صلة بالولايات المتحدة. فقد كان فى سيارته تليفون يربطه بالبيت الأبيض.. أى فى استطاعته أن يتصل وأن يصدر أى قرار بالحرب.. فالحرب الذرية لا تحتاج إلا لثوان.. والذى يسبق هو الذى يستطيع

أن ينتصر، أو يحدث بالطرف الآخر أفدح الخسـائر.. وكذلـك كانت الطائرة الهليكوبتر التى كان ينتقل بها من استراحة المعمورة إلى قصر رأس التين كان بها اتصال مباشر بواشنطون. لأنه يجب ألا يكون هناك لحظة فراغ.. أى لحظة واحدة لا يمكن فيها الاتصال برئيس الدولة..

واستدعيت أحمد إسماعيل وهو الرجل المؤهل الوحيد لقيادة القوات المسلحة فى غياب عبد المنعـم رياض. وعبد المنعم رياض من دفعتـى أنا. بينما أحمد إسماعيل من الدفعة التى بعدى وهى دفعة جمال عبد الناصر. وأحمد إسماعيل هذا رجل أمين ونزيه وصادق وعسكرى ١٠٠٪ وكان الأول على كلية ناصر العسكرية.

وقبل أن أستدعى أحمد إسماعيل ليكون وزيرا للحربية تذكرت ما الذى أصاب هذا الرجل. فأحمد اسماعيل رجل عسكرى فقط. حياته عسكرية، وثقافته عسكرية. ولا شأن له بالسياسة. فعندما كنا معا فى منقباد سـنة ١٩٣٨ وما بعدها لم نقترب منه سياسيا. واقتربنا من كثيرين معه وحوله.. إلا هو. فقد عرفنا بالتجربة أنه مشـغول بالعلم العسكرى فقط. هذا الرجل قد ضربته مراكز القوى ضربا لا هوادة فيه ولا رحمة. فبعد مقتل عبد المنعم رياض اختاره جمال عبد الناصر رئيسـا للأركان لأنه أكفأ من يتولى هذا المنصب. وكان ذلك سـببا كافيا لأن تتجمع حوله مراكز القوى حتى طرده جمال عبد الناصر. وأقعده فى البيت بمعاش شـهرى سـتون جنيهـا. وكان عليه فى ذلـك الوقت أن يجهز بناته للزواج. ولكن الرجل احتمل هذه الإهانة البالغة، ولم يفتح فمه بكلمة أو شكوى. وإنما طوى نفسه على جرحه وألمه.

وقـد زارنى فى ذلك الوقت فى بيتى بالهرم وقـال لى، وكان مصيبا فى ذلك: أنا أعلم علم اليقين أنهم لم يرتاحوا إلى – فقد كانوا يريدون محمد صادق لا واحداً مثلى وبالفعل كان ذلك مـا يريدونه وتكاثروا عليه وأطاحوا به وأتوا بمحمد صادق واسـتدعيت أحمد اسماعيل وكنا فى شـهر رمضان وللصيام عندى طعم خاص ففيه صفاء وشفافية وقرب من الله سبحانه وتعالى والصيـام عندنا فى مصر علاقة بين الإنسـان وربه فالصائم يقـول إنه صائم وهو بالفعل كذلك ولكن فى بلاد إسـلامية أخرى يتظاهرون بالصوم ويحاسـبون بشـدة كل من يجاهر بالإفطار ولكننـا فى مصر صادقون فى أداء هذه الفريضة التى بها عظيم الاحترام ولا أزال حريصاً على متعـة الصوم. فأنا أصوم كل يوم خميس وأرى فى ذلك راحة نفسـية وجسـمية وصفاء عقليا ولما اسـتدعيت أحمد اسماعيل وكان ذلك فى أكتوبر سـنة ١٩٧٢ طلبت إليه أن يرافقنى بعد الوقت فى رياضتى اليومية وهى المشـى وأنا لابد أن أمشـى ساعة كل يوم أى ما يعادل أربعة كيلو مترات.

قلت له: يا إسماعيل.

قال: نعم.

قلت: أريد أن أذكرك بشيء.

قال: تفضل.

قلت: هل تذكر بعد ما عينتك مديرا للمخابرات فى الساعة الأولى من صباح ١٣ مايو ١٩٧١ أنك قلت لى شيئا ما: غريبا هل تذكره؟

قال: أذكر يا افندم.

قلت: ألا تذكر أنك جئت وقلت لى شيئا عن محمد صادق..

قال: أذكر يا افندم.

قلت: أنت قلت لى أن محمد صادق لا يستطيع أن يعمل معركة.. هذا بالضبط ما قلته لى فى ذلك اليوم..

قال: تمام يا أفندم.

قلت: يا إسماعيل أريد أن أعرف منك الآن على أى أساس بنيت هذا الحكم.. أو ماهى حيثيات مثل هذا الحكم الخطير؟

قال: أريد أن أقول لسيادتك شيئا يا أفندم.. أنت عينتنى مديرا للمخابرات. وأنا سعيد جدا بهذا المنصب. ووجدت فيه ردا لاعتبارى. وأحمد الله على ذلك وأنت صديق عزيز على. ولذلك لن أكذب عليك فى حرف واحد. لقد بنيت هذا القرار على أن محمد صادق ليس مؤهلا عسكريا لذلك.. وليست لديه مواصفات قائد المعركة التى تريدها..

قلت: أريد أن أعرف منك أساس هذا الحكم يا اسماعيل.

قال: يا أفندم اطلب من محمد صادق أن يقدم لك خطة. إذا قدمها، فهو إذن قادر على أن ينفذ المعركة التى تريدها. وفى هذه الحالة أكون أسأت التقدير، أو حكمت عليه من خلال غضبى وانفعالى وسخطى على مراكز القوة.. ولكنى أؤكد لك أنه لن يفعل. لأنه لا يستطيع أن يقدم شيئا من ذلك.

ونحن العسكريين يعرف بعضنا البعض، معرفة تامة. ونعرف أن فلانا هذا عسكرى وهذا لا علاقة له بالعسكرية.. وخصوصا إذا كان هؤلاء العسكريون من دفعة واحدة. والدفعة عندنا كالأسرة بل أكثر من العائلة. لأننا جميعا نعيش معا حياة كاملة. ولذلك فنحن نعرف كل شيء عن أى شيء يتعلق بنا جميعا.

وكان وضع الخطة وتنفيذها عملا عسـكريا علميا شاقا. وقد تحدثت عن ذلك فى مناسبات كثيرة.

ومـا توقعـه أحمد اسماعيل قد حـدث: فلم يقدم لى محمد صادق أيـة خطة. إذن فالرجل لا يستطيع أن يحارب!

وسـوف يكتب التاريخ عن هذه العملية العملاقة التى حققناها فى أكتوبر. أن أكثر الناس على رغم ما قيل فى كل لغة، ينسون حجم ووزن ومساحة وقيمة العملية الجبارة التى تحققت على قناة السويس وعبرها.. على ١٧٠ كيلو مترا من بورسعيد إلى السويس. ودخلنا فيها بفرق ورءوس كبارى كما حدث تماما فى معركة نورماندى الشـهيرة فى الحرب العالمية الثانية.. فهم أشعلوا معركة نورماندى بخمس جيوش ونحن اشتركنا بخمس فرق. وبمنتهى التنسيق بين البر والبحر والجو.. وهذا مالا تقدر عليه إلا الدول العظمى.و ليس هذا مبالغة فيما أقول. فقد قال المعلقون العسكريون المحايدون ماهو أكثر من ذلك.

وقد شـاركت إسـرائيل بضباطها الكبار فى الحرب العالمية الثانية.. ولذلك فقد اكتسبوا خبرات واسـعة أفادتهم فـى معاركهم ضدنا. ومثل هـؤلاء الضباط يقال عنهـم عادة إنه تم «تطعيمهم عسكريا» وهذا التطعيم معناه أنهم جربوا وتذوقوا واستفادوا وعادوا بخبراتهم إلى جيوشـهم.. ومع ذلك واجهنا إسـرائيل بأربعة آلاف مدفع بصورة مكثفة من ضفتنا الغربية تصب نارنا عليهم فى ضفتنا الشـرقية للقناة.. وكانت عندنا ٢٢٢ طائرة تدكهم دكا.. وخمس فرق بطولية، مفخرة لمصر وللأمة العربية ولتاريخ النضال القومى..

ولولا التنسيق العلمى الدقيق بين كل هذه القوى لما تحقق لنا النصر بل لأصابتنا مدافعنا، ولأسقطنا نحن طائراتنا، وقتلنا جنودنا.. ولكن العلم قد حمى إيماننا بالنصر، كما أن إيماننا بالنصر قد سدد علمنا ضد عدونا. فالحمد لله على ذلك.. وعلى أن اسم مصر، أصبح محترما عند الصديق وعند العدو أيضا.

ولو اسـتعرضنا ضباط اسـرائيل المطعمين بالقتـال لوجدنا إيجال باديـن الذى هو رئيس الحركة الشـعبية للتغيير وموسـى ديان الذى كان وزيرا للدفاع وهو الآن وزير الخارجية.. وكذلك اسحاق رابين الذى عمل فى الجيش الأمريكى وهو أضعفهم جميعا..

ومضيـت مع أحمد اسماعيل نتكلم فـى موضوعات كثيرة ولكنى كنـت أحاول أن أقترب من شـىء ما فى نفسى وفى نفسـه أيضا. وقد أدرك أحمد اسماعيل ذلك، وهو رجل ذكى وفى

نفس الوقت شــديد الحيطة. وأعتقد أنه أدرك ما أريد، ولكنه تظاهر بأنه لا يعرف فسألنى: سيادتك تقصد ماذا يا أفندم. أنا لم أفهم شيئا حتى الآن.

قلــت: يا إسماعيل أنت ابتداء من الليلة قائد عام للقوات المســلحة ووزير الحربية لأننى قد أقلت محمد صادق..

فقال لى أحمد اسماعيل: يا أفندم أنا ســعيد بعملى ولا أطمع فيما هو أكثر من ذلك.. وهذه المســئولية التى تضعها على كتفى كبيرة وخطيرة. وتدل على مدى ثقتك فى قدراتى.. وباسم الصداقة وتقديرك العظيم وثقتك التامة، فإنى أقبل هذه المهمة الوطنية الجليلة.

وكان ذلك قبل مدفع الإفطار بقليل.

ولاحظــت أن أحمد اسماعيل أصبــح مهموما. وأنا أحب الرجل الــذى يأخذ الأمور مأخذ الجد. وأكره الرجل الذى يســتخف بالأشياء. أو ينظر لكل شىء على أنه سهل. ولكن الرجل الــذى يقدر المســئولية ويرى أنها عبء ولأنها عبء يجب أن يتفــرغ لها والتفكير فيها ليلا ونهــارا، فلا يصرفه عنها أى شــىء، هذا هو الطراز من الرجــال الذى يعجبنى.. ولما رأيت أحمد اسماعيل مهموماً، أدركت أن الرجل قد حمل المســئولية منذ تلك اللحظة. وأشــهد أنه رحمه الله كان رجلا جادا وصادقا.

والتفــت إلى اللواء أحمــد اسماعيل لأقول له: أنت الآن رجل مدنى. فليســت عندك بدلة عســكرية. اذهب وأحضر بدلة عســكرية وعليها رتبة الفريق أول. وتعال فى الساعة الثامنة لتحلف اليمين. وخرج الرجل مذهولا أو مشــغولا لدرجة الذهول. وفى الساعة المحددة أقسم اليمين. وذهب إلى مكتبه ووجد سعد الشاذلى فى انتظاره..

قال له سعد الشاذلى: تمام يا افندم.. أنا رئيس أركان حرب القوات المسلحة. وعندى أوامر من الرئيس بذلك.. وبأنك سوف تكون قائدا عاما للقوات المسلحة ووزيرا للحربية..

وتسلم أحمد اسماعيل مهام عمله. دون أن تكون هناك لحظة فراغ فى قيادة القوات المسلحة. وهذا عرف عســكرى وضرورة حربية حيوية - كما ذكــرت. والتقى الرجلان على ما بينهما من خلافات شــديدة، سوف تشتد وتحتد حتى تنقطع.. ولكنى على رغم ذلك قدرت فى سعد الشاذلى إحساسه بالمصلحة الوطنية، فجعلته سفيراً فيما بعد!

ومن الضرورى أن أعود قليلا إلى مركز القيادة بعد أن حدثت «الثغرة» ..

والثغرة فى التعبير العسكرى: بالضبط هى أن نبحث فى خط دفاعى عن فجوة.. عن ثغرة تدفع إلى داخلها بقوات. ففى ســيناء كانت لنا خمس فرق، لم تتعرض واحدة للإبادة.. علما

بأنه فى الخطة الأساسية كنا نتوقع حتى لو حدثت خسائر فادحة فى فرقتين من الفرق التى هى رءوس كبارى على الضفة الشـرقية، فإننا نكون قد كسـبنا المعركة بدرجة ٩٠٪.. ولكن الذى حدث هو أن هذه الفرق لم تمس أثناء الثغرة. ودخلت الفرق الخمس وأخذت أماكنها.

وفى مركز القيادة رقم ١٠ الذى سنحوله إلى أحد المعالم السياحية. لأنه أصبح معروفا. ومن الطبيعـى أن نكـون قد بنينا مراكز أخرى فى أماكن أخرى كان القائد على يمينى وعلى شمالى كان رئيس الأركان سعد الشاذلى فملت إليه قائلا: يا شاذلى.

قال: نعم.

قلت: تذهب فورا الآن إلى القناة وتتولى القيادة هناك لتغطية الثغرة بالشكل الآتى:

تقـوم بحصار علـى البحيرات المـرة التى تبدأ عند الدفرسـوار وتنتهـى عند كبريت.. تحاصرهـا وتترك اليهود ينزلون.. فإذا نزلوا حاصرهم تماما.. لأن كل قوة يهودية تتسـرب هى غنيمة لنا. ولكن الشاذلى ارتكب شيئا خطيرا. فقد أضاع ١٦ ساعة.. هذا الرقم ليس شيئا قليلا، وإضاعة هذه الساعات ليست شيئا هينا..

فالدقيقة لها ثمن. والثمن حياة وخطوة إلى الأمام. وقد أضاعها سعد الشاذلى فى أن يبنى له مركز قيادة. بينما أنا أرسـلته إلى الميدان ليوقف تقدم اليهود ويحاصر البحيرات ويحصرهم ويخنقهم ويتصيدهم.

صحيح، وأكرر ذلك، أن الثغرة كانت مقتلا لليهود. ولكن كان فى الإمكان تفاديها.

وأذكر أننى عندما كنت فى عمان لأول مرة بعد المعركة، كنت أرى أنوار القدس.. وانتهزت هذه الفرصة وأعلنت فى الإذاعة الأردنية: أننى أتحدى إسـرائيل أن تعلن عن خسـائرها فى الثغرة.. ولم تذع إسرائيل شيئا من ذلك..

وفيما بعـد أعلنوا أن الثغرة كانت «وادى الموت» لقواتهـم.. وحتى بعد رفض اليهود فك الاشـتباك الثانى وبعد ان أعلنوا أنهم اسـترجعوا كل جثث قتلاهم. أعددت لهم مفاجأة وكان عليهم وحدهم أن يفسروها ويبرروها ويدافعوا عنها. طلبت إليهم أن يستلموا جثثا مجهولة.. ٣٩ جثـة أخرى. وكانت صدمة لليهود. لأنهم يعلنون دائما أنهم يعرفون كل شـىء.. وأنهم الدولة الوحيدة فى العالم التى ليس فيها قبر للجندى المجهول لأنهم يعرفون قتلاهم..

وقد أدى ذلك إلى فضيحة فى اسرائيل. وثورة على الحكومة. وكان من بين الجثث ضابطان أقيمت لهما جنازة عسكرية ضخمة.

وبعدها بدأ اليهود يراجعون حساباتهم.. ولكنهم لم يعلنوا عن خسائرهم فى هذه الثغرة التى كان محكوما عليهم عسكريا بالفشل والإبادة لو طال بقاؤهم فيها وتمسكهم بها.. ولكنهم لم يفعلوا وهذا من الناحية العسكرية، معروف مقدما!

وقد وصف لنا أحد الأسرى من الطيارين اليهود فداحة الخسائر فى هذه الثغرة.

وفى يوم ١٩ أكتوبر فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فوجئت بالقائد العام أحمد اسماعيل يطلبنى لأمر هام. وفهمت منه أن الأمر سياسى وعسكرى معا. وأنه لابد من الحضور فورا..

وكان ذلك شيئا خطيرا. وراحت الأفكار تدور فى رأسى وتدور به.. وفى مثل هذه الأزمات التى اعتدت عليها، فإننى استدعى احتياطى الصبر والهدوء.. فقد رأيت فى حياتى الكثير من المواقف الصعبة والمشاكل المعقدة والأزمات الحادة. وقد أورثنى ذلك أن أكون فى مواجهتها هادئا حتى لا يزداد الخطأ فداحة، وحتى لا تهتز الصورة أمامى، أو حتى لا أهتز أنا أمام هذه المحن..

وفى هذه القيادة التى شيدت تحت الأرض ولا تصيبها القنابل النووية لو سقطت عليها مباشرة وجدت جوا من الوجوم.

وقبل أن أحضر إلى القيادة كان المرحوم أحمد اسماعيل مريضا. اشتد عليه مرض السرطان. ثم إن الموقف خطير. ولا يستطيع أن يبدى فيه رأيا. لأن القرار الذى يجب أن يتخذ ليس عسكريا فقط، وإنما هو قرار سياسى، وتقلب الرجل المريض فى فراشه. وامتدت يده وارتدت عن التليفون يريد أن يطلبنى وهو فى نفس الوقت يخشى من وقع هذه المكالمة على نفسى..

ولكن حسنى مبارك أصر على ضرورة الاتصال بى ليقف كل إنسان عند حده. فسعد الشاذلى قد جاء من الجبهة يطلب الانسحاب الكامل من سيناء. ولكن حسنى مبارك يرى أننا منتصرون ومحمد على فهمى قائد الصواريخ يرى كذلك.. ولكن سعد الشاذلى هو أول من بشرهم بالهزيمة والتسليم بها..

وخشى أحمد اسماعيل أن يطلبنى. ولكن حسنى مبارك طلبنى ثم أعطى التليفون لأحمد اسماعيل.

وعندما دخلت مركز القيادة وجدت هذا الصمت الرهيب! .

وكان الأطباء قد أخبرونى أن حالة أحمد اسماعيل لا تؤهله لأن يحمل هذه الأعباء. فآلام السرطان مروعة. ثم إن كمية الكورتيزون التى يتعاطاها لوقف استشراء السرطان، تجعله غير قادر على التفكير السليم واتخاذ القرار..

ولو جعلت أحمد اسماعيل نائبا لرئيس الجمهورية تكريما له، وفى نفس الوقت إبعادا له عن مركز القيادة واتخاذ القرار، فسوف يدرك أننى أبعدته.. أو أننى أقصيته عن موقعه.. مع أن الذى قصدته شيء آخر يعرفه الأطباء، وصارحونى به، ولم يصارحوا به أحمد اسماعيل.

ونهض أحمد اسماعيل من فراشه.

وسألته: خير إن شاء الله.

قال: والله يا أفندم لقد عاد رئيس الأركان سعد الشاذلى من الجبهة يقول: إن الرئيس يجب أن يبحث له عن حل سياسى. وأنه من الضرورى أن نسحب الجيشين الثانى والثالث من سيناء لأن اليهود قد دخلوا الثغرة وأنهم سيطوقون هذين الجيشين.. وأن شيئا مروعا من الممكن أن يحدث فى أى وقت.. ولابد من الانسحاب حفاظا على مدينة القاهرة.

قلت لأحمد اسماعيل: هات القادة جميعا.

وجاء القادة كلهم..

وقلت لمدير العمليات: يا جمسى..

قال: نعم..

قلت: هات الخريطة. واشرح لى الوضع.

وحكى لى الجمسى صورة كاملة..

وقلت لحسنى مبارك: يا حسنى.. اشرح لى الوضع وطلبت من محمد على فهمى قائد الصواريخ أن يقدم لى صورة قواتنا..

لقد كان الوضع كله مطمئنا. والصورة مشرفة ومشرقة. وأدركت سر الوجوم فى مركز القيادة فالانسحاب معناه أن نترك كل ما كسبناه فى لحظة. إنها لحظة عار.. لحظة طولها مئات السنين من الهوان لمصر وللأمة العربية..

سألت أحمد اسماعيل: ما رأيك يا أحمد؟

قال: يا أفندم الوضع كله أمامك.

قلت لكل القادة: الآن.. أحب أقول لكم جميعا:

أولا: لا انسحاب لعسكرى أو بندقية أو دبابة من الضفة الشرقية. ويبقى كل شيء وكل الناس فى مواقعهم..

ثانيا: تخطر جميع وحدات القوات المسلحة بأننا سوف نتعامل مع الثغرة على مستوى القيادة العامة، وعليهم أن يستمروا فى خططهم.

ثالثا: يعزل سـعد الشـاذلى رئيس الأركان.. ويعين عبد الغنى الجمسى ابتداء من الساعة الواحدة من صباح ٢٠ أكتوبر رئيسا للأركان..

رابعا: الشـاذلى يجب ألا يشعر بهذا القرار ولا القوات المسلحة، حتى لا يكون له أى رد فعل.. وسوف يعمل الجمسى رئيساً للأركان بدون إعلان.

وقلت لأحمد اسماعيل أن يجنب سـعد الشـاذلى أية مسـئوليات.. ثم قلت لجميع القادة الجالسين أمامى: لعلمكم جميعا، سأحارب فى طنطا وفى القاهرة وفى المنيا وفى أسوان. ولن أستسـلم. سـأحارب فى كل مكان. وحسـنى مبارك هو أول من تنبه إلى أن اليهود يريدون أن يكـرروا نفس الحيل التى أوقعونا فيها ١٩٥٦ و ١٩٦٧.. وهـى أنهم يقومون بإرباك القيادة العسـكرية. فإذا ارتبكت القيادة نفسيا، فإنهم يستدرجونهم إلى معارك أخرى وبذلك تنسى القيادة خطتها الأساسية. وتعمل على الخطة التى وضعها اليهود.

ولذلك فإن حسنى مبارك هو الذى قال لأحمد اسماعيل:

إننا فى وضع ممتاز. يريدون أن يستدرجونا إلى نفس المصيدة التى وقعنا فيها فى حرب ٥٦ وحرب ٦٧.. ولذلك يجب أن نطلب الرئيس للحضور ليضع كل إنسان عند حده وفى مكانه..

وحسـنى مبارك كقائد أعصابه هادئة وقادر على أن يتحرك وينفذ بهدوء شديد.. وعندما كلفته بالدفاع عن مصر من القاهرة إلى أسـوان وألا يسـمح لليهود أن يضربونا. فقد حقق ذلك تماما، على رغم التفوق التكنولوجى لليهود. ولو استطاع اليهود أن يتفوقوا علينا جويًا، هذه المرة، لكان لهم النصر المطلق علينا إلى الأبد!

وفى صباح ٢٠ أكتوبر جاءنى حسنى مبارك ومحمد على فهمى فى قصر الطاهرة. وأكد لى الاثنان: أن الوضع سـليم. وأننا فى غاية القـوة، وأنه لا خوف علينا. وأن مجيئى للقيادة قد أنهى وضعا رهيبا.

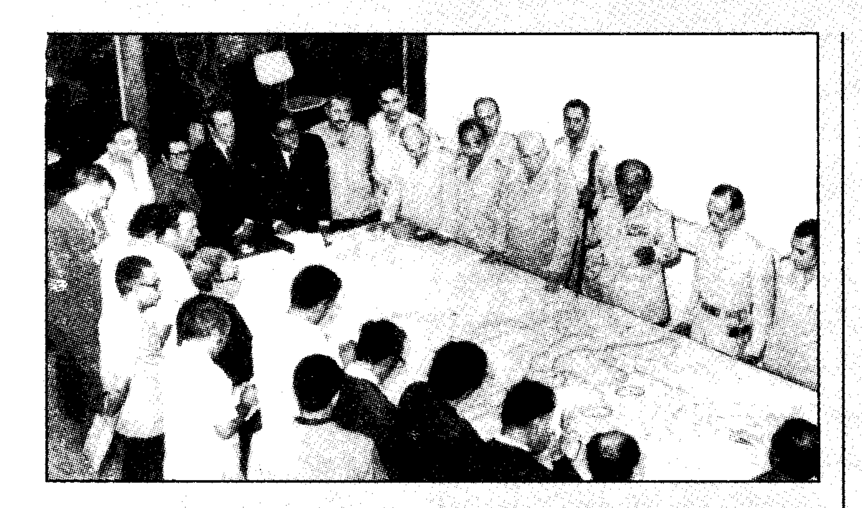
ولم يعلم سـعد الشـاذلى أنه عزل فى ذلك اليوم، وإنما شعر فقط أن أحدا لا يرجع إليه فى شىء. وذلك لأننى عينت الفريق الجمسى بدلا منه وهو رجل منضبط تماما.

وبعد فك الاشتباك الأول طلبت من أحمد اسماعيل أن يخبر سعد الشاذلى بأنه تقرر تعيينه سـفيرا فى وزارة الخارجية. واعتبرها سعد الشاذلى إهانة بالغة أن يستدعيه أحمد اسماعيل زميله وخصمه ويخطره بهذا القرار. فرد عليه بأنه مستقيل..

وحدث قبل ذلك تكريم للقوات المسلحة فى مجلس الشعب.

وبعد هذه الحفلة بيومين كان لابد أن نسافر إلى المؤتمر الإسلامى فى لاهور.

١ - غرفة عمليات حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

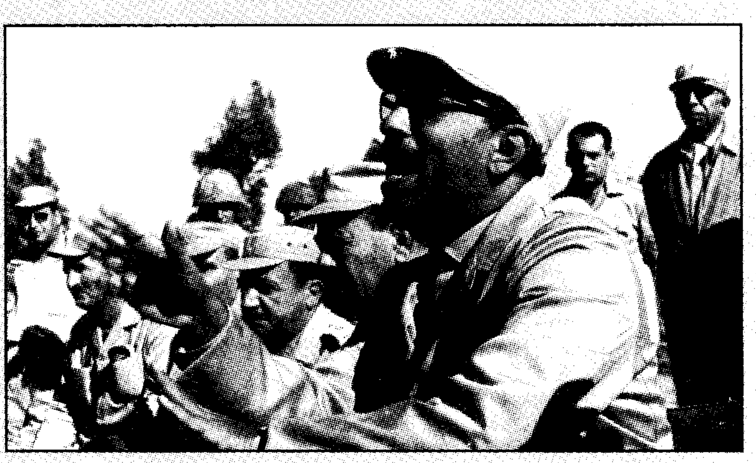


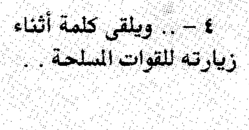
٢ - الرئيس السادات مع القوات المسلحة .





٣ - الرئيس السادات وممدوح سالم والفريق أول الجمسى واللواء أحمد بدوى أثناء زيارة الرئيس لأحد مواقع الجيش الثالث . .





٤ - .. ويلقى كلمة أثناء زيارته للقوات المسلحة . .



٥ - .. وهو فى إحدى نقاط الملاحظة على الجبهة .



٦ - الرئيس السادات مع المشير أحمد إسماعيل بعد انتصار ١٩٧٣ .



٧ - الرئيس السادات يصافح الفريق حسن التهامى .



٨ - د. محمود فوزى يصافح الفريق محمد فوزى .

9 - الرئيس السادات بالزى الرسمى فى أحد المساجد لأداء الصلاة .





10 - الفريق أول محمد أحمد صادق



11 - الفريق سعد الشاذلى

12 - الفريق أحمد بدوى .





محطات مهمة في حياة السادات

- أحمـد الله أن أحياني حتى أكتب هذه السطور.
- «أبو منقار» كان الاسم الحركي لجمال عبد الناصر.
- كيـف اتهـم أنـور السـادات بأنـه عميل سوفيتي !!
- العبـارة التي قالها المراغي وكانت سـببا في خروجه من الأزهر.

عندما أعود إلى طفولتى أكتشف فيها الينابيع الحقيقية للاهتمام بالسياسة وبأن يكون لى دور فى إصلاحها أو تحريرها فإننى أتجه مباشرة إلى الريف إلى قريتى فما الذى أجده هناك؟ أجد الأراضى الخضراء الشاسعة.. أى الحياة المتجددة وأجد الانطلاق فلا شىء يوقف العين ولا شىء يعترض الخيال.. وكل أفكارنا ونحن صغار مثل طيور ينبت لها الريش.. فإذا طال الريش طارت فى كل اتجاه.

وربما كانت الأغانى الشعبية والمواويل هى هذه الأجنحة التى تحمل خيالنا وأحلامنا وتذهب بها بعيدا بعيدا وإن كانت كل هذه الطيور تحوم على شجرة واحدة هى مصر.

ونحن صغار كنا نسمع من أمهاتنا موال زهران ابن دنشواى ولم تكن دنشواى بعيدة عن قرية ميت أبو الكوم وكنت أسمع من أمى أيضا موال أدهم الشرقاوى وكان لهذه المواويل معنى واحد: أنها قصة جميلة حزينة ولكن فيها بطولة وفيها شجاعة فزهران وأدهم فلاحان قد اختارا عدوا واحدا هو الإنجليز الذين يجب أن يخرجوا من مصر وأن يرفعوا أيديهم عنها فهم غزاة وهم أجانب وفى هذا المجال وحده يجب أن يكون الإنسان بطلا..

وكان منتهى أملى- وأنا طفل- أن أكون زهران المنوفى أو أكون أدهم الشرقاوى.

ونحن أطفال تكون أحلامنا وأوهامنا أيضا مبعثرة هنا وهناك ولا يجمعها إلا شخص وإلا حدث أى أن يكون فى حياتنا بطل يعجبنا أو يقع حدث كبير نتجمع حوله ولم يكن موال زهران أو أدهم مجرد أغنية وإنما كان حادثا جليلا وملحمة بطل وكان فى نفس الوقت «دعوة مفتوحة» لكل الأطفال المحبين للبطولة أن يساهموا فى المعركة ضد قوات الاحتلال الذى طال ويئس الناس من زواله..

وعلى رغم نبرة الحزن فى المواويل المصرية فإن الفلاح المصرى فى طول التاريخ وعرضه لم يعرف اليأس عرف الصبر على مضض ولكنه أحنى رأسه كثيرا للعاصفة حتى تمر ثم رفع رأسه ليكون هو العاصفة التى تمر على جيش الغزاة الغاشمين.

وكان من آمالى أيضا أن أدخل الكلية الحربية فهذا هو المستقبل الوحيد المضمون فلم يكن لأى مصرى فلاح فقير مثلى أى مستقبل مضمون إنما المستقبل مضمون للناس الأكابر.. للطبقة القادرة أو الطبقة الحاكمة من الإقطاعيين والباشوات والأسرة المالكة وأتباعها وعملائها أما نحن فلا مستقبل لنا إلا إذا كانت هناك واسطة.

هل الذى اجتذبنى إلى العسكرية تلك البدلة الأنيقة؟ ذلك المظهر الجميل الذى إذا رآه الناس عرفوا أن صاحبه ضابط بينما لا يعرف الناس طبيعة عمل أو وزن أو قيمة أى إنسان آخر مهما كانت ملابسه ربما كان ذلك شيئا مغريا؟

هل لأن قوات الاحتلال البريطانية قوات عسكرية ولا يمكن أن يخرجها أو يواجهها أو يقاومها إلا عسكريون مثلهم.. أنا وغيرى من أبناء مصر؟

هل لأن كمال أتاتورك كان مثلى الأعلى؟ وقد رأيت صورته فى بيتنا فى مصر ولا بد أنها كانت فى بيوت أخرى كثيرة فقد كان زعيما إسلاميا عظيما كان فى عظمة جمال عبد الناصر بعد ذلك يوم أمم قناة السويس.. لقد قرأت قصة حياة كمال أتاتورك وأعجبتنى جدا وظللت مبهورا بها.. وقد ذكرت ذلك أكثر من مرة فقد قرأت الكتاب الذى ألفه أرمسترونج عن «الذئب الأغبر» أى كمال أتاتورك.. وأعجبنى جدا كتاب آخر قرأته لعباس العقاد وإن لم أكن من قرائه.. فأنا استريح إلى طه حسين والحكيم أكثر، هذا الكتاب عن حياة الشاعر الألمانى جيته وكان عنوانه «تذكار جيته».. والذى أعجبنى فى كتاب العقاد أنه راح يفرق بين صفات الأبطال فى التاريخ ويقارن بين «الرجل» العظيم وبين «الإنسان» العظيم أعجبتنى هذه التفرقة الدقيقة ووجدت فى كمال أتاتورك الكثير من الجوانب العظيمة التى استهوت طفلا وشابا ورجلا مثلى.. ولا أزال أتذكر وأنا طفل كيف إن هتلر عندما زحف من ميونخ على برلين هزنى هذا الزحف على العاصمة وتمنيت وقلت لزملائى الأطفال سوف أزحف على القاهرة وكنت فى تلك اللحظة أسبح فى ماء الترعة وأجفف ملابسى ولا بد أنهم ضحكوا لمثل هذه العبارة ولم أكن أضحك وإنما كنت أقولها جادا دون أن أعى معنى الذى أقول وكأن صوت القدر هو الذى يملأ جوانبى ويخرج مثل هذه العبارات الكبيرة من فمى!

صحيح كان فى حياتنا قبل ذلك زعماء من مثل مصطفى كامل ولكن مصطفى كامل ظهر بعد الحرب العالمية الأولى واتخذ من مذبحة دنشواى نقطة الانطلاق ضد الإنجليز لقد فضحهم فى أوروبا وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام فى ذلك الوقت كانت متواضعة فإن مصطفى كامل استطاع وحده بالخطب التى ألقاها والرسائل التى بعث بها إلى الصحف الأوروبية أن يقلب

الدنيـا على الاحتلال البريطانى حتى سـحب البريطانيون رجلهم فـى القاهرة كرومر وكان طاغيـة جبارا وكان مصطفى كامل هـذا بطلا يملأ عقولنا وقلوبنا.. وكنـا نتغنى به فى موال زهران ابن دنشـواى..بل إن هذا الموال نفسـه قد جعل لمصطفى كامـل نهاية حزينة.. جعله شهيدا فقد وضع له الانجليز السم ثم مات فى ريعان شبابه.. ولكن البطولة لم تمت وزهران لم يمت والموال نفسه لم يتلاش له صدى فى أذن أحد منا نحن أبناء الريف فى ميت أبو الكوم.

ولا بد أن نلقن الطلائع – أى الصغار حتى الثامنة عشرة – تاريخ مصر الحقيقى بل يجب أن ننبهـم مـن الداخل يجب أن نجعل أعماقهم غنية قوية لا تهزها الأحداث وإنما تواجهها لا يزعزعهـا الألم وإنما يصهرهـا ويطهرها وبذلك يصبحون صامديـن قادرين كما فعلت فى مواجهة الأهوال واجتيازها.

إن قريتنا لم يكن فيها أحد يقرأ ولخمسـين عاما سـوى والدى وكانوا يطلقون علينا أولاد «الأفنـدى» أى محمد أفندى السـادات.. ولذلك فأنـا أرى تطوير القرية وتعليـم كل أبنائها ضرورة حيوية لأن هذا يخلق «جوا» صحيا لكى تزدهر المواهب وتنمو الملكات ويكون فى ريف مصر أبناء قادرون على تطويره وعلى إيقاظ مصر وتحريرها واستدراك ما فاتها فى أزماتها.. لا بد أن نقول لأبنائنا الشـبان: يجب ألا نخاف من المسـتقبل يجـب أن نواجه كل الصعاب فالصعاب ضرورة لبناء الإنسان والإنسان القوى ضرورة لبناء الوطن والوطن القوى ضرورة لكى نلحق بركب الحضارة الإنسانية فى كل مكان.. فبناء الشخصية هدف هام.

وقد دفعنى أبى وشجعنى على القراءة وكنت أحبها فعلا ولم أرفع عينى عن الكتب وعندما كنت فى السـجن كنت لا أرفع عينى عن الكتب إلا لكى أتأمل نفسـى وغيرى أو كنت أغمض عينى وأنظر فى داخلى وأعتقد أننى وجدت فى أعماقى كنزا هائلا ويسـتطيع كل إنسـان أن يجد ما وجدت لو أنه نظر فى أعماقه وقد قال لنا سبحانه وتعالى ذلك ودعانا إليه عندما قال: ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ صدق الله العظيم [سورة الذاريات – آية ٢١] .

وهذه الفترة التى أمضيتها فى السجن قد أضاءت لى الكثير فى نفسى وأضاءت لى الطريق إلى حياتى السياسـية وفى هذا الضوء اهتديت إلى حقيقة هامة هى: إن الإنسان قيمة كبرى وأنه لا شىء فى هذه الدنيا يساوى كرامة الإنسان وإن الإنسان حيث يضع كرامته إن رفعها ارتفع وإن وضعها اتضع وإن الجوع مع الكرامة أشـرف من الهوان مع التخمة وكم شبعت كلاب فى بيوت الباشوات وكم جاعت ألوف فى الحقول من الآدميين!

وتعلمت أيضا أنه من الممكن أن يهون أمرى على الناس وهذا يعذبنى ولكن أقســى درجات العذاب أن يهون أمرى على نفسى.. وقد عرفت فيما بعد معنى الهوان أن يهون الإنسان على غيره وعلى نفسه بعد نكسة ١٩٦٧ فتلك محنة مصرية عربية إنسانية كبرى!

وتقدمــت للكلية الحربية ودخلتها وتخرجت فيها وطردت من الجيش وعدت إليه ولكن سنوات خدمتى العسكرية لم تزد على خمس سنوات ونصف أما بقية عمرى فكانت فى الشارع السياسى.

ومنذ ســن صغيرة وأنا ألاحظ أن شــيئا فى داخلى ينمو لا أقوى علــى معرفته ولكنه كان يدفعنــى إلى أن أشــارك فى الأحداث وفى التآمر على الإنجليــز وأعوانهم حتى الموت.. حتى أشارك فى الموت وحتى كدت أنا أن أموت.

مفارقات فى الحياة

يشــاء القدر أن الذى أدخلنى الكلية الحربية واحد إنجليزى.. طبيب إنجليزى فأنا الذى تشــبعت بكراهية الإنجليز وكنت أحلم بالزحف عليهم وطردهم وقد دخلت الكلية الحربية بتوصيــة مــن واحد منهم.. فكأنه هو الذى دفعنى خطوة إلى الأمام فى ذلك الطريق الطويل إلى طرد الإنجليز من مصر.. وطرد غيرهم من الأجانب الذين أرادوا ســلب إرادة مصر والتســلط عليهــا.. فلكى يدخل الواحد منا نحن الفلاحين الفقراء أو المصريين من غير أبناء الباشــوات الكلية الحربية لا بد أن تملأ استمارة هذا إجراء عادى.

وفى هذه الاســتمارة يجــب أن يقول كل واحد منا: من هو.. ومــن هو أبوه وكم يملك من الأرض أو غيرهــا.. وأهــم من ذلك كله من هو الشــخص العظيم الذى يوصــى بدخوله الكلية الحربية.. أى لا بد من «واسطة» أى من ضامن.. أما أنا فمعروف أنى فلاح من ميت أبو الكوم وأبى محمد أفندى السادات كان يعمل فى الجيش المصرى فى السودان ولا يملك إلا ثلاثة أفدنة ومرتبه من الحكومة.. أما «الواســطة» فهو الطبيــب الضابط الإنجليزى «فتز جيرالد».. ويوم كشــف الهيئة كان رئيس اللجنة فى ذلك الوقت إبراهيم باشا خيرى وكيل وزارة الحربية.. شخصية كبيرة ومتزوج من إحدى قريبات الأسرة المالكة شيء رهيب!

وأمــام هذه الهيئة لا بد أن يقرأوا أسماء الطلبة المتقدمين وأن يعلنوا «الواســطة».. وأعلن قبولى طالبا فى الكلية الحربية وكان ذلك حدثا جليلا وكنت فى قمة الســعادة.. ولكن بعد أن قبلونى فى أول دور فصلونى فى ثانى دور.. وهناك قصة: ففى صيف ١٩٣٦ بعد عقد المعاهدة سمحوا للنحاس باشا أن يتفاوض فى إلغاء الامتيازات الأجنبية.

وأكثر الشبان لا يعرفون ما معنى أن تكون لإنسان على إنسان آخر أية امتيازات.. أى كيف يكون الإنسان مصريا وفى بلده ومواطنا من الدرجة الثانية.

أما المواطن من الدرجة الأولى فهو أى إنسان يحمل جواز سفر أجنبيا ويسمونه حامل «رعوية» إنجليزية.. وقد يكون حامل الرعوية سائق سيارة أى أجنبى أو طاهيا أو خادما.. فإذا جاء حامل الرعوية هذا وقتل أى مواطن مصرى لأى سبب.. فليس يحق لأهل الفقيد المصرى أن يقاضوه قبل الرجوع إلى السفارة الأجنبية.. فالسفارة هى التى تقضى فى الأمر.. وأكثر الأحيان ترى إخراج القاتل من مصر.. وإذا تلطفت بالقتيل عرضت الأمر على المحاكم المختلطة التى كل قضاتها أجانب.. وقلة نادرة من المصريين الذين تعلموا فى الخارج!

وهذه كانت حال مصر قبل ثورة يوليو.. واليوم نسمع من يتغنى بمصر التى كانت قبل ثورة يوليو مصر الامتيازات الأجنبية التى لم يكن فيها للمواطن المصرى إلا الدرجة الثانية أو الثالثة فى بلاده.. إن هؤلاء يزيفون التاريخ ويريدون إعادة عقارب التاريخ إلى الوراء حيث كنا غرباء فى بلادنا!

وقد ذهب النحاس باشا ليتفاوض فى مدينة مونترو على بحيرة ليمان فى سويسرا وكان معه فى ذلك الوقت حمدى باشا سيف النصر وزير الحربية.

وفى ذلك العام قبلت الكلية الحربية ٥٢ ضابطا ومن الصدف الغريبة أن يكون رقمى ٥٢ وكان عدد المتقدمين ألفين من المصريين. وذهبت فى اليوم التالى أدفع المصاريف وكانت مفاجأة لقد أنقصوا عدد المقبولين إلى ٤٥ فقط. إذن لست واحدا من هؤلاء لماذا؟ لأن سيف النصر باشا أرسل من مونترو يقول لهم: احجزوا لى سبعة أماكن! وأخرجوا سبعة وكان ذلك من أتعس الساعات التى مرت بى فى حياتى!

وذهبت إلى كلية الآداب ودرست فيها بعض الوقت.. ثم اتجهت إلى كلية الحقوق بعض الوقت.. ودخلت كلية التجارة ودفعت المصروفات.. ويجىء وزير الحربية من سويسرا ويذهب إلى الدكتور فتزجيرالد ليقدم اثنين من محاسبيه وطلب د.فترزجيرالد إلى والدى مدير مكتبه فى ذلك الوقت: يا محمد أفندى املأ هاتين الاستمارتين.. وملأ والدى الاستمارتين ووقع عليهم د.فتزجيرالد دون الكشف على صاحب الاستمارتين وبعد أن شرب وزير الحربية فنجان القهوة خرج ليعود بعد ذلك باثنين آخرين.. ثم ثلاثة آخرين..

ولكـن لكـى أدخل كان لا بد أن يذهب للقاء إبراهيم باشـا خيرى ولكن كيف؟ إنه باشـا كبير وتذكر والدى أن «حاجب» خيرى باشا هذا كان زميلا له فى السودان فاتفق معه على أن يعرض الأمر على الباشا.

ووعـد الحاجـب بذلك ثم طلب إلى أبى أن نذهب معا إلى بيت الباشـا ونعرض عليه الأمر وأكد لنا أن الباشا رجل طيب.

وكانت هذه أول مرة أدخل فيها بيت أحد الباشوات وكان يسمى البيت «فيلا» وكانت هذه أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة وأعرف أنها مبنى مختلف أشد الاختلاف عن الشقق والبيوت العادية.. ذهبنا إلى فيلا الباشـا.. صعدنا السـلم.. انفتح لنا الباب وقفنا وراءه بمسافة قصيرة ووجدت أمامى شـيئا غريبا وجدت المقاعد تبدأ من وراء الباب مباشرة ثم رأيت مقاعد أخرى بعد ذلك ثم مقاعد ثالثة فى جانب من المدخل.. وقال لنا «الحاجب» صاحب والدى وهو الذى يجلـس عادة إلى جوار السـائق إن المكان الذى نقف فيه اسمه الانتريه.. وكان شـيئا عجيبا جـدا أن تكون هناك مقاعد كثيرة هكذا فالـذى أعرفه أنا فى بيتنا غرفة واحدة اسمها «أوضة المسـافرين» هذه الغرفة مخصصة لاسـتقبال الزوار والأقارب الوافدين من الريف وهم ينامون فيها أيضا وهى عادة بها مقاعد من الخشب الاسطامبولى.. وأعجب من ذلك أننى وجدت سلما فى وسط الفيلا وهذا السلم من الخشب وهو يصعد إلى دور علوى.. شىء غريب!

وفجـأة قيل لنا إن الباشـا نازل وتقدمنا الحاجـب ببنطلونه الذى له شـريط أحمر على الجانبين ومد يده وأخذ الشـنطة من الباشـا.. وقال له: يا سعادة الباشا هذا هو محمد أفندى السادات الذى حدثت سعادتك عنه وهذا هو ابنه الذى يريد أن يدخل الكلية الحربية.

ووقف الباشا شىء رهيب ولم يتمكن أبى رحمه الله عنه أن ينطق بكلمة واحدة فقد ارتبك ولم يقدر إلا على كلمتين: سعادة الباشا.. سعادة الباشا.. ولكن الباشا نظر من فوق وقال: هو ده.. محمد أفندى.. وهو ده الولد بتاع الكلية الحربية.. آه.. ونزل من السـلم يسـبقه الصول الذى حمل الشنطة وفتح له باب السيارة الكاديلاك كان وزراء زمان لهم حاجب ولهم سيارات كاديلاك وليسوا مثل وزراء هذه الأيام مساكين مرهقين.. وانتهت هذه المقابلة - إذا اعتبرتها مقابلة-بعد نصف دقيقة! ودخلت الكلية الحربية..

حـدث مرة أخرى أيام كنت رئيسـا لمجلس الأمـة أن جاءنى إبراهيم باشـا خيرى فقد فرضت عليه الحراسـة هو وأولاده وجاءنى الرجل وانتهز التاريخ أو القدر هذه الفرصة لكى

يعيد نفسه.. وقف الرجل أمامى مرتبكا تماما كما وقف أبى قبل ذلك ولم يفتح الله على الباشا بكلمة واحدة وأنقذته من هذه الورطة عندما طلبت إليه أن يتفضل بالجلوس ولم يكن يتوقع ذلك واستأذن فى كوب من الماء لكى يبلل ريقه لقد كان أبى أحسن حالا منه فلم يجف ريقه إنما كان يقول: يا سعادة الباشا.. يا سعادة الباشا.

وأجلست الرجل وطيبت خاطره ورفعت عنه الحرج والفزع وقلت له: أنت كنت صاحب فضل على الثورة فقد كنت رئيس الهيئة التى أدخلت كل أعضاء مجلس قيادة الثورة.. فأنا وزكريا محيى الدين وحسين الشافعى دفعة واحدة.. وجمال سالم وعبد اللطيف البغدادى دفعة واحدة.. ثم بعد ذلك جمال عبد الناصر.. وحللت مشكلة هذا الباشا ولم يصدق الرجل أن ألقاه بهذا الترحيب فلم يكن بينى وبينه شىء وإنما هو النظام والطبقات فى ذلك الوقت هو ابن طبقة وأنا ابن طبقة ولم يكن فى استطاعته أن يفعل غير الذى فعل لا هو ولا غيره وتغيرت الدنيا والتركيبة الاجتماعية بعد الثورة وكان التسامح من أهم معالمها أو من أهم عناصر تركيبى النفسى فلا غل ولا حقد ولا مرارة ولا تشفى وإنما حب وتسامح وعفو عند المقدرة.

إرهاصات الثورة!

دخلت إيطاليا الحرب العالمية الثانية إلى جانب ألمانيا وزحفت القوات الإيطالية حتى وصلت إلى سيدى برانى أى داخل الحدود المصرية بحوالى مائة كيلو متر وكان فى استطاعة القائد الإيطالى جراتسيانى فى ذلك الوقت أن يمضى حتى الإسكندرية .. إذا أراد فلم يكن لدى الإنجليز شىء. وإن كان تشرشل فى مذكراته قد اعترف بذلك وحاول أن يغالط.

وكذلك الكونت تشيانو فى مذكراته قد اعترف بأن جراتسيانى نفسه كان يرى فى الهجوم على مصر عملا شاقا وخصوصا أن خطوط الإمدادات طويلة وأن المواصلات صعبة وأنه لا يعرف بالضبط كم عدد القوات البريطانية. ولكن تشيانو فى مذكراته يقول: إن موسولينى تضايق من صراحة جراتسيانى. وقال: إنه لا يصلح لقيادة الحرب لأنه مشغول بأن يكون ماريشالا فقط. وإن الرجل الذى له هدف واحد تافه كهذا لا يحق له أن يكون قائدا فى حرب مظفرة كهذه وأمره موسولينى بأن يحارب وأن يتقدم فحارب وتقدم وراح موسولينى يرقص طربا لأنه صاحب الأمر وأن النصر كان حليفه فى النهاية.

ويقول الكونت تشيانو فى مذكراته: إن جراتسيانى حاول أن يطلب تأجيل الزحف المتوالى بضعة شهور ولكن موسولينى رفض.

وفى ١٣ سبتمبر زحف الجيش الإيطالى بست فرق مشاة وثمانى كتائب دبابات واكتسحت القوات الإيطالية كل ما اعترضها.. ولكن الإنجليز جمعوا قواتهم بعد ذلك ونظموها واكتسحوا الإيطاليين حتى راحوا يتساقطون أمامهم أسرى بعشرات الألوف ومعهم كل أسلحتهم.. وعندما وصل الإيطاليون إلى سيدى برانى كنت فى مرسى مطروح.. وكانت مرسى مطروح مقسمة إلى ثلاثة قطاعات.. كان الإنجليز يحتلون قطاعين وكان القطاع الثالث معنا.

وفى ذلك الوقت كان على ماهر رئيسا للوزارة.. وكان ينادى وأقره البرلمان «بتجنيب مصر ويلات الحرب».

وأعلن الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر عبارته المشهورة: إن هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل! وقد أدت هذه العبارة إلى إخراج الشيخ المراغى من الأزهر. وصدرت إلينا نحن الأوامر بالنزول. فطلب إلينا الإنجليز أن نترك أسلحتنا وهذا الطلب–من وجهة النظر العسكرية – شىء فظيع فالذى يترك سلاحه كالذى يفرط فى عرضه وكانت عندنا بطارية مدفعية هاوتزر ومدافع ماكينة وكانت معنا كل أجهزة الاتصالات السلكية واللاسلكية وكنت المسئول عنها.

وفوجئ الإنجليز بأننا رفضنا هذا الأمر. ولم يكن لدى الإنجليز أسلحة كالتى لدى الجيش الإيطالى فقد أنتجت لهم شركة فيات أسلحة حديثة. أصبحت هذه الأسلحة فى حوزة الإنجليز بعد ذلك عندما انتصروا على الإيطاليين وأسروهم. ولكن هذا الموقف أضاء شيئاً فى نفوسنا.. فالإنجليز ليس عندهم سلاح وفى استطاعة الإيطاليين – لو أرادوا – أن يستولوا على مصر ثم إن معنا سلاحاً وأمامنا القاهرة ويمكن الزحف عليها والاستيلاء على كل شىء. وهنا ولدت الإرهاصة الأولى لثورة يوليو. فقد اتفقنا أن نتجمع وراء فندق مينا هاوس وهناك بعد أن تجتمع صفوفنا نوزع واجباتنا. وفى طريقى إلى مصر تخلفت ليلة عند العجمى.. ولما وصلت إلى ميناهاوس حيث اتفقنا لم أجد أحدا.. وبعد ذلك ذهبت إلى سلاح الإشارة عند المعادى وقوبلت أسوأ مقابلة ووضعت تحت المحاكمة.. ولأول مرة فى حياتى بكيت فأنا لا أعرف الدموع وقد مرت بى أحداث كثيرة تقطع القلب وتزلزل العقل ولكن عينى لم تستجب للموقف فتنزل دمعة أو دمعتان.. إلا هذه المرة عندما وجدتنى عاجزا عن الدفاع عن نفسى.

صاحب قرار الثورة

يجب أن نعترف بأن جمال عبد الناصر هو مفجر ثورة يوليو وهو الذى اتخذ القرار بموعد قيامها وفق حسابات دقيقة راعى فيها كل الاعتبارات فقد كان جمال عبد الناصر

داهية سياسيا.. وكان من المفروض أن تقوم الثورة فى نوفمبر.. أى بعد أن يكون الملك والوزارة والأحزاب قد عادوا جميعا من الإسكندرية إلى القاهرة وبذلك نواجههم جميعا ونحتويهم مرة واحدة.. بدلا من أن نخوض معركتين واحد فى القاهرة والأخرى فى الإسكندرية.. وكنا قد اتفقنا على ذلك فى يناير ١٩٥٢ عندما التقينا فى بيت حسن إبراهيم بمصر الجديدة.

وفى يوم ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٢ اتصل أحمد أبو الفتح بجمال عبد الناصر يقول له: إن الملك كلف أحمد نجيب الهلالى بتشكيل الوزارة وسوف يكون مرتضى المراغى وزيرا للداخلية واللواء حسين سرى عامر وزيرا للحربية. وقد روى جمال عبد الناصر كيف إنه ذهب لقتل حسين سرى عامر وكان معه اثنان آخران هما حسن التهامى وكمال رفعت وتسلق حسن التهامى مواسير البيت ووصل إلى غرفة النوم وأطلق الرصاص ولكن لم يصب حسين سرى عامر.

وكان الحرص على التخلص من حسين عامر سببه أنه يعرف سبعة من أعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار وكان من بينهم جمال عبد الناصر وعبد الحكيم وأنا.

وحسين سرى عامر هذا هو رجل فاروق وهو الذى قال للملك: أعطنى فرصة وأنا ألبسهم الطرح! ولو كنت مكان جمال عبد الناصر: ما فعلت غير الذى فعله.

وكان موقف جمال عبد الناصر: أننا يجب أن ننتهى منه قبل أن يقضى علينا.. وقد أعجبتنى عبارة قالها جمال عبد الناصر فى ذلك: لقد اتفقنا على يوليو.. ونحن الآن فى يوليو وقد جاءنا واحد يعرفنا جيدا فإما أن نقضى عليه أو يقضى علينا فإذا قضى علينا فإن هذا سوف يؤخر الثورة خمسين عاما.. ولذلك فهو الذى اتخذ قرار الثورة.. وفى هذا الوقت أعلن عبد اللطيف البغدادى أنه لا شأن له بالثورة ولكن إذا قامت فسوف يشارك فيها وكذلك أعلن جمال سالم..

وفى هذا اليوم أرسل لى جمال عبد الناصر برقية فى رفح يقول فيها: يا أنور.. انزل العريش لأن هناك رسالة.. رسالة من «أبو منقار» وأبو منقار هذا هو جمال عبد الناصر.. وكنت أنا وعبد الحكيم قد أطلقنا عليه هذه التسمية لأننا لو نظرنا إلى أنف جمال عبد الناصر نجده كالمنقار ثم اتخذنا هذه الصفة اسما «شفريا» لجمال عبد الناصر.. وجاءت الرسالة مع حسن إبراهيم الذى جاء بطائرة كنا نطلق عليها «حمار البوسطجى» لأن مواعيدها منتظمة جدا وتجىء كل يوم.

وقال لى حسن إبراهيم: إن جمال عبد الناصر يريدك أن تنزل إلى القاهرة غدا يوم ٢٢ يوليو.. لأن الثورة قد تحدد موعد قيامها ما بين غد ٢٢ يوليو و٥ أغسطس..

ومال حسن إبراهيم على جمال سالم فى المطار وقال له شيئا لا أعرفه. وذهبت إلى قائد سلاح الإدارة وقلت له: إن والدتى تعبانة وإننى فى حاجة إلى إجازة لكى أطمئن عليها. وكنت قد استنفدت مدتى من الإجازة. فوافق الرجل، وكان إنسانا طيبا رحمه الله.

ووصلت إلى محطة القاهرة، وعلى غير العادة لم أجد جمال عبدالناصر فى انتظارى، فقلت لعل شيئا شغله، وأخذت تاكسى وذهبت إلى البيت..

وأسرتى معقدة من جمال عبدالناصر، لأننى عندما أجىء فى إجازة لمدة أسبوع فإننى أقضى مع جمال عبدالناصر خمسة أيام ومع أسرتى يومين، وأحاول أن أبرر ذلك عادة بأننا فى كلية أركان الحرب وأننا ندرس وأنه لا مجال لنترقى إذا لم نحصل على شهادة أركان الحرب. وكان ذلك عذرا مقبولا بعض الوقت. ولكن عندما عرفوا جمال عبدالناصر، وجدوه إنسانا طيبا هادئا، بل إن «حماى» عندما تحدث إلى جمال عبدالناصر فى إحدى المرات يقول له: إنه يبحث عن شقة، أخذه فى سيارته الصغيرة وراح يفتش معه عن شقة..

ومن المناسب أن أعود إلى أول يناير سنة ١٩٥٢ وكان ذلك فى بيت حسن إبراهيم بمصر الجديدة وقال لنا جمال عبدالناصر فى ذلك الوقت: ياجماعة إن تنظيمنا الآن يقوم بتدريب المقاومة.. وكان كمال رفعت الله يرحمه قبل انحرافه إلى الماركسية، من ألمع النجوم عندنا الذين تولوا تدريب المقاومة ضد الانجليز فى القناة.

قال عبد الناصر: ياجماعة إن الإخوان المسلمين قد طلبوا منى سلاحا وتدريبا.

وكان بالفعل يعطيهم السلاح ويمدهم بالتدريب.

وكنا، ونحن فى رفح، نسرق الأسلحة والذخائر من الجيش المصرى، ثم نشترى من الفلسطينيين المدافع الرشاشة لكى نعطيها للإخوان المسلمين وللعناصر التى تكافح الإنجليز فى القناة. ومن بين هذه العمليات التى قمنا بها عملية اسمها عملية «التيتل» - وهو اسم كودى - فقد أطلقنا هذا الاسم على لغم بحرى صنعه أحد الضباط الأحرار وهو صلاح هدايت، وكان الغرض من هذا اللغم أن نضرب به إحدى السفن فى القناة التى يدعى البريطانيون أنهم موجودون هناك للدفاع عنها وعن الملاحة الدولية بقواتهم التى تبلغ ٨٥ ألفا. ونحن نريد أن نثبت لهم عجزهم عن ذلك.

وكان المفروض أن يذهب التيتل إلى القنطرة شرق، ولكن لم نستطع فجاءنا إلى رفح، ومن رفح إلى العريش، ثم إلى القنطرة شرق.

وفى إحدى الليالى كنت فى السينما أتفرج على فيلم أحببته كثيرا اسمه «ليلة الحنة» بطولة أنور وجدى وشادية، فوجئت بعبد الحكيم عامر يدخل السينما وينادى ويقول لى: التيتل وصل!

وكان الهدف من وراء هذا كله ما أعلنه جمال عبدالناصر من أن إلغاء المعاهدة قد خلق موقفا جديدا فلماذا لانخلص من الإنجليز مباشرة، إن إلغاء المعاهدة قد أصبح مادة للمزايدة بين الأحزاب.. وقال جمال عبدالناصر أيضا: ليس من الضرورى أن نقوم نحن بهذه الثورة، وإنما علينا أن نجهز لها، وإذا لم نستطع نحن، فإننا نكون قد خلقنا الجو المناسب والمقدمات الضرورية لجيل من بعدنا!

وفى يوم ٢٥ يناير: عملية البوليس المصرى فى الإسماعيلية، فقد هجم الإنجليز على البوليس المصرى وكان فؤاد سراج الدين وزيرا للداخلية، وكانت الأحزاب مستمرة فى المزايدات، وطلبوا من البوليس أن يقاوم لآخر طلقة، وجاء الإنجليز مستخدمين مدافع ٢٥ رطلا وهى من أحسن المدافع فى العالم فى ذلك الوقت، وهدموا الإسماعيلية.

وفى يوم ٢٦ يناير: حريق القاهرة، أحس جمال عبد الناصر أن هذه هى الفرصة، ولكن ساعات حظر التجول جعلت من الصعب عليه الاتصال بالوحدات. وهذا الحريق هو الذى كرره الشيوعيون بعد ذلك يومى ١٨ و١٩ يناير، ولكن لم يجدوا الفرصة المواتية لذلك. وانتهز الملك هذه الفرصة وطرد الوفد من الحكم وأتى بوزارة على ماهر..

وكنت فى ذلك الوقت على صلة بالدكتور يوسف رشاد، وهو من أصدقاء الملك، وكنت أطلعه على منشورات الضباط الأحرار، وقد أقنعناه، وقد جلست طويلا مع د. يوسف رشاد وعرفت منه الكثير عن الملك.

وفى مارس قلت لجمال عبدالناصر: يا جمال..

قال: نعم

قلت: لمعلوماتك.. إن الملك بعد حريق القاهرة عمل الآتى – وأنا قد أتيت لك بالأخبار من مصدرها الأصلى – لقد أخبرنى يوسف رشاد وهو الصديق الشخصى للملك أن الملك قد جمعهم وقال لهم: اسمعوا يا جماعة لم يعد لى عيش فى هذا البلد..!..

وكان الملك فاروق يعنى ما يقول..

ولذلك فقد استخدم طائرة خاصة يقودها طيار اسمه عاكف يبعث بها إلى سويسرا لينقل له سبائك الذهب. وأخبرنى د. يوسف رشاد أن الملك فاروق قد أعد قائمة بأسماء الذين سيخرجون معه من مصر، وكان اسم يوسف رشاد فى مقدمة القائمة.

ولم يضيِّع الملك الوقت، بل كان يلعب على عنصر الوقت ليتمكن من تهريب كل مايحتاج إليه.. ولم يكن أحد يعرف ذلك سواى أنا وجمال عبدالناصر.

سعادتى مطلقة

وأنا أحمد الله سبحانه وتعالى، أن جعلنى أعيش لأكتب هذه السطور.. فقد كنت أول من أذاع قيام الثورة فى مثل هذا اليوم منذ ٢٥عاما.. هذا البيان كتبه جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر.

وفى تلك الليلة التى لم ينم فيها أحد، وكان التعب أرهقنى تماما فأغفيت دقائق، وفى الساعة السادسة والنصف أيقظونى، فصحوت والبيان فى يدى اليسرى، وذهبت للإذاعة فى مبنى ماركونى، وصعدت السلم، وكنا قد استولينا عليها، وهناك واجهنى الرقيب أنور حبيب - وهو وكيل النيابة - الذى وقف معنا فى قضية أمين عثمان.

وسألونى فى الإذاعة إن كانوا يوقفون إذاعة القرآن الكريم لكى أذيع أنا البيان، فرفضت، وبعد أن انتهت تلاوة القرآن الكريم جاءنى أنور حبيب يريد أن يعرف، فرفضت، ثم أذعت البيان: أول صوت يسمعه الشعب المصرى والعربى يتكلم باسم الثورة.

ولما نزلت من الدور الثالث قابلنى صحفى مصرى يهودى، هذا الصحفى قابلته سنة ١٩٧٥ فى لندن وأنا فى طريقى إلى الولايات المتحدة، ولم أجد فى رأسه شعرة بيضاء.

سألنى: هل تذكرنى؟

قلت: أعرفك أنت أول صحفى أعطيته حديثا صحفيا صباح ٢٣ يوليو..

جر شكل مع الملك!

كان المطلوب أن نتحرش بالملك.. أن نستدرجه إلى موقف ولا أقول إلى معركة، فقد انتهت المعارك مع الملك، وكان الملك فى الاسكندرية ونحن فى القاهرة. وكل ما نريده هو أن نتحرش به. وثانيا.. نريد أن نكسب الوقت لكى نتمكن من إرسال قواتنا إلى الإسكندرية لنسيطر على

الموقف فى حالة ما إذا أراد الملك أن يفعل شيئا. واهتدينا إلى الحل يوم ٢٣ يوليو.. وذلك بأن نبدأ بالتحرش بالملك، بأن نعرض عليه رئيس وزراء لا يريده..

وكان رئيس الوزراء في ذلك الوقت نجيب الهلالى، وقد استمرت وزارته من ٢٠ إلى ٢٣يوليو، وكان وزير الداخلية مرتضى المراغى وكان من الوزراء المرموقين، وقد اتصل بمحمد نجيب يسأل عن الذى جرى، فأنكر محمد نجيب صلته بما حدث وقال له: لا علم لى بشىء..! وفى فجر يوم ٢٣ يوليو أبلغت جميع القوات المسلحة: تمام..

فالضباط الأحرار يسيطرون على جميع القوات المسلحة شمالا إلى الإسكندرية وجنوبا إلى أسوان وغربا إلى حدود ليبيا وشرقا إلى حدودنا مع إسرائيل. واستدعينا محمد نجيب فى عربة مدرعة من بيته فى الزيتون إلى القيادة العامة فى كوبرى القبة. ولم نجد رئيسا للوزراء تنطبق عليه الشروط المطلوبة وهى أن الملك لا يريده ولايقبله، سوى على ماهر، وقد أفلح أحمد حسنين فى أن ينسف كل ما بين على ماهر وبين الملك، أما الأحزاب فقد دخلت فى تنازلات ومزايدات حتى الرجل العنيد مصطفى النحاس هو الآخر قد أنهى دوره تماما.. فقد كان عنيدا ضد الإنجليز، وكان عنيدا فى استسلامه للسراى.. عاند الإنجليز واستسلم فى عناد للملك.

حتى يوم ٤ فبراير.. كيف يقبل النحاس باشا مثل هذا الموقف.. كيف يقبل أى إنسان مصرى أن تفرضه قوة أجنبية على بلده..

وقد كان سر إعجابنا بالنحاس باشا هو عناده مع الإنجليز، وهو بذلك قد اكتسب شعبية أكثر من الملك.. هذا الرجل يقف ويقول: نحن نتجه إلى كابرى! نتجه إلى «قبلة» جزيرة كابرى حيث اللهو.. حيث فاروق المنحل! ولكنه العناد من النحاس باشا، وهو عنيد بتكوينه فى أى اتجاه يختاره.

انتهى مصطفى النحاس من حسابنا، والوفد انتهى أيضا.

وكلفونى يوم ٢٣ يوليو أن أذهب إلى على ماهر، وأطلب إليه تشكيل الوزارة، ونفرضه على الملك، ونأخذ معه مرحلة صراع إلى أن ننتهى منه، ثم تحدث مشكلة نستدرج إليها الملك حتى نتخلص منه فى النهاية هو أيضا. إذن كان لابد أن أذهب إلى على ماهر، وأنا لا أزال أذكر كيف ذهبت إلى فيلا إبراهيم باشا خيرى، ولكن لابد أن على ماهر باشا هذا يسكن فى بيت أضخم وأفخم.

اتصلت بصديقى إحسان عبد القدوس.

قلت: يا إحسان..

قال: نعم..

أنت تعرف بيت على ماهر باشا؟

قال: نعم..

وكان إحسان عبدالقدوس فى قمة السعادة، فهذه الثورة جاءت بعد معركة الأسلحة الفاسدة، والحملات ضد الملك فاروق.

واتجهنا إلى بيت على ماهر باشا فى شارع الجيزة، وهو البيت الذى تشغله الآن سفارة فيتنام، ودخلنا البيت وجلسنا فى البلكونة المطلة على شارع الجيزة، الجو حار.

جاء معى إحسان عبدالقدوس، ولكنى كنت المفوض من مجلس قيادة الثورة بأن أطلب إلى على ماهر أن يشكل الوزارة الجديدة وتعرض على الملك.

وقلت له: السلام عليكم.

- عليكم السلام.

- أنا أنور السادات جئت إليك من مجلس قيادة الثورة لأقول لك: إننا قررنا تعيينك رئيسا للوزراء.

ولكن على ماهر كان سياسيا، أخذ يفكر بسرعة فى هذه اللحظة كان يجلس بالقرب من إدجار جلاد صاحب جريدة الزمان وهو رجل الملك فاروق فى الصحافة

ولما دخلت لاحظ إحسان عبدالقدوس وكذلك لاحظت أيضا أن على ماهر أحس بحالة من الذهول، ولكنه كرجل سياسى قديم حاول أن يخفى مشاعره وأن يفكر بسرعة. وفى هذه اللحظة مر سرب طائرات أربع قاذفات من ذوات المحركات الأربعة وكانت منخفضة واتجهت إلى النيل.

وسألنى على ماهر: هذه الطائرات معكم..

قلت: نعم.

لقد أراد أن يطمئن.

وفى ذلك الوقت كان على ماهر يريد أن يقبل الوزارة وأن يرفضها، أن يقبلها لأنه مركون منذ إحدى عشرة سنة.

لقد أفلح أحمد حسنين زوج الملكة نازلى أن يفسد ما بينه وبين فاروق تماما، وكان على ماهر شديد الحقد على أحمد حسنين.. وفى نفس الوقت يريد أن ينتقم من الملك فاروق.. ولايريد أن يقبل الوزارة، لأنه ليس على يقين من قدرتنا أو من نجاحنا.. وطلب أن أعفيه بعض الوقت لكى يفكر.. وقال: أعطونى فرصة لكى أتصل بمولانا جلالة الملك فاروق..

فقلت له: اسمع يا رفعة الباشا، لقد اخترناك رئيسا للوزراء..

وهنا أحسست بإحسان عبدالقدوس يضغط على رجلى تحت الترابيزة بما معناه: اسكت حتى لايسمعك إدجار جلاد.

فقلت لإحسان: ماذا جرى لك يا إحسان؟!

إنى أريد إدجار جلاد أن يسمع وأن يقول للملك.

وعدت لعلى ماهر أقول له:

إننى أبلغك بتكليف مجلس قيادة الثورة أن تكون رئيسا للوزراء.

ووقفت.. وكان على ماهر فى غاية السعادة..

فقد انتصر على غريمه أحمد حسنين وعلى فاروق أيضا، مع أن على ماهر هذا هو الذى جعل فاروق ملكا قبل الأوان لأن فاروق كان يجب ألا يتولى العرش بالحساب الميلادى، فحسبها على ماهر بالسنة الهجرية!

ثم قال: لا أملك إلا أن أوافق!

وأذعنا النبأ.

واتصل على ماهر بالملك، وأعلن الملك: أنه لا مانع عنده.

واتصل بى على ماهر فى القيادة وقال لى فى التليفون: لقد اتصلت بجلالة الملك، وأعلن أنه لامانع عنده مطلقا، وهو يريدنى أن أقابله الليلة فى الإسكندرية. لكى أتحدث معه وقبل أن أسافر إلى الملك أريد أن ألتقى بأحد منكم لأعرف ما الذى سوف أعمله.

ووضعت سماعة التليفون وقلت لأعضاء مجلس قيادة الثورة:

على ماهر اتصل بالملك، والملك قبل التحدى.

وكنا نظن أن الملك سيرفض، وأنه سيستعمل سلطته الدستورية فى أن يعين من يشاء.

وطلب منى جمال عبدالناصر أن أتصل بعلى ماهر وأن أخبره أننا معا سوف نلقاه قبل سفره إلى الإسكندرية. وذهبنا إلى بيته فى الجيزة، وقبل أن نذهب إليه درسنا الموقف ووجدنا أن

الملك كان ذكيا. والمفروض أن القوى يريد أن يفرض رأيه وأسلوبه، وهذا ما أردناه ولكن الملك استسلم، إذن لابد أن نبحث عن شئ آخر لنستدرجه إليه لكى نقضى عليه تماما..

فقدمنا لعلى ماهر ستة مطالب؛ ومن ضمن هذه المطالب مسائل تتعلق بحياة الملك الخاصة جدا، وكان المطلوب أن يرفضها الملك وبذلك يجاهرنا بالتحدى. ثم وصل على ماهر إلى الإسكندرية. وفى المساء اتصل بنا وقال لنا: الملك وافق على جميع طلباتكم.

قلت لإخواننا: الملك وافق! فماذا نعمل؟!..

واقترح على ماهر بهذه المناسبة: أن يجيء واحد منكم يكتب اسمه فى دفتر التشريفات لشكر الملك على قبوله الطلبات فسيكون لها أثر عظيم عند جلالته.

وجاءنا محمد التابعى، الله يرحمه، فى القيادة؛ وقال: ياجماعة ماذا تعملون؟

قلت له: لا شيء سوى أننا نريد أن تجرى الأمور بصورة سليمة هادئة..

قال: إذا مضيتم بهذه الصورة فسوف يقضى عليكم الملك، إننى أحذركم.

وكان التابعى يظن أننا شبان سذج وأننا لا ندرى ما نعمل.

ولكنه كان شجاعا عندما قال: خلصوا عليه قبل أن يخلص عليكم.. لاتضيعوا الوقت!

ولم نشأ فى ذلك الوقت أن نطلع أحدا على خطتنا.

وكان ردنا على طلب على ماهر: إننا سوف نفكر فى أمر إرسال واحد منا لشكر مولانا على العطف السامى.

يوم ٢٥ يوليو بدأ على ماهر يتشكك فى الأمر، لأن أحدا لم يذهب ويوقع فى دفتر التشريفات شاكرا للملك تفضله الكريم علينا بالموافقة على مطالبنا.. واتصل بى على ماهر، واستعجلنى.

وقلت له: إنى سوف التقى به اليوم، وركبت الطائرة ومعى محمد نجيب.

وقبل السفر قال لى جمال عبدالناصر: اسمع يا أنور خلصنا من الملك.. لأننا نريد أن نتجه إلى شيء آخر فى هذا البلد.. كفى وجع دماغ.

قلت: طيب يا جمال.

وقبل السفر قلت: يا جماعة هل معقول أن أدخل على رئيس وزراء هكذا دون أن يكون فى يدى شيء.. ولو شنطة.. وأعطانى جمال عبد الناصر شنطته، ودخلت بها على على ماهر

وأمـام الصحفيين، ونشـرت الصحف أننى أحمل حقيبة مليئـة بالوثائق.. وللحقيقة لم يكن بهذه الحقيبة شيء.. لقد كانت مليئة بالورق الأبيض.. مجرد منظر!

وكان مقررا أن نرسـل الإنذار إلى فاروق يوم ٢٥ يوليو وليس يوم ٢٦ يوليو لمغادرة البلاد والتنازل لابنه. وقبل الملك الإنذار الساعة الحادية عشرة مساء، واتصل بى على ماهر، بل إنه اتصل بى فى السـاعة السادسـة مساء وقال لى: مبروك لقد قرأ الإنذار وسيغادر مصر وسيوقع التنازل لابنه.

وسألنا على ماهر: ماذا ستعمل؟

قال: سأرسـل المستشـار القانونى سـليمان حافظ ليكتب التنازل ليوقع عليه الملك.. وإذا شئتم عرضت عليكم صيغة التنازل.

قلت: لامانع أن يتنازل لابنه ويرحل.

قال: ولكن الملك يطلب شيئا واحدا.

قلت: ماذا؟

قال: أن يخرج بالسفينة المحروسة إلى إيطاليا بشرط أن يقودها له اللواء بحرى علوبة.

وعلوبة هذا كان قائدا بحريا وصديقا للملك.

وهنا حزنت أشد الحزن، فأنا المفوض من مجلس قيادة الثورة بإخراج الملك، وقد أخبرونى أن المحروسة فى حاجة إلى ست ساعات لكى تكون موتوراتها جاهزة للإبحار.

فقلت لهم: لقد أعطيت الإنذار للمحروسة وسوف تكون جاهزة.

أرسـلت للواء علوبة، وقلـت له: إن الملك طلبـك بالذات واختارك أنت شـخصيا لقيادة المحروسة فى رحلته هذه.

والذى ضايقنى.. أنه تردد.

ثم قال: والله أنا بلدى مصر، وأنا لا أعرف هل إذا خرجت أستطيع أن أعود بعد ذلك؟!

قلت له: يجب أن تعرف الآتى:

أولا: أن توصل الملك إلى الميناء الإيطالى الذى يريده.

ثانيا: أن تعود بالمحروسة لأنها ملك للدولة.

ثالثا: لا عليك ولا ضدك شيء، فلا خوف، أنت مواطن مصرى.

ولما استراح إلى ذلك قال: إذن أقود المحروسة وأعود بها..

وخرج الملك وكان قد أدرك، بل كان أسـرع من كل الذين حوله، أن كل شـىء قد انتهى.. وأنـه لاحياة له فـى مصر بعد ذلك، وكان أسـرع وأبرع من كل الذين حولـه فى الوصول إلى هذه النتيجة.

ولذلك لم يحتج منا إلى «جر شـكل» معـه.. فقد أسـلم واستسـلم وخرج لأنه لا أمـل له إلا فـى النجـاة.. فمن يدرى ما الذى كان يحـدث لـه لو قـاوم وركب رأسـه وركبنا نحـن أيضا رءوسنا؟

باختصار : سنة بسنة !

سنة ١٩٥٢

فـى ٢٧ يوليو: كان الاجتماع التاريخى الذى ناقشـنا فيه شـكل الحكـم: دكتاتورية أم ديمقراطية؟..

وطلبنا إلى الأحزاب بعد ذلك أن تطهر نفسـها لتتسـلم مسـئولية الحكم. ولكن الأحزاب لم تتلكأ فقط بل قامت بعملية تصفية لحسـابات شـخصية. والأهم من هذا كله والأخطر أنهم رفضـوا جميعا الإصلاح الزراعى، فقد كان فى مصر ٩٠٪ من الشـعب لايملكون إلا قراريط أو لايملكون مطلقا.. بينما بقية الأرض تملكها الأقلية.

كل الأحزاب رفضته.. ورفضه الذين يريدون إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء؛ وعلى رأس هذه الأحزاب حزب الوفد. ولذلك كان أمرا حتميا أن تتولى الثورة السلطة!

ولذلك شكلت وزارة محمد نجيب.

وبسرعة بدأت الأحزاب تتسلل إلى الجيش على أساس أنه ما دام بعض الضباط قد استطاعوا القيام بثورة فلماذا لا يحاولون أن يستميلوا ضباطا آخرين ليثوروا على الثورة؟!

وقبضنا على الضباط المتآمرين مع الأحزاب.

سنة ١٩٥٣

انتهينا إلى مهلة ثلاث السـنوات كفترة انتقال من ١٦ يناير ٥٣ إلى ١٦ يناير سـنة ١٩٥٦ يوم أن يصدر الدستور، وقد صدر دستور مؤقت.

وحدثـت صراعات حزبية.. لأننا فى يناير ألغينا الأحزاب. وقد صدر أخيرا قانون بإلغاء الإلغاء سـنة ١٩٧٧ للأسـف. وبدأ صراع محمد نجيب مع مجلس قيادة الثورة. وبدأ الدخول

فى محادثات مع بريطانيا من أجل الجلاء عن مصر. والجلاء عن مصر يمثل حجر الزاوية فى الوطنية المصرية كلها.

وهناك فرق كبير بين الأحزاب القديمة وبين الثورة فى النظر إلى جلاء الإنجليز.

الأحزاب أخذتها على أنها «قضية» ينشغل بها رجال القانون ويبحثون عن نصوص ودساتير.

ولكننا أخذنا الجلاء على أنه معركة وليس للانجليز الحق مطلقا فى البقاء ولا فى الامتيازات، وقد حاول الإنجليز أن يتصلوا بنا وأن يعرفوا قادة الثورة ثلاثة شهور فلم يتمكنوا مع أن لهم فى مصر ٨٥ ألف جندى بكامل معداتهم.

فى نفس الوقت الذى كان فيه زعماء الأحزاب يركعون تحت أقدام الإنجليز..

وفى الإسكندرية حاولت المخابرات الإسرائيلية الإيقاع بيننا وبين أمريكا، فى قضية «لافون» وزير الدفاع الإسرائيلى، ولما فشلت اضطر وزير أن يذيع تفاصيلها..

سنة ١٩٥٤

لم يعرف الإنجليز طبيعة هذه الثورة إلى أن قامت حركة المقاومة إلى جانب المفاوضة، ونحن منذ سنة ١٩٥٣ نتفاوض معهم، واستعنا بأمريكا فى ذلك وبسفيرهم كافرى بالذات. لنقول للأمريكان والإنجليز معا: إن لنا إرادة وصاحب الإرادة لن يسلم بها.

ووضح للإنجليز أنهم فى حاجة إلى الدفاع عن قاعدتهم فى القناة. وليس عن مصالحهم. وذلك بسبب العمل الفدائى الكامل الذى قام به المصريون وبتوجيه من قيادة الثورة لأننا كنا حريصين على أن نؤكد لدى البريطانيين أنهم مهددون وأنهم أولى بالدفاع عن أنفسهم، قبل أن يدعوا أنهم باقون للدفاع عن مصالح العالم كله.

عندما تأكد لديهم ذلك اضطروا إلى توقيع اتفاقية الجلاء الذى يتم فى يونيو ٥٦، أى بعد حوالى عشرين شهرا.

أذكر أن جمال عبدالناصر جمعنا فى استراحة الهرم التابعة لوزارة التربية والتعليم وعرض علينا ما وصل إليه الإنجليز. بدأت المزايدات على جمال عبدالناصر.

قال: أنا وصلت مع الإنجليز إلى أنهم لابد أن يجلوا عن مصر، ولكنهم يخافون من أن يقع عدوان روسى على المنطقة.. وسألتهم ماذا تريدون؟ قالوا: نريد سبع سنوات بعد توقيع

الاتفاقيـــة نجلو عن كل مكان فى القاهرة ونبقى فى القناة لمدة ســبع ســنوات ببعض الفنيين المدنيين، حتى إذا حدث عدوان شيوعى استطعنا الدفاع عنكم وعن العالم العربى.

وهنا سألنا جمال عبد الناصر: ما رأيكم؟

وأخذ كل واحد منا الكلمة..

جمال سالم زايد عليه..

وكان جمـال عبـد الناصر فى غاية الوعــى، فقد كان حريصا على تســجيل هذا الاجتماع ومعرفة كل الآراء وقد خشى من الانتقادات إذا هو وافق دون مناقشة منا جميعا..

وجاء دورى فقلت له:

أنا أوافق على سبع سنوات مع بقاء ١٢٠٠ خبير مدنى بريطانى.. بل إننى أوافق على عشر سنوات.. هذا لا يخيف مطلقا، لأن المشكلة عندى هى أن يجلوا.

وقلت له: على بركة الله.

ووقع الاتفاق على ســبع ســنوات مع بقاء ١٢٠٠ خبير مدنى فى قاعدة القناة بدلا من ٨٥ ألف جندى بطائراتهم ودباباتهم.

سنة ١٩٥٥

وقــع عدوان اليهود فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥ على غزة التى هى تحت الإدارة المصرية، ومات أكثر من أربعين نسمة، وخرج بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل وأعلن أمام العالم كله وأمام مجلــس الأمن أن هذا الأمر قد وافق عليه مجلس الوزراء الإســرائيلى، ويتخذ مجلس الأمن قرارا مائعا. ولكن تبقى الحقيقة الهامة وهى أن إسرائيل تعترف أنها ارتكبت هذه الجريمة دون أن تكترث بالعالم كله وبموافقة الغرب وأمريكا وبريطانيا.

هذه نقطة تحول هائلة..

ولقد عاش بن جوريون هذا إلى سنة ١٩٧٣ ليعرف أن كل ما غرسه فى الشعب الإسرائيلى من حدود آمنة وهم فى وهم.. ويوم تهاوت بالكامل كل أساطيره وأحلامه المجنونة عندما قتل حفيده فى حرب أكتوبر، وانكشــف بذلك الغطاء عن جميع تناقضات المجتمع الإســرائيلى، وازدادت إسرائيل تمزقا وتصدعا. ولاتزال تعانى حتى اليوم وغدا وبعد غد - وهذا ما يقولونه هم عن أنفسهم!.

وهى نقطة تحول هامة: لأن أمريكا وبريطانيا رفضتا أن تمدنا بالسلاح، وأعطتا إسرائيل كل ما تحتاج إليه لتقوم بدور الكرباج فى الشرق الأوسط.

وبعــد ذلك بحثنا عن مصدر آخر للســلاح خــارج الكتلة الغربية، وهذا ما عرف بكسـر احتــكار الغرب للســلاح، ولم يبق أمامنا إلا الإتحاد الســوفيتى والفضل فــى ذلك يرجع إلى شوان لاى على نحو ما ذكرت فى «الأوراق» قبل ذلك.

سنة ١٩٥٦

عندمــا عاد الإنجليز إلى العدوان على مصــر لم يكن لهم فى القناة غير ١٢٠٠ خبير مدنى مجردين من الســلاح والقاعدة خالية ولا خطر منها على أحد. وســحبت أمريكا معونة السد العالى وأصدر دالاس بيانا اتهم فيه مصر بالإفلاس وأن اقتصادها لايتحمل الســد العالى، ومن المهــم التخلص من النظام القائم فيها. رد جمال عبد الناصر على ذلك بتأميم قناة الســويس، أكبر معقل احتكارى استعمارى فى العالم.

سنة ١٩٥٧

وفــى يــوم أول يناير أصدر جمال عبد الناصر، أى بعد جلاء بريطانيا وفرنســا عن القناة بسبعة أيام، قرارين هامين جدا:

القرار الأول: ســقوط معاهدة التحالف بيننا وبين بريطانيا، وبذلك ســقط الألف والمائتان من المدنيين الإنجليز أسرى عندنا.

القرار الثانى: تمصير جميع المصالح الأجنبية فى مصر، وكان هذا بداية «القطاع العام»..

ففــى أول يناير أممت أو مصرت جميع المصالح الأجنبية وكان على رأســها شــركة مصر الجديــدة، هذه الشــركة كان رأس مالها اثنين أو ثلاثة ملايين مــن الجنيهات وتملك مئات الملايين من الجنيهات من أرض مصر.

وتم تأميم جميع البنوك والبيوت الإنجليزية والفرنسية فى مصر.

وبــدأ القطــاع العام بما قيمته ألف مليون جنيه اســترلينى وفى هــذا العام ظهر الاتحاد الســوفيتى كقوة مواجهة. وسافر الملك سعود إلى أمريكا، وعاد من رحلته مارا بالقاهرة، وقد أحضر معه دوسيها من ألان دالاس مدير المخابرات الأمريكية وهو أخو فوستر دالاس.

وفى هذا الدوسيه أن أنور السادات عميل سوفيتى!!

وسـبب ذلك أننى أثناء معركة القناة ١٩٥٦ كنت أهاجم فوسـتر دالاس يوميا فى جريدة «الجمهورية».

وعرفنا فيما بعد، وكما ادعى فوسـتر دالاس وزير خارجية أمريكا؛ أن الأمريكان اتفقوا مـع أحد الملوك العرب على ما يسـمى «بخطة الغزو من الداخـل» لمصر، وكانت هذه الخطة- وكتبـت عنها التايم والنيوزويـك - معناها أن بعض الأنظمة العربية تحاول إسـقاط النظام فى مصر! وكانت النتيجة المباشـرة الأولى: سقوط حكم النابلسى فى مارس ١٩٥٧ فى الأردن وكان حكم النابلسى يرحمه الله وطنيا.

وحدد دالاس منتصف سـنة ١٩٥٧ لسـقوط الحكم فى مصر، وبدلا من أن يسقط الحكم فى مصر كما أراد كان السقوط يهدد كلا من الملك سعود والملك حسين!

وفى سبتمبر كانت تركيا تحشد قواتها على حدود سوريا وهبت مصر تساعد سوريا، ويسـمع العالم كله فجأة أن قوات مصرية نزلت إلى الشـواطئ السـورية فى شرق البحر الأبيض بينما الأسـطول السـادس موجود بالقـرب من هذه المنطقة، ولم يدر الأسـطول السـادس ولا إسـرائيل ولا العالم كلـه إلا عندما أعلنت مصـر ذلك..وذهبت إلى سـوريا على رأس وفد برلمانى مصرى إلى البرلمان السورى وكان رئيسه أكرم الحورانى، وتبادلنا الخطـب، واتفقنا على قيـام أول وحـدة عربية تحـدث فى التاريـخ الحديث وكان ذلك فى نوفمبر.

سنة ١٩٥٨

توالت الأحداث فى يناير وفبراير وبلغت منتهاها عندما قامت الوحدة فى ٢٢ فبراير على أروع صورة. وبدأت القوى الخارجية تتآمر على هذه الوحدة.

سنة ١٩٥٩

وسنة ١٩٥٩ تميزت بالمعركة التى بدأت بين جمال عبدالناصر وخروتشيف ذلك أن الوحدة أغضبت خروتشـيف، فهو ضد القومية العربية وضد القوميات.. والشيوعية تدعو إلى العالمية وإلغاء القوميات.. وهذه الوحدة قومية عربية، فهاجم خروتشيف جمال عبدالناصر وهاجمه عبدالناصر أيضا وبنفس العنف.

سنة ١٩٦٠

بدأت بوادر الفشل فى الوحدة المصرية السورية.

سنة ١٩٦١

فى ٢٣ يوليو صدرت القرارات الاشـتراكية، التـى أراد بها جمال عبد الناصر أن يضرب جميع الجبهات المعارضة للوحدة وأن يقضى على جميع عناصر التآمر والتخريب للوحدة بين مصر وسوريا. ولكن الذى حدث كان عكس ذلك: فقد أذكت هذه القوانين شرارة التآمر المكثف على الوحدة، ولذلك وفى ٢٨ سبتمبر، أى بعد ذلك بشهرين، وقع الانفصال.

وبدأ العالم العربى مرحلة معاناة. ومصر على الخصوص بدأت مرحلة تخبط.

سنة ١٩٦٢

هذه سـنة الميثاق الوطنى والمناقشـات فى مجلس الشـعب والتى أريد بها امتصاص سخط وغضب الشعب على أسلوب الحكم.

ولابد أن نقول: إن الشـعب يمكن أن يعيش جائعا فى حرية، ولكنه لايقبل أبدا أن يأكل وحريتـه ناقصة.. والخطر الحقيقى هو أن تتحقق التخمة مـع الكبت. التجربة تؤكد ذلك؛ والتاريخ أيضا.

ولذلك فإن الميثاق لم يكتب له أن ينفذ على الإطلاق؛ وإنما كان فقط نوعا من «ورق النشاف» ليمتص غضب الشعب الذى يريد حريته.

وفى ٢٦ سبتمبر قامت ثورة اليمن.

وفى هذه السـنة اضطر بعدها عبد الناصر أن يخضع لإرادة الشعب وأن يخرج على صبرى بعد ذلك فى سـنة ١٩٦٥، بعد أن كاد الشـعب ينفجر من الداخل ففى ١٥٠ مقالة كتبها على صبرى بجريدة الجمهورية أعلن أن كل مصر تحتاج إلى إعادة تكوين من أصغر إنسان إلى أكبر إنسـان من القضـاة إلى الحرفيين المهنيين إلى العمال.. الكل فاسـد ويجب إصلاح اعوجاج كل الناس، ولم يدرك أن هذا الذى يقوله هو قمة الاعوجاج والخلل، وأنه بذلك أشـعل السـخط والغضب العام فى مصر.

سنة ١٩٦٥

جاء زكريا محيى الدين رئيسا للوزراء وكان معه د. عبدالمنعم القيسونى وزيرا للاقتصاد، وأراد زكريا محيى الدين أن يقف وقفة من شأنها إعادة النظر فى أمور البلاد فلم يتمكن، وكان زكريا محيى الدين من المؤمنين بالنظام الغربى، وهذا يبين لنا لماذا استخلفه جمال عبدالناصر

فى خطاب التنازل سنة ١٩٦٧، لأن جمال عبد الناصر لم يستطع أن يغير لغته، ولذلك اختار زكريا محيى الدين.. وخرج زكريا محيى الدين لأنه لجأ إلى سياسة انكماشية فى الوقت الذى يحتاج فيه اقتصاد البلاد إلى أسلوب آخر. ثم مؤامرة الإخوان المسلمين.

سنة ١٩٦٦

جاء صدقى سليمان رئيسا للوزراء.

وهنا لابد أن أذكر أن مجىء صدقى سليمان كان نتيجة لصراع القوى الذى كان قائما منذ أوائل الستينات أو ما قبلها، أو على الأصح منذ معركة ٥٦ بين عبدالحكيم عامر وجمال عبدالناصر. جاء صدقى سليمان مؤيدا من عبدالحكيم عامر، بل إن الذى اتصل به لتشكيل الوزارة كان عبدالحكيم عامر. جاء صدقى سليمان وسار على نفس النهج الذى سار عليه زكريا محيى الدين. ثم لم يلبث أن جاءت النكسة ١٩٦٧.

وللتاريخ يجب أن أذكر أن جمال عبد الناصر عندما جمع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى من أجل إقفال المضايق سنة ١٩٦٦ فإن الوحيد الذى عارض فى ذلك هو صدقى سليمان رئيس الوزراء؛ على الرغم من أن عبد الحكيم عامر حينما سأله جمال عبدالناصر سؤالا مباشرا: هل أنت جاهز يا عبد الحكيم؟

رد عليه عبد الحكيم؛ قولا وإشارة: أنا جاهز برقبتى!

وبرغم ذلك ظل صدقى سليمان معارضا، ووافق أعضاء اللجنة الآخرون وأنا واحد منهم، فأنا مسئول أيضا عن هذا القرار وشريك فيه.

وأنا أعلم أن الكثيرين ينكرون أنهم وافقوا على قرار إقفال المضايق، ولكنى أعترف بأننى وافقت! وفى هذه السنة شكلت لجنة رهيبة اسمها لجنة تصفية الإقطاع!

سنة ١٩٦٧

النكسة...

سنة ١٩٦٩

حرب الاستنزاف؛ وكان الاتحاد السوفيتى غير راض عن هذه الحرب. ولذلك طلب السوفيت من جمال عبدالناصر وقف الحرب. وأكثر من ذلك وللتاريخ أقرر على مسئوليتى أمام الله والشعب أن الذخائر التى استنفدها جمال عبدالناصر فى حرب سنة ١٩٥٦ وكنا نتفوق

علــى اليهــود فى المدفعية إلى يومنا هذا، هذه الذخائر تعمد الســوفيت أن يعوضوه عنها بعد وقف إطلاق النار فى أغسطس سنة ١٩٧٠!

وكان ذلك نكاية فينا وإعلانا لنا: أننا يجب أن نعلم أننا لانســتطيع أن نســتمر فى حرب الاســتنزاف أو أن نتخذ أى قرار دون أن نرجع إليهم، للأسف؛ وهذا ما جعلنى أثور عليهم حتى هذه اللحظة.

والذى لايعلمه الناس أن جمال عبد الناصر كان ثائرا عليهم أكثر منى ألوف المرات. ولكن لم تكــن لديه إمكانيات الحركة، لأنه قطع علاقاتــه بأمريكا، وقطع علاقاته بالغرب، وقطع علاقاته بالعالم العربى. فلم يكن أمامه من أمل إلا أن يعود السوفيت إلى رشدهم يوما ما.

وفى سبتمبر ســنة ١٩٦٩ أصيب جمال عبد الناصر بأزمة قلبية حادة، وعندما استدعيت الطبيب السوفيتى الذى يعالجه لأنه لم يرد أن يشمت فيه الغرب، لاحظت شيئا غريبا جدا، فقد بدأ الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى بقيادة على صبرى فى الترويج لعملية أن جمال عبد الناصر ليس ولى أمر هذا الشــعب، ولا مجلس الشعب، وإنما نحن أمناء الشعب أصحاب الكلمة. وعندما اهتزت الأوضاع فى البلاد نتيجة لذلك، فاضطررت أن أخطب من أســوان إلى الاسكندرية. واكتشف جمال عبد الناصر ذلك أيضا من متابعة لقاءاته بأساتذة الجامعات.

سنة ١٩٧٠

يكاد جمال عبد الناصر أن يكون قد أعد نفسه للرحيل.. يسافر سرا إلى الاتحاد السوفيتى فى يونيو ويوليو ويقبل مبادرة روجرز أمام القادة الســوفيت. وفى أول مايو يوجه خطابا إلى نيكســون رئيس الولايــات المتحدة لأول مرة، وذلك بعد أن يئس من القادة الســوفيت. وتقع مذبحة الفانتوم، وتصرخ إسرائيل وتوافق على مبادرة روجرز.

ويحضر جمال عبد الناصر ويقول تعليقا على ماحدث فى موسكو: إن الحالة ميئوس منها تمامــا، قالها باللغة الإنجليزية. ويموت جمال عبــد الناصر. وأتولى الحكم من بعده ، وبعد شهرين أصدرت قرار تصفية الحراسات.

سنة ١٩٧١

تصفية مراكز القوى. وإقالة على صبرى.

والوقوف إلى جانب الرئيس جعفر نميرى وشجب الثورة الشيوعية.

سنة ١٩٧٢

قرار إخراج الخبراء السوفيت ١٥ ألف خبير سوفيتى فى أسبوع واحد.

سنة ١٩٧٣

مواجهة كل التيارات المضادة التى كان ولايزال يتزعمها من يلبسون قميص عبدالناصر..

قرار الحرب الذى كان يرفضه الاتحاد السوفيتى على قدم المساواة مع الولايات المتحدة.

تخلص العالم العربى من المزايدات والشعارات والتصنيفات، وظهر جليا فى معركة أكتوبر أن العالم العربى بملكياته وجمهورياته عالم واحد، ولا مجال للصراع تحت أسماء التقدمية والرجعية.

سنة ١٩٧٤

الانفتاح الاقتصادى.

سنة ١٩٧٥

فتح قناة السويس.

سنة ١٩٧٦

إنهاء المعاهدة السوفيتية والتسهيلات البحرية.

سنة ١٩٧٧

التجهيز للحل الشامل للقضية.

لقد كانت الخمسينات إنجازات

وكانت الستينات هزائم متوالية

والسبعينات بدأت القرارات الحاسمة والانتصارات الكاملة.

❑❑❑



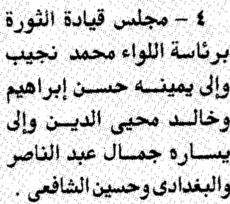
١ - علـى ماهـر رئيس وزراء مصـر بعـد الثـورة يظهر معه الرئيس الراحل محمـد نجيـب وحسـين الشافعى .



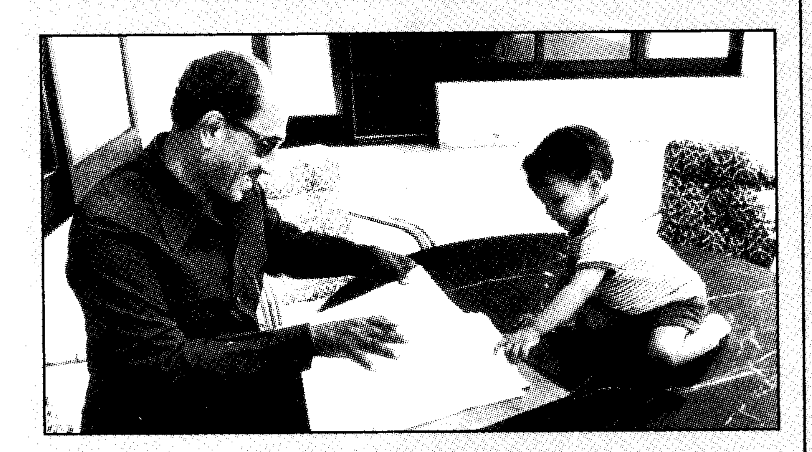
٢ - الـود قبـل انقطـاع الوصـل بين نجيـب وعبد الناصر .



٣ - اللواء محمد نجيب يناقش بيـان قيادة الجيش الجديدة مع البكباشى أنور السادات .



٤ - مجلس قيادة الثورة برئاسة اللواء محمد نجيب وإلى يمينه حسن إبراهيم وخالد محيى الدين وإلى يساره جمال عبد الناصر والبغدادى وحسين الشافعى .



٥ - الرئيس السادات مع حفيده .



٦ - أثناء افتتاحه بعض المشاريع في ميت أبو الكوم .



٧ - الملك فاروق وبجواره مصطفى النحاس باشا .



٨ - الرئيس السادات وسط أهل قريته .

٩ -علي ماهر باشا .



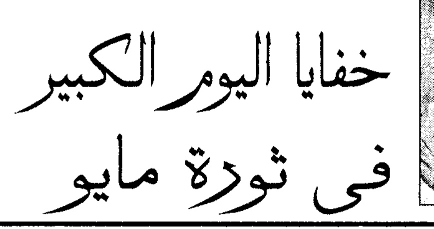
١٠ - مصطفى النحاس باشا .



١١ - زكريا محيي الدين .







خفايا اليوم الكبير في ثورة مايو

- اكتشاف محاولة لاغتيال السادات فى مديرية التحرير .
- الصدمة الأولى فى حياة السادات .
- كيف بدأت ثورة ١٥ مايو ؟
- السادات يعتزل الحياة السياسية .
- انتهاء أكذوبة الانهيار الدستورى .

هناك مثل يقول: إن الطريق الطويل يبدأ بخطوة قصيرة.
وهو مثل صحيح وينطبق هذا المثل على السلوك العام لأى شخص، وأى شعب.
وينطبــق أكثــر على الثــورات .. التى هى خطة شــاملة لتغيير عــام فى الحياة والسلوك العام للشعوب.

فهل يمكن أن يقال إن ثورة مايو قد بدأت بسطر ونصف سطر نشر فى الصفحة الأولى من كل الصحف المصرية . وهذا الســطر ونصف السطر هو: إقالة على صبرى من جميع مناصبه؟ وأنا أرى أن هذا تبسيط شديد وفى نفس الوقت أرى أنه لا يعطى لما حدث وزنه الحقيقى، بل يعطى لعلى صبرى وزنا أكبر وقيمة لا يســتحقها وفى نفس الوقت يخصم من حساب الشعب المصرى الكثير من رصيده التاريخى العظيم..

ومن المؤكد أن ثورة يوليو ٥٢ هى الثورة الأم. وأنا شــريك فى قيامها ومســئول مع جمال عبد الناصــر عن كل ما فيها من حســنات وســيئات. وقد أعلنت هذا كثيــرا. ولكن من العدل أن أذكــره. إحقاقــا للحق. وتأكيدا لهــذا المعنى عند الأجيال الجديدة وعنــد الذين يهتمون بدارســة التاريــخ.. وثــورة يوليو هذه لهــا ثورة أم .. فإذا نحن اســتعرضنا ثــورات القرن العشرين أى الخمسين عاما التى سبقت ثورتنا، فأننا نجد ثورتين: الثورة الشيوعية.. وثورة كمال أتاتورك..

وأعتقد أننا تأثرنا بثورة كمال أتاتورك. فهو زعيم تركى مســلم. وعلاقتنا بتركيا قديمة. ثم لأنه مســلم فقد استهوى العالم الإســلامى كله. الذى تطلع منذ وقت طويل لأن يرى زعيما إسلاميا يهز العالم الاسلامى ويوقظه من نومه الطويل ويدفعه من القرون الوسطى إلى العصور الحديثة. ومن الشرق القديم إلى الغرب الحديث..

وقد كان مصطفى كمال – الذى أطلق على نفسه لقب أتاتورك أى أبى الأتراك – بطلا عظيما ورأى فيه المســلمون ذلك الأمل المنشــود. وإن لم يكن مصطفى كمال متمســكا بمبادئ الدين الإسلامى. ولكنه استطاع أن يطرد الغزاة. وأن يوحد شعبه الممزق وأن يكرهه على النهوض.

وأن يرغمه على التقدم وأن ينقله، وأحلام العالم العربى والإسلامى أيضا، إلى أوروبا الحديثة. وقد أحدث كمال أتاتورك تغييرات جذرية فى السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية. وكان الإعجاب به قد سبق وعينا السياسى.. فقد كبرت على الاستماع إلى بطولات مصطفى كمال.. فعندما جئنا إلى القاهرة وجدت صورة مصطفى كمال فى بيتنا.. فى مواجهة الذى يدخل البيت .. وكان يرتدى ملابسه العسكرية ويضع على رأسه ذلك الغطاء الذى يسمونه القلبك..

ومعنى هذه الصورة أن والدى معجب بهذا الرجل، ولا بد أن اختياره لأسمائنا أنا وأختى له علاقة بذلك فأسماؤنا: أنور وطلعت وعصمت.. وفى مصر وفى العالم العربى أسماء تركية كثيرة لهذه العلاقة التاريخية القديمة بالأتراك. وبسبب كمال أتاتورك. وهذه الثورة الكمالية هى الثورة الأم لنا. ما فى ذلك شك..

وأرى أيضا أنها الثورة الأم للفاشية الايطالية بزعامة موسولينى. وكان من المنطقى أن يتأثر موسولينى كرجل أوروبى بالثورة الشيوعية فى روسيا التى اعتمدت على فلسفة كارل ماركس الألمانى – أى الأوروبى ولكن ما كتبه موسولينى يؤكد أنه مختلف عن الثورة الشيوعية اختلافا جذريا. فهو يمجد الثورة القائمة على العقل، وليست القائمة على القول وهو يرى أن الثورة الشيوعية هى ثورة قائمة على «النظريات» تعيش بها وتنتشر بسببها، ثم تعتقل اتباعها فى قوالب نظرية.. فالنظرية أولا والإنسان ثانيا أو ثالثا.

وفى سنة ١٩٢٤ تقدم موسولينى هذا برسالة دكتوراه إلى جامعة بولونيا موضوعها (تعليق سنة ١٩٢٤ على كتاب الأمير لماكيافيللى).. وماكيافيللى هذا هو فيلسوف سياسى ايطالى .. أو هو أول سياسى له تفكير علمى فى التاريخ ومن الطبيعى أن يتحمس له موسولينى ولكن حماس موسولينى لمواطنه ماكيافيللى سببه أنه رجل على دراية عظيمة بطبائع البشر وليست عنده الشجاعة أن يصارح بذلك. لماذا .. لأن السياسى بطل جبان حتى تكون فى يديه القوة.. لأن الفكر السياسى بلا قوة يعتبر نوعا من الشعر، فإذا أصبحت للشاعر قوة أو للفيلسوف قوة فهو رجل السياسة.. وهو الزعيم.. ولذلك رأى موسولينى: أن الثورة عمل، وليست قولا.. وأن الثورة التغيير وليست التنظير..

وأعتقد أن مصطفى كمال ذا النزعة الأوروبية هو الرجل الذى استهوى موسولينى أيضا.

والنازية، فلسفة هتلر، قد تأثرت بالفاشية.. وتأثرت بالجانب الألمانى من الفاشية.

فموسولينى قد أعجب جدا بفلسفة القوة عند الفيلسوف الألمانى نيتشه. وموسولينى له دراسات مطولة عن فلسفة القوة. ومن كل ما كتبه نيتشه هذا أعجب موسولينى بعبارة تقول: الشعوب أطفال يجب أن تكرهها الأمهات على تناول الدواء والشعوب لا تعرف مصالحها، وإنما يعرف ذلك رجال الحتل.. رجال الثورة.

ولذلك تأثر هتلر بموسولينى، وكلاهما تأثر بمصطفى كمال أما الثورة الصينية فلا شك أنها تأثرت بالثورة الشيوعية الروسية..

وكان اشتغالى بالسياسة مبكرا.. ولو أننى أحصيت سنوات خدمتى فى الجيش لوجدتها خمس سنوات ونصف سنة، بينما حياتى السياسية قد بلغت خمسة أمثال ذلك.

وهذا يفسر أشياء كثيرة فى سلوكى السياسى، ومذهبى الثورى بعد ذلك. وليس من قبيل الصدفة أن أجد بين يدى كتابا اسمه «الذئب الأغبر» - أى مصطفى كمال ومن تأليف أرمسترونج. وقد بقى هذا الكتاب فى يدى طويلا .. وبقى فى خيالى أطول وعلى كثرة ما قرأت فى السياسة شرقا وغربا فإن مثل هذا الكتاب بأسلوبه ومعانيه وقدرة مؤلفه على النفاذ إلى أعمق أعماق مصطفى كمال لا يغيب عن خيالى .. هذا الإعجاب بمصطفى كمال بالذات؟ هل هو الإعجاب بالبطولة؟ هل هو الأمل فى أن يكون عندنا مثل هذه القدوة أو الموهبة العظيمة هل أملى فى أن أكون شيئا من ذلك؟

لا أعرف.. ربما كل ذلك أو بعض ذلك ولكن فى ذلك الوقت كنت مغرما بهذا الرجل ولست إلا واحدا من بين ملايين .. وأنا كنت واحدا من الذين تنبهت فيهم الحاسة السياسية فى سن مبكرة.. فكان اشتراكى بالعمل السياسى واصطدامى بالسلطة ودخولى السجن ونشر قصتى فى كل الصحف عند اعتقالى وعند محاكمتى وعند الافراج عنى.. ويوم قامت ثورة يوليو كنت الوحيد الذى يعرفه الناس. وقد سبب لى ذلك بعض المشاكل. وأقول بعض المشاكل. ولكنى فيما بعد سوف أقول: بعض المتاعب. وأحمد الله أنها سببت لى ذلك، فقد كانت صدمة عنيفة أفقت بعدها على فهم جديد لثورتنا.. واهتديت بعد ذلك إلى سلوك خاص..

ومثل هذه الصدمات هى التى تجعل الإنسان يرى الدنيا أوضح .. أو يرى نفسه أوضح . هذه الصدمة مثل البرق الذى يسبق الرعد الذى يسبق المطر، فالرعد يكشف الأرض والسماء فى لحظة واحدة..

وفى هذه اللحظات البارقة يكتشف الإنسان ذاته. وأعظم ما يكتشفه الإنسان فى حياته: أن يكتشف ذاته. أن يعرف من هو؟

قليلون جدا عرفوا ذلك. لأنه من الممكن أن يعيش الإنسان. بالطول والعرض. ولكن لا تتاح له فرصة يجلس فيها إلى نفسه.

وفجأة تبرق الدنيا فإذا هو يرى نفسه ويعرف: من أنا؟ ومن هؤلاء الذين حولى؟ ما الذى أستطيع وما الذى يريدون؟ أين الصديق وأين العدو؟ وأهم من ذلك: أين الطريق.. أسلم الطرق.. أصح الطرق؟ ثم على أى شىء يختلف الناس حولى؟ ما الذى يريدون وما الذى أريد؟

فى لحظات قليلة يهتدى الإنسان إلى نفسه .. وقد تضيع هذ اللحظة التى لا يمكن تعويضها. ومن هنا كان توفيق الله عظيما، عندما انكشفت لى نفسى وعندما هدانى الله لأن أعرف بالضبط ما الذى أساويه وما الذى يساويه غيرى.. ما الذى أريد وما الذى أقدر عليه.

فى مناسبتين اثنتين يستطيع الإنسان أن يعرف نفسه:

- عندما يكون وحده فى السجن.
- وعندما يكون الإنسان فى الحرب.

ففى السجن ليس معى إلا نفسى.. والعالم كله ابتعد.. والناس والخلاف والشقاق والزحام والتضارب بالأكتاف .. كل ذلك بعيد عنى .. وراء الجدران السميكة والأبواب الخرساء .. الدنيا كلها هناك .. ولم يبق لى من الدنيا كلها إلا: هذه الغرفة المظلمة.. إلا هذه الزنزانة رقم ٥٤.. وإلا أنا .. وفى هذه الوحدة، فى هذه العزلة، أجد نفسى . وأحاسبها. واستريح إلى تصفية الحساب اليومى .. وانهى كل ليلة حسابى بهذه العبارة: من أجل مصر فعلت كل شىء وأنا مستريح الضمير تماما.

ها أنا ذا نادم على فعلتى، أبدا لست نادما. ولو عادت بى الأيام، ما فعلت غير الذى فعلت..

وفى الحرب: كل شىء فى الحرب يهون.

الموت يهون، الطعام الأسرة، لذة الدنيا فنحن جميعا أمام معركة واحدة وقد نذرنا أنفسنا لله وللوطن.. وفى أية لحظة يمكن أن تنطلق رصاصة لتصيب واحدا دون واحد. فالموت قريب إذا شاء الله، يبعد إذا أراد الله ..ولا تملك نفس لنفس شيئا.. وفى هذا التجرد التام. وفى هذه الصلابة النبيلة، تحت السماء. وتحت النار وعلى الرمل.. هنا يجد الإنسان نفسه. فإذا وجدها فليتمسك بها.. فليس يحدث كثيرا أن يجد الإنسان نفسه.

وأحمد الله أننى وجدت نفسى، أو بعض نفسى فى مرحلة مبكرة من حياتى..

ثم جاءت بعض الصدمات التى سأرويها بعد قليل، فتفتحت الدنيا أمامى أوسع وأعمق.. فرأيت الآخرين، وفى صوتهم وفى ظلالهم ومعهم وبهم وضدهم: عرفت نفسى..

إن ثورة ٥٢ ثورة بكل معانى الكلمة. وكان جمال عبد الناصر هو دينامو هذه الثورة.

وفى الوقت الذى كنا جميعاً متفرقين فى الجبهة.. وفى الوقت الذى كان آخرون فى أماكن نائية لكى يتقاضوا أجراً مضاعفاً، كان جمال عبد الناصر يعمل ويتصل ويخطط فى القاهرة. وكان شخصية. وكان تفكيره جباراً.

والثورات كالناس. فهناك أناس يموتون وهم أطفال وهناك أناس يشيبون ثم يموتون. وهناك أناس مثل ثورتنا هذه يشبون قبل الأوان. وقد شابت ثورتنا. وبلغت شيخوختها فى الستينات.. أو فى نكسة ٦٧. وجمال عبد الناصر هو أول من تنبه إلى أنه لا بد من قيام ثورة أخرى على الثورة. كتب ذلك بخط يده. وهى حادثة معروفة .. ومن مظاهر شيخوختها: الانحرافات والتسيب والنكسة..

البحث عن البداية..

أما كيف بدأت ثورة ١٥ مايو؟ فالإجابة عن هذا السؤال نجدها فى ثورة يوليو.

وفى تكوينى النفسى والسياسى. وكما قلت لا يمكن أن نبدأ هذه الثورة بسطر ونصف سطر فى الصحف عن إقالة على صبرى الذى كان على رأس مراكز القوى .. وإنما المسألة أخطر وأكثر جدية من ذلك.. والثورة مثل الأنهار الكبيرة. صحيح أن لها منبعاً واحداً.. ولكن منابع الأنهار، كمنابع الثورات عبارة عن أمطار غزيرة تنزل على جبال بعيدة.. وهذه الأمطار تتجمع فى نهيرات صغيرة.. ثم تتجمع النهيرات والجداول لتصب فى المجرى الكبير متجهة بكل حيوية وقوة وخصوبة إلى الوادى لتكون فيه حياة جديدة للناس.

هناك من يرى أن بداية الثورة فى نفسى، أو الثورة على شخصى قد بدأت عندما اختارنى جمال عبد الناصر النائب الوحيد لرئيس الجمهورية قبل سفره بلحظات إلى مؤتمر القمة فى الرباط سنة ١٩٦٩. يومها فوجئت بقرار جمال عبد الناصر. فقد قلت له: إننى اكتفى بلقب مستشار. ولكنه أصر وحلفت اليمين. ونشرت الصحف ذلك، وسافر جمال عبد الناصر.

يومها، قد أثار هذا الاختيار حقد الكثيرين.

ربما كانت هذه هى البداية النفسية، لعدد من المواقف المعادية لشخصى والمعادية للبلد كلها بعد ذلك.. والذين يهتمون بالتفسير «السيكولوجى» للتاريخ، سيجدون فى هذا الحدث بداية

لخيط جديد من تصارع الأشخاص أو العقول أو بداية لتفجير الحقد بين مراكز القوى وبينى.. أو على الأصح بين حقدهم علىَّ فلم أكن حاقداً على أحد. وأكره الحقد. ولا أزال أرفع شعار الحب بيننا كأفراد عائلة واحدة. وشعار العلم والإيمان كدولة، أى حب الله. وحب العلم .

وأنا لا أرفع الشعار فقط. وإنما أعمل به وأشجع عليه وأؤكده فى مناسبات كثيرة، لو ذكرتها الآن لأفسد المعنى النبيل الذى أقصده، لأنها سوف تكون نوعاً من المن، هذا ما أمقته تماماً..

هل تبدأ ثورة مايو بعد قيام ثورة يوليو مباشرة عندما اجتمعنا بعد نجاح الثورة. وجلسنا ننهى الجمعية التأسيسية لثورتنا، ونختار - مجلس الثورة. لأننا بعد نجاح الثورة اكتشفنا فجأة أننا القوة المسئولة عن مصير مصر.. فجأة ودون أن ننتبه لذلك، ودون أن تكون لنا تجارب فى الحكم وإدارة شئون الدولة..

اجتمعنا مساء ٢٧ يوليو ٥٢، أى بعد رحيل الملك بيوم واحد وأصر جمال عبد الناصر على أن تؤخذ الأصوات على شكل الحكم: هل يكون حكماً ديمقراطيا شعبياً أو دكتاتورياً فردياً؟ وكنا ثمانية .. أما التاسع خالد محيى الدين، فلم يكن حاضراً، فقد كان أعضاء الهيئة التأسيسية قبل قيام الثورة تسعة .. وكان غريبا أن يطالب جمال عبد الناصر بأخذ الأصوات. فهو يعلم مدى تقديرنا له واعزازنا لشخصه واعجابنا به .. فلم يكن هناك أى داع للتصويت على شىء.. فالذى يريده هو ما سوف نقره عليه .. وكان من الطبيعى لشبان مثلنا قد تجاوزوا الثلاثين بقليل، ومعجبين بكمال أتاتورك الذى أعجب به موسولينى وهتلر، أن نختارها دكتاتورية. طبيعى فنحن شبان. ثم إننا حريصون تماماً على أن يتم كل شىء بسرعة. فقد جربنا الأحزاب والبرلمانات والجلسات والخطب والبيانات. جربنا صناعة الكلام الذى غرقت فيه مصر.. إذن لا بد من أسلوب جديد.

هو: العمل. والعمل السريع والقرار الواحد.. لقد حقق هتلر فى ست سنوات ما لم تستطع أن تحققه ألمانيا فى عشرات السنين .. وكذلك فعل مصطفى كمال.. إذن يجب أن يكون الحكم دكتاتوريا فرديا سريعا.. وقلت: لا داعى لأخذ الأصوات .. فالموقف لا يحتاج إلى شىء من ذلك..

صدمة حياتى كلها!

وبكل حسن نية وبساط وحب عميق لجمال عبد الناصر، حاولت أن أتفادى التصويت وأخذ الآراء.. فلخصت ما قاله كل أعضاء مجلس قيادة الثورة .. لكى أنتهى إلى نتيجة واحدة هى:

لا داعـى لأخذ الأصوات. فنحن نعرف ماذا تريد.. وفى نفـس الوقت وجدناها فرصة لتأييد جمال عبد الناصر، وتأكيد زعامته.. وجمال عبد الناصر هو صديق عمر لعبد الحكيم عامر بل هو صديقــه الأوحد.. وهو أيضا صديقى. فالذى بينه وبينى احترام ومحبة وتقدير وفى نفس الوقت كنت حريصاً على ألا أدخل فى صراع معه أو مع أى أحد. منذ ذلك اليوم..

وفجأة .. وأقولها مرة أخرى: وفجأة وجدت جمال عبد الناصر فى حالة غضب. وسخط ومرارة لم أرها من قبل وفجأة وجدته يقول: يا أخى أنت تتكلم كما لو كنت رئيسا لمجلس الثورة!

هذه هى الصدمة الأولى فى حياتى ..

صدمنـــى جمال عبد الناصر. فقد كنت حســن النية.. ولم يفهــم. وكنت أريد أن أجنبه أن يكون «موضوعاً» للمناقشة.

أو يكون «رأيه» موضوعاً للخلاف والتصويت.. فقد أردت أن «أثبته».. أى أن أجعله حقيقة ثابتة ولكنه لم يفهم هنا لمعت فى رأســى معان كثيرة. وعرفت بالضبط من أنا ومن هو. ومن هم. وحمدت الله أن كان هذا الاكتشاف أو الانكشاف مبكرا..

وأخــذت الأصوات الســرية فكانت ســبعة أصوات: دكتاتورية وكان هــو صاحب الصوت الوحيد الذى يطالب الديمقراطية ودارت مناقشات بعد ذلك.. لا تختلف عن التى أثرتها قبل التصويت ومعناها: أننا يجب أن نكون دكتاتوريين وأنه ما كان ينبغى أن نختار الديمقراطية.. فهو يعلم جيدا ما الذى حدث فى مصر.

وغضب جمال عبد الناصر لأننا اختلفنا عنه .. أو للمناقشات التى دارت. وتركنا وأرسلنا من يصلحه. ويقول له: أفعل ما تشاء لا داعى لأن تغضب!

وهناك صدمة ثانية أعنف قد وضعت قدمى على الطريق الصحيح، وبمنتهى العنف، وليس من المناســب أن أذكرها الآن هذه الصدمة من الممكن أن تكون بداية للخيوط التى يتكون منها نسيجى النفسى باعتبارى شريكا فى ثورة يوليو إلى جانب مسئوليتى عن ثورة مايو ..

وقــد لا حظ بعــض المؤرخين الأوروبيين المعاصرين أننى لم أشــارك فـــى الحكم، بينما اشترك كل زملائى فى الوزارة. وذهبوا فى تفسير ذلك إلى بعيد جدا.

فمنذ ٥٦ حتى ٦٩ لم أشــترك فى الســلطة التنفيذية.. ولا شــأن لى بالوزارة .. بل إننى عملــت فى مجلس الأمة وكيلا بينما كان الرئيس عبد اللطيف بغدادى. وقد تســاءل كثيرون كيف قبلت ذلك ..

والحقيقة أن جمال عبد الناصر طلب منى ذلك وقال: إن المصلحة تقتضى الكثير. فوافقت.. ولم أجد ضيقا ولا مرارة فى أن أكون مرءوسا لزميل فى مجلس قيادة الثورة. ثم عملت رئيسا لمجلس الأمة مرتين: برلمان الوحدة مع سوريا وبرلمان ٦٤.

وقد اتفقت مع جمال عبد الناصر على أن أعتزل الحياة السياسية بعد ذلك. فأقيم فى قريتى ميت أبو الكوم. واقترحت على جمال عبد الناصر أن يزورنى فى نهاية كل أسبوع، لعله يستريح بعض الوقت، ولعلنا نتحدث فى شئون مصر.. بعيدا عن الضوضاء وعن الزحام.. وعن الحساسية التى بدأت منذ سنوات عندما أحس الكثيرون أننى عند بدء الثورة كنت معروفا شعبيا قبلهم جميعا..

وهنا تحضرنى عبارة للحكيم الصينى كونفوشيوس تقول: احترس من الشهوة فى شبابك، والمزاحمة فى رجولتك، والجشع فى شيخوختك..

هذه الحكمة مكتوبة فى كراستى التى احتفظت بها وخرجت بها من السجن..

ففى رجولتنا كثير من الزحام. والزحام يجعلك تضرب الناس وتدوس عليهم. والزحام يخلق المنافسة والمنافسة هى أخت الكراهية، والكراهية أم الحقد.. والحقد هو الأب الحقيقى لكل الحروب بين الناس وبين الشعوب..

وعندما اكتشفت ذاتى، أو عرفت الكثير من جوانب نفسى .. تراجعت إلى الوراء لكى أرى الصورة أمامى أوضح.. أو تراجعت، كما نفعل فى الريف، عندما يحاول الإنسان أن يقفز من فوق قناة .. يتراجع لكى يقفز أوسع وأرفع.. خطوة خطوتين إلى الوراء.. ثم تسلقت سلما ورحت أتأمل الناس من فوق ومن بعيدا ما هذا الزحام. بل ما هذه الشهوة على الزحام.. وما هذا الجشع على الأماكن والمناصب والسلطة..

لقد كنت صادقا مع نفسى ومع جمال عبد الناصر، عندما طلبت إليه أن أعتزل فى نهاية ١٩٦٩، وأن أذهب إلى قريتى.. إلى أرضى وأهلى وحياتى العادية.. وأجد نفسى هادئا مستريحا أتفرج دون مشاركة، إلا إذا طلب منى جمال عبد الناصر رأيا أو فكرا أو قرارا.. والله يعلم أننى كنت جادا.

ولكن يبدو أن جمال عبد الناصر لم يفهمنى، أو لم يدرك المعنى الذى أدركته قبل ذلك بسنوات يوم التصويت على شكل الحكم فى مصر.. ويبدو أن الآخرين أيضا لم يفهموا ذلك.. وكعادتى دائما.. فإننى طويت نفسى على ما فى نفسى، وانتظرت .. ولم يكن انتظارى سلبيا،

وإنمـا كان ما يملؤنى هو أن حلم طفولتى قد تحقق بقيام الثورة. وكنت سـعيدا أكثر بأن على رأسها صديقا أتبادل معه التقدير والصداقة ..

وهنـاك بعض المؤرخين يرون أن ثورة مايـو قد بدأت فى عيد العمال فى أول مايو عندما أضفت عبـارة لجمال عبد الناصر لم تكن فى الخطبة المطبوعة التى قرأتها مراكز القوى قبل أن القيها على العمال.. وكانت هذه العبارة مفاجأة لهم أدت إلى صراع عنيف بينهم..

هـل هذه العبارة هى بداية ثورة ١٥ مايو؟.. فقد قلت فى العبارة التى كتبتها: إن جمال عبد الناصر قال وأنا من ورائه أردد: إن الشـعب هو المعلم وهو القائد وهو الخالد أبدا، وإن الشـعب هو صاحب هذا البلد، وهو الذى سـيخوض مع قواته المسـلحة معركة الحياة بكل مسئولياتها، وما تفرضه من تضحيات.

إذن فليس من حق أى فرد أو جماعة مهما كان هذا الفرد أو تلك الجماعة أن تزعم لنفسها قدرة منفصلة عن قدرة هذا الشـعب أو أن تدعى لنفسـها موقعا تسـتطيع أن تفرض من خلاله رأيها على جموع الشعب أو أن تنشر شعارات أو مناورات تحاول أن تشكل من خلالها مراكز قوة تفرض منها وصايتها على الشـعب بعد أن أسـقط هذا الشعب مع جمال عبد الناصر، كل مراكز القوى ليبقى الشعب وحده سيد مصيره..

ربما كانت هذه بداية .. ولكنها ليسـت إلا إحدى البدايـات.. وإنما هناك خيوط وروافد تبدأ منها ثورة مايو..

ويكفى أن أذهب إلى أبعد من ذلك بكثير.. أبدأ وعلى مسـئوليتى أنا فى التفسير والتقدير إلى يوم وفاة جمال عبد الناصر .. والأيام التالية.

جمال عبد الناصر مات يوم الاثنين ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ فقد كان ذلك اليوم رهيبا. وقد اهتزت مصر والأمة العربية. وكان الموقف عصيبا.

وكانت الجنازة يوم أول أكتوبر مهيبة.. وقد أعطيت خمس حقن فى مجلس قيادة الثورة حيث بدأت الجنازة عندما سقطت من الإعياء، ولم استطع الاشتراك فى الجنازة، وعندما أفقت سألت إن كان جثمان عبد الناصر قد دفن. فقيل إنه دفن. فحمدت الله. فقد كنت أخشى أن يفلت الموقف من أيدينا فتندفع موجات الجماهير بنعش جمال عبد الناصر. وقد حدث شىء من ذلك..

دفـن عبد الناصر يوم الخميس أول أكتوبر سـنة ١٩٧٠.. وقررت دعوة اللجنة التنفيذية العليا يوم السبت ٣ أكتوبر. وفى يوم الجمعة ٢ أكتوبر جاءنى شعراوى جمعة وسامى شرف

ليقولا: إن أحد أعضاء اللجنة سوف يثير مشكلة. وهذه المشكلة سوف تؤدى إلى انقسام. وهذا الانقسام سوف يشعل البلد عن الظروف الصعبة التى تمر بها.

سألت: ما الذى سوف يثيره؟

قالا: إنه سوف يقول إنه لا داعى للاستعجال فى اختيار رئيس للجمهورية الآن.. وهل المقصود هو أن تختار اللجنة واحدا بالذات.. كان هذا العضو هو العضو الوحيد المتبقى من أعضاء مجلس قيادة الثورة.. وفى تقديرى أنهم هم الذين دفعوه لأن يقول ذلك.. لأنهم لا يستطيعون أن يرشحوا على صبرى .. وفى نفس الوقت لا يستطيعون أن يقولوا: إنهم لا يريدوننى..

وقد عرفت متأخرا جدا، أنه على رغم الكلام اللطيف الرقيق الذى قاله كوسيجن أثناء جنازة جمال عبد الناصر، فإن السوفيت قد خططوا من اللحظة الأولى أنهم لا يريدوننى.

أما تفصيل ذلك فليس الآن موعد إذاعته.. فى الأيام الأولى بعد وفاة جمال عبد الناصر وقبل تشييعه، خطر لى أن أبقى رئيسا للجمهورية بالنيابة حتى تنتهى فترة ولاية جمال عبد الناصر فى سنة ١٩٧١.

كان فى ذلك تكريما منى لجمال عبد الناصر، وتفاديا لأية مشكلة عاجلة .. وقد كنت حزينا على وفاة جمال عبد الناصر على رغم أننى قد توقعت هذه النهاية.. ولكن هذا التوقع لم يخفف من هول الحادث.. فعلى ما يبدو كانت، وبالذات مراكز القوى رقم ٢ وهى الثلاثى على صبرى وسامى شرف وشعراوى جمعة، يعرفون من الطبيب الروسى الذى جاء لعلاج جمال عبد الناصر أنه لن يعيش أكثر من عام. وهذا ما حدث فعلا وهذا هو الذى دفع مراكز القوى إلى الهجوم على جمال عبد الناصر على كل المستويات والدعوة والتمهيد للخلاص منه وقبل تشييع الجنازة تحدثت مع الرئيس هوارى بومدين فى هذه المسألة. فلم يوافقنى بومدين. ورأى فى الانتظار البلبلة وأن أية بلبلة فى مصر سوف تهز العالم العربى كله. فمصر قلب العالم العربى . وهذه البلبلة هى «لغط» لقلب الأمة العربية كلها.. ولذلك فإنه لا يوافقنى على رئاسة الجمهورية. وكان هذا الحديث يجرى بينى وبين بومدين فى قصر القبة قبل تشييع جنازة عبد الناصر، وبعد أن مضى يومان على الحديث، وقبل تشييع عبد الناصر، وبعدما رأيته من مناورات خارجية وداخلية، إلى أن طلبت من شعراوى جمعة باعتباره أمينا للتنظيم أن يدعو اللجنة التنفيذية العليا لتسمية من تراه رئيسا للجمهورية يوم السبت ٣ أكتوبر.. أى بعد يومين من تشييع عبد الناصر يوم أول أكتوبر. وبعد ذلك تنزل التسمية

يوم الاثنين ٥ أكتوبر إلى اللجنة المركزية.. وفي يوم الخميس التالي مباشرة يجتمع مجلس الشعب ليعرض عليه اسم رئيس الجمهورية.. أو أية أسماء أخرى.. وقد أدى هذا القرار إلى ارتباك مراكز القوى.. أول مراكز القوى هذه هو الصحفي محمد حسنين هيكل، وكان الأول أيام جمال عبد الناصر.. ولكنه أصبح الثاني في عهدي. أما مركز القوة الثاني في أيام جمال عبد الناصر، والأول في عهدي، فهو شعراوي جمعة وسامي شرف وعلي صبري..

وكلما تصورت أن هؤلاء من مراكز القوى هم الذين يطمعون في حكم مصر، أشفقت على مصر العزيزة الغالية.. هل صحيح إنها محكوم عليها أن يتحكم فيها الأغوات فقد حدث أن مات السلطان أيام الفاطميين فجأة فالتقى الأغوات واتفقوا على حكم مصر حكما جماعيا، وكان هذا الحكم الجماعي هو أعظم إهانة وجهت إلى مصر في كل العصور.. وسوف تكون هذه الإهانة الثانية. لو حكمها هؤلاء التافهون، أو الذين وصفهم ممدوح سالم يوم طلبت إليه أن يكون وزيرا للداخلية بأنهم ورق وقش!

وحاول شعراوي جمعة وسامي شرف أن يثنياني عن انعقاد اللجنة التنفيذية العليا. فرفضت. فطلب الاثنان مني: إن كان لدي مانع أن يخرج معي في طريقي وفي سيارتي إلى مبنى الاتحاد الاشتراكي، حيث تعقد اللجنة التنفيذية العليا، عضو مجلس الثورة السابق الباقي وعلي صبري اللذان ظلا يقيمان معي في قصر القبة من ليلة ٢٨- ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٧٠، وهي ليلة وفاة جمال عبد الناصر إلى يوم تشييع جنازته الخميس أول أكتوبر.

قلت: لا مانع..

وفي طريقنا من مصر الجديدة إلى مبنى الاتحاد الاشتراكي سألت عضو مجلس الثورة الباقي، وقد كان معي في السيارة هو وعلي صبري، عن وجهة نظره هذه، فأعاد ما سمعته من سامي وشعراوي من أنه لا داعي للاستعجال في تسمية أو انتخاب رئيس الجمهورية، فإن هذا الاستعجال يدل على أننا نريد اختيار شخص بالذات.

قلت: لا مانع من أن أسمع رأيك في اللجنة التنفيذية العليا. وأنا أحب المواجهة. وأن يكون كل شيء واضحا.

وللتاريخ أقول: إن ما قاله بومدين كان له أثر عميق في نفسي. وقد نبهني إلى أشياء كثيرة.. وهناك سبب آخر لم يكن في حسابي فقبل انعقاد اللجنة التنفيذية العليا بيومين جاءني من القوات المسلحة أننا في حاجة سريعة إلى قائد أعلى يكون مسئولا عن إعطاء الأوامر من أجل متابعة المعركة، فلابد من هذا القائد فورا وبسرعة..

وأنـا باعتبـارى نائـب رئيـس الجمهوريـة، لسـت قائـدا. لأن القائـد هـو رئيـس الجمهورية المنتخب. وفى اجتماع اللجنة التنفيذية العليا حدث ما توقعته فقد طلب الكلمة العضـو الباقى من مجلس قيادة الثورة. وكرر ما سـبق أن قاله من أنه لا داعى للاسـتعجال. فالاسـتعجال معناه أننا نريد أن نضع شخصا بالذات. ونفرض أن الجماهير رفضته. ألا يكون ذلك رفضا لثورة يوليو نفسها وقد يكون هناك تجريح على هذا الشخص؟!.

وطبعا كان يقصدنى.

وطلـب د. محمود فوزى الكلمة وقال: إن جنـازة جمال عبد الناصر التى كانت أول أمس تؤكد خروج خمسة ملايين من الشعب ليس لجمال عبد الناصر وحده وإنما لثورة يوليو أيضا.. فإذا نحن سمينا شخصا ورفضته الجماهير فهى قد رفضت الشخص ولم ترفض الثورة!

وتكلمت أنا قائلا: أنا جمعتكم هنا فى اللجنة العليا لكى تسموا واحدا حسب النظام الذى نسـير عليه ولم أقصد أن تسـمونى أنا بالذات. وأحب أن أؤكد لكم الآن. إننى لن أترك قيادة مصر. لن أترك قيادة مصر إلا لشـخص اختاره الشـعب. وإذا فرض أنكم سميتمونى ورفضنى الشعب، فعندى من الشـجاعة ما يجعلنى أجمعكم هنا مرة أخرى ونسمى شخصا آخر.. إلى أن يوافق الشـعب، وكررت أننى لن أترك مكانى إلا لرئيس منتخب من الشعب. فهذه أمانة. وأنا أقدس الأمانة.

ولـم يرد أحد على ما قلت. وهنا رفع عبد المحسـن أبو النور يده قائلا: أنا أرشـح أنور السادات.. ونسميه رئيسا للجمهورية..

قلت: إن عبد المحسن أبو النور يرشحنى..

فوافقوا على ذلك بالإجماع!

وليس من الصعب على من يتابع سير هذه الأحداث وسرعة تلاحقها أن يعرف أى نوع من الناس هؤلاء. وكيف يفكرون وكيف يسهل ايقاعهم وتخبطهم. وكيف إنهم ليسوا صفا واحدا ولا قلبا واحدا .. وإنهم يتربصون بعضهم ببعض.. وكل واحد منهم يراقب الآخر ويسجل له مكالماته التليفونية.. وتشـاء إرادة الله أن تكون هذه التسجيلات سندا لى فى اتخاذ قراراتى الحاسمة بعد ذلك .. لقد أرادوا شيئا، وأراد الله شيئا آخر .. فالحمد الله على ذلك.

ويمكـن أن تكـون بداية الصراع المكشـوف بينى وبينهم بعد يـوم الأربعين لوفاة جمال عبد الناصـر. وأقول من الممكن أن تكـون بداية. فان لم تكن البداية الحقيقية فهى تصلح أن تكون إحدى البدايات للصراع المفتوح المفضوح بين مركزى القوة الأول والثانى.

بداية الصراع..

فقد صدر مقال فى ذكرى الأربعين لجمال عبد الناصر فى جريدة الأهرام بعنوان «جمال عبد الناصر ليس اسطورة» وقد اعتبره لبيب شقير - ممثلا لمركز القوة الثانى - عضو اللجنة التنفيذية العليا نوعا من الخيانة العظمى وقد ترافع لبيب شقير بمنتهى الفصاحة والبلاغة. وكان الغرض واضحا أمامى أن مركز القوة الثانى: شعراوى جمعة وسامى شرف وعلى صبرى يريدون التخلص من مركز القوة الأول محمد حسنين هيكل. وإن هذه هى الفرصة المواتية. وقد أجمعوا آراءهم على ذلك فإذا ما اتخذ قرار ضده فى اللجنة المركزية تكون الأغلبية له وبذلك ينتهى مركز القوة الأول الذى لم يستطيعوا التغلب عليه فى حياة عبد الناصر.

هذا هو الهدف الأول. هناك هدف أهم من ذلك. أنهم يريدون أن ينتهزوا هذه الفرصة ليؤكدوا لى أنهم مصدر السلطة فى صدور القرارات، لأن لهم الأغلبية، وعلى ذلك فإذا أردت أن أتخذ قرارا فلا بد أن أرجع إليهم. أى لا رأى لى ولا قرار. الرأى والقرار لهم وحدهم.. أما أنا - أى رئيس الدولة - فلست إلا صوتا ضمن أصوات أخرى..

وانتهزتها فرصة لكى أؤكد أسلوبى فى الحكم أو فى التفاهم مع الآخرين: المواجهة .. أى لا بد أن يتواجه هؤلاء جميعا مع ذلك الصحفى الذى أدانوه .. ولا بد أن يدافع عن نفسه. أى لا حكم بلا محاكم. ولا قرار بلا مواجهة. ولا اتهام بلا مبرر. والإنسان برىء إلى أن تثبت إدانته.. وليس مدينا حتى تثبت براءته..

وفتحت باب المناقشة لكى أعرف الحاضرين أكثر.. وأذكر أنى قرأت أن الفيلسوف سقراط هو الذى كان يقول لتلامذته عندما وجد واحدا لا يتكلم فقال: تكلم حتى أراك..

فطلبت إليهم أن يتكلموا لكى أراهم أوضح .

فقد لاحظت أن هناك ترتيبا أو اتفاقا بين الجميع .. ولكن لا أعرف مضمون هذا الاتفاق أو تفاصيله.. وأجمع الحاضرون على الهجوم على صاحب المقال: المعتدلون هاجموه وأدانوه وطلبوا ألا تذاع أسرار هذه الجلسة والمتطرفون أيضا وهذا أمر طبيعى. إلا الدكتور محمود فوزى فقد كان معتدلا.. وكان الغرض أن يتخلص مركز القوة رقم واحد من مركز القوة رقم ٢ بعد أن استمر فى السلطة وفى الحكم الفعلى طويلا .. وانتصر عليهم فى أكثر من معركة أيام عبد الناصر بل إنهم اعدوا محاميا شابا ليكون رئيس تحرير الأهرام، بدلا منه..

أما د. محمود فوزى اتخذ موقفا وسطاً وتكلمت أنا فقلت: أحب أن أقول للجنة العليا إننى لا أحكم على أحد قبل مواجهته.. أى لا بد أن نواجهه لكى يتمكن من الدفاع عن نفسه.

ورفعت الجلسة. وأدى ذلك إلى ارتباك مركز القوة هذا. فلم يكن فى الحساب ألا يتخذ قرار. أو على الأصح ألا يفرضوا قرارهم على ..

وفى الجلسة التالية فوجئ أعضاء اللجنة العليا، وأنا أضغط على زر الجرس وأطلب رئيس تحرير الأهرام. فقد أبلغ بضرورة الحضور إلى اللجنة. ولذلك كان موجوداً فى مبنى الاتحاد الاشتراكى. وأدخلوه. وجلس على الطرف الآخر من التربيزة.. كنت على رأسها والأعضاء على الجانبين فجلس فى مواجهتى. وتكلمت وقلت: يا دكتور لبيب شقير أعد ما سبق أن قلته فى الجلسة الماضية عن المقال الذى نشر فى الأهرام.

أما الذى حدث فهو أن لبيب شقير لم يعرف ماذا يقول. راحت الفصاحة والبيان. وقد حاول أول الأمر أن يوجه أسئلته إلى كاتب المقال، فرفضت هذه الصورة وقلت: ليس المطلوب هو أن تناقشه.. وإنما أن تعيد على مسامعه ما قلته للجنة .. أما الأسئلة فسوف تتولى اللجنة العليا توجيهها إليه..

وقال كلاماً مفككاً ولم ترد فيه كلمة «الخيانة» .. وطلبت إلى كاتب المقال أن يدافع عن نفسه.. فأخرج المقال من جيبه وراح يناقش فقراته طويلا.. وانتهى بأن قال: إنه كان أقرب واحد إلى جمال عبد الناصر.. وطلبت إليه أن يخرج بعد أن دافع عن نفسه. ونزل إلى مكتب سامى شرف فى الدور الأسفل ليسمع بقية المناقشة وقد كانت الجلسة مسجلة. ولم أفهم كيف سمح له سامى شرف أن يتابع بقية المناقشة.

وقلت لأعضاء اللجنة العليا: لقد سمعنا رأى رئيس التحرير ورأى لبيب شقير أحب أن أسمع آراءكم.

فلم يعلق أحد بشىء..

وكان واضحا أن مركز القوة الأول خسر معركته مع مركز القوة الثانى.

وقد علمت بعد ذلك كيف عنف ضياء داود صديقه لبيب شقير.. وأنا أرى أنه ليس من الواجب أن نندفع إلى اتهام أحد بالخيانة دون بينة، أو دون محاكمة.. حتى لا يتشكك الشعب فى آرائنا أو فى الوزن الحقيقى لهذه الهيئة رفيعة الشأن..

وقبل أن أنهى المناقشة كررت عليهم ما سبق أن قلته. أسلوبى هو المواجهة. أسلوبى هو المصارحة. لا تقارير سرية. لا اتهامات بلا أدلة. لا إدانة بلا محاكمة.

وكانوا فى غاية الغيظ.. لقد تكرر فشلهم مرة بعد مرة.

الصراع الثانى

وهناك معركة أخرى مكشوفة خسرتها مراكز القوى. وكانت هذه المعركة صراعا مفضوحا هزيلاً وكان ذلك بسبب الوحدة مع ليبيا وسوريا والسودان عرضت الاتفاق الذى تم فى بنغازى على اللجنة التنفيذية العليا. فرفضته بخمسة ضد ٣ أصوات. وظنوا أن هذا قرار نهائى. ولكن قلت لهم إن القرار النهائى للجنة المركزية. ولم يكن هذا فى الحساب أيضا. وأنهم لن يتعلموا. فهم ليسوا سياسيين فالسياسى هو الذى يضع حسابات. وأهم مبادئ الحساب السياسى أن تكون هناك احتمالات.. أو تكون هناك بدائل.. ولكن الرجل الذى لا يرى إلا طريقاً واحداً لحل مشكلة واحدة هو رجل قصير النظر أو قليل الحيلة. وقد تأكد لى تماماً أنهم جميعاً كذلك.

وطلبت إلى شعراوى جمعة أمين التنظيم بعد هذا القرار، أن تنعقد اللجنة المركزية. وجاءتنى المعلومات من الأقاليم تقول: إن التعليمات لديهم بأن يعارضوا وأن يرفضوا.

واجتمعنا وبدأ على صبرى الكلام. وكما وعدهم فى التسجيلات، التى سجلوها على أنفسهم بأصواتهم، بأن يكون قليل الأدب فى حديثه معى وسوف تؤدى قلة الأدب وقلة الحياء إلى أن أفقد أعصابى. فإذا فقدتها تكاثروا هم وتغلبوا على الموقف. فأخسر هذه المعركة. وكان من رأى على صبرى أنه سوف يبدأ بإخراجى عن هدوئى. وعليهم أن يكملوا الخطة.. وبعد أن تكلم على صبرى فى اللجنة المركزية تبعه ضياء الدين داود فكان أكثر وقاحة. (ضياء داود حر وهو يعمل فى المحاماة آمن على يومه وغده وحياته ورزقه مع معاش استثنائى قرر لعائلته أثناء سجنه.، وباق إلى اليوم) ..

ولاحظت أن خمسة فقط من أعضاء اللجنة المركزية، وعددهم ٢٢٠ يمسحون الأرض بأقدامهم، كما يفعل تلامذة المدارس عندما يدق جرس نهاية الحصة والمدرس ما يزال ماضيا فى الشرح.. أو كما يفعل جمهور كرة القدم يتعجلون الحكم أن يطلق صفارته وإنهاء المباراة..

هؤلاء الذين يدبدبون بأقدامهم كانوا خمسة من ٢٢٠ عضواً..

انتهت هذه المعركة أيضاً بالتسليم بما أردت. وحاول شعراوى جمعة أن يصلح ما بينى وبين على صبرى. ولكن لم أقبل أن يكون هذا هو الأسلوب فى الخلاف. فأنا أقبل الخلاف فى الرأى، وأرفض الصراع، مثل هذا النوع من الصراع..

وإذا حاولنا أن ننظر إلى هذا الذى جرى فسوف نجد أنها عدة معارك كل واحدة من الممكن أن تكون بداية: معركة بعد دفن جمال عبد الناصر بيوم واحد.. ومعركة ثانية بعد وفاته بأربعين يوماً ومعركة على الوحدة فى أبريل سنة ١٩٧٢.

ومن الممكن أن تكون كلها معركة واحدة على من الذى يستطيع أن يتخذ القرار.. هل هو رئيس الجمهورية أو هو مراكز القوى المزقة المتطاحنة والمتهالكة أيضاً.

وانتهت المعركة بتأكيد فشلهم جميعاً..

فإذا قلت إنها جميعاً معارك واحدة.. أو معركة واحدة متعددة المواقع، فمن المؤكد أن ثورة مايو قد تأكدت قواعدها الثورية التصحيحية ابتداء من شهر مايو نفسه.. وإن كنت أرى أن يوم ١٣ مايو هو اليوم الكبير حقاً بما فيه من قرارات كان لها أعظم الأثر فى نفوس الناس.. أما يوم ١٥ مايو فهو يوم فرحة الشعب صاحب المصلحة الحقة فى تعديل مسار الثورة الأم، والثورة عليها، من أجل المزيد من الأمن والأمان، والحريات والعدل، وقيام المؤسسات الدستورية والدستور الدائم لأول مرة، وانتصارات أكتوبر، وقيام الأحزاب والتطلع بثقة إلى غد مشرق وسلام قائم على العدل فى المنطقة كلها..

أول مايو ١٩٧١

هذا اليوم قد بدأ يوم ٣٠ أبريل. وكان يوماً طويلاً. فقد أعطيت فكرة الخطبة التى سوف ألقيها لمحمد حسنين هيكل، كما كان يفعل جمال عبد الناصر..

وكما يفعل كل رؤساء الدول فى العالم. فكل واحد له كاتب لخطبه. وهذا الكاتب معروف. وقد قابلت فورد ومعه كاتب خطبه. فالحاكم ليس عنده وقت كاف لكى يكتب الخطبة فى أسبوع أو أسبوعين فعنده من المشاكل الكثير. ولذلك. فقد جرى العرف الدولى، على أن يستعين الحاكم بالخبراء فى السياسة والقانون والاقتصاد والكتابة، يعطيهم أفكاره ويتركهم بعد ذلك يصوغون فكره وأسلوبه فى العمل..

وجاءت الكلمة التى سوف ألقيها..

أرسلت الكلمة إلى سامى شرف، وزير الدولة لشئون رياسة الجمهورية، لكى تكتب على الآلة الكاتبة.

بعد أن راجعتها. ومادامت قد أرسلت إليه فقد عرفها وقرأها بقية مراكز القوى..

وطلبت من محمد حسنين هيكل باعتباره مركز قوة أن يضيف هذه العبارة الخاصة بمقاومة مراكز القوى. فرفض وقال: أنا لا أستطيع. اكتبها سيادتك.

ولذلك فقد ظللت ساهراً حتى الساعة الواحدة من صباح أول مايو سنة ١٩٧٢، اكتب هذه الكلمة..

وذهبت إلى حلوان ألقى كلمتى. ووجدت أن مركز القوة رقم واحد قد أعد العدة لإفشال الاجتماع، وأنه قد أعد فى مواجهة المقصورة مجموعات تحمل صور عبد الناصر اعتقادا منهم أن ذلك يضايقنى. ولم يضايقنى ذلك فعندما ذهبت إلى السودان استقبلونى بصور جمال عبد الناصر. ولم أجد فى ذلك ما يضايقنى وإنما هى تحية لمصر وثورة مصر..

وفى حلوان أيضا، وفى هذا الاجتماع رفض مذيع أن يقدمنى لجماهير العمال. هذا المذيع سافر إلى ليبيا، وطلب أن يعود إلى مصر، فسمحت له بعودته إلى وطنه مصر. وفوجىء رجال البروتوكول بمجىء على صبرى. وهم يعلمون ما جرى منه فى اللجنة المركزية، ولم يعرفوا أين يضعونه.. وألقيت كلمتى. وصفق الناس طرباً. ثم قرأت الكلمة التى كتبتها بخط يدى، ولم يكن مركز القوة يعلم عنها شيئا. وكانت مفاجأة لمركز القوة الأول لأننى أعلنت أنه لا وصاية لأحد أو لمجموعة من الناس على هذا البلد. وذهب شعراوى جمعة وسامى شرف مركز القوة الأول إلى محمد حسنين هيكل مركز القوة الثانى الذى يريدون القضاء عليه. وسألاه: كيف كتبت هذه العبارة.

فأعلن: أنه لم يكتب ذلك وإنما الخطبة التى كتبها هى التى أرسلها لهم..

وهو فعلاً لم يكتب هذه العبارة. وإنما قال لى: اكتبها أنت بيدك. فأنت كاتب وتعرف فى صناعة الكلام..

ومن المؤكد أنهما لم يصدقاه. وقد أضاف عدم التصديق هذا إليهما مزيداً من الغيظ والتربص تمهيداً للانقضاض عليه. وأنا الذى خلعته من مراكز القوى الأخرى.

اتصلت بمحمد حسنين هيكل أقول له: يا أخى أرهقتنى. فبدلاً من أن تكتب أنت هذه العبارة جعلتنى ساهراً أكتبها وأعيد كتابتها حتى الصباح.. ولم أعرف إلا منه بعد ذلك بشهر أن شعراوى جمعة وسامى شرف قد ذهبا إليه معلنين براءته من تهمة كتابة هذه الفقرة.. فقد كانوا يسجلون عليه مكالماته كما كانوا يسجلون علىَّ أنا أيضاً.

وقد أخذته وقلت له: يا أخى لماذا لم تخبرنى بأنهما جاءا إليك مساء يوم أول مايو.. لو فعلت لجعلتنى أتخذ قراراً آخر.

قال: لم أكن أعرف أين مركز القوة!

ولكنه كان خائفا. فعلا فقد أفزعوه فى ذلك اليوم وقالوا له: إن لديهم تسجيلات لكل إنسان فى مصر. وإن لديهم من التسجيلات ما يجعل أى إنسان يحنى رأسه خجلاً، ويهرب خوفاً. وبالفعل كان يخاف منهم حتى عندما كانوا فى السجن.

وفى اليوم التالى لخطبة أول مايو ١٩٧١ طلبت سامى شرف فى التليفون وقلت له:

يا سامى.

– أفندم.

حضر لى قرارا بإعفاء على صبرى من جميع مناصبه على أن تبلغ به الصحف، وينشر فى سطر ونصف فقط فى الصفحة الأولى من كل الصحف.

– حاضر يا أفندم.

روى لى أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة.. أنه كان ساهراً فى منزل أحد أصدقائه وفى الساعة الثانية عشرة دخل علينا واحد ومعه جريدة الجمهورية وكانت تصدر مبكراً وكان منشوراً فى صفحتها الأولى هذا الخبر.. وكان هذا الخبر مفاجأة لهم، وظلوا جالسين يعلقون ويفكرون فى الخطوة التالية لى ولمراكز القوى. وقد تولاهم الفزع..

فقد انخدع الناس فيه. فالناس قد ظنوه قوة كبرى، وأنه أخطبوط له أطراف، وهذه الأطراف قد أمسكت مصر كلها من أولها لآخرها.. ولذلك فإن أحداً لا يستطيع أن يزحزحه من مكانه..

وقد جرت العادة أن الرئيس جمال عبد الناصر، أو أنا، عندما نتخذ قراراً فإنه يعلن أولاً. وبعد ذلك يعرض علينا لنوقعه.. إلا فى هذا القرار. فلما اتصلت بسامى شرف أبلغه بنشر هذا القرار.. فقد فوجئت به وقد حمل إلى القرار فى يده وفى منزله لكى أوقعه. فأدهشنى ذلك. ووجدت منه نوعاً من السذاجة والبلاهة.. فقد ظن هؤلاء السذج أن هذا يخيفنى. وأن التوقيع على القرار مستند ضدى..

ووقعت قرار إعفاء على صبرى من منصبه كمساعد لرئيس الجمهورية لشئون الطيران.. وهو منصب اخترعه له جمال عبد الناصر.. أما منصبه كعضو فى اللجنة التنفيذية العليا فقد أخرجه منه جمال عبد الناصر بعد فضيحة السجاجيد والشنط التى أتى بها من موسكو.. أما عضويته للجنة المركزية فهذا من شأن اللجنة نفسها.. وكانت فرحة الشعب عظيمة

جـداً لإخـراج على صبرى. فقد اسـتطاع على صـبرى أن يجعل كل مواطن فـى مصر يكرهه ويمقته ويحتقره عندما نشر سلسلة يومية من المقالات ملأت قلوب الناس بالحقد بعضهم على بعض، وملأت قلوبهم أيضاً بالاحتقار له.. فلما سـقط، كان لسـقوطه ارتياح عظيم.. وكانت هذه الفرصة أصدق اسـتفتاء شـعبى فورى على صحة هذا القرار. وكنت أعلم بحسى السياسى وحاسـتى السادسـة أن على صبرى هذا لا شـىء، لا قمة له ولا قاعدة.. وجاءت الأيام تؤكد صدق فراستى..

١١ مايو

لقد تحدد هذا اليوم للقاء الجيوش على جبهة قناة السويس..

وقابلت القوات وجلست إليها، وتحدثت..

نصف الليل ١١ مايو

كنت في البيت. جاءنى من يقول لى أن ضابط بوليس يريد مقابلتك فوراً لأمر هام.

لأن لديه معلومات خطيرة ولابد أن أعرفها..

قبل ذلك وابتداء من إعلان إقالة على صبرى تجىء لى خطابات عليها توقيعات من أصحابها ينقلون فيها تعليمات الاتحاد الاشـتراكى ضد رئيس الجمهورية. فقد نشط الجهاز الطليعى التابع لشـعراوى جمعة.. وكنت أكتب على هذه الخطابات: ترسل إلى شعراوى أمين التنظيم وإلى عبد المحسـن أبو النور أمين الاتحاد الاشـتراكى: للتحقيق والإفادة.. والناس حولى فى ذهـول مـن موقفى هذا. والذى لم يعرفه الذين حولى هـو أننـى حريص على أن يعتقـد مركز القـوة الـذى أصبح الأول وزعيمه شـعراوى جمعة أننى لا أعرف وأننى حسـن النية. وأننى كما يتصورون، رجل سـاذج غائب عن حقيقة ما يجرى حـولى.. ولم يكن يعرف هؤلاء أيضا أننـى أعطيت تعليمات إلى مكتبى بأن يتصلوا بـكل واحد من أصحاب هذه الخطابات ويقولوا له: لا تخف.. وإذا أصابك شيء فأبلغنا!

وكان الغرض من ذلك أن أعرف من الذى سـوف يعاقب هؤلاء، لكى أعرف بداية الخط.. وبدايـة مراكـز القوى. ومدى سـرعة الفعل ورد الفعل عندهم. ولم يحـدث أن عاقبوا أحدا، وهذا مالم أكن أتوقعه.. ولكن اسـتنتجت فيما بعد، أنهم ليسوا على هذه الدرجة من التنظيم والتماسك والمتابعة.. أما ضابط البوليس هذا فيعمل فى جهاز الرقابة فى وزارة الداخلية. وقد

جاءنى عن طريق أحد أزواج إخواتى البنات. ومعه شـريط مسـجل يريدنى أن أسمعه. وفجأة اكتشـفت أنه لا يوجد فى بيتى جهاز تسـجيل. فأرسلت إلى بيت أحد أقربائى. وجاء جهاز التسـجيل. وضعت الشريط. وحتى هذه اللحظة لم أكن قد رأيت هذا الضابط. لقد كان الشريط تسجيلاً من شعراوى جمعة وزير الداخلية لأعضاء اللجنة المركزية. وفى هذا التسجيل حوار بين اثنين.. أحدهما محكوم عليه بالسجن ٢٥ سنة مؤبد فى قضية مراكز القوى هو فريد عبد الكريم أمين الجيزة والآخر هو محمود السعدنى صحفى من روز اليوسف. وفى هذا التسجيل يحكى فريد عبد الكريم عضو اللجنة المركزية عن جلسـة اللجنة المركزية التى كانت صراعا مكشوفا مع مراكز القوى، انتصرت فيه. وفى التسجيل أيضا وصف للطريقة التى تحدث بها على صبرى وكيف إنه كان رائعاً.

ومن تسجيلاتهم أيضا لعلى صبرى تحس أن على صبرى أيضا كان يعتقد أننى إنسان ساذج لا عندى فكرة ولا لدى قدرة على النظر إلى الأمور ولا على حساب أى شىء من حولى.. كأننى غائب عن الدنيا. وقد أخطأ فى ذلك، هو وكثيرون ولا يزالون.

وكان يقول لهم: لا تخافوا منه.. إنه لن يستطيع عمل أى شىء.. ولكى يحمسهم ويثيرهم: أسرعوا حتى لا يصفيكم واحدا واحدا.

وكان شعراوى يقول: سيادتك طول بالك..

وسامى شرف يقول: عندنا تكتيك..

ولكن شيئا فى الحديث قد استوقفنى وأثارنى. ومددت يدى أوقف التسجيل.

لقد سمعت الصحفى يقول: هه.. وعملتم حساب الإذاعة.

قال له: لا.. كانت محاصرة لكيلا يتحدث السادات للشعب.

وأوقفت التسـجيل ونظرت إلى سكرتيرى الذى نظر إلى زوجتى. وكأنهما يريدان أن يقولا شيئا.. ثم أمسكا عنه..

إن حصار الإذاعة معناه: انقلاب. فماذا جرى؟ ..

لقـد كنت أنتظر المعركة.. أن تنفتـح المعركة وأدخلها.. وأنا فى مثل هذه المواقف: عندما أقـرر دخول معركة فإننى أدخلها إما غالبا وإما مغلوبا.. ولابد أن أذهب فيها إلى نهايتها.. لا شـىء يخيفنى. ولا شـىء يشـد أزرى وينفخ فى صورتى، ويملؤنى حيويـة مثل مواقف التحدى. جربت هذا فى شـبابى وعرفت أشـكالا وألوانا من العذاب والصبر عليها. ولا أزال قادراً على ذلك.. حتى الموت!

إذن أنا كنت أنتظر المعركة. لقد جاءت المعركة إلى بيتى فى نصف الليل.. مسجلة واضحة تماما. فما الذى أنتظره الآن..

سألت سكرتيرى استوضحه بعد أن أوقفت التسجيل عن (حصار الإذاعة) والحركات التى صدرت منه.

فقال لى: يا أفندم السيد حسنين هيكل جاءنى هنا يوم اجتماع اللجنة المركزية وقال لى: إن محرراً من الأهرام كان موجودا فى مبنى الاتحاد الاشتراكى فى مكتب معين. وسمع أن الإذاعة محاصرة فذهب إليها على قدميه.. ثم هرول إلى الأهرام وروى لهيكل ذلك فنزل بسيارته ورأى المنظر بنفسه وجاء بسرعة وطلب منى أن أنقل إليك ذلك وطلبت إليه أن ينقل إليك ذلك بنفسه.. فرفض. وقلت له: لا أستطيع.

وسألته: ولماذا لم تقل ذلك فى نفس اللحظة؟

قال: يا أفندم إن جميع الشكاوى التى تجىء إلينا من الشعب بتعليمات الاتحاد الاشتراكى والتنظيم فإنك تؤشر عليها وتعيدها إلى شعراوى جمعة وعبد المحسن أبو النور للتحقيق.. فأنا لا أعرف ما الذى أفعله.. وأدرت جهاز التسجيل وتلمست لهم العذر. ثم طلبت إلى سكرتيرى أن يعطى الشريط للضابط لكى يعيده إلى مكانه فى وزارة الداخلية.. وطلبت من سكرتيرى أن يحضر هذا الضابط لكى أراه ثم رأيت الضابط طه ذكى وقلت: لقد عرفتك الآن، فلا تخف. وأنت آمن تماما على نفسك.. اذهب وأعد هذا الشريط إلى مكانه.

الساعة ١٠ صباح ١٢ مايو

ذهبت إلى انشاص كما كان متفقا. وقابلت قوات الطيران وقوات الدفاع الجوى. كان يجلس إلى يمينى وزير الحربية محمد فوزى وإلى يسارى قائد الطيران حسنى مبارك. الذى اخترته من سنة لمنصبه هذا.. والذى هو الآن نائب رئيس الجمهورية.. ولم يغب عن بالى لحظة، وأنا أتحدث إلى قوات الطيران عن الوضع السياسى..

لقد أحسست أنهم يسبقوننى.. وتحركوا أسرع منى. وأننى يجب أن أفكر بسرعة.. صحيح إننى أرى أوضح منهم.. وأعصابى أهدأ. وتفكيرى مركز. وطريقى أوضح.. ولكن أحسست أنهم فتحوا المعركة، فى الوقت الذى كنت أستعد فيه لذلك.. وكنت أتحدث إلى القوات الجوية من صميم قلبى. أما عقلى فكان يعمل بسرعة فى مكان آخر.. وفى اجتماعى معهم قلت عبارتى المشهورة: والله من يخرج على إرادة الشعب فسأفرمه.. وكان من المفروض أن أزور مديرية التحرير فى اليوم التالى. ولكنى أحسست بإرهاق شديد بعد هاتين الزيارتين.

ولما عدت من انشاص كان يوم ١٢ مايو سنة ١٩٧١. قد أوصلنى محمد فوزى وزير الحربية كالمعتاد إلى بيتى. وقبل أن أنزل من السيارة قلت لسكرتيرى فوزى عبد الحافظ:

يا فوزى قل لهم يؤجلوا رحلة مديرية التحرير.. فأنا متعب.

وكان مقررا لهذه الزيارة يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٧١. وكنت حريصا على أن يسمع محمد فوزى ذلك.. فهو واحد من مراكز القوى.. والذى لم أكن أعرفه هو أنهم قد أعدوا لهذه الزيارة منذ أسابيع.. وأعدوا شيئا هاما: اغتيالى! وحدث ما توقعته. فقد ذهب محمد فوزى إلى بعض مراكز القوى وأخبرهم أننى أجلت زيارة مديرية التحرير. وانزعجوا لذلك فقد توهموا أننى عرفت ما أعدوه لى هناك. ثم عادوا فرفضوا فكرة أن أدرى بأى شىء. أو أن أعرف كل ما دبروه لى.

كل هذا لم أعرفه إلا من تسجيلاتهم هم!

يوم ١٣ مايو وهو اليوم الكبير

طلبت من إحدى بناتى وهى فى طريقها إلى المدرسة الساعة السابعة صباحا أن تمر على محمد حسنين هيكل وأن تخبره أن يجىء فورا. ولم أشأ أن أطلبه بالتليفون، لأن التليفونات مراقبة.. ولما حضر بعد ذلك سألته عن حصار الإذاعة وكيف عرف بها من المحرر الذى اعتقله جمال عبد الناصر وسجنه هو وزوجته وأفرجت أنا عنه.. فأكد الواقعة.

ومن المضحك أنه، أى محمد حسنين هيكل، كتب مقالا يوم ١٣ مايو ١٩٧١ يفسر هذا الاستدعاء على أنه استنجاد به!!

طلبت من فوزى عبد الحافظ سكرتيرى الخاص: يا فوزى

– أفندم.

اتصل بممدوح سالم محافظ الإسكندرية واطلب منه أن يركب سيارته ويجىء فوراً إلى هنا دون أن يتوقف فى الطريق أو يمر بأحد..

الساعة ٨ مساء يوم ١٣ مايو ١٩٧١

جاءنى ممدوح سالم.

قلت له: يا ممدوح أنا أثق فيك تماما.

قال: شكرا تحت أمرك.

قلت: يا ممدوح أنا سـأقيل اليوم شـعراوى جمعة وقصة شعراوى ومراكز القوى سأرويها لك كاملة.

ورويتها له كلها وبالتفصيل.

وقلـت له: يا ممـدوح أنا واثق منك. وأريد أن أعرف منك هل تريد أن تدخل معى معركة ضدهم. إذا كنت ترى ذلك فاقعد معى. مع العلم بأننى لا أعرف حتى الآن نتيجة هذه المعركة بوضوح. لا أضمن أى شيء. ولكن أنا طبعى إذا دخلت المعركة لا أخرج منها إلا عند النهاية: نهايتى أو نهاية خصمى!

وبعد أن شرحت له الصورة كاملة قلت: أنا عرضت عليك الوضع. إذا أحببت فادخل معى على بركة الله، وإلا فارجع إلى الأسكندرية فى مكانك. وأنا أشكرك. وأنت آمن تماما. وموضع ثقتى الكاملة.

قـال: يا أفندم. أنا معك تماما. والدنيا كلها معك. ولا تفكر فى أى شـىء. إنهم بلا قوة. أنا أعرفهم جيدا.. إنهم ورق وقش!

قلت له: تحلف اليمين يا ممدوح وزيرا للداخلية.

قال: أنا جاهز يا أفندم.

قلت: الساعة الرابعة تكون جاهزا لحلف اليمين أمامى وبحضور رئيس الوزراء..

وطلبت سامى شرف، وجاءنى: قلت له: يا سامى.

- نعم.

اذهب لشعراوى جمعة.

وأنا أعرف أن شـعراوى جمعة وسـامى شرف شيء واحد. وأن شعراوى هو الزعيم وليس علـى صبرى. فهو الذى يريد أن يسـتأثر بكل شـىء وحده. وأعلـم أن على صبرى مكروه من الناس ١٠٠٪ .

ثم قلت لسـامى: قل لشعراوى جمعة باعتبارك وزيرا لشـئون الرياسة.. يا شعراوى مع السلامة وأكرم لك أن تجعلها استقالة بدلا من أن تكون إقالة.

فانهار سـامى شرف. وسامى شـرف يعلم جيدا أنه إنسـان محدود. وأنه لا يستطيع أن يكـون فى المقدمة. وإنمـا لابد أن يعيش فى ظل أحد.. أى أن يكـون الرجل الثانى.. أو الظل لأى أحد.

وامتقع وجه سامى شرف وتساقط أمامى تماما.

وقلت: يا سامى.

- نعم.

القرار صدر.

وأخذ سامى شرف يبكى ويقول: يا أفندم. القرار.. يا أفندم انتظر..

إنـــه صورة من الغباء.. ولكن اكتشـفت أنهم أيضا. وربما مـرة واحدة فقط هى التى اثبتوا فيها أنهم على درجة من الذكاء.

هذه المرة عندما طلبت من سـكرتيرى فوزى عبد الحافظ اسـتدعاء ممدوح سـالم. وكانت تليفوناتـى مراقبـة. فاجتمعوا، ووصلوا فى اسـتنتاجهم إلى احتمال أن يجىء ممدوح سـالم وزيرا للداخلية. وكان ذلك الاسـتنتاج صحيحا. ولكنهم مع ذلك اسـتبعدوا أن أقدر على خلع شـعراوى جمعة.. فقد حالفهم الذكاء فى الاستنتاج، وخانهم الذكاء عندما شككوا فى قدرتى على الإحاطة بشعراوى أو غيره..

وأحسست أن حاستى لم تخنى.. وأنا أعتمد على حاستى السادسة فى الحكم على الرجال. وتصورت أن سـامى شرف هذا قد انهار لأنه مرتبط بشـعراوى جمعة.. ولكنه من الممكن أن يرتبط بأى إنسـان آخر.. لأنه لا يسـتطيع أن يقف على رجليه.. فهو كالأطفال التى لم يتم فطامها بعد. وقد صدق حدسى. فلما سألنى: وأنا أين أذهب؟

قلت: كما أنت!

وبعد أن ضمن مركزه ذهب إلى شـعراوى جمعة. واجتمعوا فى القوات المسـلحة فى مكتب محمد فوزى وزير الحربية. وحدث فى هذا الاجتماع شىء واحد أذكره لمحمد فوزى من أجل ذلك. يوم أن انتصرنا فى معركة أكتوبر ٧٣ كان أول واحد أخرجته وكرمته.. وهو الآن يعمل فى التجارة حراً آمنا على نفسه وأهله ورغده ورزقه..

فـى ذلـك الاجتماع يـوم ١٣ مايو وبعـد إقالة شـعراوى جمعة زعيمهم كان سـعد زايد وزير الإسـكان.. وهو واحد من الذين عينهم جمال عبد الناصر فى الوزارة فى مارس سـنة ١٩٧٠ مع مركز القوة محمد حسنين هيكل على سبيل إفهام هيكل أنه لا يعدو أن يكون واحداً كهؤلاء ليس أكثر وكان هذا مما أغضب هيكل كما حكى لى بعد ذلك.

في هذا الاجتماع طالب سعد زايد بعدد من الدبابات.. ولو عشر دبابات لمواجهة رئيس الجمهورية وإثارة الناس عليه..

وهنا قال له فوزى: لا أستطيع أن أقنع جنديا واحدا بأن ينقل دبابة واحدة من مواجهة اسرائيل إلى مواجهة الشعب المصرى.. لو أصدرت أمرا بذلك فلن يطاوعنى أحد.. وكل ما أستطيعه هو شيء واحد: أقدم استقالتى!

وقد ذكرت له هذا الموقف فلم يدخل السجن، وإنما دخل مستشفى المعادى حتى أفرج عنه.. وقد استدعيته بعد ذلك إلى برج العرب. ووبخته على ما فعل..

الساعة ٨,٣٠ مساء يوم ١٣ مايو ١٩٧١

كنت جالساً فى بلكونة البيت والدنيا حارة جدا.. استمعت إلى نشرة الأخبار وجاء فيها خبر استقالة شعراوى جمعة وقبولى لها. وهذا هو المهم. وبعد النشرة جاءنى مركز القوة الأول فى حياة عبد الناصر، والثانى بعده إلى هذا التاريخ محمد حسنين هيكل فى حالة نفسية فظيعة. وعرفت فيما بعد أنه قبل أن ينزل من بيته أوصى زوجته على أولاده.. ولابد أنه جاء إلى بيتى يحتمى فى هذا البيت.. وبعد نشرة الثامنة والنصف مساء يتصل بى سامى شرف ويبكى ويقول: قرار شعراوى جمعة يا افندم صعب.. صعب!.

قلت له: يا سامى أنت تعبان خذ لك أجازة يومين أو ثلاثة..

الساعة ١٠,٥٧ مساء يوم ١٣ مايو ١٩٧١

جاءنى أشرف مروان مساعد سامى شرف ومعه خطاب موجه لى باستقالات.

الساعة ١٠,٥٩ مساء يوم ١٣ مايو ١٩٧١

خطاب استقالات جماعية تضم لبيب شقير رئيس مجلس الشعب، ضياء الدين داود عضو اللجنة التنفيذية العليا وسامى شرف وزير شئون رياسة الجمهورية.. سعد زايد وزير الإسكان، محمد فائق وزير الإعلام.. ومحمد فوزى وزير الحربية.. ووزيرا آخر واثنين آخرين من الاتحاد الاشتراكى على صلة بالاتحاد السوفيتى.

وقلت لأشرف مروان: يا أشرف لماذا لم ترسل هذه الأسماء مبكرا؟ ..

لكى أقبلها وأذيعها فورا..

قال: هم يقصدون أن تذاع فى نشــرة الســاعة الحادية عشــرة ومحمد فائق وزير الإعلام ينتظر ذلك فى مكتبه ثم ينصرف مباشرة إلى بيته لأن استقالته معهم. وانتظرت إلى أن أذيعت النشرة بعد دقيقة واحدة، وفى صدرها الاستقالات..

وطلبت سكرتيرى وقلت له: يذاع فى آخر النشرة أننى قد قبلت هذه الاستقالات..

وطلبت ممدوح سالم بعد أن كان قد حلف اليمين. وتسلم عمله. وطلبت منه أن يتحفظ على الذين اســتقالوا، وأن يتحفظ على على صبرى من باب الاحتياط أيضا. وطلبت إليه أن يبلغنى ذلك بعد خمس دقائق..

الساعة ١١,٥ مساء

اتصل بى ممدوح سالم يقول: يا افندم. تحفظت عليهم جميعا..

أسجل هنا تعليقا مضحكا لتوفيق الحكيم.. سمعته بعد ذلك.. وهو رجل لطيف.. وهو يأخذ الأمور من الجانب الســاخر قال: دول جماعة سذج. كان أسهل شىء يقومون به هو الاستيلاء على الإذاعة.. ويعلنون أنهم عزلوا السادات.. وعلى ما يرجع السادات.. ويتأكد أنهم لم يفعلوا هذا تكون قد مضت ساعتان أو ثلاث.. وبذلك تتحقق لهم البلبلة المطلوبة.. ولكنهم سذج!

والــذى يؤكد ســذاجتهم أنهم جمعوا أنفســهم فى ورقة واحدة.. فى ســلة واحدة.. ومن البلاهة ألا أنتهز هذه الفرصة وأتخلص منهم جميعا فى نشرة إخبارية واحدة..

وهنــا لابــد أن أذكر حادثة معروفة فــى الريف.. فهم يقولــون أن الثعلب عندما يمتلىء جســمه بالبراغيث فإنه يحار فى التخلص منهــا.. فيتقلب على الأرض.. ويهرش ظهره فى الحائط وفى الأشــجار وفى الأحجار.. وأحيانا ينزل الماء.. ولكن البراغيث لا تموت.. ولذلك هدته الغريزة إلى حيلة ذكية.. وهى أن يظل يجرى فى الحقول يجمع بقايا القطن..

ثم يضع هذا القطن فى فمه.. وينزل إلى ماء الترعة بذيله وببطء شديد.. وكلما اقترب الماء مــن الذيل.. فإن البراغيث تصل إلى مكان آخر. ولا يــزال الثعلب ينزل فى الماء حتى يتغطى كل جســمه ولا يبقى إلا قطعة القطن فى فمه.. فتصعد كل البراغيث والحشــرات الأخرى إلى قطعة القطن.. وهنا يلقى بها الثعلب فى الماء.. وقد تجمع كل براغيث مراكز القوى فى قطعة القطن، ولم يكن صعبا إلقاؤهم فى الماء بعد ذلك!

ثــم نزلت إلى صالون البيت.. وكنت قد طلبت اســتدعاء وزير الخارجية محمود رياض.. ولاحظت أن محمود رياض يدافع عن زميله محمد فوزى.

وشرحت له القصة، فلم يكن يدرى عنها شيئا..

ووجدت اللواء أحمد إسماعيل أيضا..

أهلا يا أحمد.

- أهلا يا افندم.

وكان أحمد إسماعيل فى المعاش منذ سنتين. لقد فصلوه بصورة شائنة من رياسة الأركان بعد أن عين فيها بعد استشهاد عبد المنعم رياض. وأحمد اسماعيل هو المؤهل رقم ٢ بعد عبد المنعم رياض.. باعتراف الجميع فصلوه. وأتوا بدلا منه بمحمد صادق لأنه أحد رجالهم وكان يقدم تقاريره بانتظام لسامى شرف..

وطلبت من أحمد إسماعيل أن يذهب إلى المخابرات العامة مديرا لها..

الساعة ٧ صباح ١٤ مايو ١٩٧١

أيقظونى لأن الرئيس جعفر نميرى فى طريقه إلى القاهرة ليطمئن على الوضع فى مصر. ولم يأت الرئيس نميرى بطائرة خاصة. وإنما بطائرة عادية. وقد نام فى الطائرة.

وظللت أنتظره أمام سلم الطائرة نصف ساعة حتى أيقظوه وارتدى ملابسه.

وكنت مرهقا تماما فقد أويت إلى فراشى متأخرا. وكما هى عادتى لا أتعاطى الحبوب المنومة. ولكنى صحوت فى هذه الساعة المبكرة.

شكرا للرئيس جعفر نميرى جاء يطمئن وملأت قلبه بالطمأنينة على كل شىء..

واتجهنا معا إلى سراى القبة التى نزل بها. وكنت مشغولا بتشكيل الوزارة الجديدة وعندما التقطت لنا الصور بعد حلف اليمين. كان الرئيس نميرى واقفا بيننا..

وعند الظهيرة بلغنى خبرا غريبا.

لقد اجتمع مجلس الأمة وعزل رئيسه لبيب شقير و ١٦ عضوا آخرين. وقد أسعدنى هذا الخبر وأذهلنى. وكان مفاجأة تامة. ولم يكن فى حسابى مطلقا. فقد كان من الضرورى موافقة ثلثى أعضاء المجلس على هذا القرار وأشهد أن مصطفى كامل مراد، الذى هو اليوم زعيم المعارضة، كان وراء هذا الموقف كله.

وكانت سعادتى لا حد لها...

وانتهت أكذوبة «الانهيار الدستورى» الذى أرادته مراكز القوى: بأن يستقيل هذا العدد من الوزراء.. ويستقيل رئيس مجلس الشعب.. ويستقيل آخرون.. فلا يبقى إلا رئيس

الجمهورية وحده.. وظن هؤلاء السذج أن الدنيا قد انتهت.. وأن هذا هو الطوفان الذى ليس بعده شىء.. ولم يكن طوفانا وإنما كان زوبعة فى فنجان كما وصفتها. ثم تلاشت.. فقد كان الناس متوهمين أن لهم وزنا وحجما أكبر بكثير جدا من حقيقتهم..

وقد تساءل كثير من المؤرخين وآخرهم هذا المؤلف الإيطالى الذى أصدر كتابا بعنوان «تحديات السادات» كيف استطعت أن أواجه كل هذه القوى وحدى.. كيف كان هذا التحدى!

وعلى أى أساس كان عندى هذا اليقين بأننى سوف أتغلب عليهم فى النهاية؟

لا أدعى العبقرية الفذة.. ولكن أقول صادقا أنى لم أكن وحدى.. فقد كان الله معى. وإيمانى بالله وبأنه لا يصح إلا الصحيح هو سندى الأكبر.. وأن الشعب بإحساسه الصادق هو الذى جعلنى أستند إليه.. ثم إن عندى حاسة سادسة.. لا أعرف كيف أسميها، هى التى كانت تلهمنى حساب تقدير الرجال.. أو كانت توضح لى حقيقة العلاقات المعقدة والصور المهزوزة لأناس كثيرين فى كل مكان.. ثم إن الأيام والشارع السياسى الذى أمضيت فيه ٢٩ عاما. قد علمنى الصبر. وعلمنى مع الصبر الاحتمال. ومع الإيمان أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.. ثم إننى تفاديت ما نصحنى به كونفوشيوس ألا أزاحم أحدا.. وألا أدوس الناس والقيم والمبادئ فى هذا الزحام.. والحمد لله الذى نصرنى وأعزنى بمصر، وأعزها بى أيضا.

١٥ مايو ١٩٧١

اتصل بى اللواء أحمد اسماعيل قائلا: تمام يا افندم

أيوه يا أحمد..

– عندى شنطة بها كل التسجيلات.. القصة كاملة.. وكان فى نيتهم أن يحرقوها. وجاءت الشنطة التى تضم قصة ١٥ مايو.. قصة مراكز القوى كلها.. من صنعهم هم.. أما أنا فلم أسجل لأحد.. ولن أسمح لأحد.. اللهم إلا أجهزة الأمن ولاعتبارات من أجل الصالح العام بأمر من القاضى، وهو ما يحدث من وقتها إلى اليوم..

وأدركت مرة أخرى أننى كنت على حق عندما طلبت التحفظ على على صبرى أيضا.

وفى هذا اليوم قال الشعب كلمته.. أروع كلام.. إنها نفس جموع ٩ و ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧..

جموع متدفقة سعيدة فقد عانت وتعذبت وتمزقت.. وقد وعدتها بأنه لا سلطة لأحد على أحد إلا بالقانون.. لا إرهاب ولا تعذيب ولا إذلال.. وانفتح الطريق إلى أكتوبر ٧٣ وما بعده من إنجازات من أجل مصر وكرامة الإنسان فى مصر وفى البلاد العربية..



١ - علي ماهر ومعه الرئيس الراحل محمد نجيب وعبد الناصر والسادات .



٢ - محمد نجيب وعبد الناصر .



٣ - علي صبري يقف بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر في السنوات الأولى للثورة .



٤ - صورة للبكباشي جمال عبد الناصر وهو ينزل من السيارة في طريقه إلى مقر مجلس الثورة .



٥ - الرئيس السادات والليثي ناصف .

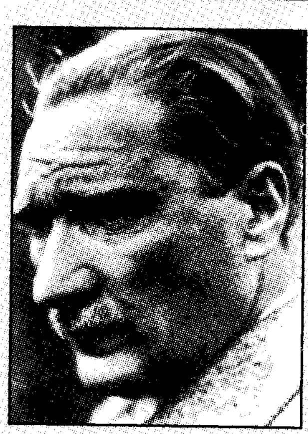


٦ - الرئيس السادات مع الرئيس السوداني جعفر نميري .

٧ -أشرف مروان كاتم أسرار السادات ومبعوثه الخاص فى كل مكان .



٨ - مصطفى كمال أتاتورك .





٩ - الفريق محمد فوزى

١٠ - د. محمود رياض



مصر من ملكية إلى جمهورية

- كيف جعل فاروق الصغير يده مسجدا للزعماء؟
- أربع وزارات أسقطها الملك على رأس الشعب.
- الرغبة السامية والإرادة السنية والتوجيهات الملكية كانت جواز المرور لما تريده الحاشية.
- وزير الأوقاف ونقيب الأشراف يصدران صكوك غفران للملك.

عادتى أن أقوم بتبسيط الأشياء لنفسى، لكى أراها أوضح، فإذا رأيتها، كنت قادرا على أن أنقلها للآخرين..

من

أى إنــه شــرط أساســى لكــى أكــون مفهومــا عنــد الآخريــن، أن أكــون فاهمـا لأية مشكلة..

وكمـا ذكـرت كثيرا، فقد تنبهت للأمور السياسـية فى سـن مبكرة. فقـد كنت أقرأ عن السياسية وأنا ما أزال فى العاشرة ثم اشتغلت بالسياسة وأنا فى العشرين، وبعد ذلك ساهمت فــى السياســة وصنعها .. وفى جميــع هذه المراحل كنـت أقرأ وأجمع المعلومات وأحشـد نفســى .. ولقد أعجبنى تعبير جميل يطلقه الباحثون العرب القدماء على أنفســهم، فلا يكاد الواحد منهم يتهيأ لتأليف كتاب أو بحث موضوع حتى يقول عن نفسه: لقد احتشد له.. أى حشـد كل قواته، كأنــه جيش مقدم على معركة.. وأرى أن هـذا التعبير دقيق. وأعتقد أننى - لا شـعوريا - كنت أحتشـد لشـىء ما لا أعرفه.. المهم أننى كنت حريصا على أن أفهم ما يجرى حولى من الأحداث التى أقرأ عنها، وأرى صداها فى الشارع وفى المقاهى والبيوت والمـدارس والمظاهرات، وأعتقد أنه جاء وقت كنت أثور وأهتف وتمتد يدى إلى الطوب فى الشوارع، دون أن أعرف بوضوح ما هذا الذى أثور ضده.. وكل ما أعرفه فى شبابى المبكر جدا أننــى ضد الانجليز .. وبعـد ذلك كنت ضد من يقف مع الانجليز أو يقف معه الانجليز ..أى من يريد أن يكون للانجليز وجود فى مصر..

ودون أن أدخل نفسى فى تفاصيل كثيرة، وكلها معروفة عند كل المواطنين فى مثل سنى، فقد كانت الصورة التى بسـطتها لنفسـى واضحة: أن قوة الجذب فى مصر وفى العشـرينات والثلاثينـات، من بعد ثورة ١٩١٩ مباشـرة، كان الانجليز. هم القـوة الحقيقية. وهم مصدر القوة والشـرعية فى مصر. فالذى يريد أن يحكم فلابد أن يقترب منهم. فإذا فعـل فقد دانت له الدنيا واتسـعت له مقاعد الحكم، وأمام الانجليز، وضدهـم أحيانا، كان العرش.. وليس العرش والانجليز على وفاق دائما.. وإذا اتفق الطرفان فضد الشـعب .. وضد أن يكون للشعب صوت وصدى. وأن تكون للشعب أية مطالب أو تكون له حقوق..

وبين الانجليــز والملك توجـد الأحزاب.. حزب الأغلبية وأحزاب الأقلية .. أما الأغلبية فكانــت تقف ضد الملك أحيانا، وأكثر الأحيان مع الانجليز. ولذلك لم يكن الملك يجد أمامه إلا أحــزاب الأقليــة. فلأن هذه الأحزاب تفتقــر إلى القوة الجماهيرية، فإن الملك يســندها ويعطيها ما ليس لها وما لا تستحق..

واستمرارا فى تبسيط الأمور أيضا. كان الانجليز فى الثلاثينات – بصفة خاصة– قد أعلنوا سياسة الحياد.. أى سياسة التفرج على ما يجرى فى مصر دون أن يتدخلوا فى شىء.. والذى يجــرى فى مصر هو: الأحــزاب تقف مع الملك أو ضده .. أو تقف مــع الانجليز أو ضدهم.. وكانت بريطانيا تعلن أنها لا تتدخل فى شــئون مصر: لا فى شــئون الأحزاب ولا ســلطات الملــك ولا تفرض على الشــعب المصرى مــا لا يريد.. والحقيقة غير ذلــك تماما. فالانجليز هم أصحاب سياســة: فرق تسـد .. أى التفريق بين الناس أو بين الطبقات أو بين الســلطات، وتمزيق الشعب، ليصبحوا قادرين بعد ذلك على أن يسودوا.. وقد سادوا عشرات السنين، وفى بــلاد كثيرة.. ووزير خارجية بريطانيا صمويل هــور، هو الذى قال عن موقفه من التغيرات الدســتورية فى مصر: إنهم استشــارونا فنصحناهم! وكان يدفع عن نفسه وعن حكومته أنه يتدخل فى تعديل الدستور المصرى.

وهــو لم يزد على تكرار السياســة البريطانيــة المزعومة. والحقيقة أنهم لم يستشــيروا بريطانيا فنصحتهم، وإنما هم أخبروها فأمرتهم..

وأذكــر أن الناس فــى مصر قد أعجبتهم وبهرتهم فكرة الحيــاد.. أو الحيدة البريطانية. فلمــا اكتشــفوا بعد ذلك أن بريطانيا لم تكن قط على الحيــاد، أزعجهم ذلك. وصدموا.. وهذه الصدمة – فى ذاتها – تدل على طيبة الناس وسذاجتهم. إذ كيف يخطر لهم ببال أن بريطانيا لا تكذب. بل إن شــاعرنا حافــظ إبراهيم قد نظم عددا كبيرا من القصائــد. وكلها ذات معنى واحد: أن بريطانيا خدعتنا فكذبت علينا. وأنها ليست محايدة مطلقا:

كشــفنا عـن نواياكم فلستم وقـد برح الخفـاء محايدينا
ضربتم حـول قادتنـا نطاقـا من النيران يعيى الدارعينا

ثم يتوعدهم حافظ إبراهيم بمصير نابيلون ونفيه فى جزيرة سانت هيلانة، ويكرر المعنى مع هذه الدهشة البريئة من أنهم يكذبون:

أمحــــايد أم حـــــــائد عن منهج الحـق المبين
نازلـت شــعبا أعـــزل بمدرعـــين مدججـــين

وأمنت عقبى الظـالمين ولبئس عقبى الظـالمين
إنـا بجبـار السمـــاء وبالعقـيدة نســتعين
أأمنتمو صرف الزمـان، وفتكـه بالغاشـمين
كـم من قـوى هـدَّه كيد الضعيف المستكين
أو لـم تـروا ما ذاقـه بالأمس ذيـاك السجين
فى «سنت هيلين» قضى من دوخ الدنيـا سـنين
مـن كـان فـى غـاراته فى الكون منقطع القرين
أمسى ألانتـه الخطوب، وكـان صلبا لا يلـين
أو تتقـون مصـيره أم لسـتمو بالمتقـين!

وحافظ إبراهيم نسـى أن الانجليز هم الذين نفوا نابليون .. ولكنه - بكل طيبة وبراءة - يدعو عليهم بأن يلقوا نفس المصير!

ويقول أيضا:

قل للمحايد هـل شهدت دماءنا تجرى وهل بعد الدماء سلام
سفكـت مـودتنا لكم وبدا لنـا أن الحياد على الخصام لثام
لم يبق فينا مـن يمنـى نفسـه بـودادكـم فـودادكم أحلام

وهـو فى هذا البيت الأخير بعيد عن حقيقة ما يجرى فى مصر.. فهناك كثيرون يحلمون لا بمـودة بريطانيـا وإنمـا بما دون ذلـك بكثير جدا.. فقـد كان موظف صغير فى السـفارة البريطانية هو أمل السياسـيين فى مصر.. موظف صغير اسـمه مستر سمارت يعمل سكرتيرا شرقيا. وكان لقاء مستر سمارت هذا منتهى أمل الزعماء السياسيين فى مصر. وكان يكفى جدا أن يبتسـم لأحد أما إذا دعاه إلى الإفطار، فقد انفتحت له أبواب السـماء .. أما إذا لمس كتفه أو ذراعه ونشـرت الصحف ذلك فسوف يتلقى البرقيات وتنهال عليه التليفونات هكذا كانت تقول الصحف فى ذلك الوقت وفى ٩٩٪ من مثل هذه الحوادث السـعيدة، يكون مصير الزعيم السياسى الذى نال الرضاء السامى أن يجىء وزيرا أو رئيسا للوزراء..

وكان الملـك فؤاد وفاروق بعد ذلك، يلتقى بالوزراء أو برئيس الوزراء إذا كلفه بتشـكيل الوزارة وهذا طبيعى. ولكن ليس من الضرورى أن يلتقى السـفير البريطانى بواحد من هؤلاء. إنه كان يكتفى بأن يلقاهم السكرتير!

وأخيرا يقول حافظ إبراهيم أيضا، وتنشـر له الصحف ذلـك، بما يدل على أنه يعبر عن الرأى العام فى ذلك الوقت:

لقد طال «الحياد» ولم تكفوا أمـا أرضـاكم ثمـن الحياد؟
أخـذتم كل مـا تبـغون منـا فما هذا التحكم فى العباد
بلـونـا شـدة منكـم ولينـا فكـان كـلاهما ذر الرماد
وسـالمـتم وعـاديتم زمـانا فلـم يغن المسالم والمعادى
فليس وراءكم غير التجنى وليس أمامنا غير الجهـاد

أما لعنات حافظ إبراهيم لاسـماعيل صدقى الذى عطل الدسـتور وعادى الشـعب واستكان للملك فهى شىء طريف يبعث على الضحك، يقول حافظ إبراهيم:

ودعا عليك الله فى محرابه الشيخ والقسيس والحاخام!

وكان حافظ إبراهيم شاعرا طريفا ووطنيا مخلصا. ولكن إدراكه السياسى لم يتعد هذا الفهم البسـيط لمبادئ السياسة فى زمانه، وللسياسـة البريطانية بصفة خاصة.. أو لم يكن يعرف الخريطة السياسـية فى ذلك الوقت ولكنه كان محبوبا وكان حديث الناس جميعا إذا أنشـد قصيدة أو إذا نشرتها له الصحف. وكنت، مثل كثيرين، أحفظ شعره وأدونه، ولكن كنت أرى فيه نوعا من السلبية.. لأنه فقط يستنكر ويتفرج. ومثل حافظ ابراهيم كثيرون أيضا.

وفى هذه الظروف السياسـية فى مصر نجد أن للفرد دورا هاما.. أما الشعب فيجىء دوره متأخرا بضع خطوات. وكان الفرد فى ذلك الوقت هو الملك أو هو السفير البريطانى أو الزعيم السياسـى. ولذلك فمن الضـرورى أن ألتفت كثيرا وطويلا إلى هؤلاء الأفـراد الذين أثروا فى الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر.

فمن المؤكد أن السـفير البريطانى سـير مايلز لا مبسـون - الذى أصبـح بعد ذلك لورد كليرن - كان له دور خطير وشرير فى تسيير السياسة المصرية، وقد كافأه تشرشل على ذلك بـأن منحه لقب لورد.. هذا الرجل جاء من الصيـن. وقد أفلح فى أن يعقد معاهدة بين الصين وبريطانيا. وكان نموذجا كاملا لرجل الإمبراطورية، أو الرجل الاسـتعمارى بمعنى الكلمة.. وقد عاونه فى صياغة السياسـة المصرية الخارجية والداخلية والمعاهدات رجل اسمه مستر بكيت .. هذا الرجل كان أسـتاذا فى صياغة المعاهدات ووضع التراكيب التى يحار العقل فى تفسـيرها .. فإذا حار استغرق وقتا طويلا فى شرحها وتفسيرها وتبريرها وتعديلها.. أى إن

مثـــل هذه الصياغة قادرة على أن تجعل المفاوضات بشـأنها مســتمرة. وهذا يضمن للانجليز وجودا أطول وأعرض وأعمق..

وقد جاء الســفير البريطانى لامبســون هذا فى أوائل سنة ١٩٣٤.. وكانت مصر قد شبعت غضبا وســخطا على إســماعيل صدقى، وعلى دستور ســنة ١٩٣٠ الذى نسف دستور ١٩٢٣.. ولذلك فإن إعادة دســتور ســنة ١٩٢٣ بعد ذلــك كان يعتبر خطوة صاعدة فى طريق الســيادة الوطنية فى مصر..

ولكــى يتدارك الانجليز الموقف فــى مصر، بعد الارتباك الذى أحدثه إســماعيل صدقى واللعب بالدستور، أرسلوا مايلز لامبسون ليعد لهم المعاهدة الجديدة التى تربط البلد بهم.. وفــى ذلك الوقت كان حزب الوفد هو حزب الأغلبية. وكان فى عنفوانه ولم يكن قد بدأ ينزل عنــد رغبات الانجليز أو الملك، أو يتدحرج فــى التنازلات إلى غير نهاية.. فقد كان الوفد، ككل الأحــزاب الأخرى، يرى أن الانجليز هم مصدر الســلطات.. ولم يدر ببال أحد فى ذلك الوقــت أن الانجليــز يجب أن يخرجوا. وأن الملك يجب أن يذهب. وإنما الصيغة السياســية التى كان يجتهد الجميع فى شرحها هى كيف يحققون نوعا من التوازن بين العرش والسفارة البريطانيــة.. ولكن التخلــص من الاثنين لم يكن قضيــة واردة أو مطروحة فى ذلك الوقت.. وكان الانجليز يعرفون ذلك بوضوح، ولكن تحاربهم السياســية الطويلة قد جعلتهم يفكرون فى انتقاء رجالهم الواحد بعد الآخر..

ولابــد أن المعاهــدة التــى عقدتها بريطانيا مــع مصر ومع وزارة الأغلبية ســوف تدخل تاريخنا السياسى من أبواب متعددة: فقد وصفها مصطفى النحاس باشا بأنها معاهدة الشرف والاستقلال. وقد شغل المؤرخون أنفسهم كثيرا بمدلولات الاستقلال والشرف فى ذلك الوقت.. ولا بد أنهم قد انتهوا إلى أن الشرف نسبى كالاستقلال تماما.

ولكن الغلطة فى مثل هذا التفسير أن الشرف ليس نسبيا كالاستقلال تماما. لأن الاستقلال معناه حرية الإرادة فى اتخاذ القرار دون تدخل من أية قوة أجنبية. وأن هذا أيضا هو استقلال الإرادة.. ولكن أية قراءة جديدة لهذه المعاهدة تؤكد أن الإنجليز باقون. صحيح أن فيها نصا يبعث على الضحك. هذا النص يطلق حرية بريطانيا فى أن تحلق فى أجوائنا بطائراتها دفاعا عن مصر والقناة والطرق الامبراطورية. لما كانت مصر وبريطانيا دولتين مستقلتين وكل منها ند للأخرى فمن حق الطائرات المصرية أن تحلق فى الأجواء البريطانية أيضا! وغلطة أخرى

خطيرة فى مفهوم الاستقلال، هى أن بريطانيا هى التى تعطينا الاستقلال أى إن الاستقلال منحة من بريطانيا، كما كان الدستور منحة من الملك! فكل شىء يجىء من فوق.. الانجليز يعطوننا الاستقلال. أى يتفضلون مشكورين بأن يعطونا الاستقلال. وهذا فضل يضاف إلى فضل آخر هو أنهم كانوا يحكموننا ويتحكمون فينا!

وكان المعنى العام للسياسة البريطانية فى ذلك الوقت: أنه يكفينا شرفا وفخرا أن الانجليز يحتلون أرضنا ويفكرون لنا. ولكن الاستقلال لا يعطيه أحد لنا. وإنما نحن الذين نأخذه بالقوة وبالدم. ومن أجل ذلك كان الفوز به شرفا، بل أكثر من الشرف، لأن الاستقلال حياة، وكانت مثل هذه الحياة هى الكرامة المرادفة للحياة وكانت هذه المعانى هى التى تملأ رءوسنا ونحن صغار.. ونحن شباب. ونحن رجال.. ومن أجلها هانت، وسوف تهون حياتنا!

ولما حصل مصطفى النحاس على معاهدة الشرف رجع إلى مصر وأعلن فى البرلمان هذا الانتصار العظيم، وهاجم بعنف كل الذين هاجموه.

وهنا يجب أن يلتفت السياسيون والمؤرخون أيضا إلى الأفراد الذين أثروا فى مسار الأحداث فى ذلك الوقت. ولابد أن يجىء الملك أحمد فؤاد فى مقدمة هؤلاء. فكما ذكرت، كان واضحا لنا ونحن شبان صغار ونحن رجال بعد ذلك: أن قطبى السياسة فى مصر هما السفير البريطانى والملك..

وقد وضعت بذور لمشاكل كثيرة فى تاريخ مصر فى عهد الملك فؤاد. الذى حكم حوالى ١٩ عاما من سنة ١٩١٧ حتى سنة ١٩٣٦. وهو الابن السادس للخديوى إسماعيل.

وقد تعلم الملك فؤاد فى مدارس إيطاليا والتحق بكلياتها العسكرية. ودخل الجيش الايطالى فى سلاح المدفعية، ثم كان لابد أن يسافر إلى تركيا ليكمل تعليمه أو تربيته السياسية والعسكرية هناك أيضا. ومن الطبيعى أن يعرف السلطان ورجال البلاط. وقدمه أبوه الخديوى اسماعيل إلى السلطان عبد الحميد. وقد عينه السلطان سفيرا له فى النمسا وبقى هناك سنتين.

ولما عزل أبوه الخديوى إسماعيل، وجاء الخديوى عباس الثانى ليجلس على عرش مصر سنة ١٨٩٢ استدعاه وعينه كبيرا للياوران فالملك فؤاد - إذن - رجل على قدر كبير من الثقافة والتجربة السياسية.

وقد تزوج مرتين، فى المرة الأولى تزوج الأميرة شيوكار إبراهيم، ابنة الأمير إبراهيم أحد أحفاد إبراهيم باشا الكبير.. وطلقها بعد أن اعتدى عليه أخوها.. وكان مجنونا وأدخلوه مستشفى الأمراض العقلية فى انجلترا وظل به ٢٧ عاما ثم هرب منه بعد ذلك.

ولما ولى عرش مصر تزوج نازلى بنت عبد الرحيم باشا صبرى، وفى سنة ١٩٢٠ أنجبت له فاروق والأميرات فوزية وفايزة وفائقة وفتحية. وعلى الرغم من المزايا الشخصية الفكرية للملك فؤاد، فقد كانت أمامه تحديات كثيرة من الانجليز والباشوات والحاشية والأحزاب والشعب.. ثم إنه أولا وأخيرا حاكم يريد أن يكون مطلقا. وهناك كثيرون قد شجعوه على ذلك.. أما كيف تولى فؤاد الحكم فقد كان ذلك فى نفس اليوم الذى توفى فيه السلطان حسين كامل فى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧. فقد أبلغه الانجليز: «أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوء هذا العرش السامى، على أن يكون لورثتكم من بعدكم حسب النظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وبين عظمتكم».

أى إن الحكومة البريطانية، وبمنتهى البساطة والوضوح، هى مصدر ولاية العرش.

وضاق الناس بتعيين الإنجليز للسلطان فؤاد على عرش مصر..

ولم يكن فؤاد يجد حرجا فى أن يعينه الانجليز. المهم أن يتربع أو ينام على العرش، وابنه من بعده. ولذلك فقد أعلن فى أول خطاب بعث به إلى حسين رشدى رئيس الوزراء: «إنه بسبب وفاة سلفنا وأخينا المحبوب المغفور له السلطان حسين الأول .. قد تولينا بالاتفاق مع الدولة الحامية عرش السلطنة المصرية، على أن يكون هذا العرش من بعدنا لورثتنا طبقا للنظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بيننا وبين حكومة صاحب الجلالة البريطانية..»

وظل السلطان فؤاد، أو الملك فؤاد بعد ذلك، مخلصا للدولة التى عينته والتى حمته – وإن لم يكن مخلصا تماما فقد كان ضعيفا أمامها. وكان إذا وقف إلى جانب الشعب فلكى يضايق الحكومة البريطانية .. ولكن عندما كان يقف مع الشعب فى صياغته للدستور أو عودته، كان يقصد مسايرة التيار العام، وأن يستعين بأحد أو بأى قوة أخرى ضد الانجليز.. ولكنه – كالانجليز تماما لا يريد للشعب أن يقف على قدميه.. أما سنوات حكم فؤاد فقد شهدت كل المحاولات الشعبية والجهاد من أجل الاستقلال ومن أجل الشرعية الوطنية والدستورية.. وفى نفس الوقت ظهرت كل أساليب القمع والردع.. وكل محاولات القضاء على الروح المصرية الثورية..

وإذا كانت فى هذه المرحلة «جواهر» كثيرة، ففيها «وحل» كثير أيضا .. وفيها هوان من حزب الأغلبية وباشواته أيضا وفيها رقاب انكسرت على يدى الجالس على العرش.. وفيها ظهور تقوست أمام موظف صغير فى السفارة البريطانية.. وفيها أكبر غلطة فى فهم

الاســتقلال.. وأبشــع غلطة فى أن يتصور الناس أن الســفارة البريطانية بديهة باقية .. وأن الجالس على العرش مهما كان فاســقا فهو كالســفارة البريطانية باق إلى الأبد.. وقد انتقل الصــراع علــى أيام فؤاد لينمو ويزدهــر فى عصر ابنه الطفل الملك فــاروق الذى ولى العرش ولم يتم الســابعة عشــرة من عمره.. وإذا كان فــؤاد صاحب ثقافة وتجربــة، فقد جاء ولده بلا ثقافــة ولا تجربة.. وإذا كان فؤاد فى حجــم العرش الذى جلس عليه، فقد جــاء فاروق أصغــر من العرش.. ولأنه صغيــر، ولأن الذين حولـه كبار أشــرار، فقد تعقد والتوى حتى سقط وسقطوا!

وكأن الخريطة السياســية لمصر فى ذلك الوقت مكتوبة «بحبر ســرى» إذا تعرض للبخار الساخن، فإنه يبدو واضحا بارزا.. وكأن البخار الساخن هو موجات السخط والغضب فى عهد الملك فاروق.. كأن الملك فاروق نفسه عدسة مكبرة وضعت على عينى التاريخ فرأى كل حروف الثــورة المصرية بارزة.. كأن الملك فاروق «ميكروفــون» وضع على قلب مصر، فأصبحت دقاته ضربات مدوية، وأصبح مســار الدم فى عروقها هديرا صاخبا.. وإذا كان لأحد من فضل فى أن ترى مصر عيوبها وتصرخ، وإذا كان لأحد الفضل فى أن يوســع الهوة بين الســراى والشــعب ويعمقها ويسقط فيها: فالفضل يرجع إلى فاروق طفلا وشابا ورجلا.. فقد كان مثل كرة الجليد التى تتدحرج، فإنها تزداد حجما كلما أمعنت فى الانطلاق..

إن فيلســوفا فرنســيا اسمه كارتو عندما أراد أن يفســر كيف تتلاقــى الصدف والمفارقات فى التاريخ وصفها بأنها كرة من القطن المبلل بالبنزين اصطدمت بنار مشــتعلة.. فاشــتعلت الكرة أيضا..

أى إنه يريد أن يقول: إن هناك - دائما - مســارين للأحداث.. وفجأة يلتقى هذا المســار وذلك المســار.. تماما كمــا تلتقى الكرة المبللة بالبنزين بنار ســاكنة فى مكانها.. ولكن عيب هــذا الرأى أنه يجرد التاريخ - وهو ســجل كفاح الشــعوب من أجــل المزيد من حريته - من الإرادة الإنسانية.. ويجعل التاريخ سلسلة من المصادفات.. تماما كما يتصادف أن يمر الإنسان فــوق لغم.. فيموت.. ولكن المصادفة كثيرا ما حدثــت فى التاريخ وغيرت مصائر الناس. غير أنــه من الممكن أن تقع المصادفة لأحد، فلا يدرى كيف يســتفيد منهــا، أو كيف يدفعها مرة أخرى فتعمل لحســابه - وفى حياتى مصادفات ومفارقات كثيرة. وسوف أجملها فيما بعد.. فهذا الشــاب فاروق قد حاول أبوه أن يجعله شــيئا مختلفا. فهو لم يبعث به إلى تركيا ليتعلم

العسكرية. أو السياسة فيها.. ولم يبعث به إلى ألمانيا أو حتى أمريكا. فلم يكن ذلك في استطاعة أبيه في ظل الإنجليز الذين عينوه على مصر- أى عينوه على مصر وفى نفس الوقت وظفوه عندهم ليعمل لحسابهم - ولم ينس الملك فؤاد هذا الفضل العظيم للإنجليز، عليه وعلى ذريته من بعده.

ولم يضع الإنجليز وقتا. فقد التقطوا هذا الابن الصغير وأركبوه مدمرة حربية وسافر بها إلى بريطانيا. وفى هذه المدمرة الكثير من المعانى.. فهى سفينة مسلحة.. أى إنها هى الدرع الأمينة التى تحميه.. وقد خلق له الإنجليز أعداء كثيرين وخلق هو أيضا لنفسه، ليتكفل الإنجليز بحمايته من أعدائه ومن نفسه. ولم يكن فاروق هو المقصود بالحماية، وإنما المصالح البريطانية.. ولكن الملك فؤاد كان حريصا منذ البداية على أن يتعلم ابنه أحسن وأفضل. ولذلك وافق على دراسته فى بريطانيا. وأرسل معه رجلين.. أصبح الرجلان ثلاثة وأربعة وخمسة وعشرين بعد ذلك.. كلهم تعاونوا على تربيته أسوأ تربية، وعلى تكوينه أحط تكوين.. إلا رجلا واحدا هو عزيز على المصرى.. وهو الأب الروحى لنا، نحن الشباب الثائر، وعزيز على المصرى شخصية مصرية فذة. وشخصية عربية قومية. وقد درس العسكرية فى تركيا. وحارب مع مصطفى كمال أتاتورك وله سجل سياسى عظيم، يفخر به ونفخر نحن أيضا. ويوم يشار إلى عزيز على المصرى فسوف يقال: كان زعيما عربيا قوميا. وهو فى نفس الوقت مصرى وطنى صميم. وإلى جانب مفاخره أيضا أنه حكم عليه بالإعدام.

ولم أكن أعرف عزيز على المصرى هذا. ولكننى أعجبت به. ورأيت فيه صورة من صور البطولة والشجاعة والصدق. وتمنيت أن أعرفه. وعرضت فكرتى هذه على الشيخ حسن البنا. ورتب لى موعدا معه. فكان لابد أن أذهب لعيادة دكتور إبراهيم حسن، وكيل الإخوان المسلمين.. وكانت له عيادة على ناصية شارعى المبتديان والسيدة زينب. وذهبت. ودخلت. وقابلت الممرض. ودفعت له ثمن التذكرة، وأدخلنى للطبيب، ولما ذكرت له اسمى فتح لى بابا ودخلت لأجد نفسى أمام عزيز على المصرى!

ولم أر د. ابراهيم حسن بعد ذلك. فبعد قيام الثورة ذهبت إلى جامع عمر مكرم لأعزى فى صديق. ووجدت وجوها غير التى توقعت أن أراها. ولما سألت عن الفقيد قيل لى إنه د. إبراهيم حسن. وكانت مفاجأة مؤلمة. فقد كان الرجل طبيبا مخلصا، ولو عرفت أنه هو الذى مات لذهبت إلى أهله وعزيتهم فى بيتهم قبل أن أجىء إلى جامع عمر مكرم.. وكان الغرض من سفر عزيز على المصرى مع الأمير الطفل فاروق أن يعلمه «الانضباط» العسكرى والأخلاقى. أى

الغرض هو وضعه فى قوالب نظيفة. لأنه ليس طفلا عاديا، وإنما هو طفل ملك. وعيوبه تعود بالوبال على مصر، ومزاياه ترجع بالخير عليها وعلى شعبها..

وحاول عزيز على المصرى كثيرا جدا. وقد سمعت منه أعجب القصص وأغربها عن مجاهداته مع فاروق وأحمد حسنين. وفجأة وجد عزيز على المصرى أن الملك فؤاد قد استدعاه إلى مصر. ولابد أن يكون سبب ذلك شكوى فاروق، وأحمد حسنين من الجدية والصرامة التى يعامل بها الملك الصغير. فكثيرا ما ذهب عزيز على المصرى ليوقظ الأمير صباحا، فيجده مخمورا. وعندما يسأله: متى عاد سموكم ليلة أمس؟

فيقول له: الساعة الثالثة صباحا.

- ولكن كيف؟

- هكذا!

- وسوف تفعل كذلك كل يوم.

- أعتقد ذلك..

ويكون مثل هذا الرد دليلا على أنه لا معنى لأن يتشبث عزيز على المصرى بالخطة التى وضعها ليجعل من الطفل الناعم شابا صلبا، ليكون بعد ذلك ملكا رجلا قويما!

وإذا نظر عزيز على المصرى إلى أحمد حسنين يعتب عليه كيف سمح لهذا الأمير الصغير بأن ينهار ويسقط فى الوحل هكذا. يكون رد أحمد حسنين: إنها إرادته السامية.

ويسأله: ولكن أين واجبك!

ويكون الرد: واجبى أن أطيعه!

ومعنى ذلك أن واجب عزيز على المصرى أن يطيع الأمير أيضا.. ولم يكن عزيز المصرى، بتاريخه وشخصيته وكرامته، ليقبل مثل هذا الهوان. فلما استدعاه الملك فؤاد، أجابه دون أن يدرى إلى أعز أمانيه.. ولابد أن يكون فاروق وأحمد حسنين والإنجليز هم الذين شكوا من عزيز المصرى ومن تشدده وتسلطه على الأمير الصغير! ولذلك فأحمد حسنين هو أول من أفسد هذا الغلام حين أطاعه واستسلم له. وراح يحميه ويدافع عن حماقاته... فقد اشترى أحمد حسنين رضا الملك بأى ثمن. ولو كان ذلك الثمن أن يتحول من مدرس إلى مرشد فى كباريهات وسهرات لندن الحمراء. وبعد أحمد حسنين جاء كثيرون أضافوا لمسات عنيفة إلى شخصية

فاروق ولذلك فعندما جاء فاروق إلى مصر بعد وفاة والده كان على استعداد تام لأن يكون فاسدا منحلا. وكل ما ينقصه أن يجد التشجيع من أحد. والذين شجعوه قالوا: أنت الملك أنت إرادة الشعب. أنت إرادة الله. الكلمة الأولى والأخيرة لك. ولا صوت يعلو على صوتك. وأنت العالم الأول والعامل الأول. والمؤمن الأول..

ولم يكن فاروق فى حاجة إلى مجهود كبير من أحد ليكون كل هذه الصفات ثم يفرضها على الناس ويصدقها قبل أن يصدقوها. ولم يصدقها إلا الطامعون فى السلطة.. وما أكثرهم بين الأغلبية وبين الأقلية أيضا!

وعند وفاة والده الملك فؤاد استدعى فاروق على عجل ليكون ملكا على مصر. جاء صغيرا دون السابعة عشرة من عمره. ولكن مصر كلها انتظرت مقدم الشاب اللطيف الوسيم المحبوب - والذى أحبه الناس، أحبوا أن يكون أملهم فى حياة أحسن. أى أن يكون أحسن من والده الذى طغى وبغى.

وانتظرت مصر بكل شعبها مقدم الملك فى الأسكندرية. ووقف الناس على جميع محطات السكك الحديدية بين الأسكندرية والقاهرة. وكان استقباله شعبيا ومن القلب.

فقد أحس الناس بفطرتهم، أنه من الممكن أن يكون أبوه فاسدا، وألا يكون هو كذلك.. أو يكون تعويضا عن فساد والده وأنه ليس من العدل أن يأخذوه بجريرة أبيه. وكان الناس مخلصين ومتسامحين فى ذلك. فقد ضاقوا بأبيه، ولا معنى لأن يضيقوا بابنه الذى لم يفعل شيئا.. بعد.. وتمنى الناس أن يفعل الابن أفضل وأصدق وأعم وأشمل مما فعله أبوه ضد الشعب!

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أجهزة السياسة الجهنمية تتحرك بسرعة.. فقد وجد على ماهر رئيس الوزراء فى ذلك الوقت أن فاروقا لم يبلغ سن الرشد، بالحساب الميلادى. فأصدر الفتوى بحساب ميلاده بالسنة الهجرية. وبالحساب الهجرى نودى به ملكا على مصر.

وهذه الفتوى قد سجلت نصرا لعلى ماهر على غريمه أحمد حسنين.. فاقترب خطوة من الملك الشاب.

وقد رأى الناس العقلاء فى ذلك الوقت أنه مادام قد ظهر حول الملك أناس من مثل على ماهر، وأنهم استطاعوا بهذه السرعة تطويع التاريخ الهجرى لصالح العرش، فليست هذه إلا باكورة التزوير والتضليل من أجل مزيد من السلطة. وكان استنتاج هؤلاء الحكماء فى موضعه لولا أن الفرحة التى غمرت الناس بتولى فاروق الحكم، قد غطت على صوت الحكماء.

وبسرعة تزوج الملك فاروق. ورأى الشعب فى هذا الزواج المبكر دليلا على الاستقامة. فلم يكن أيسر من أن يمضى الملك فى اللهو والعبث، وسوف يجد المنافقون ألف مبرر لذلك.. كأن يقال إنه صغير، وكأن يقال إنه يحب أن يجرب، وأن يقال: إن الملك مشغول بالسياسة عن الحياة العائلية.. كثير جدا الذى يمكن أن يقال، وقد قيل أيضا.

ولكن الشعب وجد فى رغبة الملك فى الزواج مبكرا، ثم فى الزواج، دليلا على أنه ليس كوالده. والشعب يحب أن يكون حاكمه مستقيما. لأن الحاكم يجب أن يكون قدوة. لأنه ليس منطقيا أن يطلب الحاكم من الشعب أن يستقيم وهو معوج، وأن يطلب إليهم الإيمان وهو ملحد، وأن يطلب إليهم التمسك بالروابط العائلية وهو منحل.

ولذلك كان زواج فاروق من فريدة ذو الفقار فاتحة خير.

ولكن عرف بعض الناس أنهم كانوا يغلبون الأمل على الحقيقة. وأنهم يحلمون.. فلم يختلف فاروق عن والده. بل كان أسوأ وأحط. وكانت زوجته فريدة تعرف ذلك وتدارى عليه. حرصا على كرامتها، وعليه هو، ولكن لم تفلح هى ولا غيرها فى إخفاء عورات فاروق، فقد عرف الناس كل شيء، وفى نفس الوقت لم يكن هو يعبأ كثيرا بأن يعرف الناس.

وعرف الناس أنه يمكن إضافة صفات أخرى إلى الملك فاروق الذى كان العامل الأول والعالم الأول: اللص الأول والمرتشى الأول والمزور الأول.. ثم المهرب الأول لثروته ومجوهراته قبل قيام الثورة! .

وسرقات فاروق – أو جنون السرقة عند فاروق – سلسلة طويلة من الفضائح الشائنة. التى تصيبه شخصيا وتصيب حاشيته والحكومات المتوالية التى ساعدته على السرقة وعلى التزوير وعلى النهب وعلى الاختلاس دون أن يجرؤ كثيرون أن يقولوا لجلالته: لأ.. عندك!

بل إن زعيما عندما وقف أمام الملك وكان الملك يرتعش مما تخيل أن سيطلبه الزعيم: إذا به يفاجأ بأن الزعيم يطلب شيئا غاليا. ويقول الملك خائفا: اطلب، قال الزعيم: أن أقبل يدك!

وكان ذلك صفعة لمصر كلها.. وهوانا ما بعده هوان. ولكن هوان الشعب فى ذلك الوقت، كان نياشين على صدور الزعماء!

وبسبب هذا الضعف فى تكوين الملك فاروق النفسى والثقافى، بدا قزما أمام عتاة السياسة الحزبية فى مصر. وبسبب هذا الضعف، كان الملك يحاول أن يبدو أقوى وأكبر.. ومن هنا علموه لعبة تغيير الوزارات وإهانة الرؤساء.. وجمع السلطة كلها فى يده.. دستورية وغير

دستورية.. وإصراره على أن يعطى هو الألقاب والنياشين ويعين ويفصل كبار الموظفين فى الدولة وفى الشركات وتجاهله لسلطات الوزراء ورؤساء الوزارات والاتصال برؤساء الدول دون علم من الحكومة أو البرلمان.. ولا يقبل نقدا من أحد..

واخترع له الوفديون صفة سرية وهمية سحرية اسمها «التوجيهات الملكية» .. فلا يكاد أحد يسأل عن شىء حتى يقولوا له: إنها توجيهات جلالة الملك.. إنها نصيحته السامية.. إنها رغبته العالية.. إنها وإنه جل جلاله- استغفر الله العظيم!

وضاعت وتاهت وضلت العدالة والشرعية بين الرغبات السامية والتهديدات الملكية وخنوع الزعماء، وخشوع كبار الموظفين والوزراء.. وتوالت الوزارات ونصائح الملك أيضا. والتف حول الملك كثيرون.. أصدقاء لياليه الحمراء، وترابيزات القمار الخضراء فى مصر وفى الخارج.. وأصبحت كل مصائر مصر، يرسمها الملك أو الذين حوله بعد منتصف الليل..

وكان عرش مصر مثل كرة القطن المبللة بالبنزين التى تنطلق بسرعة هائلة نحو النار.. وكلما أمعنت الكرة فى الانطلاق اكتسبت سرعة أكبر.

حتى كان ذلك اليوم الشهير ٤ فبراير ١٩٤٢ بعد أن استقالت وزارة حسين سرى باشا. وجاءت الدبابات وحاصرت قصر عابدين. وطلب السفير لورد كيلرن تعيين مصطفى النحاس رئيسا للوزراء. وجاءت وزارة الوفد على الدبابات البريطانية تهدد العرش وتدوس الكرامة المصرية.

ولكن أفلح الملك فى أن يسترضى الإنجليز وأن يسامحوه لمجرد أنه تردد لحظة أو لحظتين فى قبول الإنذار البريطانى. فجعلوه جنرالا فى الجيش البريطانى- وقد أسعده ذلك كثيرا!

ولما حاول الملك أن يتخلص من وزارة الوفد هذه بعد سنتين طويلتين عريضتين، وأن يأتى بأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى، رئيسا للوزراء سارعت بريطانيا بالرفض. وكان الرفض من كلمتين جاءتا فى إحدى البرقيات. كل كلمة منهما كالسيف الذى قطع ما تبقى للملك وللحكومة من كرامة. فقد كانت الكلمتان: لا تغير..

وكأن هاتين الكلمتين دبابتان بريطانيتان جديدتان أضيفتا إلى بقية الدبابات التى ركبها الوفد إلى الحكم! وقد سحقت العزة المصرية والكرامة الوطنية فجعلت العرش مقعدا خشبيا لبواب على قصر عابدين، وليس لملك أحبه الناس بمنتهى الصدق والإخلاص!

وكان يوم ٤ فبراير لطمة للجيش المصرى الذى تلقى الكثير من أشكال الهوان فى عهد فؤاد قبل ذلك.. وفى عهد فاروق: كان فاروق هو الذى يعين القائد العام ويختار وزير الحربية

وغيره من الرتب الأخرى. لأنه أدرك أن الجيش يجب أن يكون قاعدته التى يعتمد عليها فى مواجهة الأحزاب أو السفارة البريطانية. ولكنه لم يفعل من أجل الاحتفاظ بهذه القاعدة، شيئا كريما.

وكانت القوات المسلحة تعلم، ثم زاد علمها يقينا بعد ذلك، بأنه لا فرق بين الزعماء، فهم جميعا يركعون ويسجدون لأى إنسان يجلس على العرش.. أو لأى إنسان يجلس على مقعد السكرتير الشرقى فى السفارة البريطانية.. أى لأى مصدر من مصادر السلطة فى مصر!

وتوالت بعد ذلك وزارات وقامت مناقشات ومعارك، ووضحت وقاحة وسفالات الملك وحاشيته.. فهم يتاجرون فى التحف ويسرقونها له، وهم يتجرون فى الأسلحة الفاسدة، التى قتلت القوات المصرية فى مواجهة اليهود.. فلم يكن اليهود وحدهم، أعداءنا، وإنما كان بيننا من هم أكثر عداوة من اليهود.. وكان الملك يبيع دماء مصر ويحول ثمنها إلى البنوك الأجنبية.. وهو الذى طلب من حكومة الوفد أن تعطيه مخصصاته لمدة عام مقدما. وحولت له. وهو الذى باع يختا للدولة، ثم خصصه لنفسه.. وهو الذى تقاضى أكثر من مليون جنيه إصلاحا ليخت آخر، ولم يتطلب إصلاحه إلا بضعة ألوف، والباقى استولى عليه..

ومن المؤكد أن فاروق سوف يدخل كتب علم النفس أيضا تحت اسم «كليبتومانيا» أى جنون السرقة.. فقد سرق سيف شاه إيران من قبره.. وسرق خنجر أحد اليمنيين.. وسرق مجوهرات وتحفا من قصوره ووضعها فى قصوره الأخرى.. وكانت حاشيته تعرف فيه هذا الداء، فكانت تضع المسروقات أمامه.. ليخفيها فى جيبه. إنه مريض ولا شك فى ذلك. وليس هذا إلا مرضا واحدا. ولكن من أخطر أمراضه: إحساسه أنه صغير، فأراد أن يكون كبيرا. ومن مظاهر ذلك أن يتعالى على كل الناس وعلى الزعماء بصفة خاصة..

وفى كتب التاريخ، والصحف المصرية والأجنبية الكثير جدا. الذى لا حاجة بى لأن أسرده هنا حتى لا أبعد عن «سياق» الأحداث وعن المعنى الذى وجدته مناسبا لهذه الأوراق: «وهو التأصيل بلا تفاصيل» .

ويكفى أن أتابع بعينى تعدد الوزارات وأشكالها فى نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات فى حكومات سعدية وائتلافية ومحايدة وبعد ذلك حكومة وفدية جاءت بأغلبية. وكانت هذه الأغلبية غريبة. وتنطبق عليها العبارة الشهيرة: لا حبا فى «على» ولكن كراهية فى «معاوية» .. فقد اكتسح الوفديون فى الانتخابات، فقد ضاق الناس بما حدث فى عهد

النقراشــى وإبراهيم عبد الهادى وحسين سرى وضاقوا بالملك والإنجليز.. وتعلقوا بأوهام من بينها أن الوفد يســتطيع أن يحقق لهم شـيئا.. وقد لاحظ المؤرخون أن الانتخابات الوفدية لم تحقق نجاحا فى المدن وإنما فى الريف حيث تعاونت عناصر كثيرة على الضغط وتحقيق نوع من النجاح المشبوه.. ولما لم تحقق هذه الوزارة الوفدية شيئا توالت صدمات الناس.. وتحولت أصابعهم إلى مشــاعل من النار تحرق كل شــىء بعد ذلك فى مصر. حتى اكتملت النيران كلها فى حوادث القناة وبعد ذلك فى القاهرة..

وكانــت أيامــا تحرك فيها التاريخ علــى وهج النار وليس على ضــوء النور.. حتى كانت ثورتنا التى كان أكثرها نورا، وأقلها نارا.. ولكن عندما أتذكر ماذا حدث لى بسبب أن حكومة حســين سرى باشا المحايدة قد أشرفت على الانتخابات.. وأشرفت على الإعادة، فإننى أجد شيئا عجيبا.. بل لا غرابة ولا عجب فإنه من صنع الله وتدبيره!

وفــى حريق القاهــرة حاولت حكومة الوفــد أن تتخذ موقفا بطوليــا، اجتمعت. وأعلنت الأحــكام العرفية. وكان هدفها أن تجمع الدخان كلــه فى زجاجة. وأن تضع الزجاجة تحت قدمــى الملك فاروق. لتؤكد لــه أنها هى التى ألغت المعاهدة. وهى التى دفعت الشــعب إلى الغضب وأنها هى التى أخمدت الغضب. وبعد ذلك فليتقدم الملك مشكورا بمنحها ما تستحقه من مكافأة «سنية» - وهذه صفة المنح التى يتفضل «الملك مشكورا» بخلعها على الشعب!

وأقال الملك وزارة الوفد، بدلا من أن تســتقيل هى.. وســجل عليها التقصير فى الخطاب الذى بعث به إلى مصطفى النحاس باشا الذى عينه حاكما عسكريا قبل ذلك بساعات!

وكنــا نحن الضابط الأحرار قد اشــترينا الســلاح من رفح وأعطينــاه للفدائيين ليقاتلوا به الانجليز. ولكن موقف الوفد والحكومات المتوالية كان مخزيا حقا. بل إن للوفد أخطاء كثيرة ليــس أقلها أن يصدر وزير داخلية الوفد فى ذلــك الوقت أمرا إلى البوليس أن يقفوا فى وجه الانجليــز أو يوقفوا الانجليز. وكانت نكتة مبكية حقا: رجال البوليس يســتخدمون بنادق الرش، أى بنادق الخفراء فى الريف، يواجهون بها مدافع الانجليز ٢٥ رطلا، وهى أحســن المدافع فى ذلك الوقت. وكانت مذبحة لرجال البوليس!

وبســقوط وزارة الوفد التى بقيت فى الحكم سنتين، تدخل مصر فى مهزلة متجددة. ففى حوالى ٢٠٠ يوم تتفرج مصر على أربع وزارات. لا يعرف أحد كيف جاءت ولا كيف راحت.. وإنما باشــوات تظهر وتختفى.. وكأننا فى مســرح العرائس. أناس يظهرون، ولأسباب غير

معروفة يختفون، ولكن لا يغيب عن عيون السياسيين والمؤرخين أن الأصابع التى تحرك هذه العرائس كان الملك وحده..

إن الملك يتسلى - كما يقول التعبير الفرنسى المشهور. ولو كان الملك يتسلى بالباشوات فى جلساته الخاصة، كما كان يفعل، لهان الأمر، ولأصبحت التغييرات الوزارية لهوا وعبثا ملكيا. ولكن الملك كان يتسلى بالوزراء وبالشعب وكرامة المواطنين، دون أن يسأله أحد ماذا يفعل؟ بل إن الكثير من الزعماء كان ينتظر دوره.

فإذا جاء «فهى حكمة ملكية سامية».. وإذا لم يأت دوره، فهو على استعداد لأن يفعل أى شىء، حتى يجىء.

وكان الملك يعرف ذلك .. يعرف أنه أمام باشوات يتهالكون على الحكم بأى ثمن! وكنت أرى أن الفساد الذى استشرى فى مصر لا يحتاج إلى ثورة واحدة. وإنما إلى ثورات .. فالفساد قد تسلل إلى عظام مصر وإلى نخاعها.. وكنا نحن الضباط الأحرار قد تقاربنا والتقت وجهات نظرنا. وكنا قد حددنا موعد قيام الثورة نوفمبر ١٩٥٥، أى إن أمامنا ثلاث سنوات لا بد أن يشتد فيها عودنا، وتترابط خيوطنا ويقوى نسيجنا. وكل شىء حولنا يؤكد أن الذى اعتزمناه لا مفر منه. ونحن على يقين من ذلك.. فلا الملك يصلح ولا الأحزاب تصلح .. وسواء كان الجالس على العرش فاروقا الأول أم فؤادا الثانى، فقد انتهى كل شىء. ولا بد أن ينتهى. وقد وجدنا ألف سبب معقول للثورة على كل أشكال الفساد الدستورى، والفساد فى غياب الدستور، ولم تعد «التعبيرات» التى يستخدمها زعماء الأقلية وزعماء الأغلبية، تختلف عن بعضها البعض. ففى النهاية نجد أن الجميع عند قدمى الفاروق سواء..! وبدأت لعبة «لوزارات بلا جذور» .. أى الوزارات التى يلقيها الملك من فوق، وليست الوزارات التى يرفعها الشعب من تحت .. وزارات العرش وليست وزارات الشعب. وما دام الملك هو الذى يختار، فكل شىء مرهون برضائه، أولا وأخيراً.

وما دامت القاعدة فى اختيار الوزراء «الرغبة السامية» أو «الإرادة السنية» أو «التوجيهات الملكية» فالأساس هو المزاج الشخصى. وكما أن للملك مزاجا فلرئيس الوزراء مزاج أيضا. فالملك اختار رئيس الوزراء، ورئيس الوزراء اختار الوزراء.. ولا بد أنه قد «استمزج» - كما يقول إخواننا العرب - أى حاول أن يعرف مزاج الملك. واستجاب له.

وجاءت وزارة على ماهر يوم ٢٧ يناير وذهبت يوم أول مارس سنة ١٩٥٢.

وهــى وزارة ملكية. وأعضاؤها معارف أو أصدقاء. وعلى ماهر سياســى قديم وذكى، وقد عرف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا فى مواجهة الأغلبية الوفدية. ولذلك سارع بترضية الوفد، تجنبا لقوته، وبذلك يكتب لوزارته عمرا طويلا. ففى خطابه إلى الملك أشــار إلى أنه سوف يمشــى على سياسة «سلفه العظيم». أما الســلف العظيم فهو النحاس باشا. وإذا كانت لسلفه العظيم سياسة، فلماذا أقاله الملك؟ وإذا كان سيمشى على سياسته فلماذا جاء؟.

وإنما على ماهر قد بادر يمد يده إلى النحاس وعانقه وقبله .. واستجاب البرلمان إلى هذه المبادرة. ففى استطاعة على ماهر أن يحل البرلمان.. وحتى لا يفعل ذلك بادر الوفد بمعانقة على ماهر وحكومته. وكذلك البرلمان . وكان على ماهر يعتقد أنه ســوف يبقى طويلا، مادام قد كسب رضاء الأغلبية وحزب الأغلبية .

وحاول على ماهر أن يلعب بالوفد، وحاول الوفد أن يلعب بـه..

ولم تطل هذه اللعبة.. ولم يسترح الملك إلى سياسة التوفيق بين رغباته وبين تربص الوفد بالــوزارة وبالملك، ثم إن الملــك كان قد أدرك حقيقة الوضع. وكان الملك فاروق ذكيا، ولكنه كان مستهترا لا يبالى بأحد أى بشىء. وفى ذلك الوقت اتصل بى د. يوسف رشاد، وهو صديق للملك. وقال: إن الملك قد أعد قائمة بالذين سوف يغادرون مصر معه إلى الخارج. وقد وضع اسمى بين هؤلاء!

وفى ذلك الوقت كانت طائرة الملك تســافر إلى سويسرا تحمل المجوهرات والذهب. وكل الذى قرر الملك تهريبه إلى الخارج!

إذن لقد أدرك الملك بوضوح، أن النهاية قد دنت، وأنها كما قال تشرشل أثناء الحرب: بداية النهاية! وأنه يلعب على الوقت فقط. واتصلت بجمال عبد الناصر ونقلت إليه ما قاله لى د. يوســف رشــاد وهو صديقى، هنا اتخذنا قرارا جديدا فبدلا من أن تكون ثورتنا فى نوفمبــر ١٩٥٥ قررنــا أن تكون فى نوفمبر ١٩٥٢، فى نوفمبر بالذات، لأنه الشــهر الذى فيه الملك قد عاد من الإسكندرية ومعه كل الوزراء، وتكون ضربتنا إليهم وقد احتشدوا فى مكان واحد.

وكانــت وزارة علــى ماهر هذه قــد ضمت إليها واحدا من رجال الملــك هو أحمد مرتضى المراغى وزيرا للداخلية وقيل الكثير فى اســتقالة الوزارة . أو على الأصح إقالة الوزارة. فلم

يكن أحد يستقيل فى ذلك الوقت وإنما يعينه الملك ويزيحه الملك .. لأن هذه الوزارات قد ألقيت من فوق.. أو أسقطت على الشعب من فوق.. فهى ساقطة منذ البداية!

ولكن السبب الحقيقى الذى ينساه الزعماء الأحياء الذى حدث هو أن على ماهر طلب مقابلة السفير البريطانى سير رالف استفنسون فى ذلك الوقت لكى يبحث معه إلغاء المعاهدة.. ولكن السفير رفض المقابلة. وهذه أكبر ضربة من الممكن أن يتلقاها أى زعيم فى مصر. وكان معناها أن رئيس الوزراء غير مرغوب فيه. ولذلك قدم على ماهر استقالته فورا، لأن الطريق إلى الملك لابد أن يمر بالسفارة وليس العكس. ما دامت السفارة قد أقفلت باب الرحمة الملكية قد أقفل فورا. وسقطت وزارة ماهر! وكان على ماهر يأمل أن تبقى طويلا، وكذلك ولا أعرف أين يضع المؤرخون بعض الأحداث التى يخجل الإنسان من ذكرها للتدليل على الهوان القومى الذى لحق الشعب المصرى.

فعندما أبلغ البرلمان بميلاد فؤاد الثانى، كتب محضر الجلسة على جلد الغزال بماء الذهب وأرسله للملك! ولا أعرف - حقا - ما الذى يمكن أن يقوله المؤرخون عن مثل هذا القرار إلا إنه نفاق وامتهان للكرامة الإنسانية. هو أن الأغلبية الشعبية من أجل أن تبقى فى مقاعدها!

وأغرب من ذلك وأعجب أيضا ما فعله وزير الأوقاف حسين الجندى ونقيب الأشراف محمد الببلاوى عندما أعلنا قبل ذلك أن فاروقا من نسل رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وأن والدته الملكة نازلى بالذات هى التى تنحدر من سلالة السيدة فاطمة الزهراء.

وقد جاء هذا القرار بعد أن أصدر الملك فاروق مرسوما بتجريد أمه التى استقرت فى أمريكا من ألقابها ومخصصاتها الملكية.. وبعد الذى فعله فاروق فى أوربا.. بعد هذا كله يصدر هذا القرار كنوع من العفو الشامل عنه.. أو كنوع من صكوك الغفران.. غفران خطايا الملك والملكة! ثم من الذى يصدر صكوك الغفران؟.. وزير الأوقاف وكبير الأشراف. لماذا؟.. من أجل السلطة والحكم.

إنها أقسى وأقصى درجات الهوان! وجاءت وزارة أحمد نجيب الهلالى باشا.

وفيها أحمد مرتضى المراغى رجل الملك وزيرا للداخلية والحربية والبحرية أى إن البوليس والجيش فى يد الملك - أو إن الملك توهم ذلك!

وهذه الوزارة كالسابقة حاولت أن تجعل لها مبررا شرعيا. ولا شرعية إلا بالشعب. فكان لابد أن ترضى حزب الأغلبية. أو ترضى الشعب من وراء هذا الحزب.. أو تحاول

أن تثير الشعب على هذا الحزب.. وكلها محاولات عتيقة لتشغل الشعب بها، لعله يلتف حولها إذا أفلحت فى تحقيق شىء يرضيه. وأعلنت ضرورة التطهير وتقويم الفساد العام - مع أن تشكيل هذه الوزارة هو قمة الفساد والإفساد. فهى كالحكومة السابقة، بلا جذور ولا سند دستورى !

وهى كالوزارة السابقة دليل جديد على الملكية المطلقة.. وحكم الفرد! وكان الملك يتدخل فى كل شىء. وكان يفصل فى أخطر القضايا على مائدة القمار. وهمس الذين حول الملك يقولون إن «النار تقترب من ثوب جلالته». أى إن التطهير الذى أعلنه الهلالى، سوف يقترب من الحاشية الفاسدة للملك.. وأن حريق القاهرة سوف ينتقل إلى حريق فى قصر عابدين ولكن الملك لم يهتم كثيراً. فلا مانع عنده من أن يلهو ويلعب..

ومن مظاهر اللهو عند الملك أنه قرر أن يكلف اثنين فى وقت واحد بتشكيل الوزارة الجديدة. ومضى كل واحد منهما يختار رجاله.. وكانت نكتة مؤلمة. فقد كلف بهى الدين بركات باشا، وحسين سرى باشا بتشكيل الوزارة.. ثم استقر رأيه ورأى حاشيته على اختيار حسين سرى. وجاءت وزارة حسين سرى يوم ٢ يوليو ومكثت ١٨ يوما. وكانت الوزارة هوانا جديدا لمصر، وأضيف إلى هذا الهوان عار جديد هو أن يكون من رجالها كريم ثابت صديق الملك. وله صفات أخرى يعف قلمى عن ذكرها..

وفى عهد حسين سرى حدثت انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط. وفازت قائمة الضباط الأحرار. وعين محمد نجيب رئيسا للنادى. أما قائمة الملك فقد فشلت تماما وكان أكبر تحد للملك وصفعة له وللذين حوله.

وفى ذلك الوقت تناقشنا فيمن يرأس الضباط الأحرار. وكان علينا أن نختار بين عزيز على المصرى وفؤاد صادق ومحمد نجيب. أما عزيز المصرى فهو أبونا الروحى، ولكن تقدمت به السن فهو غير قادر على الكفاح والتحدى من جديد.. أما فؤاد صادق فلم يلق استحساناً من أحد، ولكن محمد نجيب هو الذى فاز فى النهاية فقد كان عبد الحكيم عامر أركان حربه، وهذا هو الذى رجح اختيارنا له..

وكانت انتخابات النادى يوم ١٨ يوليو..

وفى ٢٠ يوليو اتصل أحمد أبو الفتح، وهو صديق جمال عبد الناصر، ولم أكن قد عرفته - وكل ما أعرفه هو أنه رئيس تحرير جريدة المصرى. وقال أحمد أبو الفتوح لجمال

عبد الناصر: إن مرسوم تشكيل الوزارة الجديدة يعد الآن.. وإن حسين سرى عامر سوف يجىء وزيرا للحربية.

وكان ذلك خبرا مفزعا. فهذا الضابط حسين سرى عامر كان يعرف على الأقل سبعة من الضباط الأحرار التسعة. وهذا معناه أنه إذا جاء وزيرا فسوف يقضى علينا تماما. وفى ذلك إعدام لنا جميعا. ولذلك تقرر قتل حسين سرى عامر الرجل الذى قال للملك فاروق: أترك لى هؤلاء الضباط وأنا أقضى عليهم.

ولذلك ذهب جمال عبد الناصر وحسن إبراهيم وحسن التهامى وكمال رفعت إلى بيت حسين سرى عامر. وتسلق حسن التهامى مواسير المياه، وأطلق الرصاص على حسين سرى عامر فلم يصبه. وهربوا معا بسيارة جمال عبد الناصر. وجاء البوليس يقتفى أثرهم.. واهتدى إلى آثار عجلات السيارة الصغيرة. ولكن جمال عبد الناصر غير هذه العجلات. فلم يعرف أحد من الذى كان يريد قتل حسين سرى عامر.. وعندما قامت الثورة أدرك حسين سرى عامر أنها نهايته. فحاول الهروب. وأمسكناه وهو فى طريقه إلى ليبيا. وحوكم. وصدر ضده حكم. ولكن جمال عبد الناصر، أكرمه، وصرف له معاشا شهريا.

ولكن فى هذا اليوم قررنا أن يكون موعد قيام الثورة هو يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وفى هذا الوقت وصلت إلى القاهرة الكتيبة ١٣ بقيادة صلاح نصر. وهى الكتيبة التى نعتمد عليها فى حركتنا وتنفيذ المراحل النهائية للثورة.. واستبدل الملك بحسين سرى عامر، إسماعيل شيرين زوج أخته الأميرة فوزية.. ولم يكن ضابطا فى الجيش، واعتبر الجيش أن تعيينه إهانة أخرى.. ثم صدر مرسوم تشكيل الوزارة الجديدة برئاسة أحمد نجيب الهلالى فى ٢٢ يوليو.. ولم تبق هذه الوزارة سوى ساعات.. وعلى المؤرخين أن يشغلوا أنفسهم بالأسباب التى أدت إلى اختيار أحمد نجيب الهلالى مرة أخرى للوزارة.. وأسهل وأصدق التفسيرات هو أن الملك قد استخف بكل شىء وبكل الناس.. وأن أحدا لم يعد يهمه لأنه لا يجد أحدا يقف فى وجهه. وإنما الكل فى انتظار رضائه السامى..

لقد كان الدافع العام عند الزعماء ورؤساء الوزارات شخصيا بحتا. وكانت وزارات المائتى يوم هذه، صورة صارخة للاستهتار من جانب الملك، والهوان من جانب رؤساء الوزارات والوزراء.. وليس مرتضى المراغى إلا نموذجا لذلك. فهذا الرجل لا نكن له أى احترام من الناحية الوطنية لقد كان أبوه رجلا وطنيا. فعندما كان أبوه شيخا للأزهر أعلن فى بداية الأربعينات وأثناء الحرب العالمية الثانية: إن هذه الحرب ليست لمصر فيها ناقة ولا جمل

– أى ما شـأننا وما شـأن حرب بين الانجليز والألمان إنهم يحاربون لأسـباب خاصة بهم، فلماذا ندفع نحن الثمن؟!

وكان هذا الرأى كافيا للإطاحة به.

أمـا ابنه أحمد مرتضى المراغـى، فلم يكن وطنيا بأى معنى. فقـد خرج من مصر وعاش يهاجمها. وحوكم غيابيا. وحكم عليه بالإعدام. وتجريده من الجنسية المصرية.

وتلقيـت خطابـا من والدة أحمد مرتضى المراغى، تقول فيـه إنها مريضة وإنها تريد أن تـرى ابنها قبـل أن تموت.. ووافقت علـى أن يجىء مرتضى المراغـى ويجلس مع والدته، وتسقط عنه كل الأحكام. وتعود إليه جنسيته المصرية. وأنا ضد أن يحرم الإنسان من جنسيته المصرية، لأى سـبب. أما أن يسـجن الإنسـان أو حتى يعدم، فهذا يحدث ولكن أن نحرمه مـن مصريته مهما كانت غلطته، فهذا ليس من حقـى، ويجب ألا يكون من حق أحد.. إننى أعترف بريفيتى، وبأن القرية والأرض هما بشـرتى ودمى.. وانتمائى إلى الريف وإلى ميت أبو الكوم بالذات، يعطينى سـعادة مطلقة.. وقد عادت إلى مرتضى المراغى جنسيته، وعلى رغم أننى لم أصدر قرارا بذلك حتى الآن.

وعلى الرغم من أن مرتضى المراغى قد أخطأ كثيرا فى حق مصر وشعبها، فإن الذى لمسه خارج مصر من الهوان بعد الثورة وعذاب ما بعده عذاب ولكن أن يعود إلى مصر، لا لشخص، وإنما من أجل سيدة مريضة، عقاب آخر..

ولا بد أن يعود المؤرخون إلى حكومات المائتى يوم هذه، ويدرسوها ويحللوها . وسوف يجـدون فيها الصورة المضادة تماما للثـورة المصرية وكل أحلامها وآمالها.. صحيح أن هذه الوزارات بتواليها الهزلى المهين هى السـبب. وأنها كانت أحد الأغراض الفاضحة لفسـاد الحكم، وقد أحبطه الشـعب بوعيه ورفضه.. وكانت ثورتنا على كل أشـكال وألوان الفسـاد والعمالة والخيانة..

ويكفى أن يعود الإنسان إلى فرحة الشعب بقيام الثورة ونهضة الروح وحيوية الأقلام فى ذلك الوقت يتأكد لدينا جميعا: أن الشـعب لم يمت، وأن الأمل لم ينطفئ. وأن مصر العريقة ليست عقيما.

ولـم تكن مصر كذلك فى يـوم من الأيام.. وإنما أصابها ما أصاب كل الشـعوب من نوبات الضيق، وأزمات اليأس. وكل ذلك مضى، ولا بد أن يمضى، ليعود فى صورة أخرى، وينهض أبناؤها للأخذ بيدها.. وإلى الأبد!

وقد قام بالثورة شـباب من أبنائها، وهم شـباب لأن مصر العريقة العظيمة شـابة، إلى الأبـد.. وقد نهضت مصر بأبنائها لتقويم الذى أعوج فى سـلوك حكامها، ولبناء ما هدموا، ولتجعل القيم الأخلاقية والمبادئ ومصر نفسها فوق الجميع.

ونحن الشباب، ولم نعرف اليأس، وعلى رغم قسوة الحياة، والظروف العاتية، والعقبات المدمرة. وإنما إيماننا بالله وبأنفسـنا وشـعبنا، هو الذى جمع بيننا فى وجه كل السـلطات المصرية والأجنبية حتى كان لنا النصر بإذن الله ومن أجل مصر..

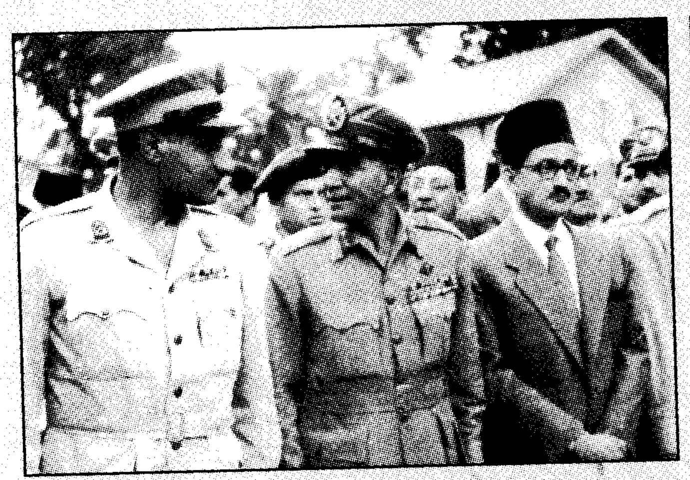
❑❑❑



١ - الملك فاروق عندما كان صبيا .



٢ - الملك فاروق وبجواره مصطفى النحاس باشا .



٣ - عبـد الناصر ومحمد نجيب .



٤ - على ماهر باشا .



٥ - يوسف رشاد



٦ - أحمد حسنين باشا



لحظات لا تنسى

■ محمد إبراهيم إمام رجل مهذب ولكن وظيفته مفزعة.

■ كامل القاويش ارتبطت ترقيته بلف حبل المشنقة حول عنقى.

■ حينما نسى أنور حبيب حدود وظيفته وهاجم الإنجليز.

■ لم أجد لى وظيفة فى أى مؤسسة صحفية.

لعلها لحظات تأمل. أستعرض فيها أحداثا من حياتي..وأتوقف عندها. وأحاول أن أستخرج منها المعنى والحكمة وأسوقها لطلائع مصر من الشباب.. فقد كنت شابا مثلهم. وكنت أتابع ما يجرى حولى باهتمام شديد. ومن غير الاهتمام الشديد، والاشتراك فيما يجرى حولنا، من الصعب أن يكون للإنسان دور فى حياته. فإذا كان له دور وآمن به، فمن الصعب أن يزحزحه أحد عن هذا اليقين. وإلى هذا اليقين النفسى والثقة التامة فى نفسى وفى ربى وحبى لوطنى، أعزو كل ما أصابنى وكل ما أصبت بعد ذلك..

وأنا أولا وأخيرا فلاح. أحتفظ للريف بكل قيمى وكل آمالى، وكل آلامى أيضا. ويوم دخلت السجن. وانسدت كل أبواب الفرج فى وجهى. ويوم فصلت من الجيش ويوم انتزعت من أسرتى. ويوم انحشرت الحياة بين جدران مظلمة باردة. أدركت أنه لم يبق لى إلا قريتى.. إلا الريف. إلا الأرض والزرع وأهلى.. وإلا الحياة البسيطة. كسرة الخبز وشربة الماء - هكذا تعلمت من جدتى أول درس فى الانتماء إلى الأرض.

ولا أدعى أننى أملك فى قريتى شيئا: لا مالا ولا نسبا ولا حسبا ولا طبقة. لا شىء إلا نفسى. وليس هذا الذى أملكه قليلا. وقد كشفت لى الأيام أننى أخفى تحت جلدى شعورا قويا بأننى «شىء آخر» .. وبأننى مختلف عن الآخرين.. وأن هذا الاختلاف عن الآخرين يضاف إلى حسابى، ولا يخصم من حسابى.. إن فى داخلى «شعورا بالامتياز» .. لا أعرف معنى هذا الشعور ولكن هذا الشعور يعوضنى عن الضياع الذى أحسست به فى السجن وفى الشوارع.. إن هذا الشعور هو الذى يوضح لى معالم الطريق، وهو الذى يضىء لى يوم تظلم الدنيا، وقد أظلمت كثيرا.. وهو الذى يتحول إلى غطاء فى الليلة الباردة، وإلى أمان فى الليلة التى أرتعد فيها خوفا..

وليس هذا الشعور بالامتياز غرورا، ولا زهوا، ولا رغبة مكبوتة فى التشفى والانتقام.. لا شىء من ذلك،فليس عندى ما أزهو به.. فما الذى يمكن أن يزهو به فلاح صغير فقير.. وقد امتلأت حياتى بأحداث كثيرة وأسماء كثيرة.. أسماء للأشخاص وللأماكن. وأنا - ولله الحمد -

استمتع بذاكرة تصويرية قوية.. فأنا أستطيع أن أتذكر «هيئة الأشياء» وشكل الأشخاص... فأتذكر أن فلانا جاءنى من ثلاثين أو أربعين عاما، وكان يرتدى قميصا وبنطلونا وكان لون القميص أبيض وكان لون البنطلون رماديا.. وأكثر من ذلك أننى أستطيع أن أتذكر التواريخ بمنتهى الدقة ولابد أن يكون سبب ذلك أن ذاكرتى مغناطيسية. أما سر ذلك فهو أننى شديد الاهتمام. وكل شىء عندى له معنى وله دلالة. وهذا الاهتمام هو المغناطيس الذى يمسك الأشياء والأشخاص والأحداث فى ذاكرتى.

وقد عاونتنى هذه الذاكرة كثيرا وقد لاحظت ذلك على نفسى وأنا فى السجن. فكان خيالى يروح ويجىء بين الطفولة والرجولة، ذهابا وإيابا.. وكنت فى ساعات فراغى فى داخل السجن أحاول أن أسترجع الكتب التى قرأتها وأرقام التليفونات وأرقام محاضر البوليس وأرقام السيارات وعدد السلالم والأبواب والنوافذ..

وتذكرت فى السجن قصة للكاتب النمساوى استيفان تسفايج اسمها «اللعبة الملكية».. وفى هذه القصة يروى حكاية سجين كان بطلا فى الشطرنج. ولم يكن مسموحا له بأن يقرأ أو يكتب، فراح هذا السجين يستعرض لنفسه كل ما يحفظه من الشعر والنثر. فإذا فرغ من تلاوته لنفسه، عاد فتلاه بالمقلوب.. ثم إنه أمضى الوقت فى وضع ألغاز فى الشطرنج وراح يحلها.. ويجعل عشرات من الناس يلاعبونه فى وقت واحد ثم يتغلب عليهم.. قرأت هذه القصة وقلت لنفسى: خيال كاتب وليس له أساس من الصحة حتى دخلت السجن، فوجدت أن الذى قاله صحيح. ورأيتنى أفعل ذلك. بل رأيتنى أحسن حالا، فقد فكرت وتأملت وقررت وتعلمت. ورسخت فى أعماقى دروس فى غاية العمق..

وسوف أعود إلى ذلك فيما بعد..

وهذه التأملات تعطينى حريتى فى أن أتجول بعقلى وخيالى فى حياتى كلها طولا وعرضا أستخلص المعنى والحكمة. وأدعو غيرى لأن يقرأ ويفكر ويوقن فى البداية والنهاية أنه لا يأس مادام الإنسان حيا. وشىء أهم من ذلك فى نظرى: أن الإنسان قيمة. وأن الله لم يخلق أحدا عبثا. وأن الإنسان يستطيع أن يجعل لنفسه قيمة، ولحركته هدفا، ولدوره فى الحياة وزنا. ولكن المشكلة الحقيقية فى حياة الناس- وهذا ما اهتديت إليه فى السجن أيضا - أن الناس تأخذهم الحياة.. وتخطفهم لقمة العيش، وليسوا هم الذين يخطفونها..، والسلطة تسلب إرادتهم، ولكن لو اتسع وقت الإنسان، وتوقف لحظة واحدة يستعرض حياته.. وينقى

عقله من شوائبه، ونفسه من شواغلها، ووجدانه من هواجسه.. هنا فقط تنكشف للإنسان حقيقته. وهنا فقط من الواجب عليه أن يقرر: كم تساوى هذه الحياة؟ أو كم يساوى هو؟

أما أنا فقد أجبت عن هذا السؤال: إن حياتى تساوى الكثير.

ولذلك استهنت بالخطر، واستخففت بالخوف. ووجدت أن العقبات فى حياتى ضرورة حتى لا أنزلق. ولولاها ما ثبتت قدمى على الطريق..

عندما جاء الملك عبد العزيز آل سعود فى أول زيارة لمصر فى يناير سنة ١٩٤٦ كنت أقف على ناصية الشارع بين عبد الخالق ثروت وابراهيم باشا واحدا مجهولا بين مئات الألوف وقفوا يتفرجون على أسد الجزيرة العربية وبطل أبطالها.. وقد تقدمت الملك عبد العزيز الموتسيكلات التى يركبها رجال الشرطة الملطيون. فقد كان البوليس فى أيدى الانجليز. وكان الكونستبلات يتلفتون يمينا وشمالا، حرصا على سلامة الملك. وكان البوليس يبحث عنى أيضا، ويخاف منى على الملك.. وكنت أضحك، بين الناس الذين لا يعرفوننى وأقول: مالنا والملك عبد العزيز.. فليس هذا الذى نريد أن ننتقم منه!

وكان أمين عثمان قد اغتيل قبل ذلك بخمسة أيام. وألقى القبض على حسين توفيق وآخرين، وبدأ التحقيق معهم، وبدأ حسين توفيق يعترف بكل شىء حتى بمخازن الأسلحة التى أخفيناها فى مغارات المقطم.. إذن سوف يجىء دورى بين لحظة وأخرى مافى ذلك شك..

ولا شىء أبشع فى حياتى كلها من لحظات الانتظار لمصيبة سوف تقع. والمثل الشعبى عندنا يقول: وقوع البلاء أهون من انتظاره.. وأمضيت أياما طويلة فى انتظار هذا البلاء حتى كان ذلك البلاء..

ولابد أن أتوقف، حتى وأنا أسجل هذه السطور، لكى أعود بذاكرتى للهيئة التى تم بها هذا البلاء.. ففى تلك الليلة عدت متأخرا، وسهرت بعض الوقت. وأويت إلى فراشى.

ولابد أن أتوقف لحظة أخرى أجمع أنفاسى وأضم أصابعى على القلم وألاحق هذه الكلمات بعينى. فإننى أكره بياض الورق الذى أمامى. ولذلك سبب سوف أصفه حالا.. بل هو الشىء الوحيد الذى هز أعماق أعماقى. ولم أنسه لحظة واحدة. وكان من أوائل القرارات التى اتخذتها عندما أصبحت رئيسا للجمهورية بعد ذلك اليوم بأربعة وعشرين عاما. !

وليس من السهل على الآن أن أتجه مباشرة إلى وصف اللحظة الرهيبة.. فقد كنت أقرأ لطه حسين أوصافا غريبة للأشياء. فكان يقول: صوت أبيض.. أو صوت نحيل.. وكنت أندهش كيف يكون الصوت أبيض وكيف يكون نحيلا؟

حتـى كانت تلك اللحظـة. فقد عرفت «الخـوف الأبيض» .. أما أنه خـوف. فمن المؤكد أنه كذلك.

أما أنه أبيض فهذا ما سوف أرويه، وفى ذلك اعتذار عن دهشتى لما كان يقوله طه حسين.. فجـأة، فى تلـك الليلة، انفتح نور الغرفة. وكنت تحت الغطـاء نائما تماما. الغرفة مظلمة. الظلام والسـكون والدفء والأمان هى الجدران الأربعة التى كنت مسترخيا فيها أو تحتها.. وفجأة أضيء كل شـيء.. وتبدد كل شـيء: الدفء والأمان والسـكون، حتى الخوف تبدد.. فلم أعد أشـعر بالخوف. إنما قد لفنى شـعور بالاحتقار الشديد لهذا الذى أمامى: طابور من الرجال يتقدمهم محمد إبراهيم إمام رجل البوليس السياسى ونجم الفزع فى ذلك الوقت. وهو رجل مهذب وفى غاية الأدب ولكن وظيفته مفزعة..

وحاولت أن أجمع قواى وأن أخفى ضيقى وقرفى وفزعى أيضا، فقلت لمحمد ابراهيم إمام: معـك أمر من النيابة؟ فتراجع محمد ابراهيم خطوة إلى الوراء فى أدب. وأشـار إلى شـخص وراءه: معى النيابة كلها! وكان وكيل النيابة هو كامل القاويش، وهو أيضا من وكلاء النيابة اللامعين، ومن رجال الملك. الذى عينه بعد ذلك محافظا للقاهرة حتى قامت ثورتنا بعد ذلك بست سنوات. وهو منصب لا يرقى إليه إلا من كان رفيع الشأن أو من محاسيب الملك..

انتهت اللحظة التى أفزعتنى والتى جعلتنى أقرر بعد ذلك، وإلى الأبد، ألا يقبض على أحد ليلا أو عند الفجر.. وألا يصاب أحد بما أصبت به فى نفسى وفى أهلى وفى حرمة بيتى..

وأعترف أن هذه الحالة النفسـية التى هزت أعماقى ظلت كامنة فى نفسـى، وقد نغصت حياتى كلها.. وعندما انفردت بنفسـى أفتش فيها عن مصادر متاعبى، وضيقى بكل شـيء.. لم أهتد إلى شـيء.. فكنت أقول لنفسى: إن السجن لا يضايقنى. إنى اخترت العمل السياسى. وهذا السجن ضرورة. فأنا الذى اخترت ومادمت اخترت فمن الواجب أن أتوقع كل شيء..

وأتساءل من جديد: إذن ما الذى يضايقنى؟

وأخـيرا اهتديت بعد سـنة ونصف سـنة، إلى أن هذا «الخوف الأبيـض» هو الذى صبغ بالسـواد فى حياتى.. فلما عرفت هذا السـبب العميق، خفضت قبضـة القرف واليأس الذى ساورنى بعض الوقت.

وإننى أعترف أيضا بأننى لم أسمح لليأس أن يسـتبد بـى طويلا. حدث أن ضقت بالدنيا. ولكن لم تفاجئنى الدنيا بما لم أكن أتوقع.. ثم إنه مهما حدث لى فإننى لن أخشى شيئا، ففى

داخلى ذلك الكنز الذى اهتديت إليه: أن هناك شيئا فى أعماقى أعتز به. وهذا الشىء أو هذا الشعور بالامتياز، هو الذى كان يعوضنى أولا بأول عن كل خسارة تصيبنى..

وفى سـجن الأجانب عرفت معنى الانتظار الأليم.. فقد تركونى بلا محاكمة عشـرة أيام. وشـكوت إلى النائب العام. وجاءنى كامل القاويش يسألنى عن البرقيات التى أرسلتها للنائب العام. فقلت: إن أحدا لم يسألنى إن كنت شاركت فى اغتيال أمين عثمان.. واتصلت بشكل ما، بحسين توفيق وآخرين ليعدلوا عن أقوالهم. وعدلوا. ثم عاد حسين توفيق فأكد أقواله. ثم عدل وعدلوا.. فأبعدونى من الدور الأول فى سـجن الأجانب، إلى الدور الثانى. وطلبت مواجهتهم جميعا. وواجهتهم وعدلوا عن أقوالهم.

ثم نقلونى إلى سجن قره ميدان.

ولابد أننى فكرت كثيرا فى كامل القاويش هذا. إنه وكيل نيابة يؤدى واجبه. وواجبه أن يلف حبل المشنقة حول عنقى بإحكام شديد. ويكون إعدامى بعد ذلك سببا من أسباب ترقيته إلى وظيفة أعلى. وأنا لو استطعت أن أغتاله لفعلت.

كلانا له هدف.. أنا: هدفه.

وهو: هدفى.. والنظام الذى يمثله.

فلم يكن كامل القاويش بالذات وإنما النظام الفاسد غير الوطنى الذى يبيع الشعب ويشترى الإنجليز والسلطة، هو هدفى. وليس أمين عثمان هذا إلا عميلا بريطانيا خائنا. ويوم اغتياله كان يتنـاول غداءه مع السـفير البريطانـى- منتهى الرضاء والقوة والسـلطة. بل إنهم كانوا يعدونه لأن يكون رئيسـا للوزراء.. فهو الرجل الذى أراد أن يزوج مصر إلى بريطانيا «زواجا كاثوليكيا» - أى زواجا بلا طلاق!

وتصادمى مع كامل القاويش هو تصادم إرادتين. إرادته هو وإرادتى أنا أيضا.

وأشـهد أن كامل القاويش كان رجلا مهذبا. ولكن دوره فى حياتى دور كريه. وكان يؤدى هذا الدور الكريه بمنتهى البراعة!

وهنـا أتذكر مقـالا لأديب مصرى كبير هو أحمـد أمين.. فقد كتب مقـالا عن أن «الحياة رواية».. وأن كل واحد منا له دور فى هذه الرواية وأن هذا الدور، كالرواية نفسـها مؤقت.. ففـى هذه الرواية نجد رجلا يقوم بدور الملك، ولكنه لا ينطق بكلمة. وعلى الرغم من أنه أهم شـخص، فإن أحدا لايهتم به فهـو منظر. ثم إنه لايتكلم.. ومن الممكـن أن نجد فى الرواية

خادما، ولكن دوره حيوى وشـخصيته جذابة.. فعلى الرغم من أنه أدنى من الملك بكثير. فإن دوره أكثر حيوية وأهمية.. ومن الممكن أن نجد فى هذه الرواية جلادا سفاحا كريها..

ومعنى ما كتبه أحمد أمين هو: ليس المهم المنصب الذى يشغله الإنسان فى الرواية أو فى الحياة، ولكن المهم: هل يؤديه بإتقان؟ لأنه من الممكن أن يؤدى إنسان دورا كريها ولكن بصورة رائعــة.. ولذلك وجدت العذر لكامل القاويش، أنه يــؤدى دوره ويريد أن ينجح.. ولما أحس أننى سوف أؤدى إلى فشله، نقلنى من سجن الأجانب إلى سجن قره ميدان.. ولا ألومه، فلكل واحد منا دور فى الرواية أو فى الحياة.

وفــى المحكمة رفض أنور حبيب، وهو وكيل نيابــة آخر أن يؤدى دوره الكريه بإتقان.. وإنما نســى أنه وكيل نيابة وأن من المفروض أن يرفعنى إلى المشــنقة.. فهاجم الانجليز.. فهم الأعداء الحقيقيــون لمصر.. وأن العداء لهم حب لمصر، وأن الثورة عليهم واجب وطنى.. وقال أيامها: إن كل كلب فى مصر ينبح يلعنهم، وكل هواء يريد أن يعصف بهم..

إن أنــور حبيب – بلغة المســرح – قد خرج على النص المكتــوب.. وأضـاف من عنده مالم يكتبه المؤلف..

أضاف هذا البعد الوطنى، الذى من الصعب أن يتجرد منه أى إنسان!

وأمام محكمة الثورة وكنت عضو اليمين، وقف أمامى كامل القاويش محافظ القاهرة متهما بالفساد. أو بالاشتراك مع الملك فى إفساد الذمم والحكم. ووقف وكيل النيابة العسكرية يهاجم كامل القاويش، كما هى العادة. ولكنه ارتكب خطأ. فقد روى موقف كامل القاويش من قضية أمين عثمان. وهنا التفت إلى عبد اللطيف بغدادى رئيس المحكمة وقلت له: يا بغدادى.

قــال لى: نعم.. قلت: ارفع الجلســة لأن وكيــل النيابة قد أثار موضوعــا أنا طرف فيه. ولابد أن أوضح لك الموقف. ورفعت الجلسة.

وقلــت له: واحد مــن اثنين: إما أن ترفع من محضر المحكمــة كل ماورد عن قضية أمين عثمان، وإما أن أتنحى.

قال لى: وهو كذلك. يرفع كل ما يتعلق بهذه القضية.

وعادت الجلســة. وأعلن البغدادى أن المحكمة قررت اســتبعاد كل ما يخص قضية مقتل أمين عثمان.

ولم يكد القاويش يسمع قرار المحكمة حتى نهض واقفا قائلا: كنت على يقين من أن هنا عدالة وقيما أخلاقية..

وحوكم القاويش. وأدين. ولم تنته هذه الجلسة من ذاكرتى.

وإنما اسـتعدتها كثيرا وطويلا فى طريق عودتـى إلى البيت.. تذكرت يوم أضاءت غرفتى لتظلم نفســى، ولأراه أمامى هو ورجال الشـرطة.. وأرى كل شىء يتساقط من حولى: الفراش والنوم والأمان.. وكيف أننى تمنيت أن أقتله.. وكيف إنه حاول أن يسـتدرج حسـين توفيق وآخرين إلى الاعتراف بكل شىء. واعترفوا عند منتصف الليل، فلم يكن يحقق معهم إلا عند منتصف الليل، وهو يقدم لهم الكفتة والكباب.. وكيف لم يتركوا شـيئا واحدا سـرا.. وكيف إنهـم قالوا إن هناك تنظيما عسـكريا آخر لا يعرفونه.. وإننى همـزة الوصل بين التنظيمين المدنـى والعسـكرى.. وكيف إننى أبرقت مرات للنائب العام أتهمـه.. وكيف إنه ضاق بى.. وكيف كنا نتصادم، كل واحد منا يريد أن يحقق انتصاره على جثة الآخر..

ثم دارت الأيام، وأتت به الثورة متهما أمامى، هو والنظام الذى يدافع عنه ويمثله..

وأعود إلى نفســى. فمـا الذى أجده فيها. لم أضمر له أى شـىء عندمـا حكمت المحكمة ببراءتـى. لقـد انتهى كل شـىء. وكان على أن أبحـث عن عمل. فأنا رب أسـرة. وأنا فقير. وحاولـت أن أجـد عملا. ثم اتجهـت إلى الأعمال الحـرة، ولكن الذى فـى أعماقى لم يهدأ. ولم يسـكن. إن شـيئا فى داخلى يقول لى: أنت أقوى من هـؤلاء.. أنت أقوى من الحكومة.. أنـت أفضـل من هؤلاء.. إن لك دورا آخر.. لا شماتة ولا مرارة.. لا حقد.. وعندما وقف كامل القاويـش أمامى.. أنا فى مقعد القوة، وهو فى هـوان الضعف. وجدت أنه: ليس القوى الذى ينتقم من الضعيف.. فلست قويا لأنه ضعيف، ولكنى كنت قويا يوم كان كامل القاويش قويا.. إنه لم يسـتطع أن يقهرنى، ولم يسـتطع أن يحطمنى. إن الذى فى داخلى أقوى وأرسخ.. وإن هذه النزوات العابرة تفسد طاقتنا، وتبدد قدراتنا، وتضلنا سواء السبيل..

أما الذى تعلمته من تجاربى فيما بعد، فهو أنه ليس أقوى من الإنسان إذا اهتدى إلى هذه الحقيقة. أى إلى أنه قوى وأنه قوى بصفاته الذاتية، لا بأهله ولا بماله ولا بطبقته.. إنه أقوى إذا اختار أن يكون صادقا مع نفسه صادقا مع ربه.. وسوف ينتهى من ألوف التجارب العميقة فى حياته إلى حقيقة أخرى بسـيطة قليلة الكلمات ولكنها عميقة المعانى صعبة التطبيق: أنه لا يصح إلا الصحيح.

إننى عندما أسـتعرض خـط حياتى طالعا نازلا، معتدلا ملتويا، ظاهـرا خفيا فإننى أهز رأسى مستمتعا بما حدث.. فلا شىء يبعث على رأسى أو على الأسف، وإنما كل شىء يمشى نحـو قـدرى.. وقدرى هـو إرادة الله.. ولو عدت بذاكرتى إلى ما كانت عليه حالتى فى سـنة

١٩٤٩ حتـى يوم ١٠ يناير سـنة ١٩٥٠، لوجدت شـيئا لا يصدقه العقـل. ولكنهـا إرادة الله فـوق كل إرادة، وحكمته فوق كل تدبير.. وصدقت الكلمة المأثورة التى تقول: يدبر المدبرون والقضاء يضحك!

إن الإنسان يدبر ولكن قضاء الله وقدره قد أعد لنا شيئا آخر!

من الذى يسـتطيع أن يتصور أن هذا الشـاب الذى كان مفلسـا تماما سـوف يكون رئيسا لجمهورية مصر بعد عشـرين عاما. ثم يختار له القدر مصيرا لا يخطر له أو لأحد على بال. أن يشـارك فى ثورة يوليو ٥٢ وأن يقوم بالثورة عليها فى ١٥ مايو سـنة ١٩٧١ وأن يتحقق له وعلى يديـه وبفضل التضامن العربى، أعظم انتصارات الأمة العربية.. وأن يجنب أبناء مصر كل أنـواع الـذل والظلم والهوان والفزع الذى عاش به وثـار عليه طول عمره فيلغى المعتقلات ويؤمن الناس من الناس فلا يخافون. وأن يجعل القانون سيد الجميع. وأن تكون الحرية هواء للجميـع. وأن يختلف الناس فـى رأيهم ويحميهم القانون. فليسـت الديمقراطية هى الرأى الواحد والحاكم الواحد. وإنما الديمقراطية حياة لكل الناس، وحكم للشعب بالشعب.

وقد تجاوزت عن الهوان والمهانة الشـخصية، من أجل مصر.. وعندما حاولت دولة عظمى أن تقيد الإرادة المصرية، لأى سـبب، كان طرد الخبراء السوفيت.. وعندما ارتبكت مصر فى قرارها سنة ١٩٤٨ ضد اليهود وقرارها سنة ١٩٦٧ ضدهم أيضا، جاءت حرب ١٩٧٣ نموذجا دقيقا للإعداد والاستعداد والتمويه العلمى واستخداما رائعا لأحدث الأسلحة..

إن أحدا لا يصدق ما حدث فى العشرين عاما حتى سنة ١٩٧٠..

فى سنة ١٩٤٩ كنت قد تزوجت. وكنت أقيم فى بيت زوجتى. وكنت قد اشتغلت بالأعمال الحرة. وكان من الممكن أن أكسـب الكثير لو مضيت فيها. ولكن شيئا فى داخلى ينكر على أن أشـتغل تاجرا. فهدفى وأملى وحياتى ومماتى من أجل السياسـة. فقد اتجهت إليها صغيرا. واليوم أقول إننى لم أتجه، ولكن إرادة الله وجهتنى.. ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ صـدق الله العظيـم. فقد كانت حكمته تقلبنـى فى النار وفى الظلم والظـلام لكى يقوى عودى ويشـتد. ولكى تنضج قدراتى هذا ما أستطيع أن أقوله اليوم. ولكن فى ذلك الوقت كنت تعيسا معذبـا. لا أعرف ما الذى أفعله: فقد كان أثاث بيتى عند النجار. وكان يهددنى بأننى إذا لم أحمله وأنقله إلى البيت فسوف أدفع إيجارا لذلك أو سوف يبيعه.

وأذكـر أننى اكتشـفت فجأة وبصـورة مروعة أن كل ما فى جيبى هو مائة وعشـرون قرشـا. إننـى أتكلم عن أواخر سـنة ١٩٤٩. وكان مصدر عذابى ليس هـذا المبلغ الضئيل

فقط. ولكن أن أجد نفسى بلا عمل.. أو أن أجد نفسى بلا هدف.. ولم أكن تاجرا. ولا أعددت نفسى لأن أكون كذلك.. وأقول الآن: إن الله لم يشأ أن أكون تاجرا يبيع ويشترى ويكسب..

وكنت مطالبا فى ذلك الوقت بأن أبحث لى عن عمل.. ولا أعرف ما الذى أستطيع أن أعمله.. وكل ما أقدر عليه فى ذلك الوقت هو أن أرتدى ملابسى بسرعة. وأخرج من البيت بسرعة. والذى يرانى هكذا يخيل إليه أننى أريد أن ألحق مواعيد العمل.. أو أريد أن ألحق الأتوبيس. والحقيقة أنه لا شىء من ذلك. وإنما أنا أوهم نفسى وغيرى. وقد أنجح فى إيهام غيرى، أما إيهام نفسى فكيف؟!

وكنت - استمرارا فى هذا الإيهام المزدوج - أذهب إلى كازينو بجوار كوبرى الجيزة. وأجلس. ثم أنهض بنشاط واتحدث فى التليفون وادفع القرش ثمن المكالمة. وبعد المكالمة أقول لنفسى أصبح الذى فى جيبى الآن: ١١٩ قرشا - ثم ١١٨ قرشا.. إلى نهاية العد التنازلى.. وكلما نقص المبلغ الزهيد الذى فى جيبى، أحسست أن قلبى هو الآخر ينزل فى قدمى.. ولكن شيئا فى داخلى يقول: اصبر.. سوف تفرج.. أو أردد القول المأثور: اشتدى أزمة تنفرجى- أى كلما اشتدت الأزمة واحكمت حلقاتها الخانقة، انفرجت بإذن الله.. هذه المعانى التى تتردد فى أعماقى، تؤكد إيمانى بالله، وإيمانى بأن الفرج قريب.!

وخطر لى أن أشتغل بالصحافة. فقد كنت صحفيا. والصحافة قريبة من نفسى.. فهى اشتغال بالسياسة أو اقتراب من ذلك. وهى صناعة التعبير عن الناس والتأثير فيهم.

ثم إن عندى ما أقوله. فقد كنت معروفا فى ذلك الوقت. فقد شاركت فى قضية أمين عثمان، كما هو معروف.. وكتبت الصحف عنى الكثير. وعندى مذكرات وذكريات. ثم إن صناعتى هى الكتابة أو الخطابه.. أى صناعتى الكلام..

وذهبت إلى صديقى إحسان عبد القدوس فى روز اليوسف، وكان الكاتب السياسى الأول فى مصر فى ذلك الوقت. وقلت له: يا إحسان..

قال: نعم.

قلت له: أريد أن أعمل فى روز اليوسف.

وكان رده أن روز اليوسف لا تتسع لنا نحن الاثنين.. أى إنه لا مكان لى فى روز اليوسف.

وسألته إن كان من الممكن أن أعمل فى الأهرام. وطلبت إليه أن يتصل بكامل الشناوى - الله يرحمه - وكان نجم الصالونات السياسية فى ذلك الوقت. واتصل به إحسان عبد القدوس واعتذر كامل الشناوى بأنه لا مكان لى فى جريدة الأهرام..

وذهبت إلى دار الهلال أسأل إن كان من الممكن أن أعمل فيها أيضا. وقابلت شكرى زيدان أحد صاحبى دار الهلال ورئيس تحرير المصور. وقال لى الرجل إنه على استعداد لأن أعمل فى المصور. وأخبرنى أنه فى دار الهلال لا يوجد سوى كاتب كبير هو فكرى باشا أباظة، وأنه فى حاجة إلى أن أكون إلى جواره. وطلب منى أن أكتب وكتبت مذكراتى. وقدمتها له. ثم طلب منى أن أقوم بتفصيل بعض النقط التى جاءت فى مذكراتى. وأبديت استعدادى لذلك. ولكنه طلب منى أن أجلس وأن أكتب فورا قبل مشول المصور للطبع. وكان ذلك يوم الاثنين. ومن عادتهم أن يطبعوا الصور بعد ظهر ذلك اليوم. وبعث بمن يجلس معى وأنا أكتب. وبعد نصف ساعة فرغت مما طلبه منى. وسألت عن شكرى زيدان فقيل لى: إنه فى انتظارى.

ولم أدرك أنه كان يختبرنى ليعرف إن كنت أنا الذى أكتب. وإن كنت أستطيع أن أكتب بالسرعة المطلوبة ودون أن يراجع ذلك أحد من الناس.

وتأكد لديه كل ما كان يريد أن يعرفه. ثم بدأ يتحدث معى عن المكافأة. ودار الهلال فى ذلك الوقت كانت تتعامل بالقطعة. وفهمت فى ذلك الوقت أنهم يربطون ميزانيتهم فى ديسمبر. وبعد هذا الشهر لا يعينون أحدا.. وقد جئت بعد الوقت المحدد.. ولم يعجبنى ما عرضوه علىَّ. وعددت الفلوس التى فى جيبى فوجدتها خمسين قرشا. ومطلوب منى أن أنفق على البيت وأدفع إيجار الشقة وآتى بأثاث البيت.. وقد انسدت فى وجهى كل أبواب العمل أو الأمل فى عمل.

وإن كان باب الأعمال الحرة مفتوحا على مصراعيه.. ولكن المسدودة هى نفسى التى لم يخلقها الله لمثل هذا الطريق. وإنما طريقى مختلف. ونهايتى بعد عشرين عاما. كما رسمها الله واضح جدا أنها مختلفة إلى أبعد حد..

إذن لم يبق أمامى إلا أن أحاول دخول الجيش.

ذهبت إلى د. يوسف رشاد الذى كان طبيبا للملك فاروق بعد ذلك. وعرضت عليه رغبتى وأملى فى أن أعود إلى مكانى. واتصل د. يوسف رشاد بحيدر باشا وكانت الانتخابات العامة قد أجريت فى نهاية سنة ١٩٤٩ وظهرت فى الأسبوع الأول من يناير سنة ١٩٥٠. وكان حسين سرى باشا رئيسا للوزراء. وبقيت بعض الإعادة. وإذ بالملك يأتى بحسين سرى باشا رئيسا للديوان. ليكون عازلا بينه وبين حكومة الوفد التى جاءت قبل ذلك بالدبابات - أو

جاءت بها الدبابات عارا على العرش وعلى الشعب وعلى السياسة الحزبية فى مصر. وكان الوفد فى ذلك الوقت قد راح يقدم للملك تنازلات متوالية وبنفس القدر كان الوفد ينزل يسقط من عيون الشعب. ولم تكن هذه الأغلبية الساحقة.. حبا فى مصطفى النحاس ولكن كراهية فى فاروق. وكراهية فى السعديين. ولكن فى نظرنا نحن الشباب الوطنى- فقد انتهى الوفد والملك إلى غير رجعة..

وتحدد يوم ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ لمقابلة محمد حيدر باشا وزير الحربية. ودخلت نفس مكتب السكرتير الذى ذهبت إليه قبل ذلك معتقلا فى سنة ١٩٤٠ على أثر سقوط طائرة عزيز باشا المصرى. وجاء حيدر باشا وهو مشهور بأنه رجل عنيف وأنه لا يبتسم أبدا. ورآنى وسألنى عن اسمى وقال لى: أنت ولد مجرم.. ولابد أن تاريخك أسود.

وكنت أقول له: يا معالى الباشا اسمح لى أشرح لمعاليك.

ويقول: اسكت. ولا كلمة!

– اشرح لمعاليك.

– اسكت.

وفجأة، ولن أنسى هذه اللحظة طول عمرى، نادى كاتم الأسرار.. واسمه رياض: يا رياض..

– أفندم.

– الولد ده.

– أيوه يا أفندم.

– يعود إلى الجيش.

بل يعود إلى الحياة.. لقد ردت إلىّ الروح.. سمكة وألقيت فى الماء.. عود قطن وأعيد غرسه فى الحقل.. ميت دبت فيه الحياة، مفلس امتلأت جيوبه بالمال، وقلبه بالأمل، ورأسه بالكبرياء!

والقدر هنا له دور: فلو كان الوفد قد جاء إلى السلطة، ما دخلت الجيش..

ولكن تشاء إرادة الله أن تجرى الإعادة فى سبعين دائرة انتخابية وأن يظل حيدر باشا وزيرا للحربية.. وأن أذهب إليه وأن يصدر أمرا بعودتى. إننى لا أحقد على الوفد أو على أحد. فليس الحقد فى طبعى. فقد أعطانى الله وشكرا.. وأكرمنى الله والحمد لله..

ولكنها «تصاريف» القدر- كما يقول الصوفية.. وعدت إلى الجيش برتبة يوزباشي. ولكن ليست عندى بدلة. ولم أجد إلا واحدا من الضباط الأحرار كنت أسكن فى بيته. وكان فى الشقة التى تحتى. وطلبت منه بدلة سلف. وبعث بالبدلة وتشاء المصادفة أن يكون هو أيضا برتبة يوزباشى. صاحب هذه البدلة هو مصطفى كامل مراد. أما الفلوس التى فى جيبى فقد نزلت إلى أربعين قرشا.. وكان من المستحيل فى ذلك الوقت أو فى أى وقت، أن أفصل بدلة بأربعين قرشا. وفى ذلك الوقت كان مصطفى السمرى يبنى عمارة إلى جوارنا. ووجدت فيها شقة جديدة. وانتقلت إليها. ولكن الأثاث لم يأت بعد. ويجىء جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ولم أكن أعرف عبد الحكيم وإنما جمال عبد الناصر أعرفه من ١٩ عاما. وكان عبد الحكيم عامر من الدفعة التى تلينى والتى لم أرها فى الجيش ولا فى الكلية الحربية.

وقال لى جمال عبد الناصر: يا أنور.

- نعم.. هذا عبد الحكيم عامر.

- أهلا وسهلا..

- اسمع أنت ستدخل امتحانات الترقى. وعليك أن تبلغنا بموعد الامتحانات. فالضباط الأحرار هم المسئولون عن الامتحانات وعن تصحيحها وعن كل شىء وليس عليك إلا أن تحضر وتكتب أى كلام!

وبالفعل حضرت الامتحان وكتبت ما استطعت. ولكنهم سحبوا أوراقى ووضعوا أوراقا أخرى عليها الإجابات الصحيحة. فلم يكن ممكنا أن أجيب عن هذه الأسئلة. وخصوصا أن تطورات هائلة فى سلاح الإشارة الذى يعتمد على الالكترونيات تنشر يوما بعد يوم.. ولو غاب الإنسان ستة شهور عن الجيش لوجد تطورات لا تخطر له على بال.. وسلاحى هو سلاح الإشارة ولا أدعى أننى أثناء غيابى عن الجيش قد تابعت التكنولوجيا الحديثة.. وإنما كنت أتابع، أو محروما من متابعة الأحداث السياسية..

ولو تركونى لكى أستوعب التطورات الإلكترونية لاحتجت إلى عشر سنوات أخرى..

وكان هذا اللقاء وهذه الامتحانات تعديلا لمسارى العسكرى. وكل ما قاله جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت: يا أنور نحن مسيطرون تماما بالضباط الأحرار على كل شىء.. والمشوار الذى ابتدأته أنت نحن ماضون فيه.. ونصيحتى لك ألا تقوم بأى نشاط سياسى ظاهر.. لأن هناك عيونا كثيرة سوف تراقبك.. وليس من المصلحة أن يراقبوا حركاتك.. فنحن فى المراحل الأخيرة للثورة!

ومـن أهم الأحداث الخطيرة فى ذلك الوقت إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فقد أعلن الوفد ذلك فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٥١.

وفى نفس الوقت أعلنت السفارة البريطانية فى القاهرة أن الإلغاء جاء من طرف واحد.

وأعلن تشرشل زعيم المعارضة تأييده لحكومة العمال. وقال: إن سحب القوات البريطانية من مصر لا يقل خطورة عن سحبها من إيران..

ولكن رد فعل إلغاء المعاهدة عند الشعب كان هائلا. وموقف بريطانيا كان صدمة للناس.

ومـن الفرحة بإلغاء المعاهدة والضيق بعناد الانجليز تولدت شـرارة الحماس الوطنى عند العمال الذين يشـتغلون فى المعسـكرات البريطانية وعند التجار والمتعهدين وعمال الشـحن والتفريغ.. فكان الإضراب العام عن التعاون مع البريطانيين..

وفـى أكتوبر كانـت أولى معارك الإسماعيليـة ضد قوات الاحتـلال. وانتقلت أصداء هذه المعركة إلى بورسعيد. وارتكب الانجليز غلطة عندما قامت قوة منهم باحتلال كوبرى الفردان الذى كان فى حماية الجيش المصرى وقتلوا اثنين من الجنود المصريين. وكان هذا الكوبرى هو الرابطة بين الانتقال من الدلتا إلى سيناء وتمر عليه القطارات المتجهة إلى العريش..

ثـم احتـل الانجليز جمرك السـويس. وعزلوا بعد ذلـك منطقة القناة كلهـا.. وتفاقمت الأحـداث ضد الانجليز وضد العرش فى نفس الوقت. وأحس الناس أن حكومة الأغلبية التى ألغـت المعاهدة لم تدخل فى اعتبارها أشـياء كثيرة. من بينهـا: ما الذى يمكن أن تفعله بعد الإلغاء فى مواجهة الانجليز أو فى مساندة الشعب أو ضبط غضبه!

وعادت المعارك الدموية إلى الإسماعيلية فى نوفمبر سنة ١٩٥١.

وفى ديسمبر كانت معركة السويس. أولى وكبرى معاركه.

وعـاد الانجليز يضربـون مبنى محافظة الإسماعيليـة بالمدافع ويهـددون بالزحف على القاهرة. وغضب الشـعب وقامت مظاهرات فى القاهرة والإسـكندرية. لقد أصبح الشعب كله ثائرا على الانجليز. وضد الوفد أيضا.

ومنعت الحكومة المظاهرات وأغلقت المدارس والمعاهد. ولكن الدم يغلى فى قلوب الناس.. إن شيئا أكبر من الأحداث قد بدأ ينتشر. واتحد الناس وذابت أفكارهم ثم تبلورت فى غضبة واحدة: ضد الاستعمار وأعوان الاستعمار- والذين أتى بهم الاستعمار على دباباته!

ولم يكن غريبا أن تنتشـر المظاهرات فى أواخر سـنة ١٩٥١ ضد فاروق أيضا، فى الشوارع وفى الجامعة. وكان ذلك واضحا وبارزا ولأول مرة.. وقد سـجل المؤرخون أن المظاهرات التى

تجاهـر بالعـداء لفاروق، كانت جديدة على مصر. ولذلك لم يذهـب الناس بعيدا عندما تأكد لديهم أن هذه هى النهاية. فقد سقطت هيبة الملك.

وافتضـح أمره ولم يعد أحد يكـن له حبا او احتراما، ولا لأحد مـن الذين يتولون الحكم فى مصر.. وأدرك الناس أن السـفينة قد انقطعت كل الحبال التى تربطها بالشـاطئ.. وأكثر من ذلك أن أشـرعة السـفينة قد أفلتت حبالهـا أيضا.. وأن الموج تحت السـفينة والعواصف حولها، تهزها بعنف. ولا أحد يعرف أين النجاة ولا كيف ولا متى.؟ ولكننا كنا نعرف أين ومتى وكيف؟!

وفى ذلك الوقت أعلنت الحكومة البريطانية على لسان قائد قواتها فى مصر واسمه بريان روبرتسون: أنهم باقون، وأن شيئا مما يجرى فى شوارع مصر أو وراء كواليسها، لن يرهبهم! واشـتعل القتال فى يناير ١٩٥٢ فى مدينة السويس.. وبعد السويس معارك فى التل الكبير. وأحس الناس، أن الانجليز سوف يحاربون إلى أبعد من ذلك كالهجوم على القاهرة.. ولكن لم يذهبوا إلى أبعد من ذلك، خوفا من أن ينقلب الأمر تماما، وتكون ثورة شـعبية ضد الاحتلال البريطانى.. فالانجليز – على طريقتهم – يتدخلون ولكن يحتفظون بباب للتراجع..

ولم يكن الشـعب فى حاجة إلى أن يرى صورة أخـرى أو امتدادا للملك فاروق، ولذلك فقد ضج الناس سـخطا وغضبا عندمـا عرفوا أن فاروق قد رزق بولى للعهـد هوالأمير فؤاد الثانى مـن زوجته الثانية ناريمان صادق. وكان هذا الميـلاد التعيس مبررا لمظاهرات جديدة فلا هم يريدون فؤاد الأول ولا فؤاد الثانى ولا هم أصبحوا فى حاجة إلى فاروق الأول ولا الأخير!

ولا ذنب لهذا المولود فيما حدث بعد ذلك. وإنما ميلاده كان نهاية لأبيه وبداية للشعب.. وكان شـؤما على أبيه وكل أسرته! وتوالت المظاهرات ضد فاروق ومولوده الجديد.. وضد هذه الأسـرة كلها. وضد أعوانها من الانجليز، ومن صنائع الانجليـز الذين أراقوا الدماء وهدموا البيوت فى القناة ويتوعدون بالزحف على العاصمة.. وقد واجه الشعب الزحف الانجليزى، بأعمـال فدائية بطولية. وحاولت الحكومة الوفدية أن تحتوى هذه الأعمال الفدائية، ولكنها لم تفلح. فقد أفلت الزمام من يد أى أحد فى الحكومة أو فى السـراى أو فى الشـارع السياسى. وفـى ٢٥ ينايـر وقعت مذابح فى مدينـة الإسماعيلية.. فقد اعتـدى الانجليز على المواطنين بوحشـية. ولم يبق أمام الشـعب إلا أن يرد على كل السـلطات: انجليزية ومصرية.. وإلا أن يبلغ الغضب أقسـى وأقصى درجاتـه فأحرقوا القاهرة.. إلى آخر التفاصيـل الدموية الملتهبة التى نعرفها وسـجلها التاريخ لنا وعلينا: يوم ٢٦ يناير سـنة ١٩٥٢.. وقبل حريق القاهرة

بساعات امتنع عمال مطار القاهرة عن تفريغ أو شحن الطائرات البريطانية.. ولكن ارغموا على العدول عن ذلك.. وغير أن آخرين فى كل المواقع قد استأنفوا العنف والاحتجاج على كل شيء فى مصر!

وفى هذا اليوم كان الملك فاروق قد دعا إلى قصر عابدين كبار ضباط الشرطة والجيش إلى مأدبة غداء ليقدم لهم جميعا ولى العهد فؤاد الثانى البالغ من العمر عشرة أيام.. قائلا لهم: أهدى إليكم ولدنا وولى عهدنا فؤاد الثانى.

وتناهت إلى الملك أصوات الغضب ودخان السخط ونيران الثورة. ولكنه لم يشأ أن يتحرك. أو يفض المأدبة أو يأذن للضباط أن يعودوا إلى مواقعهم ليساهموا فى إخماد النار فى كل مكان.. فهو لم يتصور أن الذى حدث من الفداحة ومن الخطورة عليه وعلى ولده هذا، لدرجة تجعله ينصرف عن الغداء أو عن الحفاوة بالمولود الجديد.. أما وزير داخلية الوفد وسكرتيره فى ذلك الوقت فلم يعبأ هو أيضا بشيء من ذلك.. ولا ذهب إلى مكتبه مبكرا.. ولا حتى تأخر عن تسجيله لشراء عمارة واحد اسمه توفيق عريضة بمبلغ ثمانين ألفا من الجنيهات فى ذلك اليوم..

وعلى المؤرخين – مرة أخرى – أن يستأنفوا الحكم فى حريق القاهرة.. ليعرفوا من الذين كانوا: دخانها ولهيبها ومشعليها ومن الذين كانوا ضحاياها..

ولكننا – نحن الضباط الأحرار – قد أدركنا أن الأحداث تنطلق بسرعة. وأن علينا أن نعدل من خططنا التى أكملناها تماما.. فلم يبق إلا التنفيذ.. وكنا قد نفضنا أيدينا من كل هذه القوى المتضاربة فى مصر..

ولا أرى مرة أخرى – أن نظرية المصادفة فى تفسير أحداث التاريخ – هى النظرية النموذجية.. لأنه ليست كل أحداث التاريخ تقع مصادفة لأن هذا يلغى الإرادة الإنسانية.. ولكن الإرادة الإنسانية نفسها لا تغنى عن إرادة الله وتقديره وتدبيره.. وآمنت بالله الذى جعل شابا بلا عمل ولا أمل وليس فى جيبه إلا قروش، وقد ضاقت وانسدت فى وجهه كل الأبواب يصبح حاكما على مصر بعد عشرين عاما.. وثائرا على ثورتها مرة أخرى..

❑❑❑



١ - عبد الناصر تبين أبعاد المؤامرة فى ٥٦ فطلب من العرب عدم التدخل .



٢ - السادات وعبد اللطيف البغدادى وحسن إبراهيم .



٣ - الرئيس السادات مع القوات المسلحة .



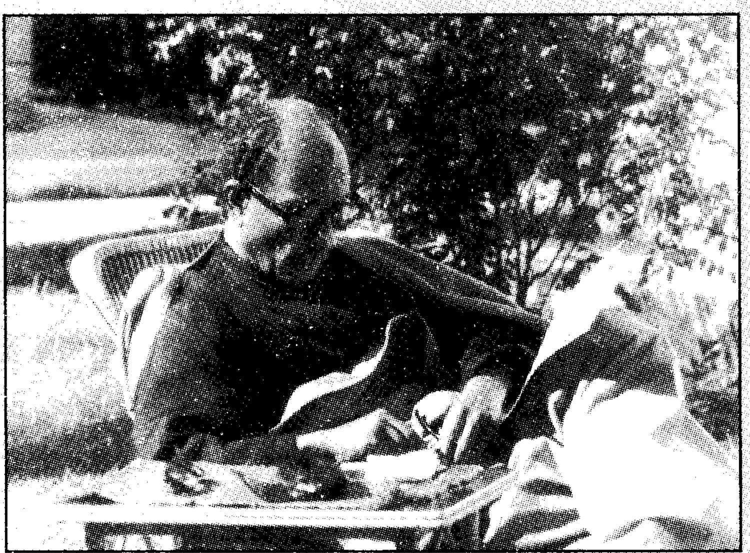
٤ - خطاب للرئيس السادات فى مجلس الشعب .



٥ - الرئيس السادات مع ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء للداخلية .



٦ – السادات فى أحد المواكب الشعبية .



٧ – الرئيس السادات فى ميت أبو الكوم .



تأصيل بلا تفصيل

- حلقت شعرى ووضعت المونوكل كالجنرالات الألمان .
- ليلة القدر سنة ١٩٤٢ ليلة لا تنسى فى حياة السادات .
- حينما احترقت الطائرة والطيار والمعاهدة التى بعثت بها إلى روميل .
- هل يستطيع موسولينى أن يدخل مصر على حصانه الأبيض ؟

لابد أن يكون لشهر رمضان المبارك معنى خاص عندى، هل لأننى ريفى ولأن رمضان في الريف له قدسية وجلال، وله حفاوة لا نجدها فى المدينة؟..

إننـــى لم أصـــم رمضان فى الريف، فقــد انتقلت من الريف إلى المدينة فى ســن الخامسة.. ولكن ظل الريف فى أعماقى. وظلت الحفاوة برمضان من أهم معالم الحياة الروحية فنحـــن فى الريف نرى فى الصيام إلى جانب أنه فــرض، نرى فيه رجولة مبكرة، فالأطفال الصغار يتباهون بأنهم صائمون. بينما فى المدن نجد الأطفال والكبار يبحثون عن الأعذار لكى يفطروا.. هل لأن رمضان شــهر الصيام والصفاء لنفســى؟ - كما عرفت فيما بعد.. هل لأننى أحــب أن أتأمل حياتى وأن أنظر إلى ما كان وما ســوف يكون؟ هــل هذه الخصلة فى تكوينى جعلتنى أغرم بشهر رمضان؟.. فهو الشهر الذى يصادف الراحة التامة عندى..

هل لأن معدتى متعبة؟.. ككل أبناء الريف الذين أصابتهم الدوسنتاريا ولم يفلح معهم أى علاج، فهذه المعدة هى التى جعلتنى أعيش على طعام أقرب ما يكون إلى الصيام..

هــل لأن رمضان اقترن بصيام آخر اجبارى، عندما دخلت الســجن .. ففى الســجن عزلة وهدوء وانطواء واقتراب من النفس، وعكوف عليها.

إننى لم أجد نفسى ولم أعرف أعماقها إلا عندما ذهبت إلى السجن وإلا فى شهر رمضان. ففى داخل الســجن قرأت كثيرا، وناقشت نفســى كثيرا، وحاسبتها وعاتبتها، ولكن لم أندم على شىء فعلته. ولو عادت بى الحياة مرة أخرى لاخترت كل الذى فعلته، لأننى فى النهاية سوف أصل إلى ما وصلت. فكل شىء بقدر وحساب.. وكل شىء بإرادة الله. ولا راد لإرادة الله وتدبيره. الحمد لله على كل شىء..

إننـــى فى بعــض الأحيان أنظر إلى النـــاس وأضحك، أو أنظر إليهم وأهز رأســى وأقول: لا شىء من الذى يهم الناس يهمنى.. لا هذا الطعام ولا هذه الملابس ولا هذه البيوت ولا هذه الســيارات، لا شــىء من ذلك. فالناس مشــغولون بأشــياء تافهة. إنهم لم يهتدوا إلى الذى اهتديــت إليه. إننى اهتديت إلى حقيقتى .. ففى ظلمات الســجن. وفى الوحدة الباردة. وفى

الصفاء النفسـي.. وجدت ذاتي. وعرفت أن ذاتي لها قيمة. وأن الذى لا يشـعر بأن له قيمة، هو الإنسان الذى لا يرى للدنيا كلها أية قيمة.

وأنا رجل ذو قيم. وأدعو إلى القيم. وأحرص عليها. وكل شـىء سـوف يذهب.. إلا القيم. إلا المبادئ. إلا الصدق. وإلا الأصالة وإلا الحب وإلا الخير.. وكنت أقول لنفسى: لقد انشغل الناس عن اكتشاف حقيقة ذواتهم. إنها غلطتهم.

لا أعـرف متى بالضبط اهتديت إلى هذه الحقيقة. ولكنى اهتديت.. هل لأن الناس عادة – أكثر الناس – لا يفكرون على هذا النحو فى شهر رمضان، فأحسست أننى أمتاز عنهم بشىء.. هل لأن هذا التفسير مختلف عن المألوف، أو هل لأننى أشعر بأننى مختلف عن الآخرين؟

أعتقد أنه التفسـيران معا: فأنا مختلف عن الآخرين فى فهم رمضان، وفى إدراك حقيقة نفسـى، هذا هو الذى أعبر عنه بأنه شـعور بالامتياز.. (وسـوف أعود إلى هذا المعنى كلما وجدت شيئا أو حادثا يقربنى إليه، لعلى أكون أوضح أمام نفسى وأمام الآخرين).

ولن أنسى ما دمت حيا ما حدث لى فى شهر رمضان وفى ليلة القدر من سنة ١٩٤٢.. فأنا ضابط.. ومعزول. ومطلوب منى ألا أبرح المكان الذى استبقونى فيه.. وفجأة جاء من يقول لى: باسم صاحب الجلالة الملك نستغنى عن خدماتك وأنت منذ هذه اللحظة حر تفعل ما تشاء!

ولأول مرة فى حياتى أشـعر بغصة من كلمة «الحرية» هذه .. هذه الكلمة السـاحرة التى تحرك التاريخ من أوله لآخره. فليس التاريخ إلا جهادا مستمرا من أجل المزيد من الحرية.. أو مزيـد مـن التحرر من الخوف والفقر والمرض والظلم والجهـل.. هذه الكلمة الفاتنة التى نذرنا حياتنا من أجلها، قد سمعتها قبيحة بشعة .. إنه يقول لى: أنت حر!

ولم أعرف ما الذى يمكن أن أفعله بحريتى هذه بعد أن جردونى من ملابسى العسكرية.. وأصبحت بلا عمل.. ما هى حدود حريتى. لابد أن تكون هذه الحرية فى أن أمشى فى الشارع أو أجلس على الأرض.. أو أن أرمى نفسى من هذا المكان الذى صار فظيعا فى عينى وفى أذنى وفـى خيالى.. هنا استشـعرت تلك الأهمية الخاصة التى تنقذنى فـى لحظات الضياع فأقول لنفسى: هذا طبيعى. وأنا أتوقع ذلك فى أية لحظة، ولكن على رغم هذا كله فسوف أكون شيئا مختلفا. شيئا أكثر امتيازا عن الناس..

إذن مطلـوب منـى أن أخرج بكامل حريتى، لأضيع فى الشـوارع بكامل حريتى.. لا مال ولا عمل.. وإنما مسـئولية ثقيلة جدا. فأنا صاحب أسـرة. ولى إخوة كثيرون. ولى أب فقير. ومطلوب منى أن أنفق عليهم من هذه «الحرية» التى منحنى الملك إياها!

وكان ذلـك قبل الإفطار بسـاعة.. وفجأة ظهر أمامى محمد ابراهيـم إمام. رجل البوليس السياسـى بملابسـه المدنية. قلت له: ماذا يا إمام؟ تقدم ناحيتى وفى غاية الأدب والرقة، وهـو رجـل مهذب عـادة وله عـادة لطيفة عندمـا يتكلم، فـراح يفرك يديه معـا ويقول: تتفضل حضرتك.

فقلت: إلى أين؟

قال: بعض الاجراءات.

وسألته أين؟

قال: فى السجن..

وأحسست أن حريتى التى أعطيتها قد تبددت. كانت وهما. وهذا الوهم تبدد. ولم استمتع بهـا إلا لحظة واحدة. ثم اسـتردها الملك منى، أو اسـتردها النظام أو الانجليز. وبسـرعة قيدونى وأودعونى السجن!

ولم يعرف الذين حبسونى أنه منذ تلك اللحظة قد تغير مجرى حياتى، ففى تلك الليلة، ليلـة القـدر، انفتحت طاقة القـدر دون أن أدرى، واختار لى الله شـيئا آخـر لا يخطر لهم ولا يخطر لى على بال..

ومرة أخرى يواجهنى محمد إبراهيم إمام، هذا الرجل المهذب، الذى يؤدى عملا كريها.. فقـد كنت هربت وتخفيت فى ملابس مدنية. واشـتغلت بالأعمـال الحرة. وعملت مع زميل فى التجارة. وكان لنا مكتب فى شـارع قصر النيل. وفجـأة ظهر أمامى محمد إبراهيم إمام. وهو رجل مكلف بإلقاء القبض علىَّ. ولم أكن أخاف من الاعتقال فقد اعتقلت فى ظل الأحكام العرفية. ولا خوف إذا هربت ولا ضرر إذا عدت. ووجدنى محمد إبراهيم إمام أرتدى جلبابا فوق قفطان. وكانت لى لحية صغيرة. وسـألته: إلى السـجن؟ فقال: لا .. ولكن لا داعى لأن تعمل فى هذا المكتب. اذهب بعيدا عن هذا المكان..

ولم أنس لهذا الرجل أدبه ورقته فى المعاملة. ولم يكن مطالبا أن يفعل ذلك. ولكنه عموما مؤدب. هل لأننى ضابط وهو أيضا. هل لأنه رجل مهذب عموما؟ هل لأنه يعطف على الشباب الوطنى، وإن كان لا يستطيع أن يساعدهم؟..

كل ما أعرفه أن الرجل كان لطيفا، ولم نعرف عنه غلظة أو سـفالة فى وقت من الأوقات. ولم أنس له هذه المعاملة الكريمة. وحملتها له..

حتـى كانت الثورة. وفى يـوم ٢٤ يوليو كان محمد إبراهيم إمام من الضباط المطلوب إلقاء القبض عليهم. وطلبت أن أتولى ذلك بنفسى. وكان من المفروض أن أعتقل محمد ابراهيم إمام واثنين من ضباط البوليس السياسى ومن نجوم المجتمع والحياة البوليسية والسياسية فى مصر وهما: توفيق السـعيد والجزار.. وعرفت أن محمد إبراهيم إمام يسـكن فى الزمالك. فذهبت إليه ومعى قوة من الشـرطة العسكرية. ووقفت أمام شقته. وفتح لنا الباب. وكان يتوقع ذلك. وهذا طبيعى. وكانت حالته النفسية سيئة جدا. لقد كان منهارا. ولم يدر الرجل ما الذى يقول ولا ما الذى يفعل، وحاولت جاهدا أن أهدئ روعه. وتبسطت معه. ولكن لم أفلح فى تهدئته. وسألته: إن كانت زوجته وأولاده فى البيت؟ فأجاب: فى الإسكندرية.

إذن لقـد أعـد محمد ابراهيم إمام نفسـه لكل الاحتمالات. وقلت له: إن رجال الشـرطة العسـكرية سوف يقومون بتفتيش البيت ولا داعى لأن تقلق فلن نعاملك كما كانوا يعاملوننا. لا تقلق.

وكان الجو حارا جدا. وسألته: أليست عندك ثلاجة؟

قال: عندى..

قلت: أريد كوباً من الماء البارد..

ودخل الرجل فى غرفة وخرج من غرفة. وهو لا يكف عن الكلام، ولا أدرى ولا هو يدرى، ما الذى يقول. ولكنه فى حالة اضطراب شديد.. بل فى حالة ارتباك أو يمكن أن أقول إنه فى حالة «تلبك» شديد.. لا يعرف أين الباب ولا الشباك ولا الغرفة ولا الثلاجة.

ولم يجد رجال الشـرطة العسـكرية شـيئا. وطلبـت إليه أن ينزل معـى. وأكدت له أنه لا خوف عليه. وذهبت به إلى الكلية الحربية. وقبل أن أتركه فى الكلية الحربية سألته إن كان يريد شيئا. قال: أريد مصحفا..

وكذلك طلب توفيق السعيد والجزار..

وعندما زرت محمد إبراهيم إمام بعد ذلك. وجدته جالسـا على سـريره يقرأ المصحف. وأكدت له أنه لا خوف عليه. وأن أحدا لن ينتقم منه أو يتشفى فيه.

وبقى الرجل بضعة أيام ثم أفرجنا عنه..

وعرفت فيما بعد مصدر خوفه وفزعه. فقد أدرك أنه فى ظل الثورات عموما، يلقى رجال البوليس أسـوأ نهاية. وأن موته مؤكدا لا محالـة. وإننى عندما طلبت إليه أن ينزل معى فى

سيارتى تصور أنى سوف أقتله وألقى به فى الصحراء، ولن يعرف أحد عن هذا المصير شيئا بعد ذاك!

وأعزو هذا السلوك من جانبى: إلى أننى لا أحقد. ولا أشمت. ثم إن الرجل ليس شريراً ولكن وظيفته سيئة السمعة.. إنه يؤدى دوراً. وهو موظف. ولكنه فى نفس الوقت كان أكثر رفقاً ولطفاً من طبيعة عمله..

وأعزو هذا السلوك أيضا إلى أن لدى شعورا غامرا بالامتياز.. هذا الشعور يجعلنى أحس أننى أكبر وأننى أهم. وأنى ممتاز وأنى غير الآخرين.

ربما حرصى على التفكير وعلى التأمل.

فاختلفت بذلك عن غيرى من الشباب فى مثل سنى، هو الذى جعلنى أشعر بأننى مختلف، وأنه من الضرورى أن أؤكد هذا المعنى بصورة مفيدة. ثم إننى رأيت أنه لا يكفى أن يكون الإنسان شاعرا بامتيازه، وانما يجب أن يقترن هذا الشعور بالعمل أو بما يؤكده. فاتجهت إلى القراءة. وقرأت كل ما وقعت عليه عينى. ولكن لم أجد نفسى فى كل الذى قرأت فى سنوات شبابى الأولى.. وعندما تخرجت فى الكلية الحربية اتجهت إلى العمل السياسى وفى يوم من الأيام قرأت أن «دار المعارف» تطلب من القراء أن يطلبوا منها قائمة الكتب الجديدة. وطلبتها ووقعت عينى على كتاب لأحمد أمين اسمه «فيض الخاطر» وهو بالفعل فيض من المعلومات والأفكار الشرقية والغربية. والكتاب يفتح الشهية إلى القراءة. وأسلوبه بسيط ومنطقه سليم. وأحمد أمين كعدد من كبار الكتاب المصريين. يرفعون من قيمة الرأى والفكرة.. أى من قيمة العقل الإنسانى. والإنسان بعلمه وليس بملابسه أو أهله أو حسبه.. وهذه المعانى صادفت هوى فى نفسى. فهذا رأيى أنا أيضا. وكان من المألوف أن يتخرج الواحد فى المدرسة أو فى الكلية ويجد أن لغته الانجليزية ضعيفة. أو لا تسعفه عند الكلام أو عند القراءة. فذهبت إلى المعهد البريطانى بالقرب من شارع عماد الدين والتحقت به، لكى أحصل على درجة عليا. وطلبوا منى عددا من الكتب. وأدهشنى أنهم طلبوا أيضا كتابا لأحمد أمين اسمه «ضحى الإسلام». وعرفت فيما بعد أن هذا الكتاب ليس إلا الجزء الثانى من ثلاثة كتب هى: فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام..

واتجهت إلى دراسة اللغة الألمانية أيضا. كانت هناك سلسلة كتب اسمها «سلسلة هوجو لتعليم اللغات». واخترت كتابا عن تعلم اللغة الألمانية باللغة الانجليزية.. هل هو حبى للغات، أو هل هو حبى للعسكرية الألمانية والألمان، هو الذى دعانى لان أدرس اللغة الألمانية..

وفي ذلك الوقت كانت قد صدرت الترجمة الفرنسية لكتاب توفيق الحكيم «عصفور من الشرق». وعكفت على الترجمة الفرنسية ومقارنتها بالأصل العربى.. لقد وجدت نفسى مشغولا بالقراءة وبدراسة اللغات واتقانها أيضا. فى الوقت الذى كان فيه أمثالى من الشبان يجدون صعوبة فى إتقان اللغة العربية واستخدامها فى الكتابة أو التعبير. فأنا أحب الثقافة وأراها ضرورة حياة. وفى نفس الوقت أرى أنها شرط لتأكيد شعورى بالامتياز عن الآخرين.. وفى السجن اكتشفت كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، وهو من أروع الكتب التى قرأتها عن الرسول عليه الصلاة والسلام، عن حياته وكفاحه وعظمته وعظمة الإسلام ولا أنسى أننى ظللت أحتفظ بصور الجنرلات الألمان، أبطال الحرب العالمية الأولى وخصوصا الجنرالات البروسيين. وقد ارتدوا قبعاتهم العسكرية وحلقوا جانبى الوجه ثم وضع كل واحد منهم «المونوكل» على عينه..

وبعد تخرجى فى الكلية الحربية حلقت شعر رأسى على طريقة الجنرالات البروسيين. وذهبت إلى محل نظاراتى وكشفت على نظرى فوجدته سليما ..وطلبت من الرجل أن يصنع لى المونوكل. واندهش الرجل. وأمام إصرارى أتى بزجاج أبيض.. وجعل حافة الإطار مشرشرة لكى اضغط عليها بعينى.. ووضعت المونوكل على عينى السليمة.. ولكن الذى لا يراه الناس هو أننى مبهور برجال الحرب الألمان.

فالعسكرية الأصيلة هى العسكرية الجرمانية البروسية. ولابد أن يكون هذا السبب نفسه هو الذى بهرنى بهتلر.. والذى جعلنى مفتونا بروميل ثعلب الصحراء وجعلنى اتصل به. وأبعث إليه بمعاهدة كتبتها بخط يدى، وكنت فى الثانية والعشرين من عمرى!

لقد دخلت السجن ليلة القدر ١٩٤٢ وخرجت من السجن فى ليلة القدر سنة ١٩٤٤ أى أننى أمضيت ليلة القدر ثلاث مرات فى ظلام السجون..

إن أناسا كثيرين ذهبوا إلى قمم الجبال أو إلى صوامع الرهبان بعيدين عن الدنيا كلها وهانت عليهم الدنيا كلها. ولم تهن نفوسهم عليهم. وفى هذه الوحدة التامة والصمت الرهيب والظلام المطبق، وفى حالة الصفاء والشفافية الخالصة اكتشفت حقيقة أخرى: أننى أستطيع أن أعود إلى قريتى ميت أبو الكوم. هناك فى أرضى وتحت أشجارها وبين أهلى وأقاربى وبين الفلاحين. هناك لن ينكرنى أحد. ولن يخذلنى أحد. ولن أجوع ولن أعطش.. هناك أستطيع أن أذهب وأن آوى إلى أحضان الريف كله. فالريف كله أحضان حانية لا يسألك أحد تفسيرا

لما أصابك.. وإنما يرون أن الحنان هواء مبذول لكل إنسان يطلبه أو لا يطلبه .. تماما كظلال الأشجار دائما هناك.. سواء جلس فيها أحد، أم لم يجلس فيها أحد ..إن الظلال والماء والطعام والرحمة والحب والحنان كلها فى متناول كل الناس..

وفى السجن رحت أتخيل البيت من الطين الذى سوف أعيش فيه، ورحت أضع طوب هذا البيت واحدة واحدة وأغرس حوله الأشجار.. ثم انتقيت لنفسى شجرة. وجلست تحتها. وجعلت أنظر إلى بعيد.. وأمامى رأيت شريط حياتى، صاعدا هابطا، عسكريا مدنيا، متهما قاضيا، قادرا عاجزا، سليما مريضا.

ورأيت كل شىء يظهر ويختفى، ويعلو ويهبط، يقرب فيكبر، ويبعد فيصغر.. إلا شيئا واحدا فى داخلى: هو أننى مختلف عن الآخرين.. وأن الله قد ادخرنى لشىء أكبر لا أعرفه. ولا أدرى ما هو. ولكن شعورى هذا يسعدنى والسلام..

وعندما أعود بذاكرتى إلى الوراء، وأنا أفعل ذلك كثيرا، أجد أننى لم أهتد إلى معنى هذه الأحداث إلا فيما بعد..

ولا أدعى أننى كنت أقرأ مسار الأحداث فأعرف نتائجها بوضوح، وإنما تعلمت من سرعة الأحداث وتشابكها أن أثبت. أن أكون هادئا. أن أصبر.. إننى تعلمت ذلك فى حياتى العسكرية، فلابد أن تكون هناك قاعدة ثابتة تحت أقدامنا، لكى نكون قادرين على إصابة الأهداف..

وكذلك فكريا ومعنويا. والمثل يقول: لا يغلب الأيام إلا من صبر. ومعناه: إلا الذى انتظرت فى ثبات.. ومثل آخر يقول: من صبر ظفر..

ولم أفلح فى أن أكون صبورا إلا بعد مجاهدات طويلة. فليس فى يوم وليلة يبنى الإنسان شخصيته.. ويختار طريقه ويحدد أهدافه. وإنما هى المعاناة العنيفة التى تكشف جوهر الإنسان وفى ضوء الجراح ونزيفها تظهر للإنسان صلابته وقدرته على تحمل الألم. ومواصلة السير نحو آلام أخرى، من أجل غاية أكبر..

هنا أعود إلى ذاكرتى التى أحمد الله عليها، فقد حفظنى بها، وحفظها لى، فأتذكر مقالا قرأته لأحمد أمين أيضا وتمنيت أن أكتب له معلقا على ذلك وشغلتنى الدنيا عن ذلك قرأت له مقالا يقارن فيه بين صاحب الرأى وصاحب العقيدة، أو بين صاحب العلم وبين صاحب الإيمان وأن هناك فرقا كبيرا أن يكون لك رأى وأن تكون لك عقيدة، فالذى له رأى هو الذى عنده معلومات، والذى عنده عقيدة هو الذى عنده شىء فى دمه.

وصاحب الرأى قد يكون مفكرا، وكل ما يحتاج إليه هو الأدلة على صحة الرأى، أو على بطلانه.. ولكن صاحب الإيمان راسخ وقاطع. وصاحب الرأى مستعد لأن ينزل عن رأيه هذا إذا ثبت خطؤه.. وهو منذ البداية يعلن أن رأيه يحتمل الصواب والخطأ. أما صاحب العقيدة فهو الإنسان المتحمس الذى لا يهدأ إلا إذا تحققت عقيدته. وأهم ما قاله أحمد أمين. بعد مناقشة ومفاضلة بين الرأى والإيمان. أو بين ما أسميه أنا بعد ذلك بالعلم والإيمان، هو أن الشرق لا ينقصه الرأى. فما أكثر الآراء. وإنما ينقصه الإيمان، ولو ظهر فى الشرق أناس يؤمنون إيماناً قوياً راسخاً بشىء، لتغير وجه الحياة فى الشرق. وتمنيت أن أقول لأحمد أمين إن العلم ضرورى للإيمان. وإن الإيمان شرط للعلم، فالعلم شر بغير إيمان، والإيمان أعمى بغير علم.

والعلم عقل ينير. والإيمان قلب يهدى..

وقد تذرعت بهذين الشرطين ليكون لى ولغيرى دور فى خير مصر والأمة العربية..

لقد علمتنى الحياة فى الريف أن أطيل النظر إلى الأشجار.. إنها نموذج للحياة المتجددة.. فالشجرة الواحدة: ألوف الأوراق ومئات الأغصان وقد تشابكت واتحدت فى جذع واحد.. وإلى هذا الجذع جاءت مئات الجذور، تأتى بعصارة الحياة من الأرض السوداء.. وترفع هذه العصارة إلى ساق الشجرة.. ثم تعود هذه العصارة فتقوم الأوراق بطهيها فى ضوء الشمس وفى الهواء.. إنها ملايين الخلايا الضوئية.. تعمل من أجل هدف واحد: أن تكون هناك حياة يانعة..

وحياة الإنسان كذلك: ألوف الأحداث.. وملايين المعانى، وكلها تتحد فى شخص واحد.. وهذا الشخص نفسه ليس إلا ورقة أو زهرة أو غصنا فى المجتمع.. وإذا حاولت أن أكتشف المعانى فى حياتى، ثم حاولت أن أنظم هذه المعانى فى سياق واحد، فإننى أجد صعوبة كبيرة.. فالأحداث التى كنت أراها هائلة فى طفولتى وشبابى، اكتشف بعد ذلك أنها كانت صغيرة.. أو كانت تافهة.. والأحداث التى كنت أراها عابرة عادت فتكررت واكتسبت معانى جديدة.. فلم تعد فى حياتى، أو على شجرة حياتى، ورقة تكبر وتزداد اخضرارا ثم تذبل.. وإنما وجدت بعد ذلك أنها أصبحت زهرة وأصبحت ثمرة، وفى داخل الثمرة بذور.. وما البذور إلا وعود «موجزة» بحياة جديدة..

والحرب العالمية الثانية كانت نورا ونارا فى حياتنا نحن الشبان.. لقد أشعلت فينا الحماسة والإعجاب، وأضاءت لنا الطريق إلى الخلاص من الاحتلال البريطانى، ومن أعوان الاحتلال البريطانى.. وكان اكتساح الألمان لأوروبا وتهديدهم لروسيا وزحفهم على مصر، كل

ذلك صبغ بالألوان حياتنا، وجسد لنا أحلامنا.. ولا أعرف تلك المقدمات الرائعة المروعة التى دفعت شـابا صغيرا فى الثانية والعشرين من عمره أن يكتب معاهدة لروميل يطلب إليه فيها أن يصدق عليها من ألمانيا، ونحن على استعداد لأن نفتح له الطريق إلى مصر لنتخلص معا من الإنجليز.. ولكن هذا ما حدث..

إن إعجابى بالعسـكرية الألمانية، كان شـيئا لا يوصف وإذا وصفته، فـإن اللغة العربية لا تسـعفنى فـى أن أجد له كل ما يسـتحقه من عظيم الإعجاب وعميق الحـب.. لقد بهرنى هتلر، ومـن قبله بهرتنى العسـكرية الألمانية.. فلما زحف روميل علـى الصحراء الغربية مكتسحا الانجليز، زحف فى نفس الوقت على قلبى واحتله، وعلى خيالى فركب له أجنحة.. وأحسست أننى أطير فوق مصر فأجد حكومة الوفد قد فرضها الإنجليز على الملك وعلى الشعب وعلى الجيش.. منتهى العار..

وعار آخر أن يدخل روميل إلى مصر فلا يجد فيها حركة مقاومة وطنية.. وأحسسـت أننا نحن الشبان: نحن المقاومة الوطنية. فلا نحن مع الإنجليز ولا مع الأحزاب ولا مع الملك وإنما نحن مع مصر، مع الجيش. ونريد الخلاص من هذا العار، بطرد الانجليز، والخلاص من عار آخر ألعن وأفدح هو أن مصر ميتة لا شباب فيها ولا مقاومة ضد الاستعمار البريطانى..

ومن كل أوراق شـجرة الحياة السياسـية فى مصر أختار غصنين اثنين، أو أختار حادثين يتصلان معا، ويؤديان إلى نفس الهدف الذى نحلم به فى ذلك الوقت..

كان ذلك يوم مولد النبى سـنة ١٩٤٠، وكنت ضابطا نوبتجيا. وكان من المفروض أن أبيت فـى القشـلاق مع الجنود أما الضابـط العظيم فيبيت عادة فى بيته، وإذا حدث ما يسـتوجب حضوره اسـتدعيته.. فى تلك الليلة جاءنى جاويش يقول: إن رجلا اسمه الشـيخ حسن البنا يريد أن يلتقى بالجنود وأن يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمناسبة مولده الكريم. طبعا لا مانع من أن يجيء هذا الرجل حسن البنا. إنه رجل دين. وهو فصيح ويحسن التعبير. وعنده سلاسة فى الكلام. وقدرة على الإقناع. وربما كانت هذه كبرى مزاياه..

ولابد أن الشيخ حسن البنا قد سمع بى. فقد كان من عادتى أن ألتقى بالجنود وأتحدث إليهم بعد صلاة المغرب ويكون حديثى عن الحياة العامة وضد الاحتلال البريطانى. وهذا طبيعى.

وكان الشـيخ حسـن البنا فى ذلك الوقت قد تسلل إلى الجيش. وانتقل من الجنود إلى صف الضباط. ولم يتصل بالضباط بعد. وجاء الرجل وتحدث وكان مقنعا حقا.

وانصرف الرجل بعد أن دعانى إلى اللقاء به فى المركز العام للإخوان المسلمين فى الحلمية الجديدة بالقاهرة. وقبلت الدعوة. ولم تمض سوى ساعتين حتى أحسست أن شيئا خطيرا قد حدث. فقد جاء من يقول لى: إن الضابط العظيم قد حضر. وأسرعت للقائه. وسألنى. فقلت له: كل شىء تمام يا أفندم.

ولكن الضابط العظيم ثار قائلا: كيف تسمح لرجل مثل الشيخ حسن البنا بالحديث إلى الجنود. ماذا يحدث بالضبط.

وأخبرته أن الرجل عرض أن يتحدث إلى الجنود فى هذه المناسبة الدينية. فقلت له: لامانع تفضل. وتكلم الشيخ حسن البنا وكنا سعداء جميعا. وانتهى كل شىء فى هدوء.

وكان الشيخ حسن البنا، مشبوها ومغضوبا عليه. إذن لقد ارتكبت بدعوته غلطة فظيعة.

وذهبت للقاء الرجل. ورأيت الناس «يقدسون» الشيخ حسن البنا.. ولم يعجبنى ذلك. فهم ينظرون إليه نظرة غير دينية، يقبلون يديه. ويقفون أمامه وقد علاهم الخوف والفزع. ودعانى الرجل إلى زيارته فى بيته وكان بيته على مسافة مائة متر من المركز العام.. ولاحظت أن عددا من رجاله يدخلون. وقد عرضوا عليه بعض المسدسات. ويسألونه: إن كانوا يشترون هذا النوع أو ذاك..

وكان يطلب إليهم أن يتصلوا بفلان أو علان من الناس للنظر فى شراء مثل هذه الأسلحة.

ولم يصعب على أن أستنتج أن الرجل يريد أن يفهمنى أو يوهمنى بأن لديه سلاحاً وتدريبا على حمل السلاح والاستعداد للقتال. ولكن بانحناءات الناس وتقبيل يديه، أحسست أن هذه أسلحة فاسدة يستخدمها الرجال أو يستخدمها أعوانه لإقناع الناس به..

ودار بيننا كلام طويل، وراح الرجل يلف ويدور. وصارحته: نحن نرفض أن نكون تحت لوائك. إننى ضابط. ولنا تنظيم وسوف نقوم بثورة.

وأصبح واضحا أنه من الممكن أن يتوازى نشاطانا، ولكن ليس من الممكن أن تتطابق خططنا وخططه. وإن كان أحد زملائنا من الضباط الأحرار قد استماله الشيخ البنا وأقنعه، وهو عبد المنعم عبد الرءوف. ولم يعجبنا ذلك. واعترضنا عليه، وانفصلنا عنه وفصلناه وحوكم وجرد من جنسيته المصرية ولكن أعيد إلى حياته العادية مع معاش كريم بعد ذلك..

وعن طريق الشيخ البنا عرفت عزيز على المصرى، اسمه عزيز على ولكن الأتراك أضافوا كلمة المصرى تمييزا له. وقد رويت ذلك فى مواضع مختلفة من هذه الأوراق..

ولكن يهمنى جداً وأنا أحاول أن أجمع النسـيج الملتهب لحياتى أيام الزحف الألمانى على مصر وعلى روسيا وعلى القوقاز، والاستيلاء على سوريا ولبنان بالتعاون مع حكومة الماريشال بيتان الفرنسـية، ثورة رشـيد عالى فى العراق، أن أسـرد كيف استدعانى عزيز على المصرى إلى جروبى. وكان من عادته أن يذهب إليه كالباشـوات. وأن يقود بنفسـه سيارته الاسكودا، وكنا ننظر إلى هذه السـيارة على أنها أروع وأفخم من المرسـيدس. دعانى وقال لى: لقد اتصل بى الألمان. إنهم يريدوننى أن أذهب إليهم. فالموقف مكهرب على الجبهة الشرقية من روسيا إلى مصر إلى العراق.. وهم يعلمون أننى خبير فى هذه الشـئون الشرقية والعربية.. وقد تمت اتصـالات عن طريق سـفارتهم فى تركيا حيث يعمل سـفير عتيد هو فـون بابن الذى أصبح وزيرا للخارجية بعد ذلك. وهو لا يقل خطورة عن تاليران وزير خارجية نابليون الذى انقلب عليه بعد ذلك.

ثم مضى عزيز المصرى يقول لى: إن الألمان يريدون أن يعرفوا إن كان فى الإمكان أن يبعثوا لى بغواصة تدخل البحيرات عند بورسـعيد.. أو يبعثوا لى بطائرة تهبط بالقرب من القاهرة. والمطلوب هو أن نعرف كيف يتحقق ذلك.

وعرفت أن المطلوب منى هو أن نستكشف شواطئ شمال الدلتا عند بورسعيد.

واتصلـت بأحمد حافظ مظهر، الممثل المشـهور الآن، وكان من الضباط الأحرار فى سـلاح الفرسان. وقلت له: يا مظهر .

قال: نعم

قلـت هنـاك مهمة خطيرة يجب أن نقـوم بها. ولكن يجب أن نذهـب معا إلى عزيز على المصرى فى بيته فى عين شمس.

وذهبنـا والتقينا بعزيز على المصرى. وعـرف أحمد مظهر المهمة المطلوبة. ووافق. وأحمد مظهر ابن ذوات، وليس مثلنا. وهو إنسان مهذب ولطيف. وركب أحمد مظهر سيارة. وانتقل وعاين. وعاد عند الفجر ليقول لى: إن الشاطئ موحل. وإنه لا يصلح للغواصات.

إذن أمامنـا الاحتمال الآخر: وهو أن يبحث عن أرض يمكـن للطائرات الألمانية أن تهبط فيهـا. وعدنا إلى الخرائط نبحث عن المطارات المسـتخدمة والمطـارات المهجورة ووجدنا على الخريطة مطارا مهجورا قرب الخطاطبة. وقررنا نحن الثلاثة، عزيز على المصرى وعبد المنعم عبد الرءوف وأنا، أن نذهب لمعاينة المكان، ولم يكن من السهل أن نتجه إلى الخطاطبة مارين

بالطريق الصحراوى. فعلى الطريق نقط مراقبة انجليزية. ولذلك اتجهنا إلى القناطر ومنها إلى قرب الرست هاوس، حيث ستقام الآن مدينة السادات. واتجهنا إلى مطار الخطاطبة ووجدناه صالحا لهبوط الطائرات الألمانية. ولم تكن الطائرات تحتاج إلى أكثر من ثلاثين أو أربعين مترا لكى تهبط فى هدوء على الأرض. ولم يكن هناك أدنى خوف من هبوطها، فلم يكن الرادار قد انتشر بعد. ولذلك يستحيل ضبطها قبل أو عند الهبوط أو بعد ذلك..

وعدنا بعد أن تأكدنا من المكان تماما. وفجأة وجدنا أنفسنا محاطين تماما بعدد هائل من مخازن الذخيرة البريطانية. كارثة أن نذهب بأرجلنا إلى الإنجليز. فأنا مشبوه. وعزيز المصرى أيضا.

وهنا وجدت قوة أعصاب عزيز على المصرى وقدرته على القيادة السريعة، وفى نفس الوقت لقد أسعفتنا هذه السيارة المتينة التى استطاعت أن تخترق الرمال وأن تمضى بسرعة هائلة، وكان من الممكن أن نظل تائهين، لا يوما واحدا وإنما عشرات الأيام، إذا ما فقدنا اتجاهنا فى الصحراء. ولكن الله قد أنقذنا من هلاك محقق لنا جميعا!

إذن لا الغواصة ممكنة، ولا الهبوط على أرض الخطاطبة ممكن. وأصبنا بخيبة الأمل.

واتصل بى عزيز على المصرى ليقول لى: إن المندوب الألمانى الذى يصله بروميل قد جاءه وأعطاه خطابا مغلقا ثم اختفى ولما فتحنا الخطاب وجدنا أن الألمان قد اختاروا مكانا أفضل لهبوط طائرتهم. وهو مكان لم يخطر لنا على خيال. فقد حدد الألمان جبلا اسمه جبل رزه.. هذا الجبل قريب من هضبة الأهرام فى طريق الفيوم.

وذهبت أعاين المكان. إنه مكان رائع. شىء غريب أن الألمان يعرفون مصر أكثر مما نعرفها. وقد استعد الألمان لذلك استعداداً كاملا. والذى يراجع الصحف المصرية فى ذلك الوقت يجد أن سلاح الطيران البريطانى قد أنقذ خمس بعثات ألمانية من الضياع فى الصحراء الغربية..

أما هذه البعثات فلم تكن سياحية ولا أثرية، وإنما هم رجال المخابرات يجمعون المعلومات عن دروب وأغوار ومهابط الطائرات فى الصحراء الغربية قبل الغزو الألمانى وأثناءه وبعده.

ثم تحدد يوم هبوط الطائرة الألمانية على جبل رزه. وفى نفس الوقت تقرر إبعادى إلى الصحراء الغربية..

وذهبت بسيارة استأجرتها لأعاين المكان وافتعلت حادثاً ونقلت إلى المستشفى العسكرى حتى لا أسافر. وكان أبى يعمل فى المستشفى العسكرى..

وبعـد أن طلبت مـن عبد المنعم عبد الرءوف أن يوصل عزيز المصرى إلى الطائرة وأن يحافظ على جهاز الإرسـال الذى سـيبعث به الألمان لكى نتصل بهم، فوجئـت بأن الألمان قد أجلوا إرسال طائرتهم أسبوعا. وأحسست بالراحة التامة لهذا التأجيل..

وكان لابد أن نلجأ إلى طريقة أخرى.. فإذا لم يأت الألمان إلينا بحرا أو جوا، فليذهب عزيز المصرى إليهم.

واسـتقل عزيز المصرى طائرة يقودها حسـين ذو الفقار صبرى وعبـد المنعم عبد الرءوف وحسـين ذو الفقـار صبرى طيار بارع. وصـل عزيز المصرى ومعه شـنطة مليئة بالبرانيط من مختلف الأشكال والألوان والأحجام، إنه لم ينس أناقته لحظة واحدة. واحترقت الطائرة فى طريقها من مطار ألماظة إلى بيروت. وسقطت عند بنها. واتجه عزيز المصرى إلى قسم الشرطة، على أمل أن يجد واحدا من تلامذته من رجال الشرطة.. فقد كان مديرا محبوبا لكلية الشرطة وعرفه مأمور القسم وأعطاه سيارة لنقلهم جميعا إلى القاهرة حيث اختفوا هناك.

وكان يتصـل بعزيز المصـرى رجل ألمانى عاش فى مصر ويتكلـم العربية، وابن بلد اسمه حسـين جعفر ومعه جاسوس آخر. وقد تسللا إلى مصر عن طريق الصحراء الغربية إلى أسيوط وبالقطار إلى القاهرة. وكان روميل بعد أن سحق الجيش الثامن واستولى على عرباته وملابسه استطاع أن يدفع إلى مصر برجالة فى ملابس وسيارات بريطانية..

واستأجروا عوامة الراقصة حكمت فهمى..

وبدأ الاتصال بعزيز المصرى إلى آخر الأحداث المثيرة المتفجرة المعروفة..

وفـى كل حوادث الاتصال بالألمان أو بعزيز المصرى، أو كل نشـاط معاد للإنجليز لابد أن يأتوا بى من أقصى الصحراء الغربية إلى القاهرة..

ولذلك كانت الأحداث فى ذلك الوقت خيوطا من المطاط تشـدنى وأشـدها، وتسـحبنى وأقاومهـا، وفى النهاية تزيدنى تمسـكا وصلابة. وأجدنى مشـتبكا فى سلاسـل أخرى من الأحداث. وكلها فى النهاية: كيف يمكن الخلاص من الإنجليز ومن الفساد فى مصر..

أمـا السلسـلة الأخرى مـن الأحداث فهـى تبدأ بحرائق مثـيرة فى القاهـرة.. فالقيادة البريطانية التى تسكن عمارة سيف الدين تحرق الأوراق والمستندات، منسحبة إلى الخرطوم. فقد كان زحف روميل وسـحق القوات البريطانية يؤكد أن الإنجليز سـوف ينسحبون أمامه إلى السودان.

واتصل بنا اثنان من الألمان فى نفس الوقت الذى تتحرك فيه المظاهرات فى القاهرة معادية للإنجليز وتهتف: تقدم يا روميل!

وكل شىء فى مصر فى ذلك الوقت يبعث على الخجل ويعمق الشعور بالعار. ولابد من عمل شىء ضد الإنجليز ومن أجل مصر. وتم الاتصال بروميل.

ثم جاءت مهمة الطيار سعودى أو حادث الطيار سعودى. ذلك الحاث المؤسف، الذى أحرق آمالنا فى ذلك الوقت..

وكان الطيار سعودى يعمل معنا. وطلبت إليه أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة.

قلت: يا سعودى.

قال لى: نعم.

قلت: هذه الشنطة تحملها إلى روميل..

ثم حدثته عن مهمته كاملة. فقد كان المطلوب هو أن نساعد الألمان على دخول مصر. ولذلك فقد رسمنا لهم كل المواقع من الجو. وكل المطارات ومخازن الذخيرة. هذه الصور التقطت وتم تحميضها وطبعها، تحت أعين الخبراء الإنجليز دون أن يعرفوا الهدف منها.

أما الطائرة التى ركبها سعودى هذا فكانت من طائرات سلاح الطيران الملكى المصرى من أربعة محركات ومصنوعة من قماش اسمه دوب. وكان لها مدفع أمامى يطلقه الطيار من وراء المحركات. وكانت الاشتباكات الجوية نوعا من اشتباك المظلات. أى لابد للطيار أن يستدير لضرب خصمه من الخلف.

وكان من الضرورى للطيار فى ذلك الوقت، وحتى الآن، أن يظل فى طائرته التى امتلأت بالوقود. فى انتظار أى أمر بالتحرك. ولذلك فالطيار يجلس دائما فى حالة استعداد. وفى ثانية واحدة يكون فى الجو.. وهذا ما يحدث لطيارى الميج والميراج والفانتوم. إنها نفس القواعد. مهما تغيرت الطائرات.

أما هذه الطائرة فقد كانت للطيار حسن إبراهيم، أحد الضباط الأحرار. وكان حسن إبراهيم نوبتجيا. وقد استقلها سعودى وطار بها. وحوكم حسن إبراهيم بجريمة الإهمال. وأدى ذلك إلى تأخير أقدميته وترقيته. ولكنه لم يعلن عن أى شىء.. أما الذى حدث بعد ذلك فهو أن سعودى ارتفع بطائرته. وكان من المفروض أن يهبط فى أحد مطارات الألمان فى العلمين. ولكن الألمان أصابوه. وكان المفروض أن سعودى يخطر الألمان بأنه طيار صديق.

والطريقـة إلى تأكيد هذا المعنى هى أن يحرك أو يهز جناحى الطائرة. فهذه هى الإشـارة المعروفة. ويبدو أنه فعل، ولكنهم لم يروه. أو أنه لم يستطع أن يفعل ذلك. لا نعرف.

ولكن الطائرة أصيبت فاحترقت هى وسـعودى والحقيبة التى كانت تضم الخرائط والصور وجدولا بالترددات اللاسلكية إذا أراد الألمان الاتصال بنا. وقد خفنا أن تقع الحقيبة فى أيدى الإنجليز إذا لم ينجح سعودى فوضعنا فيها كرة من الديناميت.

واحترق كل شىء وفشلت هذه العملية تماما.

وأهم من ذلك مما احترقت به الطائرة: تلك المعاهدة التى كتبتها لروميل أطلب إليه أن يصدق على هذه المعاهدة. ولكى أؤكد له حسن نيتنا نحن الشباب المصرى ونحن الضباط فقد أرسلت له هذه الصور والخرائط كعربون على حسـن نيتنا. ثـم وعدناه بأن نمنع الانجليز من الخروج من مصر لملاقاة الجيش الألمانى ووعدناه أيضا بتجنيد ثلاث أو خمس فرق تحارب الإنجليز..

وقد ذهبت إلى «سـوق القزاز» أى «سـوق الزجاج» – ولم أكن أعرفها مطلقا وإنما هى سوق لبيـع الزجاجات الفارغة بالجملة أى بالألـوف. وأتيت بألوف الزجاجات وملأتها بالبنزين وحولناها إلى قنابل مولوتوف لننسـف البريطانيين وذخائرهم، ونعـوق تقدمهم أو تحركهم فى القاهرة وخارجها تمكينا لروميل وقواته.

وقد قلت لروميل فى هذه المعاهدة إننا مستعدون أن نفعل أى شىء من أجل إخراج الإنجليز واستقلالنا وألا نكون من نصيب الإيطاليين.

فقد كان موسـولينى فى ذلك الوقت يقول: إنه سـوف يدخل مصر من ليبيا التى احتلها، على حصان أبيض.. تماما كما دخل مارك أنطونيو.. وكان موسولينى يقول فى ذلك الوقت: إن عندى ثمانية ملايين حربة موجهة إلى كل اتجاه..

وكان يقول أيضا: إن البحر الأبيض ليس طريقا لملاحة إيطاليا وإنما هو حياة إيطاليا..

أى إنه يريد أن يستولى على كل البلاد التى تطل على البحر الأبيض أو البحيرة الرومانية كما يقول. وهذا هو السلام الرومانى، الذى ينادى به موسولينى..

وعرفت فيما بعد، وفى ذلك الوقت أن موسـولينى كان أصغر بكثير جداً من هذه الضوضاء التـى يحدثهـا فى كل مكان وفى كل مناسـبة. وما أصاب الإيطاليين فـى الصحراء الغربية. جعلنا نؤمن بأن القوة العسـكرية الجبارة فى ذلك الوقـت هى: ألمانيا.. وهى: روميل ثعلب الصحراء!

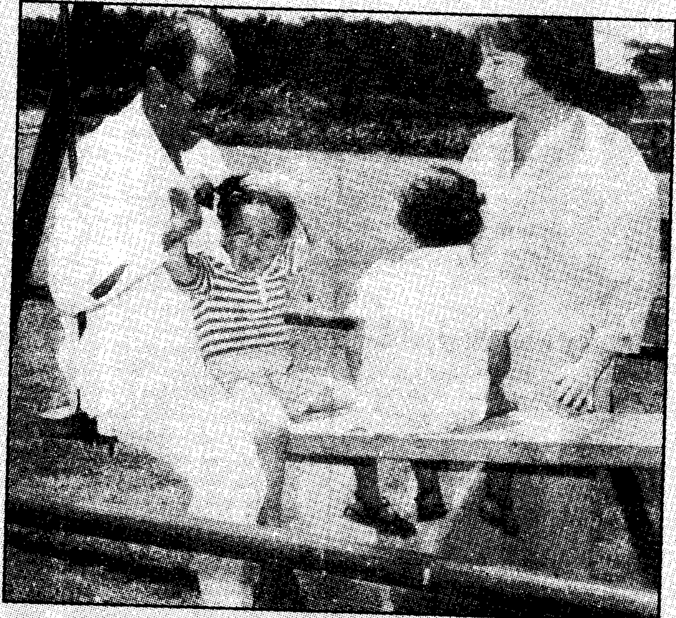
ومن المألوف أن يجيء البوليس ويمســكني ويسجنوني وينقلوني من سجن إلى سجن.. ولم يكن ذلك يدهشــني. وإنما اقتنعت بأن هذه هي الأحجار أو الأشــواك في الطريق الذي رسمه الله لي..

فقد اعتادت أذني على هذه الوجوه التي تهددني واعتادت قدماي على الحجارة والأسلاك واعتادت عيناي على الجدران الكالحة وظلمات الغرف الضيقة والباردة.

ثم كنت في مواجهة هذا كله آوي إلى أعماق.. وكأنني آوي إلى ركن ركين، وإلى مكان أمين. وأجد في نفسي من الهدوء والأمان وراحة الضمير ما يعوضني عن هذا العذاب في خارجي..

هــذا الهدوء العميق في داخلي هــو الذي اسميته قبل ذلك بالشــعور والامتياز.. وبأنني مختلــف عن الآخرين.. وأن هذه هــي إرادة الله. فالحمد لله.. الذي هداني، وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله...

□□□



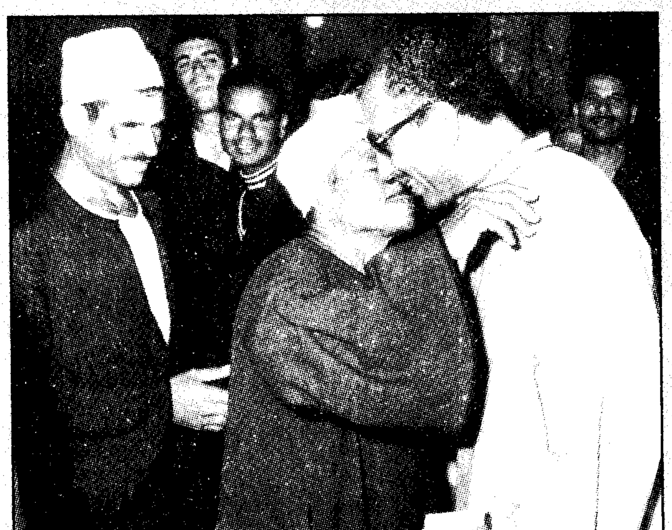
١ - السادات والسيدة قرينته مع حفيديهما .



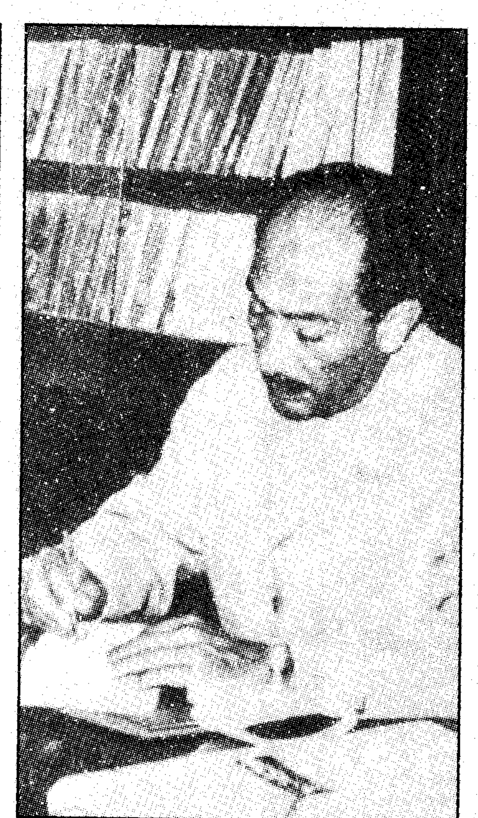
٢ - السادات فى استراحة ميت أبو الكوم .



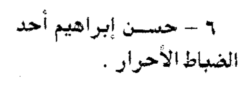
٣ - الرئيس السادات يداعب أحد الأطفال أثناء زيارته لبلدته ميت أبو الكوم .



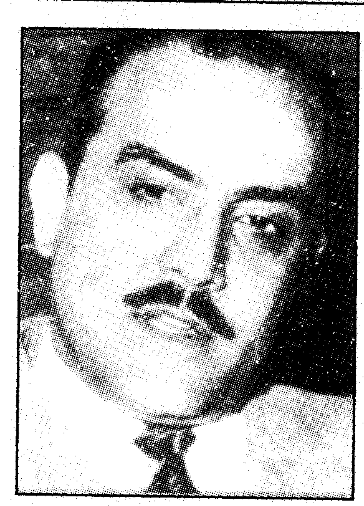
٤ - .. ويعانق أهل قريته .



٥ - الرئيس السادات وقد استغرق في كتابة أوراقه .



٦ - حسن إبراهيم أحد الضباط الأحرار .



الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة

